

الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرسوسي

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجامع لإحكام القرآن

والبين لما تضمنه من الشئ وأي القرآن

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



مؤسسة الرسالة للنشر والطباعة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تلفاكس: ٣٩٠٣١٩ - ١١٢٠١٥٨ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً

قال الشيخ الفقيه، الإمام العالم، العاقل، المحدث، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، ثم القرطبي، تغمَّده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنَّته:

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصَّمَدُ الواحد، الحيُّ القيُّومُ الذي لا يموت، ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام، والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمُنعمُ عليه بالإيمان، والمُرسلُ رسوله بالبيان، محمداً ﷺ، ما اختلفَ المَلَوَان، وتعاقبَ الجديدان^(١)، أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشكِّ واليقين، الذي أعجزتِ الفُصحاءُ معارضةً، وأعيتِ الألباءُ^(٢) مناقضته، وأخرستِ البلغاءُ مُشاكلته^(٣)، فلا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. جعلَ أمثاله عبراً لمن تدبَّرها، وأوامره هُدًى لِمَن استبصرَها، وشرحَ فيه واجباتِ الأحكام، وفَرَّقَ فيه بين الحلالِ والحرامِ^(٤)، وكرَّرَ فيه المواعظَ والقُصَصَ للأفهام، وضربَ فيه الأمثالَ، وقصَّ^(٥) فيه غيبَ الأخبار، فقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. خاطبَ به أوليائه، ففهموا، وبَيَّنَ لهم فيه مُرادَه، فعلموا. فقرأه^(٦) القرآنَ حَمَلَةً سِرًّا الله

(١) الجديدان: الليل والنهار، وكذلك المَلَوَان.

(٢) في (ظ): الألباب.

(٣) في (د) و(ز): وأعيت الألباءُ مشاكلته، وأخرست البلغاء مناقضته.

(٤) في (ز): وقرر فيه رموز الحلال والحرام.

(٥) في النسخ الخطية: ونصَّ، والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): فقرأه.

الْمَكْنُون، وَحَفَظَهُ عَلَيْهِ الْمَخْرُون، وَخَلَفَاءُ أَنْبِيَائِهِ وَأَمَنَّاؤُهُ، وَهُمْ أَهْلُهُ وَخَاصَّتُهُ، وَخَيْرَتُهُ وَأَصْفِيَائُهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَّا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه فِي «سُنَنِهِ»، وَأَبُو بَكْرِ الْبَزَّار فِي «مُسْنَدِهِ»^(١).

فَمَا أَحَقَّ مَنْ عَلِمَ كِتَابَ اللَّهِ أَنْ يَزْدَجِرَ^(٢) بِنَوَاهِيهِ، وَيَتَذَكَّرَ^(٣) مَا شُرِّحَ لَهُ فِيهِ، وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ، وَيَر_اقِبَهُ وَيَسْتَحْيِيهِ. فَإِنَّهُ قَدْ حُمِّلَ أَعْيَاءَ الرُّسُلِ، وَصَارَ شَهِيداً فِي الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ خَالَفَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

أَلَا وَإِنَّ الْحُجَّةَ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ فَاعْغَلَهُ، أَوْ كُذِّمَهَا عَلَى مَنْ قَصَرَ عَنْهُ وَجْهَلَهُ. وَمَنْ أُوتِيَ عِلْمَ الْقُرْآنِ فَلَمْ يَنْتَفِعْ، وَزَجَرَتْهُ نَوَاهِيهِ فَلَمْ يَرْتَدِّعْ، وَارْتَكَبَ مِنَ الْمَآثِمِ قَبِيحاً، وَمِنَ الْجَرَائِمِ فُضُوحاً، كَانَ الْقُرْآنُ حُجَّةً عَلَيْهِ، وَخَصِماً لَدَيْهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ». خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ^(٤).

فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ خَصَّصَهُ اللَّهُ بِحِفْظِ كِتَابِهِ أَنْ يَتْلُوَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَيَتَدَبَّرَ حَقَائِقَ عِبَارَتِهِ، وَيَتَفَهَّمْ عَجَائِبَهُ، وَيَتَبَيَّنْ غَرَائِبَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرَّكًا لِيَذَّبَرُوا ءَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ [محمد: ٢٤]. جَعَلَنَا اللَّهُ مِمَّنْ يَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَيَتَدَبَّرُهُ حَقَّ تَدَبُّرِهِ، وَيَقُومُ بِقِسْطِهِ، وَيُوفِي بِشَرْطِهِ، وَلَا يَلْتَمِسُ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ، وَهَدَانَا لِأَعْلَامِهِ الظَّاهِرَةِ، وَأَحْكَامِهِ

(١) سنن ابن ماجه (٢١٥)، وهو من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه: «أهلين من الناس»، وهو حديث حسن. وليس الحديث في القسم المطبوع من مسند البزار، وهو في مسند أحمد (١٢٢٧٩).
وأبو بكر البزار: هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، ومسنده المذكور (والمسمى بالبحر الزخار) طبع منه أجزاء. توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ٥٥٤/١٣.

(٢) في (ظ): يترجر.

(٣) في (ز) و(ظ): يذكر.

(٤) صحيح مسلم (٢٢٣)، وهو قطعة من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٠٢).

القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خَيْرِي^(١) الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

ثم جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان فيه^(٢) مُجْمَلًا، وتفسير ما كان منه مُشْكِلًا، وتحقيق ما كان له^(٣) مُحْتَمَلًا، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله، ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فصار الكتاب أصلًا، والسنة له بيانًا، واستنباط العلماء^(٤) إيضاحًا وتبينًا. فالحمد لله الذي جعل صدورنا أوعية كتابه، وأذاننا موارد سنن نبيه، وهَمَمْنَا مصروفةً إلى تعلّمهما، والبحث عن معانيهما وغرائبهما، طالبين بذلك رضا رب العالمين، ومندرجين^(٥) به إلى علم الإملة والدين.

وبعد: فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقلّ بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُتَبِّيًا^(٦)، بأن أكتب فيه تعليقًا وجيزًا، يتضمّن نكتًا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والردّ على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيها، ومبينًا ما أشكل منها^(٧)، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف.

(١) في (د) و(ز) و(م): خير، والمثبت من (ظ).

(٢) في (م): منه، وفي (د) و(ز): ما كان صفة منه.

(٣) في (ظ): فيه، وفي (م): منه.

(٤) في (م): واستنباط العلماء له.

(٥) في (م): ومتدرجين.

(٦) المُنْتَبِه، بالضم: القوة. القاموس (منز).

(٧) في (ظ) و(م): معانيهما... منها.

وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي^(١)، وعملاً صالحاً بعد موتي. قال الله تعالى: ﴿يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَ ذَمِّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه^(٢) عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٣).

وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مُصنِّفها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله^(٤). وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مُبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يُقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال، حتى يُضيفه إلى من خرَّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نُشير إلى جُملي من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بُدَّ منه، ولا غنى عنه للتبيين، واعتصت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تُسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فَضَمَّنْتُ كُلَّ آية تتضمَّن حكماً - أو حُكْمين فما زاد - مسائل يَتَبَيَّنُ^(٥) فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير الغريب، والحُكم، فإن لم تتضمن حكماً، ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل. هكذا إلى آخر الكتاب.

وسمَّيته بـ «الجامع لأحكام القرآن، والميّن لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان».

جعلَه الله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به والديّ، ومن أرادَه، بمنّه، إنه سميع

الدعاء، قريبٌ مجيبٌ، آمين.

(١) في القاموس: الرّمس: الدفن، والقبر.

(٢) قوله: عنه، ليس في المطبوع.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٤٤)، ومسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) لكن المصنف رحمه الله لم يلتزم بشرطه هذا، فقد يترك ذلك في بعض الحالات، كما سنشير إليه، على حسب ما يمكننا الوقوف عليه.

(٥) في (م): يَتَبَيَّن.

باب ذكر جمل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه، ومستمعه، والعامل به

إعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نكتاً تدل على فضله، وما أعد الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به.

فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ند، فهو من نور ذاته جل وعز، وأن القراءة أصوات القراء ونعماتهم، وهي أكسابهم^(١) التي يؤمرون بها في حال إيجاباً في بعض العبادات، وندياً في كثير من الأوقات، ويُزجرون عنها إذا جنبوا^(٢)، ويثابون عليها، ويُعاقبون على تركها. وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونظقت به الآثار، ودل عليها المستفيض من الأخبار، ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه.

ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله، ليتدبروه وليعتبروا به، وليتدبروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكت بقله، أو لتضعضعت له. وأتى تطبيقه! وهو يقول - تعالى جدّه وقوله الحق -: ﴿لَوْ أَرَدْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ١؟ فإين قوة القلوب من قوة الجبال ١؟ ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلاً منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب:

فأول ذلك ما خرجه الترمذي، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الرب تبارك وتعالى: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ مَسْأَلَتِي^(٣)، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ

(١) في (د) و(ز): اكتسابهم، وفي (ظ): اكتابهم، والمثبت من (م).

(٢) في (م): اجنبوا، وهما بمعنى، واضطربت العبارة في (د) و(ز).

(٣) في (م): من شغله القرآن وذكرني عن مسألتي.

السائلين». قال: وقُضِلَ كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه. قال: هذا حديث حسن غريب^(١).

وروى أبو محمد الدارمي السمرقندي^(٢) في «مسنده» عن عبد الله قال: السبع الطول مثل التوراة، والميثون مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزبور، وسائر القرآن بعد فضل^(٣).

وأُسند عن الحارث^(٤)، عن علي رضي الله عنه - وخرجه الترمذي^(٥) - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستكونُ فترٌ كقطع الليل المظلم». قلت: يا رسول الله، وما المخرج منها؟ قال: «كتابُ الله تبارك وتعالى، فيه نَبَأٌ مَنْ قَبْلَكُمْ، وخبرُ ما بَعْدَكُمْ، وحُكْمٌ ما بَيْنَكُمْ، هو الفضلُ، ليس بالهزل، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ، قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ، أَضَلَّهُ اللهُ، هو حَبْلُ اللهِ المتينُ، ونوره المبينُ، والذكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَزِيغُ بِهِ^(٦) الأهواءُ، ولا تَلْتَبِسُ بِهِ الألسنةُ، ولا تَتَشَعَّبُ معه^(٧) الآراءُ، ولا يَشْبَعُ منه العلماءُ، ولا يَمْلَأُهُ الأتقياءُ، ولا

(١) سنن الترمذي (٢٩٢٦) بنحوه، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف. وفيه أيضاً محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، وهو ضعيف جداً. وذكر الذهبي هذا الحديث في الميزان ٥١٥/٣ وقال: حسنه الترمذي، فلم يُحسِن. وقوله: فضلُ كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه، ذكره البخاري في خلق أفعال العباد ص ١٩ ومحمد بن نصر المروزي (كما في مختصر قيام الليل ص ٧٥) من قول أبي عبد الرحمن السلمي، وزاد ابنُ نصر نسبته إلى شهر بن حوشب. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦٦/٩: يبين العسكري أنها من قول أبي عبد الرحمن السلمي.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، التميمي، صاحب التصانيف، توفي سنة (٢٥٥هـ). السير ٢٢٤/١٢.
(٣) سنن الدارمي (٣٤٠٠)، وأخرج الإمام أحمد نحوه في المسند (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً، وإسناده حسن.

وسيتكلم المصنف على السبع الطول، والمثاني، آخر الباب الأول من سورة الفاتحة، وفي تفسير الآية (٨٧) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

(٤) سنن الدارمي (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). الحارث: هو ابنُ عبد الله الأعور، الهمداني.

(٥) سنن الترمذي (٢٩٠٦)، وهو في مسند أحمد (٧٠٤).

(٦) في (ظ): فيه.

(٧) في (د) و(ز): به.

يَخْلُقُ^(١) عن^(٢) كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمِعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قَوْلَ آتَا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، من عَلِمَ عِلْمَهُ سَبَقَ، وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرَ^(٣).

الحارث: رماه الشعبي^(٤) بالكذب، وليس بشيء، ولم يَبْنِ مِنَ الحارث كَذِبَ، وإنما نُقِمَ عليه إفراطه في حُبِّ عليٍّ وتفضيله له على غيره. ومن هاهنا - والله أعلم - كَذَبَ الشعبي^(٥)، لأن الشعبيَّ يذهبُ إلى تفضيل أبي بكر، وإلى أنه أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ. قال أبو عمر بن عبد البر^(٦): وأظنُّ الشعبيَّ عُوقِبَ لقوله في الحارث الهمداني: حدَّثني الحارث، وكان أحدَ الكذابين.

وأَسَدُ أبو بكر محمد بنُ القاسم بنِ بشار بن محمد الأنباري^(٧) النحويُّ اللغويُّ في كتاب «الردِّ»^(٨) على مَنْ خالف مصحفَ عثمان، عن عبد الله بن مسعود قال: قال

(١) قال النووي في التبيان في الفصل العاشر منه: يَخْلُقُ، بضم اللام، ويجوز فتحها، والياء فيهما مفتوحة، ويجوز ضم الياء مع كسر اللام، يقال: خَلَقَ الشيء، وَخَلَقَ، وَخَلَقَ: إذا بَلَى.

(٢) في (م): على.

(٣) حديث ضعيف، فقد أعلَّه الترمذي بقوله: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وانظر علل الدارقطني ١٣٧/٣.

(٤) هو عامر بن شراحيل بن عبد، أبو عمرو الهمداني، رأى عليًّا رضي الله عنه وصلى خلفه، وروى عن عدد من الصحابة. توفي سنة (١٠٤هـ). السير ٢٩٤/٤.

(٥) وكذَّبه أيضا أبو إسحاق، وعلي ابنُ المديني، وضَعَفَ أبو زرعة، وأبو حاتم، وابنُ عدي، والدارقطني. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال في موضع آخر: ليس به بأس. وثَقَّه ابنُ مَعِين، وأحمد بن صالح المصري. كذا في التهذيب ٢٦٤/٢.

(٦) في جامع بيان العلم ص ٤٤٥ وتام القصة فيه. وابنُ عبد البر: هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، أبو عمر، النَّمَرِيُّ، الأَنْدَلِسِيُّ، القُرْطُبِيُّ، المالِكِيُّ، صاحب التمهيد والاستذكار وغيرهما. توفي سنة (٤٦٣هـ). السير ١٥٣/١٨.

(٧) كذا نسبه القرطبي، والذي في أغلب المصادر: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن، وهو من أئمة القراءة والأدب، توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ٢٧٤/١٥. وكتاب الرد الذي ذكره المصنف له لم يصلنا، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٨٢، وياقوت في معجم الأدباء ٣١٣/١٨، والداودي في طبقات المفسرين ٢٢٩/٢، وغيرهم.

(٨) في النسخ الخطية: الرد له، والمثبت من (م).

رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَادُّبَةٌ اللَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَادُّبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ، النُّورُ الْمُبِينُ»^(١)، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ^(٢) تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ^(٣) اتَّبَعَهُ، لَا يَغْوُجُ فَيَقُومُ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، فَاتْلُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرْكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي^(٤) لَا أَقُولُ: «الْم» حَرْفٌ، وَلَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ وَاضِعاً إِحْدَى رِجْلَيْهِ يَدْعُو أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنْ أَصْفَرَ الْبَيُوتَ لَجُوفٌ أَصْفَرُ مِنْ^(٥) «كَتَابِ اللَّهِ»^(٥).

وقال أبو عبيد في «غريبه»^(٦) عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مَادُّبَةٌ اللَّهِ، فَمَنْ دَخَلَ فِيهِ فَهُوَ آمِنٌ. قال: وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ، شَبَّهَ الْقُرْآنَ بِصَنِيعِ صَنَعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ، لَهُمْ فِيهِ خَيْرٌ وَمَنَافِعٌ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهِ. يقال: مَادُّبَةٌ وَمَادُّبَةٌ، فَمَنْ قَالَ: مَادُّبَةٌ، أَرَادَ الصَّنِيعَ يَصْنَعُهُ الْإِنْسَانُ، فَيَدْعُو إِلَيْهِ النَّاسُ. وَمَنْ قَالَ: مَادُّبَةٌ، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ

(١) في (م): وهو النور المبين.

(٢) في (د) و(ز) و(م): من، والمثبت من (ظ).

(٣) في (ظ): ألا إني، وفي (د): أما أنا.

(٤) في (م): وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من . . .

(٥) اختلف في رفعه ووقفه، والصواب أنه موقوف من قول ابن مسعود رضي الله عنه فيما ذكر الدارقطني وغيره. وقوله: «اتْلُوهُ»، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: «الْم حرف» له حكم المرفوع، لأنه مما لا يقال بال رأي، وسيكرره المصنف بنحوه قريباً (ص ١٤). وقوله: «إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» له شاهد صحيح من حديث أبي هريرة رفعه: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» أخرجه مسلم (٧٨٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢١). وسنورد بعض أهم مصادر الحديث إجمالاً (دون تفصيل فيمن أخرجه بتامه، أو مقطعاً، أو مرفوعاً، أو موقوفاً، بنية الاختصار)، فهو عند عبد الرزاق في مصنفه (٥٩٩٣) و (٥٩٩٨) و (٦٠١٧)، وأبي عبيد في فضائل القرآن ص ٢١ و ٢٥ و ٢٦ و ٣٢، وابن أبي شيبة ١٠/٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٨٢ - ٤٨٣ و ٤٨٤ و ٤٨٦، والستادرمسي (٣٣٠٧) و (٣٣٠٨) و (٣٣١٥) و (٣٣٢٢) و (٣٣٧٥) و (٣٣٧٧) و (٣٣٧٩)، والترمذي (٢٩١٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٣٣ - ١٠٧٣٥)، والدارقطني في العلل ٣٢٦/٥، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤٥).

(٦) غريب الحديث ١٠٧/٤ - ١٠٨. وأبو عبيد: هو القاسم بن سلام، وله من الكتب أيضاً: الأموال، وفضائل القرآن، والظهور، وغيرها. توفي بمكة سنة (٢٢٤هـ). السير ١٠/٤٩٠.

به إلى الأدب، يجعله «مفعلة» من الأدب، ويحتج بحديثه الآخر: «إن هذا القرآن مآذبة الله عز وجل، فتعلموا من مآذبه». وكان الأحمر^(١) يجعلهما^(٢) لغتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحداً يقول هذا غيره. والتفسير الأول أعجب إليّ. وروى البخاري عن عثمان بن عفان، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٣).

وروى مسلم، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها، وطعمها حلو»^(٤)، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة، لا ريح لها، وطعمها مر. وفي رواية: «مثل الفاجر بدل «المنافق»»^(٥).

وقال البخاري: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، ويعمل به كالأترجة»^(٦)، طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة» وذكر الحديث^(٧).

وذكر أبو بكر الأنباري: وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا هشيم (ح) وأنبأنا إدريس، حدثنا خلف، حدثنا هشيم، عن العوام بن حوشب، أن أبا عبد الرحمن السلمي، كان إذا ختم عليه الخاتم القرآن،

(١) هو علي بن المبارك، وقيل: علي بن الحسن، شيخ العربية، تلميذ الكسائي. توفي سنة (١٩٤هـ). سير اعلام النبلاء ٩٢/٩.

(٢) في (ظ): يجعلها.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٢٧)، وهو في مسند أحمد (٤١٢).

(٤) في (ظ): طيب.

(٥) صحيح مسلم (٧٩٧)، وهو في مسند أحمد (١٩٥٤٩). قوله: الأترجة، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦٦/٩: هو بضم الهمزة والراء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة، وقد تخفف، ويزاد قبلها نون ساكنة، ويقال بحذف الألف مع الوجهين.

(٦) في (م): يقرأ القرآن كمثل الأترجة.

(٧) صحيح البخاري (٥٠٥٩).

أجلّسه بين يديه، ووضع يده على رأسه، وقال له: يا هذا، اتقِ الله، فما أعرفُ أحداً خيراً منك إن عمِلْتَ بالذي عَلِمْتَ.

وروى الدارمي، عن وهب الدماري^(١) قال: مَنْ آتاهُ الله القرآنَ، فقام به آتاءَ الليل، وآتاءَ النهار، وعَمِلَ بما فيه، وماتَ على الطاعة، بعثه الله يومَ القيامة مع السَّفَرَةِ والأحكام. قال سعيد^(٢): السَّفَرَةُ: الملائكة، والأحكام: الأنبياء^(٣).

وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفَرَةِ الكرامِ البرّة، والذي يقرأُ القرآنَ ويتَتَعَتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجران»^(٤). التَّتَعَتُعُ: التردُّدُ في الكلامِ عيًّا وصعوبة، وإنما كان له أجرانِ من حيثِ التلاوة، ومن حيثِ المشقّة. ودرجاتُ الماهر فوق ذلك كلّهُ، لأنه قد كان القرآنُ مُتَعَتَعاً عليه، ثم تَرَفَّى عن ذلك إلى أن شُبّه بالملائكة. والله أعلم^(٥).

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأَ حَرْفاً مِنْ كتابِ الله، فله به حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بعَشْرِ أمثالها، لا أقول «الم» حَرْفٌ، ولكن أَلِفٌ حَرْفٌ، ولا مٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ». قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، غريبٌ من هذا الوجه، وقد رُوِيَ موقوفاً^(٦).

وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال: خرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحن في الصُّفّة، فقال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أو إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِيْمٍ، وَلَا قِطِيعَةٍ^(٧) رَجِمَ؟». فقلنا: يا رسول الله، كُلُّنَا نَحِبُّ ذَلِكَ، قال: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمَ، أو يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

(١) هو وهب بن منبه، أبو عبد الله، الصنعاني، يروي الكثير من الإسرائيليات، مات سنة (١١٠هـ). وقيل: سنة (١١٤هـ). السير ٥٤٤/٤.

(٢) في النسخ الخطية: سعد، وهو خطأ، وهو سعيد بن عبد العزيز التنوخي، أحد رجال السند.

(٣) هو في سنن الدارمي (٣٣٦٩) باتم منه، وهو مقطوع.

(٤) صحيح مسلم (٧٩٨)، وهو أيضاً عند البخاري (٤٩٣٧)، وفي مسند الإمام أحمد (٢٤٢١١).

(٥) المفهم ٤٢٥/٢.

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٠)، وقد ذكره المصنف مطولاً ص ١١ - ١٢.

(٧) في (م): قطع.

خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ^(٢) بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(٣).

وروى أبو داود، والنسائي، والدارمي، والترمذي، عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ». قال الترمذي: حديث حسن غريب^(٤).

وروى الترمذي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يَجِيءُ صَاحِبُ الْقُرْآنِ^(٥) يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقول: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجُ الْكَرَامَةِ، ثم يقول: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةُ الْكَرَامَةِ، ثم يقول: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ، فيقال له: اقْرَأْ، وارْقُ، ويزاد بكل آية حسنة». قال: حديث صحيح^(٦).

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لصَاحِبِ

(١) صحيح مسلم (٨٠٣)، وهو في مسند أحمد (١٧٤٠٨). قوله: بَطْحَان والعقيق: هما واديان بظاهر المدينة. وقوله: «كُومَاوَيْن»: هو مشى كوما، يعني الناقة العظيمة السنام.

(٢) في (م): أَبْطَأَ.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٩٩)، وهو في مسند أحمد (٧٤٢٧).

(٤) سنن أبي داود (١٣٣٣)، والسنن الصغرى للنسائي ٣/٢٢٥ و ٨٠/٥ والكبرى (١٣٧٨) و (٢٣٥٣).

وسنن الترمذي (٢٩١٩)، ولم نجده عند الدارمي، وهو في مسند أحمد (١٧٣٦٨).

(٥) كذا في النسخ الخطية، وتحفة الأحوذى ٨/٢٢٧. ووقع في مطبوع الترمذي وعارضة الأحوذى ١١/٣٧ وتحفة الأشراف ٩/٤٢٨: يجيء القرآن.

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٥).

القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل كما كنت تُرتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(١).

وأخرجه ابن ماجه في «سننه» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ، واضعد، فيقرأ، ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»^(٢).

وأُسند أبو بكر الأنباري عن أبي أمامة الحمصي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ ثُلُثَ القرآن، فقد أُعْطِيَ ثُلُثَ النبوة، وَمَنْ أُعْطِيَ ثُلُثَ القرآن، فقد أُعْطِيَ ثُلُثِي النبوة، وَمَنْ قرأ القرآن كله، فقد أُعْطِيَ النبوة كلها، غير أنه لا يُوحى إليه، ويُقال له يوم القيامة: اقرأ، وارتق، فيقرأ آية، ويصعد درجة، حتى يُنجز ما معه من القرآن، ثم يقال له: اقْبِضْ، فيقبض، ثم يقال له: اقْبِضْ، فيقبض»^(٣)، ثم يقال له: أتدري ما في يديك؟ فإذا في يده اليمنى الخُلْدُ، وفي اليسرى النعيم»^(٤).

حدثنا إدريس، عن خَلْف^(٥)، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن تَمَّام، عن

(١) سنن أبي داود (١٤٦٤)، وهو في مسند أحمد (٦٧٩٩).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٧٨٠)، وهو في مسند أحمد (١١٣٦٠).

(٣) قوله: «ثم يقال له: اقْبِضْ، فيقبض» لم يكرر في (م) و(د)، وهو ثابت في (ظ) و(ز) والمصادر، وجاء عند الأنباري وغيره: فيقبض بيده، بزيادة لفظ: «بيده» في الموضعين.

(٤) هو عند أبي بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١١، وعنده: «من قرأ» بدل: «من أُعْطِيَ» في كل المواضع. وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ١٨٧ - ١٨٨، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ - ٤٤١، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٨٩)، وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٨٣، من طريق بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة، به. وبشر بن نمير، قال فيه ابن حبان: منكر الحديث جداً. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وأخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن (١٤)، والرازي (٤٩)، من طريق مسلمة بن عُليّ الحُسَني، عن زيد بن واقد، عن مكحول، عن أبي أمامة. ومسلمة بن عُليّ متروك، ومكحول لم يثبت له سماع من أبي أمامة.

(٥) تحرف في النسخ (م) إلى: حدثنا إدريس بن خلف، والصواب ما أثبتناه. إدريس: هو ابن عبد الكريم الحداد، شيخ ابن الأنباري، وخَلْف: هو ابن هشام بن ثعلب البغدادى، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سليم، عن حمزة. طبقات القراء ١/ ١٥٤ و ٢٧٢ - ٢٧٣.

الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَعَمِلَ بِهِ، فَقَدْ أَخَذَ أَمْرَ ثُلُثِ^(١) النَّبُوَّةِ، وَمَنْ أَخَذَ نِصْفَ الْقُرْآنِ، وَعَمِلَ بِهِ، فَقَدْ أَخَذَ أَمْرَ نِصْفِ^(٢) الثُّبُوءِ، وَمَنْ أَخَذَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، فَقَدْ أَخَذَ النَّبُوَّةَ كُلَّهَا»^(٣).

قال: وحدثنا محمد بن يحيى المروزي، أخبرنا محمد - وهو ابن سعدان - حدثنا الحسين^(٤) بن محمد، عن حفص، عن كثير بن زاذان، عن عاصم بن ضمرة، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَلَاهُ وَحَفِظَهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَشَقَّعَهُ فِي عَشْرَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلُّ قَدْ وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ»^(٥).

وقالت أم الدرداء^(٦): دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقلت لها: ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: إن عدد أي القرآن على عدد درج الجنة، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن. ذكره أبو محمد مكي^(٧).

وقال ابن عباس: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ، هَدَاهُ اللَّهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

(١) في (ظ): ثلث أمر.

(٢) في (د) و(ز): أخذ نصف.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٩٢)، وهو مرسل. تمام: هو ابن نجيج الأسدي. والحسن: هو البصري.

(٤) في (د) و(ز): الحسن.

(٥) إسناده ضعيف. حفص - وهو ابن سليمان الأسدي، القاري، صاحب عاصم - ضعيف الحديث، وكثير بن زاذان: مجهول. وأخرجه أحمد (١٢٦٨)، والترمذي (٢٩٠٥)، وابن ماجه (٢١٦). قال الترمذي: ليس إسناده بصحيح. اهـ. وقد روي من وجه آخر عن عائشة، وهو منكر. تاريخ بغداد ٨١/٤ و٤٣٠ و٣٩٥/١١.

(٦) مُجِيْمَةُ بنت حبي الأوصائية الحميرية، الدمشقية، وهي أم الدرداء الصغرى، اشتهرت بالعلم والعمل والزهد، وليس لها صحبة، ماتت بعد سنة (٨١هـ). السير ٢٧٧/٤.

(٧) في الرعاية ص ٦٤، ومكي: هو ابن أبي طالب، أبو محمد القيسي، القيرواني، ثم القرطبي، المقرئ، صاحب التصانيف، توفي سنة (٤٣٧هـ). السير ٥٩١/١٧.

وأخرجه ابن أبي شيبة ٤٦٦/١٠، وابن نصر المروزي كما في مختصر قيام الليل ص ٧٤، والآجري في أخلاق حملة القرآن (١١)، من طريق أم الدرداء، به.

وَلَا يَشْقَى ﴿١﴾ [طه: ١٢٣]. قال ابن عباس: فَضَمِنَ اللهَ لِمَن اتَّبَعَ الْقُرْآنَ أَلَّا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ. ذكره مكِّي أيضاً^(٢).

وقال الليث^(٣): يُقَالُ: مَا الرَّحْمَةُ إِلَى أَحَدٍ بِأَسْرَعٍ مِنْهَا إِلَى مُسْتَمِعِ الْقُرْآنِ، لِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. و«لَعَلَّ» مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةٌ^(٤).

وفي «مُسْنَد» أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ^(٥) - وَهُوَ أَوَّلُ مُسْنَدٍ أُلْفَ فِي الْإِسْلَامِ^(٦) - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ، لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِثْلِ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ الْقَائِمِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ، كُتِبَ مِنَ الْمُقْنِطَرِينَ»^(٧). والآثار في معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يُكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك

روى البخاريُّ عن قتادة^(٨) قال: سألتُ أنساً عن قراءةِ رسولِ الله ﷺ، فقال: كان

(١) الرعاية ص ٦٤، وأخرجه عبد الرزاق (٦٠٣٣)، وابن أبي شيبة ٤٦٧/١٠، وابن نصر المروزي كما في مختصر قيام الليل ص ٧٦، والحاكم ٣٨١/٢. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) في الرعاية ص ٦٤ و٦٥، وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٧١/١٣، وابن نصر المروزي ص ٧٦، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٨٤).

(٣) ابن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث الفهمي، عالم الديار المصرية، مات سنة (٧٥هـ). السير ١٣٦/٨. الرعاية ص ٦٦.

(٤) سليمان بن داود بن الجارود، الفارسي، ثم الأسدي، الحافظ، مات سنة (٢٠٤هـ). السير ٣٧٨/٩.

(٥) في هذا الكلام نظراً؛ قال السيوطي في تدريب الراوي ١٩٠/١: قيل: الذي حمل قائل هذا القول عليه تقدّم عصر أبي داود في أعصار مَنْ صَنَّفَ المسانيد، فظنَّ أنه هو الذي صَنَّفَهُ، وليس كذلك، فإنما هو من جمع بعض الحفاظ الخُراسانيِّين، جمع فيه ما رواه يونس بن حبيب خاصة عنه، ويشبه هذا مسند الشافعي، فإنه ليس تصنيفه، وإنما لقطه بعض الحفاظ النيسابوريِّين من مسموع الأصم من الأم، وسمعه عليه.

(٦) لم نجده في مسند الطيالسي، وأخرجه أبو داود السجستاني (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٥٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٩٤)، وهو حديث حسن.

(٨) هو ابنُ دِعامَةَ، أبو الخطّاب السدوسي، البصري، الضرير، قدوة المفسرين والمحدثين. مات سنة (١١٧هـ). السير ٢٦٩/٥.

يَمْدُ مَدًّا. [ثم] قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَمْدُ بِسْمِ اللَّهِ، وَيَمْدُ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمْدُ بِالرَّحِيمِ^(١).

وروى الترمذي عن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ^(٢)، يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ثُمَّ يَقِفُ، «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثُمَّ يَقِفُ، وَكَانَ يَقْرَأُ^(٣): «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ». قَالَ: حَدِيثٌ غَرِيبٌ^(٤). وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بَنَحْوِهِ^(٥).

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَحْسَنُ النَّاسِ صَوْتًا مَنْ إِذَا قَرَأَ^(٦)، رَأَيْتَهُ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى»^(٧).

وَرُوِيَ عَنْ زِيَادِ النَّمِيرِيِّ أَنَّهُ جَاءَ مَعَ الْقُرَّاءِ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَقِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ وَطَرَّبَ، وَكَانَ رَفِيعَ الصَّوْتِ، فَكَشَفَ أَنَسٌ عَنْ وَجْهِهِ - وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ

(١) صحيح البخاري (٥٠٤٥) و (٥٠٤٦) وفيه: «يَمْدُ بِبِسْمِ اللَّهِ» واستدركنا لفظة «ثم» منه. وهو في مسند أحمد (١٢١٩٨). وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٩١/٩ أن المراد بمد القراءة المد الأصلي (يعني الطبيعي).

(٢) في (ظ): القراءة.

(٣) في (م): يقرأها.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٢٧)، وهو في مسند أحمد (٢٦٤٥١) و (٢٦٥٨٣).

(٥) سنن أبي داود (٤٠٠١).

(٦) في (ظ): قرأ القرآن.

(٧) حديث ضعيف. أخرجه عبد بن حُميد في المنتخب (٨٠٢)، والبخاري (٢٣٣٦) (زوائد)، وابن نصر المروزي - كما في مختصر قيام الليل ص ٥٩ - والطبراني في الأوسط (٢٠٩٥)، وابن عدي في الكامل ٦٩٣/٢، وتَمَامُ الرَّازِي في فوائده (١٣١٩) (الرَّوَضُ البَسَامُ)، وأبو الفضل الرَّازِي في فضائل القرآن (٢٤)، والخَطِيبُ في تاريخ بغداد ٢٠٨/٣ من حديث ابن عمر. وأخرجه ابنُ ماجه (١٣٣٩)، والآجُرِّي في أخلاق حَمَلَةَ القرآن (٨٩) من حديث جابر. وأخرجه ابن عدي ٦٩٣/٢، وأبو نُعَيْم في الحلية ١٩/٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٤٥) من حديث ابن عباس. وأخرجه أبو نُعَيْم أيضاً في أخبار أصبهان ٥٨/٢ من حديث عائشة، وأخرجه ابنُ المبارك في الزهد (١١٣)، وعبد الرزاق (٤١٨٥)، وابن سلام في فضائل القرآن ص ٨٠، وسعيد بن منصور في تفسيره (٤٧)، وابن أبي شيبه ٤٦٤/١٠، والدارمي (٣٤٨٩)، وابن عدي ٦٩٣/٢، والبيهقي (٢١٤٦) من حديث طاووس مرسلاً. وأخرجه ابن المبارك (١١٤)، والآجري (٩٠) من حديث الزهري مرسلاً. قال ابن عدي: والصحيح مرسل عن طاووس.

خِرْقَةً سوداء - فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئاً يُنكره، كشف الخِرْقَةَ عن وجهه^(١).

وروي عن قيس بن عُبَاد^(٢) أنه قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الذكر^(٣).

وممن روي عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن: سعيد بن المُسَيَّب^(٤)، وسعيد بن جُبَيْر^(٥)، والقاسم بن محمد^(٦)، والحسن^(٧)، وابن سيرين^(٨)، والنخعي^(٩)، وغيرهم^(١٠).

وكرهه مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، كلهم كره رفع الصوت بالقرآن، والتطريب فيه.

وروي عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس، فطرب في قراءته، فأرسل إليه سعيد يقول: أصلحك الله، إن الأئمة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التطريب بعد^(١١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٦٦/١٠، وزیاد الثمیری - وهو ابن عبد الله - ضعيف.

(٢) القيسي، البصري، قدم المدينة في خلافة عمر. وهو من رجال التهذيب.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٤٧)، وابن أبي شيبة ٥٣٠/١٠.

(٤) أبو محمد القرشي، المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، مات سنة (٩٤هـ). السير ٢١٧/٤.

(٥) أبو محمد الأسدي، الوالبي، مولاهم، الكوفي، الحافظ، المفسر، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ). السير ٣٢١/٤.

(٦) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، القرشي، التميمي، المدني، الحافظ، أحد فقهاء المدينة. مات سنة (١٠٦هـ). السير ٥٣/٥.

(٧) ابن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، مات سنة (١١٠هـ). السير ٥٦٣/٤.

(٨) محمد، أبو بكر الأنصاري، البصري، مولى أنس بن مالك، مات سنة (١١٠هـ). السير ٦٠٦/٤.

(٩) إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران النخعي، اليماني، ثم الكوفي، فقيه العراق. مات سنة (٩٦هـ). السير ٥٢٠/٤.

(١٠) فضائل القرآن لابن سلام ص ٨٢ - ٨٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٥٣٠/١٠.

(١١) مصنف عبد الرزاق ٤٨٤/٢.

وروي عن القاسم بن محمد أن رجلاً قرأ في مسجد النبي ﷺ، فَطَرَّبَ، فأنكر ذلك القاسمُ، وقال: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْبَاطِلِ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴿[فصلت: ٤١-٤٢] الآية (١).

وروي عن مالك أنه سُئل عن النَّبْرِ في قراءة القرآن^(٢) في الصلاة، فأنكر ذلك، وكرهه كراهةً شديدة، وأنكر رفع الصوت به.

وروى ابنُ القاسم^(٣) عنه، أنه سُئل عن الألحان في الصلاة، فقال: لا يُعجبني، وقال: إنما هو غناءٌ يَتَغَنُّونَ به لِيَأْخُذُوا عليه الدَّراهم.

وأجازت طائفةٌ رفع الصوت بالقرآن، والتطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسَنَ الصوت به، كان أوقع في النفوس، وأسمع في القلوب.

واحتجوا بقوله عليه السلام: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» رواه البراء بن عازب. أخرجه أبو داود والنسائي^(٤). ويقول عليه السلام: «ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن». أخرجه مسلم^(٥). ويقول أبي موسى للنبي ﷺ: لو أعلم^(٦) أنك تستمع لقراءتي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْظِيراً^(٧). وبما رواه عبدُ الله بن مُعَفَّل قال: قرأ رسولُ الله ﷺ عامَ الفَتْحِ في مسير له سورةَ الفتح على راحلته، فَرَجَعَ في قراءته^(٨).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٦٦/١٠.

(٢) يعني رفع الصوت به.

(٣) هو عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد الله العتقي مولاهم، المصري، صاحب مالك، عالم الديار المصرية ومفتيها، توفي سنة (١٩١هـ). سير أعلام النبلاء ١٢٠/٩.

(٤) سنن أبي داود (١٤٦٨)، والسنن الصغرى للنسائي ١٧٩/٢، وهو في مسند أحمد (١٨٤٩٤)، وهو حديث صحيح.

(٥) ليس في صحيح مسلم، وأخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١٤٧٦)، وأبو داود (١٤٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٦) في (ظ): علمت.

(٧) قطعة من حديث أخرجه ابن حبان (٧١٩٧). وأصل الحديث في صحيح البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، وأخرجه أحمد (٨٦٤٦) من حديث أبي هريرة.

(٨) أخرجه أحمد (١٦٧٨٩)، والبخاري (٥٠٤٧)، ومسلم (٧٩٤)، وسيذكر المصنف معنى الترجيع في القراءة ص ٣٠.

وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه، والشافعي، وابن المبارك^(١)،
والنضر بن شميل^(٢)، وهو اختيار أبي جعفر الطبري^(٣)، وأبي الحسن بن بطلال^(٤)،
والقاضي أبي بكر بن العربي^(٥)، وغيرهم.
قلت: القول الأول أصح لما ذكرناه، ويأتي.

وأما ما احتجوا به من الحديث الأول، فليس على ظاهره، وإنما هو من باب
المقلوب، أي: زَيَّنُوا أصواتكم بالقرآن.

قال الخطابي^(٦): وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث: زَيَّنُوا أصواتكم
بالقرآن، وقالوا: هو من باب المقلوب، كما قالوا: عَرَضْتُ الناقة على الحوض،
وإنما هو: عَرَضْتُ الحَوْضَ على النَّاقَةِ^(٧). قال: ورواه معمر، عن منصور، عن
طلحة، فقدَّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح.

قال الخطابي: ورواه طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء أن
رسول الله ﷺ قال: «زَيَّنُوا القرآن بأصواتكم»^(٨). أي: الهَجُّوا بقراءته، واشغَلُوا به

(١) هو عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن الحنظلي، المروزي، الحافظ، عالم زمانه، توفي سنة (١٨١هـ). السير ٣٧٨/٨.

(٢) أبو الحسن المازني، البصري، الحافظ، نزيل مرو وعالمها، توفي سنة (٢٠٤هـ) السير ٣٢٨/٩.

(٣) محمد بن جرير، صاحب التفسير، والتاريخ، وتهذيب الآثار. توفي سنة (٣١٠هـ). السير ٢٦٧/١٤.

(٤) هو علي بن خلف بن بطلال القرطبي، يعرف بابن اللُّجَام، شارح صحيح البخاري، توفي سنة (٤٤٩هـ).
السير ٤٧/١٨.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي، الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، له: عارضة الأحوزي في
شرح جامع الترمذي، وأحكام القرآن. توفي سنة (٥٤٣هـ). السير ١٩٧/٢٠.

(٦) في معالم السنن ١/٢٩٠. والخطابي: هو أبو سليمان، حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بن إبراهيم، البُستِي، الحافظ،
اللغوي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٣٨٨هـ). السير ٢٣/١٧.

(٧) اضطربت العبارة في (ز)، ووقعت مقلوبة في (م) والتذكُّار للمصنف ص ١٤٨. والمثبت من (ظ) و(د)،
وهو الموافق لمعالم السنن ١/٢٩٠، وانظر الصحاح واللسان (عرض).

(٨) كذا قال القرطبي، وهو وهم منه رحمه الله، فإن الخطابي بعد أن أشار إلى رواية طلحة، وذكر أن فيها
تقديم الأصوات على القرآن، أخرج روايته، فقال: أخبرنا محمد بن هاشم، حدثنا الدَّبَرِي، عن عبد
الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء أن رسول الله ﷺ
قال: «زَيَّنُوا أصواتكم بالقرآن». فجعلهما القرطبي روايتين، وقال أيضاً: «زَيَّنُوا القرآن بأصواتكم»،
وصوابه في هذا الموضع لفظ: «زَيَّنُوا أصواتكم بالقرآن».

أصواتكم، واتخذوه شعاراً وزينة.

وقيل: معناه الحَضُّ على قراءة القرآن والدُّؤوب عليه. وقد رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «زَيَّنُوا أصواتكم بالقرآن»^(١).
ورُوِيَ عن عمر أنه قال: حَسَّنُوا أصواتكم بالقرآن^(٢).

قلتُ: وإلى هذا المعنى يرجعُ قولُه عليه السلام: «ليس منَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن». أي: ليس منَّا من لم يُحَسِّن صَوْتَه بالقرآن، كذلك تأوَّلَه عبدُ الله بنُ أبي مُلَيْكَةَ^(٣). قال عبد الجبار بنُ الورد: سمعتُ ابنَ أبي مُلَيْكَةَ يقول: قال عُبيد الله^(٤) بن أبي يزيد: مرَّ بنا أبو لُبَابَةَ^(٥)، فاتبَعناه حتى دخلَ بيته، فإذا رجلٌ رَثُّ الهيئَةِ، فسمعته يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس منَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن». قال: فقلتُ لابنِ أبي مُلَيْكَةَ: يا أبا محمد، أرايتَ إذا لم يكن حَسَنُ الصوت ؟ قال: يُحَسِّنُهُ ما استطاع. ذكره أبو داود^(٦).

وإليه يرجع أيضاً قولُ أبي موسى للنبي ﷺ: إني لو علمتُ أنَّكَ تستمعُ لقراءتي، لَحَسَّنْتُ صوتي بالقرآن، وزَيَّنْتُه به^(٧)، ورَتَّلْتُهُ. وهذا يدلُّ أنه كان يَهْدُ في قراءته^(٨) مع حُسْنِ الصوت الذي جُبِلَ عليه. والتَّحْبِيرُ: التزيين والتَّحْسِين. فلو علم

(١) لم نجده بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة، إنما أخرج ابنُ حبان (٧٥٠) حديثَ أبي هريرة بلفظ حديث البراء المذكور أعلاه: «زَيَّنُوا القرآن بأصواتكم». وأخرج عبد الرزاق عن معمر (٤١٧٦) لفظاً: «زَيَّنُوا أصواتكم بالقرآن» من حديث البراء أيضاً، وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرک ١/ ٥٧١ و ٥٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٦٤.

(٣) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَةَ، أبو بكر وأبو محمد، القرشي، التميمي، المكي، القاضي، توفي سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٨٨.

(٤) وقع في (م): عبد الله، وفي (ز): عبد الحق، والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الصواب.

(٥) هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، صحابي مختلف في اسمه، فقيل: اسمه بَشِير، وقيل: رفاعَة، مات في خلافة علي رضي الله عنه، وقيل غير ذلك. الإصابة ١١/ ٣٢٢.

(٦) سنن أبي داود (١٤٧١).

(٧) لفظة: به، من (د) و(ز).

(٨) أي: يسرع فيها. القاموس (هذ).

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْمَعُهُ، لَمَدَّ فِي قِرَاءَتِهِ، وَرَتَّلَهَا، كَمَا كَانَ يَقْرَأُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،
 فَيَكُونُ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي حُسْنِ صَوْتِهِ بِالْقِرَاءَةِ. وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَأَوَّلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْقُرْآنَ يُزَيَّنُ بِالْأَصْوَاتِ، أَوْ بغيرها، فَمَنْ تَأَوَّلَ هَذَا، فَقَدْ وَقَعَ أَمْرًا
 عَظِيمًا أَنْ يُخَوِّجَ الْقُرْآنَ إِلَى مَنْ يُزَيِّنُهُ، وَهُوَ التُّورَ وَالضِّيَاءُ، وَالزَّيْنُ^(١) الْأَعْلَى لِمَنْ
 أَلْبَسَ بِهِجَتَهُ، وَاسْتَنَارَ بِضِيَائِهِ.

وقد قيل: إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا، وتقدير ذلك
 أي: زينوا القراءة بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ
 الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءة الفجر، وقوله: ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ لَهُ﴾ [القيامة: ١٨]
 أي: قراءته. وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: إن في البحر
 شياطينَ مَسْجُونَةٍ، أو ثَقَمَا سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ، فَتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ
 قُرْآنًا^(٢). أي: قراءة.

وقال الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُنوانِ السَّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا^(٣)
 أي: قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحاً، إلا أن يُخْرِجَ الْقِرَاءَةَ - الَّتِي
 هِيَ التَّلَاوُذُ - عَنْ حَدِّهَا - عَلَى مَا نَبَّيْنَهُ - فَيَمْتَنِعُ.

وقد قيل: إن معنى «يَتَغَنَّى بِهِ»: يَسْتَغْنِي بِهِ، مِنَ الْإِسْتِغْنَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْإِفْتِقَارِ،
 لَا مِنَ الْغِنَاءِ؛ يُقَالُ: تَغَنَّىْتُ وَتَغَانَيْتُ، بِمَعْنَى: اسْتَغْنَيْتُ. وَفِي «الصَّحاحِ»: تَغَنَّى
 الرَّجُلُ، بِمَعْنَى اسْتَغْنَى، وَأَغْنَاهُ اللَّهُ. وَتَغَانَوْا، أَي: اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ. قَالَ

(١) في النسخ الخطية: الدين، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١٢/١. وهو موقوف على ابن عمرو رضي الله عنهما، وكان قد رَوَى عَنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ فِي السِّيرِ ٨١/٣، وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمَفْهَمِ ١٢٠/١: هَذَا
 وَنَحْوُهُ لَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ، بَلْ بِالسَّمْعِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الصَّحَابَةَ إِنَّمَا تَسْتَدُّ فِي هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ،
 مَعَ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص ٤٦٩. قوله: الْأَشْمَطُ، يَعْنِي الْمَخْتَلَطُ سَوَادُ شَعْرِهِ بَيَاضُ.

المغيرة بن حَبْناء التميمي^(١) وأجاد^(٢) :

كَلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا^(٣)
وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنَةَ، ووَكَيْع بنُ الْجَرَّاح^(٤)، ورواه سفيان عن
سعد بن أبي وقاص^(٥).

وقد رُوي عن سفيان أيضاً وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهَوِيَه^(٦)، أي: يستغني به
عما سواه من الأحاديث.

وإلى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى:
﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾^(٧) [المنكسوت: ٥١]. والمراد
الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم. قاله أهل التأويل.

وقيل: إن معنى يتغنى به: يتحزّن به، أي: يظهرُ على قارئه الحُزُنُ - الذي هو ضدُّ
الشُّرُور - عند قراءته وتلاوته، وليس من الغُنية؛ لأنه لو كان من الغُنية لقال: يَتَغَانِي

(١) من شعراء الدولة الأموية، له مدائح في المهلب بن أبي صفرة وطلحة الطلحات. الشعر والشعراء ٤٠٦/١ والأغاني ٨٤/١٣.

(٢) قوله: وأجاد، من (ظ).

(٣) نسبه صاحب اللسان إلى المغيرة بن حَبْناء، ونسبه المبرّد في الكامل ٢٧٦/١ - ٢٧٧ إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ونقله عنه البغدادي في شرح أبيات المغني ٢٦٦/٤، وذكر في ٢٧٠/٤ أن هذا البيت وقع في عدة أشعار لشعراء. وأوردتهم.

(٤) أخرجه عنهما أبو داود (١٤٧٢). وسفيان بن عيينة: هو أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، انتهى إليه علو الإسناد، توفي سنة (١٩٨هـ). السير ٤٥٤/٨.

ووَكَيْع بن الجراح: هو أبو سفيان الرُّوَاسِي، محدث العراق، له كتاب الزهد. توفي سنة (١٩٧هـ). السير ١٤٠/٩.

(٥) رواية سفيان لحديث سعد بن أبي وقاص عند أبي داود (١٤٧٠)، ورواية وكيع لحديث سعد عند أحمد (١٤٧٦)، وجاء أيضاً تفسير سفيان للتغني بالاستغناء في صحيح البخاري إثر روايته لحديث أبي هريرة (٥٠٢٨): «ما أذن الله لشيء...».

(٦) هو إسحاق بن إبراهيم، أبو يعقوب، سيد الحفاظ، صاحب المسند، وراهويه لقبٌ لُقّب به أبوه، لأنه ولد في طريق مكة، توفي سنة (٢٣٨هـ). السير ٣٥٨/١١.

(٧) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، ولفظ الترجمة: باب من لم يتغن بالقرآن. وينظر الفتح ٦٨/٩.

به، ولم يقل: يتغنّى به. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، منهم الإمام أبو [حاتم] محمد بن جَبَّان البُستي^(١).

واحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِير عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يُصَلِّي، ولصدره أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ^(٢). الأَرِيزُ، بزايين: صَوْتُ الرُّعْدِ وَغَلِيَانُ الْقَدَرِ. قالوا: ففي هذا الخبر بيانٌ واضحٌ على أن المراد بالحديث التَّحْزُنُ. وَعَضَّدُوا هذا أيضاً بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لي^(٣) النبي ﷺ: «اقرأ عليّ». فقرأتُ عليه سورة النساء، حتَّى إذا بلغتُ^(٤): ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٤١] فنظرتُ إليه، فإذا عيناه تَدَمَّعَانِ^(٥).

فهذه أربَعُ تأويلات، ليس فيها ما يدلُّ على القراءة بالألحان والترجيع فيها.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي^(٦) في قوله ﷺ: «ليس منّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» قال: كانت العرب تُولِّعُ بالغِنَاءِ والنَّشِيدِ في أكثر أقوالها، فلمَّا نزلَ القرآن، أُحِبُّوا أن يكون القرآنُ هِجْيراًهم^(٧) مكان الغِنَاءِ، فقال: «ليس منّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٨).

التَّأْوِيلُ الخامس: ما تَأَوَّلَهُ مَنْ اسْتَدَلَّ به على التَّرْجِيعِ والتَّطْرِيبِ، فذكر عمرُ بن شَبَّةٍ^(٩) قال: ذكرتُ لأبي عاصم النَّبِيلِ^(١٠) تأويلَ ابنِ عُيَيْنَةَ في قوله: «يتغنّى»:

(١) في صحيحه بإثر الحديث (٧٥١) (الإحسان). وابنُ جَبَّان: هو الإمام الحافظ شيخ خراسان، توفي بسجستان سنة (٣٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ٩٢/١٦.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٢١)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي ١٣/٣، وهو حديث صحيح.

(٣) لفظة: لي، من (ز) و(ظ).

(٤) في (د): حتَّى بلغت.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٠٦)، والبخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

(٦) أحمد بن زياد، أبو سعيد، المحدث، نزيل مكة وشيخ الحرم، صنف المعجم في الحديث، وطبقات النساك وغيرهما، توفي سنة (٣٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ٤٠٧/١٥.

(٧) يعني دأبهم وشأنهم.

(٨) نقل الخطابي كلام ابن الأعرابي هذا في معالم السنن ٢٩١/١.

(٩) أبو زيد النميري البصري النحوي، الحافظ، نزيل بغداد، له تاريخ المدينة وأخبار الكوفة وغيرهما، توفي سنة (٢٦٢هـ). السير ٣٦٩/١٢.

(١٠) هو الضُّعَاك بن مَخْلَد البصري، أجلُّ شيوخ البخاري وأكبرهم، توفي سنة (٢١٢هـ). السير ٤٨٠/٩.

يستغني، فقال: لم يصنع ابنُ عِيْنَةٍ شيئاً.

وسئل الشافعي عن تأويل ابنِ عِيْنَةٍ، فقال: نحن أعلمُ بهذا، لو أراد النبي ﷺ الاستغناء، لقال: مَنْ لم يَسْتَغْنِ، ولكن لما قال: «يَتَغْنَى»^(١)، علمنا أنه أراد التَغْنَى.

قال الطبري: المعروف عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حُسْنُ الصوت بالترجيع. وقال الشاعر:

تَغْنَى بِالشُّعْرِ مَهْمَا كُنْتَ قَائِلَهُ إِنَّ الْغِنَاءَ لِهَذَا^(٢) الشُّعْرُ مِضْمَارُ^(٣)

قال: وأما ادِّعَاءُ الرَّاعِمِ أَنَّ «تَغْنَيْتُ» بمعنى «اسْتَغْنَيْتُ» فليس في كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحداً من أهل العلم قاله. وأما احتجاجه بقول الأعشى^(٤):

وَكُنْتُ أَمْرًا زَمَنًا بِالْعِرَاقِ عَفِيفَ الْمُنَاخِ طَوِيلَ التَّغْنِ^(٥)

وزعم أنه أراد الاستغناء، فإنه غَلَطَ منه، وإنما عَنِ الأعشى في هذا الموضع الإقَامَةَ، من قول العرب: غَنِيَ فلانٌ بمكان كذا، أي: أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]. وأما استشاده بقوله:

وَنَحْنُ إِذَا مِثْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

فإنه إغفالٌ منه، وذلك أَنَّ التَّغَانِيَّ تفاعلٌ من نَفْسَيْنِ، إذا استغنى كلُّ واحدٍ منهما عن صاحبه، كما يقال: تضاربَ الرَّجُلَانِ: إذا ضَرَبَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبه. ومن قال هذا في فعل الاثنين، لم يَجْزُ أن يقول مثله في الواحد، فغير جائز أن يقال: تغاني زيد، وتضاربَ عمرو. وكذلك غيرُ جائز أن يُقال: تغنى، بمعنى: استغنى.

قلت: ما ادِّعَاهُ الطبري من أنه لم يَرِدْ في كلام العرب تَغْنَى بمعنى: استغنى، فقد

(١) في (م): يتغن، وفي (ظ): يتغنى به.

(٢) في (م): بهذا.

(٣) قائله حسان، كما في شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١٠، وهو في اللسان وتاج العروس (غنى).

(٤) هو ميمون بن قيس، أبو بصير، شاعر جاهلي قديم، أدرك الإسلام في آخر عمره، ولم يسلم، ويُسمى

صنّاجة العرب. الشعر والشعراء ١/ ٢٥٧.

(٥) ديوانه ص ٧٥، قوله: المُنَاخ، يعني محل الإقامة.

ذكره الجوهري^(١) كما ذكرنا، وذكره الهروي^(٢) أيضاً.

وأما قوله: إِنَّ صِيغَةَ فاعِلٍ إِنَّمَا تَكُونُ مِنْ اثْنَيْنِ، فَقَدْ جَاءَتْ مِنْ وَاحِدٍ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا قَوْلُ ابْنِ عَمْرٍ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الْإِحْتِلَامَ^(٣). وتقول العرب: طَارَقَتِ النَّعْلَ، وَعَاقَبَتِ اللَّصَّ، وَدَاوَيْتُ الْعَلِيلَ. وهو كثير، فيكون «تَعَانَى» مِنْهَا. وَإِذَا احْتَمَلَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَتَغَنَّ» الْغِنَاءَ وَالِاسْتِغْنَاءَ، فَلَيْسَ حَمْلُهُ عَلَى أَحَدِهِمَا بِأَوَّلَى مِنَ الْآخِرِ، بَلْ حَمْلُهُ عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ أَوَّلَى، لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا تَأْوِيلٌ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ مَرْوِيٌّ عَنْ صَحَابِيٍّ كَبِيرٍ، كَمَا ذَكَرَ سَفِيَانٌ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ^(٤) فِي حَقِّ سَفِيَانٍ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا^(٥) أَعْلَمَ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ مِنْ سَفِيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ رَأَى الشَّافِعِيَّ وَعَاصَرَهُ.

وتأويلٌ سادس: وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّي حَسَنَ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»^(٦).

قال الطبري: ولو كان كما قال ابنُ عُيَيْنَةَ، لَمْ يَكُنْ لِدِكْرِ حُسْنِ الصَّوْتِ وَالْجَهْرِ بِهِ مَعْنَى.

(١) إسماعيل بن حماد، أبو نصر الفارابي، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، قيل: إنه اختلط في آخر عمره، ومات متردياً من سطح داره بنيسابور في حدود سنة أربع مئة. السير ٨٠/١٧.

(٢) في غريب الحديث ١٦٩/٢ - ١٧٢.

(٣) كذا وقع في النسخ: ابن عمر، ولم نجد هذا القول له فيما بين أيدينا من مصادر، وسيكرره المصنف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَكَسَلُمُ الْإِنْسَاءُ﴾ [النساء: ٤٣]. وهذا القول مروي عن ابن عباس فيما أخرجه أحمد (٣١٨٥)، والبخاري (٧٦)، ومسلم (٥٠٤) من حديثه قال: أقبلك راكباً على أتان، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، ورسول الله ﷺ يصلي بالناس بمنى، فمررت بين يدي الصف، فنزلت، فأرسلت الأتان ترتع، ودخلت في الصف، فلم ينكر ذلك علي أحد.

(٤) هو عبد الله بن وهب بن مسلم، أبو محمد الفهري مولا هم، المصري الحافظ، لقي بعض صغار التابعين، له: الجامع، وتفسير غريب الموطأ، توفي سنة (١٩٧هـ). السير ٢٢٣/٩.

(٥) قوله: أحداً، من (ز) و(ظ).

(٦) صحيح مسلم (٧٩٢) (٢٣٣)، وعنى المصنف بالزيادة قوله: يجهر به. والحديث في صحيح البخاري (٥٠٢٣) بلفظ: «لَمْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّي أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ». وقال صاحب له: يريد: يجهر به. وهو في مسند أحمد (٧٨٣٢).

قلنا: قوله: «يَجْهَرُ بِهِ» لا يخلو^(١) أن يكون من قول النبي ﷺ، أو من قول أبي هريرة، أو غيره، فإن كان الأوّل - وفيه بُعد - فهو دليل على عدم التطريب والترجيع، لأنّه لم يقل: يُطَرَّبُ بِهِ، وإنما قال: يَجْهَرُ بِهِ، أي: يُسَمِعُ نَفْسَهُ وَمَنْ يَلِيهِ، بدليل قوله عليه السلام للذي سمعهُ وقد رفع صوته بالتَّهْلِيل: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا» الحديث، وسيأتي^(٢). وكذلك إن كان من صحابي أو غيره، فلا حُجَّةَ فِيهِ^(٣) على ما رَأَوْهُ. وقد اختار هذا التأويل بعضُ علمائنا^(٤)، فقال: وهذا أشبه، لأن العرب تُسمِّي كلَّ مَنْ رفع صوته ووالى به غانياً، وَفَعَلَهُ ذَلِكَ غِنَاءً، وإن لم يُلْحِثْهُ بتلحين الغناء. قال: وعلى هذا فَسَّرَهُ الصَّحَابِيُّ، وهو أعلم بالمقال، وأقعدُ بالحال.

وقد احتجَّ أبو الحسن بن بَطَّال لمذهب الشافعي، فقال: وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابنُ أبي شيبة قال: حدثنا زيدُ بنُ الحُبَاب، قال: حدثنا موسى بن عُلي بن رباح، عن أبيه، عن عُقْبَةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَغَنُّوا بِهِ، وَاكْتُبُوهُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَضُّلاً مِنَ الْمَخَاضِ مِنَ الْعُقُلِ»^(٥).

قال علماؤنا^(٦): وهذا الحديث، وإن صَحَّ سَنَدُهُ، فبرُدُّهُ مَا يُعْلَمُ^(٧) على^(٨) القَطْع والبتات^(٩) من أنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بَلَّغَتْنا متواترةً عن كافة المشايخ، جِيلاً فَجِيلاً إِلَى الْعَصْرِ الْكَرِيمِ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وليس فيها تلحين، ولا تطريب، مع كثرة

(١) في (ظ): لا يخلو إماماً.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥٢٠)، والبخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري، وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

(٣) في (ظ): لهم.

(٤) المفهم ٤٢٣/٢.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٥٠٠/٢، وفيه: «واتلوه»، بدل: «وغنوا»، وهو في مسند أحمد (١٧٣١٧)، وفيه: «وتغنوا». وهو حديث صحيح. قوله: تَفَضُّلاً أي: خروجاً. النهاية (فصي).

(٦) المفهم ٤٢٢/٢.

(٧) في (ظ): نعلم.

(٨) في (د) و(ز): من.

(٩) في (ظ): البيان، وفي (ز) و(د): الثبات، والمثبت من (م).

المتعمقين في مخارج الحروف، وفي المدّ والإدغام والإظهار، وغير ذلك من كيفية القراءات.

ثم إنَّ في التَّرجيع والتَّطريب هَمَزٌ ما ليس بمهموز، ومدٌّ ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات، والشَّبهَةُ الواحدة شُبُهَات^(١)، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نَبَرٍ وهَمَزٍ، صَيَّرُوهُمَا^(٢) نَبَرَاتٍ وَهَمَزَاتٍ. والنَّبَرَةُ حيثُما وقعت من الحروف، فإنما هي همزة واحدة لا غير، إمَّا ممدودة وإمَّا مقصورة.

فإن قيل: فقد روى عبدُ الله بنُ مُعَقَّلٍ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ في مسير له سورةَ الفتح على راحلته، فرجَّع في قراءته، وذكره البخاري، وقال في صفة التَّرجيع: آ، آ، آ، ثلاث مرات^(٣). قلنا: ذلك محمولٌ على إشباع المدِّ في موضعه. ويحتمل أن يكون حِكَايَةً صَوْتِهِ عند هَزِّ الرَّاحِلَةِ. كما يعتري رافعَ صوته إذا كان راكباً من انضغاطِ صوته وتقطيعه لأجل هَزِّ المركوبِ. وإذا احتمل هذا، فلا حُجَّةَ فيه.

وقد خرَّج أبو محمد عبدُ الغني بنُ سعيد الحافظ^(٤) من حديث قتادة، عن عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بَكْرَةَ^(٥)، عن أبيه قال: كانت قراءةُ رسولِ الله ﷺ المدَّ، ليس فيها ترجيع^(٦).

(١) يريد: الحروف، كما صرح به ص ١٠٨، باب ذكر معنى السورة والآية.

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): صيروها، والمثبت من (د).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٤٧) و(٧٥٤٠)، وسلف ص ٢١ - ٢٢.

(٤) محدث الديار المصرية، له كتاب المؤلف والمختلف، توفي سنة (٤٠٩هـ). السير ١٧/٢٦٨.

(٥) تحرف في (ظ) و(د) و(م) إلى: أبي بكر، والمثبت من (ز)، وهو الصواب.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٤٤)، وابنُ عدي في الكامل ٧/٢٥٤٤ (في ترجمة الوليد بن القاسم الهمداني)، وفي إسناده عمر بن موسى، المعروف بابن وجيه. قال ابن عدي: يضع الحديث. وأورده الذهبي في ميزانه ٤/٣٤٤ (في ترجمة الوليد المذكور) وقال: تفرد به عمر، وهو متهم. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير! فتعقبه المناوي في «الفيض» ٥/١٧٣ بقوله: وليس كما ظن، فقد قال الهيثمي [في المجمع ٢/٢٦٦]: فيه عمر بن وجيه، وهو ضعيف. اهـ وقد وجه ابن الأثير هذه الرواية في النهاية ٢/٢٠٢، فقال: وجهه أنه لم يكن حينئذ راكباً، فلم يحدث في قراءته الترجيع. قلنا: وقد صحَّ من حديث أنس رضي الله عنه أن قراءة النبي ﷺ كانت مدّاً، فيما أخرجه أحمد (١٢٢٨٣)، والبخاري (٥٠٤٦) وغيرهما، وسلف ص ١٨ - ١٩.

وروى ابنُ جُرَيْجٍ^(١)، عن عطاء^(٢)، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذُنٌ يُطَرَّبُ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَذَانَ سَهْلٌ سَمَحٌ، فإذا كان أذانُك سمحاً سهلاً، وإلا، فلا تُؤذِّنْ». أخرجه الدارقطني^(٣) في «سننه»^(٤). فإذا كان النبي ﷺ قد منع ذلك في الأذان، فأحرى ألا يُجَوِّزَه في القرآن الذي حفظه الرحمن، فقال - وقوله الحق -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قلت: وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن، بترديد الأصوات، وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه، فذلك حرامٌ باتفاق، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرؤون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضلَّ سعيُّهم، وخابَ عملُهم، فيستحلُّون بذلك تغييرَ كتابِ الله، ويهوئونَ على أنفسهم الاجتراءَ على الله، بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه، جهلاً بدينهم، ومروقاً عن سنة نبيِّهم، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعاً إلى ما يُزينُ لهم الشيطانُ من أعمالهم ﴿وَمَنْ يَحْسَبْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، فهم في غيِّهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، فلنا لله وإنا إليه راجعون، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر ﷺ: ذكر الإمام الحافظ أبو الحسن^(٥) رزين^(٦)، وأبو عبد الله الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول»^(٧)، من حديث خذيفة أن

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد القرشي، الإمام، وهو أول من دَوَّن العلم بمكة. توفي سنة (١٥٠هـ). السير ٣٢٥/٦.

(٢) هو عطاء بن أبي رباح، أبو محمد القرشي، مفتي الحرم، مات سنة (١١٥هـ). السير ٧٨/٥.

(٣) علي بن عمر بن أحمد، أبو الحسن البغدادي، الحافظ، صاحب التصانيف، منها: السنن، والعلل، مات سنة (٣٨٥هـ). السير ٤٤٩/١٦.

(٤) ٨٦/٢، وفي إسناده إسحاق بن أبي يحيى الكعبي الراوي عن ابن جُرَيْج، قال الذهبي في الميزان ٢٠٥/١: هالكٌ يأتي بالمتاكير عن الأثبات، وذكر له هذا الحديث.

(٥) في (م): أبو الحسين، وهو خطأ.

(٦) هو رزين بن معاوية بن عمار، العبدي، الأندلسي، السرقسطي، المحدث، له كتاب تجريد الصحاح. توفي سنة (٥٣٥هـ). السير ٢٠٤/٢٠.

(٧) ص ٣٣٤، والحكيم الترمذي: هو محمد بن علي بن الحسن، له مصنفات وحكم ومواعظ، قدم نيسابور وحدث بها سنة (٢٨٥هـ)، توفي نحو سنة (٣٢٠هـ). السير ٤٣٩/١٣.

رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن بلُحُونِ العرب وأصواتها، وإياكم ولُحُونُ أهلِ العِشْقِ^(١)، ولُحُونُ^(٢) أهلِ الكتّابين، وسَيَجِيءُ بعدي قومٌ يُرْجِعُونَ بالقرآنِ ترجيعَ الغناء والنَّوح، لا يُجاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ، وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ». اللُّحُونُ: جَمْعُ لَحْن، وهو التَّطْرِيبُ، وَتَرْجِيعُ الصَّوْتِ، وتحسينُهُ، بالقراءة والشعر والغناء^(٣).

قال علماؤنا: وَيُشَبِّهُ أن يكونَ هذا الذي يفعله قراءُ زماننا بين يَدَيِ الوُعَاظِ، وفي المجالس، من اللُّحُونِ الأعجمية التي يقرؤون بها ما نَهَى عنه رسولُ الله ﷺ. والترجيُّعُ في القراءة: ترديدُ الحروف، كقراءة النصارى. والترتيلُ في القراءة: هو التَّائِي فيها، والتَّمْهَلُ، وَتَبْيِينُ الحروف والحركات، تشبيهاً بالثَّغْرِ المُرْتَلِّ، وهو المُشَبَّه بَنُورِ الأَقْحُوَان، وهو المطلوب في قراءة القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤].

وسُئِلْتُ أُمُّ سَلَمَةَ عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، فقالت: مالكم وصلاته؟ ثم نَعَتَتْ قراءته، فإذا هي تَنَعَتْ قراءةً مُفَسَّرَةً حَرْفاً حَرْفاً. أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب^(٤).

بابُ تحذيرِ أهلِ القرآن والعلم من الرِّياء وغيره

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. روى مُسلمٌ عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُنْبِئُ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قال: فما عَمِلَتْ

(١) في فضائل أبي عبيد، وشُعْبُ الإِيْمَان، والعلل المتناهية: الفُسُق.

(٢) في (ظ): وترجع.

(٣) حديث ضعيف، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٨٠، والطبراني في الأوسط (٧٢١٩)، وابنُ عدي في الكامل ٥١٠/٢ - ٥١١، والبيهقي في شُعْبُ الإِيْمَان (٢٦٤٩) و(٢٦٥٠)، وابنُ الجوزي في العِلل المتناهية (١٦٠). وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) سنن النسائي ١٨١/٢ و٢١٤/٣، وسنن أبي داود (١٤٦٦)، وسنن الترمذي (٢٩٢٣)، وهو في المسند

فيها ؟ قال : قاتلتُ فيكَ حتَّى استشهدتُ . قال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيَقَالَ^(١) : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ .

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَتَيْ بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا . قال : فما عَمِلْتَ فيها ؟ قال : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ . قال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ^(٢) قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ .

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأَتَيْ بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قال : فما عَمِلْتَ فيها ؟ قال : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ . قال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ^(٤) .

وقال الترمذي في هذا الحديث : ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِي ، فقال : «يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ ، تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥) . أبو هريرة : اسمُهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وقيل : عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وقال : كُنْتُ أبا هريرة لأنِّي حَمَلْتُ هِرَّةً فِي كُمِّي ، فرأني رسولُ اللَّهِ ﷺ فقال : «ما هذه» ؟ قلت : هِرَّةٌ ، فقال : «يا أبا هريرة»^(٦) .

قال ابنُ عبدِ البرِّ : وهذا الحديثُ فيمنَ لَمْ يُرِدْ بِعَمَلِهِ وَعِلْمِهِ وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى^(٧) . وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٨) .

(١) في (م) : لأن يقال .

(٢) كلمة هو ، ليس في (د) .

(٣) في (ظ) : حتَّى .

(٤) صحيح مسلم (١٩٠٥) ، وهو في المسند برقم (٨٢٧٧) .

(٥) سنن الترمذي (٢٣٨٢) .

(٦) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي هريرة ١٧١/١٢ (بهاشم الإصابة) .

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٢٤٠ .

(٨) أخرجه الترمذي (٢٦٥٥) ، والنسائي في الكبرى (٥٨٧٩) ، وابن ماجه (٢٥٨) ، وابن عدي في الكامل

١٨٢٧/٥ من طريق خالد بن ذريك عن ابن عمر . قال الترمذي : حديث حسن غريب . اهـ وإسناده

منقطع ، فقد ذكر الجزِّي في تهذيب الكمال أن خالد بن ذريك روى عن عبد الله بن عمر ولم يدركه .

وخرَجَ ابنُ المُبارك في «رقائقه»^(١) عن العَبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَظْهَرُ هَذَا الدِّينُ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبَحَارَ، وَحَتَّى تُخَاضَ الْبِحَارُ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثُمَّ يَأْتِي أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَإِذَا قَرَّوْهُ قَالُوا: مَنْ أَقْرَأَ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمَ مِنَّا؟» ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ فِي أَوْلَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «أَوْلَئِكَ مِنْكُمْ، وَأَوْلَئِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». يعني ربحها. قال الترمذي: حديث حسن^(٢).

وروى عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحَزَنِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا جُبُّ الْحَزَنِ؟ قَالَ: «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، تَتَعَوَّدُ مِنْهُ جَهَنَّمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلَ مَرَّةٍ». قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَدْخُلُهُ؟ قَالَ: «الْقُرَاءُ الْمَرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ». قال: هذا حديث غريب^(٣).

وفي كتاب أسد بن موسى^(٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِيًا، إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَتَعَوَّدُ مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الْوَادِي كُلِّ»^(٥) يَوْمَ سَبْعِ مَرَّاتٍ، وَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْوَادِي لَجُبًّا، إِنَّ جَهَنَّمَ وَذَلِكَ الْوَادِي، لَيَتَعَوَّدُونَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الْجُبِّ^(٦)، وَإِنَّ فِي ذَلِكَ^(٧) الْجُبِّ

(١) الزهد والرفائق (٤٥٠)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٥ - ١٨٦ وقال: فيه موسى بن عبيدة الرُّبَيْذِي، وهو ضعيف.

(٢) سنن أبي داود (٣٦٦٤)، وليس في سنن الترمذي كما ذكر المصنف، انظر تحفة الأشراف ١٠/ ٧٧ - ٧٨. وهو في المسند برقم (٨٤٥٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٣٨٣)، وفي إسناده أبو معان (ويقال: أبو معاذ) وهو مجهول، وعمار بن سيف وهو ضعيف. تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٥.

(٤) هو أبو سعيد القرشي الأموي، ذو التصانيف، ويقال: هو أول من صنف المسند. توفي سنة (٢١٢هـ). السير ١٠/ ١٦٢.

(٥) في (م): في كل.

(٦) في (ظ): زيادة: سبع مرات.

(٧) في (م): وإن في الجب.

لَحِيَّةً، وَإِنْ جَهَنَّمَ وَالْوَادِيَّ وَالْجُبَّ لَيَتَعَوَّدُونَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ تِلْكَ الْحَيَّةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْأَشْقِيَاءِ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، الَّذِينَ يَعْصُونَ اللَّهَ»^(١).

فَيَجِبُ عَلَى حَامِلِ الْقُرْآنِ وَطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ، وَيُخْلِصَ الْعَمَلَ لِلَّهِ. فَإِنْ كَانَ تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ، فَلْيُبَادِرِ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَلْيَبْتَدِئِ الْإِخْلَاصَ فِي الْطَلَبِ^(٢) وعمله. فالذي يلزم حامل القرآن من التَّحْفِظِ أَكْثَرُ مِمَّا يلزم غيره، كما أنَّ له من الأجر ما ليس لغيره، روى الترمذي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ - أَوْ أَوْحَى إِلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ -: قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسْوَكَ الْكِبَاشِ، وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذُّنَابِ، أَلَسَنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ، إِيَّايَ يُخَادِعُونَ وَبِي يَسْتَهْزِؤُونَ؟! لَا تَيْحَنَنَّ لَهُمْ فِتْنَةٌ تَذُرُّ الْحَلِيمَ فِيهِمْ خَيْرَانِ»^(٣).

وخرَّج الطَّبْرِي فِي كِتَابِ «آدَابِ النَّفُوسِ»^(٤): حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا الْمُحَارَبِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ الْبَجَلِيِّ، عَنْ ابْنِ صَدَقَةَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ مَنْ حَدَّثَهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُخَادِعِ اللَّهَ، فَإِنَّهُ مَنْ يُخَادِعِ اللَّهَ، يَخْدَعُهُ اللَّهُ، وَنَفْسُهُ يَخْدَعُ لَوْ يَشْعُرُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُخَادِعُ اللَّهُ؟ قَالَ: «تَعْمَلُ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، وَتَطْلُبُ بِهِ غَيْرَهُ، وَاتَّقُوا الرِّيَاءَ فَإِنَّهُ الشُّرْكُ، وَإِنَّ الْمُرَائِيَّ يُدْعَى

(١) وذكره مكِّي فِي الرِّعَايَةِ ص ٧٤، وَقَدْ نَقَلَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَهْذِيبِهِ عَنْ ابْنِ يُونُسَ قَوْلَهُ فِي أَسَدِ بْنِ مُوسَى: حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ مُنْكَرَةٍ، وَأَحْسَبُ الْآفَةَ مِنْ غَيْرِهِ.

(٢) فِي (د): التَّوْبَةُ.

(٣) لَمْ يَخْرُجْهُ التِّرْمِذِيُّ، إِنَّمَا أَخْرَجَ نَحْوَهُ (٢٤٠٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَفِي إِسْنَادِهِ يَحْيَى بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَهُوَ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ، وَبِرَقْمِ (٢٤٠٥) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍ، وَفِي إِسْنَادِهِ حُمَزَةُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ (الَّذِي أَوْرَدَهُ الْمُصَنِّفُ) فَقَدْ أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ ص ٢٢٩، وَفِي إِسْنَادِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَهُوَ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ أَيْضًا. وَمِثْلُ هَذِهِ الطَّرِيقِ لَا تَقْوَى بِبَعْضِهَا، فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ.

(٤) ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ فِي سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ١٤/٢٧٤ أَنَّ لِلطَّبْرِيِّ كِتَابَ تَرْتِيبِ الْعُلَمَاءِ، ابْتَدَأَهُ بِآدَابِ النَّفُوسِ، وَلَمْ يَنْتَهَ، وَذَكَرَ لَهُ صَاحِبُ هَدْيَةِ الْعَارِفِينَ ٦/٢٧ كِتَابَ الْآدَابِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَخْلَاقِ النَّفِيسَةِ، وَلَعَلَّهُ هُوَ.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ يُنْسَبُ إِلَيْهَا: يَا كَافِرَ، يَا خَاسِرَ،
يَا غَادِرَ، يَا فَاجِرَ، ضَلَّ عَمَلُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ، فَلَا خَلَاقَ لَكَ الْيَوْمَ، فَالْتَمِسْ أَجْرَكَ
مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعَ^(١).

وَرَوَى عَلْقَمَةُ^(٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبَسْتُمْ^(٣) فِتْنَةَ يَرْبُو
فِيهَا الصَّغِيرَ، وَيَهْرُمُ الْكَبِيرَ، وَتَتَّخِذُ سُنَّةَ مُبْتَدِعَةٍ، يَجْرِي عَلَيْهَا النَّاسُ، فَإِذَا غَيَّرَ مِنْهَا
شَيْءٌ قِيلَ: قَدْ غَيَّرَ السُّنَّةَ. قِيلَ: مَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَ
قُرْأُوكُمْ، وَقَلَّ فُقُهَآؤُكُمْ، وَكَثُرَ أَمْرَاؤُكُمْ، وَقَلَّ أَمَنَآؤُكُمْ، وَالتُّمِسَتْ^(٤) الدُّنْيَا بِعَمَلِ
الْآخِرَةِ، وَتُفْقَهُ لِعَيْرِ الدِّينِ^(٥).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: بَلَّغْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ أَخَذُوهُ
بِحَقِّهِ وَمَا يَنْبَغِي، لِأَحَبِّهِمْ اللَّهُ، وَلَكِنْ طَلَبُوا بِهِ الدُّنْيَا، فَأَبْغَضَهُمُ اللَّهُ، وَهَانُوا عَلَى
النَّاسِ^(٦).

وَرَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ^(٧) فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ

(١) المحاربي - وهو عبد الرحمن بن محمد - وثقه ابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: يروي عن
المجهولين أحاديث منكورة. (كذا في التهذيب). وعمرو بن عامر البجلي؛ قال الحافظ في التقریب:
مقبول. اهـ يعني حيث يتابع، وإلا فلين الحديث. وابن صدقة - وهو صخر - لم يذكر له رواية عن
الصحابه، وذكره ابن حبان في الثقات ٣٢٢/٨ وقال: يروي المقاطيع. وقد أورد السيوطي هذا الخبر في
الدر المنثور ٣٠/١، وضعفه.

(٢) هو علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي، أبو شبل، فقيه الكوفة ومقرئها، روى عن كثير من الصحابة،
توفي سنة (٦٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٥٣/٤.

(٣) في (د) و(ز): لبستم.

(٤) في (د): والتستم.

(٥) أخرجه الدارمي (١٨٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٢٣)، وابن عبد البر في جامع بيان
العلم ص ٢٢٨ من طريق علقمة، عن ابن مسعود. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٢٤/١٥، والدارمي
(١٨٥)، والحاكم في المستدرک ٥١٤/٤ - ٥١٥ من طريق شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود، وهو
صحيح إليه.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٢٨.

(٧) هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، مات سنة بضع عشرة ومئة.
السير ٤٠١/٤.

وَالْقَائِنُونَ ﴿الشعراء: ٩٤﴾ قال: قَوْمٌ وَصَفُوا الْحَقَّ وَالْعَدْلَ بِالسُّنَنِهِمْ، وَخَالَفُوهُ^(١) إِلَى غَيْرِهِ^(٢).

وسياتي لهذا الباب مزيدُ بيان في أثناء الكتاب، إن شاء الله تعالى.

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به، ولا يغفل عنه

فأولُ ذلك أن يُخْلِصَ فِي طَلَبِهِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَأَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، فِي الصَّلَاةِ، أَوْ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، لثَلَا يَنْسَاهُ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا، أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ، وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ، فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ، نَسِيَهِ»^(٣).

وينبغي له أن يكونَ لله حامداً، وَلِنِعْمِهِ شَاكِراً، وَلَهُ ذَاكِراً، وَعَلَيْهِ مُتَوَكِّلاً، وَبِهِ مُسْتَعِيناً^(٤)، وَلِلَّهِ رَاغِباً، وَبِهِ مُعْتَصِماً، وَلِلْمَوْتِ ذَاكِراً، وَلَهُ مُسْتَعِداً.

وينبغي له أن يكونَ خَائِفاً مِنْ ذَنْبِهِ، رَاجِياً عَفْوَ رَبِّهِ، وَيَكُونُ الْخَوْفُ فِي صَحْتِهِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَعْلَمُ بِمَا يُخْتَمُ لَهُ، وَيَكُونُ الرَّجَاءُ عِنْدَ حُضُورِ أَجَلِهِ أَقْوَى فِي نَفْسِهِ، لِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»^(٥). أَي أَنَّهُ يَرْحُمُهُ وَيَغْفِرُ لَهُ.

وينبغي له أن يكونَ عَالِماً بِأَهْلِ زَمَانِهِ، مُتَحَفِّظاً مِنْ سُلْطَانِهِ، سَاعِياً فِي خِلَاصِ نَفْسِهِ، وَنَجَاةِ مُهْجَتِهِ، مُقَدِّماً بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرَضِ دُنْيَاهُ، مُجَاهِداً لِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ.

وينبغي له أن يكونَ أَهَمَّ أُمُورِهِ عِنْدَهُ الْوَرَعُ فِي دِينِهِ، وَاسْتِعْمَالُ تَقْوَى اللَّهِ وَمِرَاقِبَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَنَهَاهُ عَنْهُ.

(١) فِي (د): وَخَالَفُوا.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ ص ٢٣٨.

(٣) صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٧٨٩)، وَهُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (٤٦٦٥).

(٤) فِي (د): مُسْتَعِيناً.

(٥) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٤٤٨١)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٧٧) وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ابن مسعود: ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرَفَ بِلِيلِهِ إذا الناسُ نائمون، وبِنَهَارِهِ إذا الناسُ مُفْطِرُونَ^(١)، وببُكَائِهِ إذا الناسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إذا الناسُ يَخُوضُونَ، وبخشوعه^(٢) إذا الناسُ يَخْتَالُونَ، وبِحُزْنِهِ إذا الناسُ يَفْرَحُونَ^(٣).

وقال عبد الله بن عمرو^(٤): لا ينبغي لحامل القرآن أن يَخُوضَ مَعَ مَنْ يَخُوضُ، ولا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ، ولكن يَعْفُو وَيَصْفَحُ، لِحَقِّ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ فِي جَوْفِهِ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى^(٥).

وينبغي له أن يأخذَ نَفْسَهُ بِالتَّصَاوُنِ عَنْ طُرُقِ الشُّبُهَاتِ، وَيُقِلَّ الضَّحْكَ وَالْكَلامَ فِي مَجَالِسِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْجِلْمِ وَالْوَقَارِ.

وينبغي له أن يتواضعَ لِلْفُقَرَاءِ، وَيَتَجَنَّبَ التَّكَبُّرَ وَالْإِعْجَابَ، وَيَتَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْنَائِهَا إِنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْفِتْنَةَ، وَيَتْرَكَ الْجِدَالَ وَالْمِرَاءَ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالرَّفْقِ وَالْأَدَبِ.

وينبغي له أن يَكُونَ مِمَّنْ يُؤْمِنُ شَرَّهُ، وَيُرْجَى خَيْرُهُ، وَيُسَلِّمُ مِنْ ضَرِّهِ، وَأَلَّا يَسْمَعَ مِمَّنْ نَمَّ عِنْدَهُ، وَيُصَاحِبَ مَنْ يُعَاوَنُهُ عَلَى الْخَيْرِ، وَيَذُلُّهُ عَلَى الصَّدَقِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَزِيئُهُ وَلَا يَشِيئُهُ.

وينبغي له أن يتعلَّمَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، فَيَفْهَمَ عَنْ اللَّهِ مُرَادَهُ، وَمَا قَرَضَ عَلَيْهِ، فَيَنْتَفِعَ بِمَا يَقْرَأُ، وَيَعْمَلُ بِمَا يَتْلُو، فَمَا أَقْبَحَ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَتْلُو فَرَائِضَهُ وَأَحْكَامَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَهُوَ لَا يَقْهَمُ مَا يَتْلُو، فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِمَا لَا يَقْهَمُ مَعْنَاهُ؟! وَمَا أَقْبَحَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ فِقْهِ مَا يَتْلُوهُ وَلَا يَدْرِيهِ! فَمَا مَثَلُ مَنْ^(٦) هَذِهِ حَالَتُهُ إِلَّا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً.

وينبغي له أن يَعْرِفَ الْمَكِّيَّ مِنَ الْمَدِينِيِّ، لِيُفَرِّقَ بِذَلِكَ بَيْنَ مَا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ

(١) في (م): مستيقظون، وهو خطأ.

(٢) في (م): وبخشوعه.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٢، وأحمد في الزهد ص ٢٠٢ - ٢٠٣ والآجري في أخلاق حملة القرآن (٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٧).

(٤) في (د): عمر.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٣ بنحوه أطول منه.

(٦) في النسخ الخطية: فما من، والمثبت من (م).

في أول الإسلام، وما نَدَبَهُمْ إليه في آخر الإسلام، وما افترضَ الله في أول الإسلام، وما زادَ عليه من الفرائض في آخره. فالمَدَنِيُّ هو الناسخُ للمَكِّي في أكثر القرآن، ولا يمكنُ أن يَنسَخَ المَكِّي المَدَنِي؛ لأن المنسوخَ هو المتقدمُ في النزول قبل الناسخ له. ومن كماله أن يَعْرِفَ الإعرابَ والغريبَ، فذلك مما يُسَهِّلُ عليه معرفة ما يقرأ، ويُزِيلُ عنه الشكَّ فيما يتلو. وقد قال أبو جعفر الطبري^(١): سمعتُ الجَرَمِيَّ^(٢) يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناسَ في الفقه من كتاب سيبويه، قال محمد بنُ يزيد^(٣): وذلك أن أبا عمر الجَرَمِيَّ كان صاحبَ حديث، فلما عَلِمَ كتابَ سيبويه، تَفَقَّه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يُتَعَلَّمُ منه النظرُ والتفسير.

ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فيها يصلُ الطالبُ إلى مراد الله عزَّ وجلَّ في كتابه، وهي تفتَحُ له أحكام القرآن فتَحاً، وقد قال الصَّحَّاحُ^(٤) في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمِينَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال: حَقٌّ على كلِّ مَنْ تَعَلَّمَ القرآنَ أن يكونَ فقيهاً.

وذكر ابنُ أبي الحواري^(٥) قال: أتينا فُضَيْلَ بنَ عياض^(٦) سنة خمس وثمانين ومئة ونحن جماعة، فَوَقَفْنَا على الباب، فلم يَأْذَنْ لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجاً لشيء، فسيخرجُ لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئاً فقرأ، فأطَّلَعَ علينا من كُوَّة، فقلنا: السلامُ عليك ورحمةُ الله، فقال: وعليكم السلام، فقلنا: كيف أنت يا أبا علي؟

(١) أحمد بن محمد بن رستم الطبري النحوي، كان متصدراً لإقراء النحو. له: غريب القرآن والمقصود والممدود وغيرهما. إنباه الرواة ١٢٨/١، وذكر أنه سُمع منه ببغداد سنة (٣٠٤هـ).

(٢) هو صالح بن إسحاق البصري، أبو عمر الجرمي، إمام العربية، صاحب التصانيف، له: الأبنية، والعروض، وغريب سيبويه وغير ذلك، توفي سنة (٢٢٥هـ). السير ١٠/٥٦٠، وقد ذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص ٧٤ - ٧٥ وذكر له هذه القصة.

(٣) أبو العباس المبرد، البصري، إمام النحو، صاحب الكامل. مات سنة (٢٨٦هـ). السير ١٣/٥٧٦، طبقات النحويين واللغويين ص ١٠١.

(٤) ابنُ مَزاحم الهلالي، أبو محمد، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه، توفي سنة (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/٥٩٨.

(٥) أحمد بن عبد الله بن ميمون، شيخ أهل الشام، أصله من الكوفة، توفي سنة (٢٤٦هـ). السير ١٢/٨٥.

(٦) هو أبو علي التميمي، اليربوعي، الخراساني، توفي سنة (١٨٧هـ). السير ٨/٤٢١.

وكيف حالك ؟ فقال : أنا مِن الله في عافية، ومنكم في أذى، وإنَّ ما أنتم فيه حَدَثٌ في الإسلام، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ما هكذا كنَّا نطلبُ العلمَ، ولكنَّا كنَّا نأتي المَشِيخَةَ، فلا نَرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلِسُ دونهم، ونَسْتَرْقُ السَّمْعَ، فإذا مرَّ الحديثُ سألناهم إعادته، وقَيَّدناه، وأنتم تطلبون العلمَ بالجهل، وقد ضَيَّعْتُمْ كِتَابَ الله، ولو طلبْتُمْ كِتَابَ الله، لوجدْتُمْ فيه شِفَاءً لما تريدون. قال : قلنا^(١) : قد تَعَلَّمْنَا القرآن، قال : إنَّ في تعلُّمكم القرآنَ شُغلاً لأعماركم، وأعمارِ أولادِكُمْ. قلنا : كيف يا أبا عليٍّ ؟ قال : لَنْ تَعَلَّمُوا القرآنَ حتى تعرفوا إعرابه، ومُحْكَمَهُ من مُتَشَابِهِهِ، وناسِخَهُ مِن مَنْسُوخِهِ، إذا عرفْتُمْ ذلك، استَغْنَيْتُمْ عن كلام فَضِيل وابنِ عُيَيْنَةَ. ثم قال : أَعُوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم^(٢)، بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ قُلْ يَفْضَلِ اللهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٧ - ٥٨].

قلت : فإذا حَصَلَتْ هذه المراتبُ لقارئ القرآن، كان ماهراً بالقرآن، وعالماً بالفرقان، وهو قريبٌ على مَنْ قَرَّبَهُ اللهُ عليه^(٣)، ولا ينتفعُ بشيء مما ذكرنا^(٤) حتى يُخْلِصَ النيةَ فيه لله - جلَّ ذِكْرُهُ - عند طلبه، أو بعد طلبه، كما تقدَّم. فقد يبتدئُ الطالبُ للعلم يريدُ به المباحاةَ والشرفَ في الدنيا، فلا يزالُ به فهمُ العلم حتى يتبيَّنَ أنه على خطأ في اعتقاده، فيتوبُ من ذلك، ويخلصُ النيةَ لله تعالى، فينتفعَ بذلك، ويحسنُ حاله. قال الحسن : كنَّا نطلبُ العلمَ للدنيا، فَجَرَّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثوري^(٥). وقال حبيب بنُ أبي ثابت^(٦) : طَلَبْنَا هذا الأمرَ وليس لنا فيه نِيَّةٌ، ثم جاءتِ النيةُ بعدُ^(٧).

(١) في (د) : قالوا كنا، وفي (ظ) : قالوا فعلنا.

(٢) في (د) و(ظ) : أَعُوذُ بالله من الشيطان الرجيم.

(٣) في (م) : قَرَّبَهُ عليه.

(٤) في (ظ) : علم.

(٥) هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله، الكوفي، إمام الحفاظ، توفي سنة (١٢٦هـ). السير

٢٢٩/٧.

(٦) أبو يحيى القرشي، الأسدي مولا هم، فقيه الكوفة، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٢٩٠/٥.

(٧) المحدث الفاضل للرامهرمزي ص ١٨٣، والجامع لأخلاق الراوي (٦٩٨) و(٧٧٧)... (٧٨٢)، وجامع

بيان العلم ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

باب ماجاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن مُعَرَّباً

قال أبو بكر بن الأنباري^(١): جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم - رضوان الله عليهم - من تفضيل إعراب القرآن، والحرص على تعليمه، وذم اللحن وكراهيته، ما وجب به على قراء^(٢) القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه^(٣).

من ذلك ما حدثنا سليمان بن يحيى^(٤) الضبِّي قال: حدثنا محمد - يعني ابن سعدان^(٥) - قال: حدثنا أبو معاوية، عن عبد الله بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه»^(٦).

حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن الهيثم قال: حدثنا آدم - يعني ابن أبي إياس - قال: حدثنا أبو الطيب المروزي قال: حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ القرآن، فلم يُعربه، وكُلَّ به ملك، يَكْتُبُ له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات، فإن أعرب بعضه، [ولم يُعرب بعضه]^(٧)، وكُلَّ به ملكان، يَكْتُبان له بكل حرف عشرين حسنة، فإن أعربه، وكُلَّ به أربعة أملاك، يَكْتُبون له بكل حرف سبعين حسنة»^(٨).

(١) في كتابه إيضاح الوقف والابتداء ١٤/١، وقد نقل عنه المصنف ما أورده في هذا الباب.

(٢) في (ظ): أهل.

(٣) في (ز) و(ظ): تعليمه.

(٤) في النسخ الخطية و (م): يحيى بن سليمان، والتصويب من الإيضاح ١٥/١، وترجمته في تاريخ بغداد ٦٠/٩، وطبقات القراء ٣١٧/١.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ابن سعيد، وهو خطأ. والمثبت من (ظ). وترجمته في تاريخ بغداد ٣٢٤/٥، وطبقات القراء ١٤٣/٢.

(٦) إسناده ضعيف جداً. عبد الله بن سعيد المقبري متروك الحديث. وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٠٨، وابن أبي شيبة في المصنف ٤٥٦/١٠، والحاكم في المستدرک ٤٣٩/٢، وقال: صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا ولم يخرجوا، فتعقبه الذهبي بقوله: بل أجمع على ضعفه.

(٧) ما بين حاصرتين من مصادر الحديث.

(٨) إسناده تالف. أبو الطيب المروزي (وهو الحرابي) قال ابن حبان في المجروحين ١٦٠/٣: يروي عن عبد العزيز بن أبي رواد الأعاجيب، لا يجوز الاحتجاج به بحال. ثم أخرج له هذا الحديث، ونقل =

وَرَوَى جُوَيْرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: جَوِّدُوا الْقُرْآنَ، وَزَيِّنُوهُ بِأَحْسَنِ الْأَصْوَاتِ، وَأَعْرِبُوهُ، فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَاللَّهُ يَحِبُّ أَنْ يُعَرَّبَ بِهِ.
وعن مجاهد^(١)، عن ابن عمر قال: أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ.
وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد^(٢) قال: قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما:
لَبَعْضُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ حِفْظِ حُرُوفِهِ.
وعن الشعبي قال: قال عمر رحمه الله: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَعْرَبَهُ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرُ شَهِيدٍ.

وقال مكحول^(٣): بَلَّغْنِي أَنَّ مَنْ قَرَأَ بِإِعْرَابٍ، كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ ضِعْفَانِ مِمَّنْ قَرَأَ بِغَيْرِ إِعْرَابٍ.

وروى ابن جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجِبُوا^(٤) الْعَرَبَ لثَلَاثٍ: لِأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ، وَكَلَامَ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ»^(٥).
وروى سفيان، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: قِيلَ لِلْحَسَنِ فِي قَوْمٍ يَتَعَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ، قَالَ:
أَحْسِنُوا، يَتَعَلَّمُونَ لُغَةً نَبِيَّهُمْ ﷺ^(٦).
وقيل للحسن: إِنَّ لَنَا إِمَامًا يَلْحَنُ، قَالَ: أَخْرُوهُ.

= الذهبي في ميزان الاعتدال ٥٤١/٤ قول ابن معين فيه: كان في الحديث كذاباً. وأخرجه أيضاً أبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (١١٠).

(١) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، شيخ القراء والمفسرين، أخذ القرآن والتفسير والفقه عن ابن عباس، توفي سنة (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤٤٩/٤.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ص ٢٠: عن زيد.

(٣) أبو عبد الله بن أبي مسلم، الدمشقي، عالم أهل الشام، من أقران الزهري، توفي سنة (١١٣هـ) وقيل غير ذلك. السير ١٥٥/٥.

(٤) في (د) و(ظ): أَحَبُّ.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/٣٤٨، والحاكم في المستدرک ٤/٨٧، وفي معرفة علوم الحديث ص ١٦١ - ١٦٢، وابن الجوزي في الموضوعات ١/٣٤٨. قال العقيلي: منكر لا أصل له، وقال الحاكم:

حديث صحيح، فتعقبه الذهبي بقوله: هو من رواية العلاء بن عمرو الحنفي وليس بعمدة.. وأظن الحديث موضوعاً، وأورد الحديث أيضاً في ميزان الاعتدال ٣/١٠٣ وقال: هذا موضوع، قال أبو حاتم: هذا كذب.

(٦) سفيان: هو الثوري، وأبو حمزة: لعله الأعور، واسمه ميمون، والحسن: هو البصري.

وعن ابن أبي مُليكة قال: قَدِمَ أعرابيٌّ في زمانِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، فقال: مَنْ يُقرِّئني مما أنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجلٌ «براءة»، فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسوله» بالجرِّ، فقال الأعرابيُّ: أَوْقَدَ برِئَ الله من رسوله؟! فإن يكنِ الله برِئاً من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغَ عمرَ مقالَةَ الأعرابيِّ، فدعاه، فقال: يا أعرابيُّ، أتبرأ من رسول الله ﷺ؟! فقال: يا أمير المؤمنين، إني قَدِمْتُ المدينةَ، ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسألتُ: مَنْ يُقرِّئني؟ فأقرأني هذا سورةَ براءة فقال: «أن الله بريء من المشركين ورسوله»، فقلت: أَوْقَدَ برِئَ الله من رسوله؟! إن يكنِ الله برِئاً من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ، قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ»، فقال الأعرابيُّ: وأنا والله أبرأ مما برِئَ الله ورسوله منه. فأمر عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه ألا يُقرِّئَ الناسَ إلا عالمٌ باللغة، وأمرَ أبا الأسودَ، فوضَعَ النُّحو.

وعن عليِّ بنِ الجَعْدِ^(١) قال: سمعتُ شُعْبَةَ^(٢) يقول: مَثَلُ صَاحِبِ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ، مَثَلُ الْحِمَارِ، عَلَيْهِ مِخْلَافَةٌ، لَا عَلْفَ فِيهَا. وقال حمَّادُ بنُ سَلَمَةَ^(٣): مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَتَعَلَّمِ النَّحْوَ - أَوْ قَالَ: الْعَرَبِيَّةَ - فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ، تُعَلَّقُ عَلَيْهِ مِخْلَافَةٌ، لَيْسَ فِيهَا شَعِيرٌ^(٤). قال ابنُ عَطِيَّةٍ: إعرابُ القرآنِ أصلٌ في الشَّرِيعَةِ، لِأَنَّ بِذَلِكَ تَقُومُ^(٥) معانيه التي هي الشَّرْعُ^(٦).

(١) هو أبو الحسن البغدادي، الجوهري، مُسند بغداد، توفي سنة (٢٣٠هـ). السير ٤٥٩/١٠.

(٢) هو شُعْبَةُ بن الحجاج، أبو بسطام الأزدي العتكي مولاهم، الواسطي، عالم أهل البصرة. توفي سنة (١٦٠هـ). السير ٢٠٢/٧.

(٣) أبو سلمة البصري، الإمام، النحوي، ابن أخت حُميد الطويل، توفي سنة (١٦٧هـ). السير ٤٤٤/٧.

(٤) أخرج الأخبار السالفة ابنُ الأنباري في الوقف والابتداء ١٥/١ - ٦١ ونقلها المصنف عنه كما صرح به أول الباب.

(٥) في (ظ): ذلك يقوم.

(٦) المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) ٤٠/١، ومؤلفه: هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية. توفي سنة (٥٤١هـ) وقيل: (٥٤٢هـ). السير ٥٨٧/١٩.

قال ابن الأنباري^(١): وجاء عن أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم رضوان الله عليهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكِلِهِ باللغة والشعر، ما بيّن صحة مذهب النحويين في ذلك، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم.

من ذلك ما حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أنبأنا ابن فروخ قال: أخبرني أسامة قال: أخبرني عكرمة أن ابن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب.

وحدثنا إدريس بن عبد الكريم قال: حدثنا خلف قال: حدثنا حماد بن زيد، عن علي بن زيد بن جدهان قال: سمعت سعيد بن جبيرة ويوسف بن مهران يقولان: سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن، فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم الشاعر يقول فيه كذا وكذا^(٢).

وعن عكرمة، عن ابن عباس، وسأله رجل عن قوله الله جل وعز: ﴿وَيَا بَاكَ فَكَلِّمْ﴾ [المدثر: ٤] قال: لا تلبس ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفي^(٣):

فإنني بحمد الله لا ثوب غادر لبيست ولا من سواة أتقنع^(٤)

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم، فقال^(٥): هو ولد الزنى، وتمثل بيت شعر:

زنيم ليس يُعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لثيم^(٦)

وعنه^(٧) أيضاً: الزنيم: الدعي الفاحش اللثيم، ثم قال:

(١) في الوقف والابتداء ١/ ٦١. وما بعدها، مما نقله عنه المصنف حتى آخر الباب.

(٢) في (م): يُسأل عن الشيء بالقرآن، فيقول فيه هكذا وهكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا. والمثبت من النسخ، غير قوله: فيقول فيه كذا وكذا، فمن إيضاح الوقف والابتداء ص ٦٢.

(٣) هو غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك الثقفي، أسلم بعد فتح الطائف، ولم يهاجر، وهو شاعر مقل، وقد روى عنه ابن عباس شيئاً من شعره. الأغاني ١٣/ ٢٠٠، والإصابة ٨/ ٦٣.

(٤) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص ٤٩٥ عند الآية ﴿وَيَا بَاكَ فَكَلِّمْ﴾، وكذا الطبري ٢٣/ ٤٠٦، والماوردي ٦/ ١٣٦، وابن منظور في اللسان (طهر).

(٥) في (ظ) و(م): قال.

(٦) ذكره الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ ٢٣/ ١٦٤.

(٧) أي: عن عكرمة، والخبر في الإيضاح ص ٦٥: عن عكرمة عن ابن عباس.

زَنَيْمٌ تَدَاعَاهُ الرَّجَالُ زِيَادَةً كما زيد في عَرْضِ الأديم أكارُعُهُ^(١)
وعنه في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] قال: ذواتا ظلٍّ وأغصان، ألم
تسمع إلى قول الشاعر:

ما هاجَ شوقُكَ من هَدِيلِ حمامَةٍ تَدْعُو عَلَى فَنَنِ الْغُصُونِ حَمَامَا
تَدْعُو أَبَا فَرْخَيْنِ صَادَفَ طَائِرًا ذا مِخْلَبَيْنِ مِنَ الصُّقُورِ قَطَامَا^(٢)
وعن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]
قال: الأرض. قال^(٣) ابن عباس: وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ^(٤):
عِنْدَهُمْ لَحْمٌ بِحَرٍ وَلَحْمٌ سَاهِرَةٌ

قال ابن الأنباري: والرواة يروون هذا البيت:

وفيهَا لَحْمٌ سَاهِرَةٌ وَيَحَرُّ وما فاهُوا به لَهُمْ مُقِيمٌ^(٥)
وقال نافع بن الأزرق^(٦) لابن عباس: أخبرني عن قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿لَا تَأْخُذْهُ

(١) كذا في النسخ الخطية، وإيضاح الوقف والابتداء ٦٥/١ (والكلام منه)، ووقع في حاشيته وفي المصادر الآتية: الأكارع. وقد ذكره المبرد في «الكامل» ١١٤٦/٣، وابن عطية في تفسيره ٣٤٨/٥ ونسباه إلى حسان بن ثابت، وذكره ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام ١/٣٦١)، وابن بري (كما في اللسان) (زنم) ونسباه إلى الخطيم التميمي.

(٢) ذكرهما الطبري في التفسير ٢٢/٢٤٠، والماوردي في النكت والعيون ٤٣٨/٥، ونسبهما الأصفهاني في الأغاني ١٤/٢٦٢ لثابت قطنة. وعندهما: صادف ضارياً، وأورد الأول منهما ابن منظور في اللسان (هدل) عن ابن بري.

(٣) في (م): قاله، وهو خطأ.

(٤) شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يُسلم. قال ابن قُتيبة في الشعر والشعراء ص ٤٥٩: قد كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عز وجل، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبياً يُبعث قد أظلم زمانه، ويؤمل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ وقصته، كفر حسداً له. وذكر البغدادي في خزائنه ١/٢٥٢ أنه مات في السنة التاسعة، وقال: لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً. اهـ. وقد أنشد الشَّريدُ بنُ سُوَيْدٍ رسولَ الله ﷺ مئة بيت من شعر أمية. كما في صحيح مسلم (٢٢٥٥). فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ كَادَ لَيْسَ لِي».

(٥) البيت في ديوانه ص ١٢١. وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/٢٣٢، والطبري في تفسيره ٢٤/٧٤، والماوردي في النكت والعيون ١٩٦/٦، وسيكرر المصنف هذا البيت وما سلف من الأبيات قبله في المواضع من الآيات المذكورة.

(٦) من رؤوس الخوارج، وإليه تنسب طائفة الأزارقة، وكان قد خرج في أواخر دولة يزيد بن معاوية. له أسئلة عن ابن عباس، أخرج الطبراني بعضها في الكبير. لسان الميزان ٦/١٤٤.

سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾ ما السنة ؟ قال: النَّعَاسُ، قال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَمَى ^(١):
لَا سِنَّةٌ فِي طَوَالِ اللَّيْلِ ^(٢) تَأْخُذُهُ وَلَا يَنَامُ وَلَا فِي أَمْرِهِ فَتَنَدُّ

باب ماجاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين:

فمن ذلك أن عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابرَ بنَ عبد الله، ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جُعِلْتُ فداءك، تصف جابراً بالعلم، وأنت أنت ! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَاذُ﴾ [القصص: ٨٥].

وقال مجاهد: أَحَبُّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل.
وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أَحَبَّ أن يُعَلِّمَ فيها ^(٣) أنزلت، وما يعني بها.
وقال الشعبي: رَحَلَ مسروق ^(٤) إلى البصرة في تفسير آية، ف قيل له: إن الذي يُفَسِّرُهَا رَحَلَ إلى الشام ^(٥)، فَتَجَهَّزْ، وَرَحَلَ إلى الشام حتى عِلِمَ تفسيرها ^(٦).
وقال عكرمة ^(٧) في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: طلبتُ اسمَ هذا الرجل أربعَ عشرةَ سنة حتى وجدته ^(٨).

(١) شاعر جاهلي، لم يدرك الإسلام، وكان من المقدمين على سائر الشعراء. الشعر والشعراء ١/ ١٤١.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٧٨/١: في طوال الدهر.

(٣) في (د) و(ز): أعلم فيمن.

(٤) ابن الأجدع، أبو عائشة الوادعي، الهمداني، الكوفي، عداده في كبار التابعين وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، توفي سنة (٦٢هـ) وقيل: سنة (٦٣هـ). السير ٤/ ٦٣.

(٥) في (د): رحل بالشام.

(٦) أورد ابن عطية هذه الأخبار في تفسيره ٤٠/١.

(٧) أبو عبد الله القرشي مولاهم، المدني، البربري الأصل، الحافظ المفسر، لازم ابن عباس وأخذ عنه العلم، توفي سنة (١٠٥هـ). السير ١٢/٥.

(٨) أورد ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ضمرة بن العيص بن ضمرة (بهامش الإصابة ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

وقال ابنُ عبد البرِّ: هو ضَمْرَةٌ^(١) بَنُ حَيِّبٍ، وسيأتي^(٢).

وقال ابن عباس: مَكَثْتُ سَتَيْنِ^(٣) أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ الْمَرَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا يَمْنَعُنِي إِلَّا مَهَابَتُهُ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ.

وقال إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ^(٤): مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَهُ، كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلًا، وَلَيْسَ عَنْدهُمْ مَصْبَاحٌ، فَتَدَاخَلَتْهُمْ رَوْعَةٌ، وَلَا يَذُرُّونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمَصْبَاحٍ، فَقَرَأُوا مَا فِي الْكِتَابِ.

باب ما جاء في حامل القرآن، وَمَنْ هُوَ، وَفِيْمَنْ عَادَاهُ

قال أبو عمر^(٥): رُوِيَ مِنْ وَجْهِ فِيهَا لِيَنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ تَعْظِيمِ جَلَالِ اللَّهِ إِكْرَامُ ثَلَاثَةٍ: الْإِمَامُ الْمُقْسِطُ، وَذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلُ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ»^(٦).

وقال أبو عمر: وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمُونَ بِأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِيهِ وَحَرَامِهِ، وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ. وَرَوَى أَنَسٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْقُرْآنُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ

(١) فِي (ز) وَ(ظ): ضَمِيرَةٌ.

(٢) سَيَذْكُرُ الْمُصَنِّفُ الْاِخْتِلَافَ فِي اسْمِهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ، وَيَنْظُرُ الْإِصَابَةَ ١٩٧/٥ تَرْجَمَةَ ضَمْرَةَ بَنِ أَبِي الْعِيصِ.

(٣) فِي (ظ): سَنَيْنِ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٤٩١٣) وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٤٧٩): مَكَثْتُ سَنَةً.

(٤) أَبُو وَائِلَةَ قَاضِي الْبَصْرَةِ، كَانَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الدَّهَاءِ وَالْعَقْلِ، تُوُفِيَ سَنَةَ (١٢١ هـ). السَّيَرُ ١٥٥/٥. وَقَدْ أورد ابن عطية قوله في المحرر الوجيز ٤٠/١.

(٥) هُوَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَلَعَلَّ قَوْلَهُ هَذَا فِي كِتَابِهِ الْبَيَانُ عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ فِي الْاِسْتِذْكَارِ ٢٤/٨ وَ٢٦، وَالذَّهَبِيُّ فِي السَّيَرِ ١٨/١٥٩.

(٦) أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ (٣٥٧)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٨٤٣)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (٢٦٨٥) وَ(١٠٩٨٦)، وَحُسْنُهُ الذَّهَبِيُّ فِي مِيزَانِ الْاِعْتِدَالِ ٥٦٥/٤، وَالنَّوَوِيُّ فِي التَّبْيَانِ ص ٣٤. وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٦٧٣٢)، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ ١٥٩٦/٤، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ (٢٦٨٧) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ. وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو مَوْقُوفًا. وَأَخْرَجَهُ الْفَرِيَابِيُّ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ (٩١) مِنْ حَدِيثِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ مَرْسَلًا.

وَقَرَّ الْقُرْآنَ، فَقَدْ وَقَّرَ اللَّهُ، وَمَنِ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، اسْتَحَفَّ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، حَمَلَةُ الْقُرْآنِ هُمُ الْمُحْفَوُّونَ^(١) بِرَحْمَةِ اللَّهِ، الْمُعْظَمُونَ كَلَامَ اللَّهِ، الْمُلبَّسُونَ نُورَ اللَّهِ، فَمَنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ وَالَى اللَّهَ، وَمَنْ عَادَاهُمْ فَقَدْ اسْتَحَفَّ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في «نوادير الأصول»^(٣): فَمِنْ حُرْمَةِ الْقُرْآنِ أَلَّا يَمَسَّهُ إِلَّا طَاهِرًا.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يقرأَهُ وَهُوَ عَلَى طَهَارَةٍ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَسْتَاكَ وَيَتَخَلَّلَ، فَيُطَيَّبَ فَأَهُ، إِذْ هُوَ طَرِيقُهُ. قَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مَالِكٍ^(٤): إِنْ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقٌ مِنْ طُرُقِ الْقُرْآنِ، فَطَهَّرُوهَا وَنَظَّفُوهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَسْتَوِيَ لَهُ قَاعِدًا إِنْ كَانَ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ، وَلَا يَكُونُ مَتَكْنًا^(٥).

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَتَلَبَّسَ لَهُ^(٦)، كَمَا يَتَلَبَّسُ لِلدُّخُولِ عَلَى الْأَمِيرِ، لِأَنَّهُ مُنَاجٍ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ لِقِرَائَتِهِ. وَكَانَ أَبُو الْعَالِيَةِ^(٧) إِذَا قَرَأَ اعْتَمَّ، وَلَبَسَ وَارْتَدَّى، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ.

(١) في مصادر الحديث: المخصوصون.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/٦ (في ترجمة داود بن محمد الميعوفي الحجوري) وفي إسناده أكثر من علة، وأورده ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة ٢٩٤/١، وقال: فيه علي بن الحسن السامي. اهـ وعليّ هذا؛ قال ابن حبان في المجروحين: لا يحل كتابة حديثه إلا على سبيل التعجب، وقال ابن عدي في الكامل ١٨٥٤/٥: ضعيف جداً. وانظر كشف الخفا ٢٠/١.

(٣) في الأصل (٢٥٣) منه، ص ٣٣٣.

(٤) يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الهمداني، قاضي دمشق في عهد هشام بن عبد الملك، توفي سنة (١٣٠هـ). السير ٤٣٧/٥، وقوله هذا الذي أورده له المصنف ليس في المطبوع من نوادر الأصول، وهو في الرعاية لمكي ص ٨٢.

(٥) قوله: ومن حرمة أن يستوي له قاعداً... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٦) لفظة: له، ليست في (م).

(٧) هو رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ، أَبُو الْعَالِيَةِ الرِّياحِي البصري، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ بستين، مات سنة تسعين. تهذيب الكمال ٢١٤/٩.

ومن حُرْمَتِهِ أن يتمضمضَ كُلَّمَا تَنَحَّعَ. روى شعبة، عن أبي حمزة^(١)، عن ابن عباس: أنه كان يكون بين يديه ثور^(٢)، إِذَا تَنَحَّعَ مَضْمَضَ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الذِّكْرِ، وَكَانَ كُلَّمَا تَنَحَّعَ مَضْمَضَ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا تَنَاءَبَ أَنْ يُمَسِكَ عَنِ الْقِرَاءَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا قَرَأَ، فَهُوَ مُخَاطَبٌ رَبَّهُ وَمُنَاجٍ، وَالتَّوَابُ مِنَ الشَّيْطَانِ.

قال مجاهد: إِذَا تَنَاءَبَتْ وَأَنْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَمْسِكَ عَنِ الْقُرْآنِ^(٣) تعظيماً حتى يذهبَ تَأَوُّبُكَ. وقاله عكرمة. يريدُ أَنَّ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ إِجْلَالاً لِلْقُرْآنِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ عِنْدَ ابْتِدَائِهِ لِلْقِرَاءَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَيَقْرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» إِنْ كَانَ ابْتَدَأَ قِرَاءَتَهُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ بَلَغَ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا أَخَذَ بِسُورَةٍ، لَمْ يَشْتَغِلْ بِشَيْءٍ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ^(٤).

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا أَخَذَ فِي الْقِرَاءَةِ، لَمْ يَقْطَعْهَا سَاعَةً فَسَاعَةً بِكَلَامِ الْآدَمِيِّينَ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَخْلُوَ بِقِرَاءَتِهِ حَتَّى لَا يَقْطَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بِكَلَامٍ، فَيُخْلِطَهُ بِجَوَابِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، زَالَ عَنْهُ سُلْطَانُ الْإِسْتِعَاذَةِ الَّذِي اسْتِعَاذَ فِي الْبَدءِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَى نُؤْدَةٍ وَتَرْسِيلٍ^(٥) وَتَرْتِيلٍ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيهِ ذَهَنَهُ وَفَهْمَهُ حَتَّى يَعْقِلَ مَا يُخَاطَبُ بِهِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَقِفَ عَلَى آيَةِ الْوَعْدِ، فَيَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْأَلَهُ مِنْ فَضْلِهِ،

وَأَنْ يَقِفَ عَلَى آيَةِ الْوَعِيدِ، فَيَسْتَجِيرَ بِاللَّهِ مِنْهُ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَقِفَ عَلَى أَمْثَالِهِ، فَيَمَثِّلَهَا.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَلْتَمَسَ غَرَائِبَهُ.

(١) هو عمران بن أبي عطاء الأسدي، أبو حمزة القصاب، الواسطي، قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: صدوق له أوهام.

(٢) الثور إناء يُشرب فيه.

(٣) في (ز) و(د): القراءة.

(٤) قوله: ومن حرمة إذا أخذ بسورة... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٥) الترييل في القراءة: الترتيل. القاموس (رسل).

ومن حُرْمَتِهِ أَنْ يُؤْذِيَ لِكُلِّ حَرْفٍ حَقَّهُ مِنَ الْأَدَاءِ، حَتَّى يَبْرَزَ الْكَلَامُ بِاللَّفْظِ تَمَاماً، فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشَرَ حَسَنَاتٍ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا انْتَهَتْ قِرَاءَتُهُ، أَنْ يُصَدِّقَ رَبَّهُ، وَيَشْهَدَ بِالْبَلَاغِ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَيَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ حَقٌّ، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ رَبَّنَا، وَيَلْغَتْ رُسُلُكَ، وَنَحْنُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ شُهَدَاءِ الْحَقِّ، الْقَائِمِينَ بِالْقِسْطِ. ثُمَّ يَدْعُوْ بِدَعَوَاتٍ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا قَرَأَهُ أَلَّا يَلْتَقِطَ الْآيَ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ، فَيَقْرَأُهَا، فَإِنَّهُ رُويَ لَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ بِبِلَالٍ وَهُوَ يَقْرَأُ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ شَيْئاً، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ السُّورَةَ كُلَّهَا^(١). أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا وَضَعَ الْمَصْحَفَ^(٢) أَلَّا يَتْرَكَهُ مَنْشُوراً، وَأَلَّا يَضَعَ فَوْقَهُ شَيْئاً مِنَ الْكُتُبِ، حَتَّى يَكُونَ أَبَداً عَالِياً لِسَائِرِ الْكُتُبِ، عِلْماً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ إِذَا قَرَأَهُ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَضَعَهُ بِالْأَرْضِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يَمْحُوهُ مِنَ اللَّوْحِ بِالْبُصَاقِ، وَلَكِنْ يَغْسِلُهُ بِالْمَاءِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ إِذَا غَسَلَهُ بِالْمَاءِ، أَنْ يَتَوَقَّى النِّجَاسَاتِ مِنَ الْمَوَاضِعِ وَالْمَوَاقِعِ الَّتِي تُوْطَأُ، فَإِنَّ لَتِلْكَ الْغُسَالَةَ حُرْمَةً، وَكَانَ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ السَّلَفِ، مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَشْفِي بَغُسَالَتِهِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يَتَخَذَ الصَّحِيفَةَ إِذَا بَلَّيَتْ وَدَرَسَتْ وَقَايَةً لِلْكِتَابِ، فَإِنَّ ذَلِكَ جَفَاءٌ عَظِيمٌ، وَلَكِنْ يَمْحُوهَا بِالْمَاءِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يُخْلِيَ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصْحَفِ مَرَّةً، وَكَانَ أَبُو مُوسَى [الْأَشْعَرِيُّ] يَقُولُ: إِنِّي لَا أُسْتَحْيِي أَلَّا أَنْظُرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي عَهْدِ رَبِّي مَرَّةً.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يُعْطِيَ عَيْنَهُ حَظَّهُمَا مِنْهُ، فَإِنَّ الْعَيْنَ تُوْدِي إِلَى النَّفْسِ، وَبَيْنَ النَّفْسِ

(١) فِي النُّسخِ الْخَطِيئَةِ: أَنْ يَقْرَأَ عَلَى السُّورِ، وَالْمُثَبَّتِ مِنْ (م)، وَفِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ ص ٣٣٣ (وَالْكَلَامُ مِنْهُ): يَقْرَأُ السُّورَ كُلَّهَا، وَأَخْرَجَ الْخَبَرَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنُفِ ٥٣٢/٢ وَ ٥٥١/١٠ وَ ٥٥٢. عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَزَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ مَرْسَلاً وَفِيهِ: السُّورَةُ عَلَى نَحْوِهَا.

(٢) فِي النُّسخِ الْخَطِيئَةِ: الصَّحِيفَةُ، وَالْمُثَبَّتِ مِنْ (م).

والصدر حجاب، والقرآن في الصدر، فإذا قرأه عن ظهر قلب، فإنما يُسمعُ أذنه، فتؤدي إلى النفس، فإذا نظر في الخط، كانت العين والأذن قد اشتركتا في الأداء، وذلك أوفر للأداء، وكانت العين قد أخذت حظها^(١) كالأذن. روى زيد بن أسلم^(٢)، عن عطاء بن يسار^(٣)، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة». قالوا: يا رسول الله، وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف، والتفكير فيه، والاعتبار عند عجائبه»^(٤). وروى مكحول، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظراً»^(٥).

ومن حرمة ألا يتأوله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا. حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي قال: حدثنا هشيم بن بشير، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا^(٦). والتأويل: مثل قولك للرجل إذا جاءك: ﴿جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْأَلَيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] هذا عند حضور الطعام، وأشباه هذا. ومن حرمة ألا يقال: سورة كذا، كقولك: سورة النحل، وسورة البقرة، وسورة النساء، ولكن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا.

قلت: هذا يعارضه قوله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة

- (١) في (د) و(ز) و(م): وكان قد أخذت العين حظها، والمثبت من (ظ).
- (٢) أبو عبد الله العدوي، العمري، المدني، الفقيه، حدث عن جمع من الصحابة، وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن، توفي سنة (١٣٦هـ). السير ٣١٦/٥.
- (٣) المدني، مولى ميمونة، كان فقيهاً واعظاً ثباً، وهو أخو سليمان بن يسار، توفي سنة (١٠٣هـ)، ويقال: قبل المئة. السير ٤٤٨/٤.
- (٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٢) وقال: إسناده ضعيف. وضعفه أيضاً الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٤٢٤.
- (٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٢) (دون قوله: نظراً) من حديث النعمان بن بشير، ونسبه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/٢٧٣ إلى أبي نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن أنس، وضعفه.
- (٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٨ عن هشيم، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/٥١٥ عن جرير، عن مغيرة بنحوه. هشيم: هو ابن بشير، ومغيرة: هو ابن يقسم الضبي.

ومن حُرْمَتِهِ أَلَّا يَجْهَرَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ، فَيُفْسِدَ عَلَيْهِ، حَتَّى يُيْغِضَ إِلَيْهِ مَا يَسْمَعُ، وَيَكُونُ كَهَيْئَةِ الْمُغَالِيَةِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَا يُمَارِي، وَلَا يَجَادِلَ فِيهِ فِي الْقِرَاءَاتِ، وَلَا يَقُولَ لِمُصَاحِبِهِ: لَيْسَ هَكَذَا هُوَ، وَلَعَلَّهُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْقِرَاءَةُ صَحِيحَةً جَائِزَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَيَكُونَ قَدْ جَحَدَ كِتَابَ^(١) اللَّهِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَا يَقْرَأَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا فِي مَوَاطِنِ اللَّغَطِ وَاللُّغُو، وَمَجْمَعِ
السَّفَهَاءِ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ عِبَادَ الرَّحْمَنِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا مَرُّوا
بِاللُّغُو مَرُّوا كِرَاماً؟! هَذَا لِمَرْوَرِهِ بِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ إِذَا مَرَّ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تِلَاوَةً بَيْنَ
ظَهْرَانِي أَهْلِ اللَّغُو وَمَجْمَعِ السَّفَهَاءِ؟!

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يَتَوَسَّدَ الْمَصْحَفَ، وَلَا يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ، وَلَا يَرْمِي بِهِ إِلَى صَاحِبِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنَآوِلَهُ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يُصَغَّرَ الْمَصْحَفَ. رَوَى الْأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا يُصَغَّرُ الْمَصْحَفُ^(٢).

قلت: وزُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً في يد رجل، فقال: مَنْ كتبه؟ قال: أنا، فضرّبه بالدّرة، وقال: عَظُمُوا الْقُرْآنَ^(٣). وزُوي عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يقال: مُسَيِّجِد، أو مُصَيِّحِف^(٤).
وَمِنْ حُرْمَتِهِ: أَلَا يَخْلُطَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يُحْلَى بِالذَّهَبِ، وَلَا يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ، فَتُخَلَّطَ بِهِ زِينَةُ الدُّنْيَا. وَرَوَى
مَغِيرَةُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ^(٥)، أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُحْلَى الْمَصْحَفُ، أَوْ يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ، أَوْ

(۱) فی (ظ): کلام.

(۲) أخرج نحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ۲۴۴.

(٣) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص ٢٤٣.

(٤) لم يصح مرفوعاً، فيما ذكر ابن عدي في الكامل ١/٣٢٥، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/٥٤٤، وابن أبي داود في المصاحف ١٥٢ - ١٥٣، والبيهقي في الشعب من قول مجاهد، وأخرجه ابن أبي داود أيضاً في المصاحف ص ١٥٣ من قول إبراهيم النخعي. وينظر ميزان الاعتدال

٢٠٠/١، و٣٠٨/٣ - ٣٠٩ ترجمة إسحاق بن نجيج الملقب، وعيسى بن إبراهيم بن طهمان.

(٥) مغيرة: هو ابنُ مِقْسَمِ الضَّبِّي، وإبراهيم: هو ابن يزيد النخعي.

يَعْلَمُ عِنْدَ رُؤُوسِ الْآيِ، أَوْ يُصَغَّرَ. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا زَخَرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ، فَالْذَّبَارُ عَلَيْكُمْ»^(١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَدْ رَأَى مَصْحَفًا زَيْنَ بَفْضَةٍ: تُغْرُونَ بِهِ السَّارِقَ، وَزِينَتُهُ فِي جَوْفِهِ.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَلَّا يُكْتَبَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا عَلَى حَائِطٍ، كَمَا يُفْعَلُ بِهِذِهِ^(٢) الْمَسَاجِدَ الْمُخَدَّنَةِ. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّقِيقِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ سَفِيَّانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الزَّبِيرِ قَالَ: سَمِعْتُ عَمْرُ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْدُثُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكِتَابٍ فِي أَرْضٍ، فَقَالَ لِشَابٍّ مِنْ هُذَيْلٍ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، كَتَبَهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، لَا تَضَعُوا كِتَابَ اللَّهِ إِلَّا مَوْضِعَهُ»^(٣). قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الزَّبِيرِ: رَأَى عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنًا لَهُ يَكْتُبُ الْقُرْآنَ عَلَى حَائِطٍ، فَضَرَبَهُ. وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنَّهُ إِذَا اغْتَسَلَ بِكِتَابَتِهِ مُسْتَشْفِيًّا مِنْ سَقَمٍ، أَلَّا يَضُبَّهُ عَلَى كُنَاسَةٍ، وَلَا فِي مَوْضِعٍ نَجَاسَةٍ، وَلَا عَلَى مَوْضِعٍ يُوطَأُ، وَلَكِنْ نَاحِيَةً مِنَ الْأَرْضِ فِي بُقْعَةٍ، لَا يَطُوهُ النَّاسُ، أَوْ يَحْفَرَ حَفِيرَةً فِي مَوْضِعٍ طَاهِرٍ حَتَّى يَنْصَبَ مِنْ جَسَدِهِ فِي تِلْكَ الْحَفِيرَةِ، ثُمَّ يَكْبِسُهَا، أَوْ فِي نَهْرٍ كَبِيرٍ يَخْتَلِطُ بِمَائِهِ، فَيَجْرِي.

وَمِنْ حُرْمَتِهِ أَنْ يَفْتَتِحَهُ كُلَّمَا خَتَمَهُ، حَتَّى لَا يَكُونَ كَهَيْئَةِ الْمَهْجُورِ، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَتَمَ، يَقْرَأُ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ قَدْرَ خَمْسِ آيَاتٍ، لئَلَّا يَكُونَ فِي هَيْئَةِ الْمَهْجُورِ^(٤). وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالْحَالِّ الْمُرْتَجِلِ». قَالَ: وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَجِلُ؟ قَالَ: «صَاحِبُ الْقُرْآنِ، يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَهُ، ثُمَّ يَضْرِبُ فِي أَوَّلِهِ، كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ»^(٥).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الزُّهْدِ (٧٩٧)، وَأَبُو عُبَيْدٍ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ ص ٢٤٢، وَابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي الْمَصَاحِفِ ص ١٥٠ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَوْقُوفًا. قَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي الْفَوَائِدِ الْمَجْمُوعَةِ ص ٢٥: لَا يَصَحُّ رَفْعُهُ. اهـ. قَوْلُهُ: الذَّبَارُ، بِالْفَتْحِ: الْهَلَاكُ. النِّهَايَةُ (دَبْر).

(٢) فِي (م): بِهِ فِي.

(٣) إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ جَدًّا. مُحَمَّدُ بْنُ الزَّبِيرِ. وَهُوَ الْحَنْظَلِيُّ. مَتْرُوكٌ، ثُمَّ إِنَّ الْخَبَرَ مَرْسَلٌ، فَعَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ. أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. مِنَ التَّابِعِينَ.

(٤) ذَكَرَ نَحْوَهُ مَكِّي فِي الرِّعَايَةِ ص ٥٦.

(٥) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٩٤٨)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ ٢/ ٢٦٠، وَأَبُو الْفَضْلِ الرَّازِيُّ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ (٨٠)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (٢٠٠١). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ... وَإِسْنَادُهُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ. =

قلت: ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله:

ذكر أبو بكر الأنباري: أنبأنا إدریس، حدثنا خلف، حدثنا وكيع، عن مسعر، عن قتادة، أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن، جمع أهله، ودعا^(١). وأخبرنا إدریس، حدثنا خلف، حدثنا جریر، عن منصور، عن الحکم قال: كان مجاهد وعبد بن أبي لبابة^(٢) وقوم يعرضون المصاحف، فإذا أرادوا أن يختموا، وجَّهوا إلينا: أحضرونا، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن^(٣). وأخبرنا إدریس، حدثنا خلف، حدثنا هشيم، عن العوام، عن إبراهيم التيمي قال: من ختم القرآن أوّل النهار، صلّت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن ختم أوّل الليل، صلّت عليه الملائكة حتى يصبح. قال: فكانوا يستحبون^(٤) أن يختموا أوّل الليل، وأوّل النهار^(٥).

ومن حرّمته ألا تكتب التعاويذ منه، ثم تدخل به في الخلاء، إلا أن يكون في غلاف من آدم، أو فضة، أو غيره، فيكون كأنه في صدرك.

ومن حرّمه إذا كتبه وشربه، سمى الله على كل نفس، وعظم النية فيه، فإن الله يؤتيه على قدر نيته. روى ليث، عن مجاهد قال: لا بأس أن يكتب القرآن، ثم يسقيه^(٦) المريض. وعن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة، فليكتب «يس» في جام بزعفران، ثم يشربه^(٧).

= وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن ابن عباس مرسلًا، وقال: وهذا عندي أصح.

(١) أخرجه في فضائل القرآن أبو عبيد ص ٤٨، والفريابي (٨٥) (٨٦)، وابن الضريس (٨٤). وإسناده صحيح.

(٢) أبو القاسم الأسدي، ثم الغاضري مولا هم، الكوفي التاجر، أحد الأئمة، نزل دمشق، توفي في حدود سنة (١٢٧هـ). السير ٥/ ٢٢٩.

(٣) أخرجه في فضائل القرآن أيضاً أبو عبيد ص ٤٧ - ٤٨، والفريابي في (٨٧) و(٨٨) و(٨٩)، وابن الضريس (٨١)، وهو أثر صحيح.

(٤) في (د): يستحسنون.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٤٩، والدارمي في السنن (٣٤٧٧)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٥٠).

(٦) في (م): تكتب... يسقيه.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٦٨) وقال بإثره: وكان إبراهيم يكره ذلك، ولو صح الحديث لم يكن للكرامة معنى، إلا أن في صحته نظراً، والله أعلم. اهـ. أبو جعفر: هو الباقر. وقوله: جام: هو إناء من فضة.

قلتُ: ومن حُرِّمَتْهُ أَلَا يُقَالُ: سورة صغيرة. وكره أبو العالية أن يُقال: سورة صغيرة، أو كبيرة، وقال لمن سَمِعَهُ قَالَهَا: أنت أصغرُ منها، وأما القرآن، فكلُّه عظيم. ذكره مكِّي رحمه الله^(١).

قلتُ: وقد روى أبو داود ما يُعارضُ هذا من حديث عمرو بن شُعَيْب^(٢)، عن أبيه، عن جدِّه، أنه قال: ما مِنْ الْمُفْصَّلِ سُورَةٌ، صغيرة ولا كبيرة، إلا قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُوْثِّمُ بِهَا النَّاسَ فِي الصَّلَاةِ^(٣).

باب ماجاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي والجُرْأَةِ على ذلك، ومراتب المفسرين

رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفَسِّرُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا آيَا بَعْدَ، عَلَّمَهُ إِيَّاهُنَّ جِبْرِيلُ^(٤).

قال ابنُ عطية: ومعنى هذا الحديثُ في مُغَيِّبَاتِ الْقُرْآنِ، وتفسيرِ مُجْمَلِهِ، ونحو هذا مما لا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ^(٥) مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ جَمَلَةِ مُغَيِّبَاتِهِ مَا لَمْ يُعْلِمِ اللَّهُ بِهِ، كَوَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَنَحْوِهَا مِمَّا يُسْتَقْرَأُ مِنْ أَلْفَاظِهِ، كَعَدَدِ النَّفَخَاتِ فِي الصُّورِ، وَكَرْتِبَةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٦).

رَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَلَيَّ إِلَّا مَا

(١) الرعاية ص ٨٣.

(٢) هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، أبو إبراهيم، ويقال: أبو عبد الله. ورواية أبيه عن جدِّه إنما يعني بها جدُّه الأعلى عبد الله بن عمرو لا محمد بن عبد الله. تهذيب التهذيب ٢٧٩/٣.

(٣) سنن أبي داود (٨١٤). قوله: المُفْصَّلُ؛ ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢/٢٥٩ أنها من سورة ق إلى آخر القرآن على الصحيح، وذكر الإمام النووي في شرح مسلم ١٠٦/٦ أنه سمي مفصلاً لقصر سوره، وقرب انفصال بعضهم من بعض.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٤٥٢٨)، والبخاري (٢١٨٥) (زوائد). وإسناده ضعيف، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٧٠٣ وقال: فيه راو لم يتحرر اسمه عند واحد منهما، وبقي رجاله رجال الصحيح.

(٥) في (م): بتوقيف، وهو خطأ.

(٦) المحرر الوجيز ٤١/١.

علمتم، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). وَرَوَى أَيْضًا عَنْ جُنْدُبٍ^(٢) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ». قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَتُكَلِّمُ فِي أَحَدِ رَوَاتِهِ^(٣). وَزَادَ رَزِينُ: وَمَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ، فَأَخْطَأَ، فَقَدْ كَفَرَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ بَشَّارٍ مُحَمَّدُ الْأَنْبَارِيُّ النَّحْوِيُّ اللَّغْوِيُّ فِي كِتَابِ «الرَّدِّ»: فَسَّرَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ قَالَ فِي مُشْكِلِ الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَعْرِفُ مِنْ مَذْهَبِ الْأَوَّلِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَهُوَ مُتَعَرِّضٌ لِسَخَطِ اللَّهِ. وَالْجَوَابُ الْآخَرُ - وَهُوَ أَثْبَتُ الْقَوْلَيْنِ وَأَصَحُّهُمَا مَعْنَى -: مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلًا يَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ غَيْرُهُ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ. وَمَعْنَى يَتَّبِعُوا: يَنْزِلُ وَيَحُلُّ. قَالَ الشَّاعِرُ^(٤):

وَبُوءْتُ فِي صَمِيمٍ مَعْشَرِهَا فَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مُبَوُّوْهَا
وَقَالَ فِي حَدِيثِ جُنْدُبٍ: فَحَمَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى أَنَّ الرَّأْيَ مَعْنَى بِهِ الْهَوَى، مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلًا يُوَافِقُ هَوَاهُ، لَمْ يَأْخُذْهُ عَنْ أَثَمَةِ السَّلَفِ، فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ، لِحُكْمِهِ عَلَى الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَعْرِفُ أَصْلَهُ، وَلَا يَقِفُ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ الْأَثَرِ وَالنَّقْلِ فِيهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَمَعْنَى هَذَا أَنْ يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَنْ مَعْنَى مِنْ^(٥) كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

(١) سنن الترمذي (٢٩٥١) وقال: حديث حسن. وفيه: «اتقوا الحديث عني...». وهو في المسند برقم (٢٩٧٤). وسيدكره المصنف مختصراً ص ١٢٦. وقوله: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» من الأحاديث المتواترة. فتح الباري ١/٢٠٣، والأزهار المتناثرة (٢).

(٢) هو جندب بن عبد الله بن سفيان، أبو عبد الله البجلي العلقي، الصحابي، نزل الكوفة والبصرة، وعاش إلى حدود سنة (٧٠هـ). السير ٣/١٧٤.

(٣) في (د): بالقرآن.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٥٢)، وسنن أبي داود (٣٦٥٢)، وفي إسناده سهيل بن أبي حزم (مهران أبو عبد الله) القطعي، ضعفه البخاري وأبو حاتم الرازي والنسائي.

(٥) هو إبراهيم بن هزمة القرشي، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية. السير ٦/٢٠٧، والبيت في ديوانه ص ٥٧. وأورده الخليل في العين ٨/٤١١، وابن فارس في معجم مقاييس اللغة ١/٣١٢ باب الباء والواو (بوا)، وابن منظور في اللسان (بوا).

(٦) في (م): في.

فَيَتَسَوَّرُ^(١) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتَضَتْه قَوَانِينُ العلم، كالنحو والأصول. وليس يدخلُ في هذا الحديث أن يُفسَّرَ اللغويون لغته، والنَّحويون نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كلُّ واحد باجتهاده المبني على قَوَانِينِ علم ونظر، فإنَّ القائل على هذه الصفة ليس قائلًا بمجرد رأيه^(٢).

قلت: هذا صحيح. وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء، فإنَّ مَنْ قال فيه بما سَنَحَ في وَهمه، وخَطَرَ على باله، من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطيء، وإنَّ مَنْ اسْتَبْطَعَ معناه بِحَمْلِهِ على الأصول المُحَكَّمَةِ الْمُتَّفَقِ على معناها، فهو ممدوح.

وقال بعض العلماء: إِنَّ التفسيرَ موقوفٌ على السماع، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وهذا فاسدٌ، لأنَّ النهيَ عن تفسير القرآن لا يخلو: إمَّا أن يكون المرادُ به الاقتصارُ على النقل والمسموع، وترك الاستنباط، أو المرادُ به أمراً آخر. وباطل أن يكون المرادُ به ألا يتكلم أحدٌ في القرآن إلا بما سَمِعَهُ، فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا^(٣) القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كلُّ ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ، فإنَّ النبي ﷺ دعا لابن عباس، وقال: «اللَّهُمَّ فَقههُ في الدين، وعَلِّمهُ التأويل»^(٤). فإن كان التأويلُ مسموعاً كالتنزيل، فما فائدة تخصيصه بذلك؟! وهذا بين لا إشكال فيه، وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى^(٥).

وإنما النهي يُحمَلُ على أحدٍ وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميلٌ من طبعه وهواه، فيتأوَّل القرآن على وَفْقِ رأيه وهواه، ليحتجَّ على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى، لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

(١) في (ظ): فيتبور.

(٢) المحرر الوجيز ٤١/١.

(٣) في (م): قرؤوا.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣) دون قوله: «وعلمه التأويل»، من حديث ابن عباس، وأخرجه مسلم من حديثه (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهم فقهه»، وأخرجه بتمامه أحمد (٢٣٩٧).

(٥) في تفسير الآية المذكورة منها.

وهذا النوع يكون تارةً مع العلم، كالذي يحتجُّ ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعيته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه. وتارة يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية مُحتملة، فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه حمّله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة يكون له غرض صحيح، فيطلب له دليلاً من القرآن، ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول: قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] ويشير إلى قلبه، ويومئ إلى أنه المراد بفرعون.

وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعّاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو ممنوع، لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز. وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة، لتغريب الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزّلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مُرادّة. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار، والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير، ويأدر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي.

والنقل والسمع لا بدّ له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسّع الفهم والاستنباط.

والغرائب التي لا تفهم إلا بالسمع كثيرة، ولا مَطَمَع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا نُمَوِّدُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] معناه: آية مُبْصِرَة، فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مُبْصِرَة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار. وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين، فلا يتطرّق النهي إليه. والله أعلم.

قال ابن عطية^(١): وكان جِلَّةٌ من السلف الصالح، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وغيرهما، يُعْظَمُونَ تفسِيرَ القرآن، ويتوقَّفُونَ عنه تورُّعاً، واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدُّمهم.

قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورَّعون عن تفسير المُشْكِلِ من القرآن، فبعض يُقَدِّرُ أَنَّ الذي يُفسِّرُهُ لا يوافقُ مُرَادَ الله عزَّ وجلَّ، فيُحْجِمُ عن القول. وبعض يُشْفِقُ من أن يُجْعَلَ في التفسير إماماً يُبْنَى على مذهبه، ويُقْتَفَى طريقه، فلعلَّ متأخراً أن يُفسَّرَ حرفاً برأيه، ويُخطيء فيه، ويقول: إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف.

وعن ابن أبي مُليكة قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأين أذهبُ، وكيف أصنع، إذا قلتُ في حرف من كتاب الله بغير ما أَرَادَ تبارك وتعالى^(٢).

قال ابن عطية: وكان جِلَّةٌ من السلف كثيرٌ عددهم يُفسِّرون القرآن، وهم أبقوا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم. فأما صدرُ المفسرين والمؤيِّد فيهم، فعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوهُ عبدُ الله بنُ عباس، وهو تجرَّدٌ للأمر وكَمَلُهُ، وتَبِعَهُ^(٣) العلماء عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما. والمحمُوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي. وقال ابنُ عباس: ما أخذتُ من تفسير القرآن، فعن علي بن أبي طالب. وكان علي رضي الله عنه يُثْنِي على تفسير ابنِ عباس، ويَحْضُرُ على الأخذ منه^(٤)، وكان ابنُ مسعود^(٥) يقول: نِعَمَ تَرَجَمَانُ القرآنِ عبدُ الله بنُ عباس^(٦). وقال عنه علي رضي الله عنه: ابنُ عباس؛ كأنما ينظرُ إلى الغيب من ستر رقيق.

(١) المحرر الوجيز ٤١/١.

(٢) أورده البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧٩)، وهو منقطع. ابن أبي مليكة - وهو عبد الله بن عبيد الله - ليس له رواية عن أبي بكر.

(٣) في (د): وتفق.

(٤) في (م): عنه.

(٥) في (م): ابن عباس، وهو خطأ.

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٦/٢، والطبري في تهذيب الآثار (٢٦٨) (مسند ابن عباس).

ويتلوه عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة، فحسن مقدم^(١)، لشهودهم التنزيل، ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة^(٢) قال: شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب، فسمعتة يقول في خطبته: سلوني، فوالله، لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله، ما من آية إلا أنا أعلم ألبيل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل، فقام إليه ابن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات دزوا؟ وذكر الحديث^(٣).

وعن المنهال بن عمرو قال: قال عبد الله بن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبليغه المظي، لأتيته، فقال له رجل: أما لقيت علي بن أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته^(٤).

وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد ﷺ مثل الإخاذا: يُروي الواحد، والإخاذا يُروي الاثنين، والإخاذا لو ورد عليه الناس أجمعون لأضدّهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الإخاذا^(٥). ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب «الرد»، وقال: الإخاذا عند العرب: الموضع الذي يحبس الماء، كالغدير.

(١) المحرر الوجيز ٤١/١.

(٢) هو أبو الطفيل الليثي، الكناني، الحجازي، آخر من رأى النبي ﷺ في حجة الوداع، توفي بمكة سنة (١١٠هـ). السير ٤٦٧/٣.

(٣) أخرجه بتمامه ومختصراً عبد الرزاق في التفسير ٢٤١/٢، وابن سعد في الطبقات ٣٣٨/٢، والطبري في التفسير ٤٨١/٢١، والحاكم في المستدرک ٤٦٦/٢. ٤٦٧، والضياء المقدسي في المختارة ١٧٦/٢. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. ابن الكواء: هو عبد الله؛ قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ٣٢٩/٣: له أخبار كثيرة مع علي، وكان يلزمه ويُعيبه في الأسئلة، وقد رجع عن مذهب الخوارج، وعاود صحبة علي.

(٤) قوله: عن المنهال بن عمرو قال: قال عبد الله، فيه نظر، فقد ذكر ابن سعد الخبر في الطبقات ٢٠٢/٦ وقال: المنهال، وليس بابن عمرو، سمع عبد الله يقول: لو أن أحدا أعلم... فذكره. والمنهال بن عمرو، من رجال البخاري وأصحاب السنن، وروايته عن كبار التابعين. وقد أخرج الخبر بآتم منه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣) من طريق مسروق، عن عبد الله، دون ذكر الرجل.

(٥) قال ابن الأثير في النهاية: جمعه أُخذ، مثل كتاب وكتب، وقيل: هو جمع الإخاذا. قال: يعني أن فيه الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

قال أبو بكر: حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا سلام، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بها أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأفرضهم زيد، وأقروهم لكتاب الله عز وجل أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وأبو هريرة وعاء من العلم، وسلمان بحر من علم لا يدرك، وما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء - أو قال: البطحاء - من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»^(١).

قال ابن عطية: ومن المبرزين في التابعين: الحسن البصري، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة. قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم، ووقوف عند كل آية. ويتلوهم عكرمة، والضحاك، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير. وأما السدي^(٢)، فكان عامر الشعبي يطعن عليه، وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر^(٣).

(١) في هذا الحديث تفصيل، فإن إسناده ضعيف جداً. سلام - وهو ابن سلم الطويل - متروك الحديث، وزيد العمي ضعيف. وقد أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» ١٥٩/٢ من طريق سلام بالإسناد الذي أورده المصنف. وقوله منه: «أرحم أمتي بها أبو بكر...» إلى قوله: «وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»: أخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) (دون قوله: وأقضاهم علي)، وابن ماجه (١٥٤) (١٥٥) من حديث أنس بن مالك. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقوله منه: «وما أظلت الخضراء...»: أخرجه أحمد (٦٥١٩)، والترمذي (٣٨٠١) وحسنه، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٧٢٦) و(٢٧٤٩٣) من حديث أبي الدرداء. وأما قوله: «وأبو هريرة وعاء من العلم، وسلمان بحر من علم لا يدرك» فضعيف. وقد أخرج البخاري (٢٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس مرفوعاً: «إن لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وانظر ما ذكره البيهقي في السنن ٦/٢١٠، والحافظ ابن حجر في الفتح ٩٣/٧ حول وصل الحديث وإرساله. وقد أخرج البخاري (٤٤٨١) عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أبي، وأقضانا علي.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد الحجازي، وهو السدي الكبير، المفسر، مات سنة (١٢٧هـ) السير ٢٦٤/٥.

(٣) المحرر الوجيز ١/٢٤. أبو صالح: هو باذام - ويقال: باذان - مولى أم هانئ بنت أبي طالب.

قلتُ: وقال يحيى بن مَعِين^(١): الكلبي^(٢) ليس بشيء. وعن يحيى بن سعيد القَطَّان^(٣)، عن سفيان قال: قال الكلبي: قال أبو صالح: كلُّ ما حَدَّثْتُكَ كَذِبٌ. وقال حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ: كنا نسميه الدُرُوعُزَن^(٤). يعني أبا صالح مولى أُمِّ هانئ. والدُرُوعُزَن: هو الكذابُ بلغة الفُرس.

ثم حمل تفسيرَ كتاب الله تعالى عدولُ كلِّ خَلَفٍ، كما قال ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ». خرَّجه أبو عمر وغيره^(٥).

قال الخطيبُ أبو بكر أحمدُ بن علي البغدادي^(٦): وهذه شهادة من رسول الله ﷺ بأنهم أعلامُ الدِّين، وأئمةُ المسلمين، لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، وردُّ تأويل الأبله الجاهل، وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعول في أمر الدِّين عليهم، رضي الله عنهم.

قال ابن عطية: وألَّفَ النَّاسُ فِيهِ، كعبدِ الرزاق^(٧)، والمُفَضَّل^(٨)، وعلي بن أبي طلحة^(٩)،

(١) أبو زكريا، البغدادي، الحافظ، المجتهد، مات في طريق الحج سنة (٢٣٣هـ). السير ٧١/١١.

(٢) محمد بن السائب بن بشر، أبو النظر الكوفي، النشابة المفسر. قال ابن عدي في الكامل: رَضُوهُ فِي التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير.

(٣) التميمي البصري، أمير المؤمنين في الحديث، مات سنة (١٩٨هـ). السير ١٧٥/٩.

(٤) في (ظ): الدروغي. وهي نسبة إلى دروغ، بالفارسية، وتعني الكذب، ولم توجد اللفظة في (د) و(ز)، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في التمهيد ٥٩/١، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص ١١ و ٢٩ من حديث أبي هريرة وغيره، ونقل الخطيب البغدادي تصحيحه عن الإمام أحمد.

(٦) صاحبُ تاريخ بغداد وغيره من التصانيف، التي بَلَغَ عَدْدُهَا سِتَّةَ وَخَمْسِينَ مَصْنُفًا. توفي سنة (٤٦٣هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/٢٧٠.

(٧) هو ابنُ هُثَّام، أبو بكر الصنعاني، صاحب المصنف، توفي سنة (٢١١هـ). ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٢٩٦/١، وترجمته في سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٩.

(٨) هو ابنُ سَلَمَةَ، أبو طالب، توفي بعد التسعين ومئتين، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٣٢٨/٢، وله ترجمة في السير ٣٦٢/١٤.

(٩) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في تهذيب التهذيب: روى عن ابن عباس، ولم يسمع منه، وقال: نقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح، عنه، عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه لا يسميه. مات سنة (١٤٣هـ).

والبخاري، وغيرهم. ثم إنَّ محمد بن جرير رحمه الله، جَمَعَ على الناس أَشْتَاتَ التفسير، وَقَرَّبَ البعيدَ منها، وَشَفَى في الإسناد. ومن المُبرِّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزَّجَّاج^(١)، وأبو عليّ الفارسي^(٢). وأما أبو بكر النقَّاش^(٣)، وأبو جعفر النحاس^(٤)، فكثيراً ما استدرَك الناسُ عليهما. وعلى سَنَهِمَا مكِّي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأبو العباس المَهْدَوِي^(٥) متقنُ التَّأليف، وكلُّهم مجتهدٌ مأجورٌ، رحمهم الله، وَنَضَّرَ وجوههم^(٦).

باب تبين الكتاب بالسنة، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَّاكَ لَهَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وفَرَضَ طاعته في غير آية من كتابه، وَقَرَّنَهَا بطاعته عَزَّ وَجَلَّ، فقال تعالى: ﴿وَمَا ءَأْتَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنتهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ذكر ابنُ عبد البرِّ في كتاب «العلم» له، عن عبد الرحمن بن يزيد^(٧): أنه رأى مُحَرِّمًا عليه ثيابه، فنهى المُحَرِّمَ، فقال: ايتني بآية من كتاب الله تَنزِعُ ثيابي، قال:

(١) إبراهيم بن محمد بن السري البغدادى، النحوي، صاحب التصانيف، منها معاني القرآن. مات سنة (٣١١هـ)، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٧/١، وترجمته في السير ١٤/٣٦٠.

(٢) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، صاحب الحجة وغيره من التصانيف، مات سنة (٣٧٧هـ). السير ١٦/٣٧٩.

(٣) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي، له شفاء الصدور في التفسير، مات سنة (٣٥١هـ)، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٢/١٣١.

(٤) أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي، صاحب إعراب القرآن وغيره من التصانيف، مات سنة (٣٣٨هـ)، أورده الداودي في طبقات المفسرين ١/٦٨، وله ترجمة في السير ١٥/٤٠١.

(٥) أحمد بن عمار المهدوي، نسبة إلى المهديّة بالمغرب، توفي بعد (٤٣٠هـ). ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/٥٢.

(٦) المحرر الوجيز ١/٤٢.

(٧) النخعي، الفقيه، حدث عن عمر وعثمان، وثقه ابن معين، مات بعد الثمانين وقد شاخ. السير ٤/٧٨.

فقرأ عليه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. وعن هشام بن حجير^(١) قال: كان طاوس^(٢) يُصَلِّي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس: اتركهما، فقال: إنما نهى عنهما أن تتخذوا سنة، فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاة بعد العصر، فلا أدري، أتعدب عليهما^(٣) أم تؤجر؟ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]^(٤).

وروى أبو داود، عن المقدام بن معدي كرب^(٥)، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشيك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال، فأجلوه، وما وجدتم فيه من حرام، فحرّموه، ألا لا يحلّ لكم^(٦) الحمار الأهلي، ولا كلّ ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرّوه، فإن لم يقرّوه، فله أن يعقّبهم بمثل قرأه»^(٧).

قال الخطابي^(٨): قوله: «أوتيت الكتاب ومثله معه»: يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما: أن معناه: أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو.

والثاني: أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى، وأوتي من البيان مثله، أي: إذن له أن يبين ما في الكتاب، فيعمّ ويخصّ، ويزيد عليه، ويسرّع ما [ليس له] في الكتاب [ذكر]، فيكون [ذلك] في وجوب العمل به، ولزوم قبوله، كالظاهر المتلو من القرآن.

(١) المكي، ضعفه جماعة، وقواه آخرون، وروى له البخاري ومسلم. تهذيب التهذيب ٤/٢٦٧.

(٢) ابن كيسان، أبو عبد الرحمن الفارسي، ثم اليمني، الحافظ، الفقيه، مات سنة (١٠٦هـ). السير ٥/٣٨.

(٣) في (ظ): عليها.

(٤) جامع بيان العلم ص ٤٩٢.

(٥) الصحابي، يكنى أبا كريمة، وقيل غير ذلك، نزيل حمص، توفي سنة (٨٧هـ). السير ٣/٤٢٨.

(٦) في (د): لكم أكل.

(٧) سنن أبي داود (٤٦٠٤)، وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (١٧١٧٤).

(٨) في معالم السنن ٤/٢٩٨، وما بين حاصرتين منه.

وقوله: «يُوشِكُ رجلٌ شبعانٌ» الحديث. يُحَذَّرُ بهذا القول من مخالفة السنن التي سنّها^(١) مما ليس له في القرآن ذكر، على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب. قال: فتحيروا وضلّوا. قال: والأريكة: السرير، ويقال: إنه لا يُسمّى أريكة حتى يكون في حجلة^(٢). قال: وإنما أراد بالأريكة^(٣) أصحاب الثروة والدعة، الذين لزموا البيوت، ولم يطلبوا العلم من مظانّه.

وقوله: «إلا أن يستغني عنها صاحبها» معناه: أن يتركها صاحبها لمن أخذها؛ استغناء عنها، كقوله: «فَكْفَرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَفَقَى اللَّهُ» [التغابن: ٦]. معناه: تركهم الله استغناء عنهم.

وقوله: «فله أن يعقبهم بمثل قراءه». هذا في حال المضطر الذي لا يجد طعاماً، ويخاف التلّف على نفسه، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراءه عوض ما حرّمه من قراءه. و«يعقبهم» يروى مُشدّداً ومُخفّفاً، من المعاقبة، ومنه قوله تعالى: «وَأِنْ عَاقَبْتُمْ» [النحل: ١٢٦] أي: فكانت الغلبة لكم، فغنمتم منهم، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراءه^(٤).

قال: وفي الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يُعرَضَ على الكتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجة بنفسه. قال: فأما ما رواه بعضهم أنه قال: «إذا جاءكم الحديث، فاغرضوه على كتاب الله، فإن وافقه، فخذوه، وإن لم يوافقه، فردّوه»، فإنه حديث باطل، لا أصل له^(٥).

(١) في (د): يتنها.

(٢) في مختار الصحاح: الحجلة - بفتحيتين - واحدة جبال العروس، وهي بيت يُزيّن بالثياب والأسرة والستور.

(٣) في معالم السنن ٢٩٨/٤: وإنما أراد بهذه الصفة. وهو الأشبه.

(٤) من قوله: ويعقبهم يروى مشدداً ومخففاً، إلى هذا الموضع، ليس في المعالم.

(٥) إلى هذا الموضع من كلام الخطابي في المعالم، ونقل بعده عن ابن معين قوله: هذا حديث وضعته الزنادقة. اهـ. وقال الشافعي في الرسالة (٦١٨): ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغر ولا كبر، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٤٩٥: هذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، ونقل عن عبد الرحمن بن مهدي قوله: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث.

ثم البيان منه ﷺ على ضربين: بيان لمُجَمَّل في الكتاب، كبيانه للصَّلوات الخمس، في مواقيتها، وسجودها وركوعها، وسائر أحكامها، وبيانه لمقدار الزكاة ووقتها، وما الذي تُؤخَذُ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال ﷺ: إِذْ حَجَّ بالناس: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(١). وقال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي». أخرجه البخاري^(٢).

وروى ابن المبارك، عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك امرؤ^(٣) أحمق، أتجد الظُّهر في كتاب الله أربعاً، لا يُجهر فيها بالقراءة؟! ثم عدَّد عليه الصلاة والزكاة، ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسراً؟! إنَّ كتابَ الله تعالى أبهم هذا، وإنَّ السُّنة تفسِّر هذا.

وروى الأوزاعي^(٤)، عن حسان بن عطية^(٥) قال: كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسُّنة التي تفسِّر ذلك.

وروى سعيد بن منصور^(٦): حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن مكحول قال: القرآن أحوج إلى السُّنة من السُّنة إلى القرآن.

وبه عن الأوزاعي، قال: قال يحيى بن أبي كثير^(٧): السُّنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السُّنة. قال الفضل بن زياد^(٨): سمعتُ أبا عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - وسئل عن هذا الحديث الذي روي أن السُّنة قاضية على الكتاب،

(١) من قوله: ثم البيان منه ﷺ على ضربين... إلى هذا الموضع، من كلام ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٤٩٤ - ٤٩٥. والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٤٤١٩)، ومسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بلفظ: «لتأخذوا مناسككم»، وأخرجه باللفظ الذي أورده المصنف البيهقي في السنن ١٢٥/٥، وابن عبد البر في التمهيد ٧/٢٧٢.

(٢) صحيح البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث، وهو في المسند (٢٠٥٣٠).

(٣) في (م): رجل.

(٤) عبد الرحمن بن عمرو، أبو عمرو، عالم أهل الشام، مات سنة (١٥٧هـ). السير ١٠٧/٧.

(٥) المحاربي، مولاهم، الدمشقي، الفقيه العابد، مات بعد سنة (١٢٠هـ). السير ٤٦٦/٥.

(٦) أبو عثمان الخراساني، أحد أئمة الحديث، له كتاب السنن، توفي سنة (٢٢٧هـ). السير ٥٨٦/١٠.

(٧) أبو نصر الطائي، مولاهم، اليمامي، الحافظ، توفي سنة (١٢٩هـ). السير ٢٧/٦.

(٨) أبو العباس القطان، البغدادى، من أصحاب الإمام أحمد، وله عنه مسائل جياد. طبقات الحنابلة

للنابلسي ص ١٨٥.

فقال: ما أجسُرُ على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السُّنَّة تُفسَّرُ الكتاب وتُبيِّنُهُ^(١).
وبيان آخر: وهو زيادة على حكم الكتاب، كتحريم نكاح المرأة على عَمَّتِها
وخالَتِها، وتحريم الحُمُرِ الأهلِيَّةِ، وكلّ ذي ناب من السُّباع، والقضاء باليمين مع
الشاهد، وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

باب كيفية التعلُّم والفقه بكتاب الله تعالى، وسنّة نبيّه ﷺ، وما جاء أنّه سهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدّاني^(٢) في كتاب «البيان» له بإسناده، عن عثمان وابن مسعود
وأبي، أنّ رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يُجاوِزونها إلى عشر أخرى حتى
يتعلّموا ما فيها من العمل، فيعلّمنا^(٣) القرآن والعمل جميعاً^(٤).

وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن
السلمي قال: كنا إذا تعلّمنا عشر آيات من القرآن، لم نتعلّم العشر التي بعدها حتى
نعرف حلالها وحرامها، وأمرها ونهيها^(٥).

وفي «موطأ» مالك: أنّه بلغه أنّ عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانين
سنين يتعلّمها^(٦).

وذكر أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الحافظ^(٧) في كتابه المسمى^(٨): «أسماء من

(١) من قوله: وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين... إلى هذا الموضع، من كلام ابن عبد البر في
جامع بيان العلم ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) هو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي مولا هم، الأندلسي، ثم القرطبي ثم الداني، إليه المنتهى في
تحرير علم القراءات، مصنف التيسير وجامع البيان وغير ذلك. توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٨/٧٧.

(٣) في (ز) و(ظ): فتعلّمنا.

(٤) أخرج الحاكم في المستدرک ١/٥٥٧، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٣) عن ابن مسعود قال: كنا
إذا تعلّمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلّم من العشر التي أنزلت بعدها حتى نتعلّم ما فيه.
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٥) مصنف عبد الرزاق (٦٠٢٧).

(٦) الموطأ ١/٢٠٥.

(٧) هو الخطيب البغدادي، وكتابه المذكور «الرواة عن مالك» ذكره الذهبي في السير ١٨/٢٩٠.

(٨) في النسخ الخطية: المسمى في ذكر، والمثبت من (م).

رَوَى عَنْ مَالِكٍ: عَنْ مِرْدَاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَبِي بِلَالٍ الْأَشْعَرِيِّ^(١) قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: تَعَلَّمَ عُمَرُ الْبَقْرَةَ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا خَتَمَهَا، نَحَرَ جَزُوراً^(٢).

وَذَكَرَ أَبُو بَكْرِ الْأَنْبَارِيُّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ شَهْرِيَارٍ، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ الْأَسْوَدِ^(٣)، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ أَبِي عَمْرِو^(٤)، عَنْ زِيَادِ بْنِ مَخْرَاقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّا صَعَبَ عَلَيْنَا حِفْظُ الْقُرْآنِ^(٥)، وَسَهَّلَ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعَدَنَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ حِفْظُ الْقُرْآنِ، وَيَصْعَبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِهِ.

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا يَوْسُفُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهَاجِرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كَانَ الْفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا السُّورَةَ، أَوْ نَحْوَهَا، وَرَزَقُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، مِنْهُمْ الصَّبِيُّ وَالْأَعْمَى^(٦)، وَلَا يُرْزَقُونَ الْعَمَلَ بِهِ^(٧).

حَدَّثَنِي حَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي الْعَنْبَرِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ حَمَادٍ الْمَقْرِيءُ، قَالَ: سَمِعْتُ خَلْفَ بْنَ هِشَامٍ الْبَزَّارِ يَقُولُ: مَا أَظُنُّ الْقُرْآنَ إِلَّا عَارِيَّةً فِي أَيْدِينَا، وَذَلِكَ أَنَا رَوَيْنَا أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَفَظَ الْبَقْرَةَ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، فَلَمَّا حَفِظَهَا، نَحَرَ جَزُوراً شُكْرًا لِلَّهِ، وَإِنَّ الْغَلَامَ فِي دَهْرِنَا هَذَا يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيَّ، فَيَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، لَا يُسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا، فَمَا أَحْسَبُ الْقُرْآنَ إِلَّا عَارِيَّةً فِي أَيْدِينَا.

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٥٠٧/٤ وقال: ضعفه الدارقطني.

(٢) وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٧).

(٣) هو الحسين بن علي بن الأسود، نسبة إلى جدّه. قال الحافظ في التقریب: صدوق يخطئ كثيراً.

(٤) في النسخ (م): أبي عمرو، والتصويب من تهذيب الكمال، وهو زياد بن مسلم أو ابن أبي مسلم أبو عمر الفراء البصري، صدوق فيه لين.

(٥) في (م): ألفاظ القرآن.

(٦) في (م): والأعمى.

(٧) وأخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن (٣٥). إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر وأبوه ضعيفان.

وقال أهل العلم بالحديث: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه، دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بباطل، وليكن تحفظه للحديث على التدرج، قليلاً قليلاً مع الليالي والأيام.

وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث: شعبة، وابن علية^(١)، ومعمّر^(٢). قال معمّر: سمعت الزهري^(٣) يقول: مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَاتَهُ جُمْلَةٌ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْعِلْمَ حَدِيثًا وَحَدِيثَيْنِ^(٤)، والله أعلم.

وقال معاذ بن جبل: اعلّموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا^(٥).

وقال ابن عبد البر: ورؤي عن النبي ﷺ مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد [عن أنس]. وفيه زيادة: إن العلماء همّتهم الدراية^(٦)، وإن السفهاء همّتهم الرواية. ورؤي موقوفاً، وهو أولى من رواية من رواه مرفوعاً، وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به^(٧).

ولقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم، وشرف الكتاب العزيز والسنة الغراء فقال^(٨):

إِنَّ الْعُلُومَ وَإِنْ جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَتَاجُهَا مَا بِهِ الْإِيمَانُ قَدْ وَجَبَا
هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ اللَّهُ يَحْفَظُهُ وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَجَ الْكُرْبَا

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم، أبو بشر الكوفي، الحافظ، وعُليّة أمه. مات سنة (١٩٣هـ). السير ١٠٧/٩.

(٢) ابن راشد، أبو عروة، الأزدي، نزيل اليمن، الحافظ، توفي سنة (١٥٣هـ) السير ٥/٧.

(٣) هو محمد بن مسلم بن شهاب، أبو بكر القرشي، حافظ زمانه، توفي سنة (١٢٤هـ) السير ٣٢٦/٥.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي (٤٤٩).. (٤٥٣)، وجامع بيان العلم ص ١٣٨.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٢)، والدارمي (٢٦٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/٢٣٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٤٤.

(٦) في جامع بيان العلم ص ٢٤٥: الوعاية.

(٧) جامع بيان العلم ص ٢٤٥، وما بين حاصرتين زيادة منه. عباد بن عبد الصمد؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/٣٦٩: واه، ونقل عن الشافعي قوله فيه: منكر الحديث، وذكر عن ابن حبان أن له عن أنس نسخة أكثرها موضوعة.

(٨) قوله: فقال، من (ظ).

فذاك فاعلم حديث المصطفى فيه
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها
فالعلم كنز تجده في معادينه
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت
واقرأ هديت حديث المصطفى وسلن^(١)
من ذاق طعماً ليعلم الدين سر به
نور النبوة سن الشرع والأدب
فاختر لنفسك يامن أثر الطلب
ياأيها الطالب ابحث وانظر الكتب
كل العلوم تدبره تر العجبا
مولاك ماتشتهي يقضي لك الأربا
إذا تزيد منه قال واظربا

باب معنى قول النبي ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»

روى مسلم عن أبي بن كعب، أن النبي ﷺ كان عند أضواء بني غفار، فاتاه جبريل عليه السلام، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتِهِ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أَمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ». ثم أتاه الثانية، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتِهِ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أَمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ». ثم جاءه الثالثة، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتِهِ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أَمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ». ثم جاءه الرابعة، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأُوا عَلَيْهِ، فَقَدْ أَصَابُوا^(٢).

وروى الترمذي عنه، قال: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جبريل، فقال: «يَا جَبْرِيلُ، إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، مِنْهُمْ الْعَجُوزُ، وَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْعُلَامُ، وَالْجَارِيَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ كِتَابًا قَطُّ، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ». قال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

وثبت في الأمهات: البخاري، ومسلم، والموطأ، وأبي داود، والنسائي،

(١) في (ز): ثم سل.

(٢) صحيح مسلم (٨٢١)، وهو في مسند أحمد (٢١١٧٢). قوله: أضواء بني غفار؛ قال ابن الأثير في النهاية (أض): الأضواء بوزن الحصة: الغدير، وجمعها أضى وإضاء، كأثم وإكام.

(٣) سنن الترمذي (٢٩٤٤). ولفظة «حسن» ليست في (م).

وغيرها من المصنّفات والمسندات، قصة عمر مع هشام بن حَكِيم^(١)، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبيّناً إن شاء الله تعالى^(٢).

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حَبَّان البُستيّ^(٣)، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال:

الأول: وهو الذي عليه أكثر أهل العلم، كسفیان بن عُيَيْنَةَ، وعبد الله بن وَهَب، والطَّبْرِيّ، والطَّحَاوِيّ^(٤)، وغيرهم، أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بالفاظ مختلفة، نحو: أَقْبِلْ، وَتَعَالَ، وَهَلُمَّ^(٥).

قال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بَكْرَةَ^(٦) قال: جاء جبريلُ إلى النبي ﷺ، فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده. حتى بلغ إلى سبعة أحرف، فقال: اقرأ، فكل شاف كاف، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو: هَلُمَّ، وَتَعَالَ، وَأَقْبِلْ، وَاذْهَبْ، وَأَسْرِعْ، وَعَجِّلْ^(٧).

وروى ورقاء، عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا أَتْرُونَ﴾ [الحديد: ١٣]: للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرجونا، للذين آمنوا ارقبونا. وبهذا الإسناد عن أبي، أنه كان يقرأ ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: مروا فيه، سَعَوْا فيه^(٨).

(١) الصحابي ابن الصحابي حكيم بن حزام، توفي أول خلافة معاوية. السير ٥١/٣.

(٢) ص ٨١، فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام، ونذكر تخريجه ثمة.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ٢٣/٩ ما أورده المصنف عن ابن حبان في عدد الأقوال في الأحرف السبعة، وقال: لم أقف على كلام ابن حبان في هذا بعد تبني مظانه من صحيحه.

(٤) هو أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر، الأزدي، الحافظ، له شرح مشكل الآثار ومعاني الآثار، وغير ذلك، مات سنة (٣٢١هـ) السير ٢٧/١٥.

(٥) تفسير الطبري ٤٥/١.

(٦) تُفيع بن الحارث، الثقف، الطائفي، مولى النبي ﷺ، وكان من فقهاء الصحابة. مات سنة (٥١هـ). السير ٥/٣.

(٧) شرح مشكل الآثار (٣١١٨). وفيه: اقرأه، بدل: اقرأ. وقد نقل المصنف كلام الطحاوي بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٨/٢٩٠.

(٨) التمهيد ٨/٢٩١.

وفي البخاري ومسلم: قال الزُّهريُّ: إنما هذه الأحرفُ في الأمر الواحد، ليس يختلفُ في حلال ولا حرام^(١).

قال الطحاوي: إنما كانت السَّبعة^(٢) للنَّاس في الحروفِ لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم^(٣)، لأنَّهم كانوا أمِّيِّين، لا يكتبُ إلا القليلُ منهم، فلما كان^(٤) يَشُقُّ على كل ذي لغة أن يتحوَّل إلى غيرها من اللغات، ولو رامَ ذلك، لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، فوسَّعَ لهم في اختلافِ الألفاظ إذ كان المعنى متَّفِقاً، فكانوا كذلك حتَّى كثر منهم مَنْ يكتبُ، وعادَتْ لغاتهم إلى لسانِ رسول الله ﷺ، فقرأوا^(٥) بذلك على تحفُّظ ألفاظه، فلم يَسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها^(٦).

قال ابنُ عبد البر: فبانَ بهذا أنَّ تلك السَّبعة الأحرفِ إنما كان في وقت خاصٍّ لضرورة دَعَتْ إلى ذلك، ثمَّ ارتفعت تلك الضُّرورة، فارتفعَ حُكمُ هذه السَّبعة الأحرفِ، وعاد ما يقرأ به القرآنُ إلى^(٧) حرف واحد^(٨).

وروى أبو داود عن أبيِّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أباي، إني أُقرئتُ القرآنَ، فقليلٌ لي: على حرف، أو حرفين؟ فقال المَلَكُ الذي معي: قل: على حرفين. [قلت: على حرفين]، فقليلٌ لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال المَلَكُ الذي معي: قل: على ثلاثة. [قلت: على ثلاثة] حتَّى بلغ سبعة أحرف، ثمَّ قال: ليس

(١) ليس هو في صحيح البخاري، وذكره مسلم بإثر الحديث (٨١٩)، وذكره أيضاً الطبري ٢٧/١، والطحاوي بإثر الحديث (٣١١٦).

(٢) في (ظ) و(م): السعة، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لشرح مشكل الآثار والتمهيد. (تنظر التعليقات الثلاثة التالية).

(٣) في (ظ): لغتهم.

(٤) في التمهيد ٢٩٤/٨: «فكان»، بدل: «فلما كان»، وهو الأشبه.

(٥) في (م): فقرأوا.

(٦) كلام الطحاوي هذا قاله في شرح مشكل الآثار ١٢٥/٨ و ١١٧ - ١١٨، وقد نقله عنه ابن عبد البر في التمهيد ٢٩٤/٨، ونقله المصنف هنا عن ابن عبد البر.

(٧) في (م): على.

(٨) التمهيد ٢٩٤/٨.

منها^(١) إلا شافٍ كافٍ، إن قُلْتَ: سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تَخْلِطْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أو آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ^(٢).

وأُسند ثابتٌ بن قاسم^(٣) نحوَ هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه^(٤).

قال القاضي ابنُ الطَّيِّبِ^(٥): وإذا ثَبَّتْ هذه الرواية - يريدُ حديثَ أبي - حُيِّلَ على أنَّ هذا كان مُطْلَقاً، ثم نُسخ، فلا يجوز للنَّاس أن يُبدِّلوا اسماً لله تعالى في موضع بغيره ممَّا يوافقُ معناه أو يُخَالِفُ^(٦).

القولُ الثاني: قال قومٌ: هي سبعُ لغات في القرآن على لغاتِ العرب^(٧)، يَمْنِها وزارِها، لأنَّ رسولَ الله ﷺ لم يَجْهَلْ شيئاً منها، وكان قد أُوتِيَ جَوَامِيعَ الكَلِمِ، وليس معناه أن يكونَ في الحرف الواحدِ سبعةً أوجه، ولكنَّ هذه اللُّغاتِ السَّبعُ مُتَفَرِّقَةٌ في القرآن، فبعضُه بلغةِ قريش، وبعضُه بلغةِ هُذَيْل، وبعضُه بلغةِ هَوَازِن، وبعضُه بلغةِ اليَمَن.

قال الخطَّابي: على أنَّ في القرآن ما قد قُرِئَ بسبعةِ أوجه، وهو قوله: ﴿وَعَبَدَ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]. وذكر

(١) في (ظ): فيها.

(٢) سنن أبي داود (١٤٧٧) وما بين حاصرتين منه، وفيه: ما لم تختتم آية عذاب برحمة...

(٣) ثابت بن قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن العوفي، من أهل سَرْقُسْطَة، حدَّث بكتاب أبيه المسمى الدلائل (وهو في شرح الحديث). توفي سنة (٣٥٢هـ). كذا في تاريخ علماء الأندلس ١/ ١٠٠. وجاء في ترجمة أبيه قاسم بن ثابت ٣٦١/ ١ صاحب الدلائل: بلغ فيه الغاية من الإتقان، ومات قبل إكماله (سنة ٣٠٢هـ)، فأكماله أبوه ثابت بعده. وانظر جذوة المقتبس ص ٣٣١.

(٤) حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٣٩٠)، وكلام ابن مسعود أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٠٧، والطبري ٤٦/ ١.

(٥) في النسخ الخطية: أبو الطيب، والمثبت من (م)، وهو الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، البصري، ثم البغدادي، المعروف بابن الباقلاني، صاحب الانتصار للقرآن وغيره من التصانيف، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه. مات سنة (٤٠٣هـ). السير ١٧/ ١٩٠.

(٦) من قوله: وأُسند ثابت بن قاسم، إلى هذا الموضع، من كلام ابن عطية في تفسيره ٤٤/ ١.

(٧) في (م): لغات العرب كلها.

وجوهاً، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف، لا كُله^(١).

وإلى هذا القول - بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات - ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام، واختاره ابن عطية^(٢). قال أبو عبيد: وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس، أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف: ما اختلفتم أنتم وزيد، فاكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهم^(٣). ذكره البخاري^(٤). وذكر حديث ابن عباس قال: نزل القرآن بلغة الكعبيين: كعب قريش، وكعب خزاعة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الدار واحدة. قال أبو عبيد: يعني أن خزاعة جيران قريش، فأخذوا بلغتهم^(٥).

قال القاضي ابن الطيب^(٦) رضي الله عنه: معنى قول عثمان: فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يقل: قُرْشِيًّا، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب، وليس لأحد أن يقول: إنه أراد قُرْشِيًّا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً.

وقال ابن عبد البر: قول من قال: إن القرآن نزل بلغة قريش، معناه عندي: في الأغلب. والله أعلم. لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات، من تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهيمز^(٧).

(١) ليس هذا الكلام كله للخطابي، إنما نقل الخطابي عن ابن الأنباري كلامه في الآيتين المذكورتين، ثم قال: وذكر وجوهاً...، كأنه يذهب (يعني ابن الأنباري) في تأويل الحديث... الخ. انظر معالم السنن ٢٩٣/١.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٠٣، والمحرم الوجيز ٤٦/١.

(٣) في فضائل القرآن ص ٢٠٣: فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٨٧).

(٥) فضائل القرآن ص ٢٠٤.

(٦) في النسخ الخطية: أبو الطيب، والمثبت من (م).

(٧) التمهيد ٨/٢٨٠.

وقال ابن عطية: معنى قول النبي ﷺ: «أُنزِلَ القرآن على سبعة أحرف» أي: فيه ^(١) عبارة سبع قبائل، بلغة جُمَلَتِها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مرةً بعبارة قريش، ومرةً بعبارة هذيل، ومرةً بغير ذلك، بحسب الألفصح، والأوجز في اللفظ. ألا ترى أن «فَطَرَ» معناه عند غير قريش: ابتداء، فجاءت في القرآن، فلم تَنجِهْ لابن عباس، حتَّى اختَصَمَ إليه أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، قال ابن عباس: ففهمْتُ حينئذٍ موقع ^(٢) قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. وقال أيضاً: ما كنتُ أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَن تقول لزوجها: تَعَالِ أَفَاتِحَكَ، أي: أْحَاكِمَكَ.

وكذلك قال عمرُ بن الخطاب، وكان لا يفهمُ معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُ عَلَى غُرُوبٍ﴾ [النحل: ٤٧] أي: على تَنَقُّصٍ لهم.

وكذلك اتَّفَقَ لُقْطَبَةُ بن مالك ^(٣)، إذ سَمِعَ النبي ﷺ يقرأ في الصَّلَاة: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق: ١٠]. ذكره مُسْلِمٌ في باب القراءة في صلاة الفجر ^(٤) إلى غير ذلك من الأمثلة ^(٥).

القول الثالث: أن هذه اللُّغَاتِ السَّبْعَةَ إنما تكون في مُضَر. قاله قومٌ، واحتجُّوا بقول عثمان: نزل القرآن بلُغَةِ مُضَر، وقالوا: جائزٌ أن يكونَ منها لُقَريش، ومنها لِكِنَانَةَ، ومنها لَأَسَد، ومنها لِهَذِيل، ومنها لَتَمِيم ^(٦)، ومنها لِضَبَّة، ومنها لِقيس، قالوا: هذه قبائلُ مُضَر تستوعبُ سبعَ لغاتٍ على هذه المراتبِ، وقد كان ابنُ مسعود يُحِبُّ أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مُضَر ^(٧). وأنكر آخرون أن تكونَ كُلُّها في ^(٨) مُضَر، وقالوا: في مُضَر شواذٌ لا يجوزُ أن يُقرأ القرآن بها، مثلُ كَشَكْشَةِ قَيْس،

(١) في (ز): في.

(٢) في (م): موضع.

(٣) الثعلبي، ويقال: الذيباني، من أهل الكوفة، وهو عم زياد بن علاقة، وهو ممن أخرج لهم مسلم في الصحابة دون البخاري. الإصابة ٨/ ١٦٥.

(٤) صحيح مسلم (٤٥٧)، وهو عند أحمد (١٨٩٠٣).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٦ - ٤٧، وانظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٧١ - ٧٢.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): لقيم، ولم ترد في (ز)، والمثبت من التمهيد ٨/ ٢٧٧.

(٧) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٠٥.

(٨) في (م): من.

وَعَنْتَةَ^(١) تميم. فأما كَشَكْشَةُ قيس، فإنهم يجعلون كافَ المؤنثِ شِيناً، فيقولون في ﴿جَعَلَ رَبُّكَ تَحَكَّ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]: «جعل رَبُّشِ تحتشِ سَرِيًّا». وأما عَنْتَةُ تميم، فيقولون [في أن: عن، فيقولون: «عَسَى الله عن يَأْتِي بالفتح»، وبعضهم يُبدلُ السين تاءً، فيقول [في النَّاسِ: النَّات، وفي أَكْيَاس: أَكِيَات^(٢)]. قالوا: وهذه لُغَاتٌ يُرْغَبُ عن القرآن بها، ولا يُحَفَظُ عن السَّلَفِ فيها شيءٌ.

وقال آخرون: أمّا بدل^(٣) الهمزة عَيْنًا، وبدل حروفِ الحلق بعضها من بعض، فمشهورٌ عن الفُصحَاءِ، وقد قرأ به الجِلَّةُ، واحتجُّوا بقراءة ابنِ مسعود: «لَيْسُ جُنَّتُهُ عَتَّى حِينَ». ذكرها أبو داود^(٤)، ويقولُ ذي الرُّمَّة^(٥):

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا وَلَوْنُكِ إِلَّا عَنَّا غَيْرُ طَائِلٍ
يريدُ: إلا أَنَّهَا.

القولُ الرَّابِعُ: ما حكاه صاحبُ «الدَّلَائِلِ»^(٦) عن بعضِ العلماء، وحكى نحوه القاضي ابنُ الطَّيِّبِ^(٧) قال: تَدَبَّرْتُ وَجُوهَ الاختلافِ في القراءة، فوجدتها سبعة: منها: ما تَتَغَيَّرُ حركته، ولا يزولُ معناه ولا صورته، مثل: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] وأَطْهَرَ^(٨)، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] وَيَضِيقُ^(٩).

- (١) تحرف في النسخ الخطية و(م) (في الموضعين) إلى: تمتة، ونقله الزرقاني في مناهل العرفان ١٧٥/١.
- وَعَنْتَةُ تميم: إبدالهم العين من الهمزة كما سيمثل له المصنف.
- (٢) وهو الوتم في لغة اليمن، كما في المزهر للسيوطي ٢٢٣/١.
- (٣) في (م) (في الموضعين): إبدال.
- (٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٧٨/٨ من طريق أبي داود السجستاني، (وليس هو في سنته). وقراءة ابن مسعود هذه ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٣. وقد نقل المصنف القول الثالث بتمامه من التمهيد ٢٧٧/٨. ٢٧٨، وما بين حاصرتين منه.
- (٥) هو غِيلَان بن عقبة بن بُهَيْش، أبو الحارث، من فحول الشعراء، مات بأصبهان سنة (١١٧هـ). سير أعلام النبلاء ٢٦٧/٥، والبيت في ديوانه ١٣٤١/٢.
- (٦) هو قاسم بن ثابت السَّرْقُطِيُّ، سلفت ترجمته ص ٧٤.
- (٧) في الانتصار ص ٢٥٢ - ٢٥٥ مخطوط نشرة سزكين.
- (٨) بالنصب، وهي قراءة شاذة، ذكرها ابن خالويه في كتابه ص ٦٠، وابن جني في المحتسب ٣٢٥/١، ونقل أبو حيان في البحر المحيط ٢٤٧/٥ عن سيويه قوله: هو لحن.
- (٩) بالنصب، عطف على «يكذبون» في الآية قبلها، وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر النشر ٣٣٥/٢.

ومنها: ما لا تَتَغَيَّرُ صُورَتُهُ، ويتَغَيَّرُ معناه بالإعراب، مثل: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [سبا: ١٩]، و﴿رَبَّنَا بَعْدَ^(١)﴾.

ومنها: ما تَبْقَى صُورَتُهُ، ويتَغَيَّرُ معناه باختلاف الحروف، مثل قوله: ﴿كُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ونُشِرُهَا^(٢).

ومنها: ما تَتَغَيَّرُ صُورَتُهُ، ويبقى معناه: ﴿كَالْمُهِنِ الْمَفْشُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وكالصُوفِ الْمَفْشُوشِ^(٣).

ومنها: ما تَتَغَيَّرُ صُورَتُهُ ومعناه، مثل: ﴿وَطَلَحَ مَنُضُودٌ﴾ [الواقعة: ٢٩]: وَطَلَحَ مَنُضُودٌ^(٤).

ومنها: بالتَّقديم والتَّأخير، كقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]: وجاءت [سكرة] الحقُّ بالموت^(٥).

ومنها: بالزِّيَادَةِ والنَّقْصَانِ، مثل قوله: «تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أَتْنَى»^(٦)، وقوله: «وَأَمَّا الْعَلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ»^(٧)، وقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لَهَنٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(٨).

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى، وهي أمرُ

(١) أي على جهة الخبر، وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) من: أنشَرَ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو من السبعة، وأبي جعفر ويعقوب من العشرة. انظر السبعة ص ١٨٩، والتيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢٣١. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٦ لأبان عن عاصم: نُشِرُهَا، بفتح النون، ونسبها صاحب إتحاف فضلاء البشر ص ٢٠٨ للحسن.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٧٨ لابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٥١، أن علياً رضي الله عنه قرأها على المنبر، فقيل له: أفلا نغيره في المصحف؟ قال: ما ينبغي للقرآن أن يُهاج، أي: لا يغير.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٤ لأبي بكر الصديق وأبي رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ٤٣/ ١ وقد حكاه ابن عطية عن صاحب الدلائل وابن الطيّب الباقلائي، ونسب ابن خالويه لابن مسعود رضي الله عنه في القراءات الشاذة ص ١٣٠ قراءة: ولي نعجة أتني. وانظر التمهيد ٨/ ٢٩٥.

(٧) ذكرها ابن عطية في تفسير الآية (٨٠) المذكورة من سورة الكهف، ونسبها لأبي، وانظر البحر المحيط ١٥٤/ ٦.

(٨) نسبها ابن جني في المحتسب ١٠٨/ ٢ لابن عباس، وسعيد بن جبير. وذكرها ابن عطية في تفسيره ١٨٢/ ٤، ونسبها لابن مسعود وجابر وسعيد بن جبير.

وَنَهْيٍ، وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ، وَقَصَصٌ، وَمُجَادَلَةٌ وَأَمَثَالٌ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَهَذَا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُسَمَّى أَحْرَفًا، وَأَيْضًا؛ فَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ التَّوْسِعَةَ لَمْ تَقَعْ فِي تَحْلِيلِ حَلَالٍ^(١)، وَلَا فِي تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي. وَذَكَرَ الْقَاضِي ابْنُ الطَّيِّبِ فِي هَذَا الْمَعْنَى حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: وَلَكِنْ لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الَّتِي أَجَازَ لَهُمُ الْقِرَاءَةَ بِهَا، وَإِنَّمَا الْحَرْفُ فِي هَذِهِ بِمَعْنَى الْجَهَةِ وَالطَّرِيقَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] فَكَذَلِكَ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى سَبْعِ طَرَائِقَ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ^(٢).

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ الَّتِي قُرِئَ بِهَا الْقُرْآنُ السَّبْعَةُ، لِأَنَّهَا كُلُّهَا صَحَّتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، لظُهُورِ بَطْلَانِهِ عَلَى مَا يَأْتِي.

فصل

قَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَائِنَا، كَالدَّادُودِيِّ^(٣)، وَابْنِ أَبِي صُفْرَةَ^(٤)، وَغَيْرِهِمَا: هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ الَّتِي تُنسَبُ لَهُؤُلَاءِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ، لَيْسَتْ هِيَ الْأَحْرَفُ السَّبْعَةُ الَّتِي اتَّسَعَتْ الصَّحَابَةُ فِي الْقِرَاءَةِ بِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ السَّبْعَةِ، وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ عَلَيْهِ عِثْمَانُ الْمُصْحَفَ، ذَكَرَهُ ابْنُ النَّحَّاسِ وَغَيْرُهُ. وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الْمَشْهُورَةُ هِيَ اخْتِيَارَاتُ أُولَئِكَ الْأَثَمَةِ الْقُرَّاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اخْتَارَ - فِيمَا رَوَى، وَعَلِمَ وَجْهَةً مِنَ الْقِرَاءَاتِ - مَا هُوَ الْأَحْسَنُ عِنْدَهُ وَالْأَوَّلَى، فَالْتَزَمَهُ طَرِيقَةً، وَرَوَاهُ وَأَقْرَأَ بِهِ، وَاشْتَهَرَ عَنْهُ، وَغُرِفَ بِهِ، وَنُسِبَ إِلَيْهِ، فَقِيلَ: حَرْفٌ نَافِعٌ، وَحَرْفُ ابْنِ كَثِيرٍ، وَلَمْ يَمْنَعْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ اخْتِيَارَ الْآخَرِ، وَلَا أَنْكَرَهُ، بَلْ سَوَّغَهُ وَجَّوْزَهُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّبْعَةِ رُوِيَ عَنْهُ اخْتِيَارَانِ، أَوْ أَكْثَرَ، وَكُلُّ صَحِيحٍ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ

(١) فِي الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ ٤٣/١: أَنَّ التَّوْسِعَةَ لَمْ تَقَعْ فِي تَحْرِيمِ حَلَالٍ، وَلَا تَحْلِيلِ حَرَامٍ.

(٢) الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ ٤٣/١ - ٤٤، وَفِيهِ كَلَامُ ابْنِ الْبَاقِلَانِيِّ السَّالِفِ.

(٣) لَعَلَّهُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ الدَّادُودِي الْأَسَدِي؛ ذَكَرَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ ٦٢٣/٤ وَقَالَ:

مِنْ أَثَمَةِ الْمَالِكِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، وَالتَّسْمِينِ بِالْعِلْمِ، الْمَجِيدِينَ لِلتَّأْلِيفِ... تَوَفَّى بِتَلْمِيسَانَ سَنَةِ (٤٠٢هـ).

(٤) هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ أَخُو أَبِي الْقَاسِمِ الْمَهْلَبِ، سَمِعَ مِنَ الْأَصِيلِيِّ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ

أَصْحَابِهِ، وَتَوَفَّى بِالْقَيْرَوَانِ. تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ ٧٥٢/٤، وَ٢٠١/٢، وَإِكْمَالُ الْمَعْلَمِ ١٩٠/٣.

في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صَحَّ عن هؤلاء الأئمة مما رَوَّه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات، فاستمرَّ الإجماعُ على الصَّواب، وحصلَ ما وعدَ الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدِّمون، والفضلاء المحققون، كالقاضي أبي بكر بن الطَّيِّب، والطَّبري، وغيرهما^(١).

قال ابنُ عطية: وَمَضَتْ الأعصارُ والأمصاُرُ على قراءة السَّبعة، وبها يُصَلَّى، لأنَّها ثبتت بالإجماع. وأما شاذُّ القراءات^(٢)، فلا يُصَلَّى به، لأنَّه لم يُجْمَعْ الناسُ عليه، أما أنَّ المرويَّ منه عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن علماء التابعين، فلا يُعْتَقَدُ فيه إلا أنَّهم رَوَّه. وأما ما يُؤثَرُ عن أبي السَّمَّال^(٣) وَمَنْ قارَنه، فإنَّه لا يُوثَقُ به^(٤).

قال غيره: أمَّا شاذُّ القراءة عن المصاحف المتواترة، فليست بقرآن، ولا يُعْمَلُ بها على أنَّها منه، وأحسنُ محامِلها أن تكونَ بيانَ تأويلِ مذهبٍ مَنْ نُسِبَ إليه، كقراءة ابنِ مسعود: «فصيامُ ثلاثة أيام مُتتابعات»^(٥). فأما لو صرَّحَ الراوي بسماعها من رسول الله ﷺ، فاختلفَ العلماءُ في العملِ بذلك على قولين: النَّفي والإثبات، وجهُ النَّفي^(٦): أنَّ الراوي لم يروه في مَعْرِضِ الخبر، بل في مَعْرِضِ القرآن، ولم يُثبت، فلا يثبت. والوجه الثاني: أنَّه وإن لم يثبت كونه قرآنًا، فقد ثبت كونه سنَّة، وذلك يُوجبُ العملَ، كسائر أخبارِ الآحاد.

فصل في ذكر معنى حديثِ عُمر وهشام

قال ابنُ عطية^(٧): أباَحَ الله تعالى لنبيِّه عليه السلامُ هذه الحروفَ السَّبعة،

(١) من قوله: قال كثير من علمائنا... هو كلام أبي العباس القرطبي في المفهم ٢/٤٥٠.

(٢) في النسخ الخطية: القرآن، والمثبت من المحرر الوجيز ١/٤٨.

(٣) في النسخ الخطية: ابن السماك، والمثبت من المحرر الوجيز ١/٤٨، وهو قنبل بن أبي قنبل العدوي البصري، ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٢/٢٧ وقال: له اختيار في القراءة شاذ عن العامة، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/٥٣٤ وقال: لا يُعتمد على نقله، ولا يوثق به.

(٤) المحرر الوجيز ١/٤٨، وفيه: قاربته، بدل: قارنه.

(٥) أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١٦١٠٢) (١٦١٠٣) (١٦١٠٤)، والطبري في التفسير ٨/٦٥٢. وقال: ذلك خلاف ما في مصاحفنا.

(٦) في (ز) و(ط): النافي.

(٧) في المحرر الوجيز ١/٤٧.

وعارضه بها جبريل عليه السلام في عَرَضَاتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي فِيهِ الْإِعْجَازُ، وَجُودَةُ الرَّصْفِ^(١)، وَلَمْ تَقَعِ الْإِبَاحَةُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» بِأَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَدِّلَ اللَّفْظَةَ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، جَعَلَهَا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا، لَذَهَبَ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ، وَكَانَ مُعَرَّضًا أَنْ يُبَدَّلَ هَذَا وَهَذَا، حَتَّى يَكُونَ غَيْرَ الَّذِي نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْإِبَاحَةُ فِي الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِيُوسِّعَ بِهَا عَلَى أُمَّتِهِ، فَأَقْرَأَ مَرَّةً لِأَبِيٍّ بِمَا عَارَضَهُ بِهِ جَبْرِيلُ، وَمَرَّةً لِابْنِ مَسْعُودٍ بِمَا عَارَضَهُ بِهِ أَيْضًا، وَعَلَى هَذَا تَجِيءُ قِرَاءَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسُورَةِ الْفُرْقَانِ، وَقِرَاءَةُ هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ لَهَا، وَإِلَّا، فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ أَنْ يَقُولَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كُلِّ قِرَاءَةٍ مِنْهُمَا وَقَدْ اخْتَلَفَا: «هَكَذَا أَقْرَأَنِي جَبْرِيلُ»؟ هَلْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ أَقْرَأَهُ مَرَّةً بِهِذِهِ، وَمَرَّةً بِهِذِهِ؟ وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ أَنَسٍ حِينَ قَرَأَ: «إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَظًا وَأَضْوَبُ قِيَلًا»، فَقِيلَ لَهُ: «إِنَّمَا تُقْرَأُ: «وَأَقْوَمُ قِيَلًا»، فَقَالَ أَنَسُ: وَأَضْوَبُ قِيَلًا، وَأَقْوَمُ قِيَلًا، وَاهِيَا، وَاحِدًا^(٢). فَإِنَّمَا مَعْنَى هَذَا أَنَّهَا مَرْوِيَّةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِلَّا، فَلَوْ كَانَ هَذَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَضَعَهُ، لَبْطَلَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَ نِيهَا، فَكَدِثُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَهَلْتُهُ حَتَّى انصرفت، ثُمَّ لَبَّيْتُهُ بِرَدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْسِلْنِي. اقْرَأْ». فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ». ثُمَّ قَالَ لِي: «اقْرَأْ»، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»^(٣).

قُلْتُ: وَفِي مَعْنَى حَدِيثِ عُمَرَ هَذَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يَصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً

(١) فِي النسخ الخطية: الوصف. والمثبت من (م).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٤٧/١ وَ ٣٧٣/٢٣، وَابْنُ جَنِي فِي الْمَحْتَسَبِ ٢/٣٣٦.

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٤٩٩٢)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ (٨١٨). وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ (٢٧٧).

سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ، دَخَلْنَا جَمِيعاً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخِرُ، فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَا، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا قَدْ غَشَيْنِي، ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظَرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَرَقًا، فَقَالَ^(١): «يَا أَبُيَّ، أُرْسِلْ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ: أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ: إِقْرَأْهُ»^(٢) عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ: أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ: إِقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَلَكَ^(٣) بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةً تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرَعُبُ إِلَيَّ فِيهِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٤).

قَوْلُ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥): فَسَقَطَ فِي نَفْسِي، مَعْنَاهُ: اعْتَرَتْنِي حَيْرَةٌ وَدَهْشَةٌ، أَيْ: أَصَابَتْهُ نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَشْوِشَ عَلَيْهِ حَالَهُ، وَيُكْذِرَ عَلَيْهِ وَقْتَهُ، فَإِنَّهُ عَظَّمَ عَلَيْهِ مِنْ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ مَا لَيْسَ عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ، وَإِلَّا، فَأَيُّ شَيْءٍ يُلْزَمُ مِنَ الْمَحَالِ وَالتَّكْذِيبِ مِنْ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ، وَلَمْ يُلْزَمَ ذَلِكَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي النَّسْخِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ، فَكَيْفَ بِالْقِرَاءَةِ؟

وَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ الْخَاطِرِ، تَبَّهَهُ، بِأَنْ ضَرَبَ^(٦) فِي صَدْرِهِ، فَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِأَنْ انْشَرَحَ صَدْرُهُ، وَتَنَوَّرَ بَاطِنُهُ، حَتَّى آلَ بِهِ الْكَشْفُ وَالشَّرْحُ إِلَى حَالَةِ الْمُعَايَنَةِ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ قُبُحُ ذَلِكَ الْخَاطِرِ، خَافَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَفَاضَ بِالْعَرَقِ اسْتِحْيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ هَذَا الْخَاطِرُ مِنْ قَبِيلِ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ١٩». قَالُوا:

(١) فِي (م): فَقَالَ لِي.

(٢) فِي (ظ): أَنْ أَقْرَأْهُ.

(٣) فِي (م): فَلَكَ.

(٤) صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٨٢٠)، وَهُوَ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِرَقْمِ (٢١١٧١).

(٥) الْكَلَامُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى آخِرِ الْبَابِ، مِنَ الْمَفْهُومِ ٤٥١/٢ - ٤٥٢ بِتَصْرِيفٍ يَسِيرٍ.

(٦) فِي (م): ضَرَبَهُ.

نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة^(١). وسيأتي الكلام عليه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى^(٢).

بابُ ذِكْرِ جَمْعِ الْقُرْآنِ، وَسَبَبِ كَتَبِ عَثْمَانَ الْمَصَاحِفَ، وَإِحْرَاقِهِ مَا سِوَاهَا، وَذِكْرِ مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ

كان القرآن في مدّة النبي ﷺ متفرّقاً في صدور الرجال، وقد كتبَ الناسُ منه في صُحُفٍ، وفي جَرِيدٍ، وفي لِخَافٍ وَظُرَرٍ، وفي خَزَفٍ، وغير ذلك. قال الأصمعي^(٣): اللِّخَافُ: حجارةٌ بِيضٌ رِقاق، واحِدُهَا لَخْفَةٌ. وَالظُّرُرُ: حجرٌ، له حَدٌّ كَحَدِّ السَّكِينِ، وَالْجَمْعُ ظُرَارٌ؛ مِثْلُ رُطْبٍ وَرِطَابٍ، وَرُبْعٍ وَرِبَاعٍ، وَظُرَّانٍ أَيْضاً، مِثْلُ صُرْدٍ وَصِرْدَانٍ^(٤).

فلما اسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ فِي زَمَنِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - فِيمَا قِيلَ - سَبْعُ مِائَةٍ، أَشَارَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِجَمْعِ الْقُرْآنِ، مَخَافَةَ أَنْ يَمُوتَ أَشْيَاخُ الْقُرْآنِ، كَأَبِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَزَيْدٍ، فَغَدَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ إِلَى ذَلِكَ، فَجَمَعَهُ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ السُّورَ، بَعْدَ تَعَبٍ شَدِيدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥).

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مُقْتَلٌ أَهْلُ الْيَمَامَةِ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عَمْرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخَشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرْآنِ فِي الْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَقُلْتُ لِعَمْرٍ: كَيْفَ أَفْعَلُ

(١) صحيح مسلم (١٣٢).

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَرِثَا يَرْثُكَ مِنْ آلِ سَيْفِ بْنِ مُزَاحِمٍ فَأَسْتَوْدِعُ بِاللَّهِ﴾ (الآية: ٢٠٠).

(٣) عبد الملك بن قُرَيْبٍ، أَبُو سَعِيدٍ الْأَصْمَعِيُّ الْبَصْرِيُّ، اللَّغْوِيُّ الْأَخْبَارِيُّ، تُوْفِيَ سَنَةَ (٢١٥هـ) وَقَبِلَ غَيْرَ ذَلِكَ. سِيرَ أَعْلَامُ النَّبَلَاءِ ١٧٥/١٠.

(٤) الرَّبْعُ: الْفَصِيلُ يُنْتَجُ فِي الرَّبِيعِ، وَهُوَ أَوَّلُ النَّتَاجِ، وَالصُّرْدُ: طَائِرٌ أَكْبَرُ مِنَ الْعَصْفُورِ، ضَخَمَ الرَّأْسَ وَالْمَقَارَ، وَكَانُوا يَتَشَاءُونَ بِهِ. (المعجم الوسيط).

(٥) المحرر الوجيز ٤٩/١.

شيئاً لم يفعلهُ رسولُ الله ﷺ؟! فقال: هو والله خيرٌ. فلم يَزَلْ يُراجِعُنِي حتى شرحَ الله لذلك صدري، ورأيتُ الذي رأى عمرُ.

قال زيدٌ: وعنده عمرُ جالسٌ لا يتكلمُ، فقال لي أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ، ولا نتهمُّك، كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ الله ﷺ، فتتبعُ القرآنَ، فاجمعهُ. فوالله، لو كلَّفني نقلَ جبلٍ من الجبال، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمعِ القرآن. قلتُ: كيف تفعَلانِ شيئاً لم يفعلهُ رسولُ الله ﷺ؟! فقال أبو بكر: هو والله خيرٌ. فلم أزل أراجعه حتى شرحَ الله صدري للذي شرحَ له صدرُ أبي بكر وعمر، فقمتُ، فتتبعْتُ القرآنَ أجمعه من الرِّقاع، والأكتاف، والعُصَب، وصدورِ الرجال، حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري^(١)، لم أجدهما مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها. فكانت الصُّحُفُ التي جُمِعَ فيها القرآنُ عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمرَ حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنتِ عمر.

وقال الليثُ: حدثني عبدُ الرحمن بنُ خالد^(٢)، عن ابنِ شهاب، وقال: مع أبي خزيمة الأنصاري. وقال أبو ثابت: حدثنا إبراهيمُ، وقال: مع خزيمة، أو أبي خزيمة: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣).

وقال الترمذيُّ في حديثه عنه: فوجدتُ آخرَ سورة براءة مع خزيمة بنِ ثابت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ^(٤).

(١) هو خزيمة بن ثابت، أبو عمارة، الخطمي، ذو الشهادتين، شهد أحداً وما بعدها، واستشهد يوم صفين سنة (٣٧هـ). سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٨٥.

(٢) تحرف في النسخ و(م) إلى: غالب.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٧٩)، وهو في المسند (٥٧). الليث: هو ابنُ سعد، وابنُ شهاب: هو الزُّهري، وأبو ثابت: هو محمد بن عبيد الله المدني، وإبراهيم: هو ابنُ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف.

(٤) سنن الترمذي (٣١٠٣).

وفي «البخاري»: عن زيد بن ثابت قال: لما نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي المصاحف، فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُؤُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ^(١).

وقال الترمذي عنه: فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُؤُهَا: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَتُهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ﴾ فَالْتَمَسْتُهَا، فَوَجَدْتُهَا عِنْدَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ، أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ، فَأَلْحَقْتُهَا فِي سُورَتِهَا ^(٢).

قلت: فَسَقَطَتِ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ آخِرِ «براءة» فِي الْجَمْعِ الْأَوَّلِ، عَلَى مَا قَالَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَفِي الْجَمْعِ الثَّانِي فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ. وَحَكَى الطَّبْرِيُّ: أَنَّ آيَةَ «براءة» سَقَطَتْ فِي الْجَمْعِ الْآخِرِ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ^(٣)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجَهُ جَمْعِ عُمَانَ لِلنَّاسِ ^(٤) عَلَى مُضَحَفِهِ، وَقَدْ سَبَقَهُ أَبُو بَكْرٍ إِلَى ذَلِكَ، وَفَرَّغَ مِنْهُ ؟.

قِيلَ لَهُ: إِنَّ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَقْصِدْ بِمَا صَنَعَ جَمَعَ النَّاسِ عَلَى تَأْلِيفِ الْمَصْحَفِ، أَلَا تَرَى كَيْفَ أَرْسَلَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ ؟ عَلَى مَا يَأْتِي. وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ عُمَانُ، لِأَنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي الْقِرَاءَاتِ بِسَبَبِ تَفَرُّقِ الصَّحَابَةِ فِي الْبُلْدَانِ، وَاشْتِدَّ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ، وَعَظُمَ اخْتِلَافُهُمْ وَتَشْتَبَهَتْ ^(٥)، وَوَقَعَ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ مَا ذَكَرَهُ حَذِيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي غَزْوَةِ إِرْمِينِيَّةَ، فَقَرَأَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ بِمَا رُويَ لَهَا، فَاخْتَلَفُوا، وَتَنَازَعُوا، وَأَظْهَرَ بَعْضُهُمْ إِكْفَارَ بَعْضٍ ^(٦)، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ، وَتَلَاغَوْا، فَأَشْفَقَ حَذِيفَةُ مِمَّا

(١) صحيح البخاري (٤٧٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢١٦٤٠).

(٢) سنن الترمذي (٣١٠٤).

(٣) المحرر الوجيز ٤٩/١. وانظر تفسير الطبري ٥٤/١ - ٥٦.

(٤) في (م): الناس.

(٥) في (م): وتشبههم.

(٦) في المحرر الوجيز ٤٧/١: فاختلَفُوا وتنازعوا حتى قال بعضهم لبعض: أنا كافر بما تقرأ به.

رَأَى مِنْهُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ حُدَيْفَةُ الْمَدِينَةَ - فِيمَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ^(١) - دَخَلَ إِلَى عَثْمَانَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكَ! قَالَ: فِيمَاذَا؟ قَالَ: فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنِّي حَضَرْتُ هَذِهِ الْغَزْوَةَ، وَجَمَعَتِ نَاسًا مِنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ. فَوَصَفَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ: إِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي كِتَابِهِمْ، كَمَا اخْتَلَفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى^(٢).

قُلْتُ: وَهَذَا أَدْلُ دَلِيلٍ عَلَى بَطْلَانِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَرَادَ بِالْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ قِرَاءَاتُ الْقُرْآنِ السَّبْعَةِ، لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ.

وَقَدْ رَوَى سُؤَيْدُ بْنُ غَفَلَةَ^(٣)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ عَثْمَانَ قَالَ: مَا تَرَوْنَ فِي الْمَصَاحِفِ؟ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْقِرَاءَةِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقُولُ: إِنَّ قِرَاءَتِي خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَتِكَ، وَقِرَاءَتِي أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَتِكَ. وَهَذَا شَبِيهٌ بِالْكَفْرِ؟ قُلْنَا: مَا الرَّأْيُ عِنْدَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ يَجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى قِرَاءَةٍ، فَلِنَكْمُ إِذَا اخْتَلَفْتُمُ الْيَوْمَ، كَانَ مَنْ بَعْدَكُمْ أَشَدَّ اخْتِلَافًا، قُلْنَا: الرَّأْيُ رَأْيُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلَ عَثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ. فَأَرْسَلَتْ بِهَا إِلَيْهِ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِي^(٤)، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ^(٥)، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ. وَقَالَ عَثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا. حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عَثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ بِمَصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مَصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ^(٦).

(١) صحيح البخاري (٤٩٨٧)، وسنن الترمذي (٣١٠٤).

(٢) من قوله: ووقع بين أهل الشام والعراق... إلى هذا الموضع، من المحرر الوجيز ١/٤٧.

(٣) أبو أمية، الجعفي الكوفي، أسلم في حياة النبي ﷺ، وقدم المدينة حين فرغوا من دفن رسول الله ﷺ، وشهد اليرموك، مات سنة (٨١هـ). السير ٦٩/٤.

(٤) الأموي، كان له عند موت النبي ﷺ تسع سنين، ولي إمرة الكوفة لعثمان، وإمرة المدينة لمعاوية، مات سنة (٥٧هـ). السير ٤٤٤/٣.

(٥) المخزومي، رأى النبي ﷺ، مات في خلافة معاوية بالمدينة، سنة (٤٣هـ) السير ٤٨٤/٣.

(٦) أخرجه مختصر أبي داود في المصاحف ص ٢٢، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ١٨/٩.

وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار، وجلة أهل الإسلام، وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صحَّ، وثبت من^(١) القراءات المشهورة عن النبي ﷺ، وأطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موقفاً، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

وقال الطبري فيما روى: إن عثمان قرَنَ يزيد أباَنَ بنَ سعيد بنِ العاصي^(٢) وحده، وهذا ضعيف^(٣). وما ذكره البخاري والترمذي وغيرهما أصح.

وقال الطبري أيضاً: إن الصُّحُفَ التي كانت عند حفصة، جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير^(٤). وهذا صحيح.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبيد الله بن عبد الله، أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: يامعشر المسلمين، أغزَلُ عن نسخ المصاحف، ويتولاها^(٥) رجل، والله، لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر! يريد زيد بن ثابت. ولذلك قال عبد الله بن مسعود: يا أهل العراق، اكثموا المصاحف التي عندكم وغلُّوها، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فآلقوا الله بالمصاحف. خرَّجه الترمذي^(٦). وسيأتي الكلام في هذا في سورة آل عمران، إن شاء الله تعالى^(٧).

(١) في (م): في.

(٢) هو أبو الوليد الأموي، أسلم قبل الفتح، واستعمله النبي ﷺ على البحرين، استشهد يوم أجنادين. السير ١/ ٢٦١.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٤ - ٥٥، وفي إسناده عُمارة بنُ عَزْزَةَ. قال الخطيب - فيما نقله عنه الحافظ في الفتح ١٩/٩ -: ووهم عُمارة في ذلك، لأن أباَنَ قُتِلَ بالشام في خلافة عمر، ولا مدخل له في هذه القصة.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٥٦، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩..

(٥) في (م): ويتولا.

(٦) سنن الترمذي (٣١٠٤). ابنُ شِهَاب: هو الزُّهْرِي، وعبيد الله بنُ عبد الله: هو ابنُ عُتْبَةَ بنِ مسعود. وقال الترمذي بعده: قال الزُّهْرِي: فبلغني أن ذلك كَرِهَهُ من مقالة ابنِ مسعود رجالٌ من أفاضل أصحاب النبي ﷺ.

(٧) لم يذكر المصنف في تفسير الآية المذكورة التأويل الذي ذهب إليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند (٣٩٢٩): كان هذا من ابن مسعود... خشية اختلافهم، فغضب ابن مسعود، وهذا رأيه، ولكنه رحمه الله أخطأ خطأ شديداً في تأويل الآية على ما =

قال أبو بكر الأنباري: ولم يكن الاختيارُ لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمانَ على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن - وعبدُ الله أفضلُ من زيد، وأقدمُ في الإسلام، وأكثرُ سوابقَ، وأعظمُ فضائلَ - إلا لأن^(١) زيداً كان أحفظَ للقرآن من عبد الله، إذ وعاه كلُّه ورسولُ الله ﷺ حيَّ، والذي حَفِظَ منه عبدُ الله في حياة رسولِ الله ﷺ نَيْفٌ وسبعون سورة، ثم تَعَلَّمَ الباقيَ بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ، فالذي ختمَ القرآنَ وحفظَه ورسولُ الله ﷺ حيَّ، أولى بجمع المصحف، وأحقُّ بالإثارة والاختيار. ولا ينبغي أن يَظُنَّ جاهلٌ أنَّ في هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود، لأنَّ زيداً إذا كان أحفظَ للقرآن منه، فليس ذلك مُوجِباً لتقدمته عليه، لأنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيدٌ أحفظَ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب.

قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك، فشيءٌ نَتَجَهُ الغضب، ولا يُعْمَلُ به، ولا يُؤْخَذُ به، ولا يُشْكُ في أنه رضي الله عنه قد عَرَفَ بعد زوالِ الغضبِ عنه حُسْنَ اختيار عثمانَ، وَمَنْ معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقيَ على موافقتهم، وترك الخلافَ لهم. فالشائِعُ الذائعُ المتعالمُ عند أهل الرواية والنقل أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود تعلَّم بقيةَ القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ. وقد قال بعضُ الأئمة: مات عبدُ الله بنُ مسعود قبلَ أن يَخْتِمَ القرآنَ. قال يزيدُ بنُ هارون^(٢): المَعْوَدَتَان بمنزلة البقرة وآلِ عمران، مَنْ زَعَمَ أنهما ليستا من القرآن، فهو كافرٌ بالله^(٣) العظيم، فقيَلْ له: فقولُ عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين في أنَّ عبدَ الله بن مسعود مات وهو لا يَحْفَظُ القرآنَ كلَّه.

قلتُ: هذا فيه نظرٌ، وسيأتي^(٤).

وروى إسماعيلُ بنُ إسحاق وغيره، قال حمَّادُ: أظنُّه عن أنس بن مالك قال: كانوا يختلفون في الآية، فيقولون: أقرأها رسولُ الله ﷺ فلان بن فلان، فعسى أن

= أوَّل، فإنَّ العُلُول هو الخيانة، والآية واضحة المعنى في الوعيد لمن خان أو اختلس من المغانم.

(١) في النسخ الخطية: أن، والمثبت من (م).

(٢) أبو خالد الواسطي، ثقة متقن، توفي في خلافة المأمون سنة (٢٠٦هـ). سير أعلام النبلاء ٩/٣٥٨.

(٣) في (ظ): بالقرآن.

(٤) ص ٩٥.

يكون من المدينة على ثلاث ليال، فُيرسلُ إليه، فُيجاء به، فيقال: كيف أقرأكَ رسولُ الله ﷺ آيةَ كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال^(١).

قال ابنُ شهاب: واختلفوا يومئذ في «التابوت»، فقال زيدٌ: «التابوه». وقال ابنُ الزُّبير وسعيد بن العاصي: «التابوت»، فرفع اختلافُهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه بالتاء، فإنه نَزَلَ بلسان قريش. أخرجه البخاري والترمذي^(٢).

قال ابن عطية^(٣): قرأه زيد بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء، وكتبتِ المصاحفُ على ما هو عليه غابرُ الدهر، ونسخَ منها عثمانُ نسخاً. قال غيره: قيل: سبعة، وقيل: أربعة، وهو الأكثر، ووجهُ بها إلى الآفاق، فوجهٌ للعراق والشام ومصر بأمهات، فاتخذها قُرَاءُ الأمصار مُعْتَمَدَ اختياراتِهِمْ، ولم يخالف أحدٌ منهم مصحفه على النحو الذي بلغه، وما وُجدَ بين هؤلاء القُرَاءِ السبعة من الاختلاف في حروف يزيدها بعضهم، وينقصها بعضهم، فذلك لأنَّ كلاً منهم اعتمدَ على ما بلغه في مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمانُ كتب تلك المواضع في بعض النسخ، ولم يكتبها في بعض، إشعاراً بأنَّ كلَّ ذلك صحيحٌ، وأنَّ القراءةَ بكلِّ منها جائزة.

قال ابنُ عطية: ثم إنَّ عثمانَ أمرَ بما سواها من المصاحف أن تُحرق، أو تُحرق - تُروى بالحاء غير منقوطة، وتُروى بالخاء على معنى - ثم تُدفن، وروايةُ الحاء غير منقوطة أحسن^(٤).

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الرد» عن سُويد بن غفلة قال: سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه يقول: يامعشرَ الناس، اتقوا الله، وإياكم والغلو في عثمانَ وقولكم: حرق^(٤) المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منَّا أصحاب

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في المقنع ص ٧، وقد اختصر القرطبي إسناده. حماد: هو ابن زيد، وأخرج ابنُ أبي داود في المصاحف ص ٢١. ٢٢ نحوه من وجه آخر.

(٢) لم يخرج البخاري، وإنما أخرجه الترمذي (٣١٠٤)، ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٠/٩ عن الخطيب أن هذه الزيادة رواها ابن شهاب - وهو الزُّهري - رسالة.

(٣) المحرر الوجيز ٤٩/١.

(٤) في (م): حرق.

محمد ﷺ^(١). وعن عُمر بن سعيد قال: قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنتُ الوالي وقتَ عثمان، لفعلتُ في المصاحف مثلَ الذي فعل عثمان^(٢). قال أبو الحسن بنُ بَطَّال: وفي أمرِ عثمانَ بتحريقِ الصُّحُف والمصاحف حين جمعَ القرآنَ جوازُ تحريقِ الكتبِ التي فيها أسماءُ الله تعالى، وأنَّ ذلكَ إكرامٌ لها، وصيانةٌ عن الوطءِ بالأقدام، وطرحها في ضياعٍ من الأرض. روى مَعْمَرٌ، عن ابنِ طاوس، عن أبيه، أنه كان يَحْرِقُ الصُّحُفَ إذا اجتمعت عنده الرسائلُ فيها «بسم الله الرحمن الرحيم». وحرَّقَ عروَةُ بنُ الزُّبَيْرِ^(٣) كتبَ فقهه كانت عنده يومَ الحَرَّةِ. وكرة إبراهيمُ أن تُحْرِقَ الصُّحُفَ إذا كان فيها ذكرُ الله تعالى^(٤). وقولٌ من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان. وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة^(٥): جائزٌ للإمام تحريقُ الصُّحُف التي فيها القرآن، إذا أدَّاه الاجتهادُ إلى ذلك.

فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردُّ على الحُلُولِيَّةِ^(٦) والحَشَوِيَّةِ^(٧) القائِلين بِقَدَمِ الحروف والأصوات، وأنَّ القراءةَ والتلاوةَ قديمةٌ، وأنَّ

(١) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٩٤ - ٩٩٥ مطولاً.

(٢) وأخرج هذين الأثرين ابنُ أبي داود في المصاحف ص ٢٢ و٢٣، وأخرج الثاني منهما أبو عمرو الداني في المقنع ص ٨.

(٣) أبو عبد الله القرشي، أحدُ الفقهاء السبعة، أبوه الزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ، توفي سنة (٤٩٤هـ). السير ٤/ ٤٢١.

(٤) أخرج الآثار الثلاثة عبدُ الرزاق في مصنفه ١١/ ٤٢٥ (٢٠٩٠١) (٢٠٩٠٢) (٢٠٩٠٣).

(٥) هو أبو بكر ابنُ الطيب الباقلاني، وسلفت ترجمته ص ٧٤، وقد لُقِّبَ بلسان الأمة القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٥٨٥.

(٦) هم القائِلون: إن الله حالٌّ في كل شيء، مُتَّحِدٌ به، حتى جَوَّزُوا أن يطلق على كل شيءٍ أنه الله! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وينظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٦٤ وما بعدها.

(٧) الحَشَوِيَّةُ - بسكون الشين؛ نسبة إلى الحَشْو - طائفة من المبتدعة؛ لُقِّبُوا بهذا اللقب؛ لاحتمالهم كل حَشْوٍ رُوِيَ من الأحاديث المختلفة، أو لأن منهم المجسِّمة، والجسم محشَوٌ. المستصفي للغزالي ٢/ ٤٦٢، وكشاف اصطلاحات الفنون للفنوني، ودائرة المعارف الإسلامية (حشو).

وقد يطلق بعض المبتدعة هذا اللقب على المخالف لهم. وقيل: إن أول من أطلق هذا اللقب عمرو بن=

الإيمانَ قديمٌ، والروحَ قديمٌ. وقد أجمعتِ الأمةُ، وكلُّ أمةٍ من النصارى واليهود والبراهمة، بل كلُّ مُلحدٍ وموحدٍ، أنَّ القديمَ لا يُفعل، ولا تتعلقُ به قدرةٌ قادرٌ بوجه ولا بسبب، ولا يجوزُ العدمُ على القديم، وأنَّ القديمَ لا يصيرُ مُحدثاً، والمُحدثُ لا يصيرُ قديماً، وأنَّ القديمَ ما لا أوَّلَ لوجوده، وأنَّ المُحدثُ هو ما كانَ بعدَ أن لم يكن، وهذه الطائفةُ خَرَقَتْ إجماعَ العقلاء من أهل المِلل وغيرهم، فقالوا: يجوزُ أن يصيرَ المُحدثُ قديماً، وأنَّ العبدَ إذا قرأَ كلامَ الله تعالى، فعلَ كلاماً لله قديماً، وكذلك إذا نَحَتَ حروفاً من الآجرِّ والخشب، أو صاغَ أحرفاً من الذهب والفضة، أو نسجَ ثوباً، فنقشَ عليه آيةً من كتاب الله، فقد فعلَ هؤلاء كلامَ الله قديماً، وصارَ كلامُهُ منسوجاً قديماً، ومنحوتاً قديماً، ومَصُوغاً قديماً. فيقال لهم: ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوزُ أن يذابَ ويُمحى ويُحرقَ؟ فإن قالوا: نعم، فارقوا الدِّينَ، وإن قالوا: لا، قيل لهم: فما قولكم في حروف مصوِّرة آيةٍ من كتاب الله تعالى من شَمْع، أو ذهب، أو فضة، أو خشب، أو كاغَد، فوقَّعت في النار، فذابت واحترقت، فهل تقولون: إنَّ كلامَ الله احترق؟ فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم، وإن قالوا: لا، قيل لهم: أليس قلتم: إنَّ هذه الكتابةَ كلامُ الله وقد احترقت، وقلتم: إن هذه الأحرفَ كلامُهُ وقد ذابت؟! فإن قالوا: احترقت الحروفُ، وكلامُهُ تعالى باقٍ، رَجَعُوا إلى الحقِّ والصواب، ودانُوا بالجواب، وهو الذي قاله النبي ﷺ مُنبهاً على ما يقول^(١) أهلُ الحق: «لو كان القرآنُ في إهاب، ثم وقعَ في النار، ما احترق»^(٢). وقال الله عز وجل: «أنزلتُ عليك كتاباً لا يُغسِلُهُ الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظان» الحديث. أخرجه مسلم^(٣).

= غيبيد المعتزلي على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ٧٦/٢ - ٨٠.

(١) في (ظ): يقوله.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣٦٥) من حديث عتبة بن عامر، وإسناده ضعيف، ونقل البغوي في شرح السنة ٤٣٧/٤ عن الإمام أحمد قوله: معناه: لو كان القرآنُ في إهاب، يعني في جلد، في قلب رجل، يُرجى لمن القرآنُ محفوظ في قلبه أن لا تمسه النار. ونقل عن أبي عبد الله البوشنجي قوله: معناه: أن من حمل القرآنَ وقرأه، لم تمسه النار يوم القيامة. وانظر جمال القراء للسخاوي ١٥٣/١ - ١٥٥.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٦٥). وهو قطعة من حديث عياض بن حمار المجاشعي، وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤). قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٩٨/١٧: معناه: محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه اللذهاب، بل يبقى على ممر الأزمان. يكون محفوظاً لك في حالتَي النوم واليقظة، وقيل: تقرأه في يسر وسهولة.

فثبت بهذا أنَّ كلامه سبحانه ليس بحرف، ولا يُشبه الحروف. والكلام في هذه المسألة يطول، وتتميمها في كتب الأصول، وقد بيَّناها في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

فصل

وقد طعن الرافضة - قبحهم الله تعالى - في القرآن، وقالوا: إنَّ الواحد يكفي في نقل الآية والحرف، كما فعلتم، فإنكم أثبتتم بقول رجل واحد - وهو خزيمة بن ثابت وحده - آخر براءة^(١)، وقوله: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فالجواب: أن خزيمة رضي الله عنه لما جاء بها تذكَّرها كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفها^(٢)، ولذلك قال: فقدت آيتين من آخر سورة التوبة. ولو لم يعرفها^(٣)، لم يدر هل فقد شيئاً أو لا، فالآية إنما ثبتت بالإجماع، لا بخزيمة وحده.

جواب ثان: إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحَّتها في صفة النبي ﷺ، فهي قرينة تُغني عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية الأحزاب، فإنَّ تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة، لسماعهما إياها من النبي ﷺ. قال معناه المهلب^(٤)، وذكر أنَّ خزيمة غير أبي خزيمة، وأنَّ أبا خزيمة الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس، وقال: نحن ورثناه، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت، فلا تعارض، والقصة غير القصة، لا إشكال فيها ولا التباس.

وقال ابن عبد البر: أبو خزيمة لا يُوقَفُ على صحة اسمه، وهو مشهور بكنيته، وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان، وهو أخو مسعود بن أوس^(٥). قال ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت: وجدت آخر التوبة

(١) في (م): سورة براءة.

(٢) في (م): لما جاء بهما تذكرهما وقد كان زيد يعرفهما.

(٣) في (م): يعرفهما.

(٤) هو أبو القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صفرة أسيد بن عبد الله الأسدي الأندلسي، ولي قضاء المرية. توفي سنة (٤٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ٥٧٩/١٧.

(٥) هو أبو محمد الأنصاري، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، قيل: توفي في خلافة عمر. الاستيعاب ٧٩/١٠ (بهاش الإصابة).

مع أبي خزيمة الأنصاري. وهو هذا، ليس^(١) بينه وبين الحارث بن خزيمة^(٢) أبي خزيمة نسب إلا اجتماعهما في الأنصار، أحدهما أوسي، والآخر خزرجي^(٣).

وفي «مسلم» و«البخاري»، عن أنس بن مالك قال: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي^(٤).

وفي «البخاري» أيضاً، عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد، وأبو زيد، ونحن ورثناه^(٥). وفي أخرى قال: مات أبو زيد ولم يترك عقياً، وكان بدرياً^(٦)، واسم أبي زيد: سعد بن عبيد^(٧).

قال ابن^(٨) الطيب رضي الله عنه: لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة النبي ﷺ، وأنه لم^(٩) يجمعه غير أربعة من الأنصار، كما قال أنس بن مالك، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الداري^(١٠)، وعبد الله بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

فقول أنس: لم يجمع القرآن غير أربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن، وأخذه تلقياً^(١١)

(١) في (م): وليس.

(٢) شهد بدرأ وما بعدها، ومات بالمدينة سنة (٤٠هـ). الاستيعاب ٢/٢٣٤.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ١١/٢١٤ (بهامش الإصابة)، وقول زيد بن ثابت أخرجه البخاري ضمن حديث جمع القرآن (٤٩٨٦)، وانظر كلام الحافظ في الفتح ٨/٣٤٥ و٩/١٥.

(٤) صحيح البخاري (٣٨١٠)، وصحيح مسلم (٢٤٦٥)، وهو في مسند أحمد (١٣٩٤٢).

(٥) صحيح البخاري (٥٠٠٤).

(٦) صحيح البخاري (٣٩٩٦).

(٧) ذكر الحافظ في الفتح ٧/١٢٨ أن الأرجح في اسمه: قيس بن السكن، وذكر أيضاً في ٩/٥٣ أن ابن أبي داود روى بإسناد على شرط البخاري إلى ثمانية عن أنس أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال: وكان رجلاً منا من بني عدي بن النجار، أحد عمومي، ومات ولم يدع عقياً، ونحن ورثناه.

(٨) وقع في هذا الموضع وفي المواضع السالفة في (ظ): أبو، وهو خطأ.

(٩) في (م): ولم.

(١٠) أبو رقية، صاحب رسول الله ﷺ، وفد سنة تسع وأسلم، حدث عنه النبي ﷺ بقصة الجساسة، توفي سنة (٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ٢/٤٤٢.

(١١) في (م): تلقياً.

من في رسول الله ﷺ، غير تلك الجماعة، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه، وبعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقيهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول ﷺ لهم.

قلت: لم يذكر القاضي عبد الله بن مسعود وسالماً مولى أبي حذيفة^(١) رضي الله عنهما فيما رأيت، وهما ممن جمع القرآن.

روى جرير، عن عبد الله بن يزيد الصهباني، عن كميل قال: قال عمر بن الخطاب: كنت مع رسول الله ﷺ، ومعه أبو بكر، ومن شاء الله، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلي، فقال رسول الله ﷺ: «من هذا الذي يقرأ القرآن؟» فقل له: هذا عبد الله بن أم عبد، فقال: «إن عبد الله يقرأ القرآن غصاً كما أنزل»^(٢) الحديث.

قال بعض العلماء: معنى قوله: «غصاً كما أنزل» أي: إنه كان يقرأ الحرف الأول الذي أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التي رخص لرسول الله ﷺ^(٣) في قراءته عليها بعد معارضة^(٤) جبريل عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان.

وقد روى وكيع وجماعة معه، عن الأعمش، عن أبي ظبيان قال: قال لي عبد الله بن عباس: أي القراءتين تقرأ؟ قلت: القراءة الأولى؛ قراءة ابن أم عبد، فقال لي: بل هي الآخرة^(٥)، إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله ﷺ، عرض عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله، فعلم ما نُسَخ من ذلك، وما بُدِّل^(٦).

(١) أبو حذيفة: هو ابن عتبة بن ربيعة، القرشي، قيل: اسمه وهشم، أحد السابقين، وقد أسلم قبل دخولهم دار الأرقم، استشهد هو ومولاه سالم يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة. ومولاه سالم، هو ابن معقل، أصله من اصطرخر، وهو من السابقين الأولين، وهو الذي أرضعته سهلة بنت سهيل زوجة أبي حذيفة لتظهر عليه، وخُصاً بذلك الحكم عند جمهور العلماء. السير ١٦٤/١ - ١٦٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣/٣١٧ من الطريق التي ذكرها المصنف، لكن قال فيه: عن علي قال: كنت مع النبي ﷺ... الحديث. وكذا ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة ١١/٦٠٠. فلعل قوله أعلاه: عمر بن الخطاب، خطأ، أو وهم. وقد أخرجه أحمد في المسند (١٧٥) من طريق إبراهيم النخعي، عن علقمة، عن عمر بن الخطاب، وأخرجه أيضاً (٤٢٥٥) من طريق عاصم، عن زر، عن ابن مسعود.

(٣) في النسخ الخطية: رسول الله، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ الخطية: معارضته، والمثبت من (م).

(٥) (ظ): لا بل الآخرة.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٢٢)، وإسناده صحيح.

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خُذُوا القرآنَ من أربعة: من ابنِ أمِّ عبد. فبدأ به. ومعاذُ بنِ جبل، وأبيُّ بنِ كعب، وسالمُ مولى أبي حذيفة»^(١).

قلتُ: هذه الأخبارُ تدلُّ على أنَّ عبدَ الله جمعَ القرآنَ في حياة رسول الله ﷺ، خلافاً ما تقدَّم^(٢). والله أعلم.

وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الرَّد»: حدثنا محمدُ بنُ شَهْرَبَار، حدثنا حسينُ بنُ الأسود، حدثنا يحيى بنُ آدم، عن أبي بكر، عن أبي إسحاق قال: قال عبدُ الله بن مسعود: قرأتُ من في رسول الله ﷺ ثنتين وسبعين سورة - أو ثلاثاً وسبعين سورة - وقرأتُ عليه من البقرة إلى [قوله تعالى]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال أبو إسحاق: وتعلَّم عبدُ الله بقيَّةَ القرآنَ من مُجَمِّعٍ بنِ جاريةِ الأنصاريِّ. قلتُ: فإنَّ صَحَّ هذا، صَحَّ الإجماعُ الذي ذكره يزيدُ بن هارون، فلذلك لم يذكره القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب مع مَنْ جمع القرآنَ وحَفِظَه في حياة النبي ﷺ. والله أعلم. قال أبو بكر الأنباري: حدثني إبراهيمُ بن موسى الجَوَزي^(٣)، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا زهيرٌ، عن أبي إسحاق قال: سألتُ الأسودَ: ما كان عبدُ الله يصنعُ بسورة الأعراف؟ فقال: ما كان يَعْلَمُهَا^(٤) حتى قَدِم الكوفةَ. قال: وقد قال بعضُ أهل العلم: مات عبدُ الله بن مسعود رحمه الله قبل أن يتعلَّم المَعْوِذَتَيْنِ. فلهذه العلَّةُ لم تُوجدَا في مصحفه، وقيل غيرُ هذا على ما يأتي بيانه آخرَ الكتاب، عند ذكر المَعْوِذَتَيْنِ، إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر: والحديثُ الذي حدثناه إبراهيمُ بن موسى، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا عُمر بن هارون الخُراساني، عن ربيعةَ بن عثمان، عن محمد بن كعب القرظيِّ قال: كان ممَّن ختمَ القرآنَ ورسولُ الله ﷺ حيَّ: عثمانُ بنُ عفان، وعليُّ بنُ أبي

(١) صحيح مسلم (٢٤٦٤)، وهو عند أحمد (٦٧٩٠).

(٢) ص ٨٨.

(٣) في (م): الخوزي، وهو خطأ، انظر السير ٢٣٤/١٤.

(٤) في (د): تعلَّمها.

طالب، وعبدُ الله بنُ مسعود، رضي الله عنهم، حديثٌ ليس بصحيح عند أهل العلم، إنما هو مقصورٌ على محمد بن كعب، فهو مقطوع، لا يؤخذ به، ولا يُعوَّل عليه.

قلت: قوله عليه السلام: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ، وَمِمَّا يَبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ الْقِرَاءَاتِ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، كُلُّ مِنْهُمْ عَزَا قِرَاءَتَهُ الَّتِي اخْتَارَهَا إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَرَأَهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَمْ يَسْتَنْ مِنْ جُمْلَةِ الْقُرْآنِ شَيْئًا، فَاسْنَدَ عَاصِمٌ^(١) قِرَاءَتَهُ إِلَى عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَسْنَدَ ابْنُ كَثِيرٍ^(٢) قِرَاءَتَهُ إِلَى أَبِي، وَكَذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ^(٣)؛ أَسْنَدَ قِرَاءَتَهُ إِلَى أَبِي، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ^(٤)، فَإِنَّهُ أَسْنَدَ قِرَاءَتَهُ إِلَى عُثْمَانَ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ: قَرَأْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَسَانِيدُ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ مُتَّصِلَةٌ، وَرِجَالُهَا ثِقَاتٌ. قَالَه الْخَطَّابِيُّ^(٥).

باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته، وشكليه ونقطه، وتخزيه، وتعشيره، وعدد حروفه، وأجزائه^(٦)، وكلماته، وآيه

قال ابنُ الطَّيِّبِ: إِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي تَرْتِيبِ سُورِ الْقُرْآنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ فِي مُصْحَفِهِ السُّورَ عَلَى تَارِيخِ نَزُولِهَا، وَقَدَّمَ الْمَكِّيَّ عَلَى الْمَدَنِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ فِي أَوَّلِ مُصْحَفِهِ: ﴿الْحَمْدُ﴾، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ فِي أَوَّلِهِ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، وَهَذَا أَوَّلُ مُصْحَفِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَمَّا مُصْحَفُ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ فَإِنَّ أَوَّلَهُ: ﴿مَلِكٌ

(١) هو عاصم بنُ أبي النُّجُودِ بَهْدَلَةُ (وقيل: بَهْدَلَةُ أُمُّهُ) أَبُو بَكْرٍ الْأَسَدِيُّ، شَيْخُ الْإِقْرَاءِ بِالْكُوفَةِ، وَأَحَدُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ. تُوْفِيَ آخِرَ سَنَةِ (١٢٧هـ). سِيرَ أَعْلَامُ النَّبَلَاءِ ٢٥٦/٥.

(٢) هو عبد الله بن كثير، مَقْرِيءُ مَكَّةَ، أَحَدُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ، أَبُو مَعْبِدٍ الْكِنَانِيُّ. تُوْفِيَ سَنَةَ (١٢٠هـ). السَّيَرُ ٣١٨/٥.

(٣) البَصْرِيُّ، أَحَدُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ، اخْتَلَفَ فِي اسْمِهِ عَلَى أَقْوَالٍ، أَشْهَرُهَا زَيْدَانٌ، كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقِرَاءَاتِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالشَّعْرِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ، مَدَحَهُ الْفَرَزْدَقُ وَغَيْرُهُ، تُوْفِيَ سَنَةَ (١٥٤هـ)، وَقِيلَ (١٥٧هـ). السَّيَرُ ٤٠٧/٦.

(٤) أَبُو عِمْرَانَ الْبَحْصِيُّ، الدَّمَشْقِيُّ، مَقْرِيءُ الشَّامِ، أَحَدُ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ، تُوْفِيَ سَنَةَ (١٢٨هـ). السَّيَرُ ٢٩٢/٥.

(٥) فِي أَعْلَامِ الْحَدِيثِ ٣/١٨٥٥.

(٦) فِي (ظ): وَأَحْزَابِهِ، وَهُوَ تَكَرَّرَ.

يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾ ثم البقرة، ثم النساء، على ترتيب مختلف. وفي مصحف^(١) أبي كان أوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [ثم البقرة] ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة، ثم كذلك على اختلاف شديد.

قال القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب: فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيبُ السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة^(٢).

وذكر ذلك مكِّي رحمه الله في تفسير سورة براءة^(٣)، وذكر أن ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل، هو من النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول سورة براءة، تُركت بلا بسملة. هذا أصح ما قيل في ذلك، وسيأتي^(٤).

وذكر ابن وهب في «جامعه» قال: سمعتُ سليمان بن بلال^(٥) يقول: سمعتُ ربيعة^(٦) يُسأل: لم قُدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضْعُ وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قُدمتا، وألّف القرآن على علم ممّن ألّفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهي إليه، ولا نسأل^(٧) عنه.

وقد ذكر سُنيّد^(٨) قال: حدثنا مُعْتَمِرٌ، عن سَلَام بن مسكين، عن قتادة قال: قال ابن مسعود: مَنْ كان منكم متأسياً، فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

(١) في (م): ومصحف.

(٢) الانتصار (١٦٥ - ١٦٦ مخطوط) بتصرف واختصار، وما بين حاصرتين منه.

(٣) لعله ذكر ذلك في كتابه «الهداية إلى بلوغ النهاية» في معاني القرآن وأنواع علومه في سبعين جزءاً، ذكره صاحب هدية العارفين ٤٧١/٦.

(٤) في أول سورة براءة.

(٥) القرشي التيمي مولاها، المدني، المفتي الحافظ، توفي سنة (١٧٢هـ). السير ٤٢٥/٧.

(٦) هو ابن أبي عبد الرحمن، أبو عثمان، ويقال: أبو عبد الرحمن القرشي، المشهور بريعة الرأي، مفتي المدينة، توفي سنة (١٣٦هـ) السير ٨٩/٦. ولم نجد قول ابن وهب في جامعه الذي بين أيدينا.

(٧) في (ظ): تسأل.

(٨) هو ابن داود الوصّي، من رجال التهذيب.

وقال قومٌ من أهل العلم: إنَّ تأليفَ سُورِ القرآنِ على ما هو عليه في مُصحفنا كان عن توقيف من النبي ﷺ، وأما ما رُوي من اختلاف مُصحف أبي وعليّ وعبدِ الله، فإنما^(١) كان قبلَ العرضِ الأخير، وإنَّ رسولَ الله ﷺ رَتَّبَ لهم تأليفَ السور بعد أن لم يكنَ فعلَ ذلك.

روى يونس، عن ابنِ وهب قال: سمعتُ مالكا يقول: إنما أُلِفَ القرآنُ على ما كانوا يسمعونَه من رسولِ الله ﷺ.

وذكر أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الرد» أنَّ الله تعالى أنزلَ القرآنَ جملةً إلى سماء الدنيا، ثم فُرِّقَ على النبي ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورة تُنزلُ في أمر يحدث، والآيةُ جواباً لمستخبرٍ يسأل، ويُوقَفُ جبريلُ رسولَ الله ﷺ على موضعِ السورة والآية، فاتَّسَقَ السُّورُ كاتَّسَقَ الآياتُ والحروف، فكلُّه عن محمد خاتم النبيين عليهم السلام، عن ربِّ العالمين، فَمَنْ أَخَّرَ سورةً مُقدَّمةً، أو قَدَّمَ أخرى مُؤخَّرةً، فهو كمن أفسدَ نَظْمَ الآيات، وغيرَ الحروف والكلمات، ولا حُجَّةَ على أهلِ الحقِّ في تقديم البقرة على الأنعام - والأنعامُ نزلت قبلَ البقرة - لأنَّ رسولَ الله ﷺ أُحِذَ عنه هذا الترتيبُ، وهو كان يقول: «ضَعُوا هذه السورةَ موضعَ كذا وكذا من القرآن»^(٢). وكان جبريلُ عليه السلام يَقِفُ على مكان الآيات.

حدثنا حسنُ بن الحُبَّاب، حدثنا أبو هشام، حدثنا أبو بكر بنُ عيَّاش، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: آخِرُ ما نزلَ من القرآن^(٣): ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]^(٤).

قال أبو بكر بنُ عيَّاش: وأخطأ أبو إسحاق، لأنَّ محمدَ بنَ السائب حدثنا عن أبي صالح^(٥)، عن ابنِ عباس قال: آخِرُ ما نزلَ من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

(١) في النسخ الخطية: إنما، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩) من حديث عثمان بن عفان مطولاً.

(٣) قوله: من القرآن، ليس في (ظ).

(٤) أبو هشام - وهو محمد بن يزيد الرفاعي - ضعيف، لكن الحديث صحيح، فقد أخرجه من وجه آخر البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٥) في النسخ الخطية و(م): عن أبي السائب، وهو خطأ.

إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]. فقال جبريلُ للنبيِّ عليهما السلام: يا محمد، ضَعُها في رأسِ ثمانين ومِئتين من البقرة^(١).

قال أبو الحسن بن بَطَّال: وَمَنْ قَالَ بهذا القولِ، لا يقول: إِنَّ تلاوةَ القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكونَ مرتَّبةً على حسب الترتيب الموقَّف عليه في المصحف، بل إنما يجب تأليفُ سُورِهِ في الرسم والخط خاصَّةً، ولا يُعْلَمُ أَنَّ أحداً منهم قال: إِنَّ ترتيبَ ذلك واجبٌ في الصلاة، وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يَحِلُّ لأحد أن يَتَلَقَّنَ الكهفَ قبلَ البقرة، ولا الحجَّ قبلَ^(٢) الكهف. ألا ترى قولَ عائشة رضي الله عنها للذي سأَلها: لا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قبلَ^(٣) ؟

وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها.

وأما ماروي عن ابن مسعود وابن عمر، أنهما كَرَّها أن يُقرأ القرآن منكوساً، وقالوا: ذلك منكوسُ القلب^(٤)؛ فإنما عَنِيَا بذلك مَنْ يقرأ السورة منكوسة، وَيَبْتَدِئُ من آخرها إلى أولها، لأنَّ ذلك حرامٌ محظورٌ، ومن الناس مَنْ يَتَعَاطَى هذا في القرآن والشعر، لِيُذَلِّلَ لسانَه بذلك، وَيَقْدِرَ على الحفظ، وهذا حَظَرَهُ اللهُ تعالى، ومنعَه في القرآن؛ لأنه إفسادٌ لِسُورِهِ، ومخالفةٌ لما قُصِدَ بها.

ومما يدلُّ على أنه لا يجب إثباتُه في المصاحف على تاريخ نزوله، ما صحَّ وثبت أنَّ الآياتِ كانت تَنزِلُ بالمدينة، فتَوَضَّعُ في السورة المكيَّة. ألا ترى قولَ عائشة رضي

(١) محمد بن السائب: هو الكلبي، وقد تكلموا فيه، وأبو صالح (وهو باذام - ويقال باذان - مولى أم هانئ) ضعيف. والكلبي معروف بروايته عنه، وقد أخرجه الفراء في معاني القرآن ١٨٣/١ عن أبي بكر بن عياش، بهذا الإسناد. وكذلك أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٣٧/٧ من طريق سفيان الثوري، عن الكلبي بنحوه. وقد صحَّ هذا الحديث من طرق أخرى فيما أخرجه الطبري في التفسير ٦٧ وغيره. وجمع الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٠٥/٨ بين هذه الرواية والرواية السالفة بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كلاهما آخر بالنسبة لما عداهما.

(٢) في النسخ الخطية: بعد، والمثبت من (م).

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

(٤) أثر صحيح، وأخرجه عبد الرزاق (٧٩٤٧)، وابن أبي شيبة ٥٦٤/١٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣١٢) و(٢٣١٣) من طريقين عن الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود.

الله عنها: وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده^(١)؟ يعني بالمدينة. وقد قُدِّمَتْ في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة. ولو ألقوه^(٢) على تاريخ النزول، لوجب أن يَنْتَقِضَ ترتيبُ آياتِ السُّور.

قال أبو بكر الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا همام، عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ إلى رأس العشر، وإذا زُلْزِلَتْ، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السُّورُ نزلن^(٣) بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة^(٤).

قال أبو بكر: فَمَنْ عَمِلَ على ترك الأثر، والإعراض عن الإجماع، ونظَّم السُّورَ على منازلها بمكة والمدينة، لم يَدِرْ أينَ تقعُ الفاتحةُ، لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطرُّ إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومئتين من البقرة إلى رأس الأربعين، ومن أفسدَ نَظْمَ القرآن، فقد كفر به، وردَّ على محمد ﷺ ما حكاه عن ربِّه تعالى.

وقد قيل: إِنَّ عِلَّةَ تقديم المدنيِّ على المكيِّ هو أَنَّ الله تعالى خاطَبَ العربَ بلغتها، وما تعرَّفَ من أفانين خطابها ومحاورتها، فلما كان فَنٌّ من كلامهم مبنياً على تقديم المؤخَّر، وتأخير المقدَّم، خُوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى، الذي لو فقدوه من القرآن، لقالوا: ما باله غَرِيٌّ من هذا الباب الموجود في كلامنا، المُسْتَحْلَى من نظامنا. قال عبيد بن الأبرص^(٥):

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

(٢) في (ظ): أبقوه.

(٣) في (ظ): نزلت.

(٤) وأورده كذلك السيوطي في الإنقان ١١/١ - ١٢ عن ابن الأنباري.

(٥) شاعر جاهلي قديم، من المعمرين، شهد مقتل حُجر أبي امرئ القيس. الشعر والشعراء ٢٦٧/١،

وذكره ابن سلام الجُمحي في الطبقة الرابعة من طبقاته ١٣٨/١، وقال: قديم، عظيم الذكر، عظيم

الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب. والبيتان في ديوانه ص ٢٤.

أَنْ بُدِّلَتْ أَهْلُهَا وَحُوشًا^(١) وَغَيَّرَتْ حَالَهَا الْخُطُوبُ
عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبُ كَانَ شَأْنِيهِمَا شَعِيبُ
أراد: عيناك دمعهما سرُوب لأن تبدلت من أهلها وحوشاً، فقدم المؤخر، وأخر
المقدم. ومعنى سرُوب: منصب على وجه الأرض من كثرت^(٢)، ومنه السارب،
للذاهب على وجهه في الأرض. قال الشاعر^(٣):

أَنْى سَرَبَتِ وَكُنْتَ غَيْرَ سَرُوبِ

وقوله: شَأْنِيهِمَا؛ الشأن: واحد الشؤون، وهي مَوَاصِلُ قبائل الرأس
وملتقاها^(٤)، ومنها يجيء الدمع^(٥). شَعِيب: متفرق.

فصل^(٦)

وأما شَكْلُ المصحف ونَقْطُهُ، فَرَوَى أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ^(٧) أَمَرَ بِهِ وَعَمِلَهُ،
فَتَجَرَّدَ لَذَلِكَ الْحَجَّاجُ^(٨) بِوَاسِطَةٍ، وَجَدَّ فِيهِ، وَزَادَ تَحْزِيئَهُ^(٩)، وَأَمَرَ - وَهُوَ وَالِي الْعِرَاقِ -

(١) اضطربت النسخ في هذا الشطر من البيت، فوقع في (ظ): لأن تبدلت من أهلها وحوشاً (وعليه شرح
المصنف)، وفي (د): أن يبدل من أهلها...، وفي (م): أن بدلت منهم...، وما أثبتناه من ديوانه ص ٢٤.
وقد اختلفت المصادر في روايته، فوقع في جمهرة أشعار العرب لابن أبي الخطاب القرشي ص ٤٦٠:
إِنْ تَبَدَّلَتْ مِنْ أَهْلِهَا...، وأعاده ص ٤٦٢: أَنْ بَدَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا. وفي شرح القصائد العشر للتبريزي ص
٣٢٥: وَبُدِّلَتْ مِنْ أَهْلِهَا...، وفي المعلقات العشر للشنقيطي ص ١٧٠: وَبُدِّلَتْ مِنْهُمْ... ونقل شارح
ديوانه ص ٢٤ عن ابن كناسة قوله: لَمْ أَرِ أَحَدًا يُنْشِدُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ عَلَى إِقَامَةِ الْعُرُوضِ.

(٢) قوله: من كثرت، ليس في (م).

(٣) هو قيس بن الخطيم، من الأوس، أدرك الإسلام ولم يسلم، ذكره ابن سلام في طبقاته ١/ ٢١٥. وتمام
البيت: وَتَقَرَّبَ الْأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ. وهو في ديوانه ص ٥٥.

(٤) في (د) و(ظ): وملتقاها.

(٥) في (د) و(ظ): الدموع.

(٦) هذا الفصل بتمامه من المحرر الوجيز ١/ ٥٠.

(٧) ابن الحكم بن أبي العاص، الأموي، الخليفة، من رجال الدهر ودهاة الرجال، مات سنة (٨٦هـ).
السير ٢٤٦/٤.

(٨) ابن يوسف الثقفي، توفي سنة (٩٥هـ). السير ٣٤٣/٤.

(٩) في (ظ): تجزئته.

الحسن ويحيى بن يعمر^(١) بذلك، وألف إثر ذلك بوايط كتاباً في القراءات، جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زماناً طويلاً، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه^(٢) في القراءات. وأسند الزبيدي في كتاب «الطبقات»^(٣) إلى المبرّد أن أوّل من نَقَطَ المصحف أبو الأسود الدؤلي^(٤)، وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف، نَقَطَ له يحيى بن يعمر^(٥).

فصل

وأما وضع الأعشار، فقال ابن عطية: مرّ بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي^(٦) أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك^(٧). وذكر أبو عمرو الداني في كتاب «البيان»^(٨) له عن عبد الله بن مسعود، أنه كره التّعشير في المصحف، وأنه كان يحكّه. وعن مجاهد أنه كره التّعشير والطّيب في المصحف. وقال أشهب^(٩): سمعت مالكا، وسئل عن العُشور التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكرة ذلك، وقال: تَعْشِيرُ المصحف بالحبر لا بأس به.

(١) هو أبو سليمان القدواني البصري المقرئ، قاضي مرو، مات قبل سنة (٩٠هـ). السير ٤٤١/٤.

(٢) في (د): كتاباً، وابن مجاهد: هو أحمد بن موسى بن العباس، أبو بكر البغدادي، المحدث النحوي شيخ المقرئين، توفي سنة (٣٢٤هـ). السير ٢٧٢/١٥.

(٣) ص ٢١، والزبيدي: هو محمد بن الحسن بن عبيد الله، أبو بكر الأندلسي، إمام النحو، توفي سنة (٣٧٩هـ). السير ٤١٧/١٦.

(٤) ظالم بن عمرو، كان معدوداً في الفقهاء والشعراء والمحدثين، وهو أول من تكلم في النحو، مات سنة (٦٩هـ). السير ٨١/٤.

(٥) المصدر السالف ص ٢٩.

(٦) هو عبد الله بن هارون الرشيد، أبو العباس، الخليفة، مات سنة (٢١٨هـ) السير ٢٧٢/١٠.

(٧) المحرر الوجيز ٥٠/١.

(٨) لعله البيان في عدّ آي القرآن، ذكره صاحب هدية العارفين ٦/٦٥٣. وقد أخرج أبو عمرو الداني هذه الآثار أيضاً (التي سيوردها المصنف عنه) في كتابه المحكم في نقط المصاحف ص ١٤ - ١٧. وفيه بدل أشهب: ابن وهب، وابن القاسم، وعبد الله بن عبد الحكم. وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٤٠. ٢٤٢، والمصنّف لابن أبي شيبة ١٠/٥٤٨. ٥٤٩، والمصاحف لابن أبي داود ص ١٣٨. ١٣٩.

(٩) ابن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم، مفتي مصر، يقال: اسمه مسكين، وأشهب لقب له، سمع مالك بن أنس، مات سنة (٢٠٤هـ). «السير» ٩/٥٠٠.

وسُئِلَ عن المصاحف يُكْتَبُ فيها خَوَاتِمَ السُّورِ في كلِّ سورة ما فيها من آية، قال: إني أكره ذلك في أمّهات المصاحف أن يُكْتَبَ فيها شيء، أو يُشكَّلَ، فأما ما يتعلَّم به الغلمان من المصاحف، فلا أرى بذلك بأساً. قال أشهب: ثم أخرج إلينا مُصحفاً لِحَدِّه، كَتَبَهُ إِذْ كَتَبَ عِثْمَانُ المصاحفَ، فرأينا^(١) خَوَاتِمَهُ من جبر، على عمل السلسلة في طول السطر، ورأيتُه معجومَ الآي بالجبر.

وقال قتادة: بدؤوا فنَقَطُوا، ثم خَمَّسُوا، ثم عَشَّرُوا.

وقال يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجرداً في المصاحف، فأوَّل ما أحدثوا فيه النَّقْطَ على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو^(٢) نورُّ له، ثم أحدثوا نَقْطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم^(٣).

وعن أبي حمزة^(٤) قال: رأى إبراهيم النخعي في مُصحفي فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لي: أمحُه، فإنَّ عبد الله بن مسعود قال: لا تَخْلِطُوا في كتاب الله ما ليس فيه.

وعن أبي بكر السَّراج^(٥) قال: قلت لأبي رزين^(٦): أأكتب في مُصحفي سورة كذا وكذا؟ قال: إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه، فيظنُّونه من القرآن.

قال الدَّاني رضي الله عنه: وهذه الأخبار كلها تُؤْذِنُ بأنَّ التعشيرَ والتخميسَ وفواتح السور ورؤوس الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم، فأدهم^(٧) إلى عمله الاجتهاد. وأرى أنَّ من كره ذلك منهم ومن غيرهم، إنما كرهه أن يُعملَ بالألوان، كالْحُمْرَةِ وَالصُّفْرَةِ وغيرهما، على أنَّ المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله في الأمهات وغيرها. والحرَجُ والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله تعالى.

(١) في (د): فرأينا قرآنًا.

(٢) في (د): ثم هو.

(٣) قال أبو عمرو في المحكم ص ١٧: وهذا يدل على التوسعة في ذلك.

(٤) ميمون الأعور الكوفي، صاحب إبراهيم النخعي، من رجال التهذيب.

(٥) هو الزبرقان بن عبد الله الأسدي، كما ذكر ابن أبي داود في المصاحف ص ١٣٨، من أهل الكوفة،

وذكره ابن حبان في الثقات ٣٤١/٦.

(٦) لعله مسعود بن مالك، الكوفي، وهو من رجال التهذيب، وانظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢٩٦/٢.

(٧) في (د): فأدهم، ولم تجرِد اللفظة في (ظ).

فصل

وأما عددُ حُرُوفه وأحزابه^(١)، فروى سَلَامٌ^(٢) أبو محمد الجِئَانِي، أن الحَجَّاجَ بْنَ يوسف جمع القُرَاءَ والحُقَاطَ والكُتَّابَ، فقال: أخبروني عن القرآن كله: كم من حرفٍ هو؟ قال: وكنتُ فيهم، فحسبنا، فأجمعنا على أن القرآن ثلاثُ مئة ألفِ حرفٍ، وأربعون ألفَ حرفٍ، وسبعُ مئة حرفٍ، وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني إلى أيِّ حرفٍ ينتهي نصفُ القرآن؟ فإذا هو في الكهف: ﴿وَلَيَتَلَطَّفْ﴾ [١٩] في الفاء. قال: فأخبروني بأثلاثه، فإذا الثُّلُثُ الأوَّلُ رأسُ مئة من براءة، والثُّلُثُ الثاني رأسُ مئة - أو إحدى ومئة - من «طسم» الشعراء، والثُّلُثُ الثالثُ ما بقي من القرآن. قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف، فإذا أوَّلُ سُبُعٍ في النساء: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ﴾ [٥٥] في الدال، والسُّبُعُ الثاني في الأعراف: ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾^(٣) [١٤٧] في التاء، والسُّبُعُ الثالثُ في الرَّعد: ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ﴾ [٣٥] في الألف من آخر ﴿أَكْلُهَا﴾، والسُّبُعُ الرابعُ في الحج: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ [٣٤] في الألف، والسُّبُعُ الخامسُ في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [٣٦] في الهاء، والسُّبُعُ السادسُ في الفتح: ﴿الْفَاطِنَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ﴾ [٦] في الواو، والسُّبُعُ السابعُ ما بقي من القرآن.

قال سَلَامٌ أبو محمد: عملناه في أربعة أشهر، وكان الحَجَّاجُ يقرأ في كلِّ ليلة رُبْعاً، فأوَّلُ رُبْعِهِ خَاتِمَةُ الْأَنْعَامِ، والرُّبْعُ الثاني في الكهف: ﴿وَلَيَتَلَطَّفْ﴾ [١٩] في الفاء^(٤). والرُّبْعُ الثالثُ خَاتِمَةُ الزُّمَرِ، والرُّبْعُ الرابعُ ما بقي من القرآن^(٥). وفي هذه الجملة خلافٌ مذكورٌ في كتاب «البيان» لأبي عمرو الدَّانِي، من أراد الوقوفَ عليه، وجدَه هناك.

(١) في (م): وأجزائه.

(٢) قال ابنُ أبي داود في المصاحف ص ١١٩: إنما هو راشد. اهـ وهو ابنُ نَجِيحِ الجِئَانِي، من رجال التهذيب.

(٣) في النسخ وعند ابن أبي داود: أولئك حببوا، وهو خطأ.

(٤) قوله: في الفاء، ليس في (م).

(٥) أخرجه ابنُ أبي داود في المصاحف ص ١١٩ - ١٢٠.

فصل

وأما عددُ آي القرآن في المدنيِّ الأوَّل^(١)، فقال محمدُ بن عيسى^(٢): جميعُ عدد آي القرآن في المدني الأوَّل ستةُ آلاف آية.

قال أبو عمرو: وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يُسمُوا في ذلك أحداً بعينه يُسندونه إليه.

وأما المدنيُّ الأخير، فهو في قول إسماعيل بن جعفر^(٣) ستةُ آلاف آية، ومثنا آية، وأربع عشرة آية.

وقال الفضل^(٤): عددُ آي القرآن في قول المكيِّين ستةُ آلاف آية، ومثنا آية، وتسع عشرة آية.

قال محمدُ بن عيسى: وجميعُ عددِ آي القرآن في قول الكوفيِّين ستةُ آلاف آية، ومثنا آية، وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذي رواه سُليم^(٥) والكِسائي^(٦)، عن حمزة^(٧)، وأسنده الكِسائي إلى عليٍّ رضي الله عنه.

(١) نقل السيوطي في الإتقان ص ٦٧ عن أبي عبد الله الموصلي أن لأهل المدينة في عدد آي القرآن عددَين، الأول: لأبي جعفر يزيد بن القعقاع (وهو من العشرة)، وشيبة بن نصاح مولى أم سلمة وختن أبي جعفر. والثاني: لإسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، وسيرد ذكره.

(٢) محمد بن عيسى بن إبراهيم، أبو عبد الله الأصبهاني، إمام في القراءات، وله اختيار في القراءة، صنف كتاب الجامع في القراءات، وكتاباً في العدد، وغيرهما. مات سنة (٢٥٣هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢٣.

(٣) هو إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، الإمام الحافظ، أبو إسحاق الأنصاري، كان مقرئ المدينة في زمانه. توفي سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٢٣٠، وطبقات القراء ١/ ١٦٣.

(٤) هو الفضل بن شاذان بن عيسى، أبو العباس الرازي، قال الداني: لم يكن في دهره مثل علمه وفهمه وعدالته وحسن اطلاعه، مات في حدود (٢٩٠هـ). طبقات القراء ٢/ ١٠.

(٥) هو سُليم بن عيسى بن سليم، أبو عيسى - ويقال: أبو محمد - الحنفي مولا هم الكوفي المقرئ، عرض القرآن على حمزة، وهو أخَصُّ أصحابه، توفي سنة (١٨٨هـ)، وقيل غير ذلك. طبقات القراء ١/ ٣١٨ وانظر السير ٩/ ٣٧٥.

(٦) أبو الحسن علي بن حمزة شيخُ القراءة والعربية، اختار قراءة اشتهرت وصارت إحدى السبع، مات بالري سنة (١٨٩هـ). السير ٩/ ١٣١، وطبقات القراء ١/ ٥٣٥.

(٧) هو ابن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، أبو عمارة، التيمي، مولا هم، الكوفي، الزيات، شيخ القراء. توفي سنة (١٥٦هـ). انظر السير ٧/ ٩٠.

قال محمد: وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف، ومثتان، وأربع آيات، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن.
وأما عدد أهل الشام، فقال يحيى بن الحارث الدماري^(١): ستة آلاف ومثتان، وست وعشرون. وفي رواية: ستة آلاف ومثتان وخمسة وعشرون، نقص آية.
قال ابن ذكوان^(٢): فظننت أن يحيى لم يعد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.
قال أبو عمرو: فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفاً، ويعدّون بها في سائر الآفاق قديماً وحديثاً.

وأما كلماته؛ فقال الفضل بن شاذان: جميع كلمات^(٣) القرآن - في قول عطاء بن يسار - سبعة وسبعون ألفاً، وأربع مئة، وتسع وثلاثون كلمة. وحروفه ثلاث مئة ألف، وثلاثة وعشرون ألفاً، وخمسة عشر حرفاً.
قلت: هذا يخالف ما تقدّم عن الجُماني قبل هذا.
وقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: هذا ما أحصينا من القرآن، وهو ثلاث مئة ألف حرف، وأحد وعشرون ألف حرف، ومئة وثمانون حرفاً، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الجُماني من عدد^(٤) حروفه.

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة في كلام العرب: الإبانة لها من سورة أخرى، وانفصالها عنها، وسُميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة. قال النابغة^(٥):
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ

(١) أبو عمرو الغساني الدماري، ثم الدمشقي، شيخ المقرئين إمام جامع دمشق، مات سنة (١٤٥هـ). السير ١٨٩ / ٦.

(٢) عبد الله بن أحمد، أبو عمرو، القرشي الدمشقي، شيخ الإقراء بالشام، وإمام جامع دمشق. توفي سنة (٢٤٢هـ). طبقات القراء ١ / ٤٠٤.

(٣) في النسخ الخطية: كلام، والمثبت من (م).

(٤) في (م): عدّ.

(٥) زياد بن معاوية النيباني، يكنى أبا أمامة، والناطقة لقب له، من فحول الشعراء. والبيت في ديوانه ص ١٨. وانظر الشعر والشعراء ١ / ١٥٧.

أي: منزلة شرف، ارتفعت إليها عن منزل الملوك.
وقيل: سُميت بذلك لِشرفها وارتفاعها، كما يُقال لما ارتفع من الأرض: سور.
وقيل: سُميت بذلك لأنَّ قارئها يُشرفُ على ما لم يكن عنده، كسور البناء. كلُّه بغير همز.

وقيل: سُميت بذلك لأنها قُطعت من القرآن على حدة، من قول العرب للبقية: سور، وجاء في أسرار الناس، أي: بقاياهم، فعلى هذا يكون الأصل: سورة بالهمزة، ثم خُففت، فأبدلت واواً، لانضمام ما قبلها.

وقيل: سُميت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامة: سورة.
وجمعُ سورة: سور، بفتح الواو. وقال الشاعر:

سُودُ الْمَحَاجِرِ لَا يَقْرَأَنَّ بِالسُّورِ^(١)

ويجوز أن يُجمع على: سُورَات، وسُورَات.

وأما الآية، فهي العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله، أي: هي بائنة من أختها ومنفردة. وتقول العرب: بيني وبين فلان آية، أي: علامة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨].
وقال النابغة^(٢):

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِنَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ

وقيل: سُميت آية، لأنها جماعة حروف من القرآن، وطائفة منه، كما يقال:

خرج القومُ بآيتهم^(٣)، أي: بجماعتهم. قال بُرْجُ بْنُ مُسْهِرٍ الطائي^(٤):

خَرَجْنَا مِنَ النَّقَبَيْنِ لَا حَيٍّ مِثْلُنَا بآيَتِنَا^(٥) نُزْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا

(١) قاله الراعي، أبو جندل، عُبيد بن حُصَيْن الثُميري، من شعراء العصر الأموي. وصدر البيت: هُنَّ الحرائرُ لآريَّاتُ أحمره. وهو في ديوانه ص ١٢٢. وينظر الشعر والشعراء ١/ ٤١٥. ونُسب البيت أيضاً للقيثال الكلابي، وهو في ديوانه ص ٥٣، وسيرد البيت بتمامه عند تفسير الآية (٢٠) من سورة المؤمنون.

(٢) ديوانه ص ٧٩.

(٣) في (م): بآياتهم.

(٤) ابن الجلاس، أحد بني جديلة، ثم أحد بني طريف، من معمرى الجاهلية. ينظر المؤلف والمختلف للآمدي ص ٨٠، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٦٨١، والبيت في إصلاح المنطق لابن السكيت ص ٣٣٧، والتنبيهات لعلي بن حمزة البصري ص ٣٠٨، وانظر اللسان (أيا)، وخزانة الأدب ٦/ ٥١٥.

(٥) في (م): بآياتنا.

وقيل: سُمِّيَتْ آيَةً، لأنها عَجَبٌ، يَعْجِزُ البَشَرُ عن التكلُّم بِمثلها^(١).
واختلف النحويون في أصل «آية»، فقال سيبويه^(٢): آيَّةٌ على فَعْلَةٍ، مثل: أَكَمَّةٌ،
وَشَجَرَةٌ، فلما تحرَّكت الياءُ، وانفتح ما قبلها، انقلبت ألفاً، فصارت آيةً، بهمزة
بعدها مدَّةٌ.

وقال الكسائي: أصلها آيَّةٌ، على وزن فاعلة، مثلُ آمنة، فقلِّبتِ الياءُ ألفاً،
لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت، لالتباسها بالجمع^(٣).
وقال الفراء^(٤): أصلها آيَّةٌ؛ بتشديد الياءِ الأولى، فقلِّبتِ ألفاً كراهةً للتشديد،
فصارت آيةً^(٥).

وجمعها آيٌّ، وآياتٌ، وآيَاءٌ. وأنشد أبو زيد^(٦):
لم يُبْقِ هذا الدَّهْرُ من آيائه غيرَ أثافيهِ وأزمِدايهِ^(٧)
وأما الكلمة، فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلطُ بها من الشُّبُهات، أي:
الحروف. وأطولُ الكلِّم في كتاب الله عزَّ وجلَّ ما بلغَ عَشْرَةَ أَحرفٍ، نحو قوله تعالى:
﴿لَيْسَتِ لَكُنَّهٗ﴾ [النور: ٥٥]، و﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [هود: ٢٨]، وشبههما. فأما قوله:
﴿فَأَنْفَيْتُ كُنُوزَهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فهو عشرة أَحرفٍ في الرسم، وأحد عشرَ في اللفظ.
وأقصرُهُنَّ ما كان على حَرَفَيْنِ، نحو: ما، ولا، ولك، وله، وما أشبه ذلك.
ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة، مثلُ همزة الاستفهام، وواو العطف،
إلا أنه لا يُنطقُ به مفرداً.

(١) وقع قوله: وقيل سميت آية لأنها عجب ... إلى هذا الموضع في (د) قبل قوله: قال برج بن مسهر.

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، البصري، إمام النحو، مات سنة (١٨٠هـ). السير ٨ / ٣٥٢.

(٣) الذي نقله ابن عطية في تفسيره ٥٧ / ١ عن الكسائي في تعليقه هو قوله: حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في «دابة». وينظر البحر المحيط ١ / ١٦٠، والدر المصون ١ / ٣٠٨.

(٤) يحيى بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي، له معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، وغيرهما، مات بطريق الحج سنة (٢٠٧هـ). السير ١٠ / ١١٨.

(٥) المنقول عن الفراء (كما في المصادر السالفة) أنها فَعْلَةٌ، بسكون العين، ثم أبدلت الياء الساكنة ألفاً، استقلالاً للتضعيف.

(٦) سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، النحوي، صاحب كتاب النوادر، مات سنة (٢١٥هـ). السير ٩ / ٤٩٤.

(٧) هو في أدب الكاتب ص ٥٨٧، والمنصف ٢ / ١٤٣، وينظر اللسان (رمد، أيا).

وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة، نحو قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، ﴿وَالصُّبْحِ﴾. ﴿وَالْمَصْرِ﴾. وكذلك ﴿الْمَرْ﴾ و﴿الْمَصَّ﴾ و﴿طه﴾ و﴿يس﴾ و﴿حم﴾ في قول الكوفيّين، وذلك في فواتح السور، فأما في حشوهم، فلا. قال أبو عمرو الداني: ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في «الرحمن»: ﴿مُذْهَبَانِ﴾ [٦٤] لا غير^(١).

وقد أتت كلمتان متصلتان، وهما آيتان، وذلك في قوله: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ﴾ [الشورى: ١ و ٢]. على قول الكوفيّين لا غير.

وقد تكون الكلمة في غير هذا الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عز وجل: ﴿وَقَمَّتْ كُلُّمْتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. قيل: إنما يعني بالكلمة هاهنا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] إلى آخر الآيتين، وقال عز وجل: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ الْقَوَى﴾ [الفتح: ٢٦]؛ قال مجاهد: لا إله إلا الله، وقال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٢). وقد تُسمَّى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها كلمة، فيقولون: قال قُصٌّ^(٣) في كلمته كذا، أي: في خطبته. وقال زهير في كلمته كذا، أي: في قصيدته. وقال فلان في كلمته، يعني في رسالته، فتُسمَّى^(٤) جملة الكلام كلمة، إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه، وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازاً واتساعاً.

وأما الحرف، فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يُسمَّى الحرف كلمة، والكلمة حرفاً، على ما بيّناه من الاتساع والمجاز.

(١) وذكره السيوطي في الإتيان ١/ ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد (٧١٦٧) والبخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو قُص بن ساعدة بن عمرو بن إيد، خطيب العرب وشاعرهما وحكيمها في عصره، يقال: إنه أول من علا على شرف، وخطب عليه، وأول من قال في كلامه: أما بعد، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا، أدركه الرسول ﷺ، ورآه بعاظ. الأغاني ١٥/ ٢٤٦، وينظر الأوايل للعسكري ١/ ٨٤.

(٤) في (د): فسمي.

قال أبو عمرو الداني: فإن قيل: فكيف يُسمَّى ما جاء من حروف الهجاء في الفواتح على حرف واحد، نحو ﴿صَّ﴾ و﴿قَّ﴾ و﴿تَّ﴾ حرفاً أو كلمة؟ قلت: كلمة لا حرفاً، وذلك من جهة أنَّ الحرف لا يُسَكَّتُ عليه، ولا ينفرد وحده في الصورة، ولا ينفصل مما يخلط به، وهذه الحروف مسكوت عليها، منفردة منفصلة، كانفراد الكلم وانفصالها، فلذلك سُمِّيت كلمات لا حروفاً.

قال أبو عمرو: وقد يكون الحرف في غير هذا المذهب والوجه، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] أي: على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أُنزِلَ القرآن على سبعة أحرف»^(١) أي: سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم.

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب، أو لا

لا خلاف بين الأمة^(٢) أنه ليس في القرآن كلامٌ مرگَّب على أساليب غير العرب، وأنَّ فيه أسماءً أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب، كإسرائيل، وجبريل، وعمران، ونوح، ولوط.

واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام^(٣) مفردة من غير كلام العرب؟ فذهب القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب والطبري^(٤) وغيرهما إلى أنَّ ذلك لا يوجد فيه، وأنَّ القرآن عربيٌّ صريحٌ، وما وُجد فيه من الألفاظ التي تُنسب إلى سائر اللُّغات إنما اتَّفَقَ فيها أن توارَدَت اللُّغاتُ عليها^(٥)، فتكلَّمت بها العربُ والفُرسُ والحِشَّةُ وغيرهم.

وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأنَّ تلك الألفاظ لِقَلَّتْها لا تُخرِجُ القرآنَ عن كونه عربيّاً مُبيناً، ولا رسولَ الله عن كونه مُتكلِّماً بلسان قومه. فالمِشْكَاةُ: الكَوَّةُ، ونشأ:

(١) سلف تخريجه ص ٧١.

(٢) في (م): الأئمة.

(٣) في (د): وقع فيه أعلام.

(٤) تفسير الطبري ١٤/١ - ٢٠.

(٥) قوله: عليها من (م).

قامَ من الليل، ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ [المزمل: ٦]، و﴿يُؤْتِكُمْ كِفَافَيْنِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي: ضِعْفَيْن، و﴿فَرَزْتُ مِنْ قُصُورِهِمْ﴾ [المدثر: ٥١]، أي: الأسد، كلُّه بلسان الحبشة. والعَسَاقُ: الباردُ المُنتَنُ، بلسان التُّرك، والقِسْطَاسُ: الميزانُ، بلغة الرُّوم، والسَّجِيلُ: الحجارةُ والطين، بلسان الفُرس، والطُّورُ: الجبلُ، واليَمُّ: البحرُ، بالسُّريانية، والتَّنُّورُ: وَجْهُ الأرض، بالعجمية.

قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العربُ، وعَرَّبَتَهَا، فهي عربية بهذا الوجه. وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها^(١) بعضُ مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتَي قريش، وكسفرِ مُسافر بن أبي عمرو^(٢) إلى الشام، وكسفر عمرو بن الخطاب، وكسفرِ الأعشى إلى الحيرة، العاصي وعُمارة بن الوليد^(٣) إلى أرض الحبشة، وكسفرِ الأعمش إلى الحيرة، وضحبتُه لنصاراها، مع كونه حُجَّةً في اللُّغة، فعَلِقَتِ العربُ بهذا كلُّه ألفاظاً أعجمية غيَّرت بعضها بالنقص من حروفها، وجَرَّتْ إلى تخفيف ثِقَلِ العُجْمَةِ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مَجْرَى العربيِّ الصحيح^(٤)، ووقع بها البيانُ، وعلى هذا الحدُّ نزل بها القرآن. فإن جَهَلَهَا عربيٌّ ما، فَكَجْهَلِهِ الصريح بما في لغة غيره، كما لم يَعْرِفْ ابنُ عباس معنى «فاطر»^(٥) إلى غير ذلك.

قال ابن عطية^(٦): وما ذهب إليه الطبريُّ رحمه الله من أنَّ اللُّغتين اتفقتا في لفظة لفظة، فذلك بعيدٌ، بل إحداهما أصلٌ، والأخرى فرعٌ في الأكثر^(٧)، لأنَّنا لا^(٨) ندفع أيضاً جوازَ الاتفاق قليلاً شاذاً.

(١) في (د): بلغاتها .

(٢) يكنى أبا أمية، كان سيداً جواداً، وهو أحدُ شعراء قريش، وكان يناقضُ عُمارة بن الوليد، وله شعر ليس بالكثير . الأغاني ٩ / ٤٩ - ٥٥ .

(٣) الجاهلي المخزومي، أحدُ مَنْ دعا عليهم النبي ﷺ، ومات كافراً . الإصابة ٨ / ٢٤ .

(٤) في المحرر الوجيز (والكلام منه) ١ / ٥١ : الصريح .

(٥) سلفت هذه القصة ص ٧٦ .

(٦) المحرر الوجيز ١ / ٥١ .

(٧) قوله: في الأكثر، من المحرر الوجيز .

(٨) في (ز) و(ظ): لا أنا، وفي (د): لأننا، والمثبت من المحرر الوجيز .

قال غيره: والأوّل أصحّ.

وقوله: هي أصلٌ في كلام غيرهم، دُخيلةٌ في كلامهم، ليس بأولى من العكس، فإنّ العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها، أو لا، فإن كان الأوّل، فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة^(١).

فإن قيل: ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب، فلا تكون منه. قلنا: ومن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تُخرجوا هذه منها؟ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب، وردّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية. وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها، ولا عرّفتها، استحال أن يُخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً مبيّناً، ولا يكون الرسول مخاطباً لقومه بلسانهم. والله أعلم.

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحد^(٢) معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم، صلوات الله عليهم، وسُميت مُعجزة لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها. وشرائطها خمسة، فإن اختلّ منها شرط، لا تكون معجزة:

فالشرط الأوّل من شروطها: أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه. وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة، لأنه لو أتى آت في زمانٍ يصح فيه مجيء الرسل، وادّعى الرسالة، وجعل معجزته أن يتحرّك ويسكن، ويقوم ويقعد، لم يكن هذا الذي ادّعاه معجزة له، ولا دالاً على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر.

(١) معمر بن المثنى التيمي البصري النحوي، صاحب التصانيف، قال المبرّد: كان هو والأصمعي متقاربين في النحو، وكان أبو عبيدة أكمل القوم، مات سنة (٢٠٩هـ)، وقيل غير ذلك. السير ٩/ ٤٤٥.

(٢) في (م): واحدة.

والشرط الثاني: هو أن تخرق العادة. وإنما وجب اشتراط ذلك، لأنه لو قال المدعي للرسالة^(١): آتني مجيء الليل بعد النهار، وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادّعه معجزة، لأنّ هذه الأفعال، وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله، وقد كان قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوته، كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له لاستشهاده بها^(٢) يدل على صدقه. والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول: الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعباناً، ويشق الحجر، ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعي، كما ينبع من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التي ينفرد بها جبار الأرض والسماوات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه - لو أسمعنا كلامه العزيز وقال -: صدق، أنا بعثته.

ومثال هذه المسألة - لله ولرسوله المثل الأعلى - ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض، وهم بمرأى أو مسمع منه، فقال أحد رجاله والملك يسمعه^(٣): الملك - أيها الجماعة^(٤) - يأمركم بكذا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أفعاله، وهو أن يخرج خاتمته من يده قاصداً بذلك تصديقي، فإذا سمع الملك كلامه لهم، ودعواه فيهم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله - لو قال -: صدق فيما ادّعه عليّ. فكذاك إذا عمل الله عملاً لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يدي^(٥) الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه^(٦) وقال: صدق عبدي في دعوى الرسالة، وأنا أرسلته إليكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

(١) في (ظ): مدعي الرسالة.

(٢) قوله: لاستشهاده بها، من (د) و(ز)، وفي (ظ): لا وجه يدل ...

(٣) في (م): وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه.

(٤) في (م): الملك يأمركم أيها الجماعة.

(٥) في (م): يد.

(٦) في (د): سمعناه.

والشرط الثالث: هو أن يَسْتَشْهَدَ بها مُدَّعي الرسالة على الله عزَّ وجلَّ، فيقول: آتيني أن يَقلِّبَ الله سبحانه هذا الماءَ زَيْتاً، أو يَحْرُكَ الأرضَ عند قولِي لها: تزلزلي، فإذا فعلَ الله سبحانه ذلك، حصل المُتَحَدِّي به.

الشرط الرابع: هو أن تَقَعَ على وَفْقِ دَعْوَى المُتَحَدِّي بها، المُسْتَشْهَدُ بكونها معجزةً له. وإنما وجب اشتراطُ هذا الشرط؛ لأنه لو قال المدَّعي للرسالة: آيةُ نبوتِي ودليلُ حُجَّتِي أن تَنطِقَ يدي، أو هذه الدَّابَّةُ، فَتَنطِقَ يده، أو الدَّابَّةُ، بأن قالت: كذب، وليس هو بنبي، فإنَّ هذا الكلامَ الذي خَلَقَهُ اللهُ تعالى دالٌّ على كَذِبِ ذلك المدَّعي للرسالة؛ لأنَّ ما فعله اللهُ لم يَقَعْ على وَفْقِ دَعْوَاه. وكذلك ما يُروى أنَّ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب - لعنه اللهُ - تَفَلَّ في بئرٍ لِيَكْثُرَ ماؤها، فغَارَتِ البئرُ، وذهبَ ما كانَ فيها من الماء^(١)، فما فعلَ اللهُ سبحانه من هذا، كان من الآياتِ المُكذِّبَةِ لمن ظَهَرَتْ على يديه، لأنها وَقَعَتْ على خلافِ ما أَرَادَهُ المُتَنَبِّئُ الكَذَّابُ.

والشرط الخامس من شروط المعجزة: ألا يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِ ما أتى به المُتَحَدِّي على وجهِ المعارضة، فإن تَمَّ الأمرُ المُتَحَدِّي به، المُسْتَشْهَدُ به على النبوة، على هذا الشرط، مع الشروط المتقدمة، فهي معجزةٌ دالَّةٌ على نبوةٍ مَنْ ظَهَرَتْ على يده، فإن أقام اللهُ تعالى مَنْ يُعَارِضُهُ حتى يَأْتِيَ بِمِثْلِ ما أتى به، وَيَعْمَلُ مِثْلَ ما عَمِلَ، بَظَلَّ كونه نبياً، وَخَرَجَ ما ظَهَرَ على يديه^(٢) عن كونه مُعْجِزاً، ولم يَدُلَّ على صِدْقِهِ، ولهذا قال المولى سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ بِهِ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ [هود: ١٣]. كأنه يقول: إن ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هذا القرآنَ من نَظْمِ محمد ﷺ وعَمَلِهِ، فاعْمَلُوا عَشْرَ سُوْرٍ من جنسِ^(٣) نَظْمِهِ، فإذا عَجَزْتُمْ بِأَسْرَكُم عن ذلك، فاعلموا أنه ليس مِن نَظْمِهِ، ولا مِن عَمَلِهِ.

لا يقال: إنَّ المعجزاتِ المُقَيَّدَةَ بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي

(١) أورد الطبريُّ هذه القصة في تاريخه ٣/ ٢٨٤-٢٨٥ ضمن خبر مسيلمة.

(٢) قوله: ما ظهر على يديه، ليس في (م).

(٣) في (ظ): حسن.

الصادقين، فهذا المسيح^(١) الدَّجَال - فيما رويتم عن نبيكم ﷺ - يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور.

فإننا نقول: ذلك يدعي الرسالة، وهذا يدعي الربوبية، وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعُميان، وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق إلى بعض غير مُمتنعة، ولا مُستحيلة، فلم يبعد أن يُقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة.

ودلت الأدلة العقلية أيضاً على أن المسيح الدَّجَال فيه التصوير والتغيير^(٢) من حال إلى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات، تعالى رب البريات عن أن يُشبه شيئاً، أو يُشبهه شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فصل

إذا ثبت هذا، فاعلم أن المعجزات على ضربين:

الأول: ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي ﷺ.

والثاني: ما تواترت^(٣) الأخبار بصحته وحصوله، واستفاضت بشوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة.

ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقاً كثيراً وجماً غفيراً، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علماً ضرورياً، وأن يستوي في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب. وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفاً عن سلف، والسلف عن سلفه، إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام، المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة المعجزات، والرسول أخذَه عن جبريل عليه السلام، عن ربّه عز وجل، فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله

(١) في (د) و(م): المسيح (بالخاء المعجمة). ويقال له كذلك، وسيذكر المصنف الأقوال في تسميته بذلك، عند تفسير قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿أَسْمُهُ السَّيِّحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية ٤٥.

(٢) في النسخ الخطية: والتغير، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية: تواردت، والمثبت من (م).

إلينا بعدهم أهل التواتر، الذين لا يجوزُ عليهم الكذبُ فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلمُ الضروريُّ بصدقهم فيما نقلوه، من وجود محمد ﷺ، ومن ظهور القرآن على يديه، وتحديده به.

ونظيرُ ذلك من علم الدنيا: علمُ الإنسانِ بما نُقِلَ إليه من وجود البلدان، كالْبصرة والشام، والعراقِ وخراسان، والمدينةِ ومكة، وأشياء ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة^(١) المتواترة. فالقرآنُ معجزةٌ نبينا ﷺ الباقيةُ بعده إلى يوم القيامة. ومُعجزةُ كلِّ نبيٍّ انقضت بانقراضه، أو دخلها التبديلُ والتغييرُ، كالتواتر والإنجيل.

ووجوهُ إعجاز القرآن العظيم^(٢) عشرة:

منها: النَّظْمُ البديعُ المخالِفُ لكلِّ نَظْمٍ معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأنَّ نَظْمَهُ ليس من نَظْمِ الشعر في شيء، وكذلك^(٣) قال ربُّ العزَّة الذي تَوَلَّى نَظْمَهُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وفي «صحيح» مسلم: أن أنيساً أخا أبي ذرٍّ قال لأبي ذرٍّ: لَقِيتُ رجلاً بمكة على دينك، يزعمُ أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناسُ؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ. وكان أنيسٌ أحدَ الشعراء، قال أنيس: لقد سمعتُ قولَ الكَهَنَةِ، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقرأء الشعر^(٤)، فلم يَلْتِمِ على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر، والله إنه لصادقٌ، وإنهم لكاذبون^(٥).

وكذلك أقرَّ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ أنه ليس بسحر ولا شِعْر، لَمَّا قرأ عليه رسولُ الله ﷺ: «حم» فُصِّلَتْ، على ما يأتي بيانهُ هناك^(٦). فإذا اعترف عُتْبَةُ - على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة - بأنه ما سَمِعَ مثلاً القرآنَ قَطُّ، كان في هذا القولِ مُقَرِّراً بإعجاز القرآن له، ولضربائه من المتحقِّقين بالفصاحة، والقُدرة على

(١) في (ظ): المتظاهرة.

(٢) في (م): الكريم.

(٣) في (د): ولذلك.

(٤) في النسخ الخطية: الشعراء، والمثبت من (م).

(٥) صحيح مسلم (٢٤٧٣)، وعنده: فما يلتزم. وهو في مسند أحمد (٢١٥٢٥).

(٦) أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابن إسحاق فيما ذكر ابن هشام ٢٩٣/١ - ٢٩٤، ومن طريقه البيهقي في دلائل

النبوَّة ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥، وسترده القصة في أول تفسير سورة فصلت.

التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] إلى آخر السورة. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى آخر السورة.

قال ابن الحصار^(١): فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى هو الحق، عَلِمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجَزَالَةِ لَا تَصَحُّ فِي خُطَابِ غَيْرِهِ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنْ يَقُولَ: ﴿لِمَنْ أَلْمَلْتُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، وَلَا أَنْ يَقُولَ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ١٣].

قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية. وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز. ومع هذا، فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة. فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مُغَيَّبِينَ: أحدهما: الإخبار عن الكوثر، وعظمه وسعته، وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أَنَّ المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ① وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ② وَبَيْنَ شُهُودًا ③ وَمَهْدَتْ لَهُ تَهْيِدًا ④ [المدرثر]. ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده، وانقطع نسله^(٢).

ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه^(٣).

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد، أبو المطرف، القرطبي المالكي، تفقه بأبي عمر الإشبيلي. توفي سنة (٤٢٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٧٣.

(٢) في (د): وقطع نسله.

(٣) في (ظ): في موضعه.

ومنها: الإخبار عن الأمور التي تَقَدَّمت من ^(١) أوَّل الدنيا إلى وقت نزوله من أمِّي ما كان يَتَلَو من قبله من كتاب، ولا يَحُطُّه بيمينه، فأخبر بما كان من قَصَصِ الأنبياء مع أممها، والقرونِ الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحذَّوه به، من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضرِ عليهما السلام، وحال ذي القرنين، فجاءهم - وهو أمِّي من أمة أمِّيَّة، ليس لها بذلك علم - بما عرَفوا من الكتب السالفة صِحَّتَه، فتحقَّقوا صدقَه.

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب ^(٢): ونحن نعلِّمُ ضرورة أنَّ هذا مما لا سبيلَ إليه إلا عن تعلُّم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملاسماً لأهل الآثار، وحَمَلَةً الأخبار، ولا متردداً إلى التعلُّم ^(٣) منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتابٌ، فيأخذ منه، علِّم أنه لا يصلُّ إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي.

ومنها: الوفاء بالوعدِ المُدرَك بالحسِّ في العيان، في كلِّ ما وعدَ الله سبحانه، وهو ينقسم ^(٤) إلى: أخباره المطلقة، كوعده بنصرِ رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيَّد بشرط، كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِقُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وشبه ذلك.

ومنها: الإخبار عن المُعْغِيَّات في المستقبل التي لا يُطْلَعُ عليها إلا بالوحي. فمن ذلك: ما وعد الله نبيَّه عليه السلام، أنه سَيُظْهِرُ دينَه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] الآية، ففعل ذلك. وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه، عرَّفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنَّجَح. وكان عمرُ يفعل ذلك ^(٥)، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً، براً وبحراً. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) في (د) و(م): في .

(٢) في إعجاز القرآن ص ٥١.

(٣) في (م): المتعلم .

(٤) في (د) و(ز): وهي تنقسم، وفي (م): وينقسم، والمثبت من (ظ).

(٥) من قوله: فمن ذلك ما وعد الله نبيه، إلى هذا الموضع، من إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٨.

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَيُّك مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿[النور: ٥٥]، وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَافِلُونَ﴾ [الروم].

فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يَقِفُ عليها إلا رَبُّ العالمين، أو من أوقفه عليها رَبُّ العالمين، فدلَّ على أنَّ الله تعالى قد أوقف عليها رسوله، لتكون دلالة على صدقه.

ومنها: ما تضمَّنه القرآن من العلم، الذي هو قِوامُ جميع الأنام في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحِجْمُ البالغة التي لم تَجْرِ العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

ومنها: التناسب في جميع ما تضمَّنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف. قال الله

تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قلت: فهذه عشرة أوجه، ذكرها علماؤنا رحمۃ الله عليهم.

ووجهٌ حادي عشر قاله النُّظَامُ^(١) وبعضُ أهلِ^(٢) القَدَرِيَّةِ، أنَّ وجهَ الإعجاز هو المنع من معارضته، والصَّرْفَةُ عند التحدي بمثله. وأنَّ المنع والصَّرْفَةُ هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أنَّ الله تعالى صَرَفَ هِمَمَهُمْ عن معارضته، مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله. وهذا فاسد؛ لأنَّ إجماعَ الأمة قبل حدوثِ المخالف أنَّ القرآن هو المُعْجِزُ، فلو قلنا: إنَّ المنع والصَّرْفَةُ هو المُعْجِزُ، لخرج القرآن عن أن يكون مُعْجِزاً، وذلك خلافُ الإجماع. وإذا كان كذلك، عَلِمَ أن نفس القرآن هو المُعْجِزُ؛ لأنَّ فصاحته وبلاغته أمرٌ خارقٌ للعادة، إذ لم يُوجد قطُّ كلامٌ على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفاً مُعتاداً منهم، دلَّ على أنَّ المنع والصَّرْفَةُ لم يكن معجِزاً. واختلف مَنْ قال بهذه الصَّرْفَةُ على قولين:

(١) إبراهيم بن سيار، أبو إسحاق البصري، شيخ المعتزلة، تكلم في القدر، وانفرد بمسائل، مات سنة بضع وعشرين ومئتين. السير ١٠ / ٥٤١.

(٢) ليست في (م).

أحدهما: أنهم صُرفوا عن القُدرة عليه، ولو تعرَّضوا له، لعَجَزوا عنه.
الثاني: أنهم صُرفوا عن التعرُّض له، مع كونه في مقدورهم، ولو تعرَّضوا له،
لجاز أن يَقْدِرُوا عليه.

قال ابن عطية: وجه الإعجاز^(١) في القرآن، إنما هو بِتَنظِيمِهِ وَصِحَّةِ معانيه،
وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أَنَّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء عِلْماً، وأحاط
بالكلام كُلَّهُ عِلْماً، فَعَلِمَ بإحاطته أي لفظة تصلُّح أن تلي الأولى، وتُبَيِّن المعنى بعد
المعنى، ثم كذلك من أوَّل القرآن إلى آخره، والبشرُ معهم الجهلُ والنسيانُ والدُّهولُ،
ومعلوم ضرورة أَنَّ بَشْراً لم يكن محيطاً قطُّ، فبهذا جاء نَظْمُ القرآن في الغاية القصوى
من الفصاحة.

وبهذا النظرِ يَبْطُلُ قولُ مَنْ قال: إِنَّ العربَ كان في قُدرتها أن تأتي بمثل القرآن في
الغاية القصوى من الفصاحة، فلما جاء محمدٌ ﷺ، صُرفوا عن ذلك، وعَجَزوا عنه.
والصحيحُ أَنَّ الإتيانَ بمثل القرآن لم يَكُنْ قطُّ في قُدرة أحد من المخلوقين.
ويَظْهَرُ لك قصورُ البشر في أَنَّ الفصيحَ منهم يصنعُ^(٢) خطبة، أو قصيدة، يَسْتَفْرِغُ فيها
جُهدَهُ، ثم لا يزال يُنَقِّحُها حَولاً كاملاً، ثم تُعْطَى لآخرَ بعده، فيأخذها بقريحة
جامعة^(٣)، فيبدِّلُ فيها وَيُنَقِّحُ، ثم لا تزال كذلك^(٤) فيها مواضع للنظر والبدل. وكتابُ
الله تعالى لو نُزِعَتْ منه لَفِظَةٌ، ثم أُدِيرَ لسانُ العرب أن يُوَجِّدَ أحسنَ منها، لم
يُوجَدَ^(٥).

ومن فصاحة القرآن أَنَّ الله تعالى جَلَّ ذِكْرُهُ ذَكَرَ في آية واحدة أمرين، ونَهَيْين،
وَحَبَرَيْن، وإِشارَتَيْن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَاكَ أَنِ مُوسَى أَنِ أَضْمِعِي﴾ [القصص: ٧]
الآية.

وكذلك فاتحة سورة المائدة: أمرٌ بالوفاء، ونَهْيٌ عن النُّكثِ، وحلَّلَ تحليلاً

(١) في (م) والمحذر الوجيز: التحدي.

(٢) في (م): يضع.

(٣) كذا في المحذر الوجيز (والكلام منه)، وفي (ظ): جامدة، وفي (د): جامعة، ولم نتيبها في (ز).

(٤) في (م): بعد ذلك.

(٥) المحذر الوجيز ٥٢/١ باختلاف سير.

عاماً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء، ثم أخبر عن حكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

وأنبا سبحانه عن الموت، وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردي المجرمين، والتحذير من الاغترار^(١) بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] الآية.

وأنبا أيضاً عن قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطر آية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْآرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأنبا جل وعز عن أمر السفينة وإجرائها، وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير^(٢) على^(٣) الأرض والسماء، بقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ أَزْكِبُوا فِيهَا يَسِرَ اللَّهُ بِجَرِّهَا وَمُرْسَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤١ - ٤٤] إلى غير ذلك.

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله، وقالت: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَقَوَّلَهُ، أنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٤] ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣]. فلما عجزوا، حطهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جل ذكره: ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سببي الحريم والأولاد. ولو قدروا على المعارضة، لكان أهون كثيراً، وأبلغ في الحجة، وأشد تأثيراً. هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللحن.

(١) في النسخ الخطية: التغير، والمثبت من (م).

(٢) في (د): للتسخير.

(٣) في (م): إلى.

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة، إلى حيز الإرباء والزيادة. هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت قوله ﷺ في صفه الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجذته منحطاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١) فأين ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا قَشَّهَ الْإِنْسُ وَتَلَّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. هذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأقل حروفاً، على أنه لا يُعتبر إلا في مقدار سورة، أو أطول آية؛ لأن الكلام كلما طال، اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومطنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة، فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة^(٢) موسى عليه السلام قد انتهى إلى غاية^(٣)، وكذلك الطّب في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمن محمد ﷺ^(٤).

باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيرها^(٥)

لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المخترعون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، وقد ارتكبتها جماعة كثيرة، اختلقت أغراضهم ومقاصدُهم في ارتكابها. فمن^(٦) قوم من الزنادقة مثل

(١) أخرجه أحمد (٨١٤٣)، والبخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) في (م): زمان.

(٣) في (م): غايته.

(٤) من قوله: قامت الحجة على العرب ... من المحرر الوجيز ١ / ٥٣.

(٥) في (م): وغيره.

(٦) في (د): فمنهم.

المغيرة بن سعيد الكوفي^(١)، ومحمد بن سعيد الشامي^(٢) المصلوب في الزندقة، وغيرهما، وضَعُوا أحاديثَ، وحدثوا بها، لِيُوقِعُوا بِذلِكَ الشُّكَّ في قلوب الناس، فمِمَّا رواه محمد بن سعيد، عن أنس بن مالك في قوله ﷺ: «أنا خاتم النبيين»^(٣)، لا نبيَّ بعدي، إلا ما شاء الله»^(٤) فزاد هذا الاستثناء، لِمَا كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة. قلتُ: وقد ذكره ابنُ عبد البرِّ في كتاب «التمهيد»^(٥) ولم يتكلَّم عليه، بل تأوَّل الاستثناء على الرؤيا! فالله أعلم.

ومنهم قومٌ وضَعُوا الحديثَ، لِيَهْوَى يَدْعُونَ الناسَ إليه. قال شيخٌ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إنَّ هذه الأحاديثَ دينٌ، فانظروا ممن تأخذون دينكم، فإنَّا كنَّا إذا هَوِينَا أمراً، صَيَّرْنَاهُ حديثاً^(٦).

ومنهم جماعةٌ وضَعُوا الحديثَ حِسْبَةَ كما زعموا، يدعون الناسَ إلى فضائل الأعمال، كما رُوِيَ عن أبي عِصْمَةَ نوح بن أبي مريم المَرْوَزِيِّ^(٧)، ومحمد بن عُكَّاشَةَ الْكِرْمَانِيِّ^(٨)، وأحمد بن عبد الله الْجَوْبَارِيِّ^(٩)، وغيرهم^(١٠).

- (١) هو أبو عبد الله البجلي الرافضي الكذاب، قُتِلَ في حدود العشرين ومئة. ميزان الاعتدال ٤ / ١٦٠.
- (٢) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٣ / ٥٦١ وقال: من أهل دمشق، هالك، وكان من أصحاب مكحول.
- (٣) في (م): الأنبياء.
- (٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١ / ٢٠٦، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١ / ٣٢١.
- (٥) ١ / ٣١٤.
- (٦) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٤٤٣)، والخطيب في الكفاية في علم الرواية ص ١٢٣. وأخرج مسلم في مقدمة صحيحه، والخطيب في الكفاية ص ١٢٢، عن محمد بن سيرين قوله: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.
- (٧) ولي قضاء مرو في خلافة المنصور، وامتدت حياته، قال البخاري: منكر الحديث، مات سنة (١٧٣هـ). ميزان الاعتدال ٤ / ٢٨٠.
- (٨) ويقال: محمد بن إسحاق العكاشي، كذاب، قال سهل بن السري الحافظ: وضع أحمد الجوباري ومحمد بن تميم ومحمد بن عكاشة على رسول الله ﷺ أكثر من عشرة آلاف حديث، وقال ابن عساكر: بلغني أنه كان حيًّا سنة (٢٢٥هـ). لسان الميزان ٥ / ٢٨٦.
- (٩) ويقال: الجوباري، وجوبار من عمل هراة، يعرف بستوق، روى عن ابن عيينة وطبقته، قال ابن حبان: دجال من الدجاجلة، وقال الذهبي: يُضْرَبُ المثل بكذبه. ميزان الاعتدال ١ / ١٠٦.
- (١٠) نقل نحو هذا الكلام الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٥ / ٢٨٨ عن الحاكم (في ترجمة محمد بن عكاشة).

قيل لأبي عَصَمَةَ: من أين لك عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس في فضل سُورِ الْقُرْآنِ سورة سورة؟ فقال: إني رأيتُ النَّاسَ قد أَعْرَضُوا عن الْقُرْآنِ، واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة، ومَغَازِي محمد بن إِسْحَاق^(١)، فوضعتُ هذا الحديثَ حِسْبَةَ^(٢).

قال أبو عمرو عثمانُ بن الصلاح في كتاب «علوم الحديث»^(٣) له: وهكذا الحديثُ الطويلُ الذي يُروى عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في فضل^(٤) القرآنِ سورة سورة^(٥). وقد بحثَ باحثٌ عن مَخْرَجِهِ حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعةٌ وضعوه^(٦). وإنَّ أثرَ الوَضْعِ عليه لَيَبِينُ. وقد أخطأ الواحدِيُّ المفسرُ^(٧)، ومن ذَكَرَهُ من المفسرين، في إيداعه تفاسيرَهم.

ومنهم قومٌ من السُّؤَالِ والمُكَلِّدِينَ^(٨)، يَقِفُونَ في الأسواقِ والمساجدِ، فيضعُونَ على رسولِ الله ﷺ أحاديثَ بأسانيدٍ صحاحٍ قد حَفِظُوهَا، فيذكرونَ الموضوعاتِ بتلك الأسانيد.

قال جعفرُ بن محمد الطيالسي^(٩): صَلَّى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي

(١) هو أبو بكر القرشي المطليبي مولاهم، المدني، الحافظ الأخباري، صاحب السيرة النبوية، وأول مَنْ دَوَّنَ العلمَ بالمدينة، مات سنة (١٥٠هـ). سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣.

(٢) ذكره الخليلي في الإرشاد ٣/ ٩٠٣، والسيوطي في تدريب الراوي ١/ ٢٨٢، والصنعاني في توضيح الأفكار ٢/ ٨١.

(٣) ص ١٠٠ - ١٠١، وابن الصلاح: هو عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري الشافعي، كان ذا فصاحة وعلم نافع، توفي سنة (٦٤٣هـ). السير ٢٣/ ١٤٠.

(٤) في (ظ): فضائل.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٧٣ - ١٧٤، ثم قال: وقد فَرَّقَ هذا الحديثَ أبو إِسْحَاقَ الثعلبي، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجبُ منهما، لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عَجِبْتُ من أبي بكر بن أبي داود كيف فَرَّقَهُ على كتابه الذي صنّفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث محال! وانظر اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٠٥، وتنزيه الشريعة ١/ ٢٨٥.

(٦) موضوعات ابن الجوزي ١٧٤ - ١٧٥.

(٧) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، مات سنة (٤٦٨هـ). السير ١٨/ ٣٣٩.

(٨) أي: الملحّن في المسألة.

(٩) أبو الفضل البغدادي، الحافظ، كان مشهوراً بالحفظ والإتقان، توفي سنة (٢٨٢هـ). السير ١٣/ ٣٤٦.

مسجد الرصافة، فقام بين أيديهما قاصٌّ، فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا^(١) عبد الرزاق قال: حدثنا معمرٌ، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ قال: لا إله إلا الله، يُخْلَقُ من كلِّ كلمة منها طائرٌ مِنقارُهُ من ذهب، وريشُهُ مَرْجان. . وأخذَ في قصة نحو من عشرين ورقة، فجعلَ أحمدُ ينظرُ إلى يحيى، ويحيى ينظرُ إلى أحمد، فقال: أَنْتَ حَدَّثْتَهُ بهذا؟! فقال: والله ما سمعتُ به إلا هذه الساعة، قال: فسكتا جميعاً حتى فرَغَ من قَصَصِهِ، فقال له يحيى: مَنْ حَدَّثَكَ بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال: أنا ابنُ معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سَمِعْنَا بهذا قطُّ في حديثِ رسول الله ﷺ، فإن كانَ ولا بُدَّ من الكذب، فعلى غيرنا! فقال له: أَنْتَ يحيى بنُ معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمعُ أنَّ يحيى بنَ معينٍ أحمقٌ، وما عَلِمْتُهُ إلا هذه الساعة، فقال له يحيى: وكيف علمتَ أني أحمقٌ؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بنُ معينٍ وأحمد بنُ حنبلٍ غيركما، كتبتُ عن سبعةٍ عشرَ أحمد بن حنبل غير هذا. قال: فوضعَ أحمدُ كُمَّهُ على وجهه وقال: دَعُهُ يقوم^(٢)، فقام كالمُستهزِءِ بهما^(٣).

فهؤلاء الطوائف كَذَبَةُ على رسول الله ﷺ، وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ.

يُذَكَّرُ أَنَّ الرَّشِيدَ^(٤) كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَمَامُ، وَاللَّهُوُ بِهِ، فَأَهْدِي إِلَيْهِ حَمَامٌ وَعِنْدَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ الْقَاضِي^(٥)، فَقَالَ: رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي خُفٍّ، أَوْ حَافِرٍ، أَوْ جَنَاحٍ». فزاد: «أَوْ جَنَاحٍ»، وَهِيَ لَفْظَةٌ وَضَعَهَا لِلرَّشِيدِ، فَأَعْطَاهُ جَائِزَةً سَنِيَّةً، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ الرَّشِيدُ: وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ^(٦) كَذَّابٌ. وَأَمَرَ بِالْحَمَامِ أَنْ

(١) في (م): أنبأنا (في الموضعين).

(٢) في (ظ): يقول.

(٣) أخرج هذه القصة ابن حبان في المجروحين ٨٥/١، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ٢٣٩/٢. ٢٤٠ من طريق إبراهيم بن عبد الواحد البكري، عن جعفر بن محمد الطيالسي، وذكرها المزي في تهذيب الكمال (ترجمة يحيى بن معين)، والذهبي في ميزان الاعتدال ٤٧/١، وفي السير ٨٦/١١ و ٣٠٠. قال الذهبي: هذه الحكاية اشتهرت على السنة الجماعة، وهي باطلة، أظن البلدي (يعني البكري) وضعها.

(٤) هارون بن محمد، أبو جعفر، الخليفة العباسي، كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجٍّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي، توفي سنة (١٩٣هـ). السير ٩/ ٢٨٦.

(٥) وهب بن وهب بن كثير بن زَمْعَة، ولاه الرشيد القضاء. تاريخ بغداد ٤٥١/١٣، وميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٣.

(٦) في النسخ الخطية: أنك، والمثبت من (م).

يُذَبِّحُ، فقليل له: وما ذنبُ الحمام؟ قال: من أجله كُذِّبَ على رسول الله ﷺ^(١). فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته، فلا يَكْتُبُ العلماء حديثه بحال.

قلتُ: فلو اقتصرَ الناسُ على ما ثبت في الصُّحاح والمسانيد، وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمةُ الفقهاء، لكان لهم في ذلك غُنْيَةٌ، وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: «اتَّقُوا الحديثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» الحديث^(٢). فتخويفه ﷺ أمته بالنار على الكذب دليلٌ على أنه كان يعلم أنه سيُكَذَّبُ عليه. فحذارٍ مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، في باب الترغيب والترهيب، وغير ذلك.

وأعظمهم ضرراً أقوامٌ من المنسويين إلى الزُّهد، وضعوا الحديثَ حِسْبَةَ فيما زَعَمُوا، فتقبل^(٣) الناسُ موضوعاتهم، ثقةً منهم بهم، وركوناً إليهم، فضلُّوا وأضلُّوا.

باب ما جاء من الحُجَّةِ في الرَّدِّ على مَنْ طعنَ في القرآن، وخالفَ مصحفَ عثمانَ بالزيادة والنقصان

لاخلاف بين الأمة، ولا بين الأئمة أهل السُّنَّة، أنَّ القرآنَ اسمٌ لكلام الله تعالى الذي جاء به محمدٌ ﷺ معجزةً له، على ما تقدَّم^(٤)، وأنه محفوظٌ في الصدور، مقروءٌ باللسنة، مكتوبٌ في المصاحف، معلومةٌ على الاضطرار سورةً وآياته، مُبرَّأةٌ من

(١) نقل الخطيب البغدادي في تاريخه ٤٥٥/١٣ عن الإمام أحمد قوله: ما روى هذا إلا ذاك الكذاب أبو البَخْتَرِي. وذكر له الخطيب أيضاً أنه دخلَ على هارون الرشيد وهو يطيرُ الحمام، فحدَّثه أن النبي ﷺ كان يطيرُ الحمام، فقال له الرشيد: اخرج عني. ثم قال: لولا أنه رجلٌ من قريش لعزلته. اهـ. وقد رويت القصة أيضاً (التي أوردها المصنف) عن غياث بن إبراهيم النخعي في دخوله على المهدي، كما في تاريخ بغداد ٣٢٤/١٢، وميزان الاعتدال ٣/٣٣٨. قال ابن القيم في المنار المنيف ١٠٦/١: أحاديث الحمام لا يصح منها شيء.

وقد أخرج حديث أبي هريرة (يعني دون قوله: أو جناح) الإمام أحمد في المسند (٧٤٨٢)، وغيره، ونقل الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ١٦١/٤ تصحيحه عن ابن القطان وابن دقيق العيد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧٥) و(٢٩٧٤)، والترمذي (٢٩٥١) من حديث ابن عباس. وقد ذكره المصنف بأطول منه ص ٥٧. باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي.

(٣) في النسخ الخطية: فيقبل، والمثبت من (م).

(٤) في (م): على نحو ما تقدم.

الزيادة والنقصان حروفه وكلماته، فلا يُحتاجُ في تعريفه بحدٍّ، ولا في حصره بعدٍّ، فمن ادَّعى زيادةً عليه، أو نقصاناً منه، فقد أبطَلَ الإجماعَ، وبَهَتَ الناسَ، وردَّ ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن المُنزل عليه، وردَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأبطَلَ آيةَ رسوله عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصيرُ القرآنُ مقدوراً عليه حين شِيبَ بالباطل، ولَمَّا قُدِّرَ عليه، لم يَكُنْ حُجَّةً ولا آيةً، وخرج عن أن يكونَ مُعْجِزاً^(١).

فالقائلُ بأنَّ القرآنَ فيه زيادةٌ ونقصانٌ، رادُّ لكتابِ الله، ولَمَّا جاء به الرسولُ، وكان كمن قال: الصلواتُ المفروضةُ خمسون صلاةً، وتزويجُ تسع من النساءِ حلالٌ، وفرضَ الله أياماً مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يَثْبُت في الدين، فإذا رُدَّ هذا بالإجماع، كان الإجماعُ على القرآن أثبت وأكد، وألزم وأوجب.

قال الإمام أبو بكر محمد بنُ القاسم بن بشار بن محمد الأنباري: ولم يَزَلْ أهلُ الفضل والعقل يَعْرِفُونَ مِنْ شَرَفِ الْقُرْآنِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ، مَا يُوجِبُهُ الْحَقُّ وَالْإِنصَافُ وَالذِّبَانَةُ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ قَوْلَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَمْوِيَةَ الْمُلْحِدِينَ، وَتَحْرِيفَ الزَّائِفِينَ، حَتَّى نَبَّغَ^(٢) فِي زَمَانِنَا هَذَا زَائِعٌ زَاعٌ عَنِ الْمِلَّةِ، وَهَجَمَ عَلَى الْأُمَّةِ، بِمَا يُحَاوِلُ بِهِ إِبْطَالَ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي لَا يَزَالُ اللَّهُ يُؤَيِّدُهَا، وَيُثَبِّتُ أَسْسَهَا، وَيُنْمِي فَرْعَهَا، وَيَحْرُسُهَا مِنْ مَعَايِبِ أَوْلِي الْحَيْفِ^(٣) وَالْجَوْرِ، وَمَكَايِدِ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ وَالْكَفْرِ. فزعم أن المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه - باتفاق أصحاب رسول الله ﷺ على تصويبه فيما فعل - لا يَشْتَمِلُ^(٤) على جميع القرآن، إذ كان قد سَقَطَ مِنْهُ خَمْسُ مِثَّةِ حُرُوفٍ، قد قرأت ببعضها، وسأقرأ ببقيتها، فمنها: «والعصرِ ونوائِبِ الدَّهْرِ»^(٥) فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين^(٦): «ونوائِبِ الدَّهْرِ». ومنها: «حتى إذا أخذتِ الأرضُ

(١) قوله: وخرج عن أن يكونَ معجزاً، من (م).

(٢) أي: ظهر، ووقع في (د) و(م): نبع، وفي (ظ): تبع، ولم تنقط في (ز)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) في (م): الجَنَف.

(٤) في (ز): لا يجتمع.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٧٩، وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٩.

(٦) في (د): من المسلمين.

زُخِرْفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا»^(١). فادَّعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان الله لِيُهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا» وذكر مما يدَّعي حروفاً كثيرة.

وادَّعى أَنَّ عثمانَ والصحابَةَ رضي الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة الفرض والناسُ يسمعون: «اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ»^(٢)، فأسقط من القرآن: «قل هو»، وغيرَ لفظ «أحد»، وادَّعى أَنَّ هذا هو الصوابُ، والذي عليه الناسُ هو الباطلُ والمُحالُ، وقرأ في صلاة الفرض: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَا أُعْبَدُ مَا تَعْبُدُونَ»^(٣) وَطَعَنَ على^(٤) قراءة المسلمين.

وادعى أَنَّ المُصحفَ الذي في أيدينا اشتملَ على تصحيفِ حروف^(٥) مُفسِدةٍ مُغيرةٍ، منها: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ» [المائدة: ١١٨]، فادَّعى أَنَّ الحكمةَ والعِزَّةَ لَا يُشَاكِلانِ المغفرةَ، وَأَنَّ الصوابَ: «وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(٦). وترامى به العَيُّ في هذا وأشكاله حتى ادَّعى أَنَّ المسلمين يُصحِّفون: «عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» [الأحزاب: ٦٩]، والصوابُ الذي لم يُغَيَّرْ عنده: «وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ وَجِيهًا»^(٧)، وحتى قرأ في صلاة مُفترضة على ما أخبرنا جماعةٌ سَمِعُوهُ وشَهِدُوهُ^(٨): «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقراءته، فإذا قرأناه فاتَّبِعْ

(١) أخرجها أبو عبيد في الفضائل ص ١٧٣، والطبري في التفسير ١٥٢/١٢ وذكرها ابن عطية ١١٥/٣، وأبو حيان في البحر ١٤٤/٥ وقال: ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة، لأنها مخالفة لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٢، ونسبها لعبد الله والأعمش.

(٣) نقلها أيضاً ابن عادل الحنبلي في الباب ٥٣٠/٢٠ عن ابن الأنباري.

(٤) في (م): في.

(٥) في (ظ): وحروف.

(٦) نقل الذهبي في معرفة القراء الكبار ٥٤٩/١ عن عبد الرحمن بن عبد الله الفرائضي قوله: استُتِيبَ ابن شَنُودَ على قراءة هذه الآية. اهـ. وذكرها كذلك أبو حيان في البحر ٦٢/٤ وقال: ليست من المصحف.

(٧) ذكرها ابن جني في المحتسب ١٨٥/٢ عن ابن مسعود، وانظر كتاب ابن خالويه ص ١٢٠.

(٨) في (ظ): وشهروه.

قراءته، ثم إِنَّ علينا نبأ به». وحكى لنا آخرون عن آخرين، أنهم سَمِعُوهُ يقرأ: «ولقد نصركم الله ببدر بسيف عليٍّ وأنتم أذلة»^(١). وروى هؤلاء أيضاً لنا عنه قال: «هذا صراط علي مستقيم»^(٢). وأخبرونا أنه أدخل في آية من القرآن ما لا يُضاهي فصاحة رسول الله ﷺ، ولا يدخل في لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فقرأ: «أليس قلت للناس» في موضع: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا لا يُعرف في نحو المُعَرِّبين، ولا يُحمل على مذاهب النُحويين؛ لأنَّ العرب لم تُقل: ليس قُمت، فأماً: لست قمت، بالتاء، فشاذٌ قبيحٌ، خبيثٌ رديءٌ، لأنَّ «ليس» لا تجحدُ الفعل الماضي، لم^(٣) يوجد مثلُ هذا إلا في قولهم: ليس خلق الله مثله^(٤)، وهو لغةٌ شاذةٌ، لا يُحملُ كتابُ الله عليها.

وَدَعَى أَنَّ عثمانَ رضي الله عنه لما أسندَ جَمَعَ القرآن إلى زيد بن ثابت، لم يُصب؛ لأنَّ عبدَ الله بن مسعود وأبيَّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد، لقول النبي ﷺ: «اقرأ أمتي أبيُّ بن كعب»^(٥)، ولقوله عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أنزلَ، فَلْيقرأه بقراءة ابنِ أمِّ عبد»^(٦)، وقال هذا القائل: لي أن أخالف مُصحفَ عثمانَ كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ﴾ [طه: ٦٣]، «فأصَدَّق وأكون» [المنافقون: ١٠]، «فَبَشِّرْ عِبَادِي، الَّذِينَ» [الزمر: ١٧] بفتح الياء^(٧)، «فما

(١) هي قراءة واضحة البطلان.

(٢) قرأ يعقوب، وهو من العشرة: هذا صراطُ عليٍّ مستقيم، انظر النشر ٣٠١/٢. وذكرها ابن جني في المحتسب ٣/٢، وقال: عليٌّ - هنا - كقولهم: كريم، وشريف، وليس المرادُ علوُ الشخص والنُزْهة. اهـ ومن الواضح أن المصنف رحمه الله يقصد تقييداً آخر للفظ، كما هو ظاهر سياق كلامه في الرد على الزائغين عن الملة.

(٣) في (م): ولم.

(٤) في (م): أليس قد خلق الله مثلهم.

وقال صاحب النحو الوافي ٥٥٩/١: اشترط الكوفيون للقياس على هذا الأسلوب دخول «قد» على خبر «ليس» مجازة للمثال المسموع، ولأن «قد» تُقَرَّبُ من الحال.

(٥) سلف نحوه ص ٦٢ ضمن حديث.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٥٥) وغيره بلفظ: «من أحبَّ...» وانظر ما سلف ص ٩٤ - ٩٥.

(٧) قراءة أبي عمرو في الموضع الثالث هي من رواية السوسي وصلاً، واختلف عنه وفقاً بين الحذف والإثبات. وانظر قراءته في الآيات المذكورة في السبعة ص ٤١٩، ٦٣٧، ٥٦١، والتيسير ص ١٥١، =

آتَانِي اللَّهُ [النمل: ٣٦] بفتح الياء^(١). والذي في المصحف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي﴾ بالالف^(٢)، ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ﴾ بغير واو^(٣)، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، ﴿فَمَّا أَتَيْنَا اللَّهَ﴾ بغير ياء^(٤) في الموضوعين^(٥). وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي مصحف عثمان، فقرأوا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم، ويُسكَنُهَا بعضهم^(٦)، وفي المصحف نوْنٌ واحدة^(٧). وكما خالف حمزة المصحف، فقرأ: ﴿أَتُمِذُّونِي بِمَا﴾ [النمل: ٣٦] بنون واحدة، ووقف على الياء^(٨)، وفي المصحف نونان، ولا ياء بعدهما^(٩). وكما خالف حمزة أيضاً المصحف، فقرأ: ﴿أَلَا إِنَّ شُؤْدَادًا كَفَرُوا زَهْمًا﴾ [هود: ٦٨] بغير تنوين^(١٠)، وإثبات الألف يُوجِبُ التنوين^(١١). وكلُّ هذا الذي شَنَعَ به على القراء ما يلزمهم به خلاف للمصحف.

= ٢١١، ١٨٩ على الترتيب.

(١) قرأها كذلك من السبعة نافع وعاصم في رواية حفص وصلاً، واختلف عن قالون وأبي عمرو وحفص وفقاً بين الحذف والإثبات. وقرأ ورش بالحذف وفقاً. ذكره ابن مجاهد في السبعة ص ٤٨٢، والداني في التيسير ص ١٧٠.

(٢) ذكره أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٥١، والمقنع ص ١٥.

(٣) التيسير ص ٢١١، والمقنع ص ١١٣.

(٤) في (د) و(ز) و(م): ياءين، والمثبت من (ظ).

(٥) التيسير ص ١٧٠ و١٨٩، والمقنع ص ٣٢.

(٦) لم يذكر المصنف بقية القراء السبعة - وهم أبو عمرو البصري، وابن عامر الشامي، وعاصم - مع أنهم اتفقوا جميعاً على قراءتها بنونين؛ قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص عنه بإسكان الثانية، وتخفيف الجيم، وقرأ الباقر بفتح الثانية وتشديد الجيم. انظر السبعة ص ٣٣٠، والتيسير ص ١٢٣.

(٧) لكن أبا عمرو الداني ذكر في المقنع ص ٩١ عن أبي عبيد أنه رأى في مصحف عثمان رضي الله عنه الحرفين اللذين في يونس: ﴿ثُمَّ نُنَاجِي رُسُلَنَا﴾ و﴿نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ بنونين، وذكر أيضاً ص ٨٥ فيما اتفقت على رسمه مصاحف أهل الأمصار، أنها بنونين.

(٨) قرأ حمزة بنون واحدة مشددة، فادغم النون الأولى في الثانية، مع المد المشيع، وأثبت الياء وصلاً ووقفاً، وكذلك قرأها يعقوب من العشرة. السبعة في القراءات ص ٤٨٢، والتيسير ص ١٧٠، والنشر ٢ / ٣٣٨.

(٩) ذكره أبو عمرو الداني في المقنع ص ٩١.

(١٠) هي أيضاً قراءة عاصم من السبعة في رواية حفص، وقراءة يعقوب من العشرة. السبعة ص ٣٣٧، والتيسير ص ١٢٥، والنشر ٢ / ٢٨٩.

(١١) قال ابن الجزري في النشر ٢ / ٢٩٠: كلُّ مَنْ نَوَّنَ وقف بالالف، وَمَنْ لم يُنَوِّنْ وقف بغير ألف وإن كانت مرسومة.

قلتُ: قد أشرنا إلى العدِّ فيما تقدّم^(١) مما اختلفت فيه المصاحفُ، وسيأتي بيانُ هذه المواضع في مواضعها من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر: وذكر هذا الإنسانُ أنَّ أبايَ بنَ كعب هو الذي قرأ: «كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ، وما كان الله ليُهْلِكها إلا بذنوب أهلها». وذلك باطل^(٢)؛ لأنَّ عبدَ الله بنَ كثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على ابن عباس، وابنُ عباس قرأ القرآنَ على أبي بن كعب: ﴿حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفَعُ الْآيَتِ﴾ [يونس: ٢٤] في رواية. وقرأ أبي القرآنَ على رسول الله ﷺ. وهذا الإسنادُ مُتَّصِلٌ بالرسول عليه السلام، نقله أهلُ العدالة والصيانة، وإذا صحَّ عن رسول الله ﷺ أمرٌ، لم يُؤخذ بحديث يُخالفه. وقال يحيى بنُ المبارك الزبيدي^(٣): قرأتُ القرآنَ على أبي عمرو بنِ العلاء، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهد على ابن عباس، وقرأ ابنُ عباس على أبي بن كعب، وقرأ أبي على النبي ﷺ، وليس فيها: «وما كان الله ليُهْلِكها إلا بذنوب أهلها»^(٤). فمن جحد أنَّ هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام، فليس بكافر ولا آثم: حدثني أبي، حدثنا نصر بنُ داود الصَّاعاني^(٥)، نبأنا أبو عبيد قال: ما يروى من الحروف التي تُخالِفُ المُصحفَ الذي عليه الإجماعُ، من الحروف التي يَعْرِفُ^(٦) أسانيدُها الخاصَّةُ دون العامَّةِ، مما^(٧) نقلوا فيه عن أبي: «وما كان الله ليُهْلِكها إلا بذنوب أهلها»، وعن ابن عباس: «ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»^(٨)، ومما يحكِّون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ: «غير

(١) ص ١٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٥٢/١٢، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١١٥/٣، وأبو حيان في البحر ١٤٤/٥، وقال: ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة، لأنها مخالفة لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون. وانظر ما جاء آخر هذا الباب.

(٣) أورده ابن الجزري في طبقاته ٣٧٥/٢، وقال: نحوي مقرأ علامه كبير، عُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري خال المهدي، فكان يؤدب ولده ... توفي سنة (٢٠٢) بمرور.

(٤) في (ظ): إلا بذنوبها.

(٥) هو من أجل أصحاب أبي عبيد، فيما نقله ابن الجزري في طبقاته ٣٣٥/٢ عن أبي عمرو الداني.

(٦) في (ظ): تعرف.

(٧) في (م): فيما.

(٨) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٦٤ وقال ص ١٩٥: هذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت =

المغضوب عليهم وغير الضالين»^(١)، مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم يَنْقُلْهَا أَهْلُ العلم على أَنَّ الصلاةَ بها تَحِلُّ، ولا على أَنَّها مُعَارَضٌ بِهَا مُصَحِّفُ عِثْمَانَ، لِأَنَّهَا حُرُوفٌ لَوْ جَحَدَهَا جَا حَدُّ أَنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ، لَمْ يَكُنْ كَافِرًا، وَالْقُرْآنُ الَّذِي جَمَعَهُ عِثْمَانُ بِمُوَافَقَةِ الصَّحَابَةِ لَهُ، لَوْ أَنْكَرَ بَعْضُهُ مُنْكَرًا، كَانَ كَافِرًا، حُكْمُهُ حَكْمُ الْمُرْتَدِّ، يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

وقال أبو عُبَيْدٍ: لَمْ يَزَلْ صَنِيعُ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ الْقُرْآنَ يُعْتَدُّ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ مَنَاقِبِهِ الْعِظَامِ، وَقَدْ طَعَنَ عَلَيْهِ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الزُّيْغِ، فَانْكَشَفَ عَوَارُهُ، وَوَضَّحَتْ قَضَائِحُهُ.

قال أبو عُبَيْدٍ: وَقَدْ حَدَّثْتُ عَنْ يَزِيدَ^(٢) بْنِ زُرَيْعٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُدَيْرٍ^(٣)، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ: طَعَنَ قَوْمٌ عَلَى عِثْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ - بِحُمُقِهِمْ - جَمَعَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَرَأُوا بِمَا نُسَخَ. قال أبو عُبَيْدٍ: يَذْهَبُ أَبُو مِجْلَزٍ^(٤) إِلَى أَنَّ عِثْمَانَ أَسْقَطَ الَّذِي أَسْقَطَ بَعْلَمَ، كَمَا أَثْبَتَ الَّذِي أَثْبَتَ بَعْلَمَ^(٥).

قال أبو بكرٍ: وَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] دلالةٌ عَلَى كُفْرِ هَذَا الْإِنْسَانِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، فَإِذَا قَرَأَ قَارِئٌ: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ»، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَا لَهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَمُرِيَّتُهُ حِمَالَةُ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ لَيْفٍ فَقَدْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَقَوْلُهُ مَا لَمْ يَقُلْ، وَبَدَّلَ كِتَابَهُ وَحَرْفَهُ، وَحَاوَلَ مَا قَدْ حَفِظَهُ مِنْهُ، وَمَنْعَ مِنْ اخْتِلَاطِهِ بِهِ، وَفِي هَذَا الَّذِي أَتَاهُ تَوَاطُؤُ الطَّرِيقِ لِأَهْلِ الْإِلْحَادِ، لِيُدْخِلُوا فِي الْقُرْآنِ مَا يَحُلُّونَ بِهِ عُرَى الْإِسْلَامِ، وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى قَوْمِ كَهْؤَلَاءِ

= مفسرة للقرآن . وانظر البحر ٢ / ٩٤.

(١) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص ١٦٢.

(٢) في فضائل القرآن ص ١٩٤: حدثنا يزيد .

(٣) تحرف في (ز) و(م) إلى: جرير .

(٤) لاحق بن حميد بن سعيد السدوسي، البصري، الأعور، مشهور بكنيته، ثقة، روى له الجماعة، مات

سنة مئة، وقيل غير ذلك . تقريب التهذيب .

(٥) ما نقله المصنف عن ابن الأنباري عن أبي عبيد مما سلف، هو بنحوه في فضائل القرآن له

القوم الذين أحالوا هذا بالباطيل^(١) عليهم. وفيه إبطال الإجماع الذي به يُحرَسُ الإسلام، وبشأته تُقام الصلوات، وتؤدَّى الزكوات، وتُحرَى المتعبدات.

وفي قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَى اللَّهُ الْأَرْضَ بِالْبَاطِلِ﴾ [هود: ١] دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر؛ لأنَّ معنى ﴿أَتَى اللَّهُ الْأَرْضَ بِالْبَاطِلِ﴾: منَع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها: «وكفى الله المؤمنين القتال بعلي وكان الله قويا عزيزا». فقال في القرآن هجرا، وذكر عليا في مكان لو سمعته يذكره فيه، لأمضى عليه الحد، وحكم عليه بالقتل. وأسقط من كلام الله «قل هو» وغير «أحد» فقرأ: الله الواحد الصمد. وإسقاط ما أسقطه نفي له وكفر، ومن كفر بحرف من القرآن، فقد كفر به كله، وأبطل معنى الآية؛ لأنَّ أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك، لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِف لنا ربك، أمِن ذهب، أم مِن نحاس، أم مِن صُفْر؟ فقال الله جلَّ وعزَّ رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢). ففي «هو» دلالة على موضع الرد، ومكان الجواب. فإذا سقط، بطل معنى الآية، ووضَّح الافتراء على الله عزَّ وجلَّ، والتكذيب لرسول الله ﷺ.

ويقال لهذا الإنسان ومن يتَّحِلْ نُضْرَتَهُ: أخبرونا عن القرآن الذي نقرؤه، ولا نعرف نحن ولا من كان قبلنا من أسلافنا سواء: هل هو مُشْتَمِلٌ على جميع القرآن من أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ، صحيحُ الألفاظ والمعاني، عارٍ من^(٣) الفساد والخلل؟ أم هو واقع على بعض القرآن، والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملَّتنا؟ فإن أجابوا بأنَّ القرآن الذي معنا مُشْتَمِلٌ على جميع القرآن، لا يسقط منه شيء، صحيحُ اللَّفْظ والمعاني، سَلِيْمٌ من كلِّ زَلَلٍ وَخَلَلٍ، فقد قَصَّوا على أنفسهم

(١) في (ظ) و(ز): بالباطيل.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٣٣٤١)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/٢٨٣، وفي الأسماء والصفات (٦٠٥) من طريق ديلم بن غزوان، عن ثابت البناني، عن أنس. وأخرجه أيضا الطبري ١٣/٤٨٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/٢٣٢ من طريق علي بن أبي سارة، عن ثابت، عن أنس. وقال: ولا يتابع (أي: علي بن أبي سارة) عليه من جهة تثبت. وقال أيضا: ولا يتابعه إلا من هو مثله أو قريب منه. وسيذكره المصنف في تفسير الآية المذكورة من سورة الرعد، عن الحسن، وسيذكر نحوه عن أبي بن كعب في تفسير سورة الإخلاص.

(٣) في (م): عن.

بالكفر حين زادوا فيه: «فليس له اليوم هاهنا حميمٌ، وليس له شرابٌ إلا من غسيلين، من عين تجري من تحت الجحيم» فأَيُّ زيادة في القرآن أَوْضَحُ من هذه، وكيف تُخَلَطُ^(١) بالقرآن، وقد حرسه الله منها، ومنعَ كُلَّ مُفْتَرٍ ومُبْطِلٍ من أن يُلْحِقَ به مثلها؟! وإذا تَوَلَّيْتُ وَبُحِثَ عن معناها، وَجَدْتُ فاسدةً غيرَ صحيحة، لا تُشَاكِلُ كلامَ الباري تعالى، ولا تختلط^(٢) به، ولا تُوافِقُ معناه، وذلك أنَّ بَعْدَهَا: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ فكيف يُؤْكَلُ الشرابُ؟! والذي أتى به قَبْلُهَا: «فليس له اليوم هاهنا حميمٌ، وليس له شرابٌ إلا من غسيلين، من عين تجري من تحت الجحيم، لا يأكله إلا الخاطئون». فهذا متناقضٌ يُفْسِدُ بعضُه بعضاً، لأنَّ الشرابَ لا يُؤْكَلُ، ولا تقول العربُ: أكلتُ الماءَ، لكنَّهم يقولون: شَرِبْتُهُ، وَذُقْتُهُ، وَطَعِمْتُهُ. ومعناه - فيما أنزل الله تبارك وتعالى - على الصُّحَّة في القرآن، الذي مَنْ خَالَفَ حَرْفاً منه كفرَ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلَيْنِ﴾ [الحاقة: ٣٦] لا يأكلُ الْغِسْلَيْنِ إلا الخاطئون، أو لا يأكلُ الطَّعامَ إلا الخاطئون. والغِسلين: ما يخرجُ من أجوافهم من الشَّحم، وما يتعلَّقُ به من الصَّدِيدِ وغيره، فهذا طعامٌ يُؤْكَلُ عند البَلِيَّةِ والنَّقْمَةِ، والشرابُ مُحالٌ أن يُؤْكَلَ.

فإن ادَّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذي زاده من قوله: «من عين تجري من تحت الجحيم» ليس بَعْدَهَا: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ ونفى هذه الآية من القرآن، لِتَصِحَّ له زيادته، فقد كفرَ لَمَّا جَعَلَ آية^(٣) من القرآن. وحسبك بهذا كُلُّ رَدٍّ لقوله، وخزياً لِمَقَالِهِ.

وما يؤثرُ عن الصحابة والتابعين أنهم قرؤوا بكذا وكذا، إنما ذلك على جِهَةِ البيان والتفسير، لا أنَّ ذلك قرآنٌ يُتْلَى، وكذلك ما نُسخَ لفظُه وحُكِمُه، أو لفظُه دون حُكِمِه، ليس بقرآن، على ما يأتي بيانه عند قوله تعالى: ﴿مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] إن شاء الله تعالى.

(١) في النسخ الخطية: يخلط، والمثبت من (م).

(٢) في (م): تخلط.

(٣) في (ز): أنه.

القول في الاستعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسألة :

الأولى : أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة، فقال تعالى : ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل : ١٦]، أي : إذا أردت أن تقرأ . فأوقع الماضي موقع^(١) المستقبل ، كما قال الشاعر^(٢) :

وإني لأتيكم لذكري الذي مضى من الود واستثناف ما كان في غد
أراد : ما يكون في غد .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى ، جاز تقديم أيهما شئت ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم : ٨] . المعنى : فتدلى ، ثم دنا . ومثله : ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : ١] ، وهو كثير .

الثانية : هذا الأمر على الندب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة . واختلفوا فيه في الصلاة . حكى النقاش عن عطاء أن الاستعاذة واجبة ، وكان ابن سيرين والنخعي وقوم يتعوذون في الصلاة في^(٣) كل ركعة ، ويمثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم ، وأبو حنيفة والشافعي يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة ، ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة ، ومالك لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ، ويراه في قيام رمضان^(٤) .

الثالثة : أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ، ولا آية منه ، وهو قول القاري : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» . وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من

(١) في (ظ) : موضع .

(٢) هو الطرماح بن حكيم ، من طيء ، وكنى أبا ثور ، والبيت في ديوانه ص ٥٧٢ بلفظ :

فإني لأتيكم تشكراً ما مضى من البر واستيجاب ما كان في غد

وهو في الخصائص ٣/ ٣٣١ ، وأمالى ابن الشجري ٦٧/ ١ و ٢/ ٤٥٣ .

(٣) ليست في (م) .

(٤) من قوله : وكان ابن سيرين ... من تفسير ابن عطية ٥٨/ ١ ، وجاء فيه بعده قوله : ولم يُحفظ عن النبي ﷺ أنه تعوذ في صلاة .

العلماء في التَعَوُّذ، لأنه لَفْظُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدِ، أَعُوذُ^(١) بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، هَكَذَا أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَنِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عَنِ الْقَلَمِ»^(٢).

الرابعة: رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةٍ فِي «سُنَنِهِمَا» عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصَلِّي صَلَاةً - قَالَ^(٣) عَمْرُو^(٤): لَا أُدْرِي أَيَّ صَلَاةٍ هِيَ - فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا - ثَلَاثًا - وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا - ثَلَاثًا - أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ^(٥) مِنْ نَفْخِهِ وَنَفْثِهِ وَهَمْزِهِ» قَالَ عَمْرُو: هَمْزُهُ: الْمُؤْتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشَّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الْكِبَرُ^(٦). وَقَالَ ابْنُ مَاجَةٍ: الْمُؤْتَةُ: يَعْنِي الْجَنُونَ. وَالتَّفْثُ^(٧): نَفْخُ الرَّجُلِ مِنْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخْرِجَ رِيقَهُ. وَالْكِبَرُ: التَّيَهُ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، كَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ^(٨): «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلَاثًا - أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». ثُمَّ يَقْرَأُ^(٩). وَرَوَى سَلِيمَانُ بْنُ سَالِمٍ^(١٠) عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَعُوذُ بِاللَّهِ

(١) فِي (ظ): قُلْ أَعُوذُ.

(٢) ذَكَرَهُ صَاحِبُ رُوحِ الْمَعَانِي ٢٢٨/١٤ وَنَسَبَهُ لِلثَّعْلَبِيِّ وَالْوَاحِدِيِّ.

(٣) فِي (م): فَقَالَ.

(٤) هُوَ عَمْرُو بْنُ مَرَّةٍ، أَحَدُ رِجَالِ الْإِسْنَادِ.

(٥) فِي (ز): الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

(٦) سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٧٦٤)، وَسَنَنُ ابْنِ مَاجَةٍ (٨٠٧)، وَهُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (١٦٧٨٤).

(٧) فِي النُّسخِ الْخَطِيئةِ: كُلُّ مَانَفْعٍ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (م).

(٨) فِي (م): يَقُولُ.

(٩) سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٧٧٥)، وَهُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (١١٤٧٣).

(١٠) أَبُو الرَّبِيعِ الْقَاضِي الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْكِحَالَةِ، مِنْ أَصْحَابِ سَحْنُونٍ. مَاتَ سَنَةَ (٢٨١هـ). الدَّبِيجُ

العظيم من الشيطان الرجيم، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.
قال ابن عطية^(١): وأما المقرئون، فأكثرُوا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى، كقول بعضهم: أعوذُ بالله المجيد من الشيطان المريد، ونحو هذا مما لا أقول فيه: نَغَمَتِ الْبِدْعَةُ، ولا أقول: إنه لا يجوز.
الخامسة: قال المهدوي: أجمع القراء على إظهار الاستعاذة في أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة، فإنه أسرها.

وروى المسيبي^(٢) عن أهل المدينة، أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة^(٣).
وذكر أبو الليث السمرقندي^(٤) عن بعض المفسرين، أن التعوذ فرض، فإذا نسيه القارئ، وذكره في بعض الجزب، قَطَعَ وتعوذ، ثم ابتدأ من أوّله.
وبعضهم يقول: يستعيذ، ثم يرجع إلى موضعه الذي وقف فيه. وبالأوّل قال أسانيدُ الحجاز والعراق، وبالثاني قال أسانيدُ الشام ومصر.
السادسة: حكى الزهراوي^(٥) قال: نزلت الآية في الصلاة، ونُذِنَا إلى الاستعاذة في غير الصلاة، وليس بفرض. قال غيره: كانت فرضاً على النبي ﷺ وحده، ثم تأسّينا به^(٦).

السابعة: روي عن أبي هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة، وقاله داود^(٧). قال

(١) المحرر الوجيز ١ / ٥٨.

(٢) تحرف في (م) إلى: السدي، والمشهور بهذه النسبة (المسيبي) الإمام أبو محمد إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن المسيبي، المدني المقرئ، وابنه محمد بن إسحاق. أما أبو محمد، فقد قرأ على نافع، وهو من جلة أصحابه المحققين، وتوفي سنة (٢٠٦هـ). وأما محمد، فقد قرأ على والده، وتوفي سنة (٢٣٦هـ). معرفة القراء الكبار ١ / ٣١٢ و ٤٣٠.

(٣) من قوله: قال المهدوي ... من تفسير ابن عطية ١ / ٥٩.

(٤) هو نصر بن محمد بن إبراهيم الحنفي، الفقيه المحدث، صاحب التفسير، وتنبه الغافلين. توفي سنة (٣٧٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٢٢.

(٥) هو محدث الأندلس مع ابن عبد البر، أبو حفص عمر بن عبيد الله بن يوسف القرطبي، توفي سنة (٤٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٨ / ٢١٩.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ١ / ٥٨.

(٧) ابن علي بن خلف، أبو سليمان، البغدادي، رئيس أهل الظاهر، الحافظ، صاحب التصانيف كالإيضاح، والإفصاح، مات سنة (٢٧٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٣ / ٩٧.

القاضي أبو بكر بن العربي: انتهى العي^(١) بقوم إلى أن قالوا: إذا قرع القارئ من قراءة القرآن، يستعيد بالله من الشيطان الرجيم. وقد روى أبو سعيد الخدري، أن النبي ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة^(٢). وهذا نص. فإن قيل: فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم^(٣) وقت القراءة؟ قلنا: فائدتها امتثال الأمر. وليس للشرعيات^(٤) فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها، في امتثالها أمراً، أو اجتنابها نهياً. وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِينِهِ﴾ [الحج: ٥٢].

الثامنة^(٥): قال ابن العربي: ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في «المجموعة» في تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، قال: ذلك بعد قراءة أم القرآن لمن قرأ في الصلاة. وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يعضده نظر. فإن كان هذا كما قال بعض الناس: إن الاستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن في الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك، ولا فهمه، فالله أعلم بسر هذه الرواية^(٦).

التاسعة^(٧): في فضل التعوذ: روى مسلم عن سليمان بن صرد^(٨) قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يغضب، ويحمر وجهه، وتنفخ أوداجه، فنظر إليه النبي ﷺ، فقال: «إني أعلم كلمة لو قالها، لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبي ﷺ، فقال: هل تدري ما قال

(١) في النسخ الخطية: الغي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) سلف تخريجه في المسألة الرابعة.

(٣) كلمة الرجيم، ليست في (ز).

(٤) في (د): لشرع، وفي (ز): بشرع، وليست هي في (ظ)، والمثبت من (م)، وهو موافق لكتاب ابن العربي.

(٥) ليست في (م).

(٦) أحكام القرآن ٣/ ١١٦٣ و ١١٦٤.

(٧) في (م): الثامنة.

(٨) هو أبو مطرف الخزاعي الكوفي، صحابي، شهد صفين مع علي رضي الله عنه، استشهد سنة (٦٥هـ). سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥.

رسول الله ﷺ آنفأ؟ قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها، لَذَهَبَ ذا عنه: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم». فقال له الرجل: أمجنوناً تراني؟! أخرجه البخاري أيضاً^(١).

وروى مسلم أيضاً عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ، فقال: يارسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي^(٢)، يلبسها عليّ، فقال له رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يُقال له خنزَب، فإذا أَحَسَسْتَهُ، فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً». قال: ففعلتُ، فأذهبه الله عني^(٣).

وروى أبو داود عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه الليل، قال: «يا أرضُ، ربِّي وربُّكَ الله، أعوذُ بالله من شرِّك، ومن شرِّ ما خُلِقَ فيك، ومن شرِّ ما يدبُّ عليك، ومن^(٤) أسد وأسود، ومن الحيَّة والعقرب، ومن ساكني^(٥) البلد، ووالد وما وَلَدَ»^(٦).

وَرَوَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيم^(٧) قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثم قال: أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ من شرِّ ما خُلِقَ، لم يضرَّه شيءٌ حتى يَرْتَحِلَ». أخرجه الموطأ ومسلم والترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ^(٨). وما يتعوذُ منه كثيرٌ في الأخبار، والله المستعان.

العاشرة^(٩): معنى الاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة، والتَّحِيُّزُ إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه^(١٠). يقال: عُذْتُ بفلان، واستعذْتُ به، أي:

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٢)، وصحيح مسلم (٢٦١٠)، وهو في مسند أحمد (٢٧٢٠٥).

(٢) في النسخ الخطية: وقد أتى، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٠٣)، وهو في مسند أحمد (١٧٨٩٧).

(٤) في (د) و(ز): وأعوذ بك من.

(٥) في (ظ): ساكن.

(٦) سنن أبي داود (٢٦٠٣)، وهو في مسند أحمد (٦١٦١).

(٧) السُّلَمِيَّة، ويقال لها: خُوَيْلَة، بالتصغير، ويقال: كنيته أم شريك، وكانت وهبت نفسها للنبي ﷺ، وكان عثمان بن مظعون مات عنها. الإصابة ١٢ / ٢٣٣.

(٨) الموطأ ٢ / ٩٧٨، وصحيح مسلم (٢٧٠٨)، وسنن الترمذي (٣٤٣٧).

(٩) في (م): التاسعة.

(١٠) المحرر الوجيز ١ / ٥٨.

لجأت إليه. وهو عيادي، أي: ملجئي. وأعدتْ غيري به، وعَوَّدْتُهُ، بمعنى، ويقال: عَوَّدَ بالله منك، أي: أَعُوذُ بالله منك. قال الراجز:

قَالَتْ فِيهَا حَيْدَةٌ وَدُعُرُ عَوْدُ بَرِّي مِنْكُمْ وَحُجْرُ
وَالْعَرَبُ تَقُولُ عِنْدَ الْأَمْرِ [تُنْكِرُهُ]: حُجْرًا لَهُ، بِالضَّمِّ، أَي: دَفْعًا، وَهُوَ اسْتِعَاذَةٌ
مِنَ الْأَمْرِ^(١). وَالْعَوْدَةُ وَالْمَعَاذَةُ وَالتَّعْوِيدُ، كُلُّهُ بِمَعْنَى^(٢). وَأَصْلُ أَعُوذُ: أَعُوذُ، نُقِلَتْ
الضَّمَّةُ إِلَى الْعَيْنِ لِاسْتِقَالِهَا عَلَى الْوَاوِ، فَسَكَنْتْ.

الحادية عشرة^(٣): الشَّيْطَانُ: وَاحِدُ الشَّيَاطِينِ، عَلَى التَّكْسِيرِ، وَالنُّونُ أَصْلِيَّةٌ، لِأَنَّهُ
مِنْ شَطَنَ: إِذَا بَعُدَ عَنِ الْخَيْرِ. وَشَطَنَتْ دَارُهُ، أَي: بَعُدَتْ. قَالَ الشَّاعِرُ^(٤):
نَأَتْ بِسَعَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُونُ قَبَائِثَ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِيْنُ
وَبَثْرَ شَطُونُ، أَي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ. وَالشَّطْنُ: الْحَبْلُ، سُمِّيَ بِهِ لِإِبْعَادِ طَرَفِيهِ وَامْتِدَادِهِ.
وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ فَرَسًا، فَقَالَ: كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانِ.

وَسُمِّيَ الشَّيْطَانُ شَيْطَانًا، لِإِبْعَادِهِ عَنِ الْحَقِّ وَتَمَرُّدِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ
الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالِدَوَابِّ شَيْطَانٌ. قَالَ جَرِيرٌ^(٥):

أَيَّامٌ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانُ مِنْ غَزَلِي^(٦) وَهَنْ يَهْوِيَنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانًا
وَقِيلَ: إِنَّ شَيْطَانًا مَأْخُوذًا مِنْ: شَاطَ يَشِيْطُ: إِذَا هَلَكَ، فَالْنُّونُ زَائِدَةٌ. وَشَاطَ: إِذَا
احْتَرَقَ. وَشَيِطْتُ اللَّحْمَ: إِذَا دَخَنَتْهُ، وَلَمْ تُنْضِجْهُ. وَاشْتَاطَ الرَّجُلُ: إِذَا احْتَدَّ غَضَبًا.
وَنَاقَةُ مَشِيْاطٍ: الَّتِي يَطِيرُ فِيهَا السَّمَنْ. وَاشْتَاطَ: إِذَا هَلَكَ. قَالَ الْأَعَشَى^(٧):

(١) الصَّحَاحُ (عَوَذَ) وَ(حَجَرَ)، وَمَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ، وَالرَّجَزُ لِلْحَطِيئَةِ، كَمَا فِي الْأَغَانِي ١٩٧/٢.

(٢) أَي: الرُّقِيَّةُ، يُرْقَى بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فَرْعٍ، أَوْ جُنُونٍ، لِأَنَّهُ يُعَادُ بِهَا. اللَّسَانُ (عَوَذَ).

(٣) فِي (م): الْعَاشِرَةُ.

(٤) هُوَ النَّابِغَةُ الدُّيَّانِي، وَالْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ص ١٢٦.

(٥) ابْنُ عَطِيَّةِ بْنِ الْحَطَفِيِّ، التَّمِيمِيُّ الْبَصْرِيُّ، جَعَلَهُ ابْنُ سَلَامٍ رَأْسَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ طَبَقَاتِ الْإِسْلَامِ

٢٩٧/٢، مَدَحَ خُلَفَاءَ بَنِي أُمَيَّةٍ، تَوَفَّى بَعْدَ الْفَرَزْدَقِ بِشَهْرِ سَنَةِ (١٠٠هـ). سِيرَ أَعْلَامُ النَّبَلَاءِ ٥٩٠/٤،

وَالْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ١/ ١٦٥.

(٦) فِي (م): غَزَلَ.

(٧) هُوَ مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ، وَالْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ص ١١٣.

قد نَطَعْنَ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونٍ^(١) فَأَيْلِهِ وقد يَشِيطُ عَلَى أُرْمَاجِنَا الْبَطْلُ^(٢) أي: يَهْلِكُ.

ويرد على هذه الفِرْقَة أَنَّ سيبويه حكى أَنَّ الْعَرَبَ تقول: تَشِيطَنَّ فَلَانٌ إِذَا فَعَلَ أفعالَ الشياطين، فهذا يَبَيِّنُ أَنَّهُ تَفَعَّلَ، مِنْ: شَطَنَ، ولو كان من شَاطَ، لَقَالُوا: تَشِيطُ، ويرد عليهم أَيْضاً بَيْتُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ:

أَيُّمَا شَاطِطِينَ عَصَاهُ عَكَاهُ وَرَمَاهُ فِي السَّجَنِ وَالْأَغْلَالِ^(٣) فهذا شَاطِطٌ، مِنْ شَطَنَ، لَا شَكَّ فِيهِ^(٤).

الثانية عشرة^(٥): الرَجِيمُ، أي: الْمُبْعَدُ مِنَ الْخَيْرِ، الْمُهَانَ. وَأَصْلُ الرَّجْمِ: الرَّمْيُ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ رَجَمْتُهُ أَرْجُمْتُهُ، فَهُوَ رَجِيمٌ وَمَرْجُومٌ. وَالرَّجْمُ: الْقَتْلُ، وَاللَّعْنُ، وَالطَّرْدُ، وَالسَّتْمُ، وَقَدْ قِيلَ هَذَا كُلُّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالَهُ يَنْبُوحٌ لَنُكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. وَقَوْلُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿لَنْ تَنَالَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]. وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

رَوَى الْأَعْمَشُ^(٦)، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الصَّافَا وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى شَخْصٍ فِي صُورَةِ الْفِيلِ وَهُوَ يَلْعَنُهُ، فَقُلْتُ: وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَلْعَنُهُ يَارَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ» فَقُلْتُ: وَاللَّهِ، يَا عَدُوَّ اللَّهِ، لَا أَقْتُلَنَّكَ^(٧)، وَلَأُرِيحَنَّ الْأُمَّةَ مِنْكَ، قَالَ: مَا هَذَا جَزَائِي مِنْكَ. قُلْتُ: وَمَا جَزَاؤُكَ مِنِّي يَا عَدُوَّ اللَّهِ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا شَرِكْتُ أَبَاهُ فِي رَجْمِ أُمِّهِ^(٨).

(١) في (م): تَخْضِبُ الْعَيْرَ مِنْ مَكْنُونٍ.

(٢) الْعَيْرُ: حِمَارُ الْوَحْشِ، وَالْفَائِلُ؛ قَالَ التَّبْرِيزِيُّ فِي شَرْحِ الْقَصَائِدِ الْعَشْرِ ص ٣٤٨: هُوَ عِرْقٌ يَجْرِي مِنَ الْجَوْفِ إِلَى الْفَخْذِ، وَمَكْنُونُ الْفَائِلِ: الدَّمُ.

(٣) دِيَوَانُهُ ص ٤٤٥، وَأَوْرَدَهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي اللِّسَانِ (شَطَنَ)، وَهُوَ فِي وَصْفِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. قَوْلُهُ: عَكَاهُ، أَي: شَدَّهُ فِي الْحَدِيدِ.

(٤) مِنْ قَوْلِهِ: وَيُردُ عَلَى هَذِهِ الْفِرْقَةِ أَنَّ سِيبَوِيهَ ... مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ عَطِيَّةٍ ١/ ٥٩.

(٥) فِي (م): الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ.

(٦) فِي (د) وَ(ظ): الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ رَوَى الْأَعْمَشُ ... وَهُوَ مُخَالَفٌ لِمَا صَرَحَ بِهِ مِنْ عَدَدِ الْمَسَائِلِ أَوَّلَ الْكَلَامِ.

(٧) فِي (م): يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلَنَّكَ.

(٨) خَبَرٌ مُوَضَّوعٌ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ وَتَكَلَّمَ فِيهِ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادٍ ٣/ ٢٨٩ وَ ٢٩٠، وَالذَّهَبِيُّ فِي مِيزَانِ الْإِعْتِدَالِ ١/ ١٩٧، وَفِي إِسْنَادِهِ إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّخَعِيُّ الْأَحْمَرُ. قَالَ الذَّهَبِيُّ: كَذَابٌ مَارِقٌ، =

البسملة

وفيها ثمان^(١) وعشرون مسألة:

الأولى: قال العلماء: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قَسَمَ من ربنا، أنزله عند رأس كل سورة، يُقَسِّمُ لعباده: إِنَّ هذا الذي وضعتُ لكم يا عبادي في هذه السورة حقٌّ، وإني أفي لكم بجميع ما ضَمِنْتُ في هذه السورة من وَعْدِي ولُطْفِي وبرِّي^(٢). و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مما أنزله الله تعالى في كتابنا، وعلى هذه الأمة خصوصاً، بعد سليمان عليه السلام. وقال بعض العلماء: إِنَّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تَضَمَّنَتْ جميعَ الشرع، لأنها تدلُّ على الذات وعلى الصفات. وهذا صحيح.

الثانية: قال سعيد بن أبي سكينَةَ: بلغني أَنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه نَظَرَ إلى رجل يَكْتُبُ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقال له: جَوِّدْها، فَإِنَّ رجلاً جَوَّدَها، فَعُفِّرَ له^(٣).

ومن هذا المعنى قِصَّةُ بِشْرِ الحافي^(٤)، فإنه لَمَّا رَفَعَ الرُّقْعَةَ التي فيها اسمُ الله، وطَيَّيْها، طَيَّبَ اسمُهُ. ذكره القُشَيْرِيُّ^(٥).

وروى النسائي، عن أبي المَلِيح، عن رِذْفِ رسول الله ﷺ قال: إِنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِذَا عَثَرْتَ بك الدَّابَّةُ، فلا تَقُلْ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فإنه يَتَعَاظَمُ حتى يَصِيرَ مِثْلَ

= من الغلاة. وقد اعتذرَ الذهبي لإيراده، فقال: روايته إثم مكرر، فأستغفر الله العظيم، بل روايتي له لِيَهْتَكِ حاله. ثم ساقه من طريق محمد بن مَزِيد بن أبي الأزهر، وقال: والحمل فيه عليه. وانظر تنزيه الشريعة المرفوعة ١/ ٣٦٠، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٣٧٤.

(١) في (د) و(ز) و(م): سبع، ووقع في (ظ): سبع ثمان، والمثبت يوافق عدد المسائل الواردة.

(٢) هذا كلام الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٤٠١.

(٣) أخرج البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٦٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٥٣٣) عن علي

رضي الله عنه قال: تَنَوَّقَ رجلٌ في «بسم الله الرحمن الرحيم» فَعُفِّرَ له. وقَوَّاه ابن عراق في تنزيه الشريعة

١/ ٢٦٠ - مع أن في إسناده عمر بن حفص العدني، وهو ضعيف - وقال: له حكم الرفع.

(٤) المروزي، المحدث الزاهد، توفي سنة (٢٢٧هـ). سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٦٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/ ٨٩. وصاحب الرسالة هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الخراساني،

الشافعي، مات سنة (٤٦٥هـ). السير ١٨/ ٢٢٧.

البيت، ويقول: بقوتي^(١) صَنَعْتُهُ، ولكن قل: بسم الله^(٢)، فإنه يَتَصَاغَرُ حتى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ^(٣).

وقال علي بن الحسين^(٤) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمُ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]؛ قال: معناه: إذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾^(٥).

وروى وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَجِّيهَ اللَّهُ مِنَ الرَّبَابِيَةِ التَّسْعَةِ عَشَرَ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنَّةً مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ^(٦).

فَالْبِسْمَلَةُ تِسْعَةُ عَشَرَ حَرْفًا، عَلَىٰ عَدَدِ مَلَائِكَةِ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فَمِنْ هُنَاكَ قُوَّتُهُمْ^(٧)، وبسم الله استضلعوا^(٨).

قال ابن عطية: ونظيره هذا قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاةً للفظه «هي» من كلمات^(٩) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [القدر: ١]. ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فإنها بِضْعَةٌ وثلاثون حرفاً، فلذلك قال النبي ﷺ: «لقد رأيتُ بِضْعَةَ وثلاثين مَلَكاً يَبْتَهِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ»^(١٠). قال ابن عطية: وهذا من مُلَحِّجِ التفسير، وليس من متين العلم^(١١).

(١) في (م): بقوته .

(٢) في (م): بسم الله الرحمن الرحيم .

(٣) سنن النسائي الكبرى (١٠٣١٢)، وهو في مسند أحمد (٢٠٥٩١) . وفيه: بقوتي صرعته .

(٤) ابن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو الحسين، زين العابدين، توفي سنة (٩٢هـ)، وقيل غير ذلك . سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ١ / ٦٠ . وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الإسراء .

(٦) أورده السيوطي في الدر المنثور ٩ / ١ ونسبه لوكيع والثعلبي .

(٧) في (م): هي قوتهم .

(٨) المحرر الوجيز ١ / ٦١ .

(٩) في (م): كلمات سورة .

(١٠) أخرجه أحمد في المسند (١٨٩٩٦)، والبخاري (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع الزرقني .

(١١) المحرر الوجيز ١ / ٦١ .

الثالثة: روى الشعبي والأعمش، أن رسول الله ﷺ كان يَكْتُبُ: «باسمك اللهم» حتى أُمِرَ أن يَكْتُبَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فكتبها، فلما نزلت: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، كتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ﴾ فلما نزلت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، كتبها^(١).

وفي «مصنف» أبي داود: قال الشعبي وأبو مالك^(٢) وقتادة وثابت بن عُمارة^(٣): إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَكْتُبْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى نزلت سورة النمل^(٤).

الرابعة: رَوَى عن جعفر الصادق^(٥) رضي الله عنه، أنه قال: البسملة تُبْجَانُ السُّورَ^(٦).

قلت: وهذا يَدُلُّ على أنها ليست بآية من الفاتحة، ولا غيرها.

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى على ثلاثة أقوال:

الأول: ليست بآية لا في^(٧) الفاتحة، ولا غيرها. وهو قول مالك.

الثاني: أنها آية من كلِّ سورة. وهو قول عبد الله بن المبارك.

الثالث: قال الشافعي: هي آية في الفاتحة. وتَرَدَّدَ قوله في سائر السُّور، فمرة

قال: هي آية من كلِّ سورة، ومرة قال: ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها. ولا خلاف

بينهم على^(٨) أنها آية من القرآن في سورة النمل^(٩).

واحتجَّ الشافعي بما رواه الدارقطني^(١٠) من حديث أبي بكر الحنفي، عن

(١) المحرر الوجيز ١/٦١، وأخرج نحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/٨١ عن الشعبي وحده، وانظر الدر المنثور ٥/١٠٦ - ١٠٧.

(٢) غزوان الغفاري الكوفي، مشهور بكنيته، ثقة، من رجال التهذيب، وينظر تحفة الأشراف ١٣/٣٣٠.

(٣) البصري الحنفي، صدوق، من رجال التهذيب، مات سنة (١٤٩هـ).

(٤) سنن أبي داود بإثر الحديث (٧٨٧)، وهو مرسل.

(٥) هو ابن محمد بن علي بن الحسين، أبو عبد الله الهاشمي، وهو من جُلَّةِ علماء المدينة، توفي سنة (١٤٨هـ). سير أعلام النبلاء ٦/٢٥٥.

(٦) المحرر الوجيز ١/٦٠.

(٧) في (م): من.

(٨) في (م): في.

(٩) الاستذكار ٤/٢٠٥، والتمهيد ٢٠/٢٠٦ - ٢٠٧ لابن عبد البر.

(١٠) في السنن ١/٣١٢. وأبو بكر الحنفي: هو عبد الكبير بن عبد المجيد. وقد وقع أخطاء في اسمه واسم شيخه في النسخ الخطية.

عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قرأتم: الحمد لله رب العالمين، فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبغ المثنائي، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها^(١)». رَفَعَ هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر^(٢)، وعبد الحميد هذا: وَثَّقَهُ أحمد بن حنبل، ويحيى بن سعيد، ويحيى بن معين. وأبو خاتم^(٣) يقول فيه: مَحَلُّهُ الصَّدَق. وكان سفيان الثوري يَضَعُفُهُ، ويَحْمِلُ عليه. ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور.

وحجَّة ابن المبارك، وأحد قولي الشافعي، ما رواه مسلم عن أنس قال: بَيَّنَّا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أَغْفَى إغفَاءً، ثم رفع رأسه مُتَبَسِّمًا، فقلنا: ما أَضْحَكَكَ يا رسول الله؟ قال: «نَزَلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ سَوْرَةٌ»، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وذكر الحديث^(٤)، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى.

الخامسة: الصحيح من هذه الأقوال قول مالك، لأنَّ القرآن لا يَثْبُتُ بأخبار الآحاد، وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يُخْتَلَفُ فيه. قال ابن العربي: وكيفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يُخْتَلَفُ فيه^(٥).

والأخبار الصَّحاح التي لا مَطْعَنَ فيها دَالَّةٌ على أنَّ البسملة ليست بآية من الفاتحة، ولا غيرها، إلا في النمل وحدها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله تعالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وقال مرة: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي -

(١) في سنن الدارقطني: إحداهما.

(٢) ونقل الدارقطني بإثر الحديث عن أبي بكر الحنفي قوله: ثم لقيت نوحاً (يعني ابن أبي بلال) فحدثني به عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، بمثله، ولم يرفعه.

(٣) محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، الناقد، شيخ المحدثين، مات سنة (٢٧٧هـ). السير ١٣ / ٢٤٧.

(٤) صحيح مسلم (٤٠٠)، وهو في مسند أحمد (١١٩٩٦).

(٥) أحكام القرآن ٢ / ١ ووقع في (د) و(ز): لا يختلف الناس فيه.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ❶ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل ❷.

فقوله سبحانه: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ»: يريدُ الفاتحة، وسَمَّاها صلاة، لأنَّ الصلاة لا تَصِحُّ إلا بها، فجعل الثلاث الآياتِ الأوَّلَ لنفسه، واختصَّ بها تباركُ اسمه، ولم يختلف المسلمون فيها. ثم الآيةُ الرابعةُ جعلها بينه وبين عبده؛ لأنها تضمَّنَتْ تَذَلُّلَ العبد، وطلبَ الاستعانةِ منه، وذلك يَتَضَمَّنُ تعظيمَ الله تعالى، ثم ثلاثُ آيات تَمَّة سبع آيات.

ومما يَدُلُّ على أنها ثلاثُ قولُه: «هؤلاء لعبدي». أخرجه مالك ❷. ولم يَقُلْ: هاتان، فهذا يَدُلُّ على أنَّ «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» آية. قال ابنُ بُكَيْر ❸: قال مالكُ: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» آية. ثم الآيةُ السابعةُ إلى آخرها.

فثبت بهذه القِسْمَةِ التي قَسَمَهَا اللهُ تعالى، ويقولُه عليه السلام لأبي: «كيف تَقْرَأ إذا افْتَتَحْتَ الصَّلَاةَ؟» قال: فقرأتُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» حتى أتيتُ على آخرها ❹ أنَّ البسملةَ ليست بآية منها. وكذا عدَّ أهلُ المدينة وأهلُ الشام وأهلُ البصرة. وأكثرُ القُرَّاءِ عَدُّوا «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» آية. وكذا روى قتادة، عن أبي نُضْرَةَ، عن أبي هريرة قال: الآيةُ السادسةُ: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» ❺. وأمَّا أهلُ الكوفة من القُرَّاء والفقهاء، فإنهم عَدُّوا فيها «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، ولم يَعُدُّوا «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» ❻.

فإن قيل: فإنها ثَبَّتَتْ في المصحف، وهي مكتوبةٌ بخطه، ونُقِلَتْ نَقْلَه، كما نُقِلَتْ في «النمل»، وذلك متواترٌ عنهم؟

(١) صحيح مسلم (٣٩٥). وهو في مسند أحمد (٧٢٩١).

(٢) الموطأ ١/ ٨٤ - ٨٥، وهو في مسند أحمد (٩٩٣٢).

(٣) يحيى بن عبد الله المخزومي مولاهم، أبو زكريا المصري، تكلموا في سماعه من مالك، توفي سنة (٢٣١هـ). تهذيب التهذيب ٤/ ٣٦٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٨٣.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٦، ونسبه للثعلبي.

(٦) الاستذكار ٤/ ٢٠٠ - ٢٠٢، والتمهيد ٢٠/ ٢٠٠ - ٢٠١.

قلنا: ما ذكرتموه صحيحٌ، ولكن لكونها قرآناً، أو لكونها^(١) فاصِلةً بين السور. كما رُوي عن الصحابة: كُنَّا لَا نَعْرِفُ انْقِضَاءَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢). أو تبرُّكاً^(٣) بها، كما قد اتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى كِتَابِهَا فِي أَوَائِلِ الْكُتُبِ وَالرِّسَالِ. كُلُّ ذَلِكَ مُحْتَمَلٌ.

وقد قال الجُرَيْرِيُّ: سُئِلَ الْحَسَنُ عَنْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟ قَالَ: فِي صُدُورِ الرِّسَالِ^(٤).

وقال الحسنُ أيضاً: لَمْ تَنْزَلْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا فِي «طس»: ﴿إِنَّمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّمْ يَسْمُرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) [النمل: ٣٠].

وَالْفَيْضُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَثْبُتُ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَإِنَّمَا يَثْبُتُ بِالنَّقْلِ الْمَتَوَاتِرِ الْقَطْعِيِّ الْاضْطِرَارِيِّ. ثُمَّ قَدْ اضْطَرَبَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِيهَا فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِآيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ رَوَى جَمَاعَةٌ قِرَاءَتَهَا^(٦)، وَقَدْ تَوَلَّى الدَّارِقُطْنِيُّ جَمْعَ ذَلِكَ فِي جُزْءٍ صَحَّحَهُ^(٧).

قلنا: لَسْنَا نُنْكِرُ الرِّوَايَةَ بِذَلِكَ، وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَيْهَا، وَلَنَا أَخْبَارٌ ثَابِتَةٌ فِي مَقَابِلَتِهَا، رَوَاهَا الْأَثَمَةُ الثَّقَاتُ، وَالْفَقَهَاءُ الْأَثَابُ. رَوَتْ عَائِشَةُ فِي «صَحِيحِ» مُسْلِمٍ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَفْتِيهِ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ، وَالْقِرَاءَةَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْحَدِيثُ. وَسَيَأْتِي بِكَمَالِهِ^(٨).

(١) فِي (د) وَ(ز): وَلَكُونَهَا.

(٢) (٧٨٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَفْظُهُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَضْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْهِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

(٣) فِي النِّسْخِ الْخَطِيئَةِ: وَتَبَرُّكاً، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ (١١٢٣). الْجُرَيْرِيُّ: هُوَ سَعِيدُ بْنُ إِيَاسَ أَبُو مَسْعُودٍ، وَالْحَسَنُ: هُوَ الْبَصْرِيُّ.

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنُفِ ٥٣٨/١١ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْبُدِ الزُّمَّانِيِّ.

(٦) فِي (م): قَرَأَتْهَا.

(٧) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/١.

(٨) صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٤٩٨). وَهُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (٢٤٠٣٠)، وَسَيَذْكُرُهُ الْمَصْنُفُ أَيْضاً ص ٢٦٩ عِنْدَ تَفْسِيرِ

الآيَةِ (٣) فِي الْمَسْأَلَةِ الْعِشْرِينَ، وَالْآيَةِ (٤٣) الْمَسْأَلَةِ السَّابِعَةِ، كِلَاهُمَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وروى مسلم أيضاً، عن أنس بن مالك قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا يَذْكُرُونَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لَا فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ، وَلَا فِي آخِرِهَا^(١).

ثُمَّ إِنَّ مَذْهَبَنَا يَرْجِّحُ فِي ذَلِكَ بَوَجْهِ عَظِيمٍ، وَهُوَ الْمَعْقُولُ، وَذَلِكَ أَنَّ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ انْقَرَضَتْ^(٢) عَلَيْهِ الْعَصُورُ، وَمَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَزْمَنَةُ وَالْدُّهُورُ، مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى زَمَانِ مَالِكٍ، وَلَمْ يَقْرَأْ أَحَدٌ فِيهِ قَطُّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اتِّبَاعاً لِلسُّنَّةِ، وَهَذَا يَرُدُّ أَحَادِيثَكُمْ. بَيِّنْدُ أَنَّ أَصْحَابَنَا اسْتَحَبُّوا قِرَاءَتَهَا فِي النَّفْلِ. وَعَلَيْهِ تُحْمَلُ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي قِرَاءَتِهَا، أَوْ عَلَى السَّعَةِ فِي ذَلِكَ^(٣).

قَالَ مَالِكٌ: وَلَا بَأْسَ أَنْ يَقْرَأَ بِهَا فِي النَّافِلَةِ، وَمَنْ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ عَرْضاً. وَجُمْلَةُ مَذْهَبِ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ: أَنَّهَا لَيْسَتْ عَنْدهُمْ آيَةٌ مِنْ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهَا، وَلَا يَقْرَأُ بِهَا الْمُصَلِّي فِي الْمَكْتُوبَةِ [فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ] وَلَا فِي غَيْرِهَا سِرّاً وَلَا جَهْراً^(٤)، وَيَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَهَا فِي النَّوَافِلِ. هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِهِ عِنْدَ أَصْحَابِهِ^(٥). وَعَنْهُ رَوَايَةٌ أُخْرَى: أَنَّهَا تُقْرَأُ أَوَّلَ السُّورَةِ فِي النَّوَافِلِ، وَلَا تُقْرَأُ أَوَّلَ أُمِّ الْقُرْآنِ^(٦). وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ نَافِعٍ ابْتِدَاءَ الْقِرَاءَةِ بِهَا فِي الصَّلَاةِ؛ الْفَرْضِ وَالنَّفْلِ، وَلَا تُتْرَكُ بِحَالٍ^(٧). وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، مِنْهُمْ ابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ شَهَابٍ. وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ^(٨)، وَأَبُو ثَوْرٍ^(٩)، وَأَبُو

(١) صحيح مسلم (٣٩٩): (٥٢) وفيه أيضاً: وعثمان، وهو في المسند (١٣٣٣٧).

(٢) في (م): انقضت.

(٣) من قوله: ثُمَّ إِنَّ مَذْهَبَنَا يَرْجِّحُ ... مِنْ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ: ٣/١ بتصرف يسير.

(٤) في (ظ): لَا يَصْلِي بِهَا الْمُصَلِّي فِي الْمَكْتُوبَةِ لَا سِرّاً وَلَا جَهْراً.

(٥) الاستذكار ٢٠٥/٤، والتمهيد ٢٠٦/٢٠ - ٢٠٧. وما بين حاصرتين منهما.

(٦) النوادر والزيادات ١٧٢/١ - ١٧٣.

(٧) الذي في الاستذكار ٢٠٥/٤ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لِابْنِ نَافِعٍ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ الصَّائِغِ - مِنْ رَوَايَةِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى عَنْهُ، فَلَعَلَّ الصَّوَابَ فِي الْعِبَارَةِ أَنْ يَقَالَ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ نَافِعٍ...

(٨) ابن إبراهيم بن مخلد ابن راهويه، أبو يعقوب التميمي، المروزي، نزيل نيسابور، مات سنة (٢٣٨هـ). السير ٣٥٨/١١.

(٩) هو إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، الحافظ الفقيه، مات سنة (٢٤٠هـ)، السير ٧٢/١٢.

عُبِيد. وهذا يُدَلُّ على أَنَّ المسأَلَةَ مسألة اجتهادية، لا قطعية كما ظَنَّهُ بعضُ الجُهَّال من المُتَفَقِّهَةِ، الذي يَلْزَمُ على قوله تكفيرُ المسلمين، وليس كما ظَنُّ، لوجود الاختلافِ المذكور. والحمدُ لله.

وقد ذهب جَمْعٌ من العلماء إلى الإصرار بها مع الفاتحة، منهم أبو حنيفة والثوري، ورُوِيَ ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وعَمَّار، وابن الزبير. وهو قولُ الحَكَم وحمَّاد. وبه قال أحمدُ بنُ حنبل وأبو عُبَيد، ورُوِيَ عن الأوزاعيِّ مثلُ ذلك. حكاها أبو عمر بن عبد البرِّ في «الاستذكار»^(١).

واحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصورُ بن زاذان، عن أنس بن مالك قال: صَلَّى بنا رسولُ الله ﷺ، فلم يُسَمِعنا قراءة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾^(٢). وما رواه عَمَّار بن رُزَيْق، عن الأعمش، عن شُعبة، عن ثابت، عن أنس قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، وخلفَ أبي بكر وعمر، فلم أَسْمَعْ أحداً منهم يَجْهَرُ بِبِسْمِ الله الرحمن الرحيم^(٣).

قلت: هذا قولٌ حسنٌ، وعليه تَتَّفِقُ الآثارُ عن أنس، ولا تَتَضَادُّ، ويُخَرِّجُ به من الخلاف في قراءة البسمة.

وقد رُوِيَ عن سعيد بن جُبَيْر قال: كان المشركون يَحْضُرُونَ المسجد^(٤)، فإذا قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قالوا: هذا محمدٌ يذُكِّرُ رحمانَ اليمامة - يعنون مُسَيْلِمَةَ - فَأَمَرَ أَنْ يُخَافَتْ بِبِسْمِ الله الرحمن الرحيم، ونزل: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]^(٥).

قال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله^(٦): فبقي ذلك إلى يومنا هذا على ذلك الرَّسْمِ،

(١) ٢٠٧ / ٤.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الصغرى ١٣٥ / ٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٣٧٨٤). ومن قول المصنف: واحتجوا من الأثر في ذلك... من الاستذكار ٢١٠ / ٤ - ٢١١.

(٤) في (م): بالمسجد.

(٥) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٤). وفي إسناده شريك بن عبد الله النخعي، قال الحافظ في التقریب: يخطئ كثيراً.

(٦) في نوادر الأصول ص ٣٩٣، وقد نقل منه المصنف من قوله: وقد رُوِيَ عن سعيد بن جبير ...

وإن زالت العِلَّةُ، كما بقي الرَّمْلُ في الطَّوْفِ، وإن زالتِ العِلَّةُ، وبَقِيَتِ الْمُخَافَتَةُ في صلاة النهار، وإن زالتِ العِلَّةُ.

السادسة: اتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ على جواز كَتَبِهَا في أَوَّلِ كُلِّ كِتَابٍ من كُتُبِ الْعِلْمِ والرسائل، فإن كان الكتابُ ديوانَ شِعْرٍ؛ فروى مُجَالِدٌ، عن الشَّعْبِيِّ قال: أَجْمَعُوا أَلَا يَكْتُبُوا أَمَامَ الشَّعْرِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وقال الزُّهْرِيُّ: مَضَتْ السُّنَّةُ أَلَا يَكْتُبُوا في الشَّعْرِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وذهب إلى رَسْمِ التَّسْمِيَةِ في أَوَّلِ كُتُبِ الشَّعْرِ سَعِيدُ بن جُبَيْرٍ، وتابعه على ذلك أَكْثَرُ المتأخِّرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذي نخْتَارُهُ، ونَسْتَجِبُهُ^(١).

السابعة: قال الماوردي^(٢): ويقال لمن قال: بِسْمِ اللَّهِ: مُبَسِّمٌ، وهي لغةٌ مُوَلَّدَةٌ، وقد جاءت في الشعر، قال عمرُ بن أبي ربيعة^(٣):

لَقَدْ بَسَمَلْتُ لَيْلَى عِدَّةَ لَقَبَيْتُهَا فَيَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُبَسِّمُ^(٤)
قلت: المشهورُ عن أهل اللغة: بَسَمَلَ. قال يعقوبُ بن السُّكَيْتِ^(٥) والمُطَرِّزُ^(٦)
والثعالبي^(٧) وغيرُهم من أهل اللغة: بَسَمَلَ الرَّجُلُ؛ إذا قال: بِسْمِ اللَّهِ. يقال: قد

(١) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٤٠٥ - ٤٠٧.

(٢) في تفسيره النكت والعيون ١/ ٥٠. والماوردي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الشافعي، أفضى القضاة، صاحب التصانيف، اتهمه ابن الصلاح بالاعتزال، وقال ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٢٦٠: ولا ينبغي أن يطلق عليه اسم الاعتزال، مات سنة (٤٠٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٤.

(٣) أبو الخطاب المخزومي، شاعر قريش، ولد ليلة مقتل عمر رضي الله عنه، واستشهد غازياً في البحر سنة (٩٣هـ). السير ٤/ ٣٧٩.

(٤) ديوانه ص ١١٧.

(٥) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السُّكَيْتِ، البغدادي، النحوي، المؤدب، صاحب إصلاح المنطق. توفي سنة (٢٤٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٦.

(٦) محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد، اللغوي، المعروف بغلام ثعلب، له من التصانيف: اليواقيت، وشرح الفصيح، وفائت الفصيح، وغريب مسند أحمد، وغيرها. توفي سنة (٣٤٥هـ). بنية الوعاة ١/ ١٦٤.

(٧) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري شيخ العربية، الشاعر. صاحب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر وفقه اللغة، توفي سنة (٤٣٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٣٧.

أكثرت من البسملة، أي: من قول بسم الله، ومثله: حَوَّلَ الرجلُ؛ إذا قال: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، وهَلَّلَ؛ إذا قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وَسَبَّحَلَ؛ إذا قال: سبحانَ اللهُ، وَحَمَدَلَ؛ إذا قال: الحمدُ اللهُ، وَحَيَّصَلَ^(١)؛ إذا قال: حَيَّ على الصلاة^(٢)، وَجَعَفَلَ^(٣)؛ إذا قال: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَطَبَّقَلَ^(٤)؛ إذا قال: أطال اللهُ بقاءَكَ، وَدَمَعَزَ؛ إذا قال: أدامَ اللهُ عِزَّكَ، وَحَيَّفَلَ^(٥)؛ إذا قال: حَيَّ على الفلاح. ولم يَذْكُرِ الْمُطَرِّزُ الحَيَّصَلَةَ؛ إذا قال: حَيَّ على الصلاة، وَجَعَفَلَ؛ إذا قال: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَطَبَّقَلَ؛ إذا قال: أطالَ اللهُ بقاءَكَ، وَدَمَعَزَ؛ إذا قال: أدامَ اللهُ عِزَّكَ.

الثامنة: نَدَبَ الشَّرْعُ إلى ذِكْرِ البسملة في أَوَّلِ كُلِّ فِعْلٍ، كالأكلِ والشُّربِ، والنَّحْرِ، والجِمَاعِ، والطَّهارةِ، وركوبِ البحرِ، إلى غير ذلك من الأفعال، قال اللهُ تعالى: ﴿كُلُّوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]. ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِّبْنَهَا وَفَرَسَهَا﴾ [هود: ٤١]. وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَغْلِقْ بَابَكَ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنْاءَكَ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأُولِكِ سِقَاءَكَ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ»^(٦)، وقال: «لو أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَارَزَقَتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»^(٧) وقال لعمر بن أبي سَلَمَةَ^(٨): «يا غلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ

(١) في (د): حيعل .

(٢) في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٢٥: الحيملة: حكاية قول المؤذن: حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح .

(٣) وكذا ذكر ابن القطاع في الأفعال ١/١٩٧: جعفل . وأورد السيوطي في المزهر ١/٤٨٣ عن ابن السكيت وغيره أن حكاية قول القائل: جعلت فداك: الجعفة .

(٤) ذكر الثعالبي في فقه اللغة ص ٢٢٥ أن الطَّلَبَةَ حكاية قول القائل: أطال الله بقاءك .

(٥) في (ظ): حيعل .

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١٤٤٣٤)، والبخاري (٣٢٨٠) بأنَّ منه من حديث جابر رضي الله عنه .

(٧) أخرجه أحمد في المسند (١٨٦٧)، والبخاري (٦٣٨٨)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما .

(٨) القرشي، المخزومي، الحبشي المولد، زَوَّجَ أُمُّهُ بالنبي ﷺ وهو صبي . توفي سنة (٥١هـ). السير ٤٠٦/٣ .

مما يَلِيكَ»^(١)، وقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ جَلُّ الطَّعَامِ إِلَّا»^(٢) يُذَكِّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٣).
وقال: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»^(٤)، وشكا إليه عثمانُ بْنُ أَبِي العاصِ^(٥) وَجَعًا
يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مِنْذُ اسْلَمَ، فقال له رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي يَأْلَمُ»^(٦) مِنْ
جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ
وَأُحَاذِرُ»^(٧). هَذَا كُلُّهُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ.

وروى ابنُ ماجه والترمذيُّ عن النبي ﷺ قال: «سَتَرُ مَا بَيْنَ الْجَنِّ وَعُورَاتِ بَنِي
آدَمَ؛ إِذَا دَخَلَ الْكَيْفَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ»^(٨).

وروى الدارقطنيُّ عن عائشةَ قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَسَّ طَهُورُهُ، سَمَّى اللَّهَ
تَعَالَى، ثُمَّ يُفْرِغُ الْمَاءَ عَلَى يَدَيْهِ»^(٩).

التاسعة: قال علماؤنا: وفيها ردٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَقُولُ: إِنَّ أَعْمَالَهُمْ
مَقْدُورَةٌ لَهُمْ. وَمَوْضِعُ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَمَرَنَا عِنْدَ الْاِبْتِدَاءِ
بِكُلِّ فِعْلٍ أَنْ نَقْتَبِحَ بِذَلِكَ، كَمَا ذَكَرْنَا.

فمَعْنَى «بِسْمِ اللَّهِ» أَي: بِاللَّهِ، وَمَعْنَى «بِاللَّهِ» أَي: بِخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ يُوصَلُّ إِلَى مَا
يُوصَلُّ إِلَيْهِ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا مَزِيدُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٦٣٣٢)، وَالبخاري (٥٣٧٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٢٢) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ أَبِي
سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فِي (ظ): إِلَّا أَنْ.

(٣) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٣٢٤٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٠١٧).

(٤) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ جَنْدَبِ بْنِ سَفِيَّانِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨٨١٥)، وَالبخاري (٩٨٥)،
وَمُسْلِمٌ (١٩٦٠).

(٥) أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ، الطَّائِفِيُّ، وَقَدْ مَعَ قَوْمَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَنَةَ تِسْعٍ فَأَسْلَمُوا، وَأَمَرَهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ
أَصْغَرَهُمْ سِنًا، تَوَفِيَ سَنَةَ (٥١١ هـ). السَّيَرُ ٢/ ٣٧٤.

(٦) فِي (م): تَأْلَمَ.

(٧) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦٢٦٨) (دُونَ ذِكْرِ التَّسْمِيَةِ)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٠٢)، وَاللَّفْظُ لَهُ، مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي
العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٨) سَنَنُ ابْنِ مَاجَهَ (٢٩٧)، وَسَنَنُ التِّرْمِذِيِّ (٦٠٦)، وَهُوَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ:
هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَإِسْنَادُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ الْقَوِي.

(٩) سَنَنُ الدَّارِقُطْنِيِّ ١/ ٧٢، وَفِيهِ: يَسْمِي، بَدَلُ: سَمَّى.

وقال بعضهم: معنى قوله: «بسم الله» يعني: بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته. وهذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الافتتاح ببركة اسمه^(١) جلّ وعزّ.

العاشرة: ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن «اسم» صِلَةٌ زائدة، واستشهد بقول لبيد^(٢):

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ
فَذَكَرُ «اسم» زيادةً، وإنما أراد: ثم السلام عليكما^(٣).

وقد استدللّ علماؤنا بقول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمّى. وسيأتي الكلام فيه في هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى^(٤).

الحادية عشرة: اختلف في معنى زيادة «اسم». فقال قطرب^(٥): زِيدَتْ لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه. وقال الأخفش^(٦): زِيدَتْ ليخرجَ بِذِكْرِهَا مِنْ حُكْمِ الْقَسَمِ إِلَى قَصْدِ التَّبَرُّكِ، لأنَّ أصلَ الكلام: بالله.

الثانية عشرة: اختلفوا أيضاً في معنى دخول الباء عليه، هل دَخَلَتْ على معنى الأمر، والتقدير: إبدأ بسم الله؟ أو على معنى الخبر، والتقدير: إبتدأت بسم الله^(٧)؟ قولان: الأوّل للفرّاء، والثاني للزجاج^(٨). ف«بسم» في موضع نصب على التأويلين. وقيل: المعنى: ابتدائي بسم الله، ف«بسم الله» في موضع رفع خبر الابتداء.

(١) في (م): بركة الله.

(٢) ابن ربيعة العامري، الصحابي، الشاعر، قال الشعر في الجاهلية دهرًا ثم أسلم، وعُمِّرَ طويلاً. مات في الكوفة سنة (٤١هـ). الإصابة ٩/ ٦. والبيت في ديوانه ص ٧٩.

(٣) من قوله: ذهب أبو عبيدة... من تفسير الماوردي ١/ ٤٧، وقد نقل قول أبي عبيدة ابن جني في الخصائص ٣/ ٢٩.

(٤) ص ١٥٦، وفي المسألة الثالثة من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّيَاتُ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(٥) محمد بن المستنير أبو علي النحوي اللغوي، أخذ عن سيويه وعن جماعة من العلماء البصريين. من كتبه معاني القرآن، والاشتقاق. توفي سنة (٢٠٦هـ). إنباء الرواة ٣/ ٢٢١.

(٦) سعيد بن مسعدة، أبو الحسن البلخي البصري، إمام النحو، المعروف بالأخفش الأوسط، تلميذ سيويه، مات سنة نيف عشرة ومئتين. السير ١٠/ ٢٠٨.

(٧) في (د) و(ز): وتقديره ابتدأت بسم الله.

(٨) النكت والعيون ١/ ٤٧ - ٤٨.

وقيل: الخبرُ محذوفٌ، أي: ابتدائي مستقرٌّ أو ثابتٌ بسم الله، فإذا أظهرته، كان «بسم الله» في موضع نصبٍ بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك: زيدٌ في الدار. وفي التنزيل: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠] ف«عنده» في موضع نصبٍ، رُوي هذا عن نُحاةِ أهلِ البصرة.

وقيل: التقديرُ: ابتدائي بسم الله موجودٌ، أو ثابتٌ، ف«باسم» في موضع نصبٍ بالمصدر الذي هو ابتدائي.

الثالثة عشرة: «بسم الله» تُكْتَبُ بغير ألف، استُغْنِيَ^(١) عنها بباء الإلصاق^(٢) في اللَّفْظِ وَالْخَطِّ، لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، فإنها لم تُحَذَفْ، لِقِلَّةِ الاستعمال. واختلفوا في حَذْفِهَا مع الرحمن والقاهر. فقال الكِسَائِيُّ وسعيدٌ الأَخْفَشُ: تُحَذَفُ الألفُ. وقال يحيى بنُ زياد^(٣): لا تُحَذَفُ إلا مع «بسم الله» فقط، لأنَّ الاستعمالَ إنما كَثُرَ فيه^(٤).

الرابعة عشرة: واخْتَلَفَ في تخصيصِ بَاءِ الْجَرِّ بالكسر على ثلاثة معانٍ، ف قيل: يُنَاسِبُ لَفْظُهَا عَمَلُهَا. وقيل: لَمَّا كَانَتِ الْبَاءُ لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى الْأَسْمَاءِ، خُصَّتْ بِالْخَفْضِ الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَسْمَاءِ. الثالث: لِيُفَرَّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَدْ يَكُونُ مِنَ الْحُرُوفِ اسْمًا، نحو الكاف في قول الشاعر^(٥):

وَرُحْنًا بِكَابِنِ الْمَاءِ يُجَنَّبُ وَسَطُنَا

أي: بمثل ابنِ الماء، وما^(٦) كان مثله.

الخامسة عشرة: «اسم» وَزْنُهُ: أَفْعُ، والذاهِبُ منه الواو؛ لأنه من: سَمَوْتُ، وَجَمَعُهُ

(١) في (م): استغناء.

(٢) في (ظ): بالإلصاق.

(٣) هو أبو زكريا القراء. وقد تحرفت كلمة «زياد» في النسخ و (م) إلى: «وثاب».

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٦٢/١، ومعاني القرآن للقراء ٣/١.

(٥) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ١٧٦. وشطره الثاني: تصَوَّبَ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي، قال شارحه: يقول: رُحْنًا بفرس كأنه ابنُ الماء في خفته وسرعة عَدْوِهِ. وابن الماء طائر.

(٦) في (م): أو ما.

أسماء، وتصغيره سُمِّي. واختُلِفَ في تقدير أصله، ففعل: فَعَلٌ، وقيل: فُعِلٌ. قال الجوهري: وأسماء يكون جمعاً لهذا الوزن^(١)، وهو مِثْلُ جَذَعٍ وأَجْذَاعٍ، وَقُفْلٍ وأَقْفَالٍ، وهذا لا تُدْرِكُ صيغته إلا بالسَّمَاعِ. وفيه أربع لغات: إِسْمٌ، بالكسر، وأُسْمٌ، بالضم. قال أحمد بن يحيى^(٢): مَنْ ضَمَّ الألفَ، أَخَذَهُ مِنْ: سَمَوْتُ أَسْمُو، وَمَنْ كَسَرَ، أَخَذَهُ مِنْ: سَمِيْتُ أَسْمَى^(٣). ويقال: سِمْ وَسُمٌّ^(٤)، وَيُنْشَدُ:

والله أَسْمَاكَ سُمّاً مُبَارَكَا أَثَرَكَ اللهُ بِهِ إِثْرَاكَ
وقال آخر:

وعامناً أعجبنا مُقَدَّمُهُ يُدْعَى أبا السَّمْحِ وقِرَضَابِ سُمُهُ
مُبْتَرِكَا لِكُلِّ عَظَمٍ يَلْحُمُهُ
قَرَضَبَ الرجل: إذا أكل شيئاً يابساً، فهو قِرَضَابٌ. سُمُهُ: بالضم والكسر جميعاً. ومنه قول الآخر:

باسم الذي في كلِّ سُورَةٍ سُمُهُ^(٥)

وَسُكِّنَتِ السِّينُ من «باسم» اعتلافاً على غير قياس، وألفه أَلِفٌ وَضَلٍ، وربما جَعَلَهَا الشاعرُ أَلْفَ قَطْعٍ للضرورة، كقول الأحرص^(٦):
وما أنا بِالْمَخْشُوسِ فِي جِذْمِ مَالِكٍ وَلَا مَنْ تَسَمَّى ثُمَّ يَلْتَزِمُ الإِسْمَا
السادسة عشرة: تقول العربُ في النَّسَبِ إلى الاسمِ: سُمُوِيٌّ، وإنْ ثَبَتَتْ: اسْمِيٌّ؛

(١) في الصحاح (سما): وأسماء يكون جمعاً لهذين الوزنين.

(٢) هو إمام النحو ثعلب، أبو العباس، البغدادي. مات سنة (٢٩١هـ). السير ١٤ / ٥.

(٣) في معجم متن اللغة: سَمِيٌّ، كَرَضِيٌّ. وَسَمَى، كَرَمَى: لغتان في سما يسمو. وينظر الصحاح (سما، سلا، علا).

(٤) وذكر أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١٦/١، وأبو البقاء المعكبري في الإملاء ٥/١، وغيرهما، لغة خامسة، وهي: سُمَى، مثل ضحى، وغلى.

(٥) ما سلف من الرجز أورده أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١٥/١ - ١٦، وابن منظور في اللسان (سما)، وأورد بعضه ابن جني في المنصف ٦٠/١، وابن الشجري في أماليه ٢٨٠/٢ - ٢٨١.

(٦) هو عبد الله بن محمد بن عبيد الله، أبو عاصم الأنصاري، من شعراء بني أمية. السير ٤ / ٥٩٣. والبيت في ديوانه ص ١٩٣.

تركته على حاله. وجمعه أسماء، وجمعُ الأسماءِ أسام. وحكى الفراء: أُعيدكُ بأسماءِ الله^(١).

السابعة عشرة: اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين: فقال البصريون: هو مُشْتَقٌّ من السُّمُو، وهو العُلُوُّ والرَّفْعَةُ، فقيل: اسم، لأنَّ صاحبه بمنزلة المُرْتَفِع به. وقيل: لأنَّ الاسمَ يسمو بالمُسْمَى، فيرفعه عن غيره. وقيل: إنما سُمِّيَ الاسمُ اسماً، لأنه علا بقرّته على قِسْمِي الكلام: الحرفِ والفعلِ، والاسمُ أقوى منهما بالإجماع، لأنه الأصلُ، فَلِعُلُوّه عليهما، سُمِّيَ اسماً. فهذه ثلاثة أقوال.

وقال الكوفيون: إنه مُشْتَقٌّ من السِّمَةِ، وهي العلامة، لأنَّ الاسمَ علامةٌ لمن وُضِعَ له. فأصلُ «اسم» على هذا: وسم. والأوّلُ أصحُّ؛ لأنه يقال في التصغير: سُمِّيَ. وفي الجمع: أسماء. والجمعُ والتَّصْغِيرُ يَرُدُّانِ الأسماءَ^(٢) إلى أصولها، فلا يقال: وَسِمَ، ولا أوسام. ويدلُّ على صِحَّتِهِ أيضاً فائدة الخلاف، وهي:

الثامنة عشرة: فإنَّ مَنْ قال: الاسمُ مُشْتَقٌّ من العُلُوِّ، يقول: لم يَزَلِ اللهُ سبحانه موصوفاً قبلَ وجودِ الخلقِ وبعدَ وجودهم، وعند فنائهم، ولا تأثيرَ لهم في أسمائه ولا صفاته، وهذا قولُ أهلِ السُّنَّةِ. ومن قال: الاسمُ مُشْتَقٌّ من السِّمَةِ، يقول: كان اللهُ في الأزلي بلا اسم ولا صفة، فلما خَلَقَ الخلقَ، جعلوا له أسماءَ وصفاتٍ، فإذا أفناهم، بقي بلا اسم ولا صفة، وهذا قولُ المعتزلة. وهو خلافُ ما أجمعت عليه الأئمّة، وهو أعظمُ في الخطأ من قولهم: إنَّ كلامه مخلوقٌ، تعالى اللهُ عن ذلك. وعلى هذا الخلاف وقع الكلامُ في الاسمِ والمُسْمَى، وهي:

التاسعة عشرة: فذهب أهلُ الحقِّ - فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب - إلى أنَّ الاسمَ هو المُسْمَى، وارتضاء ابنُ فورك^(٣)، وهو قولُ أبي عُبَيْدَةَ وسيبويه. فإذا قال قائلٌ: اللهُ عالمٌ، فقله دالٌّ على الذاتِ الموصوفةِ بكونه عالماً، فالاسمُ كونه عالماً، وهو المُسْمَى بعينه. وكذلك إذا قال: اللهُ خالقٌ، فالخالقُ هو الربُّ، وهو بعينه الاسمُ. فالاسمُ عندهم هو المُسْمَى بعينه من غير تَفْصِيلٍ.

(١) الصحاح للجوهري (سما). وينظر تاج العروس ١٠ / ١٨٤.

(٢) في (م): الأشياء.

(٣) أبو بكر محمد بن الحسن الأصبهاني، صنف التصانيف الكثيرة، كان أشعرياً، رأساً في فن الكلام،

توفي سنة (٤٠٦). سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢١٤ ووفيات الأعيان ٤ / ٢٧٢.

قال ابن الحَصَّار: مَنْ ينفي الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات، ولذلك يقولون: الاسم غير المسمى، ومن يثبت الصفات، يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات، وهي غير العبارات، وهي الأسماء عندهم. وسيأتي لهذا^(١) مزيد بيان في «البقرة» و«الأعراف» إن شاء الله تعالى^(٢).

المؤفية عشرين: قوله: الله، هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها^(٣)، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم^(٤)، ولم يتسم^(٥) به غيره، ولذلك لم يُثنَّ، ولم يُجمع. وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: مَنْ تسمى باسمه الذي هو «الله». فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه. وقيل: معناه: الذي يستحق أن يُعبد. وقيل: معناه: واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال، والمعنى واحد.

الحادية والعشرون: واختلفوا في هذا الاسم: هل هو مُشْتَقٌّ، أو موضوع للذات عَلمٌ؟

فذهب إلى الأوّل كثير من أهل العلم. واختلفوا في اشتقاقه وأصله. فروى سيبويه عن الخليل^(٦)، أن أصله إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثل: الناس، أصله أناس. وقيل: أصل الكلمة: لاه، وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه^(٧). وأنشد:

(١) في (م): لهذه.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وعند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءَ الْمُسَمَّى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(٣) نقله البيهقي في الأسماء والصفات ٥٧/١ عن الحلبي.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٢٧٣/١٠ عن جابر بن زيد قال: اسم الله الأعظم الله، وحكاه أيضاً الماوردي في تفسيره ٥٠/١ عن أبي حنيفة.

(٥) في (د) و(ز): يسم.

(٦) هو ابن أحمد أبو عبد الرحمن الفراهيدي، البصري، صاحب العربية، ومنشئ علم العروض. مات سنة بضع وستين ومئة، وقيل: بقي إلى سنة سبعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٧/٤٢٩.

(٧) ينظر الكتاب ٢/١٩٥ - ١٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/١٥٢، واشتقاق أسماء الله للزجاجي ٢٣ - ٢٩، والخصائص لابن جني ٢/٢٨٨، والأسماء والصفات للبيهقي ١/٥٨.

لَا إِبْنَ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي وَلَا أَنْتَ ذَيَّابِي فَتَخْزُونِي^(١)
 كذا الرواية: فتخزونني، بالخاء المعجمة، ومعناه: تُسُوْسُنِي.

وقال الكِسَائِيُّ والفَرَّاءُ: معنى «بسم الله»: بسم الإله؛ فحذفوا الهمزة، وأدغموا
 اللَّامَ الأولى في الثانية، فصارتا لاماً مشددة^(٢)؛ كما قال عز وجل: ﴿لَنَكْنَأْهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]. ومعناه: لكن أنا، كذلك قرأها الحسن^(٣).

ثم قيل: هو مُشْتَقٌّ من «وَلَة»: إذا تَحَيَّرَ. والوَلَة: ذهابُ العقل. يقال: رجلٌ وَلِيٌّ،
 وامرأةٌ والِيَّةٌ ووالِيَّةٌ. وماءٌ مَوْلَةٌ: أُرْسِلَ في الصحارى. فالله سبحانه تَحَيَّرَ الألبابُ وتذهب
 في حقائق صفاته، والفِكَرُ في معرفته. فعلى هذا أصلُ «إِلاه»: «وِلاه». وأنَّ الهمزة مُبْدَلَةٌ
 مِن وَاوٍ، كما أَبْدَلْتُ في إِشَاحٍ وَوِشَاحٍ، وَإِسَادَةٍ وَوِسَادَةٍ. وَرُوي عن الخليل^(٤).

وَرُوي عن الضَّحَّاك أَنه قال: إِنَّمَا سُمِّيَ «اللهُ» إِلَهًا؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ يَتَأَلَّهُونَ إِلَيْهِ فِي
 حَوَائِجِهِمْ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ شِدَائِدِهِمْ، وَذُكِرَ عَنِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ أَنه قال: لِأَنَّ
 الْخَلْقَ يَأَلَّهُونَ إِلَيْهِ، بِنَصَبِ اللَّامِ. وَيَأَلَّهُونَ أَيْضًا، بِكسرها. وهما لغتان.

وقيل: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْارْتِفَاعِ، فَكَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ: لَا هَا،
 فَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ: لَا هَتْ^(٥).

وقيل: هو مُشْتَقٌّ مِنْ أَلَهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ. وَتَأَلَّهَ: إِذَا تَنَسَّكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
 «وَيَذَرُكَ وَإِلَهِتَكَ» عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ^(٦)، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَغَيْرَهُ قَالُوا: وَعِبَادَتُكَ^(٧).

(١) البيت لذي الإصبع العدواني، وهو في المفضليات ص ١٦٠، والخصائص ٢٨٨/٢ وأمالى ابن
 الشجري ١٩٥/٢، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ١/ ٣٩٤.

(٢) ينظر اشتقاق أسماء الله الحسنى ص ٢٣.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٠، وابن جني في المحتسب ٢٩/٢ وزادا نسبتها إلى أبي بن
 كعب.

(٤) المحرر الوجيز ٦٣/١، وينظر اشتقاق أسماء الله ٢٦ - ٢٧.

(٥) من قوله: وَرُوي عن الضحَّاك... من تفسير أبي الليث السمرقندي ١/ ٧٦.

(٦) الأعراف: ١٢٧، وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٥، وابن جني في المحتسب
 ٢٥٦/١.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ١٢١-١٢٢، وأورد له قول رؤية:

لله دُرُ الْغَنَانِيَّاتِ الْمُدُّو سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلَّهِي

قالوا: فاسمُ الله مُشْتَقٌّ من هذا^(١)، فالله سبحانه معناه: المقصودُ بالعبادة، ومنه قولُ الموحِّدين: لا إلهَ إلا الله، معناه: لا معبودَ غيرُ الله. و«إلا» في الكلمة بمعنى «غير»، لا بمعنى الاستثناء.

وَرَعَمَ بعضهم أنَّ الأصلَ فيه «الهَاءُ» التي هي الكنايةُ عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجوداً في فِطْرِ عقولهم، فأشاروا إليه بحرفِ الكِنَاية، ثم زِيدَتْ فيه لامُ الملك، إذ قد عَلِمُوا أنه خالِقُ الأشياءِ ومَالِكُهَا، فصار «لَهُ»، ثم زِيدَتْ فيه الألفُ واللامُ تعظيماً وتفضيماً^(٢).

القول الثاني ذَهَبَ إليه جماعةٌ من العلماء أيضاً، منهم الشافعيُّ وأبو المعالي^(٣) والخطابي والغزالي^(٤) والمفضل وغيرهم. ورُوِيَ عن الخليل وسيبويه: أنَّ الألفَ واللامَ لازِمَةٌ له، لا يجوزُ حذفُهما منه^(٥). قال الخطابي: والدليلُ على أنَّ الألفَ واللامَ مِن بِنْيَةِ هذا الاسم، ولم يدخُلَا للتعريف، دخولُ حرفِ النِّداءِ عليه، كقولك: يا الله، وحروفُ النِّداءِ لا تَجْتَمِعُ مع الألف واللام للتعريف، ألا ترى أنَّكَ لا تقول: يا الرحمن، ولا: يا الرحيم، كما تقول: يا الله، فدلَّ على أنَّهما من بِنْيَةِ الاسم. والله أعلم^(٦).

الثانية والعشرون: واختلفوا أيضاً في اشتقاقِ اسمه «الرحمن»، فقال بعضهم: لا اشتقاقَ له؛ لأنه من الأسماءِ الْمُخْتَصَّةِ به سبحانه، ولأنه لو كان مُشْتَقًّا من الرحمة، لَاتَّصَلَ بِذِكْرِ المرحوم، فجاز أن يقال: الله رَحْمَنٌ بعبادته، كما يقال: رحيمٌ بعبادته. وأيضاً لو كان مُشْتَقًّا مِنَ الرَّحْمَةِ، لم تُنَكِّرْهُ العربُ حين سَمِعُوهُ، إذ كانوا لا يُنَكِّرون

(١) هو بنحوه في تفسير ابن عطية ٦٣/١، وأورد خلاله قول رؤية المذكور في التعليق قبله.

(٢) من قوله: قول الموحدين.. من كلام الخطابي، ونقله عنه البيهقي في الأسماء والصفات ٥٨/١.

(٣) هو عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني، إمام الحرمين، شيخ الشافعية، توفي سنة (٤٧٨هـ). السير ١٨/٤٦٨.

(٤) هو محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي، الشافعي، صاحب الإحياء وغيره من التصانيف. توفي سنة (٥٠٥هـ). السير ١٩/٣٢٢.

(٥) ذكر قول الخليل البيهقي في الأسماء والصفات ٥٨/١ نقلاً عن الخطابي.

(٦) نقل كلام الخطابي البيهقي في الأسماء والصفات ٥٩/١.

رحمة ربهم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] الآية^(١).

ولمَّا كَتَبَ علي رضي الله عنه في صلح الحُدَيْبِيَّةِ بأمرِ النبي ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: أَمَّا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فما ندري ما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾! ولكن اكتب ما نعرف: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. الحديث^(٢). قال ابنُ العربي: إنما جهلوا الصِّفَةَ دُونَ الموصوف، واستدلَّ على ذلك بقوله^(٣): ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]؟ ولم يقولوا: ومنِ الرحمن؟ قال ابنُ الحَضَّار: وكأنَّه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وذهب الجمهورُ من الناس إلى أنَّ «الرحمن» مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَبْنِيٌّ عَلَى المبالغة، ومعناه: ذُو الرَّحْمَةِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فِيهَا، فَلِذَلِكَ لَا يُنْتَى، وَلَا يُجْمَعُ، كَمَا يُنْتَى «الرحيم»، وَيُجْمَعُ^(٤).

قال ابنُ الحَضَّار: ومما يَدُلُّ عَلَى الاشتقاق ما خَرَّجَهُ الترمذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا، وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا، قَطَعْتُهُ»^(٥). وهذا نصٌّ فِي الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكارُ العرب له لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ، وبِمَا وَجَبَ لَهُ^(٦).

الثالثة والعشرون: زَعَمَ المُبَرِّدُ - فيما ذكر ابنُ الأنباري في كتاب «الزاهر»^(٧) له -

(١) من كلام الخطابي، نقله عنه البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٣٨٢٧)، والبخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) من حديث المسور ومروان، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس.

(٣) في (م): بقولهم.

(٤) الأسماء والصفات ١/ ١٣٦.

(٥) سنن الترمذي (١٩٠٧)، وهو في مسند أحمد (١٦٨٦).

(٦) وقد ردَّ ابن جرير الطبري في تفسيره ١/ ١٣٠-١٣٢ على من قال: إن العرب كانت لا تعرف «الرحمن»، وأورد من أشعارهم ما يبيِّن أن هذه التسمية كانت معروفة عندهم، وأن إنكارهم هذا إنما هو جحود وتعت في كفرهم.

(٧) ١/ ٥٩، وقال فيه ابنُ الأنباري: سمعتُ أبا العباس... ويعني به شيخه ثعلب. فذهب وهم المصنف =

أَنَّ «الرحمن» اسمٌ عبرانيٌّ، فجاء معه بـ«الرحيم». وأنشد:

لن تَدْرِكُوا^(١) المَجْدَ أو تَشْرُوا عِبَاءَكُمْ بِالْحَزْ أو تَجْعَلُوا الْيَنْبُوتَ صَمْرَانَا
أو تَتْرَكُونَ إِلَى الْقَسِينِ هَجْرَتَكُمْ وَمَسَحَكُمْ صَلْبُهُمْ رَحِمَانٌ قُرْبَانَا^(٢)
قال أبو إسحاق الزجاجُ في «معاني القرآن»: وقال أحمد بن يحيى^(٣): «الرحيم»
عَرَبِيٌّ، و«الرحمن» عِبْرَانِيٌّ، فلهذا جمعٌ بينهما. وهذا القولُ مرغوبٌ عنه.

وقال أبو العباس: التَّعْتُ قد يَقَعُ للمدح، كما تقول: قال جريرُ الشاعرُ. وروى
مَطَرٌ^(٤)، عن قتادة في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: مَدَحَ
نَفْسَهُ^(٥). قال أبو إسحاق: وهذا قولٌ حَسَنٌ. وقال قُطْرُبٌ: يجوزُ أن يكونَ جمعٌ
بينهما للتوكيد^(٦). قال أبو إسحاق: وهذا قولٌ حَسَنٌ، وفي التوكيد أعظمُ الفائدة،
وهو كثيرٌ في كلام العرب، يستغني^(٧) عن الاستشهاد. والفائدةُ في ذلك ما قاله
محمد بن يزيد: إنه تَفْضُلٌ بعد تَفْضُلٍ، وإنعامٌ بعد إنعامٍ، وتَقْوِيَةٌ لِمَطَامِعِ الرَّاغِبِينَ،
ووعْدٌ لا يَخِيبُ آمَلُهُ^(٨).

الرابعة والعشرون: واختلفوا: هل هما بمعنى واحدٍ، أو بمعنيين؟ فقليل: هما

= إلى أنه أبو العباس المبرّد، فقال: زعم المبرّد... وقد صرّح به أبو القاسم الزّجاجي في اشتقاق
أسماء الله ص ٤٢ - ٤٣.

(١) في (د) (ز): لوتركوا، وفي (ظ): لن يتركوا، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الزاهر.
(٢) البتتان لجرير، من قصيدة يهجو بها الأخطل، وهما في ديوانه ١٦٧/١، ببعض اختلاف، وذكرهما
الزّجاجي في اشتقاق أسماء الله ص ٤٣، وذكر الثاني منهما الماوردي في تفسيره ٥٢/١. وقوله:
الْيَنْبُوتُ: هو شجر الخشخاش، وشجر آخر عظام، أو شجر الخروب. وقوله: صَمْرَان: هو نبت من
دَقِّ الشجر. القاموس (نبت) (ضمر).

(٣) هو أبو العباس ثعلب، ولم نجد قول الزجاج هذا في كتابه معاني القرآن. وهو عند النحاس كما
سنذكر.

(٤) هو ابنُ ظُهْمَانَ الْوَرَّاقِ، أبو رجاء الخراساني، نزيل البصرة، كان يكتب المصاحف ويتقن ذلك، توفي
سنة (١٢٩هـ). السير ٥/ ٤٥٢. وقد تحرف اسم «مطر» في (م) و (د) إلى: مطرّف.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٣/١ مطولاً، من طريق مطر الوراق عن قتادة، ونسبه لعبد بن حميد.

(٦) ذكره ابن الأنباري في الزاهر ١/ ٥٨.

(٧) في (م): ويستغني.

(٨) من قوله: وقال أحمد بن يحيى من معاني القرآن للنحاس ٥٥/ ٥٦، بتقديم وتأخير وليس للزجاج.

بمعنى واحد، كندمانٍ ونديم. قاله أبو عبيدة^(١). وقيل: ليس بناءً فعلان كفعيل، فإنَّ فعلان لا يَقَعُ إلا على مُبالغةِ الفعل، نحو قولك: رجلٌ غضبانٌ، للممتلئِ غَضَباً. وفعيل قد يكون بمعنى الفاعلِ والمفعول. قال عَمَلَسَ^(٢):

فأما إذا عَضَّتْ بك الحربُ عَضَّةً فإنَّكَ مَعْطُوفٌ عَلَيْكَ رَحِيمٌ
ف«الرحمن» خاصُّ الاسمِ، عامُّ الفعل. و«الرحيم» عامُّ الاسمِ، خاصُّ الفعل.
هذا قولُ الجُمهور^(٣).

قال أبو عليِّ الفارسيُّ: «الرحمن»: اسمٌ عامٌّ في جميع أنواع الرحمة، يختصُّ به الله. و«الرحيم»: إنما هو في جهة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقال العزمي^(٤): «الرحمن» بجميع خَلْقِهِ في الأمطار، ونعمِ الحواسِّ، والنعمِ العامَّة. «الرحيم» بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطفِ بهم^(٥).
وقال ابنُ المبارك: «الرحمن» إذا سُئِلَ أعطى. و«الرحيم» إذا لم يُسألْ غَضِبَ^(٦).

وروى ابنُ ماجه في «سننه»، والترمذيُّ في «جامعه»، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ، يَغْضَبْ عَلَيْهِ». لفظُ الترمذي. وقال ابنُ ماجه: «مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ سبحانه، غَضِبَ^(٧) عليه»^(٨). وقال: سألتُ أبا زُرعةَ عن أبي صالح هذا، فقال: هو الذي يقال له: الفارسيُّ، وهو خُوزي، ولا أعرفُ اسمَه. وقد أخذَ بعضُ الشعراء هذا المعنى، فقال:

(١) في مجاز القرآن ١ / ٢١. وانظر المصدر السابق للنحاس.

(٢) هو عَمَلَسَ بَنُ عَقِيل، والبيت في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤ / ٤، واللسان (رحم).

(٣) الأسماء والصفات ١ / ١٤١.

(٤) عبد الملك بن أبي سليمان، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الله، الكوفي، توفي سنة (١٤٥هـ). سير أعلام النبلاء ٦ / ١٠٩.

(٥) المحرر الوجيز ١ / ٦٣ - ٦٤.

(٦) ذكره الحافظ في فتح الباري ٨ / ١٥٥.

(٧) في (د): يغضب.

(٨) سنن ابن ماجه (٣٨٢٧)، وسنن الترمذي (٣٣٧٣)، وهو في مسند أحمد (٩٧٠١).

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهَ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ^(١)
وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر^(٢)، أي: أكثر
رحمةً.

قال الخطابي: وهذا مُشْكِلٌ، لأنَّ الرِّقَّةَ لا مَدْخَلَ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ
تعالى. وقال الحسين بن الفضل البجلي^(٣): هذا وَهْمٌ مِنَ الرَّايِ؛ لأنَّ الرِّقَّةَ لَيْسَتْ
مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُمَا اسْمَانِ رَفِيقَانِ، أَحَدُهُمَا أَرْفَقُ مِنَ الْآخَرِ،
وَالرَّفَقُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ، يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي
عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»^(٤).

الخامسة والعشرون: أكثر العلماء على أنَّ «الرحمن» مختصُّ بالله عزَّ وجلَّ، لا
يجوزُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ. أَلَا تَرَاهُ قَالَ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]،
فَعَادَلَ بِهِ الْإِسْمَ الَّذِي لَا يَشْرُكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ؟^(٥). وَقَالَ: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، فَأَخْبَرَ أَنَّ «الرحمن» هُوَ
الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ جَلًّا وَعَزًّا. وَقَدْ تَجَاسَرَ مُسَيِّلِمَةُ الْكَذَّابِ - لَعْنَهُ اللَّهُ - فَتَسَمَّى بِرَحْمَانِ
الْيِمَامَةِ^(٦)، وَلَمْ يَتَّسَمَّ بِهِ حَتَّى قَرَعَ مَسَامِعَهُ^(٧) نَعْتُ «الْكَذَّابِ»^(٨)، فَأَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى نَعْتَ
«الْكَذَّابِ» لَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ كَافِرٍ كَاذِبًا، فَقَدْ صَارَ هَذَا الْوَصْفُ لِمُسَيِّلِمَةِ عِلْمًا
يُعْرَفُ بِهِ، أَلْزَمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ.

وقد قيل في اسمه «الرحمن»: إنه اسمُ الله الأعظم. ذكره ابن العربي.

(١) لم نقف عليه، وذكره المناوي في فيض القدير ٤ / ٤٩٨.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ١ / ١٣٩ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس،
قوله. وذكر الحافظ في الفتح ١٣ / ٣٥٩ أن هذا الحديث لا يثبت، لأنه من رواية الكلبي، وهو متروك
الحديث.

(٣) اللغوي أبو علي البجلي، الكوفي. توفي سنة (٢٨٢هـ). سير أعلام النبلاء ١٣ / ٤١٤.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة. وما نقله المصنف من كلام الخطابي هو في الأسماء
والصفات ١ / ١٤٠.

(٥) الصحاح (رحم).

(٦) سلف ص ١٤٩.

(٧-٧) ليس في النسخ وهو من (م).

السادسة والعشرون: «الرحيم» صِفَةٌ مطلقَةٌ للمخلوقين . ولما في «الرحمن» من العموم، قُدِّمَ في كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل . قاله المَهْدَوِيُّ .
وقيل: إِنَّ معنى «الرحيم»: أي: بالرحيم وَصَلْتُمْ إِلَى اللَّهِ ، وإلى الرحمن، فـ«الرحيم» نَعَتْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وقد نَعَتَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، فقال: ﴿رَبُّوْكَ رَحِيْمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكأنَّ المعنى أن يقولَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ وَالْإِلَهِ الرَّحِيمِ . أي: وبمحمد ﷺ وَصَلْتُمْ إِلَيَّ، أي: بِاتِّبَاعِهِ، وبما جاء به، وَصَلْتُمْ إِلَى ثَوَابِي وَكَرَامَتِي، وَالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

السابعة والعشرون: رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: إِنَّهُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَعَوْنٌ عَلَى كُلِّ دَوَاءٍ . وَأَمَّا «الرَّحْمَنُ» فَهُوَ عَوْنٌ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ . وَأَمَّا «الرَّحِيمُ» فَهُوَ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا^(١) .

وقد فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْحُرُوفِ، فَرُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ تَفْسِيرِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فَقَالَ: «أَمَّا الْبَاءُ، فَبِلَاءُ اللَّهِ وَرَوْحُهُ وَنُضْرَتُهُ وَبِهَآؤُهُ، وَأَمَّا السِّينُ، فَسِنَاءُ اللَّهِ، وَأَمَّا الْمِيمُ، فَمَمْلُكُ اللَّهِ، وَأَمَّا اللَّهُ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَمَّا الرَّحْمَنُ، فَالْعَاطِفُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَمَّا الرَّحِيمُ، فَالرَّفِيقُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً»^(٢) .

وَرُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ^(٣) أَنَّهُ قَالَ: الْبَاءُ بِهَآؤُهُ، وَالسِّينُ سِنَاؤُهُ، فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَالْمِيمُ مَمْلُكُهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَلَا شَيْءَ يُعَارِضُهُ^(٤) .

وقد قيل: إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ هُوَ افْتِتَاحُ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، فَالْبَاءُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ بِصِيرٍ، وَالسِّينُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ سَمِيعٍ، وَالْمِيمُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ مَلِكٍ، وَالْأَلِفُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ اللَّهُ، وَاللَّامُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ لَطِيفٍ، وَالْهَاءُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ هَادِيٍّ، وَالرَّاءُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ رَازِقٍ،

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ١ / ٧٧ .

(٢) لا أصل له .

(٣) هو كعب بن مانع، أبو إسحاق الحميري اليماني، الحبر، كان يهوديًا، فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وكان يحدث عن الكتب الإسرائيلية، توفي في أواخر خلافة عثمان . السير ٣ / ٤٨٩ .

(٤) في (ظ): يعارضه، والخبر من الإسرائيليات .

والحاء مِفْتَاحُ اسمه حلِيم، والنونُ مِفْتَاحُ اسمه نور. ومعنى هذا كَلَّهُ دعاءُ الله تعالى عند افتتاح كلِّ شيء^(١).

الثامنة والعشرون: واخْتَلَفَ في وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله»، فرُوي عن أمِّ سَلَمَةَ، عن النبي ﷺ: «الرحيمُ الحمد» يسْكُنُ الميم، وَيَقِفُ عليها، وَيَبْتَدِئُ بِألفٍ مقطوعة. وقرأ به قومٌ من الكوفيين.

وقرأ جمهورُ الناس: «الرحيمُ الحمد» تُعَرَّبُ «الرحيم» بِالْحَفْضِ، وبوصلِ الألف من «الحمد».

وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تُقرأ: «الرحيمُ الحمد» بفتح الميم، وصِلَةُ الألف، كأنه سُكِّنَتِ الميمُ، وَقُطِعَتِ الألفُ، ثم أُلْقِيَتْ حركتها على الميم، وحُذِفَتْ.

قال ابنُ عطية^(٢): ولم تُرَوْ هذه قراءةٌ عن أحدٍ فيما عَلِمْتُ. وهذا نَظَرُ يحيى بن زياد في قوله تعالى: ﴿الْمَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١ - ٢]^(٣).

(١) ليس في هذه الأقوال ما يصح.

(٢) المحرر الوجيز ١ / ٦٤.

(٣) معاني القرآن للفراء (وهو يحيى بن زياد) ١ / ٩.

تفسير سورة الفاتحة

بحول الله وكرمه

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأول

في فضلها^(١) وأسمائها

وفيه سبع مسائل :

الأولى: رَوَى الترمذيُّ عن أبيِّ بن كَعْبٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أنزَلَ الله في التوراة ولا في الإنجيلِ مثْلَ أمِّ القرآن، وهي السَّبْعُ المَثاني، وهي مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وبينَ عبدي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ»^(٢).

أخرجه^(٣) مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، أن أبا سعيد مولى عامر بن كُرَيْزٍ أخبره أن رسولَ الله ﷺ نادى أبايَ بْنَ كَعْبٍ وهو يُصَلِّي. فذكر الحديث^(٤).

قال ابنُ عبد البرّ: أبو سعيد لا يُوقَفُ له على اسم، وهو معدودٌ في أهل المدينة، روايته عن أبي هريرة، وحديثه هذا مُرسلٌ^(٥).

وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن أبي سعيد بنِ المُعلّى - رجلٍ من الصحابة - لا يُوقَفُ

(١) في (م): فضائلها .

(٢) سنن الترمذي (٣١٢٥)، ورَجَّحَ بإثْرِهِ أن يكون من حديث أبي هريرة، وسيدكره المصنف قريباً .

(٣) في (م): وأخرج .

(٤) الموطأ ١ / ٨٣. وقصة أبيي في هذا الحديث هي بنحو قصة الصحابي أبي سعيد بن المُعلّى الآتي ذكرها .

(٥) وقال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الفاتحة: هذا ظاهره منقطع إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه، فهو على شرط مسلم .

على اسمه أيضاً، روى^(١) عنه حفص بن عاصم، وعُبَيْدُ بْنُ حُنَيْنٍ^(٢).

قلت: كذا قال في «التمهيد»: لا يُوقَفُ له على اسم. وذكر في كتاب «الصحابة»^(٣) الاختلاف في اسمه.

والحديثُ خَرَّجَهُ البخاريُّ عن أبي سعيد بن المُعلَى، قال: كنتُ أصلي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ، فلم أجبه، فقلتُ: يا رسول الله، إني كنتُ أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿أَسْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟» [الأنفال: ٢٤]. ثم قال لي^(٤): «لأعلمنك سورةً هي أعظمُ السُّورِ في القرآنِ قبلَ أن تخرجَ من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلتُ له: ألم تقل: لأعلمنك سورةً هي أعظمُ سورة في القرآن؟ قال: «الحمدُ لله ربَّ العالمين، هي السَّبْعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتِيَتْهُ»^(٥).

قال ابنُ عبد البر^(٦) وغيره: أبو سعيد بن المُعلَى من جِلَّةِ الأنصار، وسادات الأنصار، تفرَّد به البخاريُّ^(٧)، واسمُه رافع، ويقال: الحارث بن نُفيع بن المُعلَى^(٨)،

(١) في النسخ الخطية (م): رواه، والمثبت من التمهيد ٢٠ / ٢١٧.

(٢) تحرف «عُبَيْد بن حنين» في النسخ الخطية إلى: «سعيد بن جبير». وتحرف كذلك في التمهيد ٢٠ / ٢١٧، وقد نقل عنه المصنف، وجاء على الصواب في الاستيعاب ١١ / ٢٧٩ (بهامش الإصابة). حفص بن عاصم - وهو ابنُ عمر بن الخطاب - روى عن أبي سعيد بن المُعلَى الحديث في فضل الفاتحة، وقد أشار إليه المصنف، أما عُبَيْد بن حُنَيْنٍ، فقد روى عنه حديثٌ تحوِيلُ القِبلَةَ. ذكر ذلك ابنُ عبد البر في الاستيعاب.

(٣) يعني كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١١ / ٢٧٩ بهامش الإصابة.

(٤) في النسخ الخطية (م): إني، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٤٤٧٤) وهو من أفراده، وهو في مسند أحمد (١٥٧٣٠). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨ / ١٥٧: وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب وأبي سعيد بن المُعلَى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين واختلاف سياقهما.

(٦) في الاستيعاب في ترجمة أبي سعيد بن المُعلَى.

(٧) يعني دون مسلم، وليس لأبي سعيد بن المُعلَى في صحيح البخاري سوى هذا الحديث.

(٨) سماه ابن حبان في الثقات ٣ / ١٢٢ وصحيحه ٣ / ٥٧ (الإحسان): رافع بن المُعلَى. قال ابن عبد البر في الاستيعاب: ومن قال: هو رافع بن المُعلَى فقد أخطأ، لأنَّ رافع بن المُعلَى قُتل ببدر، وأصح ما قيل - والله أعلم - في اسمه: الحارث بن نُفيع بن المُعلَى.

ويقال: أَوْسُ بْنُ الْمُعَلَّى، ويقال: أَبُو سَعِيدِ بْنِ أَوْسٍ [بْنِ الْمُعَلَّى] ^(١)، تُوِّفِيَ سَنَةُ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وَسَتِينَ ^(٢). وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَةِ حِينَ حُوِّلَتْ. وَسَيَّأَتِي ^(٣).

وَقَدْ أَسْنَدَ حَدِيثَ أَبِي يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الْقَاسِمِ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِيٍّ وَهُوَ يَصْلِي. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِمَعْنَاهُ ^(٤).

وَذَكَرَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي كِتَابِ «الرَّدِّ» لَهُ: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ الْوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ رَنَّا أَرْبَعَ رَنَاتٍ: حِينَ لُعِنَ، وَحِينَ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَحِينَ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَحِينَ نَزَلَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَأُنْزِلَتْ بِالْمَدِينَةِ ^(٥).

الثانية: اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل

(١) ما بين حاصرتين من (م) والاستيعاب .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (في ترجمته): وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبي ﷺ وهو صغير، وسَيَّأَتِي الحديث يأبى ذلك . اهـ. وجاء في تهذيب التهذيب عن ابن عبد البر أيضاً أنه توفي سنة أربع وسبعين، وهو ابن أربع وثمانين سنة .

(٣) في تفسير الآية (١٤٢) من سورة البقرة .

(٤) أخرجه من هذه الطريق النسائي في الكبرى (١١١٤١)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٩٣٤٥) وغيره من وجه آخر عن العلاء . وينظر ما ذكره الحافظ في فتح الباري ١٥٧/٨ من الاختلاف فيه على العلاء .

(٥) إسناده صحيح إلى مجاهد . أبو عُبَيْدِ اللَّهِ الْوَرَّاقُ: هو حَمَّادُ بْنُ الْحَسَنِ، وأبو داود: هو سليمان بن داود الطيالسي، وشَيْبَانُ: هو ابنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّمِيمِيِّ النُّحَوِيِّ، ومنصور: هو ابنُ الْمُعْتَمِرِ . وكلهم ثقات، وهم من رجال التهذيب .

وأورده السيوطي في الدر المنثور ٥/١، وزاد نسبه إلى وكيع . وسيد ذكر المصنف ص ١٧٧ أن الأصح فيها أنها مكية . ونقل الفخر الرازي في تفسيره ١٧٧/١ عن الحسين بن الفضل البجلي قوله: لكل عالم هفوة، وهذه هفوة مجاهد، لأن العلماء على خلافه . ويدل عليه وجهان: الأول: أن سورة الحجر مكية بالاتفاق، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَآئِكَ سَيِّئًا يَنْ آَلَمَانِي﴾ وهي فاتحة الكتاب . الثاني: أنه يبعد أن يقال: إنه أقام بمكة بضع عشرة سنة بلا فاتحة الكتاب .

بعض أسماء الله تعالى الحُسنى على بعض، فقال قوم: لا فضلَ لبعض على بعض، لأنَّ الكلامَ كلامُ الله، وكذلك أسماؤه؛ لا مُفاضلةَ بينها. ذهب إلى هذا الشيخُ أبو الحسن الأشعري^(١) والقاضي أبو بكر بن الطيّب، وأبو حاتم محمد بن حَبَّان البُسْتِي، وجماعةٌ من الفقهاء. وروى معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى^(٢): تفضيلُ بعضِ القرآنِ على بعضِ خطأ. وكذلك كَرِهَ مالكٌ أن تُعادَ سورةٌ، أو تُردَّدَ دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: ﴿ثَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ قال: مُحْكَمَةٌ مكان منسوخة. وروى ابنُ كِنانة^(٣) مِثْلَ ذلك كُلِّهِ عن مالك. واحتجَّ هؤلاء بأن قالوا: إنَّ الأفضَلَ يُشعرُ بنقصِ المفضل، والذاتيةُ في الكلِّ واحدة، وهي كلامُ الله، وكلامُ الله تعالى لا نَقَصَ فيه.

قال البُسْتِي^(٤): ومعنى هذه اللفظة: «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثلُ أمِّ القرآن»: أنَّ الله تعالى لا يُعطي لِقارئِ التوراة والإنجيل مِثْلَ ما يُعطي لِقارئِ أمِّ القرآن، إذ الله بِفَضْلِهِ فَضَّلَ هذه الأمةَ على غيرها من الأمم، وأعطاهَا من الفضلِ على

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق، إمام المتكلمين، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري. قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٨٦/١٥: كان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يردُّ عليهم... مات سنة أربع وعشرين وثلاث مئة، حظَّ عليه جماعة من الحنابلة والعلماء، وكلُّ أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا من عصم الله. ونقل الذهبي عنه قوله لما قُرِبَ حضور أجله: إني لا أكفر أحداً من أهل القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات. فقال الذهبي: وينحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابنُ تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفر أحداً من الأمة، ويقول: قال النبي ﷺ: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم.

(٢) يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس، فقيه الأندلس، أبو محمد اللبنيُّ البربريُّ القرطبيُّ، ارتحل إلى المشرق في أواخر أيام الإمام مالك، وسمع منه الموطأ، ثم رجع إلى الأندلس يعلم كثير، فعادت فتيا الأندلس عليه، وانتهى السلطان والعامَّة إلى رأيه. توفي سنة (٢٣٤هـ). السير ١٠/ ٥١٩.

(٣) أبو عمر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن كنانة اللخمي القرطبي، المحدث، ويعرف أيضاً بابن العنَّان. توفي سنة (٣٨٣هـ). السير ١٦/ ٤٢٥.

(٤) هو ابن حبان، وكلامه هذا في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، عقب الحديث (٧٧٥).

قراءة القرآن كلامه أكثر^(١) مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه^(٢) الأمة.

قال: ومعنى قوله: «أعظم سورة»: أراد به: في الأجر، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض^(٣).

وقال قوم بالترتيب، وأن ما تضمنته قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ﴾، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص، من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجوداً مثلاً في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وما كان مثلها.

والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق. وممن قال بالتفضيل إسحاق بن راهويه، وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضي أبي بكر ابن العربي، وابن الحصار، لحديث أبي سعيد بن المَعْلَى، وحديث أبي بن كعب أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أباي، أي آية معك في كتاب الله أعظم؟» قال: قلت: يا رسول الله، الله ورسوله أعلم، فقال: «يا أباي، أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم^(٤)؟» قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أبا المُنْذِرِ». أخرجه البخاري ومسلم^(٥). قال ابن الحصار: عَجَبِي ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص.

وقال ابن العربي: قوله: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن

(١) في (د): أفضل.

(٢) في (ز): على هذه.

(٣) الإحسان عقب الحديث (٧٧٧).

(٤) قوله: قال: قلت: يا رسول الله، الله ورسوله أعلم... إلى هذا الموضع، من (ظ).

(٥) حديث أبي أخرجه مسلم (٨١٠)، وليس هو في صحيح البخاري. قال أبو العباس القرطبي (شيخ المصنف) في المفهم: ٤٣٦/٢: قوله لأبي حين أخبره بذلك: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ»؛ تشييط له، وترغيب في أن يزداد علماً وبصيرة، وفرح بما ظهر عليه من آثاره المباركة، وفيه إلقاء العالم المسائل على المتعلم ليختبره بذلك.

مثلها» وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها؛ لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل، كقولك: زيد أفضل العلماء، فهو أفضل الناس.

وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل: إن جميع القرآن فيها، وهي خمس وعشرون كلمة، تضمنت جميع علوم القرآن.

ومن شرفها أن الله سبحانه قسّمها بينه وبين عبده^(١)، ولا تصح القرّة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن^(٢)، إذ القرآن توحيد وأحكام، ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد كله. وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبي: «أي آية في القرآن أعظم؟» قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وإنما كانت أعظم آية، لأنها توحيد كلّها، كما صار قوله: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٣) أفضل الذكر، لأنها كلمات^(٤) حوت جميع العلوم في التوحيد. والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى.

الثالثة: روي عن علي^(٥) بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي» وسلف ص ١٤٥.

(٢) حديث: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»: جاء من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١٠٥٣)، والبخاري (٥٠١٣)، ومن حديث أبي الدرداء عند مسلم (٨١١)، ومن حديث أبي هريرة عنده أيضاً (٨١٢).

(٣) أخرجه مالك ١/ ٢١٤. ٢١٥ عن زياد بن أبي زياد، عن طلحة بن عبيد الله بن غريز مرسلًا، وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من طريق محمد بن أبي حميد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وقال: غريب من هذا الوجه، ومحمد بن أبي حميد ليس بالقوي عند أهل الحديث. وأخرج الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٩٩)، والحاكم ١/ ٥٠٣ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وصححه ابن حبان (٨٤٦).

(٤) في (ظ): كلمة.

(٥) في (م): روى علي.

«فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، وشهد الله أنه لا إله إلا هو، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ»^(١)؛ هذه الآيات مُعَلِّقَاتٌ بِالْعَرْشِ، ليس بينهما وبين الله حجابٌ^(٢). أسنده أبو عمرو الدَّانِي في كتاب «البيان» له.

الرابعة: في أسمائها، وهي اثنا عشر اسماً:

الأول: الصلاة، قال الله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ» الحديث. وقد تقدّم^(٣).

الثاني: الحمد؛ لأنَّ فيها ذَكَرَ الحمد، كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

الثالث: فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسُمِّيَتْ بذلك لأنه تُفْتَحُ قراءة القرآن بها لفظاً، وتُفْتَحُ بها الكتابة في المصحف خطأ، وتُفْتَحُ بها الصلوات.

الرابع: أم الكتاب، وفي هذا الاسم خلافٌ، جوَّزه الجمهور، وكرَّهه أنس، والحسن، وابن سيرين. قال الحسن: أم الكتاب: الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ تُخَبِّرُنَا هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأَنْفَرُ مُشْكِيهِنَّ﴾ [آل عمران: ٧]. وقال أنس وابن سيرين: أم الكتاب: اسم اللوح المحفوظ، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْتُمْ فِي أَرْ الْكِتَابِ﴾ [الزخرف: ٤].

الخامس: أم القرآن، واختُلف فيه أيضاً، جوَّزه الجمهور، وكرَّهه أنس، وابن سيرين. والأحاديث الثابتة تردُّ هذين القولين. روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني». قال: هذا حديث حسن صحيح^(٤). وفي البخاري قال: وسُمِّيَتْ أم الكتاب؛ لأنه يُبْتَدَأُ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة^(٥). وقال

(١) الآيات المذكورة هي على الترتيب في سورة البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ١٨ و ٢٦.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٥)، وفي إسناده الحارث بن عمير؛ قال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٢٣: كان ممن يروي عن الأثبات الأشياء الموضوعات. وساق له هذا الحديث، وقال: موضوع لا أصل له.

(٣) ص ١٤٥، وأشار إليه المصنف في المسألة الثانية.

(٤) سنن الترمذي (٣١٢٤)

(٥) صحيح البخاري، أول كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب. فتح الباري ٨/ ١٥٥.

يحيى بن يَغَمَر^(١): أم القرى: مكة، وأم خراسان: مَرَوْ، وأم القرآن سورة الحمد. وقيل: سُمِّيَتْ أم القرآن لأنها أوَّلُهُ، ومتضمِّنة لجميع علومه، ومنه سُمِّيَتْ مكة أم القرى؛ لأنها أوَّل الأرض، ومنها دُجِيَتْ، ومنه سُمِّيَتْ الأمُّ أمَّا لأنها أصلُ النَّسْلِ، والأرضُ أمَّا في قول أمية بن أبي الصَّلْت:

فالأرضُ مَعْقِلُنَا وكانت أمَّنَا فيها مقابرُنَا وفيها نُولَدُ^(٢)
ويقال لراية الحرب: أم، لِتَقْدُمَهَا، واتباع الجيش لها.

وأصل أم: أمَّهَة، ولذلك يُجمع على أمَّهَات^(٣)، قال الله تعالى: ﴿رَأَيْتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ويقال: أمَّاتٌ، بغير هاء. قال:

فَرَجَّتِ الظَّلَامَ بِأُمَّاتِكَ^(٤)

وقيل: إِنَّ أمَّهَات في الناس، وأمَّات في البهائم. حكاه ابنُ فارس في «المُجمل»^(٥).

السادس: المَثَانِي، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تُثَنَّى في كلِّ ركعة، وقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها اسْتُثْنِيَتْ لهذه الأمة، فلم تنزل على أحد قبلها دُخْرًا لها.

السابع: القرآنُ العظيم، سُمِّيَتْ بذلك لتضمُّنها جميعَ علوم القرآن، وذلك أنها تشتملُ على الثَّناء على الله عزَّ وجلَّ^(٦) بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات، والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانتة

(١) هو الفقيه المقرئ أبو سليمان العَدَنَانِي البَصْرِي، قاضي مرو، ويكنى أبا عدي، الفقيه المقرئ، توفي قبل التسعين. سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٤١.

(٢) البيت في ديوانه ص ٣٥٦ القصيدة العاشرة.

(٣) الصحاح (أم).

(٤) عجز بيت، صدره: إذا الأمَّهَاتُ قَبَّحْنَ الوجوه؛ أورده الزمخشري في المفصل ٣ / ١٠ شرح ابن يعيش، والاسترأبادي في شرح الشافية ٣٨٣ / ٢، وابن منظور في اللسان (أم)، والشنقيطي في الدرر اللوامع ٨٤ / ١.

(٥) ٨١ / ١. وابن فارس: هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني، المالكي، اللغوي المحدث، توفي سنة (٣٩٥هـ). السير ١٧ / ١٠٣.

(٦) في (د): تشتمل الثناء على الله عز وجل.

تعالى، وعلى الابتغال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيان عاقبة الجاحدين.

الثامن: الشفاء، روى الدارمي^(١) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سُم»^(٢).

التاسع: الرقية؛ ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه أن رسول الله ﷺ قال للرجل الذي رقى سيّد الحي: «ما أذراك أنها رقية؟» فقال: يا رسول الله، شيء ألقى في روعي. الحديث خرّجه الأئمة^(٣)، وسيأتي بتمامه^(٤).

العاشر: الأساس، شكّا رجل إلى الشعبي وجّع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن؛ فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة؛ لأنها منها دحيث، وأساس السماوات غريب، وهي السماء السابعة، وأساس الأرض عجيب^(٥)، وهي الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان جنة عدن، وهي سرّة الجنان، عليها أُسست الجنة، وأساس النار جهنم، وهي الدركة السابعة السفلى، عليها أُسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا اعتلكت، أو اشتكيت، فعليك بالفاتحة تُشفى^(٦).

(١) في (د): الدارقطني، وليس الخبر في سننه.

(٢) أخرجه الدارمي (٣٣٧٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٧٠) من طريق سفيان الثوري، عن عبد الملك بن عمير، مرسلًا. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٧٨) (التفسير) - ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٢٣٦٨) - عن سلام الطويل، عن زيد العمي، عن ابن سيرين، عن أبي سعيد الخدري. وسلام الطويل - وهو ابن سليم - متروك. وليس هذا الحديث في سنن الدارمي من حديث أبي سعيد الخدري كما ذكر المؤلف.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٩٨٥)، والبخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

(٤) عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الإسراء.

(٥) في النسخ: غريباً... عجيباً.

(٦) أورد صدره السيوطي في الدر المنثور ٣/١، ونسبه للثعلبي. وقد ذكر ابن كثير في البداية ٤٠/١٢ أن في كتب الثعلبي من الغرائب الشيء الكثير.

الحادي عشر: الوافية. قاله سفيان بن عيينة^(١)؛ لأنها لا تَنْصَفُ، ولا تَحْتَمِلُ الاختزالَ، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة، لأجزاء، ولو نُصِفَت الفاتحة في ركعتين لم يُجْزَ.

الثاني عشر: الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها^(٢)، يدلُّ عليه ما روى محمد بن خلاد الإسكندراني قال: قال النبي ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ عَوْضٌ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَيْسَ غَيْرُهَا مِنْهَا عَوْضًا»^(٣).

الخامسة: قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقيل: السورة كلها رُقِيَّة، لقوله عليه الصلاة والسلام للرجل لما أخبره: «وما أدراك أنها رُقِيَّة»^(٤)؟ ولم يقل: إن فيها رُقِيَّة. وعلى هذا فالسورة^(٥) بأجمعها رُقِيَّة؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدَّم. والله أعلم.

السادسة: ليس في تسميتها بالمثاني وأُمُّ الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل: ﴿كَتَبْنَا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فأطلق على كتابه: مَثَانِي؛ لأن الأخبار تُثَنَّى فيه. وقد سُمِّيَت السبعُ الطوال أيضاً مَثَانِي؛ لأن الفرائض والقصاص تُثَنَّى فيها. قال ابن عباس: أُوتِيَ رسولُ الله ﷺ سَبْعاً من المَثَانِي، قال: السبع الطوال. ذكره النَّسَائِي^(٦)، وهي من البقرة إلى الأعراف ستًّا، واختلفوا في السابعة، فقيل:

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/١، ونسبه للثعلبي.

(٢) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/١ أنه أخرجه الثعلبي، عن عفيف بن سالم قال: سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير. وذكره من قوله، لا من قول أبيه يحيى.

(٣) الحديث من رواية محمد بن خلاد الإسكندراني، عن أشهب بن عبد العزيز، عن سفيان بن عيينة، عن ابن شهاب، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت، مرفوعاً. وهو عند الدارقطني في السنن ٣٢٢/١، والحاكم ١/ ٢٣٨. ومحمد بن خلاد مجهول، قال الذهبي في الميزان: لا يُدرى من هو، ثم ذكر له هذا الحديث، وقال: انفرد بهذا الخبر، ونقل عن الدارقطني قوله: المحفوظ عن الزهري بهذا السند: «لا تجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بأُمِّ الْقُرْآن».

(٤) في (د): عوضاً منها.

(٥) سلف تخريجه في الصفحة السابقة، وسيأتي بتمامه عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الإسراء.

(٦) في (م): قدلُّ هذا على أن السورة.

(٧) المجتبى ١٣٩/٢ - ١٤٠، والكبرى (٩٨٩) و(٩٩٠).

يونس، وقيل: الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. وقال أعشى همدان^(١):

فَلِجُوا الْمَسْجِدَ وَادْعُوا رَبَّكُمْ واذرُوسوا هَٰذَا الْمَثَانِي وَالطُّولَ
وسياتي لهذا مزيد بيان في سورة الحجر^(٢)، إن شاء الله تعالى.

السابعة: المثنائي جمع مثنى، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول. وقد سُميت الأنفال من المثنائي؛ لأنها تتلو الطول في القدر، وقيل: هي التي تزيد آياتها على المفصل، وتنقص عن المئين. والمئون: هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مئة آية.

الباب الثاني

في نزولها وأحكامها

وفيه عشرون مسألة:

الأولى: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روي عن حسين الجعفي^(٣) أنها ست، وهذا شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد^(٤) أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على هذا ثمان آيات، وهذا شاذ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، وقوله: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ الْحَدِيثَ»^(٥) يرد هذين القولين. وأجمعت الأمة أيضاً على أنها من القرآن، فإن قيل: لو كانت قرآناً، لأثبتها عبد الله بن مسعود في مصحفه، ولما لم يُثبتها، دلّ على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده.

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، أبو المصباح، كوفي، من شعراء الدولة الأموية، خرج مع ابن الأشعث، فقتله الحجاج سنة نيف وثمانين. السير ٤ / ١٨٥.

(٢) عند تفسير الآية (٨٧) منها.

(٣) هو حسين بن علي بن الوليد، أبو عبد الله وأبو محمد الجعفي مولا هم، الكوفي، الحافظ المقرئ الزاهد، توفي سنة (٢٠٣هـ). السير ٩ / ٣٩٧.

(٤) أبي عثمان البصري، كبير المعتزلة، قال ابن المبارك: دعا إلى القدر فتركوه. توفي سنة (١٤٣هـ). السير ٦ / ١٠٤.

(٥) سلف ذكره ص ١٤٥.

الجواب ما ذكره الإمام أبو بكر الأنباري قال: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْأَشْعَثِ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي قُدَامَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، قَالَ: أَظُنُّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: قِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: لِمَ لَمْ تَكْتُبْ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ فِي مَصْحَفِكَ؟ قَالَ: لَوْ كَتَبْتُهَا؛ لَكَتَبْتُهَا مَعَ كُلِّ سُورَةٍ^(١). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَعْنِي أَنْ كُلَّ رَكْعَةٍ سَبِيلُهَا أَنْ تُفْتَحَ بِأَمِّ الْقُرْآنِ قَبْلَ السُّورَةِ الْمَتْلُوءَةِ بَعْدَهَا، فَقَالَ: اخْتَصَرْتُ بِإِسْقَاطِهَا، وَوُثِّقَتْ بِحُفْظِ الْمُسْلِمِينَ لَهَا، وَلَمْ أُثَبِّتْهَا فِي مَوْضِعٍ، فَيَلْزَمُنِي أَنْ أَكْتُبَهَا مَعَ كُلِّ سُورَةٍ، إِذْ كَانَتْ تَتَقَدَّمُهَا فِي الصَّلَاةِ.

الثانية: اختلفوا؛ هل هي^(٢) مكية أم مدنية؟ فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية الرِّياحي واسمه رُفَيْع - وغيرهم: هي مكية. وقال أبو هريرة، ومجاهد، وعطاء بن يسار، والزُّهري، وغيرهم: هي مدنية. ويقال: نَزَلَ نَصْفُهَا بِمَكَّةَ، وَنَصْفُهَا بِالْمَدِينَةِ. حَكَاهُ أَبُو الْلَيْثِ نَصْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ إِبْرَاهِيمَ السَّمَرْقَنْدِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ». وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، وَالْحَجَرُ مَكِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ. وَلَا خِلَافَ أَنْ فَرَضَ الصَّلَاةَ كَانَ بِمَكَّةَ، وَمَا حُفِظَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَطُّ صَلَاةً بِغَيْرِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٣). وَهَذَا خَبَرٌ عَنِ الْحَكَمِ، لَا عَنِ الْإِبْتِدَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد ذكر القاضي ابن الطيب اختلاف الناس في أوَّل ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقِيلَ: الْمَدَنِيُّ، وَقِيلَ: إِقْرَأْ، وَقِيلَ: الْفَاتِحَةُ.

وذكر البيهقي^(٤) في «دلائل النبوة»: عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ عَمْرِو بْنِ شَرْحَبِيلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَخَدِيجَةَ: «إِنِّي إِذَا خَلَوْتُ وَحْدِي، سَمِعْتُ نَدَاءً، وَقَدْ - وَاللَّهِ - خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَمْرًا». قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ، مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْعَلَ بِكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ

(١) أورد السيوطي نحوه في الدر المنثور ٢/١، ونسبه إلى عبد بن حميد.

(٢) في (م): أهي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت، وينظر حديث أبي هريرة في مسند أحمد (٩٥٢٩) و(٩٨٩٨)، وحديث أبي سعيد الخدري فيه أيضا (١٠٩٩٨).

(٤) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي صاحب السنن وغيرها من التصانيف النافعة، جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث. توفي (٤٥٨هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٦٣.

لَتُوَدِّي الأمانة، وَتَصِلُ الرَّحِم، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ. فلما دخل أبو بكر، وليس رسول الله ﷺ، ذكرت خديجة حديثه له، قالت: يا عتيق، إذهب مع محمد إلى وَرَقَةَ^(١) فلما دخل رسول الله ﷺ، أخذ أبو بكر بيده، فقال: إنطلق بنا إلى وَرَقَةَ، فقال: ومن أخبرك؟! قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصا عليه، فقال: «إِذَا خَلَوْتُ وحدي، سمعتُ نداء خلفي: يا محمد، يا محمد، فأنتلق هارباً في الأرض». فقال: لا تفعل، إذا أتاك، فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم انيني فأخبرني. فلما خلا، ناداه: يا محمد، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: قل: لا إله إلا الله. فأتى ورقة، فذكر ذلك له، فقال له ورقة: أبشِر، ثم أبشِر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به عيسى ابنُ مريم، وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبيُّ مُرْسَل، وأنت سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يُدرِكني يومك^(٢) ذلك، لأجاهد معك. فلما تُوفي وَرَقَةَ، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُ القسَّ في الجنة، عليه ثيابُ الحرير، لأنه آمنَ بي وصدقني». يعني ورقة.

قال البيهقي رضي الله عنه: هذا منقطع. يعني هذا الحديث. فإن كان محفوظاً، فيحتمل أن يكونَ خبراً عن نزولها بعد ما نزل عليه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿بَنَاتِهَا الْمَذْمُومَةُ﴾^(٣) ..

الثالثة: قال ابنُ عطية: ظنَّ بعضُ العلماء أن جبريلَ عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد، لما رواه مسلمٌ عن ابنِ عباس قال: بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبي ﷺ، سَمِعَ نَقِيضاً من فوقه، فرفعَ رأسه، فقال: «هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليوم، لم يُفْتَحْ قَطُّ، إلا اليوم، فنزلَ منه ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نَزَلَ إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسَلَّمَ وقال: أبشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا، لم يُؤْتَهُمَا نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لَن تَقْرَأَ بحرفٍ منهما، إلا أُعْطِيَتْهُ»^(٤).

(١) ابن نوفل، ابن عم خديجة رضي الله عنها، كان في الجاهلية نصرانياً، ومات مسلماً قبل أن يدعو رسول الله ﷺ الناس. الإصابة ١٠ / ٣٠٤.

(٢) لفظ «يومك» من (ظ)، وفي (د) و(ز): ولئن أدركني.

(٣) دلائل النبوة ١٥٨/٢، وقد بين البيهقي علته.

(٤) صحيح مسلم (٨٠٦).

قال ابن عطية^(١): وليس كما ظنَّ، فإنَّ هذا الحديث يدلُّ على أنَّ جبريلَ عليه السلام تقدَّم الملك إلى النبي ﷺ معلِّماً به، وبما ينزلُ معه، وعلى هذا يكونُ جبريلُ شارك في نزولها. والله أعلم.

قلت: الظاهرُ من الحديث يدلُّ على أنَّ جبريلَ عليه السلام لم يُعلِّم النبي ﷺ بشيء من ذلك. وقد بيَّنا أنَّ نزولها كان بمكَّة، نزلَ بها جبريلُ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وهذا يقتضي جميعَ القرآن، فيكون جبريلُ عليه السلام نزلَ بتلاوتها بمكَّة، ونزلَ الملكُ بثوابها بالمدينة، والله أعلم. وقد قيل: إنها مكِّيَّة مدنيَّة، نزلَ بها جبريلُ مرتين. حكاه الثعلبي^(٢). وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة، والله الحمد والمِنَّة.

الرابعة: قد تقدَّم أنَّ البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح، وإذا ثبت ذلك، فحكمُ المصلِّي إذا كَبَّرَ أن يَصِلَهُ بالفاتحة، ولا يَسْكُتَ، ولا يذكرُ توجيهاً ولا تسبيحاً، لحديث عائشة وأنس المتقدمين^(٣) وغيرهما. وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والشُّكوت، قال بها جماعةٌ من العلماء. فروي عن عمر بن الخطَّاب، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهما، أنهما كانا يقولان إذا افتتَحَا الصلاة: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَيَحْمَدُكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ^(٤). وبه قال سفيان، وأحمد، وإسحاق، وأصحابُ الرأي^(٥). وكان الشافعي يقول بالذي روي عن عليٍّ، عن النبي ﷺ، أنه كان إذا افتتَحَ الصلاة، كَبَّرَ، ثم قال: «وَجَّهْتُ وَجْهِي».

(١) لم نجد قول ابن عطية هذا، ولا الذي قبله في تفسيره.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق النيسابوري، له كتاب التفسير الكبير قال ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ٧٦: والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٤٠/١٢: يوجد في كتبه من الغرائب شيء كثير. اهـ. توفي سنة (٤٢٧هـ). وينظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٣٥.

(٣) في المسألة الخامسة ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) حديث عمر أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٥٥٧)، ومسلم (٣٩٩)، وحديث ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق أيضاً في المصنف (٢٥٥٨).

(٥) معالم السنن ١/ ١٩٧.

الحديث، ذكره مسلم^(١)، وسيأتي بتمامه في آخر سورة الأنعام، وهناك يأتي القول في هذه المسألة مستوفى إن شاء الله .

قال ابن المنذر^(٢): ثبت أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا كَبَّرَ في الصلاة، سَكَتَ هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ، يقول: «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنَ خَطَايَايَ بِالماءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ»^(٣). واستعمل ذلك أبو هريرة. وقال أبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(٤): للإمام سكتان، فاغتنموا فيهما القراءة^(٥). وكان الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز^(٦) وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبي ﷺ في هذا الباب.

الخامسة: واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، فقال مالك وأصحابه: هي مُتَعَيِّنَةٌ للإمام والمنفرد في كلِّ ركعة.

قال ابن خُوَيزَمَنَدَاد^(٧) البصري المالكي: لم يَخْتَلَفْ قَوْلُ مالِك: أَنَّهُ مَنْ نَسِيَها في ركعة^(٨) من صلاة ركعتين، أَنَّ صَلَاتَهُ تَبْطُلُ، وَلَا تَجْزِيهِ. واختلف قوله فيمن تركها

(١) صحيح مسلم (٧٧١)، وهو في مسند أحمد (٧٢٩).

(٢) محمد بن إبراهيم أبو بكر النيسابوري، الحافظ، الفقيه، نزيل مكة، صاحب الأوسط والإشراف، وغيرهما. توفي سنة (٣١٨هـ). قال الذهبي في السير ١٤/٤٩٢: وابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلداً، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضاً.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة، وهو في المسند (٧١٦٤).

(٤) ابن عوف الزُّهري، أحد الفقهاء السبعة، قيل: اسمه عبد الله، وقيل إسماعيل، مات سنة (٩٤هـ). السير ٤/٢٨٧.

(٥) ذكره البيهقي في القراءة خلف الإمام ص ٤٦.

(٦) هو أبو محمد التنوخي، مفتي دمشق، توفي سنة (١٦٧هـ). السير ٨/٣٢.

(٧) في (د) و(ظ): خواز بنداد، وفي (ز): خواز منذاد، والمثبت من (م). وقيل الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء ٤/١٤١، فقال: بضم الخاء المعجمة وفتح الواو المخففة، وسكون الياء المثناة التحتية، وزاي معجمة ساكنة ومكسورة وميم مفتوحة أو مكسورة. قال: وروي بياء موحدة بدلها، ثم نون ساكنة، فلذالين معجمتين بينهما ألف، وقيل: الأولى مهملة. اهـ. وهو محمد بن أحمد بن عبد الله، له كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن. توفي نحو (٣٩٠هـ). الوافي بالوفيات ٢/٥٢، والديباج المذهب ٢/٢٢٩.

(٨) في (م): في صلاة ركعة.

ناسياً في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية، فقال مرة: يُعيد الصلاة، وقال مرة أخرى: يسجدُ سجدة السهو، وهي رواية ابن عبد الحكم^(١) وغيره عن مالك. قال ابن خُوَيزَمَداد: وقد قيل: إنه يُعيدُ تلك الركعة، ويسجدُ للسهو بعد السلام.

قال ابن عبد البر: الصحيحُ من القول إلغاء تلك الركعة، ويأتي بركعة بدلاً منها، كمن أسقط سجدة سواء^(٢). وهو اختيارُ ابن القاسم.

وقال الحسنُ البصري وأكثُرُ أهل البصرة والمغيرةُ بن عبد الرحمن المخزومي المدني^(٣): إذا قرأ بأُم القرآن مرةً واحدةً في الصلاة، أجزأه، ولم يكن عليه إعادة، لأنها صلاةٌ قد قرأ فيها بأُم القرآن، وهي تامةٌ، لقوله عليه السلام: «لا صلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ»^(٤)، وهذا قد قرأ بها^(٥).

قلت: ويَحْتَمِلُ: لا صلاةَ لِمَنْ لم يقرأ بها في كلِّ ركعة، وهو الصحيح على ما يأتي. ويحتمل: لا صلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بها في أكثر عددِ الرُّكَّعات، وهذا هو سببُ الخلاف، والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي: إن تَرَكَها عامداً في صلاته كلها، وقرأَ غَيْرَها، أجزأه، على اختلافٍ عن الأوزاعي في ذلك.

وقال أبو يوسف^(٦) ومحمدُ بنُ الحسن^(٧): أقلُّه ثلاثُ آيات، أو آيةٌ طويلةٌ، كآيةِ الدِّين.

(١) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو عبد الله المصري، تفقه بمذهب مالك، ولزمه مدة، وهو في عداد أصحابه الكبار، له تصانيف كثيرة، منها: الرد على الشافعي وأحكام القرآن. توفي سنة (٢٦٨هـ). سير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٩٧.

(٢) في (د): سراً، وفي (م): سهواً.

(٣) أبو هاشم، ويقال: أبو هشام، كان فقيه أهل المدينة بعد مالك، وعرض عليه الرشيد القضاء فامتنع، مات سنة خمس أو ست وثمانين ومئة. تهذيب التهذيب ٤ / ١٣٥.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٧٤٣)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت.

(٥) التمهيد ٢٠ / ١٩٢-١٩٣ و ١٩٨، والاستذكار ٤ / ١٤٥ و ١٩٣-١٩٤ و ١٩٨-١٩٩.

(٦) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، القاضي، صاحب أبي حنيفة، توفي سنة (١٨٢هـ). السير ٨ / ٥٣٥.

(٧) أبو عبد الله الشيباني الكوفي، فقيه العراق، وصاحب أبي حنيفة، توفي سنة (١٨٩هـ). السير ٩ / ١٣٤.

وعن محمد بن الحسن أيضاً قال: أَسَوَّغُ الاجتهادَ في مقدار آية، ومقدار كلمة مفهومة، نحو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولا أَسَوَّغُهُ في حرف لا يكون كلاماً^(١).

وقال الطبري: يقرأ المصلي بأَمِّ القرآن في كلِّ ركعة، فإن لم يقرأ بها، لم يَجْزِهِ إلا مثلها من القرآن، عدد آياتها وحروفها^(٢).

قال ابن عبد البر: وهذا لا معنى له؛ لأنَّ التعيين لها والنص عليها، قد خَصَّهَا بهذا الحكم دون غيرها، ومُحالُّ أن يجيء بالبدل منها مَنْ وَجِبَتْ عليه، فتركها وهو قادرٌ عليها، وإنما عليه أن يجيء بها، ويعود إليها، كسائر المفروضات المتعينات في العبادات^(٣).

السادسة: وأما المأموم: فإن أدرك الإمام راعياً، فالإمام يَحْمِلُ عنه القراءة، لإجماعهم على أنه إذا أدركه راعياً، أنه يُكَبِّرُ ويركعُ، ولا يقرأ شيئاً. وإن أدركه قائماً، فإنه يقرأ، وهي المسألة:

السابعة: ولا ينبغي لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه في صلاة السُّرِّ، فإن فعل، فقد أساء، ولا شيء عليه عند مالك وأصحابه^(٤). وأما إذا جَهَرَ الإمام، وهي المسألة:

الثامنة: فلا قراءة بفاتحة الكتاب، ولا غيرها في المشهور من مذهب مالك^(٥)، لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقول رسول الله ﷺ: «مالي أن أزع القرآن؟»^(٦) وقوله في الإمام: «إِذَا قَرَأَ، فَأَنْصِتُوا»^(٧) وقوله: «مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ، فَقَرَأَهُ الْإِمَامُ لَهُ قِرَاءَةً»^(٨).

(١) مختصر اختلاف العلماء للخصاص ١/ ٢٠٧.

(٢) التمهيد ٢٠/ ١٩٣، والاستذكار ٤/ ١٤٥ - ١٤٦ و ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) التمهيد ٢٠/ ١٩٨ - ١٩٩، والاستذكار ٤/ ٢٠٠.

(٤) التمهيد ١١/ ٥٣.

(٥) الاستذكار ٤/ ٢٢٨.

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه أحمد في المسند (٧٢٧٠).

(٧) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري أخرجه أحمد (١٩٧٢٣)، ومسلم (٤٠٤)(٦٣)، وأخرجه أحمد

أيضاً (٨٨٨٩) من حديث أبي هريرة، وسيدكره المصنف أيضاً في ص ١٨٧.

(٨) أخرجه أحمد في المسند (١٤٦٤٣) من حديث جابر، وسيتكلم عليه المصنف في ص ١٨٨.

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُونَيْطِيُّ^(١)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ: لا تُجزئُ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كلِّ ركعة، إماماً كان أو مأموماً، جَهَرَ إمامه، أو أَسَرَ^(٢). وكان الشافعيُّ بالعراق يقول في المأموم: يقرأ إذا أَسَرَ، ولا يقرأ إذا جَهَرَ، كمشهورٍ مذهب مالك^(٣).

وقال بمصر: فيما يَجْهَرُ فيه الإمامُ بالقراءة قولان: أحدهما أن يقرأ، والآخر يُجْزئُه ألا يقرأ، ويكتفي بقراءة الإمام. حكاه ابن المُنْذِر^(٤).

وقال ابنُ وهب، وأشهبُ، وابنُ عبد الحَكَم، وابنُ حَبِيب^(٥)، والكوفيون: لا يقرأ المأموم شيئاً، جَهَرَ إمامه، أو أَسَرَ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «فراءةُ الإمام له قراءة»^(٦) وهذا عامٌّ، ولقول جابر: مَنْ صَلَّى ركعةً لم يقرأ فيها بأَمِّ القرآن، فلم يُصَلِّ، إلا وراء الإمام^(٧).

التاسعة: الصحيحُ من هذه الأقوال: قولُ الشافعيِّ، وأحمد، ومالك في القول الآخر، وأنَّ الفاتحةَ متعيَّنةٌ في كلِّ ركعة لكلِّ أحدٍ على العموم، لقوله ﷺ: «لا صلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فيها بفاتحة الكتاب»، وقوله: «مَنْ صَلَّى صلاةً لم يَقْرَأْ فيها بأَمِّ القرآن، فهي خِداجٌ» ثلاثاً^(٨). وقال أبو هريرة: أَمَرَنِي رسولُ الله ﷺ أن أنادي أنه: «لا صلاةَ إلا بقراءة فاتحة الكتاب، فما زاد». أخرجه أبو داود^(٩).

(١) هو يوسف بن يحيى، أبو يعقوب المصري، صاحب الإمام الشافعي. توفي سنة (٢٣١هـ). سير أعلام النبلاء ٥٨ / ٢.

(٢) الاستذكار ١٤٥ / ٤، والتمهيد ٤١ / ١١، والأوسط ١٠٦ / ٣.

(٣) في (ظ): كمذهب مالك.

(٤) الأوسط ١٠٦ / ٣.

(٥) هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان، أبو مروان السلمي العبّاسي الأندلسي، فقيه الأندلس، ولد في حياة الإمام مالك، من كتبه: تفسير الموطأ، وطبقات الفقهاء، توفي سنة (٢٣٨هـ). السير ١٠٢ / ١٢.

(٦) سلف قريباً، وانظر النوادر والزيادات ١٧٨ / ١ - ١٧٩.

(٧) أخرجه مالك في الموطأ ٨٤ / ١، والترمذي (٣١٣) وعنده: إلا أن يكون وراء الإمام. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٨) في (ظ): لا.

(٩) أخرجه أحمد في المسند (٧٢٩١)، ومسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

(١٠) سنن أبي داود (٨٢٠)، وهو في مسند أحمد (٩٥٢٩).

وكما لا ينوب سجود ركعة، ولا ركوعها، عن ركعة أخرى، فكذا لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها^(١). وبه قال عبد الله بن عون^(٢)، وأيوب السخيتاني^(٣)، وأبو ثور، وغيره من أصحاب الشافعي، وداود بن علي. ورؤي مثله عن الأوزاعي، وبه قال مكحول^(٤).

ورؤي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وأبي بن كعب، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الصامت، وأبي سعيد الخدري، وعثمان بن أبي العاص، وخوات بن جبير^(٥)، أنهم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب. وهو قول ابن عمر^(٦)، والمشهور من مذهب الأوزاعي^(٧). فهؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يؤجّبون الفاتحة في كل ركعة.

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في «سننه» ما يرفع الخلاف، ويزيل كل احتمال، فقال: حدثنا أبو كريب، حدثنا محمد بن فضيل. (ح): وحدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر جميعا عن أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد لله، وسورة، في فريضة، أو غيرها»^(٨). وفي صحيح مسلم عن أبي

(١) هذا كلام الشافعي، نقله عنه ابن عبد البر في الاستذكار ١٩٩/٤، والتمهيد ١٩٨/٢٠.

(٢) أبو عون المزني مولاهم، الحافظ، عالم البصرة، توفي سنة (١٥١هـ). السير ٣٦٤/٦.

(٣) ابن أبي تيمية كيسان، أبو بكر العنزي مولاهم، البصري، الحافظ، توفي سنة (١٣١هـ). السير ١٥/٦.

(٤) الاستذكار ١٩٩/٤، والأوسط ١١٠/٣.

(٥) ابن النعمان الأنصاري، أبي عبد الله ويقال: أبو صالح، قيل: إنه شهد بدرًا، مات سنة (٤٠هـ) أو بعدها. تهذيب التهذيب ١/٥٥٦.

(٦) كذا في الاستذكار ١٩٥/٤، ووقع في التمهيد ١٩٣/٢٠: ابن عون.

(٧) هذه الأقوال في الاستذكار ١٩٥/٤، والتمهيد ١٩٣/٢٠، والأوسط ١٠٨/٣ - ١١٠، والمفهم ٢٥/٢.

(٨) سنن ابن ماجه (٨٣٩). أبو سفيان السعدي - وهو طريف بن شهاب أو ابن سعد - ضعيف، وقد توبع، فقد أخرج الإمام أحمد في المسند (١٠٩٩٨) من طريق قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب، وما تيسر.

هريرة، أنه ﷺ قال للذي علمه الصلاة: «وافعلْ ذلك في صلاتك كلها»^(١) وسيأتي^(٢).
ومن الحُجَّة في ذلك أيضاً ما رواه أبو داود، عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال: أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصُّبح، فأقام أبو نُعيم المؤدِّن الصلاة، فصلى أبو نُعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صَفَقْنَا خلفَ أبي نُعيم، وأبو نُعيم يَجْهَرُ بالقراءة، فجعل عبادة يقرأ بأَمِّ القرآن، فلما انصرف، قلتُ لِعُبَادَةَ: سمعتك تقرأ بأَمِّ القرآن وأبو نُعيم يَجْهَرُ؟ قال: أجل، صلى بنا رسولُ الله ﷺ بعضَ الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة، فالتبستُ عليه، فلما انصرف، أقبلَ علينا بوجهه، فقال: «هل تَقْرَؤون إذا جَهِرْتُ بالقراءة؟» فقال بعضنا: إنا نصنع ذلك، قال: «فلا، وأنا أقول: مالي يُنازعني القرآن، فلا تَقْرَؤوا بشيء من القرآن إذا جَهِرْتُ إلا بأَمِّ القرآن»^(٣).

وهذا نصٌّ صريحٌ في المأموم. وأخرجه أبو عيسى الترمذيُّ من حديث محمد بن إسحاق بمعناه، وقال: حديثٌ حسنٌ، والعملُ على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين. وهو قولُ مالك بن أنس، وابنِ المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق: يَرَوْنَ القراءة خلف الإمام^(٤).
وأخرجه أيضاً الدارقطني، وقال: هذا إسنادٌ حسنٌ^(٥)، ورجاله كلُّهم ثقاتٌ.

(١) صحيح مسلم (٣٩٧)، وهو في مسند أحمد (٩٦٣٥).

(٢) ص ١٩٠، وسيذكره أيضاً ص ٢٦٢ في تفسير الآية (٣) من سورة البقرة في المسألة الرابعة عشرة، وفي تفسير الآية (١٤٢) من سورة النساء.

(٣) سنن أبي داود (٨٢٤). وسلف حديث أبي هريرة ص ١٨٢. قال صاحب عون المعبود ٣/٣٦: ما لي ينازعني، أي: يعالجنني، ولا يتيسر. القرآن، بالرفع، أي: لا يتأتى لي، فكأنني أجاذبه، فيعصى، ويثقل عليّ. قاله الطيبي، وبالنصب، أي: ينازعني من ورائي فيه بقراءتهم على التغالب، يعني تشوش قراءتهم على قراءتي.

(٤) سنن الترمذي (٣١١)، وروايته من طريق محمد بن إسحاق، عن مكحول، عن محمود بن الربيع، عن عبادة. ونقل البيهقي في القراءة خلف الإمام ص ٦٥ - ٦٦ عن أبي علي الحسين بن علي قوله: مكحول سمع هذا الحديث من محمود بن الربيع ومن ابنه نافع، ونافع وأبوه سمعاه من عبادة رضي الله عنه. والحديث في المسند (٢٢٦٩٤).

(٥) في (د) و(ز): صحيح.

وذكر أنَّ محمودَ بنَ الربيع^(١) كان يَسْكُنُ إيلياءَ، وأنَّ أبا نُعيمٍ أوَّلُ مَنْ أَدَنَ في بيت المقدس^(٢).

وقال أبو محمد عبد الحق^(٣): ونافعُ بن محمود لم يذكُرْه البخاريُّ في «تاريخه»، ولا ابنُ أبي حاتم، ولا أخرجَ له البخاريُّ ومسلمٌ شيئاً. وقال فيه أبو عمر: مجهول^(٤).

وذكر الدارقطنيُّ عن يزيد بن شريك قال: سألتُ عمرَ عن القراءة خلفَ الإمام، فأمرني أن أقرأ، قلتُ: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا، قلتُ: وإن جَهَرْتَ؟ قال: وإن جَهَرْتُ. قال الدارقطنيُّ: هذا إسنادٌ صحيحٌ^(٥). ورَوَى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الإمامُ ضامنٌ، فما صَنَعَ، فاصنعوا». قال أبو حاتم: هذا يصحح^(٦) لمن قال بالقراءة خلفَ الإمام^(٧).

وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيُّ أن يقرأ بها في نفسه حين قال له: إني أحياناً أكونُ وراءَ الإمام، ثم استدلَّ بقوله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ، فَنِضْفُهَا لِي، وَنِضْفُهَا لِعَبْدِي، ولعبدِي ما سأل». قال رسولُ الله ﷺ: «اقرأوا، يقولُ العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالمين». الحديث^(٨).

(١) هو ابن سراقَة الأنصاري الخزرجي، أبو محمد ويقال: أبو نعيم، أدرك النبي ﷺ، وعقل منه مَجَّةٌ مَجَّها في وجهه، وهو يومئذ ابن أربع سنين، وكان ختن عبادة بن الصامت، توفي سنة (٩٩هـ). السير ٣/ ٥١٩.

(٢) سنن الدارقطني ٣١٨/١ و ٣١٩ و ٣٢٠.

(٣) ابن عبد الرحمن بن عبد الله، الأزدي، الأندلسي، الإشبيلي، المعروف في زمانه بابن الخراط، له الأحكام الصغرى والوسطى والكبرى توفي سنة (٥٨١هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٩٨.

(٤) التمهيد ١١/ ٤٦.

(٥) سنن الدارقطني ١/ ٣١٧.

(٦) في (م): يصح، وفي سنن الدارقطني (وفيه قول أبي حاتم): تصحيح.

(٧) سنن الدارقطني ١/ ٣٢٢، وفي إسناده موسى بن شيبة، نقل ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٣٦، والذهبي في الميزان ٤/ ٢٠٧ عن الإمام أحمد قوله فيه: أحاديثه منكبر.

(٨) أخرجه أحمد في المسند (٧٢٩١)، ومسلم (٣٩٥). وسلف ص ١٤٥.

العاشرة: أَمَا مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْأَوَّلُونَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «وَإِذَا قَرَأَ، فَأَنْصِتُوا». فأخرجه^(١) مسلم من حديث أبي موسى الأشعري، وقال: وفي حديث جرير، عن سليمان، عن قتادة من الزيادة: «وَإِذَا قَرَأَ، فَأَنْصِتُوا»^(٢). قال الدارقطني: هذه اللفظة، لم يُتَابِعْ سليمانُ التَّيْمِيَّ فيها عن قتادة، وخالفه الحُفَّاطُ من أصحاب قتادة، فلم يذكروها، منهم شعبه، وهشام، وسعيد بن أبي عروبة، وهمام، وأبو عوانة، ومعمّر، وعدي بن أبي عمار. قال الدارقطني: فإجماعهم يدلُّ على وهمه. وقد روي عن عمر بن عامر^(٣)، عن قتادة متابعه التَّيْمِيَّ، ولكن ليس هو بالقوي، تركه القَطَّانُ^(٤).

وأخرج أيضاً هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة، وقال: هذه الزيادة: «إِذَا قَرَأَ، فَأَنْصِتُوا» ليست بمحفوظة^(٥).

وذكر أبو محمد عبد الحق، أنَّ مسلماً صحَّح حديث أبي هريرة، وقال: هو عندي صحيح^(٦).

قلت: ومما يدلُّ على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى، وإن كانت مما لم يُجمعوا عليها. وقد صحَّحها الإمام أحمد بن حنبل، وابن المنذر^(٧).

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] فإنه نزل بمكة، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة. كما قال زيد بن أرقم^(٨). فلا حجة

(١) في (م): أخرجه.

(٢) صحيح مسلم (٤٠٤)(٦٣)، وهو في مسند أحمد (١٩٧٢٣).

(٣) في (م): عبد الله بن عامر، وهو خطأ.

(٤) يحيى بن سعيد، وانظر علل الدارقطني ٧/ ٢٥٢ - ٢٥٤، وسننه ١/ ٣٣٠، وذكر في العلل ١/ ٢٥٤ رواية عمر بن عامر، عن قتادة، وأعلها بسالم بن نوح الراوي عن عمر.

(٥) سنن أبي داود (٦٠٤).

(٦) قاله مسلم (٣٠٤/١)، بإثر حديث أبي موسى الأشعري (٤٠٤)(٦٣) وقال: ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ههنا، إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه.

(٧) نقل ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٣٤ عن الإمام أحمد تصحيحه لحديثي أبي موسى وأبي هريرة، وقال ابن المنذر في الأوسط ٣/ ١٠٧: إذا زاد الحافظ في الحديث حرفاً وجب قبوله، وتكون زيادة، كحديث ينفرد به، وهذا مذهب كثير من أهل العلم في كثير من أبواب الشهادات، وغير ذلك.

(٨) الأنصاري الخزرجي، نزول الكوفة من مشاهير الصحابة، رده رسول الله ﷺ يوم أحد لصغر سنه، =

فيها. فَإِنَّ المقصودَ كانَ المشركينَ، على ما قالَ سعيدُ بنُ المسيَّب. وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة، أنها نزلت في رفع الصوت خلفَ رسولِ الله ﷺ في الصلاة. وقال: عبدُ الله بنُ عامرٍ ضعيفٌ^(١).

وأما قوله ﷺ: «مالي أَنَا زَعُ القرآن»، فأخرجه مالكٌ، عن ابنِ شهاب، عن ابنِ أَكِيْمَةَ اللَّيْثِي^(٢). واسمُه - فيما قالَ مالكٌ - عمرو، وغيره يقول: عامر، وقيل: يزيد، وقيل: عُمارة، وقيل: عباد^(٣)، يُكْنَى أبا الوليد، تُؤْفَى سَنَةٌ إحدى ومئة، وهو ابنُ تسعٍ وسبعين سنة، لم يَرَوْ عنه الزهريُّ إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقةٌ، وروى عنه محمدُ بنُ عمرو وغيره^(٤).

والمعنى في حديثه: لا تجهرُوا إذا جَهَرْتُ، فَإِنَّ ذلكَ تنازُعٌ وتجادُبٌ وتخالُجٌ، إقرؤوا في أنفسكم. يُبَيِّنُهُ حديثُ عُبَادَةَ، وفُتِيَا الفاروق، وأبي هريرة الراوي للحديثين. فلو فَهِمَ المنعَ جملةً من قوله: «مالي أَنَا زَعُ القرآن»، لَمَا أَفْتَى بخلافه.

وقولُ الزهريِّ في حديث ابنِ أَكِيْمَةَ: فانتَهَى النَّاسُ عن القراءة مع رسولِ الله ﷺ فيما جَهَرَ فيه رسولُ الله ﷺ بالقراءة، حينَ سَمِعُوا ذلكَ من رسولِ الله ﷺ. يريدُ بالحمد، على ما بَيَّنَّا. وبالله توفيقنا.

وأما قوله ﷺ: «مَنْ كانَ له إمامٌ، فقراءةُ الإمامِ له قراءةٌ»، فحديثٌ ضعيفٌ، أسنده الحسنُ بنُ عُمارة، وهو متروكٌ، وأبو حنيفة، وهو ضعيفٌ^(٥)، كلاهما عن

= وشهد مؤتة وغيرها، توفي سنة (٦٦هـ). السير ٣/ ١٦٥. وينظر صحيح البخاري (١٢٠٠)، وصحيح مسلم (٥٣٩).

(١) سنن الدارقطني ١/ ٣٢٦. عبد الله بن عامر: هو أبو عامر المدني الأسلمي، روى له ابن ماجه.

(٢) يعني عن أبي هريرة، وهو في الموطأ ١/ ٨٦ - ٨٧. ومسنَد أحمد (٨٠٠٧).

(٣) في (ظ): عبادة، ولم يُذكر له هذا الاسم في المصادر.

(٤) التمهيد ١١/ ٢٢ - ٢٣، والاستذكار ٤/ ٢٢٦ - ٢٢٧، وذكر له ابن عبد البر فيهما اسم عمر أيضاً، ولم يذكر له اسم يزيد، ولا ورد في المصادر. وكذلك لم يُذكر له اسم «عباد»، فلمعله محرف عن «عمار» فقد أوردوا له هذا الاسم.

(٥) ليس هذا مناسباً في إمام من أئمة المسلمين، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٢ - ٣: وكذا لا أذكر في كتابي من الأئمة المتبوعين في الفروع أحداً لجلالته في الإسلام، وعظمتهم في النفوس، مثل أبي حنيفة والشافعي والبخاري، فإن ذكرتُ أحداً منهم، فأذكره على الإنصاف، وما يضره ذلك عند الله ولا عند الناس.

موسى بن أبي عائشة، عن عبدالله بن شدّاد، عن جابر. أخرجه الدارقطني، وقال: رواه سفيان الثوري، وشعبة، وإسرائيل بن يونس، وشريك، وأبو خالد الدالاني، وأبو الأحوص، وسفيان بن عيينة، وجريّر بن عبد الحميد، وغيرهم، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبدالله بن شدّاد، مُرسلاً، عن النبي ﷺ، وهو الصواب^(١).

وأما قول جابر: مَنْ صَلَّى رَكْعَةً لَمْ يقرأَ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ، فَلَمْ يُصَلِّ إِلَّا وَرَاءَ الْإِمَامِ، فرواه مالك، عن وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عن جابر، قوله^(٢).

قال ابنُ عبد البرّ: ورواه يحيى بنُ سلام صاحبُ «التفسير» عن مالك، عن أبي نعيم وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عن جابر، عن النبي ﷺ. وصوابه موقفٌ عن جابر، كما في «الموطأ». وفيه من الْفَقْهِ إِبْطَالُ الرَّكْعَةِ الَّتِي لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ، وهو يشهدُ لَصِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ الْقَاسِمِ، ورواه عن مالك، فِي إِلْغَاءِ الرَّكْعَةِ، وَالْبِنَاءِ عَلَى غَيْرِهَا، وَأَلَّا يَعْتَدَّ الْمُصَلِّيُ بِرَكْعَةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ. وفيه أيضاً: أَنَّ الْإِمَامَ قَرَأَتْهُ لِمَنْ خَلْفَهُ قِرَاءَةً. وهذا مذهبُ جابر، وقد خالفه فِيهِ غَيْرُهُ^(٣).

الحادية عشرة: قال ابنُ العربي: لما قَالَ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» واختلف النَّاسُ فِي هَذَا الْأَصْلِ: هَلْ يُحْمَلُ هَذَا النَّفْيُ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ، أَوْ عَلَى الْإِجْزَاءِ؟ اختلفتِ الْفَتَوَى بِحَسَبِ اخْتِلَافِ حَالِ النَّاظِرِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَشْهُرُ فِي هَذَا الْأَصْلِ وَالْأَقْوَى أَنَّ النَّفْيَ عَلَى الْعُمُومِ، كَانَ الْأَقْوَى مِنْ رَوَايَةِ مَالِكٍ أَنَّ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْفَاتِحَةَ فِي صَلَاتِهِ، بَطُلَتْ. ثُمَّ نَظَرْنَا فِي تَكَرُّرِهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَمَنْ تَأَوَّلَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «إِفْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»، لَزِمَهُ أَنْ يُعِيدَ الْقِرَاءَةَ، كَمَا يُعِيدُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثانية عشرة: ما ذكرناه فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْمَعَانِي فِي تَعْيِينِ الْفَاتِحَةِ يَرُدُّ عَلَى الْكُوفِيِّينَ قَوْلَهُمْ فِي أَنَّ الْفَاتِحَةَ لَا تَتَعَيَّنُ، وَأَنَّهَا وَغَيْرُهَا مِنْ آيِ الْقُرْآنِ سَوَاءٌ.

(١) سنن الدارقطني ١/ ٣٢٣ و ٣٢٥، وسلف هذا الحديث ص ١٨٢، وينظر مسند أحمد (١٤٦٤٣).

(٢) الموطأ ١/ ٨٤، وقد سلف ص ١٨٣.

(٣) الاستذكار ٤/ ١٨٨ - ١٨٩.

وقد عَيَّنَهَا النَّبِيُّ ﷺ بقوله كما ذكرنا، وهو الْمُبَيَّنُّ عن الله تعالى مُرَادَهُ في قوله: ﴿وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقد رَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: أُمِرْنَا أَنْ نَقْرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَمَا تَيَسَّرَ^(١). فَذَلِكَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ لِلْأَعْرَابِيِّ: «إِقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢) مَا زَادَ عَلَى الْفَاتِحَةِ، وَهُوَ تَفْسِيرُ^(٣) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقْرُؤُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد رَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ»^(٤). زَادَ فِي رِوَايَةِ: «فَصَاعِدًا»^(٥). وَقَوْلُهُ ﷺ: «هِيَ خِدَاجٌ (ثَلَاثًا) غَيْرُ تَمَامٍ»^(٦) أَي: غَيْرُ مُجْزِئَةٍ بِالْأَدَلَّةِ الْمَذْكُورَةِ.

وَالْخِدَاجُ: النَّقْصُ وَالْفَسَادُ. قَالَ الْأَخْفَشُ: خَدَجَتِ النَّاقَةُ: إِذَا أَلْقَتْ وَلَدَهَا لَغَيْرِ تَمَامٍ، وَأَخْذَجَتْ: إِذَا قَذَفَتْ بِهِ قَبْلَ وَقْتِ الْوِلَادَةِ، وَإِنْ كَانَ تَامًا الْخَلْقِ.

وَالنَّظَرُ يُوجِبُ فِي النُّقْصَانِ أَلَّا تَجُوزَ مَعَهُ الصَّلَاةُ؛ لِأَنَّهَا صَلَاةٌ لَمْ تَتِمَّ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ صَلَاتِهِ وَهِيَ لَمْ تَتِمَّ، فَعَلِيهِ إِعَادَتُهَا كَمَا أَمَرَ، عَلَى حَسَبِ حُكْمِهَا. وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهَا تَجُوزُ مَعَ إِقْرَارِهِ بِنُقْصِهَا، فَعَلِيهِ الدَّلِيلُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مِنْ وَجْهِ يُلْزَمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٧).

الثَّالِثَةُ عَشْرَةٌ: رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ، أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا تَجِبُ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّلَاةِ^(٨)، وَكَذَلِكَ كَانَ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ بِالْعِرَاقِ فِيمَنْ نَسِيَهَا، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ هَذَا بِمِصْرَ، فَقَالَ: لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ

(١) سنن أبي داود (٨١٨)، وهو في مسند أحمد (١٠٩٩٨).

(٢) قطعة من حديث المسيء صلاته، أخرجه أحمد (٩٦٣٥)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة، وقد سلفت قطعة أخرى منه ص ١٨٥.

(٣) في (د) و(ز): يفسر.

(٤) صحيح مسلم (٣٩٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢٧٤٣).

(٥) صحيح مسلم (٣٩٤): (٣٧)، وهو في مسند أحمد (٢٢٧٤٩).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٩٨٩٨)، ومسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٧) التمهيد ١٩١/٢٠ - ١٩٢، والاستذكار ١٩٢/٤ - ١٩٣.

(٨) التمهيد ١٩٨/٢٠، والاستذكار ١٩٩/٤ وقال ابن عبد البر: وروي عن مالك قول شاذ لا يعرفه أصحابه: أن الصلاة تجزئ بغير قراءة على ما روي عن عمر، وهي رواية منكرة.

مَنْ يُحْسِنُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يُجْزِئُهُ أَنْ يَنْقُصَ حَرْفًا مِنْهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْرَأْهَا، أَوْ نَقَصَ مِنْهَا حَرْفًا، أَعَادَ صَلَاتَهُ، وَإِنْ قَرَأَ بِغَيْرِهَا. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الْمَسْأَلَةِ.

وَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ صَلَّى الْمَغْرِبَ، فَلَمْ يَقْرَأْ فِيهَا، فذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ كَانَ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ؟ قَالُوا: حَسَنٌ. قَالَ: لَا بَأْسَ إِذَا. فَحَدِيثُ مُنْكَرِ اللَّفْظِ، مُنْقَطِعُ الْإِسْنَادِ؛ لِأَنَّهُ يَرُويهِ [مُحَمَّدُ بْنُ] إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التِّيمِيُّ، عَنْ عُمَرَ. وَمَرَّةً يَرُويهِ [مُحَمَّدُ بْنُ] ^(١) إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عُمَرَ، وَكِلَاهُمَا مُنْقَطِعٌ، لَا حُجَّةَ فِيهِ ^(٢).

وَقَدْ ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ»، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ الرُّوَاةِ ^(٣)، وَلَيْسَ عِنْدَ يَحْيَى وَطَائِفَةٍ مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ رَمَاهُ مَالِكٌ مِنْ كِتَابِهِ بِأَخْرَءَ، وَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ، فَهِيَ خِدَاجٌ».

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ، أَنَّهُ أَعَادَ تِلْكَ الصَّلَاةَ، وَهُوَ الصَّحِيحُ عَنْهُ. رَوَى يَحْيَى بْنُ يَحْيَى النَّيْسَابُورِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّ عُمَرَ نَسِيَ الْقِرَاءَةَ فِي الْمَغْرِبِ، فَأَعَادَ بِهِمُ الصَّلَاةَ ^(٤). قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَهَذَا حَدِيثٌ مُتَّصِلٌ شَهِدَهُ هَمَّامٌ مِنْ عُمَرَ، رُوِيَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ.

وَرَوَى أَشْهَبُ، عَنْ مَالِكٍ قَالَ: سُئِلَ مَالِكٌ عَنِ الَّذِي نَسِيَ الْقِرَاءَةَ: أَيْعِجِبُكَ مَا قَالَ عُمَرُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَنْكَرُ أَنْ يَكُونَ عُمَرُ فَعَلَهُ. وَأَنْكَرَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: يَرَى النَّاسُ عُمَرَ يَصْنَعُ هَذَا فِي الْمَغْرِبِ، وَلَا يُسَبِّحُونَ بِهِ؟! أَرَى أَنْ يَعِيدَ الصَّلَاةَ مَنْ فَعَلَ هَذَا ^(٥).

(١) ما بين حاصرتين في الموضعين سقط من النسخ الخطية، و(م)، واستدرك من التمهيد ١٩٣/٢٠ - ١٩٤.

(٢) أخرج الخبر عبد الرزاق (٢٧٤٨)، وابن أبي شيبة ٣٩٦/١، والبيهقي في السنن ٣٨١/٢ من طريق محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة، عن عمر. وأما رواية محمد بن إبراهيم عن عمر، فأخرجها الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤١١. وذكر البيهقي أن الشافعي رواه أيضاً عن رجل، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عمر. وهذا منقطع أيضاً على إبهام في سنده.

(٣) الموطأ ص ١٧٩ برواية القعنبي.

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤١١.

(٥) التمهيد ١٩٣/٢٠ - ١٩٤ والاستذكار ١٤٢/٤ - ١٤٤.

الرابعة عشرة: أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة، على ما تقدّم من أصولهم في ذلك. وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب، إلا أنهم يستحبّون ألا يُقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة؛ لأنه الأكثر مما جاء عن النبي ﷺ.

قال مالك: وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأَم القرآن وسورة، وفي الأخيرين بفاتحة الكتاب. وقال الأوزاعي: يقرأ بأَم القرآن، فإن لم يقرأ بأَم القرآن، وقرأ بغيرها، أجزأه، وقال: وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات، أعاد. وقال الثوري: يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، ويُسبّح في الأخيرين إن شاء، وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ، ولم يُسبّح، جازت صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين^(١).

قال ابن المنذر: وقد رَوينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إقرأ في الأوليين، وسبّح في الأخيرين. وبه قال الثخفي^(٢).

قال سفيان: فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات، أعاد الصلاة؛ لأنه لا تجزئ قراءه ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر.

وقال أبو ثور: لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحاب الشافعي. وكذلك قال ابن خويز مَنداد المالكي؛ قال: قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة^(٣).

روى مسلم، عن أبي قتادة^(٤) قال: كان رسول الله ﷺ يُصلّي بنا، فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب، وسورتين، ويُسمِعنا الآية أحياناً،

(١) الاستذكار ٤/ ١٣٩ - ١٤٨ و ١٩٧. وينظر التمهيد ٢٠/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) الأوسط ٣/ ١١٤. وحديث علي أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٣٧٢.

(٣) الاستذكار ٤/ ١٤٥.

(٤) الحارث بن ربيع الأنصاري السلمي، فارس رسول الله ﷺ شهد أحداً والحديبية، توفي بالمدينة سنة (٥٤هـ). السير ٢/ ٤٤٩.

وكان يُطَوَّلُ في الركعة الأولى من الظهر، وَيَقْصُرُ الثانيةً، وكذلك في الصُّبْحِ. وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأخيرين بفاتحة الكتاب^(١). وهذا نصٌّ صريحٌ، وحديثٌ صحيحٌ لما ذهب إليه مالكٌ. ونصٌّ في تَعْيِينِ الفاتحة في كلِّ ركعة، خلافاً لِمَنْ أبى ذلك، والحُجَّةُ في السُّنَّةِ، لا فيما خالفها.

الخامسة عشرة: ذهب الجمهورُ إلى أنَّ ما زَادَ على الفاتحة من القراءة ليس بواجب، لما رواه مسلمٌ، عن أبي هريرة قال: في كلِّ صلاة قراءةً، فما أَسَمَعْنَا النَّبِيَّ ﷺ، أَسَمَعْنَاكُمْ، وما أَخْفَى مِنَّا، أَخْفَيْنَا مِنْكُمْ^(٢)، فمن قرأ بأَمِّ القرآن، فقد أَجْزَأَتْ عنه، وَمَنْ زَادَ، فهو أَفْضَلُ^(٣). وفي البخاري: «وإن زِدْتَ فهو خيرٌ»^(٤).

وقد أبى كثيرٌ من أهل العلم تركَ السُّورة، لضرورة، أو لغير ضرورة، منهم عمرانُ بن حُصَيْنٍ، وأبو سعيد الخُدْرِي، وَخَوَاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، ومجاهدٌ، وأبو وائل^(٥) وابنُ عمر، وابنُ عباس، وغيرُهم، قالوا: لا صلاة لِمَنْ لم يقرأ فيها بفاتحة الكتابِ وشيءٌ مَعَهَا من القرآن، فمنهُمْ مَنْ حَدَّثَ آيَتَيْنِ، ومنهم مَنْ حَدَّثَ آيةً، ومنهم مَنْ لم يَحُدِّثْ، وقال: شيءٌ من القرآن معها، وكلُّ هذا مُوجِبٌ لتعلُّم ما تيسَّرَ من القرآن على كلِّ حال، مع فاتحة الكتاب، لحديث عُبَادَةَ، وأبي سعيد الخُدْرِي^(٦) وغيرِهما. وفي «المُدَوَّنَةُ»^(٧): وكيعٌ، عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: حدثني مَنْ سَمِعَ عَمْرَ بن الخطاب يقول: لا تُجْزئ صلاةٌ لم^(٨) يُقْرَأَ فيها بفاتحة الكتاب، وشيءٌ معها. واختلف المذهبُ في قراءة السورة على ثلاثة أقوال: سنة، فضيلة، واجبة.

(١) صحيح مسلم (٤٥١): (١٥٤)(١٥٥). والرواية الأولى في مسند أحمد (١٩٤١٨)، والرواية الثانية في المسند (٢٢٦٢٧).

(٢) في ظ: أخفيناكم.

(٣) صحيح مسلم (٣٩٦): (٤٤)، وهو في مسند أحمد (٧٥٠٣).

(٤) صحيح البخاري (٧٧٢).

(٥) شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، مخضرم، أدركَ النبي ﷺ ولم يره، شهد صفين مع علي رضي الله عنه توفي سنة (٨٢هـ). السير ٤ / ١٦١.

(٦) تقدما ص ١٩٠.

(٧) ٦٨ / ١.

(٨) في (ظ): لا، وفي (م): صلاةٌ مَنْ لم.

السادسة عشرة: مَنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَعْدَ بُلُوغِ مَجْهُودِهِ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَعَلُّمِ الْفَاتِحَةِ، أَوْ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَا عَلِقَ مِنْهَ شَيْءٌ، لَزِمَهُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ فِي مَوْضِعِ الْقِرَاءَةِ بِمَا أَمَكَتْهُ، مِنْ تَكْبِيرٍ، أَوْ تَهْلِيلٍ، أَوْ تَحْمِيدٍ، أَوْ تَسْبِيحٍ، أَوْ تَمْجِيدٍ، أَوْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِذَا صَلَّى وَحْدَهُ، أَوْ مَعَ إِمَامٍ فِيمَا أَسْرَّ فِيهِ الْإِمَامُ، فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى^(١) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْذَ مِنْ الْقُرْآنِ شَيْئاً، فَعَلَّمَنِي مَا يُجِزُّنِي مِنْهُ، قَالَ: «قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لِلَّهِ، فَمَا لِي؟ قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي»^(٢).

السابعة عشرة: فَإِنْ عَجَزَ عَنْ إِبْصَارِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، فَلَا يَدْعُ الصَّلَاةَ مَعَ الْإِمَامِ جُهْدَهُ، فَلَا إِمَامٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ عَنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَعَلَيْهِ أَيْدٍ أَنْ يَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي تَعَلُّمِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَمَا زَادَ، إِلَى أَنْ يَحُولَ الْمَوْتُ دُونَ ذَلِكَ وَهُوَ بِحَالِ الْاجْتِهَادِ، فَيَعْذِرَهُ اللَّهُ.

الثامنة عشرة: مَنْ لَمْ يُؤَاتِهِ لِسَانُهُ إِلَى التَّكَلُّمِ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْأَعْجَمِينَ وَغَيْرِهِمْ، تُرْجِمَ لَهُ الدُّعَاءُ الْعَرَبِيُّ بِلِسَانِهِ الَّذِي يَفْقَهُ، لِإِقَامَةِ صَلَاتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُجِزُّهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

التاسعة عشرة: لَا تُجْزَى صَلَاةٌ مَنْ قَرَأَ بِالْفَارْسِيَّةِ وَهُوَ يُحَسِّنُ الْعَرَبِيَّةَ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: تُجْزَى الْقِرَاءَةُ بِالْفَارْسِيَّةِ، وَإِنْ أَحْسَنَ الْعَرَبِيَّةَ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِبْصَارَهُ الْمَعْنَى^(٣). قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ^(٤): لَا يُجْزَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ خِلَافٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَخِلَافٌ مَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، وَخِلَافٌ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا وَاَفَقَهُ عَلَى مَا قَالَ.

المؤفية عشرين: مَنْ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ كَمَا أَمَرَ، وَهُوَ غَيْرُ عَالِمٍ بِالْقِرَاءَةِ، فَطَرَأَ عَلَيْهِ الْعِلْمُ بِهَا فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ - وَيُتَوَوَّرُ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ سَمِعَ مَنْ قَرَأَهَا، فَعَلِقَتْ بِحِفْظِهِ مِنْ مَجَرَّدِ السَّمَاعِ - فَلَا يَسْتَأْنِفُ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهُ أَدَّى مَا مَضَى عَلَى حَسَبِ مَا أَمَرَ بِهِ، فَلَا وَجْهَ لِإِبْطَالِهِ. قَالَ فِي كِتَابِ ابْنِ سَعْنُونٍ^(٥).

(١) صحابي وابن صحابي، شهد الحديبية وغيرها، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة سنة (٨٦هـ). السير ٤٢٨ / ٣.

(٢) سنن أبي داود (٨٣٢). وهو في مسند أحمد (١٩١١٠).

(٣) ينظر المبسوط للسرخسي ٣٧ / ١، وقد ذكر ابن عابدين في حاشيته أن الأصح رجوعه عن هذا القول.

(٤) الأوسط ١١٧ / ٣.

(٥) هو محمد ابن فقيه المغرب عبد السلام سحنون، أبو عبد الله، القيرواني، شيخ المالكية، له كتاب =

الباب الثالث

في التامين

وفيه ثمان مسائل:

الأولى: يُسنُّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾: آمين، لِيَتَمَيَّزَ ما هو قرآنٌ ممَّا ليس بقرآن.

الثانية: ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أَمَّنَ الإمام، فأَمُّنُوا، فإنه مَنْ وافَقَ تأمِينُهُ تأمِينَ الملائكة، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١). قال علماؤنا رحمه الله عليهم: فترتبت المغفرة للذنوب على مُقَدِّماتٍ أربع تَصَمَّنُها هذا الحديث: الأولى: تأمينُ الإمام. الثانية: تأمينُ مَنْ خَلَفَهُ. الثالثة: تأمينُ الملائكة. الرابعة: موافقةُ التَّامِينَ؛ قيل: في الإجابة، وقيل: في الزَّمن، وقيل: في الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيبُ دعاءَ من قلبٍ غافلٍ لاو»^(٢).

الثالثة: روى أبو داود، عن أبي مُصَبِّحِ المَقْرَئِيِّ قال: كُنَّا نَجْلِسُ إلى أبي زهير الثُميريِّ - وكان من الصحابة - فَيُحَدِّثُ أَحْسَنَ الحديث، فإذا دعا الرجلُ مَنَّا بدعاء، قال: إَحْتِمُهُ بِأَمِينَ. فَإِنَّ «آمِينَ» مثلُ الطَّابَعِ على الصحيفة. قال أبو زهير: ألا أخبرُكم عن ذلك؟ خَرَجْنَا مع رسولِ الله ﷺ ذاتَ ليلة، فَأَتَيْنَا على رجلٍ قد أَلَحَّ في المسألة، فوَقَفَ النبي ﷺ يَسْمَعُ^(٣) منه، فقال النبي ﷺ: «أَوْجَبَ إِنْ خَتَمَ». فقال له رجلٌ من القوم: بأيِّ شيء يَخْتِمُ؟ قال: «بِأَمِينَ، فإنه إِنْ خَتَمَ بِأَمِينَ، فقد أَوْجَبَ». فانصرف الرجلُ الذي سأل النبي ﷺ، فَأَتَى الرجلَ، فقال له: إَحْتِمْ يا فلان، وأبشِرْ^(٤).

= السير عشرون مجلداً، وكتاب التاريخ. توفي سنة (٢٦٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٣/ ٦٠.

(١) أخرجه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠). وهو في مسند أحمد (٩٩٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) بلفظه من حديث أبي هريرة، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرج الإمام أحمد (٦٦٥٥) نحوه أطول منه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) في (ظ): فسمع.

(٤) سنن أبي داود (٩٣٨). وفي إسناده ضَبَّيْح بن مُخْرِزِ البَمَقْرِنِي، تَفَرَّدَ بالرواية عنه محمد بن يوسف =

قال ابنُ عبد البر^(١): أبو زهير النُميري، اسمه يحيى بن نُفَيْر، روى عن النبي ﷺ^(٢): «لا تقتُلوا الجرادَ، فإنه جند الله الأعظم»^(٣).

وقال وهب بن مُنَبِّه: «آمين» أربعة أحرف، يخلُق الله من كلِّ حرف مَلَكًا يقول: اللهم اغفر لكلِّ مَنْ قال: آمين^(٤). وفي الخبر: «لَقَنَنِي جبريلُ آمينَ عند فراغي من فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالخاتَم على الكتاب»^(٥). وفي حديث آخر: «آمين خاتَم ربِّ العالمين»^(٦). قال الهَرَوِي^(٧): قال أبو بكر: معناه أنه طابَع الله على عباده؛ لأنه

= الفُزَيَايِي. وذكر ابنُ عبد البر هذا الحديث في الاستيعاب ٣٦٤/١١ بهامش الإصابة في ترجمة أبي زهير الأنماري، وقال: ليس إسناد حديثه بالقائم.

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ٢٦٥/١١، لكن ابن عبد البر لم يذكر في ترجمة أبي زهير النُميري حديثه المذكور في التامين، إنما أوردته في ترجمة أبي زهير الأنماري، وترجم أيضاً لثالث، وهو أبو الأزهر الأنماري، وقد جعلهم الحافظ ابن حجر في الإصابة اثنين، وأما المزي فقد أشار في تهذيبه إلى حديث أبي زهير النُميري في ترجمة أبي الأزهر الأنماري، وقال: لا أدري هو هذا أو غيره. وقال ابنُ أبي خاتم في الجرح والتعديل ٣٧٤/٩: ذُكر لأبي أن رجلاً سَمَّاه، فقال: يحيى بن نُفَيْر، فلم يعرفه، وقال: إنه غير معروف بكنيته، فكيف يُعرف اسمه؟

(٢) في (د) و(ز) زيادة: أنه قال.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٧٥٧/٢٢، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٢٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٩/٤، وقال: فيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٦٤٠/٢، ورمز لضعفه. قال البيهقي: هذا إن صح، فإنما أراد به - والله أعلم - إذا لم يتعرض لإفساد المزارع، فإذا تعرض له، جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل، أو أراد به تعذر مقاومته بالقتال والقتل.

(٤) هذا الخبر من الإسرائيليات، ونسبه النووي في تهذيب الأسماء واللغات ١٢/٣ إلى الثعلبي.

(٥) لم نقف له على مصدر، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٤٢٥/٢، عن أبي مسرة أن جبريل عليه السلام أقرأ النبي ﷺ فاتحة الكتاب، فلما قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: قل آمين، فقال: آمين. وأورده ابن عطية في تفسيره ٧٩/١. وهو مرسل.

(٦) أخرجه الطبراني في الدعاء (٢١٩)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٢٤٣٢/٦، والأزهري في تهذيب اللغة ٥١٢/١٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده مؤلّل بن عبد الرحمن، وإسماعيل بن يعلى أبو أمية، وهما ضعيفان، وقال ابن عدي في مؤلّل: عامة حديثه غير محفوظة. وقد أورد ابن عطية هذا الحديث في تفسيره ٧٩/١ من قول علي رضي الله عنه.

(٧) محمد بن أحمد بن الأزهر، أبو منصور، اللغوي الشافعي، صاحب تهذيب اللغة توفي سنة (٣٧٠هـ). =

يَدْفَعُ [به عنهم] الآفَاتِ والبَلَايَا، فَكَانَ كَخَاتَمٍ^(١) الْكِتَابِ الَّذِي يَصُونُهُ، وَيَمْنَعُ مِنْ إِفْسَادِهِ، وَإِظْهَارِ مَا فِيهِ. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «آمِينَ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٢). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ حَرْفٌ يَكْتَسِبُ بِهِ قَائِلُهُ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ.

الرابعة: معنى «آمِينَ» عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا، وَضِعَ مَوْضِعَ الدُّعَاءِ. وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ: رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَهَلَالِ بْنِ إِسَافٍ. وَرَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَصِحَّ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٣). وَقِيلَ: مَعْنَى «آمِينَ»: كَذَلِكَ فَلْيَكُنْ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ^(٤).

وَرَوَى الْكَلْبِيُّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَا مَعْنَى آمِينَ؟ قَالَ: «رَبِّ افْعَلْ»^(٥). وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ قُوَّةٌ لِلدُّعَاءِ^(٦)، وَاسْتَنْزَالٌ لِلْبَرَكَةِ^(٧). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: مَعْنَاهُ: لَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا^(٨).

الخامسة^(٩): وَفِي آمِينَ لُغَتَانِ: الْمَدُّ عَلَى وَزْنِ فَاعِيلٍ، كِيَاسِينَ. وَالْقَصْرُ عَلَى وَزْنِ يَمِينَ. قَالَ الشَّاعِرُ^(١٠) فِي الْمَدِّ^(١١):

= وَهُوَ هَرَوِيٌّ أَزْهَرِيٌّ، لَكِنَّهُ مَشْهُورٌ بِالْأَزْهَرِيِّ، وَكَلَامُهُ هَذَا فِي تَهْذِيبِ اللُّغَةِ ٥١٢/١٥ - ٥١٣، وَمَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ، وَأَبُو بَكْرٍ الْمَذْكُورُ: هُوَ أَحَدُ رِجَالِ الْإِسْنَادِ فِي رِوَايَتِهِ.

- (١) فِي (د) وَ(ز): خَاتَمٌ.
- (٢) كَذَا أَوْرَدَهُ الْأَزْهَرِيُّ فِي تَهْذِيبِهِ ٥١٣/١٥، وَنَسَبَهُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَلَمْ نَعثرْ لَهُ عَلَى مَصْدَرٍ آخَرَ.
- (٣) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ ١/ ٦. وَيَنْظُرُ مُصَنِّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ ٤٢٦/٢، وَالْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ ١/ ٧٩.
- (٤) الصَّحَاحُ (أَمِنْ).
- (٥) تَفْسِيرُ أَبِي الْلَيْثِ ٨٤/١، وَإِسْنَادُ الْخَبَرِ ضَعِيفٌ جَدًّا مِنْ أَجْلِ الْكَلْبِيِّ وَأَبِي صَالِحٍ، وَقَدْ أَوْرَدَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْتُورِ ١٧/١، وَنَسَبَهُ لِلثَّلَعِيِّ. وَقَدْ سَلَفَ ذِكْرُهُ فِي بَابِ مَا جَاءَ مِنَ الْوَعِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالرَّأْيِ.
- (٦) فِي (ظ): الدُّعَاءُ.
- (٧) فِي (د) وَ(ز): الْبَرَكَةُ. وَذَكَرَ الْخَبَرُ أَبُو الْلَيْثِ السَّمُرْقَنْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٨٤/١، وَفِيهِ: وَاسْتَنْزَالٌ لِلرَّحْمَةِ، وَأَوْرَدَهُ النَّوَوِيُّ فِي التَّيْيَانِ ص ١٢٥، وَنَسَبَهُ لِأَبِي بَكْرٍ الْوَرَّاقِ.
- (٨) فِي (ز): أَمَلْنَا.
- (٩) قَوْلُهُ: الْخَامِسَةُ، لَيْسَ فِي (د) وَ(ز).
- (١٠) هُوَ مِجْنُونٌ لَيْلَى، قَيْسُ بْنُ مَعَاذٍ، وَيُقَالُ: قَيْسُ بْنُ الْمَلُوحِ. وَالْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ص ٢٨٣، وَأَوْرَدَهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي اللِّسَانِ (أَمِنْ)، وَنَسَبَهُ لِعَمْرِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ.
- (١١) قَوْلُهُ: فِي الْمَدِّ، لَيْسَ فِي (ظ).

يَا رَبِّ لَا تَسْلُبْنِي حُبَّهَا أَبَدًا وَيَرْحَمْ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ: آمِينَا
وقال آخر:

آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ حَتَّى أَبْلُغَهَا الْفَيْنِ آمِينَا^(١)
وقال آخر فقصر^(٢):

تَبَاعَدَ مِنِّي فُطْحُلٌ إِذْ سَأَلْتُهُ آمِينَ فزاد الله ما بيننا بُعْدًا^(٣)
وتشديد الميم خطأ. قاله الجوهري^(٤). وقد رُوي عن الحسن وجعفر الصادق
التشديد^(٥)، وهو قول الحسين بن الفضل، من: أَمْ، إِذَا قَصَدَ، أَي: نحن قاصِدون
نحوك، ومنه قوله: ﴿وَلَا آتَيْنَ الْهَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. حكاه أبو نصر عبد
الرحيم بن عبد الكريم القشيري^(٦). قال الجوهري: وهو مبني على الفتح، مثل: أَيْنَ
وكيف، لاجتماع الساكنين. وتقول منه: أَمَّنْ فلانٌ تأمينا.

السادسة^(٧): اختلف العلماء: هل يقولها الإمام، وهل يجهر بها؟

فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين إلى ذلك. وقال الكوفيون وبعض
المدنيين: لا يجهر بها. وهو قول الطبري^(٨). وبه قال ابن حبيب من علمائنا.

وقال ابن بكير: هو مُحَيَّرٌ. وروى ابن القاسم، عن مالك، أن الإمام لا يقول:
آمِينَ^(٩)، وإنما يقول ذلك مَنْ خَلَفَهُ، وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب

(١) ذكره ابن عطية في تفسيره ٨٠ / ١.

(٢) في (م): في القصر.

(٣) أورده الجوهري في الصحاح، وابن منظور في اللسان (أمن) و(فطحل)، وأورده أيضاً ابن منظور في
اللسان (فطحل) (بتقديم الحاء)، وبهذا اللفظ وقع في التمهيد ٧ / ١١.

(٤) الصحاح (أمن).

(٥) ذكره النووي في التبيان ص ١٢٦، ونسبه للواحدي، واستغرب التشديد، وقال: عدّها أكثر أهل اللغة
من لحن العوام، وقال جماعة من أصحابنا: من قالها في الصلاة، بطلت صلاته.

(٦) هو ابن أبي القاسم القشيري، النيسابوري، مات سنة (٥١٤ هـ). سير أعلام النبلاء ١٩ / ٤٢٦.

(٧) في (د) و(ز): الخامسة.

(٨) لم نقف على قول الطبري، ونقله المصنف عن الاستذكار ٤ / ٢٥٤، والتمهيد ٧ / ١٣.

(٩) قال ابن عطية في تفسيره ٧٩ / ١: روي عن مالك أن الإمام يقولها، أسرّاً، أم جَهراً، وروي عنه أن
الإمام لا يؤمّن في الجهر، وقال ابن حبيب: يؤمّن، وقال ابن بكير: هو مخيّر. وينظر أحكام القرآن
لابن العربي ١ / ٧.

مالك^(١). وَحُجَّتْهُمْ حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَنَا، فَبَيَّنَ لَنَا سُنَّتَنَا، وَعَلَّمَنَا صَلَاتَنَا، فَقَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ، فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، ثُمَّ لِيُؤْمَمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ، فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَنْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِيبْكُمْ اللَّهُ». وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٢). وَمِثْلُهُ حَدِيثُ سَمِيِّ، [عَنْ أَبِي صَالِحِ السَّمَّانِ]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَخْرَجَهُ مَالِكٌ^(٣).

وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، لِحَدِيثِ وَاثِلِ بْنِ حُجْرٍ^(٤) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: «آمِينَ»، يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالدَّارِقُطْنِيُّ. وَزَادَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ سُنَّةٌ تَفَرَّدَ بِهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ. هَذَا صَحِيحٌ وَالَّذِي بَعْدَهُ^(٥).

وَتَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ: بَابُ جَهْرِ الْإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: آمِينَ دَعَاءٌ، أَمَّنَ ابْنُ الزَّبِيرِ وَمَنْ وَرَاءَهُ حَتَّى إِنَّ لِلْمَسْجِدِ لِلَّجَّةَ^(٦).

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَبِهِ يَقُولُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ [وَالتَّابِعِينَ] وَمَنْ بَعْدَهُمْ، يَرَوْنَ أَنْ يَرْفَعَ الرَّجُلُ صَوْتَهُ بِالتَّأْمِينِ، لَا يُخْفِيهَا. وَبِهِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ^(٧). وَفِي «الْمَوْطَأِ» وَ«الصَّحِيحِينَ»: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «آمِينَ»^(٨).

(١) الاستذكار ٤ / ٢٥٣.

(٢) صحيح مسلم (٤٠٤)، وهو في المسند (١٩٦٦٥).

(٣) الموطأ ٨٧ / ١، واستدرك منه ما بين حاضرتين الراوي بين سَمِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَدْ سَقَطَ مِنَ النِّسْخِ الْخَطِيئةُ (م)، وَهُوَ فِي الْمَسْنَدِ (٩٩٢٢)، وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٧٨٢).

(٤) الحضرمي، الصحابي، كَانَ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، وَيُقَالُ: كَانَ عَلَى رَايَةِ قَوْمِهِ يَوْمَ صَفِّينَ مَعَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ تَابَعَ مُعَاوِيَةَ لَمَّا دَخَلَ الْكُوفَةَ، وَمَاتَ فِي وَلايَةِ مُعَاوِيَةَ. السِّير ٢ / ٥٧٢.

(٥) سنن أبي داود (٩٣٢)، وسنن الدارقطني ١ / ٣٣٣ - ٣٣٤، وعنده: يَمْدُ بِهَا صَوْتَهُ، وَهُوَ فِي الْمَسْنَدِ (١٨٨٤٢). وَأَبُو بَكْرٍ الْمَذْكُورُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ شَيْخُ الدَّارِقُطْنِيِّ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ، وَقَوْلُهُ: هَذَا صَحِيحٌ وَالَّذِي بَعْدَهُ، هُوَ مِنْ كَلَامِ الدَّارِقُطْنِيِّ، يَعْنِي أَنَّ الدَّارِقُطْنِيَّ صَحَّحَ هَذَا الْحَدِيثَ، وَالْحَدِيثَ الَّذِي بَعْدَهُ، وَهُوَ بَنَحُوهُ، وَقَدْ سَاقَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ بَعْدَهُ، وَفِيهِ: يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِآمِينَ.

(٦) صحيح البخاري، بَابُ جَهْرِ الْإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ، قَبْلَ الْحَدِيثِ (٧٨٠).

(٧) سنن الترمذي، بِإِثْرِ الْحَدِيثِ (٢٤٨)، وَمَا بَيْنَ حَاضِرَتَيْنِ مِنْهُ.

(٨) الموطأ ٨٧ / ١، وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِإِثْرِ الْحَدِيثِ (٧٨٠)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ بِإِثْرِ الْحَدِيثِ (٤٤٠).

وفي «سنن» ابن ماجه عن أبي هريرة قال: تَرَكَ النَّاسُ آمِينَ، وكان رسولُ الله ﷺ إذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: «آمِينَ»، حتى يَسْمَعَهَا أَهْلُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، فَيَرْتَجُّ بِهَا الْمَسْجِدَ^(١).

وأما حديثُ أبي موسى وسُمِّيَ، فمعناهما التعريفُ بالموضع الذي يُقال فيه: آمين، وهو إذا قال الإمامُ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ليكونَ قولُهما معاً، ولا يتقدّمه بقول: آمين، لما ذكرناه، والله أعلم. ولقوله ﷺ: «إذا آمَنَ الإمامُ، فأمنوا».

وقال ابنُ نافع في كتاب ابن الحارث^(٢): لا يقولُها المأمومُ إلا أن يَسْمَعَ الإمامَ يقول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وإن^(٣) كان يبعد لا يَسْمَعُهُ، فلا يَقُلْ.

وقال ابنُ عبدوس^(٤): يَتَحَرَّى قَدْرَ الْقِرَاءَةِ، ويقول: آمين^(٥).

السابعة^(٦): قال أصحابُ أبي حنيفة: الإخفاءُ بآمين أولى^(٧) من الجهرِ بها؛ لأنه دعاءٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، قالوا: والدليلُ عليه ما رُوِيَ في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، قال: كان موسى يدعُو، وهارونُ يُؤمِّنُ، فَسَمَّاهُمَا اللهُ دَاعِيَيْنِ^(٨).

(١) سنن ابن ماجه (٨٥٣)، وفي إسناده: بشر بن رافع الحارثي، وهو ضعيف الحديث، وأبو عبد الله الدؤسي ابنُ عم أبي هريرة، وهو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه بشر بن رافع، قال الذهبي في الميزان ٥٤٥/٤: لا يُعرف.

(٢) هو محمد بن حارث بن أسد، الخشني، القبرواني، أبو عبد الله. توفي سنة (٣٦١هـ). ذكر له الذهبي في السير ١٦٦/١٦ عدة كتب، منها الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، ولعل قول ابن نافع (وهو عبد الله) الذي نقله عنه ابن الحارث، هو في كتابه هذا.

(٣) في (م): وإذا.

(٤) محمد بن إبراهيم، أبو عبد الله، فقيه المغرب، توفي قريباً من سنة ستين ومئتين. سير أعلام النبلاء ٦٣/١٣.

(٥) من قوله: وقال ابن نافع... من المحرر الوجيز ٧٩/١ - ٨٠.

(٦) في (د) و(ز): السادسة.

(٧) في (ظ): أفضل.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٧١/١٢ من قول عكرمة، وروى مرفوعاً بإسناد ضعيف جداً.

والجواب: أنَّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضلَ، لما يدخله من الرِّياء. وأما ما يتعلَّقُ بصلاة الجماعة، فشهودها إشهارٌ شعاريٍّ ظاهر، وإظهارٌ حقٌّ يُندبُ العبادُ إلى إظهاره. وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المُشتمِلَةِ على الدعاء والتأمين في آخرها، فإذا كان الدعاء مما يُسنُّ الجهرُ فيه، فالتأمين على الدعاء تابعٌ له، وجارٍ مجراه، وهذا بيِّن.

الثامنة^(١): كلمة «آمين» لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام. ذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»: حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا زُرَيْبِي^(٢) مُؤَدَّنٌ مسجد هشام بن حسان، قال: حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى أُمَّتِي ثَلَاثًا لَمْ يُعْطِ^(٣) أَحَدًا قَبْلَهُم: السلام، هو تَحِيَّةُ أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين، إلا ما كان من موسى وهارون^(٤)». قال أبو عبد الله: معناه أنَّ موسى دعا على فرعون، وأَمَّنْ هارون، فقال الله تبارك اسمه عندما ذَكَرَ دعاء موسى في تنزيله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، ولم يَذْكُرْ مقالة هارون. وقال موسى: رَبَّنَا، فكان من هارون التأمين، فسمَّاه داعياً في تنزيله، إذ صَيَّرَ ذلك منه دَعْوَةً^(٥).

وقد قيل: إِنَّ «آمين» خاصٌّ لهذه الأمة، لِما رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما حَسَدْتُكُمْ اليهودُ على شيء، ما حَسَدْتُكُمْ على السلام والتأمين». أخرجه ابنُ ماجه من حديث حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عن سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عن أبيه، عن عائشة، أَنَّ النبي ﷺ قال... الحديث^(٦).

(١) في (د) و(ز): السابعة .

(٢) تحرف في النسخ (م) إلى: رزين .

(٣) في (م): تُعْطَ .

(٤) نوادر الأصول ص ١٨٥. زُرَيْبِي - وهو ابنُ عبد الله الأزدي - قال الترمذي بإثر (١٩١٩): له أحاديث مناكير عن أنس بن مالك وغيره، وقال ابن حبان في المجروحين ٣١٢/١: منكر الحديث على قلة روايته، يروي عن أنس ما لا أصل له، فلا يجوز الاحتجاج به .

(٥) لم نقف على هذا الكلام في نوادر الأصول .

(٦) سنن ابن ماجه (٨٥٦)، وإسناده صحيح . أبو صالح: هو ذكوان السَّمان .

وأخرج أيضاً من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما حَسَدَتْكُمْ اليهودُ على شيء ما حَسَدَتْكُمْ على آمين^(١)، فأكثرُوا من قول آمين^(٢)».

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما حَسَدَنَا أهل الكتاب؛ لأنَّ أولَها حمدُ الله، وثَناءُ عليه، ثُمَّ خُضُوعٌ له واستِكانَةٌ، ثُمَّ دُعاءٌ لنا بالهِدَايةِ إلى الصُّراطِ^(٣) المستقيم، ثم الدعاءُ عليهم مع قولنا: آمين.

الباب الرابع

فيما تَضَمَّنَتْهُ الفاتحةُ من المعاني والقراءات والإعراب

وفضل الحامدين

وفيه ستُّ وثلاثون مسألة:

الأولى: قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رَوَى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ قال: «إذا قال العبدُ: الحمدُ لله، قال الله: صَدَّقَ عبدي، الحمدُ لي»^(٤).

ورَوَى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عن العبدِ أن يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(٥).

وقال الحسنُ: ما مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا والحمدُ لله أَفْضَلُ مِنْهَا^(٦).

وروى ابنُ ماجه عن أنس بن مالك، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أَنْعَمَ اللهُ على

(١) في (د) و(ظ): التَّأمين.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٥٧).

(٣) في النسخ الخطية: والصراط، بدل: إلى الصراط، والمثبت من (م).

(٤) وأخرجه الترمذي (٣٤٣٠)، وابن ماجه (٣٧٩٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٩٧٧٤) مطولاً. قال:

الترمذي: حديث حسن غريب. وذكر الترمذي والنسائي أن شعبة رواه، ولم يرفعه.

(٥) صحيح مسلم (٢٧٣٤): (٨٩)، وهو عند أحمد برقم (١٢١٦٨).

(٦) ذكر البيهقي نحوه في شعب الإيمان بإثر الحديث (٤٤٠٤)، وأخرجه أيضاً (٤٤٠٦) من قول الحسن

بلفظ حديث أنس الذي يليه.

عَبْدَ نِعْمَةٍ، فقال: الحمدُ لله، إلا كان الذي أعطاه أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ^(١).

وفي «نوادير الأصول» عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِحِذَافِيرِهَا بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ قَالَ: الحمدُ لله، لَكَانَتِ الْحَمْدُ لله أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ». قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه مَنْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا، ثُمَّ أُعْطِيَ عَلَى أَثَرِهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ حَتَّى نَطَقَ بِهَا، لَكَانَتْ^(٢) هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَفْضَلَ مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ، وَالْكَلِمَةُ بَاقِيَةٌ، هِيَ مِنَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ. قال الله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْمَصْلُوحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. وقيل في بعض الروايات: لكان ما أعطى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ^(٣).

فَصَيَّرَ الْكَلِمَةَ إِعْطَاءً مِنَ الْعَبْدِ، وَالدُّنْيَا أَخْذًا مِنَ اللَّهِ، فَهَذَا فِي التَّدْبِيرِ^(٤). كَذَاكَ يَجْرِي فِي الْكَلَامِ، أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنَ الْعَبْدِ، وَالدُّنْيَا مِنَ اللَّهِ، وَكِلَاهُمَا مِنَ اللَّهِ فِي الْأَصْلِ: الدُّنْيَا مِنْهُ، وَالْكَلِمَةُ مِنْهُ، أَعْطَاهُ الدُّنْيَا، فَأَغْنَاهُ، وَأَعْطَاهُ الْكَلِمَةَ، فَشَرَّفَهُ بِهَا فِي الْآخِرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهٍ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ: «أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ: يَا رَبِّ، لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَّلْتُ بِالْمَلَائِكِينَ، فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَكْتُبَانِيهَا، فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَا: يَا رَبَّنَا، إِنَّ عَبْدًا^(٥) قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ - مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ، إِنَّهُ قَدْ قَالَ: يَا رَبِّ، لَكَ الْحَمْدُ، كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّى يَلْقَانِي، فَأَجْزِيَهُ بِهَا»^(٦).

قال أهل اللغة: أَعْضَلَ الْأَمْرُ: اشْتَدَّ، وَاسْتَغْلَقَ، وَالْمُعْضَلَاتُ - بِتَشْدِيدِ الضَّادِ -:

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٠٥).

(٢) في النسخ: أنه قد أعطي الدنيا... فكانت، والمثبت من النواذر.

(٣) في النسخ و(م): أكثر مما أخذ، والمثبت من نواذر الأصول ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٤) في (د): التذكير.

(٥) في (م): وقالوا: ياربنا إن عبدك.

(٦) سنن ابن ماجه (٣٨٠١).

الشدائد^(١). وَعَظَّلَتِ المرأةُ والشاةُ: إذا نَشِبَ ولُذَّها، فلم يسهل مخرجُها، بتشديد الضاد أيضاً. فعلى هذا يكون: أَعْظَلَتِ الْمَلَائِكَةُ، أو عَظَّلَتِ الْمَلَائِكَةُ، بغير باء. والله أعلم.

وَرَوَى مسلم^(٢) عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «الظهور شَطْرُ الإِيْمَانِ، والحمدُ لله تَمْلَأُ المِيزَانَ، وسبحانُ الله والحمدُ لله تَمْلَأَنِ - أو تَمْلَأُ - ما بين السماء والأرضِ». وذكر الحديث^(٣).

الثانية: اختلف العلماء أيُّما أفضلُ: قولُ العبدِ: الحمدُ لله ربِّ العالمين، أو قولُ: لا إلهَ إلا اللهُ؟ فقالت طائفةٌ: قوله: الحمدُ لله ربِّ العالمين أفضلُ؛ لأنَّ في ضمِّهِ التَّوْحِيدَ، الذي هو: لا إلهَ إلا اللهُ، ففي قوله توحيدٌ وحمدٌ. وفي قوله: لا إلهَ إلا اللهُ، توحيدٌ فقط.

وقالت طائفةٌ: لا إلهَ إلا اللهُ أفضلُ؛ لأنها تَدْفَعُ الكُفْرَ والإِشْرَاقَ، وعليها يُقَاتَلُ الْخَلْقُ. قال رسول الله ﷺ: «أَمِرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إلهَ إلا اللهُ»^(٤). واختار هذا القولُ ابنُ عطية^(٥)؛ قال: والحاكِمُ بذلك قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «أفضلُ ما قلتُ^(٦) أنا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إلهَ إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له»^(٧).

الثالثة: أجمع المسلمون على أنَّ اللهَ محمودٌ على سائرِ نِعَمِهِ، وأنَّ مما أنعم اللهُ به الإِيْمَانَ، فَدَلَّ على أنَّ الإِيْمَانَ فِعْلُهُ وَخَلْقُهُ، والدليلُ على ذلك قوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ».

(١) وفي الصحاح واللسان والقاموس وغيرها: الْمُعْظَلَاتُ، بالتخفيف.

(٢) في (د) و(م): وروي عن مسلم، ولم ترد في (ظ)، والمثبت من (ز).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٣). وهو في مسند أحمد (٢٢٩٠٢).

(٤) أخرجه أحمد (٨٥٤٤)، والبخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١): (٣٣) من حديث أبي هريرة. وأخرجه

أحمد (١١٧)، والبخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠): (٣٢) من حديث عمر. وأخرجه أحمد

(١٣٠٥٦)، والبخاري (٣٩٢) من حديث أنس. وأخرجه أحمد (١٤٢٠٩)، ومسلم (٢١): (٣٥) من

حديث جابر. وأخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢): (٣٦) من حديث ابن عمر، رضي الله عنهم

أجمعين.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٦٦.

(٦) في (د) و(ز): قلته.

(٧) أخرجه أحمد (٦٩٦١)، والترمذي (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما.

والعالمون جُمْلَةُ المخلوقات، وَمِنْ جُمْلَتِهَا الإِيْمَانُ، لا كما قال القَدَرِيَّةُ: إنه خَلَقَ لهم، على ما يأتي بيانه^(١).

الرابعة: الحمدُ في كلام العرب معناه: الثناء الكاملُ. والالف واللامُ لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يَسْتَحِقُّ الحمدَ بِأَجْمَعِهِ، إذ له الأسماءُ الحسنى، والصفاتُ العُلا.

وقد جُمِعَ لفظُ الحمدِ جَمَعَ القِلَّةِ في قول الشاعر:

وأبْلَجَ محمودُ الثَّنَاءِ خَصَصْتُهُ بأَفْضَلِ أقوالِي وأَفْضَلِ أحمُدي^(٢)
فالحمدُ نقيضُ الذَّمِّ، تقول: حَمَدْتُ الرجلَ أَحَمَدُهُ حَمْدًا، فهو حميدٌ ومحمودٌ. والتَّحْمِيدُ أبلغُ من الحمدِ. والحمدُ أَعَمُّ من الشُّكر، والمُحَمَّدُ: الذي كَثُرَتْ خِصَالُهُ المحمودَةُ. قال الشاعر^(٣):

إلى الماجدِ القَرَمِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ
وبذلك سُمِّيَ رسولُ الله ﷺ. وقال الشاعر^(٤):

فَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فذُو العَرشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ
والمَحْمَدَةُ: خلافُ المَذْمَةِ. وأَحَمَدُ الرجلُ: صارَ أمرُهُ إلى الحمدِ. وأَحَمَدْتُهُ: وَجَدْتُهُ محموداً، تقول: أَتَيْتُ مَوْضِعَ كَذَا، فَأَحَمَدْتُهُ، أي: صادفتُهُ محموداً مُوَافِقاً، وذلك إذا رَضِيتَ سُكْنَاهُ أو مَرْعَاهُ. ورجُلٌ حَمْدَةٌ - مثل^(٥) هُمَزَةٍ - يُكثِرُ حَمْدَ الأشياءِ، ويقولُ فيها أَكْثَرَ ممَّا فيها. وَحَمْدَةُ النَّارِ - بالتحريك - : صوتُ التَّهَابِهَا^(٦).

(١) عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى﴾ [السجدة: ١٣].

(٢) أورده أبو حيان في البحر المحيط ١/ ١٨، والسمين الحلبي في الدر المصون ١/ ٣٨ - وعنه ابنُ عادل الحنبلي في اللباب ١/ ١٧٠ - ونقلوه عن ابن الأعرابي، حيث حكى جمع الحمد على أفعُل، وقالوا: الأصل فيه المصدرية، فلذلك لا يثنى، ولا يُجمع.

(٣) هو الأعشى ميمون بن قيس، والبيت في ديوانه ص ٢٣٩، وفيه: الفَرْع، بدل: القَرَم، وصدْرُهُ:

إليك أبَيْتَ اللَّغْنَ كَانَ كَلَالُهَا

وهو من قصيدة يمدحُ فيها النعمانَ بنَ المنذر. قوله: القَرَم، يعني السيّدَ المعظم.

(٤) هو حسان بن ثابت، رضي الله عنه، والبيت في ديوانه ص ٤٧ و ٩٢.

(٥) في (د) و(ز): مثال.

(٦) الصحاح (حمد).

الخامسة: ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء. وليس بمَرَضِيٍّ. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي^(١) في كتاب «الحقائق» له، عن جعفر الصادق وابن عطاء^(٢). قال ابن عطاء: معناه الشكر لله، إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه.

واستدل الطبري على أنهما بمعنى، بصحّة قولك: الحمد لله شكراً^(٣). قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك: شكراً، إنما خصصت به الحمد أنه^(٤) على نعمة من النعم.

وقال بعض العلماء: إن الشكر أعم من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح والقلب، والحمد إنما يكون باللسان خاصّة. وقيل: الحمد أعم؛ لأن فيه معنى الشكر، ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر^(٥)، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله^(٦). وقال الله لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَخَّرَنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]. وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقال في قصة داود وسليمان: ﴿وَقَالَ

(١) محمد بن الحسين بن محمد، الأزدي، السلمي الأم، صاحب طبقات الصوفية وغيره. توفي سنة (١٢١٢هـ). السير ١٧/ ٢٤٧. وكتاب الحقائق الذي ذكره له المصنف، اسمه حقائق التفسير؛ قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٤٦: أتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية، نسأل الله العافية.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس الأدمي، البغدادي، مات سنة (٣٠٩هـ). السير ١٤/ ٢٥٥.

(٣) هو في تفسيره ١/ ١٣٧-١٣٨، لكن المصنف نقل ذلك عن ابن عطية في تفسيره ١/ ٦٦.

(٤) في (د) و(ظ) و(م): لأنه، والمثبت من (ز)، وهو الموافق لتفسير ابن عطية.

(٥) أورد ابن جرير في تفسيره ١/ ١٣٦ قول ابن عباس: الحمد لله هو الشكر. وأورد السيوطي في الدر المنثور ١/ ١١، عن ابن عباس أيضاً قوله: الحمد لله كلمة الشكر.

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (٣٣٦٨) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٩٩٧٥) و(٩٩٧٦).

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿النمل: ١٥﴾. وقال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]. ﴿وَمَا آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. فهي كلمة كل شاكِرٍ.

قلت: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته، من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان. وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يَقَعُ على الثناء، وعلى التَّحْمِيدِ، وعلى الشُّكْرِ، والجزاء مخصوص، إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفًا، فصار الحمد أعم في الآية؛ لأنه يَزِيدُ على الشُّكْرِ.

ويُذَكِّرُ الحمدُ بمعنى الرِّضا، يقال: بَلَوْتُهُ، فَحَمِدْتُهُ، أي: رَضِيتُهُ. ومنه قوله تعالى: ﴿مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقال ﷺ: «أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ غَسَلُ الْإِحْلِيلِ»^(١) أي: أرضاه لكم.

ويُذَكِّرُ عن جعفر الصادق في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مَنْ حَمِدَهُ بصفاته كما وَصَفَ نفسه، فقد حَمِدَ؛ لأنَّ الحمدَ حاءٌ وميمٌ ودالٌّ، فالحاءُ مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ، والميمُ مِنَ الْمُلْكِ، والدالُّ مِنَ الدِّيمُومِيَّةِ، فَمَنْ عَرَفَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ والدِّيمُومِيَّةِ وَالْمُلْكِ، فقد عَرَفَهُ، وهذا هو حقيقة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال شقيق بن إبراهيم^(٢) في تفسير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: هو على ثلاثة أوجه: أوَّلُها: إذا أعطاك الله شيئاً، تَعَرَّفْتَ مَنْ أعطاك. والثاني: أن تَرْضَى بما أعطاك. والثالث: ما دَامَتْ قُوَّتُهُ في جسدك ألا تَعْصِيهِ^(٣). فهذه شرائطُ الحمد.

السادسة: أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يَأْذَنْ في ذلك لغيره، بل نهاهم عن ذلك في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٥٤/١، عن ابن عباس موقوفاً.

(٢) أبو علي البلخي، الأزدي، شيخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم. قُتِلَ في غزاة كُولان سنة (١٩٤هـ). السير ٣١٣/٩.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٩).

فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أُحْثُوا فِي وَجْهِهِ الْمَدَاحِينَ الثَّرَابَ». رواه المِقْدَادُ^(١). وسيأتي القول فيه في «النساء» إن شاء الله تعالى^(٢).

فمعنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: سَبَقَ الْحَمْدُ مِنِّي لِنَفْسِي قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَنِي أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَحَمْدِي لِنَفْسِي فِي الْأَزَلِ لَمْ يَكُنْ بِعِلَّةٍ^(٣)، وَحَمْدُ^(٤) الْخَلْقِ مَشُوبٌ بِالْعِلَلِ.

قال علماؤنا: فَيُسْتَقْبَحُ مِنَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي لَمْ يُعْطَ الْكَمَالَ أَنْ يَحْمَدَ نَفْسَهُ، لِيَسْتَجِلِبَ لَهَا الْمَنَافِعَ، وَيُدْفَعَ عَنْهَا الْمَضَارَّ.

وقيل: لَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ عَجَزَ عِبَادِهِ عَنْ حَمْدِهِ، حَمِدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ فِي الْأَزَلِ^(٥)، فَاسْتَفْرَاغَ طَوْقِ^(٦) عِبَادِهِ هُوَ مَحَلُّ الْعَجَزِ عَنْ حَمْدِهِ. أَلَا تَرَى سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ كَيْفَ أَظْهَرَ الْعَجَزَ بِقَوْلِهِ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»؟^(٧).

وَأَنشَدُوا:

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُثْنِي^(٨)

وقيل: حَمِدَ نَفْسَهُ فِي الْأَزَلِ، لَمَّا عَلِمَ مِنْ كَثَرَةِ نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَعَجَزِهِمْ عَنْ الْقِيَامِ بِوَاجِبِ حَمْدِهِ، فَحَمِدَ نَفْسَهُ عَنْهُمْ، لِتَكُونَ النِّعْمَةُ أَهْنًا لَدَيْهِمْ، حَيْثُ أَسْقَطَ عَنْهُمْ بِهِ ثِقَلُ الْمِنَّةِ.

السابعة: وَأَجْمَعَ الْقُرَّاءُ السَّبْعَةُ، وَجَمْهُورُ النَّاسِ، عَلَى رَفْعِ الدَّالِّ مِنْ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٢٤) بهذا اللفظ، وينحوه أخرجه مسلم (٣٠٠٢).

(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية (٤٩).

(٣) في (د) و(ظ): لعل.

(٤) تحرف في (م) إلى: وحمدي.

(٥) في (ظ): حمد نفسه بنفسه في الأزل.

(٦) في النسخ الخطية: طرق، والمثبت من (م).

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣١٢)، ومسلم (٤٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد أيضاً

(٧٥١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٨) البيت لأبي نواس في قصيدة يمدح بها الأمين بن الرشيد، انظر ديوانه ص ٦٤٧.

وَرُوِيَ عَنْ سَفِيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَرُوَيْتَ بِنِ الْعَجَّاجِ^(١): «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، بِنَصْبِ الدَّالِّ، وَهَذَا عَلَى إِضْمَارٍ فِعْلٍ^(٢).

ويقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» بالرفع: مبتدأ وخبرٌ. وسبيلُ الخبر أن يُفِيدَ، فما الفائدةُ في هذا؟ فالجوابُ أنَّ سيبويه قال: إذا قال الرجلُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، بالرفع، ففيه من المعنى مثلُ ما في قولك: حَمِدْتُ اللَّهَ حَمْدًا، إلا أنَّ الذي يرفعُ «الْحَمْدَ» يُخْبِرُ أَنَّ الْحَمْدَ مِنْهُ، وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ لِلَّهِ. والذي يَنْصِبُ «الْحَمْدَ»، يُخْبِرُ أَنَّ الْحَمْدَ مِنْهُ وَحْدَهُ لِلَّهِ^(٣).

وقال غيرُ سيبويه: إنما يتكلَّمُ بهذا تَعَرُّضًا لِعَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وتَعْظِيمًا لَهُ وَتَمْجِيدًا، فهو خِلافُ معنى الخبرِ، وفيه معنى السَّوَالِ. وفي الحديث: «مَنْ شُغِلَ بِذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي، أُعْطِيَتهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(٤).

وقيل: إِنَّ مَذْحَه عَزَّ وَجَلَّ لِنَفْسِهِ وَثَنَاءٌ عَلَيْهَا، لِيُعْلَمَ ذَلِكَ عِبَادَهُ. فالمعنى على هذا: قولوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ^(٥). قال الطبري: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثَنَاءٌ أَتَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَفِي ضَمْنِهِ أَمْرٌ بِعِبَادَتِهِ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قولوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ. وعلى هذا يجيء: قولوا: إِيَّاكَ. وهذا^(٦) مِنْ حَذْفِ الْعَرَبِ مَا يَدُلُّ ظَاهِرُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. كما قال الشاعر:

وَأَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَكُونُ رَمْسًا إِذَا سَارَ النَّوَاعِجُ لَا يَسِيرُ
فَقَالَ السَّائِلُونَ^(٧) لِمَنْ حَفَرْتُمْ فَقَالَ الْقَائِلُونَ لَهُمْ وَزِيرُ^(٨)

(١) التميمي، الراجز، من أعراب البصرة، كان رأساً في اللغة، توفي سنة (١٤٥هـ) السير ٦ / ١٦٢.

(٢) من قوله: وأجمع القراء .. من كلام ابن عطية في تفسيره ١ / ٦٦. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١ القراءة على نصب الدال، ونسبها لرؤية.

(٣) الكتاب ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) وغيره من حديث أبي سعيد الخدري، وسلف الكلام عليه ص ٩.

(٥) في (ظ): الحمد لله رب العالمين.

(٦) في (ظ): قال: وهذا.

(٧) في (د) و(ظ): القائلون.

(٨) أوردهما الفرءاء في معاني القرآن ١ / ١٧٠، والطبري ١ / ١٤٠ و ١٧ / ٩٩، ونسباهما إلى بعض بني عامر، وهما في البيان والتبيين ٣ / ١٨٤ باختلاف في بعض الألفاظ، ونسبهما للوزيري. قوله: الرمس: هو القبر، والنواعج جمع ناعجة، وهي الناقة البيضاء والسريعة.

المعنى: المحفور له وزير، فحُذِفَ لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير^(١).
وروي عن ابن أبي عبلة^(٢): «الحمد لله» بضم الدال واللام على إتباع الثاني
الأول^(٣)، وليتجانس^(٤) اللفظ.

وطلب التجانس في اللفظ كثير في كلامهم، نحو: أجوءك، وهو منحدر من
الجب، بضم الدال والجيم، قال:

إضرب الساقين أمك هابل^(٥)

بضم النون، لأجل ضم الهزمة.

وفي قراءة لأهل مكة: «مردفين» بضم الراء إتباعاً للميم^(٦)، وعلى ذلك «مقبلين»^(٧)
بضم القاف. وقالوا: لإمك، فكسروا الهزمة، إتباعاً للام، وأنشد النعمان^(٨) بن بشير:
وَلِيْلِمَهَا فِي هَوَاءِ الْجَوِّ طَالِبَةً وَلَا كَهَذَا^(٩) الَّذِي فِي الْأَرْضِ مَطْلُوبٌ^(١٠)

(١) من قوله: قال الطبري .. من تفسير ابن عطية ٦٦/١ - ٦٧، وهو في تفسير الطبري ١٣٩/١ - ١٤٠.

(٢) هو إبراهيم بن أبي عبلة، أبو إسحاق العقيلي، الشامي، المقدسي، من بقايا التابعين، توفي سنة (١٥٢هـ). السير ٦/ ٣٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٦٦. وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص ١.

(٤) في (ظ): ولتجانس.

(٥) أورده سيبويه في الكتاب ١٤٦/٤، وابن جني في الخصائص ١٤٥/٢ و ١٤١/٣، وفي المحتسب ٣٨/١ وعنده: وقال اضرب الساقين . . . وذكرها فيها أيضاً كسر همزة «أمك» لانكسار النون قبلها، وذكره الإستراباذي في شرح الشافية ٢٦٢/٢ بلفظ: وقد اضرب الساقين . . . وأوردها ابن منظور في اللسان (أمم) و(هبل). قوله: هابل، أي: تكلّي.

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢٧٣/١، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٩، وذكر فيها كسر الراء أيضاً إتباعاً لكسرة الدال.

(٧) في (م): مقتلين، وهو تصحيف.

(٨) في (م): للنعمان.

(٩) في النسخ الخطية: هكذا، والمثبت من (م)، وهو الموافق للمصادر.

(١٠) وَلِيْلِمَهَا؛ يقال بكسر اللام وضمها، وأورده سيبويه في كتابه ١٤٧/٤، ونسبه للنعمان بن بشير، وأورده أيضاً في ٢٩٤/٢، ونسبه لامرئ القيس، وكذلك نسبة ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢٣٥/١، وابن يعيش في شرح المفصل ١١٤/٢، وهو في ديوانه ص ٢٢٧ في زيادات نسخة الطوسي، وجاء في شرحها ما نصه: قالوا: قول العرب: ويلمه: اللفظ به ذم، وهو في الظاهر عندهم مدح. والطالبة: العقاب، وقولُه: ولا كهذا، يريد: الذنب، يقول: لم أر كنجائه وهربه منها نجاة، وهو مطلوب!.

الأصل: ويلٌ لأمها، فحذفت اللام الأولى، واستثقل ضمّ الهمزة بعد الكسرة، فنقلها للام، ثم أتبع اللام الميم.

وروي عن الحسن بن أبي الحسن وزيد بن علي^(١): «الحمد لله»^(٢) بكسر الدال على إتباع الأول الثاني.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مالِكهم، وكلٌّ من ملك شيئاً، فهو ربّه. فالربُّ: المالك. وفي «الصحاح»: والربُّ اسمٌ من أسماء الله تعالى، ولا يُقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك. قال الحارث بن جِلْزَة^(٣):

وهو الربُّ والشَّهيدُ على يَوْمِ الْحِيَارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بَلَاءِ
وَالرَّبِّ: السَّيِّدُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]. وفي الحديث: «أَنْ تِلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا»^(٤) أي: سَيِّدَتَهَا، وقد بيَّناه في كتاب «التذكرة»^(٥).

والربُّ: المصلِح والمُدبِّر، والجابر والقائم^(٦)؛ قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد رَبَّه يَرْبُهُ، فهو رَبٌّ له ورابٌّ، ومنه سُمِّيَ الرَّبَّانِيُّونَ، لقيامهم بالكُتُب^(٧). وفي الحديث: «هَلْ لَكَ مِنْ نِعْمَةِ رَبُّهَا عَلَيْهِ؟»^(٨) أي: تقومُ بها وتُصلِحُها.

والرَّبُّ: المعبود، ومنه قول الشاعر:

- (١) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، أبو الحسين الهاشمي المدني، كان ذا علم وصلاح، استشهد سنة (١٢٢هـ) وهو ابنُ ثَيْفٍ وأربعين عاماً. السير ٥ / ٣٨٩.
- (٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١، وابن جني في المحتسب ١ / ٣٧.
- (٣) الشكري، أحد أصحاب المعلقات، والبيت في معلقته (٣٨) شرح القصائد العشر لابن الأنباري ص ٤٧٥. وذكر فيه أنه عنى بالربِّ: المنذر بن ماء السماء، وكان غزا أهل الحيارين، وقال: الحياران: بلدان، ورواه ابن الأعرابي: يوم الحوارين. والبيت في الصحاح (والكلام منه)، واللسان (رب).
- (٤) قطعة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام وأشرط الساعة، أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨).
- (٥) واسمه بتمامه: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ولم نعر على هذا الكلام فيه.
- (٦) يعني القائم بالأمور المصلح لما يفسد منها، كما في تفسير ابن عطية ١ / ٦٧.
- (٧) غريب الحديث لابن سلام ٤ / ٤٢٠، ومشارك الأنوار ١ / ٢٧٨.
- (٨) قطعة من حديث أبي هريرة في رجل زار أخاً له في الله، أخرجه أحمد (٩٢٩١)، ومسلم (٢٥٦٧).

أَرَبُّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ^(١) مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ^(٢)
ويقال على التكثير: رَبَّاهُ وَرَبَّيْهِ، وَرَبَّتُهُ، حَكَاه النَّحَاسُ^(٣). وفي «الصحيح»:
وَرَبَّ فُلَانٌ وَلَدَهُ يَرْبُهُ رَبًّا، وَرَبَّيْهِ، وَتَرْبِيَّهُ، بِمَعْنَى، أَي: رَبَّاهُ. وَالْمَرْبُوبُ: الْمُرَبَّى.

التاسعة: قال بعض العلماء: إِنَّ هَذَا الْاسْمَ هُوَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ^(٤)، لِكَثْرَةِ دَعْوَةِ
الدَّاعِينَ بِهِ، وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا فِي آخِرِ آلِ عِمْرَانَ، وَسُورَةِ إِبْرَاهِيمَ،
وغيرهما. وَلَمَّا يُشْعِرُ بِهِ هَذَا الْوَصْفُ مِنَ الصَّلَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ، مَعَ مَا يَتَضَمَّنُهُ
مِنَ الْعَطْفِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْإِفْتِقَارِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَاخْتُلِفَ فِي اشْتِقَاقِهِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّرْبِيَةِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُدَبِّرٌ
لِخَلْقِهِ وَمُرَبِّيهِمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَّيْكُمْ أَلَنِي فِي حُبُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. فَسَمِيَ
بِنْتِ^(٥) الزَّوْجَةِ رَبِيَّةً، لِتَرْبِيَةِ الزَّوْجِ لَهَا.

فَعَلِيَ أَنَّهُ مُدَبِّرٌ لِخَلْقِهِ وَمُرَبِّيهِمْ، يَكُونُ صِفَةً فِعْلِيًّا. وَعَلَى أَنَّ الرَّبَّ بِمَعْنَى الْمَالِكِ
وَالسَّيِّدِ، يَكُونُ صِفَةً ذَاتِيًّا^(٦).

العاشرة: مَتَى أُدْخِلْتَ الْأَلْفَ وَاللَّامُ عَلَى «رَبِّ»، اخْتَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ؛ لِأَنَّهُمَا^(٧)
لِلْعَهْدِ، وَإِنْ حُذِفَتْ مِنْهُ، صَارَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَيُقَالُ: اللَّهُ رَبُّ الْعِبَادِ،
وَزَيْدٌ رَبُّ الدَّارِ. فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْأَرْبَابِ، يَمْلِكُ الْمَالِكَ وَالْمَمْلُوكَ، وَهُوَ خَالِقُ
ذَلِكَ وَرَازِقُهُ، وَكُلُّ رَبٍّ سِوَاهُ غَيْرُ خَالِقٍ وَلَا رَازِقٍ، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ فَمُحْتَكِكٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ

(١) فِي (م): ذَلَّ.

(٢) أَوْرَدَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي كِتَابِ الْأَمْثَالِ ص ١٢٢، وَابْنُ قَتِيْبَةٍ فِي أَدَبِ الْكَاتِبِ ص ١٠٣، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي
الْمَذْكُورِ وَالْمَوْثُوتِ ١/ ١٣٩. قَالَ الْبَكْرِيُّ فِي فَصْلِ الْمَقَالِ ص ١٨٤: قِيلَ: إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ لِعَبَّاسِ بْنِ
مُرْدَاسِ السَّلْمِيِّ. وَنَقَلَ عَنْ كِرَاعٍ فِي كِتَابِهِ الْمُنْضَدِّ قَوْلَهُ: إِنَّ الْبَيْتَ لِأَبِي ذَرِّ الْغَفَّارِيِّ، قَالَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
فِي صَنْمٍ كَانَ لَهُمْ، وَقَدْ رَأَى ثُعْلَبًا يَبُولُ عَلَيْهِ.

(٣) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ ١/ ١٧١، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٦٠.

(٤) نَوَادِرُ الْأَصُولِ ص ٣٩٥. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٢٧٣/ ١٠، وَالْحَاكِمُ ٥٠٥/ ١ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَابْنِ
عَبَّاسٍ قَالَا: إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ: رَبُّ رَبِّ. وَسَكَتَ عَنْهُ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ.

(٥) فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ: وَلَدٌ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (م).

(٦) هَذَا الْكَلَامُ وَمَا بَعْدَهُ فِي النُّكْتِ وَالْعَيُونِ (تَفْسِيرُ الْمَوَارِدِي) ١/ ٥٤.

(٧) فِي (د) وَ(م): لِأَنَّهُمَا.

يَكُنْ، وَمُتَّعْ ذَلِكَ مِنْ يَدِهِ، وَإِنَّمَا يَمْلِكُ شَيْئاً دُونَ شَيْءٍ. وصفهُ الله تعالى مخالفةً لهذه المعاني، فهذا الفرقُ بين صفةِ الخالق والمخلوقين^(١).

الحادية عشرة: قوله تعالى: «العالمين»: اختلف أهل التأويل في «العالمين» اختلافاً كثيراً، فقال قتادة: العالمون جمع عالم^(٢)، وهو كلُّ موجودٍ سوى الله تعالى، ولا واحد له من لفظه، مثل رَهْط وقوم. وقيل: أهل كلِّ زمانٍ عالم^(٣). قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْمَلَكِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، أي: من الناس. وقال العجاج^(٤):

فَخَنِدَفٌ هَامَةٌ هَذَا الْعَالَمِ
وقال جريرُ الحَطَفِيُّ^(٥):

تَنْصَفُهُ الْبَرِّيَّةُ وَهُوَ سَامٍ وَيُضْجِي الْعَالَمُونَ لَهُ عِيَالاً
وقال ابنُ عباس: العالمون: الجنُّ والإنسُ، دليله قوله تعالى: ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيراً للبهائم^(٦). وقال الفراء وأبو عبيدة: العالمُ عبارةٌ عن من يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشیاطين. ولا يقال للبهائم: عالم؛ لأنَّ هذا الجمع إنما هو جمعٌ من يعقلُ خاصّةً.
قال الأعشى:

(١) في (ظ): والمخلوق.

(٢) أخرج الطبري ١٤٦/١ عن قتادة قوله: كلُّ صنفٍ عالمٍ.

(٣) تفسير الطبري ١٤٤/١، والمحرم الرجيز ٦٧/١، والنكت والعيون (تفسير الماوردي) ٥٤/١.

(٤) عبد الله بن روية أبو الشعثاء، العجاج الراجز، لقي أبا هريرة، وسمع منه أحاديث. والشاهد الذي أورده له المصنف هو في ديوانه: ٦٠، وصدره:

مُبَارَكٌ لِلْأَنْبِيَاءِ خَاتَمُ

وهو من الرَّجَز، ونقل ابن جني في سر صناعة الإعراب ٩٠/١ عنه أنه كان يهمز العالم والخاتم. قوله: خَنِدَف: هي امرأة إلياس بن مضر بن نزار، واسمها ليلي. اللسان (خندف).

(٥) في (م): ابن الحَطَفِيُّ، والبيت في ديوانه ٧٥٠/٢، وفيه: وَيُسمِّي الْعَالَمُونَ ... قوله: تَنْصَفُهُ، أي: تطلبُ فضله.

(٦) تهذيب اللغة للأزهري ٤١٦/٢.

ما إن سَمِعْتُ بمثلهم في العالمينا^(١)

وقال زيد بن أسلم: هم المرتزقون. ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيون. وهو معنى قول ابن عباس أيضاً: كلُّ ذي رُوح دَبَّ على وجه الأرض^(٢). وقال وَهْبُ بن مُنْبَه: إِنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ ثمانية عشر ألفَ عالم، الدنيا عالمٌ منها. وقال أبو سعيد الخدري: إِنَّ لله أربعين ألفَ عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالمٌ واحد. وقال مُقاتل^(٣): العالمون ثمانون ألفَ عالم، أربعون ألفَ عالم في البر، وأربعون ألفَ عالم في البحر. وروى الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: الجِنُّ عالمٌ، والإنس عالمٌ، وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كلِّ زاوية ألفٌ وخمسون مئة عالم، خَلَقَهُمْ لعبادته^(٤).

قلت: والقول الأولُ أصحُّ هذه الأقوال؛ لأنه شاملٌ لكلِّ مخلوقٍ وموجود، دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٣ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا [الشعراء: ٢٣ - ٢٤]. وهو^(٥) مأخوذٌ من العلم والعلامة؛ لأنه يَدُلُّ على مُوجِده. كذا قال الزجاج^(٦). قال: العالمُ: كلُّ ما خَلَقَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة. وقال الخليل^(٧):

(١) لم نقف عليه للأعشى، وفي وزنه نظر، وقد ذكر صاحب الأغاني ٣٧٩/١٥ للبيد بن ربيعة قوله:

ما إن رأيتُ ولا سَمِعْتُ بمثلهم في العالمينا

وهو في ديوانه ص ٢١٥.

(٢) زاد المسير ١/ ١٢.

(٣) ابنُ سليمان البلخي، أبو الحسن، أجمعوا على تركه، وقال ابنُ المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة.

مات سنة نيف وخمسين ومئة. السير ٧/ ٢٠١.

(٤) أخرج قولَ وهبِ أبو الشيخ في العظمة (٩٥١)، وأبو نعيم في الحلية ٧٠/٤، وذكره الأزهرى في

تهذيب اللغة ٢/ ٤١٦. وأخرج قول أبي العالية الطبري في التفسير ١٤٦/١، وهذه الأخبار التي ذكرها

المصنف في عدد العالمين ليست من الصحيح في شيء. قال ابن كثير بعد أن أورد قولَ أبي العالية:

وهذا كلام غريب، يحتاج مثله إلى دليل صحيح. وقال أبو حيان في البحر ١٨/١: ونُقِلَ عن المتقدمين

أعداد مختلفة في العالمين، الله أعلم بالصحيح.

(٥) في (م): ثم هو.

(٦) هذا كلام ابن عطية في تفسيره ١/ ٦٧. ثم نقل قول الزجاج عن الماوردي في تفسيره ١/ ٥٥. وينظر

معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦.

(٧) العين ٢/ ١٥٣ (علم).

الْعَلَمُ وَالْعَلَامَةُ وَالْمَعْلَمُ: ما دَلَّ على الشيء، فالعالم دالٌّ على أن له خالقاً ومُدبِّراً، وهذا واضح. وقد ذُكر أن رجلاً قال بين يدي الجُنَيْد^(١): الحمد لله، فقال له: أتمَّها كما قال الله، قُل: رَبِّ العالمين، فقال الرجلُ: وَمَنْ «العالمين» حتى تُذكرَ مع الحقِّ؟ قال: قُل يا أخي، فَإِنَّ الْمُحَدَّثَ إِذَا قُرِنَ مع القديم لا يَبْقَى له أثرٌ.

الثانية عشرة: يجوزُ الرفعُ والنَّصبُ في «رَبِّ»، فالتَّصَبُّ على المدح، والرفعُ على القَطْع، أي: هو رَبُّ العالمين.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: وَصَفَ نَفْسَهُ تعالى بعد «رَبِّ العالمين» بأنه «الرحمن الرحيم»؛ لأنه لَمَّا كان في اتِّصافه بـ «رَبِّ العالمين» ترهيباً، قَرَنَهُ بـ «الرحمن الرحيم»، لِمَا تَضَمَّنَ من التَّوْبِ، لِيَجْمَعَ في صفاته بين الرَّهْبَةِ منه، والرَّغْبَةِ إليه، فيكونَ أَعْوَنَ على طاعته وأَمْنَعُ، كما قال: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]. وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ. وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»^(٢). وقد تقدَّم ما في هذين الاسمين من المعاني، فلا معنى لإعادته.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: قرأ محمد بن السَّمِيعِ^(٣) بنصب «مالك».

وفيه أربع لغات: مَالِكٌ، وَمَلِكٌ، وَمَلِكٌ - مُحَقَّفَةٌ من مَلِكٍ - وَمَلِكٌ. قال الشاعر^(٤):

(١) ابن محمد بن الجُنَيْد النِّهَاوَنْدِي، البَغْدَادِي، يُكْنَى أبا القاسم، توفي سنة (٢٩٨هـ). السير ١٤/٦٦.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٥٥)، وهو عند أحمد (٩١٦٤).

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن السَّمِيعِ اليماني. قال الذهبي في معرفة القراء الكبار ١/٣٥٥: قراءته في عداد الشاذة، فمنها «مالك» بفتح الكاف. توفي سنة (٢١٣هـ)، وقيل: (٢١٥).

(٤) هو عمرو بن كلثوم، أحد أصحاب المعلقات، وسيورد المصنف البيت منسوباً له في الصفحة ٢٢٢.

وأيام لنا غُرطوال عَصِينَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا^(١)
وقال آخر^(٢):

فَانْعَ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا
الخلائق: الطبائع التي جُبلَ الإنسان عليها.

وروي عن نافع إشباع الكسرة في «مَلِك»، فيقرأ: «مَلِكِي» على لغة من يُشبعُ
الحركات، وهي لغة للعرب، ذكرها المهدوي وغيره^(٣).

الخامسة عشرة: اختلف العلماء أيما أبلغ: مَلِكٌ أو مالِكٌ؟ والقراءتان مرويتان
عن النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر. ذكرهما الترمذي^(٤). فقيل: «مَلِكٌ» أعم، وأبلغ من
«مالِك»، إذ كلُّ مَلِكٍ مالِكٌ، وليس كلُّ مالِكٍ مَلِكاً، ولأنَّ أَمْرَ الْمَلِكِ نافذٌ على
الملك في ملكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير المَلِكِ. قاله أبو عبيدة والمبرد.
وقيل: «مالِكٌ» أبلغ؛ لأنه يكون مالِكاً للناس وغيرهم، فالمالِكُ أبلغ تصرفاً وأعظم،
إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التملك^(٥).

وقال أبو علي: حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بـ «مَلِكٍ»
أنَّ الله سبحانه قد وَصَفَ نفسه بأنه مالِكٌ كلِّ شيء بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فلا فائدة
في قراءة مَنْ قرأ: «مالِك»؛ لأنها تكرارٌ.

قال أبو علي: ولا حُجَّةٌ في هذا؛ لأنَّ في التنزيل أشياء^(٦) على هذه الصورة، تقدَّم
العام، ثم ذكر الخاص، كقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]،
فَالْخَالِقُ يَعْمْ، وَذَكَرَ الْمَصَوِّرَ، لما فيه من التَّنْبِيهِ عَلَى الصَّنْعَةِ، ووجود^(٧) الْحِكْمَةِ.

(١) البيت رقم (٢٠) من معلقته في شرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ٣٨٨. وقال في شرح الشطر
الثاني منه: معناه عصينا الملك أن نطيعه، يقال: ذَنْتُ لفلان، أي: دخلتُ في طاعته.

(٢) في النسخ الأصلية: آخر، دون لفظ «وقال» وهو ليَّد بن ربيعة، والبيت في ديوانه ص ١٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٦٨. والقراءة المتواترة عن نافع هي: مَلِكٌ، وينظر البحر المحيط ١/ ٢٠.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٢٧) و(٢٩٢٨). وقرأ عاصم والكسائي من السبعة: مالِك، وقرأ الباقر: مَلِك.
انظر السبعة ص ١٠٤، والتيسير ص ١٨.

(٥) التكت والعيون (تفسير الماوردي) ١/ ٥٦، والمحرر الوجيز ١/ ٦٩.

(٦) في (ز): إنشاء.

(٧) في (ز) و(ظ): وجوه.

وكما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يُوَفُّونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، والغَيْبُ يَعُمُّ الآخِرَةَ وَغَيْرَهَا، ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرَّدُّ على الكفرة الجاحدين لها، وكما قال: «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذي هو عامٌّ، وذكر «الرحيم» بعده، لِتَخْصِيسِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]^(١).

وقال أبو حاتم: إِنَّ «مَالِكًا» أبلغ في مَدْحِ الخالقِ مِنْ «مَلِكٍ»، و«مَلِكٌ» أبلغ في مَدْحِ المخلوقين من «مالك»، والفرق بينهما: أَنَّ المالكَ من المخلوقين قد يكون غيرَ مَلِكٍ، وإذا كان الله تعالى مالِكًا، كان مَلِكًا^(٢).

واختارَ هذا القولَ القاضي أبو بكر بن العربي، وذكرَ ثلاثةَ أوجهٍ:

الأوَّلُ: أنك تُضِيفُهُ إلى الخاصِّ والعامِّ، فتقول: مالكُ الدَّارِ والأرضِ والثَّوبِ، كما تقول: مالكُ الملوكة.

الثاني: أنه يُطْلَقُ على مالِكِ القليلِ والكثيرِ. وإذا تأملتَ هَذَيْنِ القولينِ، وَجَدْتَهُمَا واحداً.

والثالث: أنك تقولُ: مالِكُ المُلْكِ، ولا تقول: مَلِكُ المُلْكِ.

قال ابنُ الحَضَّار: إنما كان ذلك؛ لأن المُرَادَ من «مالك» الدَّلالةُ على المِلْكِ - بكسر الميم - وهو لا يَتَضَمَّنُ المُلْكُ - بضم الميم - و«مَلِكٌ» يَتَضَمَّنُ الأمرينِ جميعاً، فهو أَوْلَى بالمبالغة. وَيَتَضَمَّنُ أيضاً الكمالَ، ولذلك استَحَقَّ المُلْكُ على مَنْ دُونَهُ، ألا تَرى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؟ ولهذا قال عليه السلام: «الإمامةُ في قريشٍ»^(٣)، وقُرِشٌ

(١) من قوله: وقال أبو علي: حكى أبو بكر ... من كلام ابن عطية في تفسيره ٧٠ / ١. وينظر الحجة لأبي علي الفارسي ١٠ / ١.

(٢) من قوله: وقال أبو حاتم: إن «مالِكًا» أبلغ ... من تفسير الماوردي ٥٦ / ١. وأبو حاتم: هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، النحوي، اللغوي، تخرَّج به أئمة، منهم أبو العباس المبرِّد، له إعراب القرآن وغيره الكثير. توفي سنة (٢٥٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٢ / ٢٦٨.

(٣) أخرج البخاري (٧١٤٠هـ)، ومسلم (١٨٢٠هـ) من حديث ابن عمر مرفوعاً: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان». وأخرج البخاري (٧١٣٩هـ) نحوه من حديث معاوية. وأخرج أحمد (١٢٣٠٧هـ) من =

أَفْضَلُ قِبَائِلِ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَجَمِ وَأَشْرَفُ. وَيَتَضَمَّنُ الْاِقْتِدَارَ وَالْاِخْتِيَارَ، وَذَلِكَ أَمْرٌ ضَرْوَرِيٌّ فِي الْمَلِكِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا مُخْتَارًا، نَافِذًا حُكْمَهُ وَأَمْرَهُ، فَهَرَّةٌ عَدُوُّهُ، وَغَلْبَةٌ غَيْرُهُ، وَازْدَرَتْهُ رَعِيَّتُهُ. وَيَتَضَمَّنُ الْبَطْشَ، وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَؤُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْفَكَاكِينِ ۖ﴾ (٢٥) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿[النمل: ٢٠ - ٢١]؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ، وَالْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ، الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي الْمَالِكِ.

قلت: وقد احتج بعضهم على أَنَّ «مَالِكًا» أبلغ؛ لِأَنَّ فِيهِ زِيَادَةَ حَرْفٍ، فَلِقَارِئِهِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ زِيَادَةً عَلَى مِنْ ^(١) قَرَأَ: «مَلِكٌ».

قلت: هذا نظر إلى الصُّغَةِ، لَا إِلَى الْمَعْنَى، وَقَدْ ثَبَّتَ الْقُرَاءَةُ بِ «مَلِكٍ»، وَفِيهِ مِنَ الْمَعْنَى مَا لَيْسَ فِي «مَالِكٍ» عَلَى مَا بَيَّنَّا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

السادسة عشرة: لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَسَمَّى أَحَدٌ ^(٢) بِهَذَا الْأِسْمِ، وَلَا يُدْعَى بِهِ، إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟» ^(٣).

وعنه أيضاً، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكُ الْأَمْلَاكِ». زَادَ مُسْلِمٌ: «لَا مَلِكٌ» ^(٤) إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ سَفِيَانُ: مِثْلُ: شَاهَانِ شَاهٍ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ عَنْ «أَخْنَعَ»، فَقَالَ: أَوْضَعُ ^(٥).

= حَدِيثُ أَنَسٍ مَرْفُوعاً: «الْأُتَمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ». وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ أَيْضاً (١٧٦٥٤) مِنْ حَدِيثِ عْتَبَةَ بْنِ عَبْدِ مَرْفُوعاً: «الْخَلَاقَةُ فِي قُرَيْشٍ»، وَلَمْ نَجِدِ الْحَدِيثَ بِاللَّفْظِ الَّذِي أوردَهُ الْمُصَنِّفُ.

(١) فِي (م): عَمِنَ.

(٢) فِي (د): لِأَحَدٍ أَنْ يَتَسَمَّى.

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٧٣٨٢)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢٧٨٧): (٢٣).

(٤) فِي (م): مَالِكٌ.

(٥) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٦٢٠٦)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢١٤٣): (٢٠)، وَلَمْ يَذْكُرِ الْبُخَارِيُّ قَوْلَ أَحْمَدَ.

وَالْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ (٧٣٢٩). وَأَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ: هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ مِرَارٍ، اللَّغْوِيُّ، صَاحِبُ الْعَرَبِيَّةِ.

تُوفِيَ سَنَةَ (٢٢١٣هـ). إِنْبَاءُ الرِّوَاةِ ١ / ٢٢١.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَغِيْظُ رَجُلٌ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبِئُهُ، رَجُلٌ يُسَمَّى مَلِكُ الْأَمْلاِكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ»^(١).

قال ابنُ الحَصَّار: وكذلك «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» و«مَالِكُ الْمُلْكِ»، لا ينبغي أن يُخْتَلَفَ فِي أَنَّ هَذَا مُحَرَّمٌ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ، كِتْحَرِيمِ مَلِكِ الْأَمْلاِكِ سِوَاهُ. وأما الوَصْفُ بِمَالِكٍ وَمَلِكٍ، وَهِيَ:

السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: فِيَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ^(٢) بِهِمَا مَنْ اتَّصَفَ بِمَفْهُومِهِمَا. قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وَقَالَ ﷺ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَرِضُوا عَلَيَّ غَزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ نَجَبَ هَذَا الْبَحْرِ، مُلُوكًا عَلَى الْأَسِيرَةِ» أَوْ: «مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِيرَةِ»^(٣).

الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ: إِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ قَالَ: «مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ»، وَيَوْمُ الدِّينِ لَمْ يُوْجَدْ بَعْدُ، فَكَيْفَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِمَلِكٍ مَا لَمْ يُوْجَدْ؟

قِيلَ لَهُ: إِعْلَمْ أَنَّ «مَالِكًا» اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ مَلِكٍ يَمْلِكُ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَدْ يُضَافُ إِلَى مَا بَعْدَهُ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ كَلَامًا سَدِيدًا، مَعْقُولًا صَحِيحًا، كَقَوْلِكَ: هَذَا ضَارِبٌ زَيْدًا غَدًا، أَيْ: سَيَضْرِبُ زَيْدًا. وَكَذَلِكَ: هَذَا حَاجٌّ بَيْتَ اللَّهِ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ، تَأْوِيلُهُ: سَيَحُجُّ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ، أَفَلَا تَرَى أَنَّ الْفِعْلَ قَدْ نُسِبَ^(٤) إِلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَفْعَلْهُ بَعْدُ، وَإِنَّمَا أُرِيدَ بِهِ الْاِسْتِقْبَالُ؟ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ» عَلَى تَأْوِيلِ الْاِسْتِقْبَالِ، أَيْ: سَيَمْلِكُ يَوْمَ الدِّينِ، أَوْ فِي يَوْمِ الدِّينِ إِذَا حَضَرَ.

وَوَجْهٌ ثَانٍ: أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُ الْمَالِكِ رَاجِعًا إِلَى الْقُدْرَةِ، أَيْ: إِنَّهُ قَادِرٌ فِي يَوْمِ الدِّينِ، أَوْ عَلَى يَوْمِ الدِّينِ وَإِحْدَاثِهِ، لِأَنَّ الْمَالِكَ لِلشَّيْءِ هُوَ الْمَتَصَرِّفُ فِي الشَّيْءِ^(٥).

(١) صحيح مسلم (٢١٤٣): (٢١).

(٢) فِي (ظ): يَتَصَف.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٧٠٣٢)، وَابْنُ خَرِيزٍ (٢٧٩٩)، وَمُسْلِمٌ (١٩١٢) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ حَرَامَ بِنْتِ مِلْحَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) فِي (ظ) وَ(م): يَنْسَب.

(٥) فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ: لِلشَّيْءِ، وَالْمَثْبُوتِ مِنْ (م).

القادر^(١) عليه . والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومُصَرِّفُهَا على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أمس بالعربية ، وأنفذ في طريقها . قاله أبو القاسم الزجاجي^(٢) .

ووجه ثالث : فيقال : لِمَ خَصَّصَ يوم الدين ، وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا مُنَازِعِينَ في المُلْكِ ، مثلُ فرعونَ ونُمرودَ^(٣) وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا يُنَازِعُهُ أَحَدٌ في مُلكِهِ ، وكلُّهم خَضَعُوا له ، كما قال تعالى : ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ﴾ ، فأجاب جميع الخلق : ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر : ١٦] . فلذلك قال : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» أي : في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاضٍ ولا مُجَازٍ غيرُه سبحانه ، لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة : إن وُصِفَ اللهُ سبحانه بأنه مَلِكٌ ، كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصِفَ بأنه مَالِكٌ ، كان ذلك من صفاتِ فِعْلِهِ^(٤) .

المؤفة العشرين : اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فاستُعِيرَ فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما . وقد يُطْلَقُ اليومُ على الساعة منه ، قال الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] .

وجمع يوم أيام ، وأصله : أيَّوَامٌ ، فأدغِمَ . وربما عَبَّرُوا عن الشَّدَّةِ باليوم ، يقال : يومٌ أيَّوَمٌ ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلَاءُ . قال الرَّاجِزُ :

نِعَمَ أَخُو الْهَيْجَاءِ فِي الْيَوْمِ الْيَمِيِّ^(٥)

(١) في (م) : والقادر .

(٢) اشتقاق أسماء الله ص ٤٣ و ٤٤ . والزجاجي هو عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النحوي ، صاحب كتاب الجمل والإيضاح واللامات وغيرها ، وهو تلميذ الزجاج . ومنسوب إليه ، مات سنة (٣٤٠هـ) . السير ٤٧٥ / ١٥ .

(٣) في (م) : نمرود ، يقال بإهمال الدال وإعجامها .

(٤) النكت والعيون ١ / ٥٦ .

(٥) الرَّجَزُ لأبي الأخضر الحماني - كما في اللسان - وشرطه الثاني :

ليوم رَزَعٍ أو فَعَالٍ مَكْرَمٍ

وهو مقلوبٌ منه، آخرَ الواو، وقَدَّمَ الميمَ، ثم قُلِبَتِ الواوُ ياءً حيث صارتَ ظَرْفًا، كما قالوا: أَذِلٌّ في جمع دَلُو^(١).

الحادية والعشرون: الَّذِينَ: الجزاءُ على الأعمال، والحِسابُ بها، كذلك قال ابنُ عباس وابنُ مسعود وابنُ جُريج وقتادة وغيرُهم^(٢)، ورُوِيَ عن النبي ﷺ.

ويُذَلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي: حِسَابَهُمْ. وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا لِمَ يَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، أي: مَعْجَزِيُونَ مُحَاسِبُونَ^(٣).

وقال لَيْدٌ:

حَصَاذُكَ يَوْمًا مَا زَرَعْتَ وَإِنَّمَا يُدَانُ الْفَتَى يَوْمًا كَمَا هُوَ دَائِنُ^(٤)
آخر^(٥):

إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ وَدَنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرِضُونَا
آخر^(٦):

وَأَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ وَأَعْلَمُ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ
وحكى أهلُ اللُّغة: دِنْتُهُ بِفَعْلِهِ دَيْنًا، بِفَتْحِ الدَّالِ، وَدَيْنًا، بِكَسْرِهَا: جَزَيْتُهُ. ومنه الدَّيَّانُ في صفةِ الرَّبِّ تعالى، أي: المُجَازِي. وفي الحديث: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»^(٧)، أي: حَاسَبَ.

(١) الصحاح (يوم).

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٧١.

(٣) في (د) و(ز): مُجْزَوْنَ، وفي (ظ): ومحاسبون.

(٤) لم نجده في ديوانه، ولم نقف عليه في مصدر آخر.

(٥) هو كعب بن جُعَيْل التغلبي. والبيت أورده نصر بن مَرْزَاح في وقعة صفين ص ٥٧، والمبرد في الكامل ٤٢٤/١، والطبري في تفسيره ١/ ١٥٧، وابن سيده في المخصص ١٧/ ١٥٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٧١.

(٦) هو يزيد بن الصمق الكلابي، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٢٣، والكامل ١/ ٤٢٦، وجمهرة اللغة ٣٠٦/٢، والمخصص ١٧/ ١٥٥، ونظر اللسان (دين).

(٧) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

وقيل: القضاء. رُوِيَ عن ابن عباس أيضاً^(١)، ومنه قول طرفة^(٢):

لَعَمْرُكَ مَا كَانَتْ حَمُولَةٌ مَعْبَدٍ عَلَى جُدِّهَا حَرِباً لِدِينِكَ مِنْ مُضَرٍّ^(٣)
ومعاني هذه الثلاثة مُتَقَارِبَةٌ.

والدَّيْنُ أيضاً: الطَّاعَةُ، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وَأَيَّامٌ لَنَا غُرُطُ وَاِلٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا^(٤)
فعلى هذا هو لفظ مشترك، وهي:

الثانية والعشرون: قَالَ ثَعْلَبٌ: دَانَ الرَّجُلُ: إِذَا أَطَاعَ، ودان: إِذَا عَصَى، ودان:
إِذَا عَزَّ، ودان: إِذَا ذَلَّ، ودان: إِذَا قُهِرَ^(٥). فهو من الأضدادِ.

وَيُطْلَقُ الدَّيْنُ عَلَى الْعَادَةِ وَالشَّانِ، كما قال:

كَدِينِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِثِرِثِ قَبْلَهَا^(٦)

وقال الْمُثَقِّبُ^(٧) يذكر ناقته^(٨):

(١) روي عن ابن عباس بمعنى السلطان، وعن قتادة بمعنى القضاء، فيما أخرجه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

(٢) ابن العبد، من فحول شعراء الجاهلية، ومن أصحاب المعلقات، قُتِلَ وهو ابن عشرين سنة. الشعر والشعراء ١/ ١٨٥.

(٣) ذكره ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ص ١٢٢، ولم نجده في ديوانه من طبعة دار صادر. قوله: حمولة - بفتح الحاء - هي من الإبل التي تُحْمَلُ الأحمالُ على ظهورها. وَجُدٌ - بضم الجيم - موضع فيه ماء، ويقال: حُدَّ، بالحاء المهملة. والخطاب لعمرو بن هند لما بعث إلى إبل طرفة فأخذها.

(٤) سلف في المسألة الرابعة عشرة من هذا الباب. وعمرو بن كلثوم التغلبي، أخذ فحول شعراء الجاهلية، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة، ومات وله مئة وخمسون سنة. الشعر والشعراء ١/ ٢٣٤، والأغاني ١١/ ٥٢.

(٥) تهذيب اللغة ١٤/ ١٨٤. ونقله فيه عن ثعلب عن ابن الأعرابي.

(٦) هذا صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: وجاريتها أُمُّ الرِّبَابِ بِمَاسَلٍ، وهو في ديوانه ص ٩، وفيه: كدأبك من أم الحويرث... وينظر شرح القصائد الطوال لابن الأنباري ص ٢٨، وفيه أيضاً: كدأبك.

(٧) هو عائذ بن محصن بن ثعلبة العبدي، من فحول الشعراء، والمثقب لقب له. وسماء ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٣٩٥: يحصن بن ثعلبة.

(٨) قوله: يذكر ناقته، من (م).

تقول إذا ذَرَأْتُ لها وَضِئِي أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي؟^(١)
والدِّين: سيرة الملك. قال زهير:
لَيْنَ حَلَلْتَ بِجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتَ بَيْنَنَا فَذَكُّ^(٢)
أراد: في موضع طاعة عمرو.
والدِّين: الدَّاء، عن اللّحياني^(٣)، وأنشد:

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْ سَلَمِي وَقَدْ دِينَا^(٤)

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: رَجَعَ مِنَ الْعَبِيدَةِ إِلَى الْخِطَابِ عَلَى التَّلْوِينِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَاهُنَا خَبَرٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً﴾. وَعَكْسُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، عَلَى مَا يَأْتِي.
و«نَعْبُدُ» مَعْنَاهُ: نُطِيعُ. وَالْعِبَادَةُ: الطَّاعَةُ وَالتَّذَلُّلُ. وَطَرِيقُ مُعْبَدٍ: إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا لِلسَّالِكِينَ. قَالَه الْهَرَوِيُّ.

وَنُطَقُ الْمُكَلَّفِ بِهِ إِقْرَارٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَتَحْقِيقٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ سَاطِرُ النَّاسِ يَعْبُدُونَ سِوَاهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.
﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أَي: نَطْلُبُ الْعَوْنَ وَالتَّائِيدَ وَالتَّوْفِيقَ.

(١) البيت في المفضّلية ٧٦، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤٧. الوضين: بَطَانٌ عَرِضٌ يُشَدُّ بِهِ الرَّخْلُ عَلَى الْبَعِيرِ. قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي اللِّسَانِ (دِرْأً): دَرَأْتُ وَضِئَ الْبَعِيرِ: إِذَا بَسَطْتَهُ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَبْرَكْتَهُ عَلَيْهِ لَتَشُدَّهُ بِهِ. وَأَوْرَدَ بَيْتَ الْمُتَّقِبِ الْعَبْدِي هَذَا.

(٢) ديوانه ص ١٨٣، بشرحه لثعلب. قال: جَوّ: واد. ودين عمرو: طاعته. وذكره ابن منظور في اللسان (خوا): لئن حللت بخو (بالخاء المعجمة)، ونقل عن أبي محمد الأسود قوله: من رواه بالجيم، فقد صحّفه.

(٣) هو علي بن حازم أبو الحسن، ذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص ١٩٥، وقال: له كتاب في النوادر شريف.

(٤) أورد ابن عطية ١/ ٧٢ قول اللحياني، والشاهد فيه، وذكر أنه يتأول على غير هذا النحو. وأورده ابن فارس في معجمه ٢/ ٣١٩، وقال: معناه: يا هذا دين قلبك، أي: أذل. وأورده ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ص ٢٨ بلفظ: يا دين قلبك من أسماء يا دينا. وقال: يريد: يا حال قلبك وعادته.

قال السُّلَمِيُّ في «حقائقه»: سمعتُ محمدَ بنَ عبد الله بن شاذان^(١) يقول: سمعتُ أبا حفص^(٢) القرغاني يقول: مَنْ أَقْرَبَ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، فَقَدْ بَرِيَءٌ مِنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ.

الرابعة والعشرون: إن قيل: لِمَ قُدِّمَ المفعولُ على الفعل؟ قيل له: قُدِّمَ اهتماماً، وشأنُ العرب تقديمُ الأهمِّ. يُذكرُ أنَّ أعرابياً سبَّ آخرَ، فأعرضَ المسبوبُ عنه، فقال له السابُّ: إِيَّاكَ أعني، فقال له الآخرُ: وعنكَ أَعْرِضْ. فَقَدِّمُوا الأهمَّ^(٣).

وأيضاً لثلاث يتقدَّم ذكرُ العبدِ والعبادةِ على المعبود، فلا يجوز: نَعْبُدُكَ ونَسْتَعِينُكَ، ولا: نَعْبُدُ إِيَّاكَ، ونَسْتَعِينُ إِيَّاكَ، فيقدَّم الفعل على كناية المفعول. وإنما يُتَّبَعُ لفظُ القرآن. وقال العجَّاجُ:

إِيَّاكَ أَدْعُو فَتَقْبَلْ مَلَقِي واغْفِرْ خَطَايَايَ وَكَثِّرْ وَرَقِي^(٤)
ويُروى: وَتَمَرُ.
وأما قولُ الشاعر:

إِلَيْكَ حَتَّى بَلَغْتَ إِيَّاكَ^(٥)

فشاذٌّ لا يُقَاسُ عليه. والورق، بكسر الرَّاء: من الدراهم، وبفتحها: المال.
وكرر الاسم ثلاثاً يُتَوَهَّم: إِيَّاكَ نَعْبُدُ ونَسْتَعِينُ غيرَكَ.

الخامسة والعشرون: الجمهورُ من القُرَّاء والعلماء على شدِّ الياء من «إِيَّاكَ» في

(١) محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان الرازي الصوفي. قال الذهبي في السير ١٦/٣٦٥: يروي عنه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ بلالاً وحكايات منكرة. مات سنة (٣٧٦هـ).

(٢) كذا في النسخ الخطية (م)، ولعله أبو جعفر، وهو محمد بن عبد الله، له ذكر في طبقات الصوفية للسُّلَمِيِّ، وانظر أنساب السمعاني ٩/٢٧٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/٧٢.

(٤) ذكره ابن فارس في معجمه ٦/١٠٢، وابن منظور في اللسان (ورق).

(٥) هو من شواهد سيبويه ٢/٣٦٢ وترجم له: باب ما يجوز في الشعر، ولا يجوز في الكلام. وقائله: حُميد الأرقط. وهو في أمالي ابن الشجري ١/٥٨، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ٢/٦٩٩، والخزانة ٥/٢٨٠، وذكر أن قبله: أَتَيْتُكَ عَنْسَ تَقَطُّعِ الْأَرَاكَ.

الموضعين . وقرأ عمرو بن فائد^(١) : «إِيَاكَ» بكسر الهمزة، وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء، لِثِقَلِهَا وَكَوْنِ الكسرة قَبْلَهَا^(٢) . وهذه قراءة مرغوبٌ عنها، فإنَّ المعنى يصيرُ: شمسك نعبُدُ، أو ضوءك . وإِيَاءُ الشمس - بكسر الهمزة -: ضَوْءُهَا، وقد تُفْتَح . وقال :

سَقَنَهُ إِيَاءُ الشَّمْسِ إِلَّا لِشَاتِهِ أَسِفٌ فَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِإِثْمٍ^(٣)
فإنَّ أَسَقَطَتِ الهاء، مَدَّدَتْ^(٤) . ويقال : الإِيَاءُ للشمس كالِهَالَةِ للقمر، وهي الدَّارَةُ حولها .

وقرأ الفضلُ الرَّقَاشِيُّ^(٥) : «أَيَاكَ» بفتح الهمزة^(٦)، وهي لغةٌ مشهورةٌ . وقرأ أبو السوار الغنوي^(٧) : «هَيَّاكَ» في الموضعين، وهي لغة^(٨)، قال :
فَهَيَّاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَوَسَّعَتْ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ^(٩)

(١) أبو علي الأسواري البصري . ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٦٠٢/١، وذكر له هذه القراءة . وقال ابن حجر في لسان الميزان ٣٧٢/٤ : قدرني معتزلي، توفي بعد المئتين .

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١ . وقال ابن جني في المحتسب ٤٠/١ : لم نر لذلك أثراً في اللغة، ولا رسماً، ولا مرَبناً في نثر ولا نظم .

(٣) البيت لِطَرَفَةِ بن العبد، وهو في ديوانه ص ٢١ . قوله : لِثَات : هو جمع لِثَة . وأَسِفٌ : دُرٌّ عليه . وَالْكَذْمُ : الْقَضُّ بِأَدْنَى الْقَم .

(٤) الذي ذكره ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ص ١٤٦ ، وابن النحاس في شرح القصائد التسع ٢١٧ - ٢١٨ ، وابن منظور في اللسان (أيا)، أنه يقال : إِيَاءُ الشمس، بكسر الهمزة والهاء، وإِيَاءُ الشمس، بحذف الهاء (يعني بالقصر وكسر الهمزة)، وإِيَاءُ الشمس، بالمد وفتح الهمزة .

(٥) الفضل بن عيسى الرَّقَاشِي . قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٣٥٦ : ضَعُفَهُ .

(٦) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١ ، والنحاس في إعراب القرآن ١/١٧٣ ، وابن جني في المحتسب ٣٩/١ . وانظر المحرر الوجيز ١/٧٢ .

(٧) ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٥٠ ، وفيه : أبو سَرَّار، وفي نسخة منه : أبو السَّوَّار، وقال : كان فصيحاً أخذ عنه أبو عبيدة ومَن دونه . وله ذكر في مجالس العلماء للزجاجي ص ٦٠ ، وإنباه الرواة للقفطي ٤/١٢٢ .

(٨) القراءات الشاذة ص ١ ، والمحرر الوجيز ١/٧٢ .

(٩) أنشده أبو تَمَّام في الحماسة (٤١٨) (شرح المرزوقي) بلفظ : إِيَاكَ وَالْأَمْرَ . وأورده ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/١ ، والإستراباذي في شرح الشافية ٣/٢٢٣ ، وقال البغدادى في شرحها ص ٤٧٦ : أنشده أبو تَمَّام . . بحذف الفاء على أنه مخروم، مع بيت ثان . . ونسبهما إلى مضر بن ربيعي . ثم ذكر أنه أورده في كتاب مختار أشعار القبائل لِطَفِيلِ الغنوي الجاهلي من جملة أبيات، وفيها : وإِيَاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَرَاخَبَتْ .

السادسة والعشرون: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عطفتُ جُمْلَةً على جُمْلَةٍ. وقرأ يحيى بن وثَّاب^(١) والأعمش^(٢): «نِستعين» بكسر النون^(٣)، وهي لغة تميم، وأسد، وقيس، وربيعه، ليدلَّ على أنه من: استعان. فكُسِرَت النونُ كما تُكسَرُ ألفُ الوصل.

وأصلُ «نستعين»: نَسْتَعُون، قُلِبَتْ حركةُ الواوِ إلى العين، فصارت ياءً، والمصدرُ: استعانة، والأصلُ: إِسْتِعْوَان، قُلِبَتْ حركةُ الواوِ إلى العين، فانقلبت ألفاً، ولا يلتقي ساكنان، فَحَذِفَتِ الألفُ الثانيةُ؛ لأنها زائدة، وقيل: الأولى؛ لأنَّ الثانيةَ للمعنى، وَلَزِمَتِ الهاءُ عَوَضاً^(٤).

السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: «إِهْدِنَا» دعاء ورغبة من المَرْبُوبِ إلى الرَّبِّ. والمعنى: دُلَّنَا على الصِّرَاطِ المستقيم، وَأَرْشِدُنَا إليه، وَأَرِنَا طريقَ هدايتك الْمُؤَصِّلَةَ إلى أَنْسِكَ وقُرْبِكَ.

قال بعضُ العلماء: فجعلَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ عُظَمَ الدُّعَاءِ وَجُمْلَتَهُ موضوعاً في هذه السورة، يَصِفُهَا فِيهِ مَجْمَعُ الثَّنَاءِ، وَنِصْفُهَا فِيهِ مَجْمَعُ الْحَاجَاتِ، وجعلَ هذا الدُّعَاءَ الذي في هذه السورة أَفْضَلَ من الذي يدعُو به^(٥)؛ لأنَّ هذا كلام^(٦) قد تكلَّم به ربُّ العالمين، فَأَنْتَ تدعُو بدُّعَاءٍ هو كلامُهُ الذي تكلَّم به. وفي الحديث: «ليس شيءٌ أَكْرَمَ على الله من الدُّعَاءِ»^(٧).

وقيل: المعنى: أَرْشِدُنَا بِاسْتِعْمَالِ الشُّنَنِ فِي أَدَاءِ^(٨) فرائضك. وقيل: الأَصْلُ فِيهِ الإِمَالَةُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَىكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: مِلْنَا. وَخَرَجَ عَلَيْهِ

(١) الأسدي مولا هم، الكوفي، شيخ القراء، توفي سنة (١٠٣هـ) روى له الجماعة غير أبي داود. السير ٣٧٩/٤.

(٢) سليمان بن مهران، أبو محمد الأسدي الكاهلي مولا هم، الكوفي، شيخ المقرئين والمحدثين، مات سنة (١٤٧هـ)، روى له الجماعة. السير ٢٢٦/٦.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١. ونسبها لجناح بن حبيش.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٣ - ١٧٤.

(٥) أي: يدعُو به الداعي، كما هو واضح من سياق كلامه.

(٦) في (م): الكلام.

(٧) أخرجه أحمد (٨٧٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) في (ظ): استعمال، بدل: أداء.

الصلاة والسلام في مَرْضِيهِ يَتَهَادَى بين اثنين، أي: يَتَمَايَلُ^(١). ومنه الْهَدْيَةُ؛ لأنها تُمَالُ^(٢) من مِلْكٍ إلى مِلْكٍ. ومنه الْهَدْيُ، للحيوان الذي يُسَاقُ إلى الْحَرَمِ. فالمعنى: مِلْ بقلوبنا إلى الْحَقِّ.

وقال الْفُضَيْلُ بن عِيَاض: ﴿الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ طريقُ الْحَجِّ. وهذا خاصٌّ، والعموم أولى. قال محمد ابنُ الْحَنْفِيَّةِ^(٣) في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اهْدِنَا الصُّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: هو دينُ الله الذي لا يُقْبَلُ من العبادِ غيرُهُ. وقال عاصمُ الْأَحْوَلِ^(٤) عن أبي العالية: ﴿الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ رسولُ الله ﷺ، وصاحبه، من بعده. قال عاصم: فقلتُ للحسن: إن أبا العالية يقول: ﴿الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ رسولُ الله ﷺ وصاحبه، قال: صَدَقَ وَنَصَحَ^(٥).

الثامنة والعشرون: أَصْلُ الصُّرَاطِ في كلام العرب: الطريقُ. قال عامرُ بنُ الطُّفَيْلِ^(٦):

شَحَنَّا^(٧) أَرْضَهُم بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصُّرَاطِ^(٨)
وقال جرير^(٩):

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ

(١) قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٥٧٦١)، والبخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨)، وعندهم: يُهَادَى.

(٢) في (د): تهاد، وفي (ز): تهال.

(٣) هو محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أبو القاسم وأبو عبد الله - أمه خولة بنت جعفر الحنفية. توفي سنة (٨٠هـ)، وقيل: (٨١). سير أعلام النبلاء ٤/ ١١٠.

(٤) هو عاصم بن سليمان، أبو عبد الرحمن، محدث البصرة، توفي سنة (١٤٢هـ) السير ٦/ ١٣.

(٥) أخرج بعض هذه الأخبار الطبري في تفسيره ١/ ١٧٥، وذكر بعضها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٧٤.

(٦) العامري، ابن عم لبيد الصحابي الشاعر، وَقَدَّمَ قومه سنة تسع للهجرة على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به فلم يفلح، وعاد ولم يسلم، ومات في طريق عودته. الشعر والشعراء ١/ ٣٤٣، وخزانة الأدب ٣/ ٨٠.

(٧) في (ظ): سفحنا.

(٨) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره الطبري في تفسيره ١/ ١٧١ بلفظ:

صَبَحْنَا أَرْضَهُم بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكْنَاهَا أَذَقَّ مِنَ الصُّرَاطِ
ونسبه لأبي ذؤيب الْهَذَلِي.

(٩) ديوانه ١/ ٢١٨.

وقال آخرُ:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الصُّرَاطِ الواضِحِ^(١)

وحكى النَّقَّاشُ: الصُّرَاطُ: الطريقُ بِلُغَةِ الرُّومِ. قال ابنُ عطية: وهذا ضعيفٌ جداً^(٢). قُرئ: السُّرَاط - بالسَّين^(٣) - من الاستراط، بمعنى الابتلاع، كأنَّ الطريقَ يَسْتَرِطُ مَنْ يَسْلُكُهُ^(٤). وقُرئ بين الزاي والصاد^(٥)، وقُرئ بزاي خالصة^(٦)، والسَّين الأصل. وحكى سَلَمَةُ^(٧)، عن الفراء قال: الزُّرَاط - بإخلاص الزاي - لُغَةٌ لَعُدْرَةٌ وكَلْبٌ وبني القَيْن^(٨). قال: وهؤلاء يقولون: أزدَق. وقد قالوا: الأزد والأسد، وَلَسِيقَ به وَلَصِيقَ به.

و«الصُّرَاطُ» نصب على المفعول الثاني؛ لأنَّ الفعلَ من الهداية يَتَعَدَّى إلى المفعول الثاني بحرف جرٍّ، قال الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]. وبغير حرفٍ كما في هذه الآية.

«المستقيم» صفةٌ لـ«الصراط»، وهو الذي لا اعوجاجَ فيه، ولا انحرافَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وأصله مُسْتَقِيمٌ، نُقِلَتِ الحركةُ إلى القاف، وانقلبتِ الواوُ ياءً لانكسار ما قبلها.

(١) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢٤/١، والطبري في تفسيره ١٧١/١، وابن عطية ٧٤/١. وعند أبي عبيدة والطبري: الصراط القاصد.

(٢) المحرر الوجيز ٧٤/١.

(٣) هي قراءة ابن كثير في رواية قنبل من السبعة، وقراءة يعقوب في رواية رويس من العشرة. انظر السبعة ص ١٠٥، والتيسير ص ١٨، والنشر ٢٧١/١.

(٤) في (ظ): سلكه.

(٥) أي: بالصاد مشمَّة صوت الزاي، وهي قراءة حمزة في رواية خَلَفَ حيث وقعت، وخلاَّد في الموضع الأول من الفاتحة. السبعة ص ١٠٦، والتيسير ص ١٨.

(٦) رواها الأصمعي عن أبي عمرو، وحكاها الفراء عن حمزة، فيما ذكر ابنُ مجاهد في السبعة ١٠٥-١٠٦، وقال أبو علي الفارسي في الحجة ٥١/١: وأما الزاي: فأحسبُ الأصمعي لم يضبط عن أبي عمرو، لأن الأصمعي كان غير نحوي... وأحسبُ أنه سمع أبا عمرو يقرأ بالمضاربة للزاي فتوهمها زايًا.

(٧) هو ابنُ عاصم، أبو محمد البغدادي النحوي، صاحب الفراء. توفي بعد السبعين ومِثْنين. طبقات القراء ٣١١/١.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤/١ ونسبه لابن الأنباري.

التاسعة والعشرون: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: «صراط» بَدَلٌ من الأول، بَدَلُ الشيء من الشيء، كقولك: جاءني زيدٌ أبوك. ومعناه: أديم هدايتنا، فإنَّ الإنسانَ قد يُهْدَى إلى الطريق، ثم يُقَطَّعُ به.

وقيل: هو صراطٌ آخرٌ، ومعناه: العلمُ بالله جلَّ وعزَّ، والفهمُ عنه. قاله جعفر بنُ محمد^(١). ولغة القرآن «الَّذِينَ» في الرفع والنصب والجر، وهُذِلْ تقول: الذون^(٢) في الرفع، ومن العرب من يقول: اللذو، ومنهم من يقول: الذي. وسيأتي^(٣).

وفي «عليهم» عشرُ لغات، قرئَ بعامتها: «عَلَيْهِمْ»: بضمِّ الهاء وإسكانِ الميم. و«عَلَيْهِمْ»: بكسرِ الهاء وإسكانِ الميم. و«عَلَيْهِمِي»^(٤): بكسرِ الهاء والميم، وإلحاقِ ياءٍ بعد الكسرة. و«عَلَيْهِمُو»: بكسرِ الهاء وضمِّ الميم، وزيادة^(٥) واوٍ بعد الضمة. و«عَلَيْهِمُو»: بضمِّ الهاء والميم كليهما، وإدخالِ واوٍ بعد الميم. و«عَلَيْهِمْ»: بضمِّ الهاء والميم، من غير زيادة واوٍ. وهذه الأوجهُ الستة مأثورةٌ عن الأئمة من القراء^(٦).

وأوجهٌ^(٧) أربعةٌ منقولةٌ عن العرب غيرَ محكيَّةٍ عن القراء: «عَلَيْهِمِي»: بضمِّ الهاء وكسرِ الميم، وإدخالِ ياءٍ بعد الميم، حكاها الحسنُ البصريُّ عن العرب. و«عَلَيْهِمْ»: بضمِّ الهاء وكسرِ الميم، من غير زيادة ياء. و«عَلَيْهِمْ»: بكسرِ الهاء وضمِّ الميم، من

(١) ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، الإمام الصادق، أحد الأعلام. توفي سنة (١٤٨هـ). السير ٦/ ٢٥٥.

(٢) في (م) و(ز): اللذون.

(٣) ينظر الأزهري في علم الحروف للهروي ص ٢٩٧ - ٢٩٨، والبيان لأبي البركات ابن الأنباري ٣٩/ ١، وتهذيب اللغة للأزهري ٣٨/ ١٥ - ٣٩. وينظر تفسير الآية (٤٩) من سورة غافر في هذا الكتاب.

(٤) في النسخ الخطية: عليهم، والمثبت من (م).

(٥) في (ظ): مع زيادة.

(٦) قرأ حمزة من السبعة، ويعقوب من العشرة: عَلَيْهِمْ، بضمِّ الهاء وإسكانِ الميم، وقرأ الباقر: عَلَيْهِمْ، بكسرِ الهاء وإسكانِ الميم، وقرأ قالون وابن كثير وأبو جعفر: عَلَيْهِمُو، حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر: عَلَيْهِمْ؛ إن جاء بعدها همزة وصل، وذلك في جميع القرآن. السبعة ص ١٠٨-١٠٩، والتيسير ص ١٩. أما قراءة: عَلَيَّهِمِي: بكسرِ الهاء وإثباتِ الياء، وَعَلَيْهِمُو: بضمِّ الهاء وإثباتِ الواو، فمن الشواذ. قرأ بالاولى الحسن وعمر بن فائد، وبالثانية ابن أبي إسحاق. إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٥، والمحتسب ١/ ٤٤.

(٧) في (ظ): ووجوه.

غير إلحاق واو. و«عَلَيْهِمْ»: بكسر الهاء والميم، ولا ياء بعد الميم. وكلُّها صواب^(١). قاله ابنُ الأنباري.

المُوفِيَةُ الثَّلاثِينَ: قرأ عمرُ بن الخطاب وابنُ الزبير رضي الله عنهما: «صراط مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»^(٢). واختلف الناسُ في المُنْعَمِ عليهم. فقال الجمهورُ من المفسرين: إنه أراد صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. فالآية تقتضي أنَّ هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوبُ في آية الحمد^(٣)، وجميعُ ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعدد الأقوال. والله المستعان.

الحادية والثلاثون: في هذه الآية ردُّ على القَدْرِيَّةِ والمعتزلة والإمامية؛ لأنهم يَعتَقِدُونَ أنَّ إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصية؛ لأنَّ الإنسانَ عندهم خالقٌ لأفعاله، فهو غيرُ محتاج في صدورِها عنه إلى ربِّه، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصُّراطِ المستقيم، فلو كان الأمرُ إليهم، والاختيارُ بيدهم دون ربِّهم، لما سألوه الهداية، ولا كرَّروا السؤالَ في كلِّ صلاة، وكذلك تَضَرَّعُهم إليه في دفعِ المكروه^(٤)، وهو ما يُناقِضُ الهداية، حيث قالوا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. فكما سألوه أن يهديهم، سألوه ألاَّ يُضِلُّهم، وكذلك يدعون، فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤْخِذْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] الآية.

الثانية والثلاثون: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: اِخْتَلَفَ في «المغضوب عليهم» و«الضالين» مَنْ هُم، فالجمهورُ على^(٥) أنَّ المغضوبَ عليهم: اليهودُ،

(١) يعني لغةً، لكنها شاذة قراءةً، وقد ذكر ابن جني هذه الأوجه العشرة في المحتسب ٤٣/١ - ٤٥، نقل سبعة منها عن أبي بكر أحمد بن موسى، والثلاثة الباقية عن الأخفش، ثم قال: فتلك عشرة أوجه، خمسة مع ضم الهاء، وخمسة مع كسرها.

(٢) نسخها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١ إلى ابن مسعود، رضي الله عنه

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٧٥.

(٤) في (ظ): كل مكروه.

(٥) لفظة على، من (ز).

والضَّالِّينَ: النصارى، وجاء ذلك مُفسِّراً عن النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه. أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»، والترمذي في «جامعه»^(١). وشهد لهذا التفسير أيضاً قوله سبحانه في اليهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقال في النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقيل: «المغضوب عليهم»: المشركون. و«الضالين»: المنافقون. وقيل: «المغضوب عليهم»: هو مَنْ أسقط فرض هذه السورة في الصلاة! و«الضالين» عن بركة قراءتها. حكاه السلمي في «حقائقه»، والماوردي في «تفسيره»، وليس بشيء. قال الماوردي^(٢): وهذا وجه مردود؛ لأنَّ ما تعارضت فيه الأخبار، وتقابلت فيه الآثار، وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يُطلق عليه هذا الحكم.

وقيل: «المغضوب عليهم» باتباع البدع، و«الضالين» عن سنن الهدى. قلت^(٣): وهذا حسن، وتفسير النبي ﷺ أولى وأعلى وأحسن.

و«عليهم» في موضع رفع^(٤)؛ لأنَّ المعنى: غَضِبَ عليهم. والغَضَبُ في اللغة: الشدة. ورجلٌ غَضُوبٌ، أي: شديد الخلق، والغَضُوب: الحيَّة الخبيثة، لشدتها. والغَضْبَةُ: الدَّرَقَةُ من جلد البعير، يُطَوَّى بعضها على بعض، سُمِّيَتْ بذلك لشدتها. ومعنى الغَضَبِ في صفة الله تعالى إرادة العقوبة، فهو صفة ذات، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته، أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»^(٥) فهو صفة فعل.

الثالثة والثلاثون: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾: الضَّلالُ في كلام العرب: هو الدَّهَابُ عن سَنَنِ الْقَصْدِ، وطريق الحق، ومنه: ضَلَّ اللَّبَنُ في الماء، أي: غاب. ومنه: ﴿إِذْ ذَا

(١) مسند الطيالسي ص ٤٠، وسنن الترمذي (٢٩٥٤)، وهو في مسند أحمد (١٩٣٨١).

(٢) لم نقف على كلام الماوردي في المطبوع من تفسيره.

(٣) في (د) و(ز): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٦.

(٥) أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وابن حبان (٣٣٠٩)، والبغوي في شرح السنة (١٦٣٤) من طريق الحسن عن

أنس بن مالك رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

صَلَّلْنَا فِي الْآرْضِ ﴿[السجدة: ١٠]، أَي: غَبْنَا بِالْمَوْتِ وَصِرْنَا تَرَابًا، قَالَ:

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيَارُ عَنِ الْحَيِّ الْمُضَلَّلِ أَيْنَ سَارُوا^(١)
وَالضُّلْضِلَّةُ: حَجَرٌ أَمْلَسُ، يُرَدِّدُهُ الْمَاءُ فِي الْوَادِي. وَكَذَلِكَ الْغَضْبَةُ: صَخْرَةٌ فِي
الْجَبَلِ مُخَالَفَةٌ لَوْنِهِ، قَالَ:

وَعَظْبَةٌ^(٢) فِي هَضْبَةٍ مَا أَمْنَعَا^(٣)

الرابعة والثلاثون: قرأ عمرُ بن الخطاب وأبيُّ بن كعب: «غير المغضوب عليهم
وغير الضالين»، وَرَوِيَ عَنْهُمَا فِي الرَّاءِ النَّصْبُ وَالْخَفْضُ فِي الْحَرْفَيْنِ^(٤)، فَالْخَفْضُ
عَلَى الْبَدَلِ مِنَ «الَّذِينَ»، أَوْ مِنَ الْهَاءِ وَالْمِيمِ فِي «عَلَيْهِمْ»، أَوْ صِفَةً لـ «الَّذِينَ». وَ«الَّذِينَ»
مَعْرِفَةٌ، وَلَا تُوصَفُ الْمَعَارِفُ بِالنِّكَرَاتِ، وَلَا النِّكَرَاتُ بِالْمَعَارِفِ، إِلَّا أَنَّ «الَّذِينَ» لَيْسَ
بِمَقْصُودٍ قَصْدِهِمْ، فَهُوَ عَامٌّ، فَالْكَلَامُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: إِنِّي لَأَمْرٌ بِمِثْلِكَ فَأَكْرِمُهُ، أَوْ لَأَنَّ^(٥)
«غَيْرَ» تَعَرَّفَتْ لَكُونِهَا بَيْنَ شَيْئَيْنِ، لَا وَسَطَ بَيْنَهُمَا، كَمَا تَقُولُ: الْحَيُّ غَيْرُ الْمَيِّتِ،
وَالسَّاكِنُ غَيْرُ الْمُتَحَرِّكِ، وَالْقَائِمُ غَيْرُ الْقَاعِدِ، قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ لِلْفَارِسِيِّ، وَالثَّانِي
لِلزَّمَخْشَرِيِّ^(٦). وَالنَّصْبُ فِي الرَّاءِ عَلَى وَجْهَيْنِ: عَلَى الْحَالِ مِنَ «الَّذِينَ»، أَوْ مِنَ الْهَاءِ
وَالْمِيمِ فِي «عَلَيْهِمْ»، كَأَنَّكَ قُلْتَ: أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ لَا مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ. أَوْ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ،
كَأَنَّكَ قُلْتَ: إِلَّا الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ. وَيَجُوزُ النَّصْبُ^(٧) بِأَعْنِي. وَحُكِّيَ عَنِ الْخَلِيلِ^(٨).

الخامسة والثلاثون: «لا» فِي قَوْلِهِ: «وَالضَّالِّينَ»؛ اخْتَلَفَ فِيهَا، فَقِيلَ: هِيَ

(١) الدر المصون ١/ ٧٦.

(٢) فِي (م): أَوْ غَضْبَةٌ.

(٣) العين ٣٦٩/٤، وَجَاءَ فِي اللِّسَانِ (غَضَبٌ): أَوْ غَضْبَةٌ فِي هَضْبَةٍ مَا أَرْفَعَا.

(٤) نَقَلَهُ عَنْ ابْنِ عَطِيَّةٍ ٧٨/١، وَسَلَفَ ذَكَرَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ ص ١٣١. وَذَكَرَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي الْقِرَاءَاتِ الشَّاذَّةِ
ص ١ فَتَحَ الرَّاءَ فِي غَيْرِ الْمَغْضُوبِ.

(٥) فِي (ظ): وَلَا أَنْ.

(٦) الْحِجَةُ لِلْقِرَاءَةِ السَّبْعَةِ ١٤٢/١، وَالْكَشَافُ ٧٠/١، وَإِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ١٧٦/١، وَمَشْكَلُ إِعْرَابِ
الْقُرْآنِ لِمَكِّي ٧٢/١، وَالْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ ٧٦-٧٧.

وَالزَّمَخْشَرِيُّ: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَبُو الْقَاسِمِ الْخَوَارِزْمِيُّ، النَّحْوِيُّ، كَبِيرُ الْمَعْتَزَلَةِ، صَاحِبُ
الْكَشَافِ وَالْمِفْصَلِ وَغَيْرِهِمَا. تَوَفِّيَ سَنَةَ (٥٣٨هـ). السَّيَرُ ٢٠/ ١٥١.

(٧) فِي (د): أَنْ تَنْصَبَ.

(٨) نَقَلَهُ عَنْ ابْنِ عَطِيَّةٍ ٧٧/١، وَيَنْظُرُ إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ١٧٦/١، وَمَشْكَلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ لِمَكِّي ٧٢/١.

زائدة. قاله الطبري^(١). ومنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقيل: هي تأكيد، دخلت لئلا يتوهم أن «الضالين» معطوف على «الذين». حكاة مكِّي^(٢) والمهدوي. وقال الكوفيون: «لا» بمعنى «غير»، وهي قراءة عمرو وأبي، وقد تقدم. السادسة والثلاثون: الأصل في «الضالين»: الضالِّين، حذفت حركة اللام الأولى، ثم أدغمت اللام في اللام، فاجتمع ساكنان: مدَّة^(٣) الألف، واللام المدغمة^(٤). وقرأ أيوب السخيتاني: «ولا الضالِّين» بهمزة غير ممدودة^(٥)، كأنه قرأ من التقاء الساكنين، وهي لغة. حكى أبو زيد قال: سمعتُ عمرو بن عُبيد يقرأ: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ»^(٦) [الرحمن: ٣٩]. فظننته قد لحن، حتى سمعتُ من العرب: دَابَّةً وشَابَّةً. قال أبو الفتح^(٧): وعلى هذه اللغة قول كثير^(٨):

إذا ما العوالي بالعبيط احمأرت^(٩)

نَجَرَ تَفْسِيرُ سُوْرَةِ الْحَمْدِ

وَلِلّٰهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

(١) تفسيره ١/ ١٩٠.

(٢) نقله المصنف عن ابن عطية، وليس في مشكل إعراب القرآن ٧٢/ ١ هذا اللفظ، وإنما قال مكِّي: «لا» زائدة للتركيد عند البصريين، وبمعنى «غير» عند الكوفيين.

(٣) قوله: مدَّة، ليس في (د).

(٤) قال النحاس في إعراب القرآن ١٧٦/ ١: وجاز ذلك لأن في الألف مدة، والثاني مدغم.

(٥) ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص ١، وأبو الفتح ابن جني في المحتسب ١/ ٤٦.

(٦) ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص ١٤٩، وأبو الفتح ابن جني في المحتسب ١/ ٤٧، وفيه ما أورده المصنف من قول أبي زيد، إلى قول كثير.

(٧) عثمان بن جني، الموصلي، إمام العربية، صاحب سر صناعة الإعراب والمحتسب والخصائص وغيرها. توفي سنة (٣٩٢هـ). السير ١٧/ ١٧.

(٨) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود، أبو صخر الحُزاعي، المدني، من فحول الشعراء، كان قد تبيّم بعرّة، وشبّب بها، توفي سنة (١٠٧هـ). السير ٥/ ١٥٢.

(٩) كذا أورد ابن جني هذا الشطر في المحتسب ١/ ٤٧، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٧٨، ونقله المصنف عن ابن عطية، ولفظه في ديوانه ٩٧/ ٢: إذا ما احمأرت بالعبيط العوامل، وهكذا أورده ابن منظور في اللسان (جنن)، وصدر البيت: وأنت ابن لي خير قومك مشهداً. وهو من قصيدة يمدح فيها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أمير مصر.

تفسير سورة البقرة

بحول الله وكرمه، لا رَبَّ سواه

وأول مبدوء به الكلام في نزولها وفضلها، وما جاء فيها، وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك، فنقول:

سورة البقرة مَدْيِيَّةٌ، نزلت في مُدَدِ شَتَى. وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [٢٨١]، فإنه^(١) آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى؛ وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن^(٢).

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم. ويقال لها: فُسطاط القرآن، قاله خالد بن معدان^(٣). وذلك لِعِظَمِهَا وَبَهَائِهَا، وكثرة أحكامها ومواعظها. وتعلمها عمر رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثماني سنين كما تقدم^(٤).

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر^(٥).

وبعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد، وقدّم عليهم أحدتهم سناً، ليحفظه سورة البقرة، وقال له: «اذهب، فأنت أميرهم». أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وصححه^(٦). وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا

(١) في (د) و(ظ): فإنها.

(٢) أخرج البخاري (٤٥٤٤) عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا، وانظر ما سلف ص ٩٨.

(٣) أخرجه عنه الدارمي (٣٣٧٦). وخالد بن معدان: هو أبو عبد الله الكلاعي، الحمصي، من أئمة الفقه، توفي سنة (١٠٣هـ). السير ٥٣٦/٤.

(٤) في باب كيفية التعلم والفقه بكتاب الله تعالى ص ٦٨.

(٥) أحكام القرآن ٨/١.

(٦) سنن الترمذي (٢٨٧٦) وفي المطبوع منه قوله: هذا حديث حسن.

سورة البقرة، فَإِنْ أَخَذَهَا بَرَكَتُهُ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةً، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ. قال معاوية: بلغني أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ^(١).

وَرَوَى أَيْضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفَرُ^(٢) مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»^(٣).

وَرَوَى الدَّارِمِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ^(٤) قَالَ: مَا مِنْ بَيْتٍ يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ. وَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَاماً، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَاباً، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ الْمُفْصَّلُ. قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الدَّارِمِيُّ: اللَّبَابُ: الْخَالِصُ^(٥).

وَفِي «صَحِيحِ» الْبُسْتِيِّ: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَاماً، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلاً، لَمْ يَدْخُلِ الشَّيْطَانُ بَيْتَهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا نَهَاراً، لَمْ يَدْخُلِ الشَّيْطَانُ بَيْتَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». قَالَ أَبُو حَاتِمِ الْبُسْتِيُّ: قَوْلُهُ ﷺ: «لَمْ يَدْخُلِ الشَّيْطَانُ بَيْتَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» أَرَادَ: مَرَدَّةَ الشَّيَاطِينِ^(٦).

وَرَوَى الدَّارِمِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، حَتَّى يُضْبِحَ: أَرْبَعاً مِنْ أَوَّلِهَا، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثًا خَوَاتِيمَهَا، أَوَّلُهَا: ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الآية ٢٨٤]. وَعَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْهُ: لَمْ يَقْرَبْهُ وَلَا أَهْلُهُ^(٧) يَوْمَئِذٍ شَيْطَانٌ، وَلَا شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَا يُقْرَأَنَّ عَلَى مَجْنُونٍ إِلَّا أَفَاقَ^(٨). وَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ سُبَيْعٍ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ

(١) صحيح مسلم (٨٠٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢١٤٦)، معاوية: هو ابن سلام، أحد رواة الحديث عند مسلم.

(٢) في (د) و(ز) وهامش (ظ): يفر.

(٣) صحيح مسلم (٧٨٠)، وهو في مسند أحمد (٧٨٢١).

(٤) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) سنن الدارمي (٣٣٧٥) و(٣٣٧٧).

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٧٨٠)، وفي إسناده خالد بن سعيد المدني، ذكره العقيلي في الضعفاء الكبير ٦/٢، وقال: لا يتابع على حديثه، وأورد له هذا الحديث، ثم قال: وفي فضل سورة البقرة رواية

أحسن من هذا الإسناد وأصلح، بخلاف هذا اللفظ. وأما في تمثيل القرآن، فليس فيه شيء ثبت.

(٧) في (ظ): وأهله.

(٨) سنن الدارمي (٣٣٨٢) و(٣٣٨٣). وإسناده منقطع، الشعبي - وهو عامر بن شراحيل - لم يسمع من =

عبد الله -: لم يَنْسَ القرآن. وقال إسحاق بن عيسى: لم ينسَ ما قد حَفِظ. قال أبو محمد الدارمي: منهم مَنْ يقول: المغيرة بن سُمَيْع^(١).

وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر^(٢): وكان لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ مَالِكٍ^(٣) بن جعفر بن كلاب بن ربِيعَةَ بن عامر بن صَعَصَعَةَ، من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام، فحَسَنَ إسلامه، وترك قول الشعر في الإسلام، وسأله عمرُ في خلافته عن شعره، واستنشدَه، فقرأ سورة البقرة، فقال: إنما سألتك عن شعرك، فقال: ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علّمني الله البقرة^(٤) وآل عمران، فأعجب عمرَ قوله، وكان عطاؤه ألفين، فزادَه خمس مئة. وقد قال كثيرٌ من أهل الأخبار: إن لبيداً لم يَقُلْ شِعْراً منذ أسْلَمَ. وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله^(٥).

الحمدُ لله إذ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالاً قال ابن عبد البر: وقد قيل: إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ لَفَرْدَةٌ بِنُفَاةِ السَّلُولِي^(٦)، وهو أصحُّ عندي. وقال غيره: بل البيت الذي قاله في الإسلام:

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كَنَفْسِهِ والمرءُ يُضْلِحُهُ الْقَرِينُ الصَّالِحُ^(٧) وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادةٌ بيانٍ لفضل هذه السورة، إن شاء الله تعالى.

= عبد الله بن مسعود، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٣٢.

(١) سنن الدارمي (٣٣٨٥). إسحاق بن عيسى: هو شيخ الدارمي الذي روى عنه هذا الأثر.

(٢) ٢٧٥/٩ بهامش الإصابة.

(٣) زاد محققو (م): «بن عامر» قبل: «بن مالك» استناداً إلى ما وقع في الاستيعاب وأسد الغابة والإصابة، وهذه الزيادة في النسب في هذه المصادر خطأ؛ تبّه عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في الشعر والشعراء ٢٧٤/١.

(٤) في (ط): بعد أن علّمني الله سورة البقرة.

(٥) قال ذلك أبو اليقظان فيما نقله عنه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢٧٥/١.

(٦) ذكره المَرْزَبَانِي في معجم الشعراء ص ٢٢٣، وابن عبد البر في الاستيعاب ٢٠٦/٩ (بهامش الإصابة) وذكر أنه وفد على النبي ﷺ في جماعة من بني سلول، فأسلموا، وأمره عليهم، وأورد له هذا البيت مع بيتين آخرين.

(٧) ديوان لبید ص ٣٤٩، وفيه: الجليس بدل: القرين. والقصة بتمامها في الشعر والشعراء ٢٧٥/١ في ترجمة لبید.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَبِّ سِرٍّ وَأَعْيُنٍ

قوله تعالى: أَلَمْ (١) ذَلِكَ أَلِكْتَبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)

اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السُّور، فقال عامر الشَّعْبِيُّ، وسفيان الثَّورِيُّ، وجماعة من المحدثين: هي سِرُّ الله في القرآن، والله في كلِّ كتابٍ من كُتُبِهِ سِرٌّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب أن يُتَكَلَّم فيها، ولكن يُؤْمَنُ بها، وتَمَرُّ (١) كما جاءت (٢). وروى هذا القول عن أبي بكر الصِّدِّيقِ، وعلي (٣) بن أبي طالب، رضي الله عنهما (٤).

وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيُّ (٥) عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: الحروف المقطَّعة من المكتوم الذي لا يُفسَّر.

وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطَّعة في القرآن إلا في أوائل السُّور، ولا ندري ما أراد الله جلَّ وعزَّ بها (٦).

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري: حدثنا الحسن بن الحُبَاب، حدثنا أبو بكر بن أبي طالب، حدثنا أبو المنذر الواسطي، عن مالك بن مَعْوَل، عن سعيد بن مسروق، عن الرِّبِّيع بن خُثَيْم قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن، فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأظَلَعَكُم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه، فليستُم بنائليه، فلا

(١) في (د) و(م): وتقرأ.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٨١-٨٢، دون قوله: والله في كل كتاب من كتبه سرّ. ولم يرد في تأويل هذه الحروف نصٌّ صحيح، لذا قال كثير من المفسرين فيها: الله أعلم بمراده.

(٣) في (م): وعن علي.

(٤) ذكره البغوي في التفسير ١/ ٢٦.

(٥) في تفسيره ١/ لوجه ٦.

(٦) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٧٨.

تَسْأَلُوا عَنْهُ، وَأَمَّا الَّذِي أَظْلَعَكُمْ عَلَيْهِ، فَهُوَ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ وَتُخْبَرُونَ بِهِ، وَمَا بِكُلِّ^(١) الْقُرْآنِ تَعْلَمُونَ، وَلَا بِكُلِّ مَا تَعْلَمُونَ تَعْمَلُونَ.

قال أبو بكر: فهذا يُوضِّحُ أن حروفاً من القرآنِ سُتِرَتْ معانيها عن جميع العالم، اختباراً من الله عزَّ وجلَّ وامْتِحاناً، فَمَنْ آمَنَ بِهَا، أُثِيبَ وَسَعِدَ، وَمَنْ كَفَرَ وَشَكَّ، أُثِمَ وَبَعِدَ.

حدَّثنا يوسف^(٢) بنُ يعقوب القاضي، حدَّثنا محمد بنُ أبي بكر، حدَّثنا عبد الرحمن بنُ مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن عُمارة، عن حُرَيْث بنِ ظَهَيْر^(٣)، عن عبد الله قال: مَا آمَنَ مُؤْمِنٌ أَفْضَلَ مِنْ إِيْمَانٍ بِغَيْبٍ، ثُمَّ قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

قلتُ: هذا القولُ في المتشابه وحُكمه، وهو الصحيحُ على ما يأتي بيانهُ في «آل عمران» إن شاء الله تعالى^(٤). وقال جمعٌ من العلماء كبير: بل يجبُ أن يُتَكَلَّم فيها، وتُلْتَمَسَ الفوائدُ التي تحتها، والمعاني التي تتخرجُ عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فرويَ عن ابنِ عباس وعلي أيضاً، أن الحروفَ المقطعة في القرآنِ اسمُ الله الأعظم، إلا أننا لا نعرفُ تأليفه منها^(٥). وقال قُطْرُب والفراء وغيرهما: هي إشارةٌ إلى حروف الهجاء، أعلمَ الله بها العربُ حينَ تحدّاهم بالقرآنِ أنه مُؤْتَلَفٌ من حروف هي التي منها بناءُ كلامهم؛ ليكونَ عجزُهم عنه أبلغَ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قُطْرُب: كانوا يَنْفِرُونَ عند استماعِ القرآن، فلما سمعوا^(٦): «الم»

(١) في (ز) و(ظ) في الموضعين: كل.

(٢) في (د) و(ز) و(م): أبو يوسف، وهو خطأ. وهو يوسف بن يعقوب بن إسماعيل، أبو محمد القاضي، توفي سنة (٢٩٧هـ). السير ٨٥/١٤.

(٣) في (ظ): الحارث بن ظهير، ووقع عند السيوطي في الدر المنثور ٢٦/١ وقد نسب له لابن الأنباري في المصاحف: الحارث بن قيس، ووقع عند سعيد بن منصور (١٨٠) (التفسير)، والحاكم ٢٦٠/٢ (وقد أخرجه من طريق أبي معاوية عن الأعمش): عبد الرحمن بن يزيد. والله أعلم.

(٤) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الآية (٧).

(٥) المحرر الوجيز ٨٢/١، وأخرج قول ابن عباس الطبري في تفسيره ٢٠٦/١.

(٦) في (د): أنزلت، وفي (ز): أنزل.

و«المص»، استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له ﷺ، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبت في أسماعهم وأذانهم، ويقيم الحجة عليهم.

وقال قوم: روي أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، نزلت ليستغربوها، فيفتحون^(١) لها أسماعهم، فيسمعون^(٢) القرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة^(٣). وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس وغيره: الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد ﷺ. وقيل: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد.

وروى أبو الصُّحَي^(٤) عن ابن عباس في قوله: «الم» قال: أنا الله أعلم، «الر»: أنا الله أرى، «المص»: أنا الله أفصل. فالألف تؤدّي عن معنى أنا، واللام تؤدّي عن اسم الله، والميم تؤدّي عن معنى أعلم^(٥). واختار هذا القول الزجاج^(٦)، وقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّي عن معنى؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة، نظماً لها ووضعاً، بدل الكلمات التي الحروف منها، كقوله^(٧):

فقلتُ لها قِفي فقالت قاف^(٨)

(١) في (ظ): ليفتحوا.

(٢) في (ز) و(ظ): فيسمعوا.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥٦٥٥/١، ومعاني القرآن للنحاس ٧٦/١، والمحرر الوجيز ٨٢/١، والنكت والعيون ٦٥/١.

(٤) مسلم بن صبيح القرشي، الكوفي، مولى آل سعيد بن العاص، كان من أئمة الفقه والتفسير، مات سنة (١٠٠هـ). السير ٧١/٥.

(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٨٦٨٥/١، وتفسير الماوردي ٦٤/١. وهذه الروايات وأمثالها ضعيفة. قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٠٧/١: يحتاج في بيانها إلى توقيف، وأنى لهم به؟

(٦) معاني القرآن ٥٧٠٥٦/١.

(٧) قائله الوليد بن عقبة بن أبي معيط، له صحبة قليلة، وهو أخو أمير المؤمنين عثمان لأمه. قال الذهبي: في «السير» ٤١٢/٣: له أخبار طويلة في تاريخ دمشق.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٦٢/١، والمحاسب ٢٠٤/٢، والخصائص ٣٠/١ و٨٠ و٢٤٦ و٣٦١/٢، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٤، ببعض اختلاف. وانظر تفسير الطبري ٢١٦/١، والمحرر الوجيز ٨٢/١.

أراد: قالت: وقفتُ. وقال زهيرٌ:

بالخير خيراتٍ وإن شراً فَا
أراد: وإن شراً ففسّرُ. وأراد: إلا أن تشاء.
وقال آخر:

نادَوْهُمْ أَلَا الْجُمُوعُ أَلَا تَا
أراد: ألا تركبون، ألا فارْكَبُوا^(٣). وفي الحديث: «مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ^(٤)» قال سفيان^(٥): هو أن يقولَ في «اقْتُلْ»: اق، كما قال عليه الصلاة والسلام: «كَفَى بِالسِّيفِ شَا». معناه: شافياً^(٦).

(١) البيت في الكتاب ٣/٣٢١، والكامل ٢/٥٣١، ومعاني القرآن للزجاج ١/٦٣، ونسبه للقيّم بن سعد بن مالك، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٢-٢٧٠، ونسبه للقيّم بن أوس، وانظر اللسان (معى) ولم نجد من نسبه لزهير، وليس هو في ديوانه. وانظر تفسير الطبري ١/٢١٧، وتفسير ابن عطية ١/٨٣. قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/٢١١ في هذا التأويل: هو من نوادر كلام العرب، ومما أخرج مخرج الألفاظ والتلميح، وذلك لا يناسب مقام الكتاب المجيد.

(٢) البيت في معاني القرآن للزجاج ١/٦٢، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ١٨٥، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٤ و٢٦٦.

(٣) في (م): قالوا: ألا فاركبوا.

(٤) وتتمته: «لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله». أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٢ من حديث أبي هريرة. وفي إسناده يزيد بن أبي زياد (أو ابن زياد) الشامي، وهو متروك. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير ٤/١٤: بالغ ابن الجوزي فذكره في الموضوعات، لكنه تبع في ذلك أبا حاتم، فإنه قال في العلل: إنه باطل موضوع.

(٥) في النسخ الخطية (م): شقيق، وهو خطأ، وهو ابن عيينة، ونقل قوله المذكور الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/١٥ عن الخطابي، والبرصيري في مصباح الزجاجة ٢/٨٤ عن الأصبهاني.

(٦) كذا قال: شافياً، وفي المصنف والتمهيد: شاهداً، كما سنذكر. والحديث أخرجه عبد الرزاق (١٧٩١٨) - ونقله عنه ابن عبد البر في التمهيد ٢١/٢٥٧ - عن الحسن في الرجل يجد مع امرأته رجلاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالسيف شا» يريد أن يقول: شاهداً، فلم يتم الكلام حتى قال: «إذا تابع فيه السكران والغيران». وهو مرسل. قال ابن عبد البر: فسر أبو عبيد التابع قال: التهافت، فعل الشيء بغير تثبت. وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/٨٥: لم أر قوله: «كفى بالسيف شا»، على الاكتفاء، إلا في مرسل الحسن.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء للسور^(١). وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرافها وقضيلها، وهي من أسمائه، عن ابن عباس أيضاً^(٢).

ورد بعض العلماء هذا القول، فقال: لا يصح أن يكون قسماً؛ لأن القسم معقود على حروف، مثل: إن، وقد، ولقد، وما، ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا^(٣). والجواب: أن يقال: موضع القسم قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. فلو أن إنساناً حلف، فقال: والله، هذا الكتاب لا ريب فيه، لكان الكلام سديداً، وتكون «لا» جواب القسم. فثبت أن قول الكلبي، وما روي عن ابن عباس، سديد صحيح.

فإن قيل: ما الحكمة في القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدق، ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم^(٤)؟ قيل^(٥) له: القرآن نزل بلغاة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه، أقسم على كلامه، والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة، فأقسم أن القرآن من عنده.

وقال بعضهم: «الم» أي: أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ، وقال قتادة في قوله: «الم» قال: اسم من أسماء القرآن^(٦). وروي عن محمد بن علي الترمذي أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصاص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السورة ليقتفه الناس^(٧). وقيل غير هذا من الأقوال. فالله أعلم.

والوقوف على هذه الحروف على السكون، لنقصانها، إلا إذا أخبرت عنها، أو

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠٦/١، وينظر النكت والعيون ٦٣/١، والمحرم الوجيز ٨٢/١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠٧/١، وذكره الماوردي في تفسيره ٦٤/١.

(٣) في (د) و(ز): قسماً.

(٤) في (د): والمكذب يكذب مع القسم، وفي (ظ): والمكذب لا يصدق بالقسم.

(٥) في (د): قلنا.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٩/١ ومن طريقه أخرجه الطبري ٢٠٤/١، وذكره أيضاً الماوردي في تفسيره ٦٣/١.

(٧) من قوله: قال الكلبي: هي أقسام... غالبه في تفسير أبي الليث ٨٧/١.

عَطَفْتُهَا، فَإِنَّكَ تُعْرِبُهَا. واختلف: هل لها محلٌّ من الإعراب؟ فقيل: لا، لأنها ليست أسماءً متمكِّنة، ولا أفعالاً مضارعة، وإنما هي بمنزلة حروفِ التَّهَجِّي، فهي مَحْكِيَّةٌ. هذا مذهبُ الخليل وسيبويه^(١).

ومن قال: إنها أسماءُ السُّور، فموضِعُها عنده الرفعُ على أنها عنده خبرُ ابتداءٍ مُضمر، أي: هذه «الم»، كما تقول: هذه سورةُ البقرة. أو تكون رفعاً على الابتداء، والخبرُ: «ذلك»، كما تقول: زيدٌ ذلك الرجل. وقال ابنُ كَيْسَانَ النحوي^(٢): «الم» في موضع نصب، كما تقول: اقرأ «الم»، أو: عليك «الم»^(٣). وقيل: في موضع خفضٍ بالقسم، لقولِ ابنِ عباس: إنها أقسامٌ أقسمَ الله بها^(٤).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلْكُتُبُ﴾ قيل: المعنى: هذا الكتاب. و«ذلك» قد تُستعمل في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعاً للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]، ومنه قولُ خُفَّافِ ابنِ نُذْبَةَ^(٥).

أقولُ له والرَّمُحُ يَأْطُرُ مَثْنَهُ تَأَمَّلْ خُفَّافاً إِنَّنِي أَنَا ذَلِكَا^(٦)
أي: أنا هذا. ف«ذلك» إشارةٌ إلى القرآن، موضوعٌ موضعُ هذا، تلخيصُه: الم هذا الكتابُ لا رَيْبَ فيه. وهذا قولُ أبي عُبَيْدة وعكرمة وغيرهما^(٧)، ومنه قوله

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٧٧/١ ومشكل إعراب القرآن لمكي ٧٣/١.

(٢) محمد بن أحمد بن كيسان، أبو الحسن، النحوي، كان يحفظ مذهب البصريين والكوفيين، لأنه أخذ عن المبرد وثعلب، له المذهب في النحو، والمذكر والمؤنث، ومعاني القرآن وغيرها. إنباه الرواة ٥٧/٣، وبغية الوعاة ١٨/١.

(٣) ذكره أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ١٧٧/١.

(٤) سلف تخريج قول ابن عباس في الصفحة قبلها، وانظر المحرر الوجيز ٨٣/١.

(٥) خُفَّاف بن عمير بن عمرو بن الشريد السلمي، الصحابي، يكنى أبا خرشة، ونُذْبَةُ أمُّه، كان شاعراً مشهوراً، وشَهِدَ مع النبي ﷺ فتح مكة، ومعه لواء بني سُلَيْم. ثبت في الرَّذَّة، وبقي إلى أيام عمر. الاستيعاب ٢٠٠/٣ بهامش الإصابة. والإصابة ١٤٨/٣.

(٦) البيت في مجاز القرآن ٢٩/١ والشعر والشعراء ٣٤٢/١، والكمال ١١٥٠/٣، ومعاني القرآن للزجاج ٦٦/١، والأغاني ٧٤/١٨، والاستيعاب ٢٠١/٣ بهامش الإصابة. قال المبرِّد: قوله: يَأْطُرُ مَثْنَهُ، أي: يثني.

(٧) كلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢٨/١، وأخرج قول عكرمة الطبري في تفسيره ٢٢٨/١.

تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، أي: هذه، لكنها لما انقضت، صارت كأنها بعُدَتْ، فقليل: تلك. وفي «البخاري»: وقال مَعْمَرُ: «ذلك الكتاب»: هذا القرآن. «هدى للمتقين»: بيانٌ ودلالة، كقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]: هذا حُكْمُ اللَّهِ^(١).

قلت: وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك»، ومنه قوله عليه السلام في حديث أم حَرام: «يَرْكَبُونَ نَجَسَ هَذَا الْبَحْرِ»^(٢) أي: ذلك البحر. والله أعلم.

وقيل: هو على بابه، إشارةً إلى غائب. واختلف في ذلك الغائب على أقوال عشرة: فقليل: «ذلك الكتاب» أي: الكتابُ الذي كتبتُ على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرِّزق، لا رَيْبَ فيه، أي: لا مُبَدِّلَ له.

وقيل: ذلك الكتاب، أي الذي كتبتُ على نفسي في الأزل: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي». وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». في رواية: «سَبَقَتْ»^(٣).

وقيل: إنَّ الله تعالى قد كَانَ وَعَدَ نَبِيَّهٖ عليه السلام أن يُنَزِّلَ عليه كتاباً لا يَمُحُوهُ الماء، فأشار إلى ذلك الوعد، كما في «صحيح» مسلم من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشَعِيِّ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لَأُبْلِيَنَّكَ، وَأُبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِماً وَيَقْظَانُ» الحديث^(٤).

وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة.

(١) صحيح البخاري قبل الحديث (٧٥٣٠): كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُنَادِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ فَعْلًا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

(٢) سلف تخريجه ص ٢١٩.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٥١): (١٤) و(١٥). وهو في صحيح البخاري (٧٤٢٢). ومُسْنَدُ أَحْمَدَ (٧٥٠٠).

(٤) صحيح مسلم (٢٨٦٥). وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٤)، وسلف قطعة منه ص ٩١.

وقيل : إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيه ﷺ بمكة : ﴿ إِنَّا سَلَفْنَا عَلَىٰ قَوْلَا نَقِيلَ ۝ [المزمل : ٥] ، لم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ مُسْتَشْرِفًا لِإِنجَازِ هَذَا الْوَعْدِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فلما أنزل عليه بالمدينة : ﴿ آتَاكَ ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝ ﴾ ، كان فيه معنى : هذا القرآن الذي أنزلته عليك بالمدينة ، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوجه إليك بمكة .

وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى ما في التوراة والإنجيل ، و«الم» اسم للقرآن ، والتقدير : هذا القرآن ذلك الكتاب المفسر في التوراة والإنجيل ، يعني أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ، ويستغرق ما فيهما ، ويزيد عليهما ما ليس فيهما .

وقيل : إن «ذلك الكتاب» ، إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما ، والمعنى : الم ، ذاك الكتابان ، أو مثل ذينك الكتابين ، أي : هذا القرآن جامع لما في ذينك الكتابين ، فعبر بـ «ذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ۝ [البقرة : ٦٨] ، أي : عوانٌ بينَ تَيْنِكَ الْفَارِضِ وَالْيَكْرِ ، وسيأتي .

وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى اللوح المحفوظ . وقال الكسائي : «ذلك» إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد .

وقيل : إن الله تعالى قد كان وَعَدَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ كِتَابًا ، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى : هذا القرآن ذلك الكتاب الذي كنتم تستفتحون به على الذين كفروا .

وقيل : [إن الإشارة] إلى حروف المعجم في قول من قال : «الم» الحروف التي تَحْدِثُكُمْ بِالنَّظْمِ مِنْهَا^(١) .

و«الكتاب» مصدر من : كَتَبَ يَكْتُبُ : إذا جمع ، ومنه قيل : كَتِيبَةٌ ، لاجتماعها . وَتَكْتَبُ الْخَيْلُ : صارت كتائب^(٢) . وَكَتَبْتُ الْبَغْلَةَ : إذا جمعت بين شُفْرَيِ رَحِمِهَا بِحُلْفَةٍ أَوْ سَيْرٍ ، قال :

(١) تفسير الماوردي ٤٤٨/١ ، وابن عطية ٨٣/١ ، ومعاني القرآن للنحاس ٧٨/١ ، وما بين حاصرتين من تفسير ابن عطية .

(٢) وفي الصحاح واللسان : تَكْتَبُ الْخَيْلُ ، أي : تجمعت .

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا حَلَلْتَ بِهِ عَلَى قَلُوصِكَ وَاکْتُبْنَهَا بِأَسْيَارِ^(١)
وَالْكُتْبَةُ، بضم الكاف: الْخُرْزَةُ، والجمع كُتَبٌ. وَالْكُتْبُ: الْخَرْزُ. قال ذو
الرُّمَّةَ^(٢):

وَفَرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَتَى خَوَارِزُهَا مُشْلَشْلُ ضَيَّعَتْهُ بَيْنَهَا الْكُتْبُ^(٣)
والكتاب: هُوَ خَطُّ الْكَاتِبِ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ، مَجْمُوعَةٌ، أَوْ مَتَرَفَقَةٌ، وَسُمِّيَ كِتَابًا،
وإنَّ كَانَ مَكْتُوبًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(٤):

تُومَلُ رَجْعَةٌ مَنِي فِيهَا كِتَابٌ مِثْلَ مَا لَصِقَ الْغِرَاءُ
والكتاب: الْفَرْضُ، وَالْحُكْمُ، وَالْقَدْرُ. قَالَ الْجَعْدِيُّ^(٥):

يَا ابْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا
قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾: نَفْيٌ عَامٌّ، وَلِذَلِكَ نُصِبَ الرَّيْبُ بِهِ. وَفِي «الرَّيْبِ» ثَلَاثَةُ
مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: الشَّكُّ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبْعَرِيِّ^(٦):

لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أَمِيمَةَ رَيْبٌ إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الْجَهْلُ^(٧)

(١) قائله سالم بن دارة، والبيت في الشعر والشعراء ٤٠١/١، والكمال ٩٨٨/٢، والخزانة ٥٣١/٦. ووقع في اللسان (كتب): على بعيرك، بدل: على قَلُوصِكَ، والقُلُوص: الشَّابَّةُ مِنَ الْإِبِلِ.

(٢) غِيلَانُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ بُهَيْسٍ، والبيت في ديوانه ١١/١ (بشرح أبي نصر الباهلي).

(٣) قوله: وفراء: أي: واسعة، وغَرْفِيَّةٌ، أي: ذُبُغت بِالْغَرْفِ، وهو شَجَرٌ، وَأَتَى خَوَارِزُهَا؛ الثَّأْيُ: أَنْ تَلْتَقِيَ الْخُرْزَتَانِ فَتَصِيرَا وَاحِدَةً، وَالْمُشْلَشْلُ: الَّذِي يَكَادُ يَتَصَلُّ قَطْرُهُ. قَالَ أَبُو نَصْرِ الْبَاهِلِيُّ صَاحِبُ الْأَصْمَعِيِّ، وَقَالَ الْبُغْدَادِيُّ فِي الْخَزَانَةِ ٣٤٢/٢: الْخَوَارِزُ: فَاعِلٌ أَتَى، وَهُوَ جَمْعُ خَارِزَةٍ، وَهِيَ الَّتِي تَخِيطُ الْمَزَادَةَ.

(٤) هُوَ مُسْلِمُ بْنُ مَعْبُدِ الْوَالِيِّ، وَالْبَيْتُ فِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ ٩٣/١، وَخَزَانَةُ الْأَدَبِ ٣٠٩/٢.

(٥) هُوَ النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ، أَبُو لَيْلَى، قِيلَ: اسْمُهُ حَيَّانُ بْنُ قَيْسٍ، عَاشَ إِلَى حُدُودِ سَنَةِ (٧٠هـ). سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ١٧٧/٣. وَالْبَيْتُ فِي «شِعْرِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ» ص ١٩٤، وَفِيهِ: كَرِهًا بَدَلَ: عَنْكُمْ.

(٦) ابْنُ قَيْسٍ بْنُ سَعْدٍ، الْقُرَشِيُّ السَّهْمِيُّ، كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، بَلْسَانُهُ وَنَفْسُهُ، ثُمَّ أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ، وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَاعْتَذَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَبِلَ عَذْرَهُ. الْاِسْتِيعَابُ ١٨٠/٦ (بِهَامِشِ الْإِصَابَةِ).

(٧) ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ فِي النُّكَتِ وَالْعِيُونِ ٦٧/١.

وثانيها: التَّهْمَةُ، قَالَ جَمِيلٌ^(١):

بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبٌ
وثالثها: الحاجة، قال:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ وَخَيْبَرٍ ثُمَّ أَجْمَعْنَا^(٢) السُّيُوفَا^(٣).
فكتابُ الله تعالى لا شكَّ فيه، ولا ارتياب، والمعنى: أنه في ذاته حقٌّ، وأنه
مُنزَلٌ من عند الله، وصفةٌ من صفاته، غيرُ مخلوق ولا مُحدث، وإنْ وَقَعَ رَيْبٌ للكفار.
وقيل: هو خبرٌ، ومعناه التَّهْمَةُ، أي: لا تَرْتَابُوا^(٤)، وتَمَّ الكلام، كأنَّه قال: ذلك
الكتابُ حقًّا. وتقول: رَابِنِي هذا الأمرُ إذا أَدخَلَ عَلَيْكَ شَكًّا وَخَوْفًا. وَأَرَابَ: صارَ ذا
رَيْبَةٍ، فهو مُرِيبٌ، وَرَابِنِي أمرُهُ. وَرَيْبُ الدهر: صُرُوفُهُ^(٥).
قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «فيه» الهاء في «فيه» في موضع خفضٍ بـ«في»، وفيه خمسة أوجه:
أجودُها: فِيهِ هُدًى. ويليه: فِيهِ هُدًى، بضم الهاء بغير واو، وهي قراءة
الزُّهريِّ، وسَلَامُ أَبِي المنذر^(٦). ويليه: فِيهِ هُدًى، بإثبات الياء، وهي قراءة ابن
كثير^(٧). ويجوزُ: فِيهِ هُدًى، بالواو^(٨). ويجوز: فِيهِ هُدًى، مُدْغَمًا^(٩).

(١) ابن عبد الله بن معمر، أبو عمرو العذري، صاحب بُثَيْنَةٍ، يقال: مات سنة (٨٢هـ)، وقيل: بل عاش
حتى وفد على عمر بن عبد العزيز. سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨١ والبيت المذكور في «ديوانه» ص ٢٩.

(٢) في (م): أجمعنا.

(٣) قاله كعب بن مالك، كما في اللسان والصحاح (ريب).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٨٣.

(٥) مجمل اللغة (ريب) ١/ ٤٠٨.

(٦) ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢ لمسلم بن جندب. وسلام أبو المنذر هو ابن سليمان
المزني مولاهم، البصري، المقرئ، النحوي، ويعرف بالخراساني. توفي سنة (١٧١هـ) معرفة القراء
الكبار ١/ ٢٧٧.

(٧) يعني حالة الوصل، أما عند الوقف فيقف بالهاء الساكنة. السبعة ص ١٣٠، والتيسير ص ٢٩.

(٨) قراءة شاذة، ولم نقف عليها إلا عند النحاس حيث نقل عنه المصنف.

(٩) قاله النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٩. والإدغام المذكور أعلاه هو مذهب أبي عمرو بن العلاء من
رواية السوسي. التيسير ص ٢٠.

وارتفع «هَدَى» على الابتداء، والخبر: «فيه».

والهُدَى في كلام العرب معناه الرُّشد والبيان، أي: فيه كشفٌ لأهل المعرفة، ورُشدٌ، وزيادةٌ بيانٌ وهُدَى.

الثانية: الهُدَى هُديان: هُدَى دَلالة، وهو الذي تقدَّر عليه الرُّسل وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة، والدعوة، والتنبيه، وتفرَّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. فالهُدَى على هذا يجيء بمعنى خَلَقَ الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: ٢٥]. والهُدَى: الاهتداء، ومعناها^(١) راجعٌ إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت.

قال أبو المعالي: وقد تَرَدَّدَت الهداية، والمرادُ بها: إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجنان، والطرقِ المُفْضِيَةِ إليها، من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ، سَيِّئِهِمْ﴾ [محمد: ٥٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلُكُوهم إليها^(٢).

الثالثة: الهدى لفظ مؤنث. قال الفراء: بعضُ بني أسد يُؤنِّثُ الهدى، فيقول: هذه هُدًى حسنة^(٣). وقال اللحياني: هو مذكَّر، ولم يُعرب، لأنه مقصورٌ، والألفُ لا تتحرَّك، ويتعدَّى بحرف، وبغير حرف، وقد مضى في «الفاتحة»^(٤)، تقول: هَدَيْتُهُ الطريقَ وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار، أي: عَرَفْتُهُ. الأولى لغةُ أهلِ الحجاز، والثانيةُ حكاها الأَخفش^(٥). وفي التنزيل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وَ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

(١) في (م): ومعناه.

(٢) سيذكره المصنف أيضاً في سورة محمد عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٠، ونقله ابن منظور في اللسان (هدى) عن الكسائي.

(٤) ص ٢٢٨.

(٥) في معاني القرآن ١/ ١٦٤.

وقيل: إن الهدى اسمٌ من أسماء النهار^(١)؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم، ومنه قول ابن مقبل^(٢):

[حتى استَبَنْتُ الهدى والبيدُ هاجمةً يَخْشَعْنَ في الآلِ غُلْفاً أو يُصَلِّينَا]^(٣)

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خَصَّ الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفاً لهم؛ لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه. ورؤي عن أبي روق^(٤) أنه قال: «هدى للمتقين» أي: كرامة لهم، يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً لهم، وكرامة لهم، وبياناً لفضلهم.

وأصل «للمتقين»: للمؤتقين، بياءٍين مخففتين، حُذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها، ثم حُذفت الياء لالتقاء الساكنين، وأبدلت الواو تاءً على أصلهم في اجتماع الواو والتاء، وأدغمت التاء في التاء، فصار: للمتقين^(٥).

الخامسة: التقوى، يقال: أصلها في اللغة قَلَّةُ الكلام، حكاه ابن فارس^(٦).

قلت^(٧): ومنه الحديث: «التقي^(٨) مُلْجَم^(٩)».

(١) في المخصص ١٧/١٧: فأما الهدى الذي هو النهار، فمذكر، كقول ابن مقبل: حتى استَبَنْتُ الهدى.

(٢) هو تميم بن أبي بن مقبل من بني العجلان، أدرك الإسلام فأسلم، وبلغ مئة وعشرين سنة، ذكره ابن سلام في الطبقة الخامسة من فحول الشعراء ١٤٣/١، وقد سقط من النسخ البيئ المذكور له أعلاه بين حاصرتين، وأشار إلى ذلك في (د) و(ز) بلفظة: كذا، وهو في البحر ٣٣/١، واللسان (هجم) و(هدى) و(قمس) وفي الموضع الأخير: يقمس، بدل: يخشعن.

(٣) قوله: البيد، جمع يبداء، وهي المفازة، وقوله: هاجمة، أي: ساكنة. وقوله: الآل، أي: السراب، أو هو خاص بما في أول النهار وآخره.

(٤) عطية بن الحارث الهمداني، الكوفي، صاحب التفسير. تهذيب التهذيب ١١٤/٣.

(٥) تفسير أبي الليث ٩٠/١، والمحرم الوجيز ٨٤/١.

(٦) في مجمل اللغة ١٤٩/١. وابن فارس: هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني المالكي، اللغوي، المحدث، توفي سنة (٣٩٥هـ). السير ١٧/١٠٣.

(٧) في (ز) و(د): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٨) في (د): المتقي.

(٩) هو من كلام عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣٧٤/٥، وأبو نعيم في الحلية ٣٣٩/٥ بلفظ: إن المتقي ملجم. والبيهقي في شعب الإيمان (٥٧٨٨)، وفي=

والمُتَّقِي فوق المؤمن والطائع، وهو الذي يَتَّقِي بِصَالِحِ عَمَلِهِ وَخَالِصِ دَعَائِهِ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، مَاخُوذٌ مِنْ اتِّقَاءِ الْمَكْرُوهِ بِمَا تَجْعَلُهُ حَاجِزاً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرْذِ إِسْقَاطُهُ فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَيْنَا بِالْيَدِ^(١)
وَقَالَ آخِرُ^(٢):

فَالَقْتُ قِنَاعاً دُونَهُ الشَّمْسُ وَاتَّقْتُ بِأَحْسَنِ مَوْضُولَيْنِ كَفْتُ وَمِغْصَمِ
وخرَجَ أبو محمد عبدُ الغني الحافظ من حديث سعيد بن زُرَيْبٍ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ يَوْمًا لَابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي تَرَى النَّاسَ مَا أَكْثَرَهُمْ! قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِلَّا تَائِبٌ أَوْ تَقِيٌّ. ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، تَرَى النَّاسَ مَا أَكْثَرَهُمْ! قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِلَّا عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ.

وقال أبو يزيد السِّطَامِيُّ^(٣): الْمُتَّقِي مَنْ إِذَا قَالَ، قَالَ اللَّهُ، وَمَنْ إِذَا عَمِلَ، عَمَلَ اللَّهُ.
وقال أبو سليمان الدَّارَانِيُّ^(٤): الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ نَزَعَ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الشَّهَوَاتِ^(٥).

وقيل: الْمُتَّقِي الَّذِي اتَّقَى الشُّرْكَ، وَبَرَّئَ مِنَ النِّفَاقِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: وَهَذَا فَاسِدٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ فَاسِقٌ^(٦).

= الزهد الكبير (٩٢٩) ولفظه في الزهد: التقى ملجمة.

وقال ابن عبد البر في التمهيد ٢٨٩/٢١: وفي المثل السائر: التقى مُلْجَمٌ، وذكره القاسم بن سلام في الأمثال ص ٤٠، والبكري في فصل المقال ص ٢٢ والميداني في مجمع الأمثال ١٣٩/١.
(١) ديوانه ص ٤٠. قوله: النصيف؛ المراد به هنا الخمار، أو ثوب تتجملُ به المرأة فوق ثيابها. ينظر «معجم متن اللغة».

(٢) هو أبو حية النميري، والبيت المذكور في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣٦٩/٣.

(٣) طَيْفُورُ بْنُ عِيسَى بْنِ شَرْوَسَانَ، أحد الزهاد. توفي سنة (٢٦١هـ). السير ٨٦/١٣.

(٤) عبد الرحمن بن أحمد، الزاهد، توفي سنة (٢١٥هـ)، وقيل: (٢٠٥هـ). السير ١٨٢/١٠.

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٩٢٢).

(٦) قاله الماوردي في تفسيره ٦٨/١.

وسأل عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أبا عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: شمرت^(١) وحذرتُ، قال: فذاك التقوى^(٢). وأخذ هذا المعنى ابنُ المعتز^(٣) فنظّمه:

خَلَّ الذنوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ الثُّقَى
وَاضْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى^(٤)
لَا تَخْفِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

السادسة: التقوى فيها جماعُ الخيرِ كُلِّهِ، وهي وصيةُ الله في الأولين والآخرين، وهي خيرُ ما يستفيدُهُ الإنسان، كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابك يقولون الشُّعْرَ وأنت ما حَفِظْتَ عنك شيءٌ، فقال:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا^(٥)

وروى ابنُ ماجه في «سننه» عن أبي أُمَامَةَ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «ما استفادَ المرءُ^(٦) بعد تقوى الله خيراً^(٧)» له من زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنَّ أَمْرَهَا أَطَاعَتُهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتُهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبْرَثَهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحْتُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا^(٨).
والأصل في التقوى: وَقْوَى، على وزن فَعْلَى، فقلبت الواو تاءً، من: وَقَيْتُهُ أَقِيه،

(١) في (م): تشمرت.

(٢) أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى كما في الدر المنثور ١/ ٢٤، والبيهقي في الزهد الكبير (٩٦٣) من قول أبي هريرة لرجل سأله عن التقوى.

(٣) عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس، الأديب الشاعر، أخذ الأدب عن المبرد وتعلب وغيرهما، له من التصانيف: الزهر والرياض وطبقات الشعراء وغيرها، توفي سنة (٢٩٦هـ). «وفيات الأعيان» ٣/ ٧٦ والأبيات المذكورة في ديوانه ص ٢٦.

(٤) في الديوان:

كُنْ فَوْقَ مَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٥، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١١/ ٢٣١ (بهامش الإصابة).

(٦) في (م): المؤمن.

(٧) في النسخ: خيرٌ، والمثبت من (م).

(٨) سنن ابن ماجه (١٨٥٧)، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف.

أي : منعته، ورجلٌ تقيٌّ، أي : خائف، أصله : وقِي، وكذلك : تُقاة، كانت في الأصل : وقاة، كما قالوا : تُجَاه وُثْرَاث، والأصل : وُجَاه وُورَاث.

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٣﴾

فيها ستُّ وعشرون مسألة :

الأولى : قوله : ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خَفَضَ نَعَتْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، ويجوز الرفع على القطع، أي : هم الذين، ويجوزُ النصبُ على المدح . ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ : يصدّقون. والإيمانُ في اللغة : التصديق، وفي التنزيل : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف : ١٧] أي : بمصدّق، ويتعدّى بالباء واللام، كما قال : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران : ٧٣]، ﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى﴾ [يونس : ٨٣].

وَرَوَى حَجَّاجُ بْنُ حَجَّاجِ الْأَحُول^(١) - ويلقب بزِقُّ الْعَسَل - قال : سمعتُ قتادة يقول : يا ابنَ آدم، إِنْ كُنْتَ لَا تَرِيدُ أَنْ تَأْتِيَ الْخَيْرَ إِلَّا عَنْ نَشَاطٍ، فَإِنْ نَفَسَكَ مَائِلَةٌ إِلَى السَّامَةِ وَالْفَتْرَةِ وَالْمَلَّةِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الْمُتَحَامِلُ، وَالْمُؤْمِنُ هُوَ الْمُتَّقَوِي، وَالْمُؤْمِنُ هُوَ الْمُتَشَدَّدُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الْعَجَّاجُونَ^(٢) إِلَى اللَّهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَاللَّهُ، مَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ : رَبَّنَا رَبَّنَا فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ حَتَّى اسْتَجَابَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ^(٣).

الثانية : قوله تعالى : ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ؛ الغَيْبُ في كلام العرب : كلُّ ما غَابَ عَنْكَ، وهو من ذوات الياء، يقال منه : غابت الشمسُ تَغِيْب، والغَيْبَةُ معروفةٌ. وأغابت المرأةُ، فهي مُغِيْبَةٌ إِذَا غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا : ووقَعْنَا فِي غَيْبَةٍ وَغِيَابَةٍ، أي : هَبْطَةً مِنَ الْأَرْضِ، والغَابَةُ^(٤) : الْأَجْمَةُ، وهي جِماعُ الشجر يُغَابُ فِيهَا، وَيُسَمَّى الْمُطْمِئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ : الْغَيْبُ ؛ لِأَنَّهُ غَابَ عَنِ الْبَصَرِ.

(١) الباهلي، البصري، الحافظ، وثقه أبو حاتم وغيره، توفي سنة (١٣١هـ). السير ١٥١/٦ و ٧٦/٧.

(٢) في (ظ) : العاجون.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٣٥-٣٣٦. وقوله : المتحامل : من تحاملت الشيء، إذا تكلفته على مشقة. النهاية ١/ ٤٤٣. والعجاجون : من العيج، وهو رفع الصوت بالتلية. النهاية ٣/ ١٨٤.

(٤) في النسخ و(م) : الغيبة، والمثبت من مجمل اللغة ٣/ ٦٨٨، والكلام منه.

الثالثة: واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله سبحانه. وضَعَفه ابنُ العربي^(١). وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كلُّ ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول؛ من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر، والنَّشْر، والضُّرَّاء، والميزان، والجنة، والنار. قال ابنُ عطية^(٢): وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها.

قلت: وهذا هو الإيمان الشرعيُّ المشارُ إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي ﷺ: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بالله وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قال: صدقت. وذكر الحديث^(٣). وقال عبدُ الله بنُ مسعود: ما آمنَ مؤمنٌ أفضلَ من إيمانٍ بغير، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٤).

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فهو سبحانه غائبٌ عن الأبصار، غيرُ مرئيٍّ في هذه الدار، غيرُ غائبٍ بالنظر والاستدلال، فهم يؤمنون أنَّ لهم ربًّا قادرًا يُجازي على الأعمال، فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يَغيبون فيها عن الناس، لِعلمهم باطلاعه عليهم، وعلى هذا تتفقُ الآي ولا تتعارض، والحمد لله.

وقيل: «بالغيب» أي: بضمائهم وقلوبهم بخلاف المنافقين، وهذا قولٌ حسنٌ. وقال الشاعر^(٥):

وبالغيب آمنَّا^(٦) وقد كان قَوْمُنَا يُصَلُّونَ لِلأوثانِ قَبْلَ^(٧) محمدٍ

(١) في أحكام القرآن ٨/١.

(٢) المحرر الوجيز ٨٤/١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب، وقد سلفت قطعة منه ص ١٩٣. وأخرج نحوه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٤) سلف ص ٢٣٨.

(٥) هو العباس بن مرداس، والبيت المذكور في «ديوانه» ص ٥٦.

(٦) في الديوان: ومن قبل آمنَّا.

(٧) في (ظ): غير.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامة الصلاة: أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، على ما يأتي بيانه.

يقال: قام الشيء، أي: دام وثبت، وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك: قام الحق، أي: ظهر وثبت، قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق^(١)

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا حتى تُقيم الخيل سوق طعان^(٢)
وقيل: «يقيمون»: يُديمون، وأقامه، أي: أدامه^(٣)، وإلى هذا المعنى أشار عمرُ بقوله: مَنْ حَفِظَهَا وحافظ عليها، حَفِظَ دينه، وَمَنْ ضَيَّعَهَا، فهو لما سواها أَضْيَعُ^(٤).

الخامسة: إقامة الصلاة معروفة، وهي سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها. وعند الأوزاعي، وعطاء، ومجاهد، وابن أبي ليلي^(٥) هي واجبة، وعلى مَنْ تَرَكَهَا الإعادة، وبه قال أهل الظاهر^(٦)، ورؤي عن مالك، واختاره ابن العربي^(٧) قال: لأنَّ في حديث الأعرابي: «وأقم» فأمره بالإقامة كما أمره بالكبير، والاستقبال، والوضوء.

قال: فأما أنتم الآن وقد وقفتُم على الحديث، فقد تَعَيَّنَ عليكم أن تقولوا بإحدى روايتي مالك الموافقة للحديث، وهي أنَّ الإقامة فرضٌ.

(١) ذكره الطبري في تفسيره ١٨٧/٢٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٤١/٨ وسيذكره المصنف أيضاً في تفسير الآية (٢٩) من سورة القيامة.

(٢) ذكره ابن عطية في تفسيره ٨٥/١.

(٣) في (ظ): وإقامة، أي: إدامة.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ٦/١، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٣٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١٩٣/١، والبيهقي في السنن الكبرى ٤٤٥/١، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٦٨/٥. وابن العربي في أحكام القرآن ١٠/١.

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي ليلي، أبو عيسى الأنصاري، الكوفي، الفقيه، قتل بوقعة الجماجم سنة (٨٨٣هـ). السير ٢٦٢/٤.

(٦) ينظر التمهيد ٣١٩٣١٨/١٨، والاستذكار ٥٠/٤.

(٧) عارضة الأحوذني ٩٩/٢ في شرح حديث الأعرابي عند الترمذي (٣٠٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقى، وسيشير إليه المصنف ص ٢٦٢.

قال ابن عبد البر: قوله ﷺ: «وتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ»^(١) دليل على أنه لم يَدْخُلْ في الصلاة مَنْ لم يُحْرِمْ، فما كَانَ قَبْلَ الإِحْرَامِ فَحُكْمُهُ أَلَا تُعَادَ مِنْهُ الصَّلَاةُ، إِلَّا أَنْ يُجْمِعُوا عَلَى شَيْءٍ، فَيَسْلُمَ لِلْإِجْمَاعِ، كَالطَّهَارَةِ، وَالْقِبْلَةِ، وَالْوَقْتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ^(٢).

وقال بعضُ علمائنا: مَنْ تَرَكَهَا عَمْدًا أَعَادَ الصَّلَاةَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِوُجُوبِهَا، إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ، لَاسْتَوَى سَهْوُهَا وَعَمْدُهَا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلِاسْتِخْفَافِ بِالسَّنَنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

السادسة: واختلف العلماءُ فِيمَنْ سَمِعَ الإِقَامَةَ، هَلْ يُسْرِعُ أَوْ لَا؟ فَذَهَبَ الْأَكْثَرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُسْرِعُ، وَإِنْ خَافَ قَوَّتِ الرُّكْعَةُ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَلَا تَأْتُوها تَسْعَوْنَ، وَأَتُوها تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا» رواه أبو هريرة، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وعنه أيضاً قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا تُؤْبَّ بِالصَّلَاةِ، فَلَا يَسْعَ إِلَيْهَا أَحَدُكُمْ، وَلَكِنْ لِيَمْسِ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، صَلِّ مَا أَدْرَكْتَ، وَأَقْضِ مَا سَبَقَكَ»^(٤). وَهَذَا نَصٌّ.

وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى: أَنَّهُ إِذَا أَسْرَعَ، انْبَهَرَ^(٥)، فَشَوَّشَ عَلَيْهِ دُخُولُهُ فِي الصَّلَاةِ وَقَرَأَتُهَا وَخَشَوَعَهَا.

وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عَمْرٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ - عَلَى اخْتِلَافٍ عَنْهُ - أَنَّهُ إِذَا خَافَ فَوَاتَهَا، أَسْرَعَ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ: يُسْرِعُ إِذَا خَافَ فَوَاتَ الرُّكْعَةَ، وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ نَحْوُهُ، وَقَالَ: لَا بَأْسَ لِمَنْ كَانَ عَلَى فَرَسٍ أَنْ يُحَرِّكَ الْفَرَسَ^(٦)، وَتَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَاشِي وَالرَّاكِبِ؛ لِأَنَّ الرَّاكِبَ لَا يَكَادُ أَنْ يَنْبَهَرَ كَمَا يَنْبَهَرُ الْمَاشِي.

(١) قطعة من حديث علي رضي الله عنه، سيذكره المصنف ص ٢٦٨.

(٢) التمهيد ٣١٨/١٨ - ٣١٩.

(٣) (٦٠٢)، وهو في مسند أحمد (٧٦٦٢).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٩٥١٤)، ومسلم (٦٠٢): (١٥٤).

(٥) أي: تابع نفسه. الصحاح (بهر).

(٦) ذكر هذه الأقوال ابن المنذر في الأوسط ١٤٦-١٤٧، وابن عبد البر في التمهيد ٢٣٣-٢٣٢/٢٠، والاستذكار ٣٨٣٦/٤. وقول إسحاق عندهما: إذا خاف فوات التكبيرة الأولى فلا بأس أن يسعي.

قلتُ: واستعمالُ سنةِ رسولِ الله ﷺ في كلِّ حالٍ أولى، فيمشي كما جاء في^(١) الحديث: «وعليه السكينة والوقار»، لأنه في صلاة، ومُحالٌ أن يكون خبره ﷺ على خلافٍ ما أخبر، فكما أن الداخل في الصلاة يلزم^(٢) الوقار والسكون، كذلك الماشي، حتى يحصل له التَّشَبُّه به، فيحصل له ثوابه.

ومما يدلُّ على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرَّجه الدَّارِمِيُّ في «مسنده» قال: حدثنا محمدُ بنُ يوسفَ قال: حدثنا سفيانُ، عن محمدِ بنِ عجلانَ، عن المقبريِّ، عن كعب بنِ عُجرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا توضَّأت، فَعَمَدْتَ إلى المسجد، فلا تُشَبِّكَنَّ بين أصابعك، فإنَّك في صلاةٍ^(٣)». فَمَنَعَ ﷺ في هذا الحديث - وهو صحيحٌ - مما هو أقلُّ من الإسراع، وجَعَلَهُ كالمصلي. وهذه السُّنَنُ تبيِّنُ معنى قوله تعالى: ﴿تَأْسَؤْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وأنه ليس المرادُ به الاشتداد على الأقدام، وإنما عَنِ العملِ والفِعْلِ، هكذا فسَّره مالكٌ. وهو الصوابُ في ذلك، والله أعلم.

السابعة: واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام: «وما فاتكم فأتيموا» وقوله: «واقض ما سبقتك»، هل هما بمعنى واحد، أو لا؟ ف قيل: هما بمعنى واحد، وأنَّ القضاء قد يُطلَقُ، ويُرادُ به التَّمامُ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ شَأْنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقيل: معناهما مُخْتَلِفٌ، وهو الصحيح.

ويترتَّبُ على هذا الخلافِ خلافٌ فيما يُدرِكُه الداخلُ: هل هو أوَّلُ صلاته، أو آخرُها؟ فذهب إلى الأوَّلِ جماعةٌ من أصحابِ مالك - منهم ابنُ القاسم - ولكنه يُقْضَى ما فاتَه بالحمد وسورة، فيكون بانياً في الأفعال، قاضياً في الأقوال. قال ابنُ عبد البر^(٤):

(١) لفظ: في، من (ظ).

(٢) في النسخ الخطية: لزَم، والمثبت من (م).

(٣) سنن الدارمي (١٤٠٥)، وهو في مسند أحمد (١٨١٥) من طريق قرآن بن تمام الأسدي، عن محمد بن عجلان، به.

(٤) في التمهيد ٢٣٤/٢٠ - ٢٣٦، والاستذكار ٤٠/٤ - ٤٣، والكلام منهما حتى آخر المسألة، دون قول القاضي عبد الوهاب.

وهو المشهور من المذهب. وقال ابنُ خُوَيزَمَنَدَاد^(١): وهو الذي عليه أصحابنا، وهو قولُ الأوزاعي، والشافعي، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل، والطبري، وداود بن علي. وروى أشهب - وهو الذي ذكره ابنُ عبد الحكم عن مالك، ورواه عيسى^(٢)، عن ابن القاسم - عن مالك: أنَّ ما أدركَ فهو آخرُ صلاته، وأنه يكونُ قاضياً في الأفعال والأقوال، وهو قولُ الكوفيين.

قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب^(٣): وهو مشهور مذهب مالك.

قال ابنُ عبد البر: مَنْ جعلَ ما أدركَ أوَّلَ صلاته، فأظنَّهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكونُ إلا في أوَّلِ الصلاة، والتشهدُ والتسليمُ لا يكونُ إلا في آخرها، فَمِنْ هَاهُنَا قالوا: إنَّ ما أدركَ فهو أوَّلُ صلاته، مع ما وردَ في ذلك من السنَّة من قوله: «فَأَتِمُّوا» والتَّامُّ هو الآخرُ.

واحتجَّ الآخرون بقوله: «فَأَقْضُوا» والذي يَقْضِيهِ هو الفائتُ، إلا أنَّ روايةَ مَنْ روى «فَأَتِمُّوا» أكثرُ، وليس يستقيمُ على قولِ مَنْ قال: إنَّ ما أدركَ أوَّلَ صلاته، وَيَطْرُدُ، إلا ما قاله عبد العزيز بن أبي سَلَمَةَ المَاجِشُون^(٤)، والمُزَنِّي^(٥)، وإسحاق، وداود، مِنْ أَنَّهُ يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة، إنَّ أدركَ ذلك معه، وإذا قام للقضاء، قرأ بالحمد وحدها، فهؤلاء أَطَرَدَ على أصْلِهِمْ قولُهم وفعلُهم، رضي الله عنهم.

الثامنة: الإقامة تَمْنَعُ من ابتداء صلاة نافلة، قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة» خرَّجه مسلمٌ وغيره^(٦)، فأما إذا شَرَعَ في نافلة، فلا

(١) في (د) و(ز): خواز منداد، وفي (ظ): حوار بنداد، والمثبت من (م)، وسلف ذكره ص ١٨٠.

(٢) ابن دينار، أبو محمد الغافقي، القرطبي، فقيه الأندلس ومفتيها، لزم عبد الرحمن بن القاسم العتقي مدة، وعول عليه، توفي سنة (٢١٢هـ). السير ٤٣٩/١٠.

(٣) ابن علي بن نصر التغلبي العراقي، شيخ المالكية، له كتاب التلقين والمعرفة وغير ذلك. توفي سنة (٤٢٢هـ). السير ٤٢٩/١٧.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، أبو عبد الله، التيمي مولاهم، المدني. توفي سنة (١٦٤هـ). وقيل: (١٦٦هـ). السير ٣٠٩/٧.

(٥) إسماعيل بن يحيى، أبو إبراهيم، المصري، تلميذ الإمام الشافعي، صاحب المختصر، قال الشافعي: المزي ناصر مذهبي، توفي سنة (٢٦٤هـ). السير ٤٩٢/١٢.

(٦) صحيح مسلم (٧١٠)، من حديث أبي هريرة. وهو في مسند أحمد (٩٨٧٣).

يَقْطَعُهَا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا آيَاتِنَا﴾ [محمد: ٣٣]، وخاصةً إذا صَلَّى ركعةً منها. وقيل: يقطعها لعموم الحديث في ذلك. والله أعلم.

التاسعة: واختلف العلماء فيمن دَخَلَ المسجدَ، ولم يكن ركعَ ركعتي الفجر، ثم أَقِيَمَتِ الصَّلَاةُ. فقال مالكٌ: يدخلُ مع الإمام ولا يركعُهما، وإن كان لم يدخلِ المسجدَ، فإن لم يَخَفْ فَوَاتَ ركعة، فَلْيَرْكَعْ خارجَ المسجد، ولا يركعُهما في شيء من أَفْنِيَةِ المسجد - التي يُصَلِّي^(١) فيها الجمعة - اللَّاصِقَةَ بالمسجد. وإن خاف أن تَفُوتَهُ الركعة الأولى، فَلْيَدْخُلْ وَلْيُصَلِّ معه، ثم يُصَلِّيَهما^(٢) إذا طلعت الشمسُ إن أحبَّ، ولأنَّ يُصَلِّيَهما إذا طلعتِ الشمسُ أحبُّ إليَّ وأفضلُ مِنْ تَرْكِهَما^(٣).

وقال أبو حنيفةٌ وأصحابه: إن خَشِيَ أن تَفُوتَهُ الركعتان، ولا يدرك الإمامَ قَبْلَ رَفْعِهِ من الركوع في الثانية، دَخَلَ معه، وإن رجا أن يُدْرِكَ ركعةً، صَلَّى ركعتي الفجر خارجَ المسجد، ثم يدخلُ مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعيُّ، إلا أنه يُجَوِّزُ ركوْعَهما في المسجد ما لم يَخَفْ فَوْتَ الركعة الأخيرة. وقال الثوري: إن خَشِيَ فَوْتَ ركعة، دَخَلَ معهم ولم يُصَلِّهما، وإلا صَلَّاهما وإن كان قد دخلَ المسجدَ. وقال الحسنُ بن حَيٍّ - ويقال ابن حَيَّان^(٤) -: إذا أخذ المقيمُ في الإقامة، فلا تَطَوُّعَ إلا ركعتي الفجر. وقال الشافعيُّ: مَنْ دخلَ المسجدَ وقد أَقِيَمَتِ الصَّلَاةُ، دخلَ مع الإمام، ولم يَرْكَعْهُما، لا خارجَ المسجد ولا في المسجد. وكذلك قال الطبريُّ، وبه قال أحمدُ بنُ حنبلٍ، وحكي عن مالك، وهو الصحيحُ في ذلك؛ لقوله عليه السلام: «إذا أَقِيَمَتِ الصَّلَاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة».

وركعتا الفجر إمَّا سنَّةٌ، وإمَّا فضيلةٌ، وإمَّا رغبةٌ، والحُجَّةُ عند التنازع السُّنَّةُ^(٥).

(١) في (م): تُصَلِّي.

(٢) في (ظ) في الموضعين: يصلِّيها.

(٣) في النسخ: تركها، والمثبت من (م).

(٤) هو الحسن بن صالح بن حيٍّ، أبو عبد الله الهمداني، الثوري، الكوفي، الفقيه، قال الذهبي: هو من أئمة الإسلام لولا تلبسه ببذعة، توفي سنة (١٦٩هـ). السير ٣٦١/٧.

(٥) في (م): حجة السنة.

ومن حُجَّةِ قولِ مالك المشهور وأبي حنيفة: ما رُوي عن ابن عمر، أنه جاء والإمام يُصَلِّي صلاةَ الصبح، فصلَّاهما في حُجْرَةِ حفصة، ثم إنه صلَّى مع الإمام^(١).

ومن حُجَّةِ الثوري والأوزاعي ما رُوي عن عبد الله بن مسعود، أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة، فصلَّى إلى أسطوانة في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بمحضَرٍ من حذيفة وأبي موسى رضي الله عنهما^(٢). قالوا: وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارج المسجد، جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَةَ قال: أقيمت صلاةُ الصبح، فرأى رسولُ الله ﷺ رجلاً يُصَلِّي والمؤذُنُ يقيم، فقال: «أَتُصَلِّي الصُّبْحَ أربَعاً؟»^(٣). وهذا إنكارٌ منه ﷺ على الرجل لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يُصَلِّي، ويمكن أن يُستدلَّ به أيضاً على أنَّ ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صحَّحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكُّنه من ذلك، والله أعلم^(٤).

العاشر: الصلاة أصلها في اللغة: الدعاء، مأخوذة من صَلَّى يُصَلِّي: إذا دعا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إلى طعامٍ، فَلْيُجِبْ، فإن كان مُفْطِراً، فَلْيُطْعَمْ، وإن كان صائماً، فَلْيُصَلِّ»^(٥) أي: فَلْيَدْعُ.

وقال بعض العلماء: إنَّ المراد الصلاة^(٦) المعروفة، فيُصَلِّي ركعتين، وينصرف، والأوَّلُ أشهر، وعليه من العلماء الأكثر^(٧).

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٥، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ٧٣.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٤.

(٣) صحيح مسلم (٧١١)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٦٦٣). وأخرجه الإمام أحمد (٢١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تنظر الأقوال الواردة في هذه المسألة في التمهيد ٢٢/ ٧٤-٦٨، والاستذكار ٥/ ٣٠٤-٣٠٧.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٠٥٨٥)، ومسلم (١٤٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (د): بالصلاة.

(٧) في (ظ): أكثر.

ولما وَلَدَتْ أَسْمَاءُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، أَرْسَلَتْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. قَالَتْ أَسْمَاءُ: ثُمَّ مَسَحَهُ، وَصَلَّى عَلَيْهِ^(١)، أَي: دَعَا لَهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أَي: ادْعُ لَهُمْ.
وَقَالَ الْأَعَشَى^(٢):

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحِلًا يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا
عَلَيْكَ مِثْلُ^(٣) الَّذِي صَلَّيْتَ فَاغْتَمِضِي يَوْمًا^(٤) فَإِنَّ لَجَنِبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا
وَقَالَ الْأَعَشَى أَيْضًا^(٥):

وَقَابَلَهَا الرِّيحُ فِي دَنْهَا وَصَلَّى عَلَى دَنْهَا^(٦) وَارْتَسَمَ
ارْتَسَمَ الرَّجُلُ: كَبَّرَ وَدَعَا، قَالَهُ فِي «الصَّحاح»^(٧).

وَقَالَ قَوْمٌ: هِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الصَّلَاةِ، وَهُوَ عِرْقٌ فِي وَسْطِ الظَّهْرِ، وَيَفْتَرِقُ عِنْدَ الْعَجَبِ، فَيَكْتَفُهُ، وَمِنْهُ أُخِذَ الْمُصَلِّي فِي سَبْقِ الْخَيْلِ؛ لِأَنَّهُ يَأْتِي فِي الْحَلْبَةِ وَرَأْسُهُ عِنْدَ صَلَوِي السَّابِقِ، فَاسْتَقَّتْ الصَّلَاةُ مِنْهُ؛ إِمَّا لِأَنَّهُا جَاءَتْ ثَانِيَةً لِلإِيمَانِ، فَشَبَّهَتْ بِالْمُصَلِّي مِنَ الْخَيْلِ، وَإِمَّا لِأَنَّ الرَّائِعَ تُثْنَى^(٨) صَلَوَاهُ^(٩). وَالصَّلَاةُ: مَغْرِرُ الذَّنْبِ مِنَ الْفَرَسِ. وَالْإِثْنَانُ صَلَوَانُ. وَالْمُصَلِّي: تَالِي السَّابِقِ؛ لِأَنَّ رَأْسَهُ عِنْدَ صَلَاةٍ. وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَبَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ، وَتَلَّتْ عُمَرُ^(١٠).

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٤٦).

(٢) في ديوانه ص ١٥١.

(٣) بالرفع أو النصب؛ قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ٦٢/١: فمن رفع «مثل» جعله: عليك مثل ذلك الذي قلت لي ودعوت لي به، ومن نصبه جعله أمراً يقول: عليك بالترحم والدعاء لي.

(٤) في (م): نوماً، وهي رواية للبيت.

(٥) في ديوانه ص ٨٥.

(٦) اللذن: هو وعاء ضخم للخمر ونحوها.

(٧) الصحاح (رسم).

(٨) في (د): يثنى، وفي (ظ): ينتهي.

(٩) من قوله: قال قوم... من المحرر الوجيز ٨٥/١.

(١٠) أخرجه أحمد في المسند (٨٩٥)، وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (١١) من سورة يوسف، والآية

(١٠) من سورة الحديد.

وقيل : هي مأخوذة من اللزوم، ومنه صَلِّيَ بالنار: إذا لَزِمَهَا، ومنه ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]. قال الحارث بن عباد^(١):

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ الدَّهْرُ وَإِنِّي بَحَرُّهَا الْيَوْمَ صَالٍ^(٢)
أَي: مُلَازِمٌ لِحَرِّهَا.

وكأن المعنى على هذا: مُلَازِمَةُ الْعِبَادَةِ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وقيل: هي مأخوذة من صَلَّيْتُ الْعُودَ بِالنَّارِ: إِذَا قَوْمَتَهُ وَلَيَّتَهُ بِالصَّلَاءِ. وَالصَّلَاءُ: صَلَاةُ النَّارِ، بِكسر الصاد ممدود، فَإِنْ فَتَحْتَ الصَّادَ قَصَّرْتَ، فَقُلْتَ: صَلَا النَّارِ، فَكَأَنَّ الْمُصَلِّيَ يُقَوِّمُ نَفْسَهُ بِالْمَعَانَاةِ فِيهَا، وَيَلِينُ وَيَخْشَعُ، قَالَ الْخَارَزْنَجِيُّ^(٣):
فَلَا تَعْجَلْ بِأَمْرِكَ وَاسْتَدِمْنَاهُ فَمَا صَلَّيْتُ عَصَاكَ كَمُسْتَدِيمٍ
وَالصَّلَاةُ: الدُّعَاءُ، وَالصَّلَاةُ: الرَّحْمَةُ، وَمِنْهُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ»
الْحَدِيثُ^(٤).

وَالصَّلَاةُ: الْعِبَادَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ [الأنفال: ٣٥]
الآيَةُ، أَي: عِبَادَتُهُمْ.

وَالصَّلَاةُ: النَّافِلَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢].

(١) فِي النسخ: هناد، وهو خطأ، وهو الحارث بن عباد البكري، كان أحلم أهل زمانه وأشدّهم بأساً، اعتزل الحرب بين بكر وتغلب - وهي حرب البسوس - ثم دخلها بعد أن قتل المهلهل ابن أخيه بجير بن عمرو. خزنة الأدب ١/٤٧٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/٤٥٥، والأغاني ٥/٤٧، وخزنة الأدب ١/٤٧٣.

(٣) كذا وقع في النسخ، والبيت لقيس بن زهير العبسي، كما في اللسان والصحاح (صلا)، وقد ذكره الخارزنجي، فيما ذكر ابن عادل الحنبلي في الباب ١/٢٩٠، ثم قال: وهو مشكل، فإن الصلاة من ذوات الواو، وهذا من الياء. اهـ. والخارزنجي هو: أحمد بن محمد، أبو حامد البشتي، إمام أهل الأدب بخراسان في عصره، له كتاب التكملة، كمل به كتاب العين. توفي سنة (٣٤٨هـ). إنباه الرواة ١/١٠٧.

(٤) روي من أحاديث عدد من الصحابة، منهم طلحة بن عبيد الله، وأبو سعيد الخدري، وأبو مسعود الأنصاري وكعب بن عجرة، وأبو حميد الساعدي. ينظر مسند أحمد (١٣٩٦) و(١١٤٣٣) و(١٧٠٧٢) و(١٨١٠٤) و(٢٣٦٠٠).

والصلاة: التسبيح، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانِ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصفات: ١٤٣] أي: من المُصَلِّين، ومنه سُبْحَةُ الضُّحَى. وقد قيل في تأويل ﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]: نصلي.

والصلاة: القراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهي لفظٌ مُشترَكٌ. والصلاة: بيتٌ يُصَلَّى فيه، قاله ابنُ فارس^(١).

وقد قيل: إنَّ الصلاةَ اسمٌ عَلِمَ وَضِعَ لهذه العبادة، فإنَّ الله تعالى لم يُخلِ زماناً من شرع، ولم يخلُ شرعٌ من صلاة، حكاه أبو نصر القشيري.

قلت: فعلى هذا القول لا اشتقاق لها، وعلى قول الجمهور، وهي:

الحادية عشرة: اختلف الأصوليون: هل هي مبقاة على أصلها اللغوي الوضعي الابتدائي، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، أو هل تلك الزيادة من الشرع تُصَيِّرُها^(٢) موضوعاً كالوضع الابتدائي من قبل الشرع؟ هنا اختلافهم، والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّ الشريعة تَبَتَّتْ بالعربية، والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين، ولكن للعرب تحكُّم في الأسماء، كالذَّابَّةِ وَضِعَتْ لكلِّ ما يَدِبُّ، ثم خَصَّصَهَا العُرْفُ بالبهايم، فكذلك لِعُرْفِ الشرع تحكُّم في الأسماء، والله أعلم.

الثانية عشرة: واختلف في المراد بالصلاة هنا، فقول: الفرائض، وقيل: الفرائض والنوافل معاً، وهو الصحيح؛ لأنَّ اللفظ عامٌ، والمتقي يأتي بهما.

الثالثة عشرة: الصلاة سببٌ للرزق، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢]، الآية، على ما يأتي بيانه في «طه» إن شاء الله تعالى. وشفاء من وجع البطن وغيره، روى ابنُ ماجه، عن أبي هريرة قال: هَجَرَ النَّبِيُّ ﷺ، فَهَجَرْتُ^(٣)، فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ جَلَسْتُ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اشْكَمْتَ دَرَدَةً» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فَمُفْصَلٌ، فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شِفَاءً». وفي^(٤) رواية: «اشْكَمْتَ دَرَدَةً» يعني: تشتكي

(١) في مجمل اللغة (صلى) ٥٣٨/٢.

(٢) في النسخ: يصيرها، والمثبت من (م).

(٣) من هذا الموضع إلى قوله: لأنه مخالف للسواد ص ٢٨٣ سقط من (ز).

(٤) في (د) و(م): في رواية، والمثبت من (ظ).

بَطْنَك؟ بالفارسية^(١). وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ، فَنَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ^(٢).

الرابعة عشرة: الصلاة لَا تَصِحُّ إِلَّا بِشُرُوطٍ وفُرُوضٍ، فمن شُرُوطِهَا: الطهارة، وسيأتي بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة^(٣). وَسَتُرُ العورة، يأتي في الأعراف^(٤) القول فيها إن شاء الله تعالى.

وأما فُرُوضُهَا: فاستقبالُ القبلة^(٥)، والنية، وتكبيرةُ الإحرام، والقيامُ لها، وقراءةُ أَمِّ الْقُرْآنِ، والقيامُ لها، والركوعُ، والطُّمَأْنِينَةُ فيه، ورفعُ الرأسِ من الركوع، والاعتدالُ فيه، والسجودُ، والطُّمَأْنِينَةُ فيه، ورفعُ الرأسِ من السجود، والجلوسُ بين السجدين، والطُّمَأْنِينَةُ فيه، والسجودُ الثاني، والطُّمَأْنِينَةُ فيه. والأصلُ في هذه الجُمْلَةِ حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الرَّجُلِ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ لَمَّا أَخْلَّ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ كَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِماً، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِساً، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا» خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ^(٦).

ومثله حديثُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ^(٧)، أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ^(٨).

قال علماؤنا: فَبَيَّنَ^(٩) ﷺ أَرْكَانَ الصَّلَاةِ، وَسَكَتَ عَنِ الْإِقَامَةِ، وَرَفَعَ الْيَدَيْنِ،

(١) سنن ابن ماجه (٣٤٥٨). وفي إسناده ذُوَادُ بْنُ عُثْبَةَ، وَلَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، وَكِلَاهُمَا ضَعِيفٌ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْعُلَلِ الْمَتَنَاهِيَةِ (٢٧١) (٢٧٢) (٢٧٣)، وَأَخْرَجَهُ أَيْضاً (٢٧٤) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَانِ حَدِيثَانِ لَا يَصَحَّانِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢٣٢٩٩)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٣١٩)، وَالطَّبْرِيُّ فِي التَّفْسِيرِ ٦١٩-٦١٨/١ (وَاللَّفْظُ لَهُ) مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) النِّسَاءُ الْآيَةُ (٤٣)، وَالْمَائِدَةُ الْآيَةُ (٦).

(٤) الْآيَةُ (٢٦).

(٥) الْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّ اسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الصَّلَاةِ.

(٦) (٣٩٧): (٤٦)، وَأَخْرَجَهُ أَيْضاً أَحْمَدُ (٩٦٣٥)، وَابْنُ خَالٍ (٧٥٧).

(٧) الْأَنْصَارِيُّ، الْخَزْرَجِيُّ، شَهِدَ بَدْرًا وَالْعَقَبَةَ وَبَقِيَةَ الْمَشَاهِدِ، مَاتَ سَنَةَ (٤١هـ)، الْإِسَابَةُ ٢٨١/٣.

(٨) سنن الدارقطني ٩٦٩٥/١، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٨٩٩٧).

(٩) فِي (م): فَبَيَّنَ قَوْلَهُ.

وعن حَدِّ القراءة، وعن تكبيرِ الانتقالات، وعن التسبيحِ في الركوع والسجود، وعن الجلْسةِ الوسطى، وعن التَّشَهُّدِ، وعن الجلْسةِ الأخيرة، وعن السَّلام. أمّا الإقامةُ وتعيينُ الفاتحة، فقد مضى الكلامُ فيهما^(١).

وأما رَفْعُ اليَدَينِ، فليس بواجبٍ عند جماعةِ العلماء وعامّةِ الفقهاء، لحديث أبي هريرة وحديث رِفاعَةَ بن رافع. وقال داودُ وبعضُ أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام. وقال بعضُ أصحابه: الرفعُ عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجبٌ، وإنَّ مَنْ لم يرفع يديه، فصلاؤه باطلٌ، وهو قولُ الحُمَيْدِيِّ^(٢)، وروايةٌ عن الأوزاعي.

واحتجُّوا بقوله عليه السلام: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي» أخرجه البخاري^(٣). قالوا: فوجبَ علينا أَنْ نفعلَ كما رأيناَه يفعلُ؛ لأنه المبلِّغُ عن الله مراده.

وأما التكبيرُ ما عدا تكبيرةَ الإحرام، فمسنونٌ عند الجمهور، للحديث المذكور. وكان ابنُ القاسم صاحبُ مالك يقول: مَنْ أسقطَ من التكبير في الصلاة ثلاثَ تكبيرات فما فوقها، سَجَدَ للسُّهو قبلَ السلام، وإنَّ لم يسجُدْ بطلتْ صلاته، وإنَّ نسيَ تكبيرةً واحدةً أو اثنتين، سَجَدَ أيضاً للسُّهو، فإنَّ لم يفعلْ، فلا شيءَ عليه، ورُويَ عنه أَنَّ التكبيرةَ الواحدةَ لا سهوَ على مَنْ سها فيها. وهذا يدلُّ على أَنَّ عَظَمَ التكبير وجُمْلَتَه عنده فرضٌ، وأنَّ اليسيرَ منه مُتجاوزٌ عنه. وقال أَصْبَغُ بنُ الفَرَجِ^(٤) وعبدُ الله بن عبد الحَكَمِ^(٥): ليس على مَنْ لم يُكَبِّرْ في الصلاة من أولِّها إلى آخرها شيءٌ إذا كَبَّرَ تكبيرةَ الإحرام، فإنَّ تَرَكَه ساهياً، سَجَدَ للسُّهو، فإنَّ لم يسجُدْ، فلا شيءَ عليه، ولا ينبغي

(١) مضى الكلام عن تعيين الفاتحة في ص ١٨٠ - ١٨٢، ومضى الكلام عن الإقامة ص ٢٥٣ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن عيسى، أبو بكر القرشي، الأسدي، المكي، شيخ الحرم، صاحب المسند، توفي سنة (٢١٩هـ). السير ٦١٦/١٠.

(٣) صحيح البخاري (٦٣١)، وقد سلف ص ٦٧، وينظر الاستذكار ١٠٣/٤٠ و ١٠٧ و التمهيد ٩/٢١٣.

(٤) أبو عبد الله، الأموي مولا هم، مفتي الديار المصرية. توفي سنة (٢٢٥هـ). السير ١٠/٦٥٦.

(٥) أبو محمد، صاحب مالك، مفتي الديار المصرية، توفي سنة (٢١٤هـ). السير ١٠/٢٢٠.

لأحد أن يترك التكبيرَ عَمِداً؛ لأنه سنةٌ من سُنن الصلاة، فإن فعلَ، فقد أساء، ولا شيءَ عليه، وصلاته ماضية^(١).

قلت: هذا هو الصحيحُ، وهو الذي عليه جماعةُ فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين، وجماعة أهل الحديث، والمالكيين غيرَ من ذهب مذهب ابنِ القاسم.

وقد تَرَجَمَ البخاريُّ رحمه الله: باب إتمام التكبير في الركوع والسجود. وساق حديثَ مُطَرِّف بن عبد الله^(٢) قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيٍّ بن أبي طالب أنا وعِمْرَانُ بنُ حُصَيْنٍ، فكان إذا سجدَ كَبَّرَ، وإذا رَفَعَ رأسَه كَبَّرَ، وإذا نهَضَ من الركعتين كَبَّرَ، فلما قَضَى الصلاةَ، أخذ بيدي عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ فقال: لقد ذَكَّرَنِي هذا صلاةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، أو قال: لقد صَلَّيْنَا بنا صلاةَ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٣). وحديثُ عكرمةَ قال: رأيتُ رجلاً عندَ المقامِ يُكَبِّرُ في كُلِّ خَفْضٍ وَرَفَعٍ، وإذا قامَ، وإذا وَضَعَ، فأخبرتُ ابنَ عباسٍ، فقال: أو ليس تلكَ صلاةُ النبيِّ ﷺ، لا أُمَّ لك^(٤).

فذلِكَ البخاريُّ رحمه الله بهذا البابِ على أَنَّ التكبيرَ لم يكن معمولاً به عندهم.

وروى^(٥) أبو إسحاق السَّيِّعِيُّ عن بُرَيْدٍ^(٦) بنِ أبي مريم، عن أبي موسى الأشعري قال: صَلَّيْنَا بنا عليَّ يَوْمَ الْجَمَلِ صلاةً أَذْكَرُنَا بها صلاةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ؛ كان يُكَبِّرُ في كُلِّ خَفْضٍ وَرَفَعٍ، وقيامٍ وقُعود. قال أبو موسى: فإِما نسيناها، وإِما تَرَكْنَاهَا عَمداً^(٧).

قلتُ: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يُقال: مَنْ ترك التكبيرَ بَطَلَتْ صلاتُهُ؟! ولو

(١) التمهيد ١٨٤/٩.

(٢) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير، أبو عبد الله الحَرشي، العامري، البصري، توفي سنة (٩٥هـ) وقيل غير ذلك. السير ١٨٧/٤.

(٣) صحيح البخاري (٧٨٦). وهو في مسند أحمد (١٩٩٥٢).

(٤) صحيح البخاري (٧٨٧). وهو في مسند أحمد (٣٠١٤).

(٥) في (م): روى.

(٦) في (م): يزيد، وهو خطأ.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٤٩٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢٦٧/١، وابن عبد البر في «التمهيد» ١٧٥/٩ من الطريق الذي ذكرها المصنف، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٧٢٢) بزيادة رجل من بني تميم في إسناده بين أبي إسحاق السَّيِّعِي وبُرَيْد، وهو الصواب فيما ذكر الدارقطني في العلل ٢٢٤/٧.

كان ذلك، لم يكن فرق بين السنة والفرس، والشيء إذا لم يجب أفراده، لم يجب جميعه، وبالله التوفيق.

الخامسة عشرة: وأما التسبيح في الركوع والسجود، فغير واجب عند الجمهور، للحديث المذكور، وأوجه إسحاق بن راهويه، وأن من تركه، أعاد الصلاة، لقوله عليه السلام: «أما الركوع، فعظموا فيه الرب، وأما السجود، فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»^(١).

السادسة عشرة: وأما الجلوس والتشهد، فاختلف العلماء في ذلك، فقال مالك وأصحابه: الجلوس الأول والتشهد له سستان. وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول، وقالوا: هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود، كالعرايا من المزابنة، والقراض من الإجازات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راکعاً. واحتجوا بأنه لو كان سنة، ما كان العايد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة.

واحتج من لم يوجبه بأن قال: لو كان من فرائض الصلاة، لرجع الساهي عنه إليه حتى يأتي به، كما لو ترك سجدة أو ركعة، ويراعي فيه ما يراعي في الركوع والسجود من الولاية والرتبة، ثم يسجد لسهو كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما^(٢).

وفي حديث عبد الله بن بحنة^(٣): أن رسول الله ﷺ قام من ركعتين، ونسي أن يتشهد، فسبح الناس خلفه كيما يجلس، فثبت قائماً، فقاموا، فلما فرغ من صلاته، سجد سجدتي السهو قبل التسليم^(٤). فلو كان الجلوس فرضاً، لم يسقطه النسيان

(١) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه أحمد في المسند (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) وسيدكره المصنف في تفسير الآية الأخيرة من سورة العلق.

(٢) التمهيد ١٨٨/١٠ - ١٩١، والاستذكار ٣٧٣/٤ - ٣٧٥.

(٣) هو عبد الله بن مالك بن القشيب، أبو محمد الأزدي، ويحينة أمه، كان حليف بني المطلب بن عبد مناف، له صحبة، توفي سنة (٥٦هـ). الإصابة ٢٠٤/٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩١٩)، والبخاري (٨٢٩)، ومسلم (٥٧٠). وليس فيه لفظ: «فسبح الناس خلفه» وإنما ورد هذا اللفظ في حديث المغيرة بن شعبة كما في مصادر الحديث، ينظر مسند أحمد (١٨١٦٣).

وَالسَّهْوُ؛ لَأَنَّ الْفَرَائِضَ فِي الصَّلَاةِ يَسْتَوِي فِي تَرْكِهَا السَّهْوُ وَالْعَمْدُ، إِلَّا فِي الْمَأْتَمِ^(١).
واختلفوا في حُكْمِ الْجُلُوسِ الْآخِرِ فِي الصَّلَاةِ، وَمَا الْفَرْضُ^(٢) مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ:
السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: عَلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ:

أحدها: أَنَّ الْجُلُوسَ فَرْضٌ، وَالتَّشَهُّدَ فَرْضٌ، وَالسَّلَامَ فَرْضٌ. وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ
الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي رَوَايَةٍ، وَحَكَاهُ أَبُو مَصْعَبٍ^(٣) فِي «مَخْتَصَرِهِ» عَنْ مَالِكٍ
وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَبِهِ قَالَ دَاوُدُ. قَالَ الشَّافِعِيُّ: مَنْ تَرَكَ التَّشَهُّدَ الْأَوَّلَ، وَالصَّلَاةَ عَلَى
النَّبِيِّ ﷺ، فَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ سَجْدَتَا السَّهْوِ لِتَرْكِهِ. وَإِذَا تَرَكَ التَّشَهُّدَ الْآخِرَ سَاهِيًا
أَوْ عَامِدًا، أَعَادَ.

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ بَيَانَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ فَرْضٌ؛ لَأَنَّ أَصْلَ فَرْضِهَا مَجْمَلٌ يَفْتَقِرُ^(٤)
إِلَى الْبَيَانِ، إِلَّا مَا خَرَجَ بِدَلِيلٍ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(٥).
الْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْجُلُوسَ وَالتَّشَهُّدَ وَالسَّلَامَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ سُنَّةٌ
مُسْنُونَةٌ. هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْبَصَرِيِّينَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُثَيْبٍ^(٦)، وَصَرَّحَ بِقِيَاسِ
الْجُلُوسِ الْآخِرَةِ^(٧) عَلَى الْأُولَى، فَخَالَفَ الْجُمْهُورَ وَشَدَّ، إِلَّا أَنَّهُ يَرَى الْإِعَادَةَ عَلَى مَنْ
تَرَكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَمَنْ حُجِّجَتْهُمْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَفَعَ
الْإِمَامُ رَأْسَهُ مِنْ آخِرِ سَجْدَةٍ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ أَخَذَتْ، فَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُهُ». وَهُوَ حَدِيثٌ

(١) فِي (د) وَ(م): الْمُؤْتَم، وَهُوَ خَطَأٌ. وَيَنْظُرُ التَّمْهِيدُ ١٠/١٩٦، وَالِاسْتِذْكَارُ ٤/٣٧٤.

(٢) فِي (م): الْفَرْض.

(٣) هُوَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْقَاسِمُ بْنُ الْحَارِثِ، الزَّهْرِيُّ، الْقَاضِي الْمَدِينِيُّ، لَازِمُ مَالِكٍ وَتَفَقَّهَ بِهِ. تَوَفَّى
سَنَةَ (٢٤١هـ) وَقِيلَ: (٢٤٢هـ). «السَّيَرُ» ١١/٤٣٦.

(٤) فِي (ظ): مُفْتَقِرٌ.

(٥) سَلَفُ الْحَدِيثِ ص ٦٧ وَ٢٦٣، وَتَنْظُرُ الْأَقْوَالُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ فِي التَّمْهِيدِ ١٠/٢١١، وَالِاسْتِذْكَارُ
٤/٣٨٢-٣٨٣، وَالْأَوْسَطُ ٣/٢١٨.

(٦) إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ عَلِيٍّ، جَهْمِيٌّ هَالِكٌ، كَانَ يَقُولُ بِخُلُقِ الْقُرْآنِ، لَهُ مُصَنَّفَاتٌ فِي الْفَقْهِ تُشَبِّهُ
الْجِدَلَ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: ابْنُ عُثَيْبٍ ضَالٌّ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: ضَالٌّ مُضِلٌّ. تَوَفَّى سَنَةَ (٢١٨هـ). تَارِيخُ
بَغْدَادٍ ٦/٢٠، وَمِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ ١/٢٠.

(٧) فِي (م): الْآخِرَةِ.

لا يَصِحُّ على ما قاله أبو عمر^(١)، وقد بيَّناه في كتاب «المقتبس»^(٢). وهذا اللفظ إنما يُسَقَطُ السلام، لا الجلوس.

القول الثالث: إنَّ الجلوسَ مقدارَ التشهّدِ فرضٌ، وليس التشهّدُ ولا السلامُ بواجب فرضاً. قاله أبو حنيفةٌ وأصحابه وجماعةٌ من الكوفيين. واحتجُّوا بحديث ابن المبارك، عن الإفريقيِّ عبد الرحمن بن زياد، وهو ضعيفٌ، وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا جلسَ أحدُكم في آخِرِ صلاته، فأحدَثَ قبلَ أن يُسَلِّمَ، فقد تَمَّتْ صلاتُهُ»^(٣).

قال ابنُ العربي: وكان شيخُنا فخرُ الإسلام يُنشدُنا في الدرس:

وَيَرَى الْخُرُوجَ مِنَ الصَّلَاةِ بِضَرْطَةٍ أَيْنَ الضَّرَاطُ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ!
قال ابنُ العربي: وسلكَ بعضُ علمائنا من هذه المسألةِ فرعينِ ضعيفين، أما أحدهما: فروى عبدُ الملك^(٤) عن عبدِ الملك، أنَّ من سلَّم من ركعتين متتابعاً، فخرج البيانُ أنه إن كان على أربع أنه يُجزئُه، وهذا مذهبُ أهل العراق بعينه. وأما الثاني: فوقع في الكتب المنبوضة، أنَّ الإمامَ إذا أحدثَ بعد التشهّد مُتَعَمِّداً وقبلَ السلام، أنه يُجزئُ مَنْ خَلَفَهُ، وهذا ممَّا لا ينبغي أن يُلْتَفَتَ إليه في الفتوى، وإن عَمَرَتْ به المجالسُ للذكرى^(٥).

القول الرابع: إنَّ الجلوسَ فرضٌ، والسلامُ فرضٌ، وليس التشهّدُ بواجب، وممَّن قال هذا: مالكُ بنُ أنسٍ، وأصحابه، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في رواية. واحتجُّوا بأنَّ قالوا: ليس شيءٌ من الذِّكْرِ يجبُ إلا تكبيرةُ الإحرام، وقراءةُ أمِّ القرآن [والتسليم]^(٦).

(١) في التمهيد ٢١٤/١٠، والاستذكار ٣٨٤/٤. والحديث المذكور أخرجه بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢٧٤-٢٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١٣٩/٢.

(٢) هو المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس، كما سيصرح به المصنف في أكثر من موضع.

(٣) هو نفسه الحديث الذي ذكره المصنف في القول الثاني، وهذا أحد ألفاظه، وقال فيه ابن عبد البر في التمهيد ٢١٤/١٠: لا يصح لضعف سنده واختلافهم في لفظه.

(٤) ابنُ حبيب، وسلف ذكره ص ١٨٣، وأما عبد الملك (الذي بعده، وهو شيخه) فهو ابن عبد العزيز بن الماجشون، تلميذ الإمام مالك توفي سنة (٢١٣هـ). السير ١٠٢/١٢ و ٣٥٩/١٠.

(٥) لم نجد قول ابن العربي فيما بين أيدينا من مصادر.

(٦) ما بين حاصرتين من التمهيد ٢١٢/١٠، والاستذكار ٣٨٣/٤.

القول الخامس: إِنَّ التَّشَهُّدَ والجلوسَ واجبان، وليس السلامُ بواجب، قاله جماعةٌ، منهم إسحاقُ بن راهويه، واحتجَّ إسحاقُ بحديث ابن مسعود حين علّمه رسولُ الله ﷺ التَّشَهُّدَ، وقال له: «إِذَا فَرَعْتَ مِنْ هَذَا، فَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُكَ، وَقُضِيَ مَا عَلَيْكَ»^(١).

قال الدارقطني: قوله: «إِذَا فَرَعْتَ مِنْ هَذَا، فَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُكَ» أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث، ووصله بكلام النبي ﷺ، وفصله شَبَابَةُ عن زهير، وجعله من كلام ابن مسعود، وقوله أشبه بالصواب مِنْ قول مَنْ أدرجه في حديث النبي ﷺ. وشَبَابَةُ ثقةٌ. وقد تابعه غسانُ بن الربيع على ذلك، جَعَلَ آخِرَ الحديثِ من كلام ابن مسعود، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ^(٢).

الثامنة عشرة: واختلف العلماء في السلام، فقل: واجبٌ، وقيل: ليس بواجب. والصحيحُ وجوبه، لحديث عائشة^(٣) وحديث عليّ الصحيح، خرّجه أبو داود والترمذي، رواه^(٤) سفيانُ الثوريُّ عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن محمد ابن الحنفية، عن عليّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ»^(٥).

وهذا الحديثُ أصلٌ في إيجاب التَّكْبِيرِ والتَّسْلِيمِ، وأنه لا يُجْزَىٰ عَنْهُمَا غيرُهُما، كما لا يُجْزَىٰ عَنْ الطَّهَارَةِ غيرها باتِّفَاقٍ.

قال عبدُ الرحمن بن مَهْدِي^(٦): لو افتتَحَ رجلٌ صَلَاتَهُ بسبعين اسماً من أسماء الله

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٠٦)، وأبو داود (٩٧٠)، وابن حبان (١٩٦٢)، والدارقطني في السنن ٣٥٣/١ و٣٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧٥/٢. والقولان الرابع والخامس في التمهيد ٢١٢/١٠ و٢١٤، والاستذكار ٣٨٣/٤.

(٢) سنن الدارقطني ٣٥٣/١، والعلل له ١٢٨/٥. وزهير: هو ابن معاوية، وشَبَابَةُ: هو ابن سَوَّار.

(٣) قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير... وكان يختم الصلاة بالتسليم. أخرجه أحمد (٢٤٠٣٠)، ومسلم (٤٩٨)، وسيذكره المصنف في الصفحة التالية.

(٤) في (م): ورواه.

(٥) سنن أبي داود (٦١) و(٦١٨)، وسنن الترمذي (٣). وهو في مسند أحمد (١٠٠٦). وسلف قطعة منه ص ٢٥٤. قال الترمذي: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن.

(٦) أبو سعيد الغبري، وقيل: الأزدي مولا هم، البصري، الناقد، توفي سنة (١٩٨هـ). السير ٩/١٩٢.

عَزَّ وَجَلَّ، ولم يُكَبِّرْ تكبيرة الإحرام، لم يَجْزِهِ، وإن أحدثَ قبلَ أن يُسَلِّمَ لم يَجْزِهِ. وهذا تصحيحٌ من عبد الرحمن بن مهديٍّ لحديث عليٍّ، وهو إمامٌ في علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمِه، وحَسْبُكَ به^(١).

وقد اختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح، وهي:

التاسعة عشرة: فقال ابنُ شهاب الزهريُّ، وسعيدُ بنُ المسيَّب، والأوزاعيُّ، وعبدُ الرحمن، وطائفةٌ: تكبيرةُ الإحرام ليست بواجبة. وقد رُوِيَ عن مالك في المأموم ما يدلُّ على هذا القول، والصحيحُ من مذهبه إيجابُ تكبيرة الإحرام، وأنها قَرْضٌ وركنٌ من أركان الصلاة، وهو الصوابُ، وعليه الجمهورُ، وكلُّ مَنْ خالف ذلكَ فَمَخْجُوجٌ بالسنة^(٢).

الموفية عشرين: واختلف العلماء في اللَّفْظ الذي يدخلُ به في الصلاة. فقال مالكٌ وأصحابُه، وجمهورُ العلماء: لا يُجْزِئُ إلا التكبيرُ، لا يُجْزِئُ منه تهليلٌ، ولا تسبيحٌ، ولا تَعْظِيمٌ، ولا تَحْمِيدٌ. هذا قولُ الحجازيين وأكثر العراقيين. ولا يُجْزِئُ عند مالك إلا «الله أكبر» لا غير ذلك. وكذلك قال الشافعيُّ، وزاد: ويُجْزِئُ «الله الأكبر»، و«الله الكبير». والْحُجَّةُ لمالك حديثُ عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصَّلَاةَ بالتَّكْبِيرِ، والقراءةُ بـ «الحمدُ لله ربِّ العالمين»، وحديثُ عليٍّ: «وتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ»^(٣)، وحديثُ الأعرابي: «فَكَبِّرْ»^(٤). وفي «سنن» ابن ماجه: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِيزِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حُمَيْدَ السَّاعِدِيِّ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «الله أكبر»^(٥).

(١) الاستذكار ١٢٦/٤، والتمهيد ١٨٦/٩.

(٢) الاستذكار ١٢٧/٤، والتمهيد ١٨٦/٩.

(٣) سلف الحديثان في الصفحة السابقة.

(٤) سلف في ص ٢٦٢ من حديث أبي هريرة ورفاعة.

(٥) سنن ابن ماجه (٨٠٣)، ولم نجد في المطبوع منه طريق ابن أبي شيبة، وقد أشار إليه الجوزي في تحفة الأشراف ١٥١/٩، وأخرجه أحمد (٢٣٥٩٩) عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبد الحميد بن جعفر، به، مطولاً.

وهذا نصٌ صريحٌ، وحديثٌ صحيحٌ في تعيين لَفْظِ التَّكْبِيرِ. وقال^(١) الشاعرُ:
رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ محاولةً وأعظمَه جنوداً^(٢)
ثم إنه يَتَضَمَّنُ الْقَدْرَ^(٣)، وليس يَتَضَمَّنُهُ كَبِيرٌ، ولا عَظِيمٌ، فكان أبلغٌ في المعنى،
والله أعلم.

وقال أبو حنيفة: إن افتتحَ بلا إله إلا الله، يَجْزِيهِ، وإن قال: اللهم اغفر لي، لم
يَجْزِهِ، وبه قال محمد بنُ الحسن.

وقال أبو يوسف: لا يُجْزِيهِ إذا كان يُحْسِنُ التَّكْبِيرَ. وكانَ الْحَكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ^(٤)
يقول: إذا ذَكَرَ اللهُ مَكَانَ التَّكْبِيرِ، أَجْزَأَهُ.

قال ابنُ المنذر: ولا أعلمهم يختلفون أنَّ مَنْ أَحَسَّنَ الْقِرَاءَةَ، فَهَلَّلَ وَكَبَّرَ، ولم
يقرأ، أنَّ صَلَاتَهُ فَاسِدَةٌ، فمن كان هذا مذهبه، فاللَّازِمُ له أن يقول: لا يَجْزِيهِ مَكَانُ
التَّكْبِيرِ غَيْرُهُ. كما لا يَجْزِي مَكَانَ الْقِرَاءَةِ غَيْرُهَا. وقال أبو حنيفة: يَجْزِيهِ التَّكْبِيرُ
بِالْفَارْسِيَةِ وإن كان يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ.

قال ابنُ المنذر: لا يَجْزِيهِ؛ لَأَنَّهُ خِلَافٌ مَا عَلَيْهِ جَمَاعَاتُ الْمُسْلِمِينَ، وَخِلَافٌ مَا
عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا وَاظَفَهُ عَلَى مَا قَالَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٥).

الحادية والعشرون: وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى وَجوبِ النِّيَّةِ عِنْدَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ إِلَّا شَيْئاً
رَوَى عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا يَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي آيَةِ الطَّهَارَةِ.

وحقيقتها: قَضْدُ التَّقَرُّبِ إِلَى الْأَمْرِ بِفَعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ.

قال ابنُ العربي: وَالْأَصْلُ فِي كُلِّ نِيَّةٍ أَنْ يَكُونَ عَقْدُهَا مَعَ التَّلَبُّسِ بِالْفِعْلِ الْمَنْوِيِّ

(١) في (م): قال.

(٢) قائله خدّاش بن زهير، والبيت في ديوانه ص ٤١، وفيه: أكثر، وذكره المبرد في المقتضب ٩٧/٤،
وعنده: محافظة وأكثرهم، بدل: محاولة وأعظمه. وذكره العيني في شرح الشواهد ٣٧١/٢، ضمن
قصيدة.

(٣) في (د) و(م): القدم.

(٤) في (د): الحسن بن عتيبة، وفي (ظ): الحسن وابن عتيبة، وكلاهما خطأ، والمثبت من مصادر
التخريج.

(٥) الأوسط ٧٦/٣ - ٧٨، والاستذكار ٤/٣١ - ١٣٤.

بها، أو قبل ذلك بشرط استصحابها، فإن تَقَدَّمتِ النِّيَّةُ، وطرأت غَفْلَةٌ، فوَقَعَ التَّلَبُّسُ بالعبادة في تلك الحالة لم يُعْتَدَّ بها، كما لا يُعْتَدُّ بالنية إذا وَقَعَتْ بعد التَّلَبُّسِ بالفعل، وقد رُخِّصَ في تقديمها في الصوم لِعِظَمِ الْحَرَجِ في اقترانها بأولها.

قال ابنُ العربي: وقال لنا أبو الحسن القروي بثغر عَسْقَلَانَ: سمعتُ إمامَ الحرمين يقول: يُحْضِرُ الإنسانُ عند التَّلَبُّسِ بالصلاة النِّيَّةَ، وَيُجَرِّدُ النَّظَرَ في الصانع، وحدوث العالم، والنبوءات حتى ينتهي نظره إلى نِيَّةِ الصلاة، قال: ولا يَحْتَاجُ ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكونُ ذلك في أوحى لحظة؛ لأنَّ تعليمَ الجَمَلِ يفتقرُ إلى الزمان الطويل، وتَذَكُّرُها يكونُ في لحظة. ومن تمامِ النِّيَّةِ أن تكونَ مُسْتَصْحَبَةً على الصلاة كُلِّها، إلا أنَّ ذلك لَمَّا كانَ أمرًا يُتَعَذَّرُ^(١)، سمحَ الشرعُ في عُزوبِ النِّيَّةِ في أثنائها.

سمعتُ شيخنا أبا بكر الفهري^(٢) بالمسجد الأقصى يقول: قال محمد بن سُحنون: رأيتُ أبي سُحنوناً^(٣) ربَّما يُكْمِلُ الصلاةَ، فَيُعِيدُها، فقلتُ له: ما هذا؟ فقال: عَزَبَتْ نِيَّتِي في أثنائها، فلأجل ذلك أَعَدْتُها.

قلتُ: فهذه جُمْلَةٌ من أحكام الصلاة، وسائرُ أحكامِها يأتي بيانُها في مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، فيأتي ذِكْرُ الرُّكُوعِ، وصلاة الجماعة، والقبلة، والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف في هذه السورة، ويأتي ذِكْرُ قَصْرِ الصَّلَاةِ، وصلاة الخوف في «النساء»^(٤)، والأوقات في «هود»، و«سبحان» و«الروم»^(٥) وصلاة الليل في «المزمل»^(٦)، وسجود التلاوة في «الأعراف»^(٧)، وسجود الشُّكْرِ في «ص»^(٨)، كلُّ في مَوْضِعِهِ إن شاء الله تعالى.

(١) في (م): يتعذر عليه.

(٢) محمد بن الوليد الأندلسي، الطُّرْطُوشي، شيخ المالكية. توفي سنة (٥٢٠هـ) انظر السير ١٩/٤٩٠.

(٣) عبد السلام بن حبيب، التنوخي، الحمصي الأصل، المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة. توفي سنة (٢٤٠هـ). السير ١٢/٦٣.

(٤) الآية (١٠١).

(٥) هود الآية (١١٤)، والإسراء الآية (٧٨)، والروم الآيتان (١٧) و(١٨).

(٦) الآيات (١ - ٤) و(٢٠).

(٧) الآية (٢٠٦).

(٨) الآية (٢٤).

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتُلُونَ﴾: رزقناهم: أعطيناهم. والرِّزْقُ عند أهل السُّنة: ما صَحَّ الانتفاعُ به، حلالاً كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إِنَّ الحرامَ ليس برزق؛ لأنه لا يَصِحُّ تَمْلُكُهُ، وإنَّ الله لا يرزُقُ الحرامَ، وإنما يرزُقُ الحلالَ، والرِّزْقُ لا يكونُ إلا بمعنى المِلْكِ^(١).

قالوا: فلو نشأ صَبِيٌّ مع اللُّصوص، ولم يأكل شيئاً إلا ما أطعموه^(٢) اللصوص، إلى أن بلغ، وقَوِيَ وصار لِبْصاً، ثم لم يَزَلْ يَتَلَصَّصُ، ويأْكُلُ ما تَلَصَّصَهُ إلى أن مات، فإنَّ الله لم يَرزُقْهُ شيئاً، إذ لم يَمْلِكْهُ، وإنه يموتُ ولم يأكل من رِزْقِ الله شيئاً!.

وهذا قولٌ فاسدٌ^(٣)، والدليلُ عليه: أنَّ الرزقَ لو كان بمعنى التَّمْلِكِ، لوجب ألا يكونَ الطُّفلُ مرزوقاً، ولا البهائمُ التي تَرْتَعُ في الصحراء، ولا السُّخَالُ من البهائم؛ لأنَّ لِبْنَ أُمَّهَاتِهَا مِلْكٌ لصاحبها دون السُّخَالِ.

ولما اجتمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الطُّفلَ والسُّخَالَ والبهائمَ مرزوقون، وأنَّ الله تعالى يَرزُقُهُم مع كونهم غيرَ مالِكين، عَلِمَ أنَّ الرِّزْقَ هو الغذاء، ولأنَّ الأُمَّةَ مُجْمِعَةٌ على أنَّ العبيدَ والإماءَ مرزوقون، وأنَّ الله تعالى يَرزُقُهُم مع كونهم غيرَ مالِكين، فَعَلِمَ أنَّ الرِّزْقَ ما قلناه، لا ما قالوه. والذي يَدُلُّ على أنه لا رازقَ سواه قوله الحقُّ: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا﴾ [هود: ٦]، وهذا قاطعٌ، فالله تعالى رازقٌ حقيقةً، وابنُ آدمَ رازقٌ تَجَوُّزاً، لأنه يَمْلِكُ مِلْكاً مُنْتَزِعاً كما بَيَّنَّاهُ في الفاتحة^(٤)، مرزوقٌ حقيقةً، كالبهائم التي لا مِلْكَ لها، إلا أنَّ الشيءَ إذا كان مَأْذُوناً له في تناوله، فهو حلالٌ حُكْماً، وما كان منه غيرَ مَأْذُونٍ له في تناوله، فهو حرامٌ حُكْماً، وجميعُ ذلك رِزْقٌ.

وقد خَرَجَ بعضُ النبلاء من قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةً طَيِّبَةً﴾

(١) المحرر الوجيز ٨٥/١.

(٢) كذا في النسخ الخطية، وهي لغة، وفي (م): أطعمه.

(٣) في (م): وهذا فاسد.

(٤) ص ٢١٦.

وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿سبأ: ١٥﴾، فقال: ذُكِرَ المغفرة يُشير إلى أَنَّ الرِّزْقَ قد يكون فيه حرامٌ.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، الرِّزْقُ مصدرُ رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا ورِزْقًا، فالرِّزْقُ، بالفتح: المصدرُ، وبالكسر: الاسمُ، وجمعه أرزاقٌ، والرِّزْقُ: العطاء. والرَّازِقِيَّةُ: ثيابُ كَتَانٍ. وارتزقَ الجندُ: أخذوا أرزاقهم. والرِّزْقَةُ: المرأةُ الواحدةُ. كذا^(١) قال أهلُ اللغة. وقال ابنُ السَّكَيْتِ: الرِّزْقُ بلغةُ أزدَشْنُوَّةَ: الشُّكْرُ، وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: شُكْرُكم التَّكْذِيبَ. ويقول: رزقني، أي: شُكْرَني^(٢).

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ﴾، يُنْفِقُونَ: يُخْرِجُونَ. والإنفاقُ: إخراجُ المالِ من اليد، ومنه: نَفَقَ البَيْعُ، أي: خرجَ من يدِ البائعِ إلى المُشْتَرِي. ونَفَقَتِ الدَّابَّةُ: خَرَجَتْ رُوحُهَا، ومنه النِّفَاقُ، لِجُحْرِ الْيَرُبُوعِ الذي يَخْرُجُ منه إذا أُخِذَ من جهةٍ أخرى. ومنه المنافقُ؛ لأنه يخرجُ من الإيمان، أو يخرجُ الإيمانَ من قلبه. وَنِفَقُ السَّرَاوِيلِ معروفةٌ، وهو مَخْرُجُ الرَّجُلِ منها^(٣). وَنَفَقَ الزَّادُ: فَنِيَ، وَأَنْفَقَهُ صاحِبُهُ. وَأَنْفَقَ الْقَوْمُ: فَنِيَ زَادُهُمْ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

الخامسة والعشرون: واختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا، ف قيل: الزكاةُ المفروضةُ - رُوِيَ عن ابن عباس - لمقارنتها الصلاةَ. وقيل: نفقةُ الرجلِ على أهله - رُوِيَ عن ابن مسعود^(٤) - لأنَّ ذلك أفضلُ النفقة.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مَسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَغْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»^(٥).

(١) في (م): هكنا.

(٢) مجمل اللغة (رزق) ٣٧٣/٢.

(٣) في معاجم اللغة: نِفَقُ السَّرَاوِيلِ: الموضعُ المتَّسَعُ منها.

(٤) أخرج هذين الخبرين الطبري في تفسيره ٢٤٩/١-٢٥٠.

(٥) صحيح مسلم (٩٩٥). وهو في مسند أحمد (١٠١٧٤).

وَرَوَى عَنْ ثوبان^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قال أبو قلابة^(٢): وبدأ بالعِيَالِ [ثم] قال أبو قلابة: وأيُّ رجلٍ أعظمُ أجراً من رجلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ يُعِفُّهُمْ، أو يُنْفَعُهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَيُغْنِيَهُمْ^(٣).

وقيل: المراد صدقة التطوع - روي عن الضحاك - نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها الْمُخْتَصَّصُ بها، وهو الزكاة، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة، احْتَمَلَتِ الْفَرْضَ والتطوع، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق، لم تكن إلا التطوع. قال الضحاك: كانت النفقة قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ عَلَى قَدْرِ جُهْدِهِمْ^(٤) حتى نزلت فرائض الصَّدَقَاتِ، والناسخات في «براءة».

وقيل: إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة؛ لأنَّ الله تعالى لما قَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ، كان فرضاً، ولَمَّا عَدَلَ عَنْ لَفْظِهَا، كان فرضاً سِوَاهَا.

وقيل: هو عامٌّ، وهو الصحيح؛ لأنه خَرَجَ مَخْرَجَ الْمَدْحِ فِي الْإِنْفَاقِ مِمَّا رُزِقُوا، وذلك لا يكون إلا من الحلال، أي: يُؤْتُونَ مَا أَلْزَمَهُمُ الشَّرْعُ مِنْ زَكَاةٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا نَصَّ^(٥) فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، مع ما نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ.

وقيل: الإيمان بالغيب: حَظُّ الْقَلْبِ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ: حَظُّ الْبَدَنِ، ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ: حَظُّ الْمَالِ، وهذا ظاهرٌ.

وقال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، أي: ممَّا عَلَّمْنَاهُمْ يُعَلِّمُونَ. حكاه أبو نصر عبدُ الرَّحِيمِ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْقَشِيرِي.

(١) مولى رسول الله ﷺ، صحبه ولازمه، وحفظ عنه كثيراً من العلم، مات بحمص سنة (٥٥٤هـ). السير ١٥/٣.

(٢) أحد رواة الحديث عند مسلم، وهو عبد الله بن زيد الجرمي، البصري، هرب إلى الشام حين أراد الحجاج أن يوليه القضاء، وتوفي فيها سنة (١٠٤هـ) وقيل بعدها. السير ٤٦٨/٤.

(٣) صحيح مسلم (٩٩٤) وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٢٤٥٣).

(٤) في (ظ) و(م): جدتهم، والمثبت من (د) وهو الموافق لخبر الطبري ٢٤٩/١.

(٥) في (م): مما يعن.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٤﴾

قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام^(١)، وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين. وعليه فإعرابُ «الذين» خفضٌ على العطف، ويصحُّ أن يكونَ رفعاً على الاستئناف، أي: وهم الذين. ومن جعلها في صنفين، فإعرابُ «الذين» رفعٌ بالابتداء، وخبره «أولئك على هدى»، ويَحْتَمِلُ الخفضُ عطفاً^(٢).

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: الكتب السالفة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: ٩١].

ويقال: لما نزلت هذه الآية: «الذين يؤمنون بالغيب» قالت اليهود والنصارى: نحن آمنّا بالغيب، فلما قال: «وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ» قالوا: نحن نقيم الصلاة، فلما قال: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» قالوا: نحن ننفق ونتصدق، فلما قال: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» نفروا من ذلك^(٣).

وفي حديث أبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزل الله؟ قال: «مئة كتاب وأربعة كُتُبٍ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». الحديث أخرجه [محمد بن] الحسين الأجرى^(٤)، وأبو حاتم البستي^(٥).

(١) حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي ﷺ، كان من أخبار اليهود، وأسلم وقت الهجرة، توفي في المدينة سنة (٤٣هـ). السير ٤١٣/٢.

(٢) المحرر الوجيز ٨٦/١.

(٣) ذكره أبو الليث في تفسيره ٩١/١.

(٤) سقط لفظ «محمد بن» من (ظ) و(م)، ووقع في (د): أبو حسين، وهو خطأ، وهو محمد بن الحسين الأجرى أبو بكر، صاحب التأليف، توفي سنة (٣٦٠هـ). السير ١٣٣/١٦ ونقل ابن كثير الحديث عن الأجرى في تفسير الآية (١٦٤) من سورة النساء.

(٥) صحيح ابن حبان (٣٦١)؛ قوله: أخنوخ هو إدريس عليه السلام.

وهنا مسألة: إن قال قائل: كيف يُمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها؟ قيل له: فيه جوابان:

أحدهما: أنَّ الإيمانَ بأنَّ جميعها نزلَ من عند الله، وهو قولٌ من أسقطَ التَّعَبُّدَ بما تقدَّم من الشرائع.

الثاني: أنَّ الإيمانَ بما لم يُنسخ منها، وهذا قولٌ من أوجب التزامَ الشرائع المتقدِّمة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(١).

قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: وبالبعث والنَّشْر هم عالمون. واليقينُ: العلمُ دون الشكِّ، يقال منه: يَقِنْتُ الأمرَ، بالكسر، يَقْنًا، وَأَيَقَنْتُ، وَاسْتَيَقَنْتُ، وَتَيَقَّنْتُ، كُلُّهُ بمعنى، وأنا على يقينٍ منه. وإنما صارت الياءُ واوًا في قولك: مُوقِنٌ، للضمَّة قبلها، وإذا صَغُرَتْ، رَدَدَتْهُ إِلَى الْأَصْلِ، فقلت: مُيَقِّنٌ - والتصغير يردُّ الأشياءَ إلى أصولها، وكذلك الجمع - وربما عَبَّرُوا باليقين عن الظنِّ^(٢). ومنه قول علمائنا في اليمين اللَّعْنُ: هو أن يحلفَ بالله على أمرٍ يُوقِنُهُ، ثم يَتَبَيَّنُ له أنه خلافُ ذلك، فلا شيءَ عليه، قال الشاعر^(٣):

تَحَسَّبَ هَوَاسٌ وَأَيَقَنَ أَنَّنِي بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لَا أَغَامِرُهُ^(٤)
يقول: تَشَمُّمُ الْأَسَدُ نَاقَتِي، يَظُنُّ أَنَّنِي مُفْتَدٍ بِهَا مِنْهُ، وَأَسْتَحْيِي نَفْسِي، فَأَتْرُكُهَا لَهُ، وَلَا أَقْتَحِمُ الْمَهَالِكَ بِمَقَاتِلَتِهِ.

فأما الظنُّ بمعنى اليقين، فوردَ في التنزيل، وهو في الشعر كثيرٌ، وسيأتي^(٥). والآخرة: مُشْتَقَّةٌ مِنَ التَّأَخَّرِ، لِتَأَخُّرِهَا عَنَّا، وَتَأَخَّرْنَا عَنْهَا، كَمَا أَنَّ الدُّنْيَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الدُّنُو، عَلَى مَا يَأْتِي.

(١) في تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَقَدِ بُذِرَتْ لَهُمْ سَبِيلٌ﴾.

(٢) الصحاح (يقن).

(٣) هو أَبُو سَيِّدَةَ الْأَسَدِي، وَيُقَالُ: الْهُجَيْمِي، كَمَا فِي اللِّسَانِ (يقن).

(٤) أورده سيبويه في الكتاب ٣١٥/١ (وفيه: وأقبل، بدل: وأيقن)، والجوهري في الصحاح (يقن)،

والبكري في سطر اللآلي ٥٣٩/١، والبغدادى في خزانة الأدب ١١٨/٢.

(٥) في تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

قال النحاس^(١): أهلُ نجد يقولون: ألاك، وبعضهم يقول: أَلَاكَ. والكاف للخطاب.

قال الكسائي: من قال: أولئك، فواجده: ذلك، ومن قال: ألاك، فواجده: ذاك. وألَاكَ^(٢) مثل أولئك، وأنشد ابن السكيت^(٣):

أَلَاكَ قَوْمِي لَمْ يَكُونُوا أَشَابَةً وَهَلْ يَعِظُ الضَّلِيلَ إِلَّا أَلَاكَ
وربما قالوا: أولئك في غير العقلاء، قال الشاعر:

دُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَثِكَ الْإِيَّامِ^(٤)
وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٥) [الإسراء: ٣٦].

وقال علماؤنا: إنَّ في قوله تعالى: «مِنْ رَبِّهِمْ» ردًّا على القَدَرِيَّةِ في قولهم: يَخْلُقُونَ إِيْمَانَهُمْ وَهُدَاهُمْ، تعالى الله عن قولهم. ولو كان كما قالوا، لقال: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ»، وقد تقدَّم الكلامُ فيه وفي الهدى^(٦)، فلا معنى لإعادة ذلك.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: «هم» يجوزُ أن يكونَ مبتدأً ثانياً، وخبرُهُ «المفلحون»، والثاني وخبرُهُ خبرُ الأوَّل، ويجوزُ أن تكونَ «هم» زائدة، يُسمِّيها البصريون فاصلةً، والكوفيون عماداً، و«المفلحون» خبرُ «أولئك»^(٧).

(١) في إعراب القرآن ١/١٨٣.

(٢) وقع رسم لفظي: «ألاك»، و«أَلَاكَ» في النسخ الخطية والمصادر بزيادة واو تارة، وبدونها تارة، وآثرنا رسمها بدونها، إذ لا التباس في قراءتها كما هو الحال في «أولئك». قال السمين الحلبي في الدر المصون ١/١٠٣: كتبوا «أولئك» بزيادة واو قبل اللام، قيل: للفرق بينها وبين «إليك».

(٣) في إصلاح المنطق ص ٤٢٣. ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل ٦/١٠ للأعشى. قوله: أشابة، يعني أخلاطاً.

(٤) قائله جريز، والبيت في ديوانه ٢/٩٩٠، وفيه: «الأقوام» بدل «الأيام»، وعليه فلا شاهد فيه.

(٥) ينظر الكلام السالف في الصحاح (الأ).

(٦) ص ٢٣٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/١٨٤.

والفَلَح^(١)، أصله في اللغة: الشَّقُّ والقَطْعُ، قال الشاعر:

إِن الحديدَ بالحديد يُفْلَحُ^(٢)

أي: يُشَقُّ، ومنه فِلَاحَةُ الأَرْضَيْنِ، إنما هو شَقُّهَا للحرث، قاله أبو عبيد^(٣).
ولذلك سُمِّيَ الأَكَّارُ فَلَاحًا. ويقال للذي شُقَّتْ شَفَتُهُ السُّفْلَى: أَفْلَحَ، وهو بَيْنَ الفَلَحَةِ،
فَكَانَ المُفْلِحُ قد قَطَعَ المصاعِبَ حتى نَالَ مطلوبه.

وقد يُستعمل في الفوزِ والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة، ومنه قولُ الرجل
لامراته: اسْتَفْلِحِي بِأَمْرِكِ، معناه: فُوزِي بِأَمْرِكِ، وقال الشاعر^(٤):

لو كان حَيٌّ^(٥) مدركَ الفَلَّاحِ أَذْرَكَهُ مُلَاعِبُ الرِّمَاحِ
وقال الأَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِي فِي الجاهلية الجَهْلَاءِ:

لكلِّ هَمٍّ من الهموم سَعَةٌ والمُسْنِي والصُّبْحُ لا فَلَاحَ مَعَهُ^(٦)
يقول: ليس مع كَرِّ الليلِ والنهارِ بقاء.

وقال آخر:

نحلُّ بلاداً كُلُّها حُلٌّ قَبْلَنَا ونرجو الفَلَاحَ بَعْدَ عادٍ وَجَمِيرٍ^(٧)
أي: البقاء. وقال عبيد^(٨):

أَفْلَحَ بما شئتَ فقد يُدْرِكُ بالضَّغْفِ وقد يُخْدَعُ الأَرِيبُ

(١) في (د) و(ظ): الفلاح، والمثبت من (م).

(٢) عجز بيت من الرجز، صدره: قد عَلِمْتُ خَيْلَكَ أَنِّي الصَّخْصُخُ، أورده الرَّجَّاجُ في معاني القرآن ١/٧٦.
وينظر اللسان (فلح).

(٣) في كتاب الأمثال ص ٩٦.

(٤) هو لَبِيدُ بْنُ ربيعة، والبيت في ديوانه ص ٣٣٣.

(٥) في الديوان: لو أَنَّ حَيًّا.

(٦) البيت في غريب الحديث لأبي عبيد ٣٨/٤، والأغاني ١٨/١٢٧، والمحمر الوجيز ١/٨٦، واللسان (فلح). والأضبط بن قريع من بني عوف بن كعب بن سعد، رھط الزبرقان بن بدر. الشعر والشعراء ١/٣٨٢.

(٧) قائله لَبِيدُ بْنُ ربيعة، والبيت في ديوانه ص ٥٧.

(٨) هو عبيد بن الأبرص، والبيت في ديوانه ص ٢٦.

أي : ابقَ بما شئتَ^(١) من كَيْسٍ وَحُقٍّ، فقد يُرزق الأحمقُ، ويُحرم العاقلُ^(٢) .
فمعنى «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»، أي : الفائزون بالجنة والباقون فيها .
وقال ابنُ أبي إسحاق^(٣) : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا، ونَجَوْا من شرِّ ما منه هَرَبُوا، والمعنى واحدٌ .

وقد استُعْمِلَ الْفَلَاحُ فِي السَّحُورِ، ومنه الحديث : حتى كَادَ يَقُوتُنَا الْفَلَاحُ مع رسول الله ﷺ . قلتُ : وما الفلاح؟ قال : السَّحُور . أخرجه أبو داود^(٤) . فكانَ معنى الحديث : أَنَّ السَّحُورَ به بقاءُ الصوم، فلهذا سَمَّاهُ فَلَاحاً .
والفَّلَاحُ، بتشديد اللام : الْمُكَارِي فِي قول القائل^(٥) :

لَهَا رِطْلٌ تَكِيلُ الزَيْتَ فِيهِ وَفَلَاحٌ يَسُوقُ لَهَا جِمَاراً
ثم الْفَلَاحُ فِي الْعُرْفِ : الظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ، والنجاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ .

مسألة : إن قال قائلٌ : كيف قرأ حمزةٌ : عَلَيْهِمْ، وَإِلَيْهِمْ، ولديهِمْ، ولم يقرأ : من رَبِّهِمْ، ولا : فِيهِمْ، ولا : جَنَّتِيهِمْ^(٦) ؟ فالجواب : أَنَّ عَلَيْهِمْ، وَإِلَيْهِمْ، ولديهِمْ، الياء فيه منقلبةٌ من ألف، والأصل : علاهم ولداهم وإلاهم، فَأَقَرَّتْ الهاء على ضمِّها، وليس ذلك في : فِيهِمْ، ولا : من رَبِّهِمْ، ولا : جَنَّتِيهِمْ . ووافقه الكِسائي في : ﴿عَلَيْهِمْ أَلِذَّةٌ﴾ [البقرة : ٦١] و﴿إِلَيْهِمْ أَثْنَيْنِ﴾^(٧) [يس : ١٤] . على ما هو معروف من القراءة عنهما .

(١) في (د) : اتقي وعش .

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ٣٨/٤ .

(٣) كذا في النسخ الخطية (م) : ابن أبي إسحاق، وفي معاني القرآن للنحاس ٨٦/١ : ابن إسحاق، وقد أخرج هذا القول الطبري في تفسيره ٢٥٦/١ من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله . وأورده أبو الليث في تفسيره ٩١/١ ولم ينسبه .

(٤) في السنن (١٣٧٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢١٤٤٧) .

(٥) هو عمرو بن أحمر الباهلي، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٠/١، ومعاني القرآن للزجاج ٧٦/١، واللسان (فلح) .

(٦) وافق يعقوب حمزة في قراءة : عَلَيْهِمْ وَإِلَيْهِمْ ولديهِمْ، بضم الهاء، لكن يعقوب يضم الهاء أيضاً في : فِيهِمْ، وجنتيهم، على أصله في ضم الهاء من ضمير التثنية والجمع إذا وقعت بعد ياء ساكنة . انظر السبعة ص ١٠٨، والتيسير ص ١٩، والنشر ١/٢٧٢ .

(٧) أي حالة الوصل . أما في الوقف فيكسر الهاء، وحمزة يضم الهاء في الحالين .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

لما ذَكَرَ المؤمنين وأحوالهم، ذَكَرَ الكافرين ومآلهم. والكُفْرُ ضدُّ الإيمان، وهو المراد في الآية. وقد يكون بمعنى جُحود النعمة والإحسان، ومنه قوله عليه السلام في النساء، في حديث الكسوف: «وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْطَحَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». قيل: بِمَ يَارَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «بِكُفْرِهِنَّ»، قيل: أَيْكُفْرُنَ بِاللَّهِ؟ قال: «يَكُفْرُنَ الْعَشِيرَ، وَيَكُفْرُنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ». أخرجه البخاري وغيره^(١).

وأصلُ الكُفر في كلام العرب: السُّتْرُ والتغطية، ومنه قولُ الشاعر^(٢):

فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

أي: سَتَرَهَا. ومنه سُمِّيَ الليلُ كافرًا؛ لأنه يُعْطِي كُلَّ شَيْءٍ بِسَوَادِهِ، قال الشاعر:

فَتَذَكَّرْنَا ثَقَلًا رَزِيدًا بَعْدَمَا أَلْقَتْ ذُكَاءً يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ^(٣)

ذُكَاءٌ، بضم الذال والمد: اسمٌ للشمس. ومنه قول الآخر:

فَوَرَدَتْ قَبْلَ انْبِلَاجِ الْفَجْرِ وَابْنُ ذُكَاءٍ كَامِنٌ فِي كُفْرِ^(٤)

أي: في ليلٍ.

والكافرُ أيضاً: البحر، والنهرُ العظيم^(٥). والكافر: الزَّارِعُ، والجمع كُفَّار، قال

الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ [الفتح: ٢٩]. يعني: الزَّارِعُ؛ لأنهم يُعْطُونَ الْحَبَّ. ورمادٌ مَكْفُورٌ: سَفَتِ الرِّيحُ عَلَيْهِ التُّرَابَ. والكافرُ من الأرض: ما بَعُدَ

(١) أخرجه أحمد (٢٧١١)، والبخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هو ليلى بن ربيعة، والبيت في ديوانه ص ٣٠٩، وشطره الأول: يعلو طريقةً مَثْنِيهَا متواترٌ.

(٣) البيت لثعلبة بن ضَعِير، يصف النعامة والغُلَيْمَ، وأنها تَذَكَّرَا بِيَضْهِمَا، فأسرعا إليه عند غروب الشمس. وهو في المفضليات ص ١٣٠، وفيها: فتَذَكَّرَتْ، وإصلاح المنطق ص ٥٧ و ٣٧٤، والمحاسب ٢/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١/ ٢٦٢.

قوله: رَيْدًا، أي: متسوداً. وذكر صاحب الصحاح (كفر) أن الكافر في هذا البيت بمعنى البحر أيضاً، كما سيذكر المصنف.

(٤) إصلاح المنطق ص ١٤٣ و ٣٧٤، ونسبه لحميد الأرقط. قوله: «ابن ذُكَاءٍ»: يعني الصبح.

(٥) في (ظ): العظيمين.

عن الناس، لا يكادُ يَنْزِلُهُ ولا يَمُرُّ به أَحَدٌ، وَمَنْ حَلَّ بِتِلْكَ الْمَوَاضِعِ فَهَمُ أَهْلُ الْكُفُورِ. ويقال: الْكُفُورُ: الْقُرَى.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: مُعْتَدِلٌ عندهم الإنذارُ وتركُهُ، أي: سواءٌ عليهم هذا. وجيء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثله قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقال الشاعر:

وليلٍ يقولُ الناسُ من ظُلُمَاتِهِ سَوَاءٌ صَحِيحَاتِ الْعَيُونِ وَعُزُورُهَا^(١)
قوله تعالى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار: الإبلاغُ والإعلامُ، ولا يكادُ يكون إلا في تخويفٍ يَتَسَعُّ زمانُهُ للاحتراز، فإن لم يَتَسَعِّ زمانُهُ للاحتراز، كان إشعاراً، ولم يكن إنذاراً، قال الشاعر:

أَنْذَرْتُ عَمْرَأَ وَهُوَ فِي مَهَلٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ فَقَدْ عَصَى عَمْرُو^(٢)
وَتَنَادَرَ بَنُو فُلَانٍ هَذَا الْأَمْرَ: إِذَا خَوَّفَهُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقليل: هي عامّة، ومعناها الخصوصُ فيمن حَقَّتْ عليه كلمةُ العذاب، وَسَبَقَ في علم الله أنه يموت على كُفْرِهِ^(٣). أراد الله تعالى أن يُعْلِمَ أَنَّ في الناس مَنْ هذه حالُهُ دون أن يُعَيَّنَ أحداً.

وقال ابنُ عباسٍ والكلبيُّ: نَزَلَتْ في رؤساء اليهود، منهم حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ ونظراؤهما^(٤). وقال الربيعُ بْنُ أَنَسٍ^(٥): نَزَلَتْ فيمن قُتِلَ يومَ بدرٍ من قادة الأحزاب^(٦).

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٤٢٣، وفيه: «القوم» بدل «الناس»، و«بصيرات» بدل «صحيحات». وأورده ابنُ الشجري في الحماسة ٢/ ٧١٠ و٧٢٨، والبغدادى في الخزانة ١٨/ ٥ ونسباه لمضر بن ربيعة.

(٢) لم تقف له على مصدر، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٠٨.

(٣) في (ظ): يموت كافراً.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبري في تفسيره ٢٥٨/ ١ بنحوه، وذكر قول الكلبي أبو الليث في تفسيره ٩٢-٩١/ ١.

(٥) ابن زياد البكري، الخراساني، بصري، كان عالم مرو في زمانه، سجنه أبو مسلم، وتحيل ابن المبارك حتى دخل إليه فسمع منه، توفي سنة (١٣٩هـ). السير ٦/ ١٦٩.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٥٩/ ١.

والأَوَّلُ أَصْحَحُ، فَإِنَّ مَنْ عَيَّنَ أَحَدًا، فَإِنَّمَا مَثَلُ بَمَنْ كُشِفَ الْغَيْبُ عَنْهُ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ، وَذَلِكَ دَاخِلٌ فِي ضَمَنِ الْآيَةِ^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفع، خبر «إِنَّ»، أي: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُؤْمِنُونَ.

وقيل: خبر «إِنَّ» «سواء»، وما بعده يقوم مقام الصلة، قاله ابنُ كَيْسَانَ.

وقال محمد بن يزيد: «سواء» رفع بالابتداء، «أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ» الخبر، والجملة خبر «إِنَّ».

قال النحاس: أي إنهم تبالهوا، فلم تُغنِ فيهم النذارة شيئاً^(٢).

واختلف القراء في قراءة «أَأَنْذَرْتَهُمْ»، فقرأ أهل المدينة، وأبو عمرو، والأعمش، وعبد الله بن أبي إسحاق^(٣): «أَأَنْذَرْتَهُمْ» بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية^(٤)، واختارها الخليل وسيبويه، وهي لغة قريش وسعد بن بكر^(٥)، وعليها قول الشاعر^(٦):

أَيَا ظَبِيَّةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَيَبْنِ الثَّقَا آتٍ أَمْ أَمْ سَالِمٍ
هَجَاءُ «أَنْتِ» أَلْفٌ وَاحِدَةٌ^(٧).

وقال آخر^(٨):

تَطَالَلْتُ فَاسْتَشْرِفْتُهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ زَيْدُ الْأَرَانِبِ

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٧.

(٢) إعراب القرآن ١/ ١٨٤. محمد بن يزيد: هو المبرّد.

(٣) زيد بن الحارث الحضرمي، النحوي، البصري، جدُّ يعقوب بن إسحاق، أحد القراء العشرة، مات سنة (١١٧هـ) وقيل غير ذلك. طبقات القراء ١/ ٤١٠.

(٤) وهي أيضاً قراءة ابن كثير، وابن عامر الشامي في رواية هشام، لكن قرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الثانية مع إدخال ألف بين الهمزتين، وكذلك قرأ هشام بخلف عنه. انظر التيسير ص ٣٢.

(٥) كذا في إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤، غير أنه لم يذكر لعبد الله بن أبي إسحاق هذا القراءة، إنما نقل عنه أنه حقّق الهمزتين وأدخل بينهما ألفاً لثلا يجمع بينهما، وسيذكرها عنه المصنف قريباً.

(٦) هو ذو الرُّمَّة، والبيت في ديوانه ص ٧٦٧.

(٧) أورده سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٥١، والمبرّد في المقتضب ١/ ١٦٣، والهروي في الأزهية ص ٣٦، وابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٢٣، وابن يعيش في شرح المفصل ٩/ ١٩١، والمالقي في رصف المباني ص ٢٦، والبغدادى في شرح شواهد الشافية ٤/ ٣٤٧، لكن ذكروا أن الشاهد فيه إدخال ألف بين الهمزتين، وذكر البغدادى أنه يجوز فيه أيضاً أن تُحقّق الهمزتان بلا زيادة ألف.

(٨) هو ذو الرُّمَّة أيضاً، والبيت في ملحق ديوانه ٣/ ١٨٤٩.

ورُوي عن ابن مُحَيِّصٍ^(١) أنه قرأ: «أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ» بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن «أم» تدلُّ على الاستفهام^(٢)، كما قال الشاعر^(٣):
تَرْوُحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكَرُ وماذا يَضِيرُكَ لَوْ تَنْتَظِرُ
أراد: أتروح، فاستقفى بأم من الألف. ورُوي عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ:
«أأَنْذَرْتَهُمْ» فحَقَّقَ الهمزتين، وأدخلَ بينهما ألفاً، لثلا يجمع بينهما^(٤).

قال أبو حاتم: ويجوز أن تُدْخَلَ بينهما ألفاً، وتُخَفَّفَ الثانية، وأبو عمرو ونافع^(٥) يفعلان ذلك كثيراً.

وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي بتحقيق الهمزتين: «أأَنْذَرْتَهُمْ»^(٦)، وهو اختيار أبي عُبيد، وذلك بعيدٌ عند الخليل. وقال سيويه: يُشَبَّه في الثقل: ضَبَّنُوا.
قال الأخفش: ويجوزُ تخفيفُ الأولى من الهمزتين، وذلك رديء؛ لأنهم إنما يُخَفِّفُونَ بعد الاستتقال، وبعد حصول الواحدة.

قال أبو حاتم: ويجوزُ تخفيفُ الهمزتين جميعاً.

فهذه سبعة أوجهٍ من القراءات، ووجهٌ ثامنٌ يجوزُ في غير القرآن؛ لأنه مخالفٌ للسَّواد^(٧)؛ قال الأخفشُ سعيدٌ: تُبْدَلُ من الهمزة هاء، تقول: هأنذرتهم، كما يقال: هَيَّاكَ وَإِيَّاكَ^(٨)، وقال الأخفشُ في قول الله تعالى: «ها أَنتُمْ» إنما هو: أأنتم.

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن مُحَيِّصِ السهمي مولاهم، المكي، المقرئ، وقيل: اسمه عمرو، توفي سنة (١٢٣هـ). طبقات القراء ١٦٧/٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤ - ١٨٥. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٠.

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ١٥٤.

(٤) وهي رواية هشام بخلف عنه. انظر التيسير ص ٣٢.

(٥) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، مولاهم، المدني، أحد القراء السبعة والأعلام، أصله من أصبهان، توفي سنة (١٩٩هـ). طبقات القراء ٢/ ٣٣٠.

(٦) وهي أيضاً رواية ابن ذكوان. التيسير ص ٣٢.

(٧) في (ظ): للشواذ. وهنا ينتهي السقط في (ز).

(٨) معاني القرآن للأخفش، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤ - ١٨٥.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

فيها عشر مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : «ختم الله». والختم : مصدر خَتَمْتُ الشيءَ خَتْمًا؟ فهو مختومٌ، ومُخْتَمٌ، شُدُّدٌ للمبالغة، ومعناه : التغطيةُ على الشيء والاستيثاقُ منه حتى لا يَدْخُلَهُ شيءٌ، ومنه : خَتَمَ الكتابَ والبابَ، وما يُشَبَّهُ ذلك، حتى لا يُوصَلَ إلى ما فيه، ولا يُوضَعَ فيه غيرُ ما فيه.

وقال أهلُ المعاني : وصف الله تعالى قلوبَ الكفار بعشرة أوصاف : بالختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرَّين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحِمية، والإنكار.

فقال في الإنكار : ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل : ٢٢].

وقال في الحِمية : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح : ٢٦].

وقال في الانصراف : ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا مَرْغَبًا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

[التوبة : ١٢٧].

وقال في القساوة : ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر : ٢٢]. وقال : ﴿ثُمَّ

قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة : ٧٤].

وقال في الموت : ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام : ١٢٢]. وقال : ﴿إِنَّمَا

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْغِيهِمْ اللَّهُ﴾ [الأنعام : ٣٦].

وقال في الرَّين : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤].

وقال في المرض : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة : ١٠].

وقال في الضيق : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُغْنِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام : ١٢٥].

وقال في الطَّبع : ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون : ٣]، وقال : ﴿بَلْ

طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء : ١٥٥].

وقال في الختم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. وسيأتي بيانها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

الثانية: الخَتْمُ يكون محسوساً - كما بيّنّا - ومعنى، كما في هذه الآية، فالخَتْم على القلوب: عَدَمُ الوَعْيِ عن الحقِّ سبحانه مفهومَ مخاطباتِهِ والفِكرِ في آياته. وعلى السَّمْعِ: عَدَمُ فَهْمِهِم للقرآن إذا تُلِّيَ عليهم، أو دُعُوا إلى وحدانيّته. وعلى الأبصار: عَدَمُ هِدَايَتِهَا للنظر في مخلوقاته وعجائبِ مصنوعاتِهِ. هذا معنى قولِ ابن عباس وابن مسعود وقتادة، وغيرهم.

الثالثة: في هذه الآية أدلُّ دليل وأوضحُ سبيل على أنَّ الله سبحانه خالقُ الهُدَى والضَّلالِ، والكُفْرِ والإيمانِ، فاعْتَبَرُوا أيها السامعون، وتَعَجَّبُوا أيها المفكِّرون من عُقُولِ القَدَرِيَّةِ القائِلينَ بِخُلُقِ إيمانهم وهُداهم، فإنَّ الخَتْمَ هو الطَّبْعُ، فمن أين لهم الإيمانُ ولو جَهِدُوا، وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعلَ على أبصارهم غِشاوةً، فمتى يهتدون، أو مَنْ يهديهم من بعد الله إذا أضلَّهُم وأصمَّهُم، وأعمى أبصارهم؟ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، وكان فِعْلُ الله ذلك عَدْلًا فيمن أضلَّهُ وَخَذَلَهُ، إذ لم يَمْنَعْهُ حقًّا وجَبَ له، فتزولُ صِفَةُ العَدْلِ، وإنما مَنَعَهُم ما كان له أن يتفَضَّلَ به عليهم، لا ما وجبَ لهم.

فإن قالوا: إنَّ معنى الخَتْمِ والطَّبْعِ والغِشاوةِ التسميةُ والحُكْمُ، والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون، لا الفعلُ.

قلنا: هذا فاسدٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الخَتْمِ والطَّبْعِ إنما هو فِعْلٌ ما يَصِيرُ به القلبُ مطبوعاً مختوماً، لا يجوزُ أن تكونَ حقيقتهُ التسميةُ والحُكْمُ، ألا ترى أنه إذا قيل: فلانُ طَبَعَ الكتابَ وَخَتَمَهُ، كان حقيقةً أنه فَعَلَ ما صارَ به الكتابُ مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خِلافَ فيه بين أهل اللغة، ولأنَّ الأُمَّةَ مجمعةً على أنَّ الله تعالى قد وصفَ نفسَه بالخَتْمِ والطَّبْعِ على قلوبِ الكافرين مُجازاةً لكُفْرِهِم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الطَّبْعَ والخَتْمَ على قلوبهم من جهةِ النبي ﷺ والملائكة والمؤمنين ممتنعٌ، فلو كان الخَتْمُ والطَّبْعُ هو التسميةُ والحُكْمُ، لَمَا امتنعَ من ذلك

الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يُسْمَوْنَ الكفارَ بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم، وأنهم مختومٌ عليها، وأنهم في ضلال لا يؤمنون، ويَحْكُمُونَ عليهم بذلك. فثبتَ أَنَّ الخَتْمَ والطَّبع هو معنى غيرُ التسمية والحكم، وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به، دليله قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر: ١٢-١٣]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]. أي: لئلا يفقهوه، وما كان مثله.

الرابعة: قوله: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليلٌ على فضل القلب على جميع الجوارح. والقلب للإنسان وغيره. وخالص كل شيء وأشرفه قلبه، فالقلب موضع الفكر. وهو في الأصل مصدر: قَلَبْتُ الشيء، أَقْلَبْتُهُ قلباً: إذا رددته على بداءته. وَقَلَبْتُ الإِنَاءَ: رَدَدْتُهُ على وجهه. ثم نُقِلَ هذا اللفظ، فَسُمِّيَ به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان؛ لسرعة الخواطر إليه، ولتردُّدها عليه، كما قيل:

ما سُمِّيَ القلبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ فاحذَرُ على القلبِ من قلبٍ وتحويلٍ^(١)
ثم لما تَقَلَّبَتِ العربُ هذا المصدرَ لهذا العضو الشريف، التزمت فيه تَفْخِيمَ قَافِهِ، تفريقاً بينه وبين أصله. روى ابنُ ماجه، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ القلبِ مَثَلُ رِيْشَةٍ تُقَلَّبُهَا الرِّيحُ بَقَلَاةٍ»^(٢). ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهمَّ يَا مُثَبِّتَ القلوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا على طَاعَتِكَ»^(٣). فإذا كان

(١) البيت في ديوان الأحوص ص ١٢٠، وشطره الثاني بلفظ: والرأي يُصرف والأهواء أطوار. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٧٣/١، وعنده: والإنسان أطوار. وابنُ منظور في اللسان (قلب) ولفظ شطره الثاني عنده: والرأي يصرف بالإنسان أطوارا.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٨)، وفي إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف، وأخرجه الإمام أحمد (١٩٧٥٧) عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجريري، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري، به. ويزيد سمع من الجريري بعد اختلاطه، ورواه شعبة عن الجريري - وقد سمع منه قبل الاختلاط - فوقه ولم يرفعه، كما في الجعديات (١٤٧٢) وقال الإمام أحمد عقب الحديث المذكور: لم يرفعه إسماعيل (يعني ابنُ عُليَّة) عن الجريري.

(٣) أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، بلفظ: «اللهم مصرف القلوب، صرّف قلوبنا على طاعتك». وأخرجه أحمد أيضاً في المسند (١٢١٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، و(١٧٦٣٠) من حديث=

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُهُ مَعَ عَظِيمِ قَدْرِهِ، وَجَلَالِ مَنْصِبِهِ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِذَلِكَ اقْتِدَاءً بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وَسَيَأْتِي.

الخامسة: الجوارح وإن كانت تابعة للقلب، فقد يتأثر القلب - وإن كان رئيسها ومليكتها - بأعمالها، للارتباط الذي بين الظاهر والباطن، قال ﷺ: «إن الرجل لَيَصْدُقُ، فَتُنْكُثُ فِي قَلْبِهِ نَكْثَةً بِيضَاءً، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ فَيَسْوَدُ قَلْبُهُ»^(١)، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ الرَّجُلَ لَيَصِيبُ الذَّنْبَ فَيَسْوَدُ قَلْبُهُ، فَإِنْ هُوَ تَابَ، ضُحِّلَ قَلْبُهُ. قَالَ: وَهُوَ الرَّانُ^(٢) الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ^(٣): ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٤).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْقَلْبُ كَالْكَفِّ يُقْبَضُ مِنْهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ إِصْبَعٌ، ثُمَّ يُطْبَعُ^(٥).

قُلْتُ: وَفِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ هَذَا وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٦) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَتْمَ يَكُونُ حَقِيقِيًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْقَلْبَ يُشَبِّهُ الصَّنَوْبِرَةَ، وَهُوَ يَغْضُدُ قَوْلَ مُجَاهِدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ حَذِيفَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَنْدِرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ

= النُّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَلَفَظَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»، وَ(٢٦١٣٣) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بَلَفَظَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ».

(١) لَمْ نَجِدْهُ بِهَذَا اللَّفْظِ.

(٢) فِي (م): الرَّيْنُ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى.

(٣) فِي (م): ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ.

(٤) سَنَّ التِّرْمِذِيُّ (٣٣٣٤)، وَلَفْظُهُ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْثَةٌ سَوْدَاءً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». وَهُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (٧٩٥٢).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٢٦٦/١.

(٦) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٨٣٧٤)، وَابْنُ خَالٍ (٥٢)، وَمُسْلِمٌ (١٥٩٩) مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَزَلَ الْقُرْآنَ، فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ. ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظُلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظُلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَتَنْفِطُ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ - ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَحَرَجَهَا^(١) عَلَى رِجْلِهِ - فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُوَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يَقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلَدُهُ! مَا أَظْرَفُهُ! مَا أَغْقَلُهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ». وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَتَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَنْ كَانَ مُسْلِمًا، لَيَرُدُّنَّ عَلَيَّ دِينُهُ، وَلَنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا، أَوْ يَهُودِيًّا، لَيَرُدُّنَّ عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ، فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ^(٢) مِنْكُمْ إِلَّا فَلَانًا وَفَلَانًا^(٣).

ففي قوله: «الْوَكْتُ» وهو الأثر اليسير، ويقال للبُسر إذا وقعت فيه نُكْتَةٌ من الإرباط: قد وَكَّتْ، فهو مُوَكَّتٌ. وقوله: «الْمَجْلُ»، وهو أن يكونَ بين الجلدِ واللحم ماءً، وقد فسره النبي ﷺ بقوله: «كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ» أي: دَوَّرْتَهُ «عَلَى رِجْلِكَ، فَتَنْفِطُ. فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً»، أي: مرتفعاً، ما يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مُحَسَّوسٌ فِي الْقَلْبِ يَفْعَلُ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْحَنْتُمُ وَالطَّبْعُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي حديث حذيفة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُغْرَضُ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادَ، كَالْكُوْزِ مُجَحَّيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مِنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ». وذكر الحديث^(٤). «مُجَحَّيًّا»: يعني مائلًا.

(١) في (م): حصى فدحرجه.

(٢) في (م): لأبايع.

(٣) صحيح مسلم (١٤٣). وهو في مسند أحمد (٢٣٢٥٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٤٤٠)، ومسلم (١٤٤). قوله: مرباد، هو شبه البياض في سواد. ينظر

السادسة: القلبُ قد يُعبَّرُ عنه بالفؤاد والصِّدْر، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنشَأَ يَدَهُ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وقال: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني في الموضوعين: قلبك. وقد يُعبَّرُ به عن العقل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أي: عقل؛ لأنَّ القلبَ محلُّ العقلِ في قول الأكثرين. والفؤاد محلُّ القلب، والصِّدْر محلُّ الفؤاد، والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ استدلَّ بها مَنْ فَضَّلَ السَّمْعَ عَلَى البَصَرِ، لِتَقْدِيمِهِ عَلَيْهِ، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]. قال: والسَّمْعُ يَدْرُكُ به من الجِهاتِ السَّتِّ، وفي النور والظُّلْمَةِ، ولا يُدْرِكُ بالبصرِ إلا من جهةٍ^(١) المُقَابِلَةِ، وبواسطةٍ من ضياءٍ وشُعاع. وقال أكثرُ المتكلمين بتفضيلِ البصرِ على السَّمْعِ؛ لأنَّ السَّمْعَ لا يُدْرِكُ به إلا الأصواتُ والكلامُ، والبصرُ يُدْرِكُ به الأجسامُ والألوانُ والهيئاتُ كُلُّهَا. قالوا: فلما كانت تعلقاته أكثرَ، كان أفضلَ، وأجازوا الإدراكَ بالبصرِ من الجِهاتِ السَّتِّ.

الثامنة: إنَّ قال قائلٌ: لِمَ جُمِعَ الأبصارَ، ووَحِّدَ السَّمْعَ؟ قيل له: إنما وَحَّدَهُ؛ لأنه مصدرٌ يَقَعُ للقليل^(٢) والكثير، يقال: سَمِعْتُ الشَّيْءَ أَسْمَعُهُ سَمْعاً وَسَمَاعاً، فَالسَّمْعُ مصدرٌ سَمِعْتُ. والسَّمْعُ أيضاً اسمٌ للجاريةِ المسموعِ بها، سُمِّيَتْ بالمصدر. وقيل: إنه لما أضاف السَّمْعَ إلى الجماعة، دَلَّ على أنه يراودُّ به أَسْمَاعُ الجماعة، كما قال الشاعر^(٣):

بِهَا جِيفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ
إنما يريدُ جُلُودَهَا، فَوَحَّدَ؛ لأنه قد علم أنه لا يكونُ للجماعة جلدٌ واحد.

وقال آخرُ في مثله:

(١) في (م): الجهة.

(٢) في (د) و(ظ): على القليل.

(٣) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص ٤٠.

لَا تُنْكِرِ الْقَتْلَ وَقَدْ سُبِينَا فِي خَلْقِكُمْ عَظُمَ وَقَدْ شَجِينَا^(١)
يريد في مخلوقكم.

ومثله قول الآخر:

كَأَنَّهُ وَجْهُ تُرْكِيَيْنِ قَدْ غَضِبَا مُسْتَهْدَفٌ لَطْعَانٍ غَيْرِ تَذْيِيبِ^(٢)
وإنما يريد وجهين، فقال: وجهٌ تُرْكِيَيْنِ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للثنين وجهٌ واحد، ومثله كثير جداً.

وَقُرِئَ: «وَعَلَى أَسْمَاعِهِمْ»^(٣).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَعَلَى مَوَاضِعَ سَمْعِهِمْ؛ لِأَنَّ السَّمْعَ لَا يُخْتَمُ، وَإِنَّمَا يُخْتَمُ مَوْضِعُ السَّمْعِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ، وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ.

وقد يكون السَّمْعُ بمعنى الاستماع، يقال: سَمِعْتُ حَدِيثِي يُعْجِبُنِي^(٤) أي: استماعُكَ إلى حديثي يُعْجِبُنِي، ومنه قولُ ذِي الرُّمَّةِ يَصِفُ ثَوْرًا تَسْمَعُ إِلَى صَوْتِ صَائِدٍ وَكَلَابٍ:

وَقَدْ تَوَجَّسَ رِكَزًا مُقْفِرٌ نَدُسَ بِنَبْأَةِ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبٌ^(٥)
أي: ما في استماعه كَذِبٌ، أي: هو صادق الاستماع. والنَّدُسُ: الحاذق. والنَّبْأَةُ: الصوتُ الخَفِيُّ، وكذلك الرُّكْزُ.

والسَّمْعُ، بكسر السين وإسكان الميم: ذِكْرُ الْإِنْسَانِ بِالْجَمِيلِ، يقال: ذَهَبَ سَمْعُهُ فِي النَّاسِ، أي: ذَكَرَهُ. والسَّمْعُ أَيْضاً: وَلَدُ الذَّئْبِ مِنَ الضَّبْعِ.

والوقف هنا: «وَعَلَى سَمْعِهِمْ».

و«غِشَاوَةٌ» رَفَعُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَمَا قَبْلَهُ خَبْرٌ. وَالضَّمَانُ فِي «قُلُوبِهِمْ» وَمَا عُطِفَ

(١) البيت في الكتاب ٢٠٩/١، وشرح المفصل ٢٢/٦، واللسان (شجا) ونسبه للمسيب بن زيد مائة. وعندهم: «لَا تُنْكِرُوا».

(٢) البيت للفرزدق، وأورده ابن الشجري في أماليه ١٧/١، والبغدادى في الخزائن ٥٣٢/٧ و٥٤٠، والفاقي في الموضع الثاني: غير منحجر.

(٣) أوردها ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وأبو حيان في البحر ٤٩/١، ونسبها لابن أبي عتبة.

(٤) قوله: يعجبني، ليس في (م).

(٥) ديوان ذِي الرُّمَّة ٨٩/١.

عليه لمن سَبَقَ في عِلْمِ الله أنه لا يُؤْمَنُ من كَفَّار قريش، وقيل: من المنافقين، وقيل: من اليهود، وقيل: من الجميع، وهو أصوب؛ لأنه يَعُمُّ. فَالْحَثْمُ على القلوب والأسماع، والغشاوةُ على الأبصار.

والغشاء: الغطاء. وهي:

التاسعة: ومنه غاشية السرج، وَعَشَّيْتُ الشيءَ أَغَشَّيْهِ. قال النابغة^(١):

هَلَّا سَأَلْتَ بَنِي دُبْيَانَ مَا حَسَبِي إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرَمَا
وقال آخر^(٢):

صَحْبُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلْوَمَهَا
قال ابنُ كَيْسَانَ: فَإِنْ جُمِعَتِ غِشَاوَةٌ، قُلْتُ: غِشَاءٌ، بِحَذْفِ الْهَاءِ^(٣). وَحَكَى
الْفَرَّاءُ: غَشَاوَى مِثْلَ أَدَاوَى^(٤). وَقُرِئَ: «غِشَاوَةٌ» بِالنَّصَبِ^(٥) عَلَى مَعْنَى: وَجَعَلَ،
فَيَكُونُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ:

عَلَفْتُهَا تَبْنَأُ وَمَاءً بَارِداً^(٦)

وقول الآخر:

يَا لَيْتَ زَوْجَكَ قَدْ غَدَا مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمَحاً^(٧)
المعنى: وَأَسْقَيْتُهَا مَاءً، وَحَامِلاً رُمَحاً؛ لِأَنَّ الرَّمْحَ لَا يُتَقَلَّدُ.

(١) في ديوانه ص ١٠٢.

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاص المخزومي، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣١/١، وتفسير الطبري ٢٧١/١.

(٣) قال السمين الحلبي في الدر المصون ١١٥/١: لما حُذِفَتِ الْهَاءُ قُلِبَتِ الْوَاوُ هَمْزَةً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٨٦/١ - ١٨٧.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، والنحاس في إعراب القرآن ١٨٦/١.

(٦) هو في معاني القرآن للفراء ١٤/١، والخصائص ٤٣١/٢، والإنصاف ٦١٣/٢، والخزانة ١٤٠/٣، وشطره الثاني: حتى شتت هُمَالَةً عَيْنَاهَا. ونسبه الفراء لبعض بني أسد.

(٧) البيت لعبد الله بن الزُّبَيْرِ، وهو في ديوانه ص ٣٢، وفي مجاز القرآن ٦٨/٢، والكامل ٤٣٢/١ و ٤٧٧ و ٨٣٦/٢، والخصائص ٤٣١/٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٤٧/٣، والإنصاف ٦١٢/٢، وشرح المفصل ٥٠/٢، وجاء الشطر الأول منه في النسخ: قد غدا زوجك في الوغى، والمثبت من (م) والمصادر.

قال الفارسي: ولا تكادُ تجد هذا الاستعمالَ في حال سَعَةٍ واختيار، فقراءةُ الرفع أحسنُ. وتكون الواو عاطفةً جملةً على جملة. قال: ولم أسمعَ من الغشاوة فعلاً مُتَصَرِّفاً بالواو.

وقال بعضُ المفسرين: الغشاوةُ على الأسماع والأبصار، والوقفُ على «قلوبهم». وقال آخرون: الحَتْمُ في الجميع، والغشاوةُ هي الحَتْمُ، فالوقفُ على هذا على «غشاوة»^(١). وقرأ الحسن: «غشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيَوَةَ^(٢) بفتحها^(٣). ورُوِيَ عن أبي عمرو: «غَشْوَةٌ»^(٤) رَدَّه إلى أصل المصدر.

قال ابنُ كَيْسَانَ: ويجوز: غَشْوَةٌ، وَغَشْوَةٌ^(٥)، وأجودُها غشاوةٌ، كذلك تستعملُ العربُ في كل ما كان مشتملاً على الشيء، نحو عِمَامَةٍ، وكنانة، وقِلادة، وعِصَابَةٍ، وغير ذلك.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: للكافرين المُكذِّبين ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نَعْتُهُ. والعذابُ: مثلُ الضَّرْبِ بالسَّوْطِ، والحرقِ بالنار، والقطعِ بالحديد، إلى غير ذلك مما يُؤْلَمُ الإنسان. وفي التنزيل: ﴿وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٢]، وهو مشتقٌّ من الحَبْسِ والمَنْعِ، يقال في اللغة: أَعَذَّبَهُ عن كذا، أي: إَحْبَسَهُ وامْنَعَهُ، ومنه سُمِّيَ: عَذْوِيَّةُ الماء؛ لأنها قد أَعَذَّبَتْ، واستُعْذِبَ بالحَبْسِ في الوعاء، ليَصْفَوْهُ ويُفَارِقَهُ ما خَالَطَهُ. ومنه قولُ عليٍّ رضي الله عنه: أَعَذَّبُوا نِسَاءَكُمْ عن الخروج، أي: أَحْبَسُوهُنَّ. وعنه رضي الله عنه وقد شَيَّعَ سَرِيَّةً، فقال: أَعَذَّبُوا عن ذكر النساءِ فَإِنَّ ذلك يَكْبِيرُكُمْ عن العَزْوِ.

(١) المحرر الوجيز ٨٩/١، وقد نقل المصنف قول الفارسي بواسطة ابن عطية، وينظر الحجة للقراء السبعة ٣٠٠/١ و٣١٢.

(٢) هو شريح بن يزيد الحضرمي، الحمصي، صاحب القراءة الشاذة، ومقرئ الشام. توفي سنة (٢٠٣هـ). طبقات القراء ٣٢٥/١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٨٦/١، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص ٢.

(٤) قراءة شاذة، وذكرها النحاس في إعراب القرآن ١٨٦/١، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢. والقراءة المتواترة عن أبي عمرو هي قراءة الجماعة: غشاوة.

(٥) المصدر السالف، والكلام بعده لأبي جعفر النحاس.

وكلُّ من منعته شيئاً، فقد أَعَذَّبْتَهُ^(١)، وفي المثل: لأَلْجَمَنَّكَ لِجَاماً مُعْذِياً^(٢)، أي: مانعاً عن ركوب الناس.

ويقال: أَعَذَّبَ، أي: امتنع، وأَعَذَّبَ غَيْرَهُ، فهو لازمٌ ومتعدّدٌ. فَسُمِّيَ الْعَذَابُ عَذَاباً؛ لأنَّ صاحبه يُحْبَسُ وَيُمْنَعُ عنه جميعُ ما يلائم الجسدَ من الخير، ويُهَالُ عليه أضدادُها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) فيه سبع مسائل:

الأولى: رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: نَزَلَتْ أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَاثْنَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثُ عَشْرَةٍ آيَةً فِي الْمُنَافِقِينَ^(٤).

وَرَوَى أَصْبَاطُ عَنْ السُّدِّيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ قَالَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ^(٥). وَقَالَ عُلَمَاءُ الصُّوفِيَّةِ: النَّاسُ اسْمُ جِنْسٍ، وَاسْمُ الْجِنْسِ لَا يُخَاطَبُ بِهِ الْأَوْلِيَاءُ.

الثانية: وَاخْتَلَفَ التُّحَاةُ فِي لَفْظِ «النَّاسِ»، فَقِيلَ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْجُمُوعِ، جَمَعَ إِنْسَانٌ وَإِنْسَانَةٌ^(٦)، عَلَى غَيْرِ اللَّفْظِ، وَتَصْغِيرُهُ نُؤْسٌ، فَالنَّاسُ مِنَ النَّؤْسِ، وَهُوَ الْحَرَكَةُ، يُقَالُ: نَاسٌ يَنْوَسُ، أَيْ: تَحْرُكُ، وَمِنْهُ حَدِيثُ أُمِّ زَرْعٍ: «أَنَّا نَسَ مِنْ حُلِيِّ أُذُنَيْ»^(٧).

وقيل: أَصْلُهُ مِنْ نَسِيَ، فَأَصْلُ نَاسٍ: نَسِيٍّ، قُلُوبُ فَصَّارٍ: نَسِيٍّ، تَحْرُكَتِ الْيَاءُ، فَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا، فَانْقَلَبَتْ أَلِفًا، ثُمَّ دَخَلَتْ الْأَلْفُ وَاللَّامُ، فَقِيلَ: النَّاسُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسِيَ آدَمُ عَهْدَ اللَّهِ، فَسُمِّيَ إِنْسَانًا^(٨). وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٤٦٧/٣.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢٠٠/٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤٤٥/١ من طريق ابن أبي نجیح، عن مجاهد.

(٤) تفسير الطبري ٢٧٦/١.

(٥) إعراب القرآن ١٨٧/١، وذكر الجوهري والفيروزآبادي أن «إنسانة» عامية.

(٦) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٧) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ٦٠/٢ - ٦١.

«نَسِيَ آدَمَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»^(١). وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]. وسيأتي. فعلى هذا، فالهمزة زائدة، قال الشاعر^(٢):

لَا تَنْسِينَ تِلْكَ الْعُهُودَ فَإِنَّمَا سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِي
وقال آخر:

فَإِنْ نَسِيَتْ عُهُودًا مِنْكَ سَالِفَةً فَاعْفِرْ فَأَوَّلُ نَاسٍ أَوَّلُ النَّاسِ^(٣)
وقيل: سُمِّيَ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ بِحَوَاءٍ. وقيل: لِأَنَّهُ بَرُّهُ، فالهمزة أصلية، قال الشاعر:
وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِأَنِّيهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ^(٤)
الثالثة: لما ذكر الله جلَّ وتعالى المؤمنين أولاً، وبدأ بهم لِشَرَفِهِمْ وَفَضْلِهِمْ، ذَكَرَ
الكافرين في مقابلتهم، إِذَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ طَرَفَانِ. ثُمَّ ذَكَرَ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَهُمْ، وَالْحَقَّهُمْ
بِالْكَافِرِينَ قَبْلَهُمْ، لِنُفْيِ الْإِيمَانِ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ الْحَقَّ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ففي هذا ردٌّ على الكَرَامِيَّةِ حيث قالوا: إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِنْ لَمْ يَعْتَقِدْ
بِالْقَلْبِ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٨٥]. ولم يقل: بما
قالوا وأضمرُوا، وبِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا هَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ»^(٥). وهذا مِنْهُمْ قُصُورٌ
وَجُمُودٌ، وَتَرْكُ نَظَرٍ لِمَا نَظَّقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الْعَمَلِ مَعَ الْقَوْلِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَقَدْ قَالَ

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) و(٣٣٦٨)، وابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم ٦٤/١ وصححه. وسيأتي عند تفسير الآية (٤٤) من سورة البقرة، والآية (٦٨) من سورة الأنعام، والآية (١٧٢) من سورة الأعراف، والآية (٤٢) من سورة يوسف.

(٢) هو أبو تمام، والبيت المذكور في ديوانه ٢/٢٤٥.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢/٦١، ونسبه لأبي الفتح البستي، والشرط الأول عنده: نسيت عهدك والنسيان مفتقر. وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/١٢٠، وابن عادل الحنبلي في اللباب ١/٣٢٩.

(٤) لم تهتد إلى قائله، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/١١٩، وابن عادل الحنبلي في اللباب ١/٣٢٨.

(٥) روي من حديث عدد من الصحابة: فأخرجه أحمد في المسند (٦٧)، والبخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢٠) من حديث أبي بكر وعمر وأبي هريرة، وأخرجه مسلم (٢٢) من حديث ابن عمر. وأخرجه أحمد (٨٩٠٤)، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١٣٠٥٦)، والبخاري (٣٩٢) من حديث أنس، وأخرجه أحمد (١٤٢٠٩)، ومسلم (٢١): (٣٥) من حديث جابر، وأخرجه أحمد (١٦١٦٠) من حديث أوس بن أبي أوس الثقفي رضي الله عنهم أجمعين.

رسولُ الله ﷺ: «الإيمانُ معرفةٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان». أخرجه ابنُ ماجه في «سننه» (١).

فما ذهب إليه محمدُ بنُ كَرَّام السَّجِسْتَانِي (٢) وأصحابُه هو النَّفاقُ وَعَيْنُ الشَّقاقِ، نعوذُ بالله من الخِذلانِ وسوءِ الاعتقاد.

الرابعة: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: المؤمنُ ضربان: مؤمنٌ يُحِبُّه الله ويُوَالِيهِ، ومؤمنٌ لا يُحِبُّه الله ولا يُوالِيهِ، بل يُبْغِضُهُ وَيُعَادِيهِ، فكلُّ مَنْ عَلِمَ الله أَنَّهُ يُوافِي بالإيمان، فالله مُحِبٌّ لَهُ، مُوالٍ لَهُ، راضٍ عنه. وكلُّ مَنْ عَلِمَ الله أَنَّهُ يُوافِي بالكفر، فالله مُبْغِضٌ لَهُ، ساخطٌ عليه، معادٍ لَهُ، لا لأجلِ إيمانه، ولكن لِكُفْرِهِ وضلالِهِ الذي يُوافِي به.

والكافر ضربان: كافرٌ يُعاقَب لا محالة، وكافرٌ لا يُعاقَب. فالذي يُعاقَب هو الذي يُوافِي بالكفر، فالله ساخطٌ عليه معاد له. والذي لا يُعاقَب هو المُوَافِي بالإيمان، فالله غيرُ ساخطٍ على هذا ولا باغضٍ (٣) له، بل مُحِبٌّ لَهُ مُوالٍ، لا لِكُفْرِهِ، لكن لإيمانه المُوَافِي به، فلا يجوزُ أَنْ يُطَلَّقَ القول، وهي:

الخامسة: بأنَّ المؤمنَ يستحقُّ الثوابَ، والكافرَ يستحقُّ العقابَ، بل يجبُ تقييدهُ بالموافاة. ولأجل هذا قلنا: إِنَّ الله راضٍ عن عمرٍ في الوقت الذي كان يعبُدُ الأصنامَ، ومُريدٌ لثوابِهِ ودخوله الجنةَ، لا لعبادتهِ الصَّنَمِ، لكن لإيمانه المُوَافِي به (٤). وَإِنَّ الله تعالى ساخطٌ على إبليسَ في حال عبادتهِ، لِكُفْرِهِ المُوَافِي به.

وخالفَتِ القَدَرِيَّةُ في هذا، فقالت (٥): إِنَّ الله لم يكن ساخطاً على إبليسَ وقتَ عبادتهِ، ولا راضياً عن عمرٍ وقتَ عبادتهِ للصنم. وهذا فاسدٌ، لما ثبتَ أَنَّ الله سبحانه عالمٌ بما يُوافِي به إبليسُ لعنه الله، وبما يُوافِي به عمرُ رضي الله عنه فيما لم يزل،

(١) برقم (٦٥) من حديث علي رضي الله عنه. وفي إسناده عبد السلام بن صالح بن سليمان، أبو الصلت الهروي. قال البوصيري في الزوائد ٥١/١: متفق على ضعفه.

(٢) المبتدع، شيخ الكُرَّامية، كان زاهداً عابداً، ولكنه يروي الواهيات. توفي سنة (٢٥٥هـ) بأرض بيت المقدس. السير ٥٢٣/١١.

(٣) في (م): مبغض.

(٤) وذلك باعتبار المال، وأنه سيوافي ربه بقلبٍ مؤمن صادق.

(٥) في (د): فقالوا، وفي (م): وقالت.

فثبت أنه كان ساخطاً على إبليس، مُحِبّاً لعمر.

ويدلُّ عليه إجماعُ الأمة على أنَّ الله سبحانه وتعالى غيرُ مُحِبٍّ لمن عَلِمَ أنه من أهل النار، بل هو ساخطٌ عليه، وأنه مُحِبٌّ لمن عَلِمَ أنه من أهل الجنة، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «وإنما الأعمالُ بالخواتيم»^(١)، ولهذا قال علماءُ الصوفية: ليس الإيمانُ ما يترزى به العبدُ قولاً وفعلًا، لكن الإيمانُ جَرِيُّ السعادةِ في سوابقِ الأزل، وأما ظُهورُه على الهياكلِ، فربما يكونُ عارياً، وربما يكونُ حقيقةً.

قلت: هذا كما ثبت في «صحيح» مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ، وهو الصادقُ المصدوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ اللَّهُ الْمَلَكَ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتُبِ^(٢) رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِي أَوْ سَعِيدٍ، فوالذي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ»^(٣)، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»^(٤). فَإِنْ قِيلَ، وَهِيَ:

السادسة: فقد خرَّج الإمامُ الحافظُ أبو محمد عبدُ الغني بنُ سعيد المصري من حديث محمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة - وهو محمد بن أبي قيس - عن سليمان بن موسى - وهو الأشدق - عن مجاهد بن جبر، عن ابن عباس، أخبرنا أبو رزین العقيلي قال: قال لي النبي ﷺ: «لَأَشْرِبَنَّ أَنَا وَأَنْتَ يَا أَبَا رَزِينٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» قال: قلت: كيف يُحْيِي الله الموتى؟ قال: «أَمَا مَرَرْتُ بِأَرْضٍ لَكَ مُجْدِبَةٌ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهَا مُخْصِبَةٌ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهَا مُجْدِبَةٌ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهَا مُخْصِبَةٌ» قلت: بلى. قال: «كَذَلِكَ التَّشْوِيرُ» قال: قلت: كيف لي أَنْ أَعْلَمَ أَنِي مُؤْمِنٌ؟ قال: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - قَالَ ابْنُ أَبِي

(١) قطعة من حديث، أخرجه أحمد في المسند (٢٢٨٣٥)، والبخاري (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) في النسخ: فيكتب، والمثبت من (م)، وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٣) في (د) و(ز) في الموضعين: بينه وبينها إلا مقدار شبر أو ذراع.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٣)، وهو أيضاً في صحيح البخاري (٣٢٠٨)، ومسند أحمد (٣٦٢٤).

قيس: أو قال: من أمتي - عَمِلَ حسنةً، وَعَلِمَ أنها حسنةٌ، وأنَّ الله جازيه بها خيراً، أو عَمِلَ سيئةً، وَعَلِمَ أنها سيئةٌ، وأنَّ الله جازيه بها شراً أو يَغْفِرُها، إلا مؤمنٌ^(١).

قلت: وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوي، فإنَّ معناه صحيحٌ، وليس بمعارض لحديث ابن مسعود، فإنَّ ذلك موقفٌ على الخاتمة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وإنما الأعمال بالخواتيم»^(٢). وهذا إنما يَدُلُّ على أنه مؤمنٌ في الحال، والله أعلم.

السابعة: قال علماء اللغة: إنما سُمِّيَ المنافقُ منافقاً، لإظهاره غير ما يُضمِرُ، تشبيهاً باليربوع، له جُحر يقال له: النَّافِقَاءُ، وآخرُ يقال له: القاصِيعاء، وذلك أنه يَخْرِقُ الأرضَ حتى إذا كاد يبلغُ ظاهرَ الأرض، أَرَقَّ الترابَ، فإذا رابَه رَيْبٌ، دَفَعَ ذلك الترابَ برأسه فخرج، فظاهرُ جُحره ترابٌ، وباطنه حفر. وكذلك المنافقُ ظاهره إيمانٌ، وباطنه كفرٌ، وقد تقدَّم هذا المعنى^(٣).

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِنَّمَا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

قال علماؤنا: معنى «يُخَادِعُونَ الله» أي: يُخَادِعُونَهُ عند أنفُسِهِمْ وعلى ظَنِّهِمْ^(٤). وقيل: قال ذلك لِعَمَلِهِمْ عَمَلَ الْمُخَادِعِ. وقيل: في الكلام حَذَفُ، تقديره: يُخَادِعُونَ رسولَ الله ﷺ، عن الحسن وغيره. وجعل خِدَاعَهُمْ لرسوله خِدَاعاً له؛ لأنه دعاهم برسالته، وكذلك إذا خادعوا المؤمنين، فقد خادعوا الله. ومُخَادَعَتُهُمْ: ما أظهره من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، لِيَخْفِنُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، ويظنون أنهم قد نَجَوْا وَخَدَعُوا، قاله جماعةٌ من المتأولين^(٥).

(١) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (٢٨٨١) ونسبه لأبي يعلى (ولعله في الكبير). وأخرجه الإمام أحمد في المسند (١٦١٩٤) من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رزين العقيلي، بنحوه، دون قوله: «لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه».

(٢) سلف في المسألة الخامسة.

(٣) ص ٢٧٣.

(٤) في (ظ): خلقهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٠.

وقال أهل اللغة^(١): أصل الحَدْع في كلام العرب الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي^(٢). وأنشد:

أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَذِيذُ طَعْمُهُ طَيِّبُ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعُ^(٣)
قلت: ف «يُخَادِعُونَ الله» على هذا، أي: يُفْسِدُونَ إيمانَهُم وأعمالَهُم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء. وكذا جاء مفسراً عن النبي ﷺ على ما يأتي^(٤). وفي التنزيل: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مُخَدَعُ البيت الذي يُحَرَّزُ فيه الشيء. حكاه ابن فارس^(٥) وغيره. وتقول العرب: انخدَع الضَّبُّ في جُحره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفْي وإيجاب، أي: ما تَحُلُّ عاقبةُ الحَدْع إلا بهم. ومن كلامهم: مَنْ خَدَعَ مَنْ لَا يُخَدَعُ، فإنما يَخْدَعُ نفسه. وهذا صحيح؛ لأنَّ الخِدَاعَ إنما يكون مع مَنْ لَا يَعْرِفُ البواطنَ، وأما مَنْ عَرَفَ البواطنَ، فمن دخل معه في الخِدَاعِ، فإنما يَخْدَعُ نفسه. ودَلَّ هذا على أنَّ المنافقين لم يعرفوا الله، إذ لو عَرَفُوهُ، لَعَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُخَدَعُ، وقد تقدَّم من قوله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا تُخَادِعِ الله، فإنه مَنْ يُخَادِعِ الله، يَخْدَعُهُ الله، ونفسه يَخْدَعُ لو يَشْعُر». قالوا: يا رسول الله، وكيف يُخَادِعُ الله؟ قال: «تعملُ بما أمرك الله به، وتَظْلُبُ به غيره»^(٦). وسيأتي بيانُ الحَدْعِ من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «يُخَادِعُونَ» في الموضعين، لِيَتَجَانَسَ اللفظان.

(١) الحجة للقراء السبعة ١/٣١٣.

(٢) هو محمد بن زياد، أبو عبد الله الهاشمي مولاهم، إمام اللغة، النسابة، توفي سنة (٢٣١هـ). السير ٦٨٧/١٠.

(٣) البيت لسويد بن أبي كاهل الشكري، وهو في المفضليات ص ١٩١.

(٤) عند تفسير الآية (٢٦٤) من سورة البقرة، والآية (١٤٢) من سورة النساء.

(٥) في مجمل اللغة ١/٢٧٩.

(٦) تقدم ص ٣٥، باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء.

وقرأ عاصم وحزمة والكسائي وابن عامر: «يُخَدَّعون» الثاني. والمصدر: خَدَعَ، بكسر الخاء، وخديعة. حكى ذلك أبو زيد^(١).

وقرأ مُورِّقُ الْعِجْلِيِّ^(٢): «يُخَدَّعون الله» بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير^(٣). وقرأ أبو طالوت عبدُ السَّلام بنُ شَدَّاد^(٤) والجارود^(٥): بضم الياء وإسكان الخاء وفتح الدال، على معنى: وما يُخَدَّعون إلا عن أنفسهم، فحذف حرف الجر، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يَفْطَنُونَ أَنْ وِبَالَ خَدَعِهِمْ راجعٌ عليهم، فيفطنون أنهم قد نَجَوْا بِخَدَعِهِمْ وفازوا، وإنما ذلك في الدُّنيا، وفي الآخرة يقال لهم: ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] على ما يأتي.

قال أهل اللغة: شَعَرْتُ بالشيء: فَطَنْتُ له^(٧)، ومنه الشاعر لِفَطْنَتِهِ، لأنه يَفْطُنُ لما لا يَفْطُنُ له غيره من غريب المعاني. ومنه قولهم^(٨): ليت شِعْري، أي: ليتني عَلِمْتُ^(٩).

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ابتداء وخبر. والمرضُ عبارةٌ مستعارةٌ للفساد

(١) الحجة للقراء السبعة ٣١٢/١-٣١٣، والسبعة لابن مجاهد ص ١٣٩، والتيسير للداني ص ٧٢.

(٢) أبو المعتمر البصري، الإمام، توفي في ولاية ابن هبيرة على العراق. السير ٣٥٣/٤. وقال الحافظ في التقریب: مات بعد المئة.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وأبو حيان في البحر ٥٧/١ وهي عندهما في قوله: «يُخادعون» الثاني.

(٤) العبدى، القيسي، البصري، روى القراءة عن أبيه، وقد ولد أبوه يوم قبض النبي ﷺ. تهذيب التهذيب ٥٧٥/٢، وطبقات القراء ٣٨٥/١.

(٥) ابن أبي سبرة الهذلي، أبو نوفل البصري، توفي سنة (١٢٠هـ)، وهو من رجال التهذيب.

(٦) القراءات الشاذة ص ٢، والمحاسب ٥١/١، والبحر المحيط ٥٧/١، والمحزر الوجيز ٩٠/١ - ٩١.

(٧) في (م): أي: فطنت له.

(٨) لفظ: ومنه قولهم، من (م).

(٩) الصحاح (شعر)، ومجمل اللغة ٥٠٥/٢.

الذي في عقائدهم. وذلك إما أن يكون شكاً ونفاقاً، وإما جحداً وتكذيباً^(١). والمعنى: قلوبهم مرضى، لخلوها عن العزيمة والتوفيق، والرعاية والتأييد.

قال ابنُ فارس اللُّغوي^(٢): المرضُ كلُّ ما خرجَ به الإنسانُ عن حدِّ الصحة من عِلَّةٍ، أو نفاقٍ، أو تقصيرٍ في أمر.

والقُرَّاءُ مُجمعون على فتحِ الراء من «مَرَضٍ» إلا ما رَوَى الأصمعيُّ عن أبي عمرو أنه سَكَّنَ الراء^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قيل: هو دعاءٌ عليهم. ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكاً ونفاقاً جزاءً على كُفْرهم، وضعفاً عن الانتصار، وعجزاً عن القُدرة، كما قال الشاعر^(٤):

يَا مُرْسِلَ الرِّيحِ جَنُوباً وَصَبَاً إِذْ غَضِبْتَ زَيْدَ فَرَزْدَهَا غَضَبَا
أي: لا تَهْدِهَا على الانتصار فيما غَضِبْتَ منه.

وعلى هذا يكون في الآية دليلٌ على جواز الدعاء على المنافقين والطَّرد لهم؛ لأنهم شَرُّ خلقِ الله^(٥).

وقيل: هو إخبارٌ من الله تعالى عن زيادةِ مَرَضِهِمْ، أي: فزادهم الله مَرَضاً إلى مَرَضِهِمْ، كما قال في آية أخرى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال أربابُ المعاني: «في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أي: يسكونهم إلى الدنيا، وحُبُّهم لها، وغَفْلَتهم عن الآخرة، وإعراضهم عنها. وقوله: «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا» أي: وكَلَّهم إلى أنفسهم، وجمَعَ عليهم همومَ الدنيا، فلم يتفرَّغوا من ذلك إلى اهتمامٍ بالدين. «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» بما يفنى عما يبقى.

(١) المحرر الوجيز ٩٢/١.

(٢) مجمل اللغة ٨٢٧/٣.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ٥٣/١.

(٤) هو الأخطل، والرجز في ديوانه ص ٣١٩.

(٥) تفسير أبي الليث ٩٥/١.

(٦) في (د) و(ز): وجهلهم، بدل: وحبهم.

وقال الجُنَيْد: عِلَّلُ القُلُوبِ من اتَّبَعَ الهَوَى، كما أَنَّ عِلَلَ^(١) الجوارح من مرضِ البَدَنِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: «أليم» في كلام العرب معناه: مؤلم، أي: مُؤْجَع، مثل السَّمِيع بمعنى المُسْمِع، قال ذو الرُّمَّة يَصِفُ إبلاً:

ونَرَفَعُ من صُدُورِ شَمَرَدَلَاتٍ يَصُكُّ وجوهَهَا وَهَجٌ أَلِيمٌ^(٢)
وَأَلَمٌ إِذَا أَوْجَع. والإيلام: الإيجاع. والألم: الوجع، وقد أَلِمَ يَأْلُمُ الْمَاءُ. والتألم: التوجع. ويُجمع أَلِيمٌ على أَلَمَاءٍ، مثل: كَرِيم وكُرَمَاء، وآلام، مثل: أشْراف.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٣) ما مصدرية، أي: بتكذيبهم الرسل، وردهم على الله جل وعز، وتكذيبهم بآياته، قاله أبو حاتم. وقرأ عاصمٌ وحمزةٌ والكسائي بالتخفيف^(٤)، ومعناه: يَكْذِبُهُمْ وقولهم: آمَنَّا، وليسوا^(٥) بمؤمنين.

مسألة: واختلف العلماء في إمساكِ النَّبِيِّ ﷺ عن قَتْلِ المنافقين مع عِلْمِهِ بتفريقهم على أربعة أقوال:

القول الأول: قال بعض العلماء: إنما لم يَقْتُلْهُمْ؛ لأنه لم يَعْلَمْ حالَهُمْ أَحَدٌ سواه. وقد اتَّفَقَ العلماء على بَكْرَةِ أبيهم على أَنَّ القَاضِيَ لَا يَقْتُلُ بعِلْمِهِ، وإن^(٦) اختلفوا في سائر الأحكام.

قال ابن العربي^(٧): وهذا مُنْتَقِضٌ، فقد قُتِلَ بِالْمُجَدَّرِ بن زياد الحارث بن سُويد بن الصَّامِت؛ لأنَّ الْمُجَدَّرَ قَتَلَ أَبَاهُ سُويداً يَوْمَ بُعَاث^(٨)، فأَسْلَمَ الحارث، وأَغْفَلَهُ يَوْمَ

(١) في (ز) و(ظ): علة.

(٢) ديوانه ٦٧٧/٢، قال الباهلي في شرحه: شمردلات: هي نوق طوال سراع. ويصك يضرب. ووهج، أي: حرٌ شديد.

(٣) بالتشديد، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. الحجة ٣٢٩/١. والسبعة ص ١٤١، والتيسير ص ٧٢.

(٤) الحجة ٣٢٩/١.

(٥) في (ظ): ولم يكونوا.

(٦) في (ظ): وقد، وفي (م): وإنما.

(٧) في أحكام القرآن ١٢/١.

(٨) من مشاهير أيام العرب في الجاهلية، كان فيه حرب بين الأوس والخزرج. الأغاني ١١٨/١٧.

أُحْدَ، فَقَتَلَهُ، فَأَخْبَرَ بِهِ جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَتَلَهُ بِهِ^(١)؛ لَأَنَّ قَتْلَهُ كَانَ غِيْلَةً، وَقَتْلُ الْغِيْلَةِ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ.

قلت: وهذه غفلة من هذا الإمام؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور، فليس بمُستَقِصٍ بما ذكر؛ لأنَّ الإجماع لا ينعقد، ولا يثبت إلا بعد موت النبي ﷺ وانقطاع الوحي، وعلى هذا، فتكون تلك قَضِيَّةٌ فِي عَيْنِ بَوْحِي، فلا يُحْتَجُّ بِهَا، أو منسوخةً بالإجماع. والله أعلم.

القول الثاني: قال أصحابُ الشافعي: إنما لم يَقْتُلْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ؛ لَأَنَّ الزَّنْدِيقَ - وهو الذي يُسِرُّ الكفرَ وَيُظْهِرُ الإيمانَ - يُسْتَأْب، ولا يقتل.

قال ابنُ العربي^(٢): وهذا وهمٌ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَسْتَبْتِهِمْ، ولا نَقَلَ ذلك أحدٌ، ولا يقولُ أحدٌ: إِنَّ استتابةَ الزنديقِ واجبةٌ^(٣). وقد كان النبي ﷺ مُعْرَضاً عَنْهُمْ مع علمه بهم. فهذا المتأخِّرُ من أصحابِ الشافعي الذي قال: إِنَّ استتابةَ الزنديقِ جائزةٌ، قال قولاً لم يَصِحَّ لأحد.

القول الثالث: إنما لم يَقْتُلْهُمُ مصلحةٌ، لتأليفِ القلوبِ عليه لثلاثِ تَنْفَرٍ عنه، وقد أشار ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لعمر: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي». أخرجه البخاري ومسلم^(٤). وقد كان يُعْطِي للمؤلفَةِ قلوبُهُمْ مع علمه بسوء اعتقادِهِمْ تَأْلُفًا، وهذا هو قولُ علمائنا وغيرهم.

قال ابنُ عطية^(٥): وهي طريقةُ أصحابِ مالك رحمته الله في كفِّ رسول الله ﷺ

(١) ذكر هذه القصة ابن سعد في الطبقات ٥٥٢/٣، وابن عبد البر في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢١٩/١٠.

(٢) قوله: النبي ﷺ، من (ظ).

(٣) في أحكام القرآن ١٢/١.

(٤) في (د) و(ز): إن الزنديق واجبة استتابته، وفي أحكام القرآن: غير واجبة.

(٥) صحيح البخاري (٣٥١٨)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤) وهو من حديث جابر رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه». وهو في مسند أحمد (١٥٢٢٣).

(٦) في المحرر الوجيز ٩٤/١ - ٩٦.

عن المنافقين. نَصَّ على هذا محمدُ بْنُ الْجَهْمِ^(١) ، والقاضي إسماعيل^(٢) والأبهرى^(٣) ، وابنُ الماجشون، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿لَنْ لَزَّ يَنْتَهُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَاتِلُوا تَقَاتِلُوا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١]. قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النفاق.

قال مالكٌ رحمه الله: النفاقُ في عهدِ رسولِ الله ﷺ هو الزندقةُ فينا اليوم، فيقتلُ الزنديقُ إذا شُهِدَ عليه بها دون استتابة. وهو أحدُ قولَي الشافعي. قال مالكٌ: وإنما كَفَّ رسولُ الله ﷺ عن المنافقين، لِيُبَيِّنَ^(٤) لَأُمَّتِهِ أَنَّ الحاكمَ لا يحكُمُ بعلمه، إذ لم يُشْهَدْ على المنافقين.

قال القاضي إسماعيلُ: لم يُشْهَدْ على عبدِ الله بن أبي إلا زيدُ بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سُويد إلا عَمِيرُ بْنُ سَعْدٍ رِيبِيهِ^(٥)، ولو شُهِدَ على أحدٍ منهم رجلان بكُفْرِهِ ونفاقِهِ لَقُتِلَ^(٦).

وقال الشافعي رحمه الله مُحْتَجًّا للقول الآخر: السُّنَّةُ فيمن شُهِدَ عليه بالزندقة، فَجَحَدَ، وأعلن بالإيمان، وتبرأ من كلِّ دين سِوَى الإسلام، أَنَّ ذلك يَمْنَعُ من إِرَاقَةِ دمه. وبه قال أصحابُ الرأي، وأحمدُ، والطبريُّ، وغيرُهم.

قال الشافعي وأصحابُه: وإنما مَنَعَ رسولُ الله ﷺ من قتلِ المنافقين ما كانوا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الإِسْلَامِ مع العلم بنفاقهم؛ لأنَّ ما يُظْهِرُونَهُ يَجِبُ ما قبله.

(١) أبو بكر، المالكي، له من الكتب: شرح مختصر ابن عبد الحكم الصغير والرد على محمد بن الحسن. الفهرست ص ٢٥٣.

(٢) ابن إسحاق بن إسماعيل ابن محدث البصرة حماد بن زيد، الأزدي، مولاهم، البصري، المالكي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٢٨٢هـ). السير ٣٣٩/١٣.

(٣) محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح، التميمي، المالكي، أبو بكر، نزيل بغداد. توفي سنة (٣٧٥هـ). السير ٣٣٢/١٦.

(٤) في (ز) و(ظ): ليسَ.

(٥) ذكر ابنُ عبد البر قصةَ عبدِ الله بن أبي في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٣٨/٤ - ٣٩، وقصةَ الجلاس بن سويد ١٩١/٢ و٣٢/٩، وستأتي عند المصنف في تفسير الآية (٧٤) من سورة براءة: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾. وانظر تفسير الآية (١) من سورة «المنافقون».

(٦) في (ظ): لقتله.

وقال الطبري: جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحدٍ من خلقه، فليس لأحدٍ أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ، كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله. وقد كذب الله ظاهرهم في قوله^(١): ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال ابن عطية^(٢): ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية، بأنها لم تُعَيِّن أشخاصهم فيها، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالتفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أَرَدُ بها، وما أنا إلا مؤمن، ولو عَيَّن أحدٌ، لما جَبَّ كَذِبُهُ شيئاً.

قلت: هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي ﷺ كان يعلمهم أو كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه. وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي ﷺ إياه، حتى كان عمر رضي الله عنه يقول له: يا حذيفة، هل أنا منهم؟ فيقول له: لا^(٣).

القول الرابع: وهو أن الله تعالى كان قد حَفِظَ أصحاب نبيه عليه الصلاة والسلام بكونه ثَبَتَهُمْ أن يُفْسِدَهُم المنافقون، أو يُفْسِدُوا دِينَهُمْ، فلم يكن في ثَبَتِهِمْ ضَرَرٌ، وليس كذلك اليوم؛ لأننا لا نَأْمَنُ من الزنادقة أن يُفْسِدُوا عَامَّتَنَا وَجَهَّالَنَا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾

«إذا» في موضع نصب على الظرف، والعامل فيها «قالوا»، وهي تؤذن بوقوع الفعل المنتظر. قال الجوهري: «إذا» اسم يدل على زمانٍ مستقبل، ولم تُسْتَعْمَلْ إلا مضافةً إلى جملة، تقول: أجيئك إذا احمرَّ البُسْرُ، وإذا قَدِمَ فلانٌ، والذي يدل على أنها اسمٌ ووقوعها موقع قولك: آتاك يومَ يقدّم فلانٌ، فهي ظرفٌ، وفيها معنى المجازاة. وجزاء الشرط ثلاثة: الفعل، والفاء، و«إذا»:

فالفعل: قولك: إن تَأْتَنِي آتِكَ، والفاء: إن تَأْتَنِي فَأَنَا أَحْسِنُ إِلَيْكَ، و«إذا»:

(١) في (د) و(ز): بقوله.

(٢) في المحرر الوجيز ٩٥/١ - ٩٦.

(٣) ذكره الذهبي في السير ٣٦٤/٢، والهندي في كثر العمال ٣٤٤/١٣، ونسبه إلى رسته.

كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾^(١) [الروم: ٣٦].

ومما جاء من المجازاة بـ «إذا» في الشعر قول قيس بن الخطيم^(٢):

إِذَا قَصُرْتُ أَسِيَّافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنَضَارِبُ
فَعَطَفَ «فَنَضَارِبُ» بِالْجَزْمِ عَلَى مَوْضِعِ «كَانَ»^(٣) لَأَنَّهُ مَجْزُومٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ
مَجْزُومًا، لَقَالَ: فَنَضَارِبُ، بِالنَّصْبِ.

وقد تزاوَدَ على «إذا» «ما» تأكيداً، فُجِزَ بِهَا أَيْضاً، وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ^(٤):

فَقَامَ أَبُو لَيْلَى إِلَيْهِ ابْنُ ظَالِمٍ وَكَانَ إِذَا مَا يَسْلُلُ السِّيفَ يَضْرِبُ
قَالَ سَيُوبِيهِ^(٥): وَالْجَيْدُ مَا قَالَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ^(٦):

وَإِذَا مَا تَشَاءُ تَبْعْتُ مِنْهَا مَغْرِبَ الشَّمْسِ نَاشِطاً مَذْعُورَا
يَعْنِي أَنَّ الْجَيْدَ أَلَّا يُجْزَمَ بِـ «إِذَا» كَمَا لَمْ يَجْزَمْ فِي هَذَا الْبَيْتِ.

وَحُكِيَ عَنِ الْمُبَرِّدِ أَنَّهَا فِي قَوْلِكَ فِي الْمَفْاجَأَةِ: خَرَجْتُ فَإِذَا زَيْدٌ، ظَرْفُ مَكَانٍ،
لَأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ جُثَّةً. وَهَذَا مُرَدُّوْءٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: خَرَجْتُ فَإِذَا حَظُورُ زَيْدٍ، فَإِنَّمَا تَضَمَّنَتْ
الْمَصْدَرَ كَمَا يَقْتَضِيهِ سَائِرُ ظُرُوفِ الزَّمَانِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: الْيَوْمَ خَمَرٌ وَغَدًا أَمْرٌ^(٧)،
فَمَعْنَاهُ: وَجُودُ خَمْرٍ وَوُقُوعُ أَمْرٍ^(٨).

(١) الصحاح (إذا).

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدي، شاعر فارس من الأوس مات كافراً، قال ابن حجر في الإصابة: ذكره علي بن سعد العسكري في الصحابة، وهو وهم. الإصابة ٢٥٩/٧، وخزانة الأدب ٣٤/٧. والبيت في ديوانه ص ٨٨، والكتاب ٦٠/٣.

(٣) في (م): بالجزم على كان.

(٤) هو همام بن غالب بن صعصعة، أبو فراس، التميمي، البصري، شاعر عصره، توفي سنة (١١٠هـ). السير ٥٩٠/٤. والبيت في ديوانه ٢١/١.

(٥) الكتاب ٦٢/٣.

(٦) ابن أبي سلمى صحابي معروف، ذكره ابن سلام في طبقاته ٩٧/١ في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية، وهو صاحب قصيدة البردة المشهورة. والبيت المذكور في ديوانه ص ٣٣.

(٧) قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه وهو يشرب، ذكره أبو غبيد في الأمثال ص ٣٣٤ وأبو الفرج في الأغاني ٨٨/٩، والعسكري في جمهرة الأمثال ٤٣١/٢، والزمخشري في المستقصى ٣٥٨/١، وذكر صاحب الجمهرة أنه لهما بن مرة أيضاً.

(٨) المحرر الوجيز ٩٣/١.

قوله: ﴿قِيلَ﴾: من القول، وأصله قول، نُقِلْتُ كسرة الواو إلى القاف، فانقلبت الواو ياءً.

ويجوز: «قِيلَ لَهُمْ» بإدغام اللام في اللام^(١). وجاز الجمع بين ساكنين؛ لأنَّ الياء حرفٌ مدٌّ وليّن.

قال الأخفش: ويجوزُ «قِيلَ» بضم القاف والياء^(٢). وقال الكسائي: ويجوزُ إسماءُ القاف الضمّ، لِيَدُلَّ على أنه لِمَا لم يُسَمَّ فاعله، وهي لغةُ قَيْس. وكذلك: «جِيءَ» و«غِيضَ» و«حِيلَ» و«سِيَقَ» و«سِيءَ» و«سِيَتْ».

وكذلك روى هشام^(٣) عن ابن عامر^(٤)، وَرَوَيْسُ^(٥) عن يعقوب^(٦). وَأَشَمَّ منها نافعٌ «سِيءَ» و«سِيَتْ» خاصّة. وزاد ابنُ ذَكْوَانَ: «حِيلَ» و«سِيَقَ»، وَكَسَرَ الباقيون في الجميع^(٧). فأما هُذَيْلٌ وبنو دُبَيْرٍ من أسد وبنو^(٨) فَقَعَسَ فيقولون: «قُولَ» بواو ساكنة^(٩).

قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾: «لا» نهى. والفسادُ ضدُّ الصّلاح، وحقيقته: العُدُولُ عن الاستقامة إلى ضِدِّها. فَسَدَ الشيءُ يَفْسُدُ فساداً، وفُسُوداً، وهو فاسدٌ، وقَسِيدٌ. والمعنى في الآية: لا تُفْسِدُوا في الأرض بالكفرِ ومُوالاةِ أهله، وتفريقِ الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن.

وقيل: كانت الأرضُ قبلَ أن يُبعثَ النبي ﷺ [يعملون] فيها الفساد، ويُفَعَّلُ^(١٠)

(١) وهي رواية السوسي عن أبي عمرو البصري، السبعة ص ١١٧، والتيسير ص ٢٠.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس ١٨٨/١: وبالياء.

(٣) ابن عمار، أبو الوليد السلمى، ويقال: الطُّفْرِي، الحافظ المقرئ، عالم أهل الشام، وخطيب دمشق، توفي سنة (٢٤٥هـ). السير ١١/٤٢٠.

(٤) في (م) و(ظ): ابن عباس وهو خطأ.

(٥) محمد بن المتوكل، أبو عبد الله اللؤلؤي البصري، مقرئ حاذق ضابط، توفي سنة (٢٣٨هـ). طبقات القراء ٢/٢٣٤.

(٦) هو يعقوب بن إسحاق، أبو محمد الحضرمي مولاهم، مقرئ البصرة، أحد العشرة، ورَّجَّحه بعض الأئمة على الكسائي، توفي سنة (٢٠٥هـ). السير ١٠/١٦٩.

(٧) السبعة ص ١٤١-١٤٢، والتيسير ص ٧٢، والنشر ٢/٢٠٨.

(٨) في (م) و(ز) و(ظ): بني، والمثبت من (د).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١٨٨/١، والمحرم الوجيز ١/٩٣.

(١٠) في (ز): ويعمل.

فيها بالمعاصي^(١) ، فلما بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ ، ارتفع الفسادُ، وصَلَحَتِ الْأَرْضُ. فإذا عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي ، فقد أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بعدَ إِصْلَاحِهَا ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(٢) [الأعراف : ٥٦].

قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ : الْأَرْضُ مؤنثة ، وهي اسمُ جنس ، وكان حَقُّ الواحدةِ منها أن يُقالَ : أَرْضَةٌ ، ولكنهم لم يقولوا. والجمعُ أَرْضَاتٌ ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنثَ الذي ليست فيه هاءُ التانيث بالتاء ، كقولهم : عُرُسَات. ثم قالوا : أَرْضُونَ ، فجمعوا بالواو والنون ، والمؤنثُ لا يُجمع بالواو والنون ، إلا أن يكونَ منقوصاً ، ككُتْبَةٍ وَطَبَّةٍ ، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضاً من حَذْفِهِم الْأَلْفَ والتاءَ ، وتركوا فتحةَ الراءِ على حالها ، وربما سَكَّنَتْ ، وقد تُجمع على أَرُوض.

وزعم أبو الخطاب^(٣) أنهم يقولون : أَرْضٌ ، وَأَرَضٌ ، كما قالوا : أَهْلٌ وَأَهَالٌ^(٤) . والأراضي أيضاً على غير قياس ، كأنهم جَمَعُوا أَرْضاً^(٥) . وكل ما سَقَلَ فهو أَرْضٌ . وَأَرْضٌ أَرِيضَةٌ ، أي : زَكِيَّةٌ بَيِّنَةٌ الْأَرَضَةِ . وقد أَرْضُتْ ، بالضم ، أي : زَكَّتْ . قال أبو عمرو : نزلنا أَرْضاً أَرِيضَةً ، أي : مُعْجِبَةً لِلْعَيْنِ ، ويقال : لا أَرْضَ لَكَ ، كما يقال : لا أَمَّ لَكَ . والأَرْضُ : أسفلُ قوائمِ الدَابَّةِ ، قال حُمَيْدٌ^(٦) يَصِفُ فَرَساً : ولم يُقَلِّبْ أَرْضَهَا الْبَيْطَارُ ولا لِحَبْلَيْهِ بِهَا حَبَارٌ^(٧)

(١) في (ظ) : المعاصي.

(٢) تفسير أبي الليث ٩٦/١ ، وما بين معكوفتين منه.

(٣) عبد الحميد بن عبد المجيد البصري ، وهو الأخفش الكبير ، تخرج به سيبويه وحمل عنه النحو ، قال الذهبي : ولم أقع له على وفاة. السير ٣٢٣/٧.

(٤) كذا في الصحاح (أرض) ، والكلام كله منه. ونقل ابن منظور في اللسان (أرض) عن ابن بري قوله : الصحيح عند المحققين فيما حكى عن أبي الخطاب : أرض وأراضي ، وأهل وأهال.

(٥) ونقل ابن منظور أيضاً في اللسان عن ابن بري قوله : صوابه أن يقول : جمعوا أَرْضَى ، مثل أَرْضَى ، وأما أَرْضُ ، فقياسه جمع أَوَارِض.

(٦) ابن مالك ، الأرقط ، من شعراء الدولة الأموية ، وسمي الأرقط لأنار كانت بوجهه. خزانة الأدب ٣٩٥/٥.

(٧) ذكره ابن منظور في اللسان (أرض) ، وذكر الجوهري شطره الأول ، ومعناه (كما في اللسان) : أي لم يُقَلِّبْ قوائمها لعلمه بها.

أي: أثر. والأرضُ: النَّفْضَةُ، والرَّغْدَةُ. رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ بِالْبَصْرَةِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ مَا أُدْرِي، أَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ، أَمْ بِي أَرْضٌ^(١)؟ أي: أَمْ بِي رِغْدَةٌ.
وقال ذو الرُّمَّةِ يصفُ صائداً:

إِذَا تَوَجَّسَ رِكْزاً مِنْ سَنَابِكِهَا أَوْ كَانَ صَاحِبَ أَرْضٍ أَوْ بِهِ الْمُومُ^(٢)
وَالْأَرْضُ: الرُّكَامُ. وَقَدْ أَرْضَهُ اللَّهُ لِيَرِاضاً، أَي: أَزْكَمَهُ، فَهُوَ مَأْرُوضٌ. وَفَسِيلٌ مُسْتَأْرِضٌ، وَوَدِيَّةٌ^(٣) مُسْتَأْرِضَةٌ، بِكسر الراء: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِرْقٌ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا إِذَا نَبَتَ عَلَى جَذْعِ النَّخْلِ، فَهُوَ الرَّاكِبُ. وَالْإِرَاضُ، بِالْكَسْرِ: بِسَاطٌ ضَخْمٌ مِنْ صُوفٍ أَوْ وَبَرٍ. وَرَجُلٌ أَرِيضٌ، أَي: مُتَوَاضِعٌ خَلِيقٌ لِلْخَيْرِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يَقَالُ: هُوَ أَرَضُهُمْ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، أَي: أَخْلُقُهُمْ. وَشَيْءٌ عَرِيضٌ أَرِيضٌ، إِتْبَاعٌ لَهُ، وَبَعْضُهُمْ يُفْرِدُهُ، وَيَقُولُ: جَذِيٌّ أَرِيضٌ، أَي: سَمِينٌ^(٤).

قوله: ﴿نَحْنُ﴾ أصل «نحن»: نَحْنُ، قُلِبَتْ حَرَكَةُ الْحَاءِ عَلَى النُّونِ، وَأُسْكِنَتْ^(٥) الْحَاءُ، قَالَهُ هِشَامُ بْنُ مُعَاوِيَةَ النَّخْوِيُّ^(٦). وَقَالَ الرَّجَّاجُ^(٧): «نحن» لجماعة، ومن علامة الجماعة الواو، والضممة من جنس الواو، فلما اضطرُّوا إلى حركة «نحن» لالتقاء الساكنين، حرَّكوها بما يكون للجماعة. قال: ولهذا^(٨) ضُمُّوا وَآوَ الْجَمْعُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ﴾ [البقرة: ١٦]. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ: «نحن» مثل: قَبْلُ، وَبَعْدُ؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالْإِخْبَارِ عَنْ اثْنَيْنِ وَأَكْثَرَ^(٩)، فَ«أَنَا» لِلوَاحِدِ،

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ص ٨٤، والتمهيد ٣/٣١٨، والفاق للزمخشري ٣٧/١.

(٢) ديوانه ١/٤٤٩، وقال شارحه: السنبك: طرف الحافر، والموم: البرسام. وفي القاموس: البرسام: علة يُهْدَى فيها.

(٣) في (د): واودية. وفي الصحاح (ودي): الْوَدِيُّ: صغار الفسيل، واحدها: وَدِيَّةٌ.

(٤) الصحاح: (أرض).

(٥) في (د) و(ز): وسكنت.

(٦) أبو عبد الله، الضرير، الكوفي، صاحب الكسائي، توفي سنة (٢٠٩هـ). إنباه الرواة ٣/٣٦٤.

(٧) معاني القرآن ١/٨٩.

(٨) في (م): لهذا.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/١٨٩.

و«نحن» للتثنية والجمع، وقد يُخبرُ به المُتكلِّم عن نفسه في قوله: نحن قُمنَا، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]. والمؤنثُ في هذا إذا كانت مُتكلِّمةً بمنزلة المذكَر، تقول المرأة: قُمتُ، وذهبتُ، وقُمنَا، وذهبنَا، وأنا فعلتُ ذاك، ونحن فعلنا. هذا كلامُ العرب فاعلم.

قوله تعالى: ﴿مُضِلُّوهُمْ﴾: اسمُ فاعلٍ من «أضلَح»، والصَّلَاح: ضدُّ الفَسَاد. وصَلَحَ الشيء، بضم اللام وفتحها، لغتان، قاله ابنُ السَّكَيْت. والصُّلُوح، بضم الصاد: مصدر صُلِحَ، بضم اللام. قال الشاعر:

وكيف بأطرافي^(١) إذا ما شَتَمْتَنِي وما بعدَ شَتَمِ الوالِدَيْنِ صُلُوحُ^(٢)
وصَلَحَ من أسماء مكة. والصُّلَح، بكسر الصاد: نهر^(٣).

وإنما قالوا ذلك على ظَنِّهم، لأنَّ إفسادهم عندهم إصلاحٌ، أي إنَّ ممالأتنا للكفار إنما نريدُ بها الإصلاحَ بينهم وبين المؤمنين. قاله ابنُ عباس وغيره^(٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾: ردًّا عليهم وتكذيباً لقولهم.

قال أربابُ المعاني: مَنْ أظهرَ الدعوى كَذَبًا، ألا ترى أنَّ^(٥) الله عزَّ وجلَّ يقول:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ وهذا صحيح.

وَكُسرَتْ «إِنَّ»، لأنها مبتدأة، قاله النحاس^(٦). وقال عليُّ بن سليمان^(٧): يجوزُ

(١) في (ظ) و(م): بإطراقي، وفي (م): فكيف.

(٢) جمهرة اللغة ١٦٤/٢، وإصلاح المنطق ص ١٢٤، ومجمل اللغة ٥٣٩/٢، ونسبه ابن دريد لعون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. قال ابن السكيت: أطرافه: أبواه، وإخوته، وأعمامه، وكل قريب له محرم.

(٣) مجمل اللغة ٥٣٩/٢.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٧٥/١، وأخرجه الطبري ٣٠٠/١.

(٥) لفظ (أن) ليس في (ز) و(ظ).

(٦) إعراب القرآن ١٨٩/١، والكلام الذي بعده منه.

(٧) أبو الحسن، الأخفش الصغير، العلامة، النحوي، لازم نعلباً والمبرّد. توفي سنة (٣١٥هـ). السير ٤٨٠/١٤.

فَتَحُهَا، كما أجاز سيبويه^(١) : حَقًّا أَنْكَ مَنْطَلِقُ، بمعنى: ألا. و«هم» يجوزُ أَنْ يَكُونَ مبتدأ، و«الْمُفْسِدُونَ» خبره، والمبتدأ وخبره خبرٌ «إِنَّ». ويجوزُ أَنْ تَكُونَ «هم» توكيداً للهاء والميم في «إنهم»، ويجوزُ أَنْ تَكُونَ فاصلةً، والكوفيون يقولون: عماداً. و«المفسدون»: خبرٌ «إِنَّ»، والتقدير: ألا إنهم المفسدون، كما تقدّم في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) [البقرة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: قال ابنُ كَيْسَانَ: يقال: ما على مَنْ لم يعلم أنه مفسدٌ من الذَّمِّ، إنما يُدْذَمُ إذا عَلِمَ أنه مفسد، ثم أَفْسَدَ على عِلْمٍ. قال: ففيه جوابان: أحدهما: أنهم كانوا يعملون الفساد سِرًّا، ويُظهِرون الصلاحَ، وهم لا يشعرون أَنَّ أمرهم يَظْهَرُ عند النبي ﷺ. والوجه الآخر: أَنْ يَكُونَ فسادُهم عندهم صلاحاً، وهم لا يشعرون أَنَّ ذلك فسادٌ، وقد عَصَوْا اللهَ ورسولَهُ في تَرْكِهم تَبَيَّنَ الْحَقُّ وَاتَّبَاعِهِ^(٣).

«ولكن»: حرفُ تأكيدٍ واستدراك، ولا بدَّ فيه من نفي وإثبات: إن كان قبله نفي كان بعده إيجابٌ، وإن كان قبله إيجابٌ كان بعده نفي. ولا يجوزُ الاقتصارُ بعده على اسمٍ واحدٍ إذا تقدّم الإيجابُ، ولكنك تذكر جملةً مُضَادَّةً لما قبلها، كما في هذه الآية، وقولك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يَجِ، ولا يجوزُ جاءني زيدٌ لكن عمرو، ثم تَسَكَّتَ؛ لأنهم قد استَغْنَوْا بـ «بل» في مثل هذا الموضعِ عن «لكن»، وإنما يجوزُ ذلك إذا تقدّم النفي، كقولك: ما جاءني زيدٌ لكن عمرو^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين في قولِ مُقاتل^(٥) وغيره. ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي: صَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وشرعِهِ، كما صَدَّقَ المهاجرون والمُحَقِّقُونَ من

(١) الكتاب ١٢٢/٣.

(٢) ص ٢٧٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٩٣/١.

(٤) المقتضب للمبرد ١٢/١ و ١٠٨/٤، والكتاب ٤٣٥/١.

(٥) تفسير أبي الليث ٩٦/١.

أهل يَثْرِب^(١) .

وَأَلْفٌ «آمَنُوا» أَلْفٌ قَطْعٌ ؛ لَأَنَّكَ تقول : يُؤْمِنُ ، والكافُ في موضع نصب ؛ لأنها نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : إيماناً كإيمان الناس^(٢) .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعني : أصحاب محمد ﷺ ، عن ابن عباس^(٣) . وعنه أيضاً : مُؤْمِنُوا أهل الكتاب .

وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاءٍ واستهزاء ، فَأُطْلِعَ اللهُ نَبِيَّهِ والمؤمنين على ذلك ، وقرَّرَ أَنَّ السَّفَهَةَ ورِقَّةُ الحُلُومِ وفَسَادُ البصائر ، إنما هي في حَيْزِهِمْ^(٤) وصِفَةُ لَهُمْ ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، للرَّيْنِ الذي على قلوبهم^(٥) .

وروى الكلبيُّ ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : أنها نزلت في شأن اليهود ، أي : إذا^(٦) قيل لهم - يعني اليهود - : آمنوا كما آمنَ الناسُ : عبدُ الله بنُ سَلامٍ وأصحابه ، قالوا : أنؤمن كما آمنَ السفهاء؟ يعني الجُهَّال والخُرَقاء^(٧) .

وأصلُ السَّفَهَةِ في كلام العرب : الخَفَّةُ والرَّقَّةُ ، يقال : ثوبٌ سَفِيهٌ : إذا كان رديءَ النَّسِجِ خفيفه ، أو كان بالياً رقيقاً . وَتَسَفَّهَتِ^(٨) الرِّيحُ الشَّجَرَ : مَالَتْ به ، قال ذو الرُّمَّة : مَشَّيْنٌ كما اهتَزَّتْ رماحٌ تَسَفَّهَتْ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ^(٩) وَتَسَفَّهَتِ الشَّيْءَ : استَحَقَرَّتْهُ ، والسَّفَهُ : ضِدُّ الحِلْمِ ، ويقال : إِنَّ السَّفَهَةَ أَنْ يُكْثِرَ

(١) المحرر الوجيز ٩٤/١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٩٠/١ .

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٠٣/١ .

(٤) في (ظ) : خبرهم .

(٥) المحرر الوجيز ٩٤/١ .

(٦) في (م) : وإذا .

(٧) تفسير أبي الليث ٩٦/١ ، وقد ردَّ ابن عطية في المحرر الوجيز ٩٤/١ هذا التفسير ، وقال : هذا تخصيص لا دليل عليه . اهـ وقول المصنف : الخُرَقاء - وقع عند أبي الليث : الخَرْقَى - يعني جمع أخرق . والذي في القاموس أن الجمع : خُرُق .

(٨) في النسخ : سفهت ، والمثبت من (م) وصحاح الجوهري .

(٩) ديوانه ٧٥٤/٢ ، وفيه : رويداً ، بدل : مَشَّيْنٌ . وقال شارحه : النواسم : تنسجت الريح أي : تنفست ، وهو أول هبوبها .

الرجلُ شَرَبَ الماءَ، فلا يَرَوَى^(١).

ويجوزُ في همزتي «السفهاء»^(٢) أربعةُ أوجه :

أجودُها أن تُحَقِّقَ الأولى، وتقلبَ الثانيةَ واواً خالصةً، وهي قراءةُ أهل المدينة، والمعروفُ من قراءة أبي عمرو^(٣).

وإن شئتَ خَفَّفْتَهُما جميعاً، فجعلتَ الأولى بين الهمزة والواو، وجعلتَ الثانيةَ واواً خالصةً^(٤).

وإن شئتَ خَفَّفْتَ الأولى وحَقَّقْتَ الثانيةَ^(٥).

وإن شئتَ حَقَّقْتَهُما جميعاً^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مثل: «ولكن لا يشعرون»، وقد تقدَّم. والعلمُ معرفةُ المعلوم على ما هو به، تقول: عَلِمْتُ الشيءَ أَعْلَمُهُ عِلْماً: عَرَفْتُهُ، وعالَمْتُ الرجلَ، فَعَلِمْتُهُ أَعْلَمُهُ، بالضم في المستقبل: غَلَبْتُهُ بالعلم^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ (٧٤)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ نزلت هذه الآية في ذكر المنافقين.

أصل لَقُوا: لَقِيُوا، نُقلت الضمة إلى القاف، وحُذِفَت الياءُ لالتقاء الساكنين.

وقرأ محمد بنُ السَّمِيعِ اليمانيُّ: «لاَقُوا الذين آمنوا»^(٧). والأصلُ: لاَقِيُوا،

تَحَرَّكَتِ الياءُ وقبلها فتحةٌ، انقلبت الياءُ ألفاً^(٨)، اجتمع ساكنان: الألفُ والواو،

(١) مجمل اللغة ٤٦٣/٢.

(٢) يعني في قوله: «السفهاء ألا».

(٣) وهي أيضاً قراءة ابن كثير. التيسير ص ٣٤.

(٤) وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠. وقرأ بتحقيق الهمزتين ابن عامر الشامي وعاصم وحزمة والكسائي.

التيسير ص ٣٤.

(٦) الصحاح: (علم).

(٧) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، والعكبري في الإملاء في موضعها في سورة البقرة.

(٨) في (م): انقلبت ألفاً.

فَحُذِفَتِ الْأَلْفُ لِلتَّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، ثُمَّ حُرِّكَتِ الْوَاوُ بِالضَّمِّ.

فإن^(١) قيل: لم ضُمَّتِ الْوَاوُ فِي «لَا قُوا» فِي الْإِدْرَاجِ، وَحُذِفَتْ مِنْ «لَقُوا»؟
فالجواب: أَنَّ قَبْلَ الْوَاوِ الَّتِي فِي «لَقُوا» ضَمَّةٌ، فَلَوْ حُرِّكَتِ الْوَاوُ بِالضَّمِّ، لَثَقُلَ عَلَى
اللسانِ التَّنْقُطُ بِهَا، فَحُذِفَتْ لثَقُلَهَا، وَحُرِّكَتْ فِي «لَا قُوا»؛ لِأَنَّ قَبْلَهَا فَتْحَةً^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: إن قيل: لم وُصِلَتْ «خَلَوْا»
بـ«إِلَى»، وَعُزِّفَ أَنْ تُوصَلَ بِالْبَاءِ؟ قيل له: «خَلَوْا» هُنَا بِمَعْنَى: ذَهَبُوا وَانصَرَفُوا، وَمِنْهُ
قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ^(٣):

كَيْفَ تَرَانِي قَالِباً^(٤) مَجْنِي قَدْ قَتَلَ اللَّهُ زِيَاداً عَنِّي^(٥)
لَمَّا أَنْزَلَهُ مَنْزِلَةً: صَرَفَ^(٦).

وَقَالَ قَوْمٌ: «إِلَى» بِمَعْنَى «مَعَ»، وَفِيهِ ضَعْفٌ. وَقَالَ قَوْمٌ: «إِلَى» بِمَعْنَى الْبَاءِ، وَهَذَا
يَأْبَاهُ الْخَلِيلُ وَسَيُؤَيِّدُهُ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى: وَإِذَا خَلَوْا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ، فَ«إِلَى» عَلَى بَابِهَا.
وَالشَّيَاطِينُ جَمْعُ شَيْطَانٍ، عَلَى التَّكْسِيرِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي اشْتِقَاقِهِ وَمَعْنَاهُ فِي
الاستعاذة^(٧).

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالشَّيَاطِينِ هُنَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: هُمُ رُؤَسَاءُ
الْكُفْرِ^(٨). وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُمُ شَيَاطِينُ الْجِنِّ^(٩). وَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هُمُ الْكُفَّانَ.

(١) فِي (م): وَإِنْ.

(٢) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلْنَّحَاسِ ١/ ١٩٠.

(٣) دِيَوَانُهُ ٢/ ٨٨١.

(٤) فِي (د) وَ(ز): قَالِيَاً. اهـ. أَي: هَاجِرَاً، كَنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، فِيمَا ذَكَرَ مُحَقِّقُو الْمُحْتَسَبِ ١/ ٥٢.

(٥) قَوْلُهُ: الْمِجَنُّ: هَوَالِثُ، وَقَالَ الْبَغْدَادِيُّ فِي شَرْحِ شَوَاهِدِ الْمَغْنِيِّ ٨/ ٨٦: قَلْبُ الْمِجَنِّ عِبَارَةٌ عَنْ رَمِيهِ
مِنْ يَدِهِ لِعَدَمِ الْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ.

(٦) قَالَ ابْنُ جَنِّي فِي الْمُحْتَسَبِ ١/ ٥٢: اسْتَعْمَالَ «عَنْ» هَاهُنَا لَمَّا دَخَلَ مِنْ مَعْنَى: قَدْ صَرَفَهُ اللَّهُ عَنِّي، لِأَنَّهُ
إِذَا قَتَلَهُ، فَقَدْ صُرِفَ عَنْهُ.

(٧) ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٨) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ١/ ٣٠٧.

(٩) قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي الْمَحْرُورِ الْوَجِيزِ ١/ ٩٦: وَهَذَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بَعِيدٌ.

ولفظ الشَّيْطَانَةِ الذي معناه: البعد عن الإيمان والخير يَعْمُ جميع مَنْ^(١) ذِكْر^(٢)،
والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ أي: مُكَذَّبُونَ بما نُدْعَى إليه، وقيل:
ساخرون، والهُزء: السخرية واللعب، يقال: هَزَأَ به، واستهزأ، قال الراجز:

قَدْ هَزَأْتُ مِنْي أُمُّ طَيْسَلَةَ قَالَتْ أَرَاهُ مُغْدِمًا لَا مَالَ لَهُ^(٣)
وقيل: أصلُ الاستهزاء: الانتقام، كما قال الآخر:

قَدْ اسْتَهْزَؤُوا مِنْهُمْ بِالْفِي مُدَجِّجٍ سَرَاتُهُمْ وَسَطُ الصَّاحِصِ جُثْمٍ^(٤)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، أي: ينتقمُ منهم ويُعاقِبُهُمْ، وَيَسَخَرُ بِهِمْ،
وَيُجَازِيهِمْ على استهزائهم، فسَمِيَ العقوبةُ باسمِ الذنب. هذا قولُ الجمهور من
العلماء، والعربُ تستعملُ ذلك كثيراً في كلامهم^(٥)، من ذلك قولُ عمرو بنِ كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(٦)
فسَمِيَ انتصاره جَهْلًا، والجهلُ لَا يَفْتَخِرُ به ذو عقل، وإنما قاله لِيَزْدَوِجَ الكلامُ،
فِيكونُ ذلك أخفَّ^(٧) على اللسان من المخالفة بينهما^(٨). وكانت العربُ إذا وضعوا

(١) في (د) و(ز): ما.

(٢) المحرر الوجيز ٩٦/١.

(٣) قائله صخر بن عمير الهذلي، كما في أمالي أبي علي القالي ٢٨٤/٢، ولفظه عنده:
تهزأ مني أخى آل طَيْسَلَةَ قَالَتْ أَرَاهُ مُبْلَطًا لَا شَيْءَ لَهُ
وهو في اللسان (طسل)، وفيه: قالت أَرَاهُ في الوقار والعلّة. وانظر تفسير الطبري ٧٥/٢.

(٤) لم نهتد إلى قائله، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١٥٠/١.

والصاحص: جمع صحصح، وهي الأرض الجرداء المستوية، ذات حصى صغار. اللسان (صحح).

(٥) المحرر الوجيز ٩٧/١.

(٦) هو في معلقته ص ١١٧ بشرح ابن كيسان، وفي شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص ٤٢٦، وشرح
القصائد التسع للنحاس ص ٨٣٤/٢.

(٧) في (م): فيكون أخف.

(٨) الأسماء والصفات للبيهقي ٤٣٩/٢.

لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء، ذكروه بمثل لَفْظِهِ، وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة. قال الله عز وجل: ﴿وَحَرِّزُوا سِنَتَهُ سِنَتَهُ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. والجزاء لا يكون سينة. والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق وجب. ومثله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكْرَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٤]، و﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] و﴿وَإَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، و﴿إِنَّمَا تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، وليس منه سبحانه مكراً، ولا هُزْءً، ولا كَيْدً، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم، وجزاء كيدهم. وكذلك ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿فَيَسْحَرُونَ مِنْهُمْ سِحْرَ اللَّهِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَلَا يَسَامُ حَتَّى تَسَامُوا»^(١). قيل: «حتى» بمعنى الواو، أي: وَتَمَلُّوا. وقيل: المعنى: وَأَنْتُمْ تَمَلُّونَ. وقيل: المعنى: لَا يَقْطَعُ عَنْكُمْ ثَوَابَ أَعْمَالِكُمْ حَتَّى تَقْطَعُوا الْعَمَلَ. وقال قوم: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ بِهِمْ أَعْمَالاً هِيَ فِي تَأْمَلِ الْبَشَرِ هُزْءٌ وَخَذَعٌ وَمَكْرٌ، حسب ما روي: إِنَّ النَّارَ تَجْمُدُ كَمَا تَجْمُدُ الْإِهَالَةُ، فيمشون عليها ويظنونها منجاةً، فتخسف بهم^(٢).

وروى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾: هم منافقوا أهل الكتاب، فذكرهم، وذكر استهزاءهم، وأنهم إذا خلّوا إلى شياطينهم - يعني رؤساءهم في الكفر، على ما تقدّم - قالوا: إنا معكم على دينكم ﴿إِنَّمَا تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بأصحاب محمد ﷺ. ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في الآخرة، يَفْتَحُ لَهُمْ بَابُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ، ثم يقال لهم: تعالوا، فيقبلون يَسْبَحُونَ^(٣) في النار، والمؤمنون على الأرائك - وهي الشرر في الحبال - ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب، سدّ عنهم، فَيَضْحَكُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ، فذلك قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: في الآخرة، وَيَضْحَكُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ حِينَ غُلِقَتْ دُونَهُمُ الْأَبْوَابُ، فذلك

(١) قوله منه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٤١٢٤)، والبخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢)، وقوله منه: «وَلَا يَسَامُ حَتَّى تَسَامُوا» أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٠٩٦)، ومسلم (٧٨٥) من حديثها أيضاً.

(٢) المحرر الوجيز ٩٧/١. والإهالة: هو ما أذيب من الألية والشحم. النهاية في غريب الحديث (أهل).

(٣) في (ز): يسبحون، وفي تفسير أبي الليث والأسماء والصفات: يُسَبِّحُونَ.

قوله تعالى: ﴿قَالِیْمَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ یَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ عَلَى الْآرَائِكِ یَنْظُرُونَ﴾ إلى أهل النار ﴿هَلْ تُؤْتَبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا یَقْعَلُونَ ﴿٣٧﴾﴾^(١) [المطففين: ٣٤ - ٣٦].

وقال قوم: الخِدَاعُ من الله والاستهزاء: هو استدارجهم بِذُرُورِ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ عليهم، فالله سبحانه وتعالى يُظْهِرُ لَهُمْ من الإحسان في الدنيا خِلَافَ مَا يَغِيبُ عَنْهُمْ وَيَسْتُرُ عَنْهُمْ من عذاب الآخرة^(٢)، فيظنون أنه راضٍ عنهم، وهو تعالى قد حَتَمَ عَذَابَهُمْ، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكرٌ وخداعٌ^(٣).

ودلَّ على هذا التأويل قوله ﷺ: «إذا رأيتم الله عزَّ وجلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا^(٤) ذَلِكَ مِنْهُ اسْتَدَارَجٌ»، ثم نَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

وقال بعضُ العلماء في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ [القلم: ٤٤]:
كَلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا، أَحْدِثْتُ^(٦) لَهُمْ نِعْمَةً^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَسُدُّهُمْ﴾ أي: يُطِيلُ لَهُمُ الْمَدَّةَ، وَيُمَهِّلُهُمْ، وَيُمْلِي لَهُمْ، كما قال:
﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وأصله: الزيادة.

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠١٨). وأورده مختصراً أبو الليث في تفسيره ٩٧/١.

(٢) في (ظ)، والأسماء والصفات: ويستتر من عذاب الآخرة.

(٣) الأسماء والصفات ٢/٤٤٠، والمحزر الوجيز ٩٧/١.

(٤) في (د): فَإِنَّ.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١)، والطبري في تفسيره ٩/٢٤٨، والطبراني في الكبير ١٧/٩١٣، والأوسط (٩٢٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٠)، والأسماء والصفات (١٠٢١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وسيأتي عند المصنف في تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام باختلاف في بعض ألفاظه.

(٦) في (م): أَحْدَث.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢٤).

قال يونسُ بْنُ حَبِيبٍ^(١) : يقال : مَدَّ لَهُمْ فِي الشَّرِّ ، وَأَمَدَّ فِي الْخَيْرِ^(٢) ، قال الله تعالى : ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَأَنْبِيَاءٍ﴾ [الإسراء : ٦] ، وقال : ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ وَمَا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور : ٢٢] .

وحكى عن الأخفش : مددتُ له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته^(٣) . وعن الفراء واللحياني : مددت ، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مَدَّ النَّهْرُ^(٤) ، وفي التنزيل : ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان : ٢٧] ، وأمددت ، فيما كانت زيادته من غيره ، كقولك : أمددتُ الجيشَ بَمَدَدٍ ، ومنه : ﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران : ١٢٥] . وأمدَّ الجُرْحُ ، لأن المِدَّةَ^(٥) من غيره ، أي : صارت فيه مِدَّةً .

قوله تعالى : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ : كفرهم وضلالهم . وأصلُ الطغيان مجاوزةُ الحدِّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا آلَآءُ﴾ [الحاقة : ١١] أي : ارتفع ، وعلا ، وتجاوزَ المقدارَ الذي قَدَّرْتَهُ الْخُرَّانُ . وقوله في فرعون : ﴿إِنَّهُ طَفَى﴾ [طه : ٢٤] أي : أسرفَ في الدعوى حيث قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات : ٢٤] . والمعنى في الآية : يمدُّهم^(٦) بطولِ العمر حتى يزدوا في الطغيان ، فيزيدهم في عذابهم .

قوله تعالى : ﴿يَعْمَهُونَ﴾ : يَعْمُونَ^(٧) . وقال مجاهد : أي : يترددون متحيرين في الكفر^(٨) .

وحكى أهلُ اللغة : عَمَّ الرجلُ يَغْمُهُ غَمُوهَاً وَعَمَّهَانَاً^(٩) ، فهو عَمِيٌّ وَعَامِيٌّ : إذا

(١) أبو عبد الرحمن ، الضبي مولا هم ، البصري ، إمام النحو ، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ، وحماد بن سلمة ، وعنه : الكسائي وسيبويه والفراء ، توفي سنة (١٨٣هـ) . السير ٨ / ١٩١ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢٠٦ / ١ ، والنكت والعيون ٧٨ / ١ ، والمحرم الوجيز ٩٧ / ١ .

(٣) معاني القرآن ٢٠٦ / ١ .

(٤) في اللسان (مدد) : مَدَّ النَّهْرُ النَّهْرَ : إذا جَرَى فيه . قال اللحياني : يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثُر : مَدَّهُ يَمُدُّهُ مَدًّا .

(٥) أي : القبح .

(٦) في (د) : يمددهم .

(٧) لم ترد لفظة «يعمون» في (د) ، ووقع في (ز) بدلاً منها : يعمّهون .

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٢٤ / ١ .

(٩) في (م) : عَمَّهَا ، بدل : وعَمَّهَانَاً ، وكلاهما صحيح .

حَارَ، ويقال: رجل عامٍ وعَمَةٍ: حائرٌ متردّد، وجمعه عُمَةٌ. وذهبت إبلُه العُمَهي: إذا لم يدِر أين ذهبت. والعَمَى في العين، والعَمَةُ في القلب، وفي التنزيل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتَحَرُّثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾، قال سيبويه: ضُمَّت الواو في «اشترُوا» فَرَقًا بينها وبين الواو الأصلية^(١)، نحو: ﴿وَأَلَّوْا اسْتَقْنَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦]. وقال ابنُ كَيْسَانَ: الضمةُ في الواو أخفُّ من غيرها، لأنها من جنسها. وقال الزَّجَّاجُ^(٢): حُرِّكَت بالضم، كما فُعِل في «نحن».

وقرأ ابنُ أبي إِسْحَاقَ ويحيى بنُ يَعْمَرٍ بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين^(٣). وروى أبو زيد الأنصاريُّ، عن قَعْنَبِ أَبِي السَّمَّالِ الْعَدَوِيِّ، أنه قرأ بفتح الواو^(٤)، لخفة الفتحة، وأن قبلها مفتوحاً^(٥). وأجاز الكِسَائِيُّ همز الواو وضَمَّها كأدور^(٦).

و«اشترُوا»: من الشراء. والشراء هنا مُسْتَعَارٌ، والمعنى: استحبُّوا الكُفْرَ على الإيمان، كما قال: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فعبر عنه بالشراء؛ لأنَّ الشراء إنما يكون فيما يُحِبُّه مُشْتَرِيه. فأما أن يكونَ معنى الشراءِ المعاوضة، فلا؛ لأنَّ المنافقين لم يكونوا مؤمنين، فيبيعوا^(٧) إيمانهم^(٨).

(١) الكتاب ١٥٥/٤.

(٢) في معاني القرآن ٨٩/١. وقد سلف ص ٣٠٨.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ٥٤/١.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ٥٤/١، قال الزجاج في معاني القرآن ٨٩/١: وهو شاذ جداً.

(٥) في النسخ الخطية: وأن ما قبلها مفتوحاً، وفي (م): وإن كان ما قبلها مفتوحاً، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١٩٢/١ (والكلام منه).

(٦) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢. قال النحاس: وهذا غلط، لأن همزة الواو إذا انضمت؛ إنما يجوز فيها إذا انضمت لغیر علة. وينحوه قال الزجاج في معاني القرآن ٩١/١، وابن جني في المحتسب ٥٥/١.

(٧) في (ظ): فيضيعوا.

(٨) النكت والعيون ٧٩/١.

وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى^(١) . ومعناه : استبدلوا واختاروا الكفرَ على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعاً ؛ لأنَّ الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ، والعربُ تستعمل ذلك في كلِّ من استبدل شيئاً بشيء . قال أبو ذؤيب^(٢) :

فإن تَزْعُمِينِي كُنْتُ أَجْهَلُ فِيكُمْ فإني شَرَيْتُ الْجِلْمَ بِعَدْلِكَ بِالْجَهْلِ^(٣)

وأصلُ الضلالة : الحيرة . ويُسمَّى النسيانُ ضلالةً ، لما فيه من الحيرة ، قال جلَّ وعزَّ : ﴿فَلَنُهَا إِذَا وَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء : ٢٠] أي : الناسين .

وُسمِيَ الهلاكُ ضلالةً ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿وَقَالُوا لَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) [السجدة : ١٠] .

قوله تعالى : ﴿فَمَا رَیَحَتْ يَحْتَرِثُهُمْ﴾ : أسندَ تعالى الربحَ إلى التجارة على عادة العرب في قولهم : ربحَ بئعك ، وخسرتَ صفقتك ، وقولهم : ليلٌ قائمٌ ، ونهارٌ صائمٌ^(٥) ، والمعنى : ربحتَ وخسرتَ في بيعك ، وقُمتَ في ليلك ، وصُمتَ في نهارك ، أي : فما ربحوا في تجارتهم . وقال الشاعر :

نهارك هائمٌ وليلُك نائمٌ كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ^(٦)

ابن كيسان : ويجوزُ : تجارة وتجارث ، وضلالة وضلائل^(٧) .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا مُتَعَذِّبِينَ﴾ في اشترائهم^(٨) الضلالة . وقيل : في سابق

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٢٥/١ .

(٢) خويلد بن خالد بن محرث ، الهذلي ، شاعر جاهلي إسلامي ، لم ير النبي ﷺ ، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وقيل : مات في غزوة إفريقية بمصر متصرفاً بالفتح مع ابن الزبير . الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢٣٢/١١ .

(٣) البيت في شرح أشعار الهذليين للسكري ٩٠/١ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٠٠/١ .

(٥) في (د) : ليله قائم ، ونهاره صائم .

(٦) لم نجده بهذا اللفظ ، وقد أخرج أبو نعيم في الحلية ٣١٩/٥ - ٣٢٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان

(١٠٧٩٥) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله في هذا المعنى أبياتاً كان ينشدها ، وسيذكر المصنف منها

أربعة عند تفسير الآية (٢٠٧) من سورة الشعراء .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١٩٣/١ .

(٨) في (د) و(ز) : شرائهم .

علم الله . والاهتداء ضد الضلال^(١) ، وقد تقدّم^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فـ «مَثَلُهُمْ» رُفِعَ بالابتداء، والخبرُ في الكاف، فهي اسم، كما هي في قول الأعشى:

أَتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذَوِي شَطِيطٍ كَالطَّلْعِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَيْتُ وَالْفُتْلُ^(٣)
وقول امرئ القيس^(٤):

وَرُخْنًا بِكَابِنِ الْمَاءِ يُجْنَبُ وَسَطْنَا تَصَوَّبُ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي^(٥)
أراد: مثل الطلع، وبمثل ابن الماء.

ويجوز أن يكون الخبرُ محذوفاً، تقديره: مَثَلُهُمْ مُسْتَقَرٌّ كَمَثَلِ، فالكافُ على هذا حرف. والمَثَلُ والمِثْلُ والمِثْلُ واحدٌ، ومعناه: الشُّبُهَةُ^(٦). والمتماثلان: المتشابهان. هكذا قال أهل اللغة^(٧).

قوله تعالى: ﴿الَّذِي﴾ يقع للواحد والجمع، قال ابنُ السَّجَرِيِّ هبةُ الله بنُ علي^(٨): ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظ الواحد، كما قال^(٩):

وإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ

(١) في النسخ: الرشاد، وهو خطأ.

(٢) ص ٢٤٧.

(٣) ديوانه ص ١١٣ وفيه: هل تنتهون ولا ينهى ذوي شطط. وينظر المحرر الوجيز ٩٩/١.

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، من فحول شعراء الجاهلية، ومن الطبقة الأولى، ويقال له: الملك الضَّلِيل. الشعر والشعراء ١٠٥/١.

(٥) ديوانه ص ١٧٦، وقد سلف شطره الأول ص ١٥٤.

(٦) في (م): الشبيه.

(٧) المحرر الوجيز ٩٨/١ - ٩٩.

(٨) في أماليه ٥٧/٣، وهبة الله بن علي الشجري هو أبو السعادات الهاشمي العلوي الحسني البغدادي، شيخ النحاة، توفي سنة (٥٤٢هـ). السير ١٩٤/٢٠.

(٩) هو الأشهب بن رُمَيْلة، والبيت في الكتاب ١٨٧/١، والمنصف ٦٧/١ وشرح المفصل ١٥٥/٣.

وقيل في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]: إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي﴾ قيل: المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فحمل أول الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. فأما قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، فإنَّ «الذي» هاهنا وصفٌ لمصدر محذوف، تقديره: وحُضِّتُمْ كالخوض^(١) الذي خاضوا.

وقيل: إنما وَحَدَ «الذي» و«استوقد»؛ لأنَّ المستوقدَ كان واحداً من جماعة تولى الإيقادَ لهم، فلما ذهبَ الضوء، رَجَعَ عليهم جميعاً، فقال: «بنورهم».

واستوقد بمعنى: أوقَدَ، مثل: استجابَ، بمعنى: أجاب، فالسين والتاء زائدتان. قاله الأخفش^(٢)، ومنه قولُ الشاعر^(٣):

وداعِ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى فلم يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ
أَي: يُجِبُّهُ.

واختلف النُّحَاة في جواب «لَمَّا»، وفي عَوْدِ الضمير من «نورهم»، ف قيل: جوابُ «لَمَّا» محذوفٌ، وهو: طَفِئَتْ، والضميرُ في «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبارُ بهذا عن حالِ تكون^(٤) في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَضْرِبَ يَتِيمَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ﴾^(٥) [الحديد: ١٣].

وقيل: جوابُه «ذهب»، والضميرُ في «نورهم» عائِدٌ على «الذي». وعلى هذا القول يتمُّ تمثيلُ المنافقِ بالمُستوقد؛ لأنَّ بقاءَ المُستوقدِ في ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ كبقاءِ المنافقِ في حَيْرَتِهِ وَتَرَدُّدِهِ.

والمعنى المرادُ بالآية: ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين، وذلك أَنَّ ما^(٦) يُظْهِرُونَهُ مِنْ

(١) في (د): كخوض.

(٢) معاني القرآن ٢٠٨/١.

(٣) هو كعب بن سعد العَنَوِي، والبيت في مجاز القرآن ٦٧/١، ومعاني القرآن للأخفش ٢٠٨/١، والأصمعيات ص ٩٦.

(٤) في (د): والإخبار في هذا عن حال يكون.

(٥) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١٠٠/١: وهذا القول غير قوي.

(٦) في (د): بما.

الإيمان الذي تَبَيَّنَ لهم به أحكامُ المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة مَنْ أَوْقَدَ ناراً في ليلةٍ مظلمةٍ، فاستضاء بها، ورأى ما ينبغي أن يتَّقِيَه، وَأَمِنَ مِنْهُ، فإذا طَفِئَتْ عنه أو ذَهَبَتْ، وصلَ إليه الأذى، وبَقِيَ متَحَيِّراً، فكذلك المنافقون؛ لَمَّا آمَنُوا اغْتَرَّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذابِ الأليم - كما أخبر التنزيل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] - ويذهب نورُهم، ولهذا يقولون: ﴿أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وقيل: إنَّ إقبالَ المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار، وانصرافهم عن^(١) مَوَدَّتِهِمْ وارتِكَاسِهِمْ عندهم كذها بها. وقيل غيرُ هذا^(٢).
وقوله تعالى: ﴿نَارًا﴾: النارُ مؤنثةٌ، وهي من النور، وهو الضياء^(٣) والإشراق. وهي من الواو؛ لأنك تقولُ في التصغير: نُورِيَّةٌ، وفي الجمع: نُورٌ وأُنُورٌ^(٤) ونيران، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قَبْلَها^(٥).

وضاءتٌ وأضاءتْ لغتان، يقال: ضاء القمرُ يَضُوءُ ضَوْءاً، وأضاء يضيء، ويكون لازماً ومتعدياً. وقرأ محمدُ بْنُ السَّمِيعِ: ضاءتْ، بغير ألف^(٦)، والعامَّةُ بالألف، قال الشاعر^(٧):

أضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجى الليلِ حتى نَظَّمَ الجَزَعُ ثاقِبُهُ
﴿مَا حَوْلَهُ﴾: «ما» زائدةٌ مؤكِّدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و«حَوْلَهُ» ظرفُ مكان،

(١) في النسخ: إلى.

(٢) المحرر الوجيز ١/١٠٠.

(٣) في (م): أيضاً.

(٤) في (م): أنوار.

(٥) الصحاح: (نور).

(٦) وذكرها أبو حيان في البحر ١/٧٩.

(٧) أبو الطَّمَحان القَيْنِي، والبيت في الكامل ١/٦٨ و ٢/١٠٣٤، وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/١٥٩٨، وأمالِي المرتضى ١/٢٥٧، وخزانة الأدب ٨/٩٥ - ٩٦. ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/٧١١ للقيط بن زرارَة.

والهاء في موضع خفض بإضافته إليها. و﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء، و﴿وَرَكَّهْمُ﴾ أي: أبقاهم.

﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمَة، وقرأ الأعمش: «ظُلُمَات» بإسكان اللام على الأصل^(١). وَمَنْ قرأها بالضم، فللفرق بين الاسم والنعت. وقرأ أشهبُ العُقيلي: «ظُلُمَات» بفتح اللام^(٢). قال البصريون: أبدلَ من الضمة فتحةً لأنها أخفُّ، وقال الكسائي: «ظُلُمَات» جمعُ الجمع، جمع ظَلَمَ. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل في موضع الحال^(٣)، كأنه قال: غير مبصرين، فلا يجوز الوقفُ على هذا على «ظلمات».

قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرِجِعُونَ﴾ ﴿٧﴾

قوله تعالى ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي﴾: «صُمُّ»، أي: هم صُمٌّ، فهو خبرُ ابتداءٍ مُضْمِرٍ. وفي قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة: صُمًّا بُكْمًا عُمِيًّا^(٤)، فيجوز النصبُ على الذمِّ، كما قال تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُوَفُّوهُمُ﴾ [الأحزاب: ٦١]، وكما قال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، وكما قال الشاعر:

سَقَوْنِي الْخَمْرَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي عُدَاةَ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ^(٥)
فَنَصَبَ «عُدَاةَ اللَّهِ» على الذمِّ.

فالوقفُ على «يُبْصِرُونَ» على هذا المذهبِ صوابٌ حَسَنٌ.

ويجوزُ أن ينصبَ صُمًّا بـ «تَرَكَهْمُ»، كأنه قال: وتركهم صُمًّا بُكْمًا عُمِيًّا، فعلى هذا المذهبِ لا يحسنُ الوقفُ على «يُبْصِرُونَ».

وَالصَّمَمُ في كلام العرب: الانسدادُ، يقال: قنأة صمَّاء: إذا لم تكن مُجَوِّفَةً،

(١) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ٥٦/١، وأبو حيان في البحر ٨٠/١، ونسبها للحسن وأبي السمال.

(٢) ذكرها ابن جني في المحتسب ٥٦/١ دون نسبة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٩٣/١.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٢ - ٣، وإعراب القرآن للنحاس ١٩٣/١ - ١٩٤، والمحزر الوجيز ١٠١/١.

(٥) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص ٥٨، وفيه: «النَّسَاء»، بدل: «الخمير»، وهو شراب بمعنى الخمر في إزالته للعقل.

وَصَمَمْتُ الْقَارُورَةَ: إِذَا سَدَدْتُهَا، فَلَأَصُمُّ: مَنِ انْسَدَّتْ خُرُوقُ مَسَامِعِهِ^(١).

وَالْأَبْكُمُ: الَّذِي لَا يَنْطِقُ وَلَا يَفْهَمُ، فَإِذَا فَهِمَ، فَهُوَ الْأَخْرَسُ. وَقِيلَ: الْأَخْرَسُ وَالْأَبْكُمُ وَاحِدٌ. وَيَقَالُ: رَجُلٌ أَبْكُمٌ وَبَكِيمٌ، أَي: أَخْرَسُ بَيْنَ الْخَرَسِ وَالْبَكَمِ، قَالَ:

قَلَيْتَ لِسَانِي كَانَ يَضْفَيْنِ مِنْهُمَا بَكِيمٌ وَنَصَفْتُ عِنْدَ مَجْرَى الْكَوَاكِبِ^(٢)
وَالْعَمَى: ذَهَابُ الْبَصَرِ، وَقَدْ عَمِيَ، فَهُوَ أَعْمَى، وَقَوْمٌ عُمَيٌّ، وَأَعْمَاهُ اللَّهُ. وَتَعَامَى
الرَّجُلُ: أَرَى ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ. وَعَمِيَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ إِذَا التَّبَسَّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَمِيَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾^(٣) [القصص: ٦٦].

وليس الغرضُ مما ذُكِّرنا^(٤) نفْيُ الإدْرَاكِاتِ عَنْ حَوَاسِّهِمْ جَمْلَةً، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ
نَفْيُهَا مِنْ جِهَةٍ مَا، كَمَا^(٥) تَقُولُ: فَلَانْ أَصُمُّ عَنِ الْخَنَا. وَلَقَدْ أَحْسَنَ الشَّاعِرُ حَيْثُ قَالَ:
أَصُمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ^(٦)

وَقَالَ آخَرُ:

وَعُورَاءُ الْكَلَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ^(٧)
وَقَالَ الدَّارِمِيُّ:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْجَذْرُ^(٨)
وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي وَصَايَةِ^(٩) لِرَجُلٍ يُكْثِرُ الدَّخُولَ عَلَى الْمُلُوكِ:

(١) النكت والعيون ٨١/١.

(٢) الصحاح (بكم).

(٣) الصحاح (عمي).

(٤) في (م): ذُكِّرناه.

(٥) ليست في (م).

(٦) جهمرة الأمثال ١٤٠/١، ومجمع الأمثال ٤٠٢/١.

(٧) لم نقف له على مصدر.

(٨) الشعر والشعراء ٥٤٥/١، وأمالِي المرتضى ٤٤/١، ومعجم الأدباء ١٣٢/١١، وفيها: حَتَّى يُوَارِي

جَارَتِي الْجَذْرَ، وَفِي مَعْجَمِ الْأَدَبَاءِ: أَغْضَى بَدَلَ أَعْمَى. وَالدَّارِمِيُّ: هُوَ رَبِيعَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَيَلْقَبُ
بِالْمُسْكِينِ، وَدَارِمٌ بَطْنٌ مِنْ تَمِيمٍ، كَانَ شَاعِرًا مَجِيدًا سَيِّدًا شَرِيفًا، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَرَزْدَقِ مَهَابَةٌ ثُمَّ
تَكَافَأَا، تَوَفَّى سَنَةَ (٨٩هـ). مَعْجَمُ الْأَدَبَاءِ ١٢٦/١١.

(٩) فِي (د) وَ(ظ): وَصَايَةِ.

ادْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى واخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أُخْرَسٌ^(١)
وقال قتادة: «صَمٌّ» عن استماع الحق، «بِكُمْ» عن التكلم به، «عُمِّيٌّ» عن الإبصار له^(٢).

قلت: وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي ﷺ وُلَاةَ آخِرِ الزَّمان في حديث جبريل: «وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مَلُوكَ الْأَرْضِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا»^(٣). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: إلى الحق، لسابق علم الله تعالى فيهم. يقال: رَجَعَ بنفسه رُجوعاً، وَرَجَعَهُ غَيْرُهُ، وَهُذِّلَ تقول: أَرْجَعَهُ غَيْرُهُ. وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبا: ٣١]، أي: يتلاومون فيما بينهم^(٤)، حسب ما بيَّنه التنزيل في سورة «سبا».

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَرَقٌّ يَمْجَعُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ مِنَ النَّارِ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال الطبري^(٥): «أو» بمعنى الواو، وقاله الفراء، وأنشد:

وقد زَعَمْتُ لَيْلَى بَأَنِّي فَاجِرٌ لِنَفْسِي ثَقَاها أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُها^(٦)
وقال آخر^(٧):

نَالَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ
أي: وكانت.

(١) لم نهتد إلى قائله.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٤٨/١.

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الصحاح (رجع).

(٥) في تفسيره ٣٥٤/١-٣٥٥.

(٦) البيت لتوبة بن الحُمَيْرِ الخفاجي، وهو في أمالي أبي علي القالي ١/١٣١، وأمالي المرتضى ٥٧/٢،

وأمالي ابن الشجري ٧٤/٣.

(٧) هو جرير، والبيت في ديوانه ٤١٦/١، والخزانة ٦٩/١١.

وقيل: «أو» للتخيير، أي: مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين، والمعنى: أو كأصحابِ صَيْبٍ. والصَّيْبُ: المطر، واشتقاقه من: صَابَ يَصُوبُ: إذا نَزَلَ، قال عَلْقَمَةُ^(١):

فلا تَعْدِلِي بيني وبين مُعَمَّرٍ سَقَّتْكِ رَوَايا المُرْنِ حيثُ تَصُوبُ^(٢)
وأصله: صَيُوبٌ، اجتمعت الياء والواو، وسُبِقَتْ إحداهما بالسكون، فَقُلِبَتْ الواو ياءً، وأدغمت، كما فعلوا في مَيْتٍ وسَيْدٍ، وهَيْنٍ وَلَيْنٍ. وقال بعض الكوفيين: أصله: صَوِيبٌ، على مثال فَعِيل^(٣).

قال النحاس^(٤): لو كان كما قالوا لَمَا جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام «طويل». وجمعُ صَيْبٍ: صَيَايِبُ.

والتقديرُ في العربية: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً، أو كصَيْبٍ^(٥).

قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: السماءُ تُذَكَّرُ وتُؤنَّثُ، وتُجمعُ على أَسْمِيَةٍ وسماواتٍ وسُمَيٍّ على فُعُولٍ، قال العجاج:

تَلُفُّهُ الرِّيحُ والسُّمَيُّ^(٦)

والسَّمَاءُ: كُلُّ ما عَلَاكَ فَأَظْلَكَ، ومنه قيل لسقف البيت: سماء.

والسَّمَاءُ: المطر، سُمِّيَ به لتزولِهِ من السماء. قال حسانُ بنُ ثابت:

دِيَارٌ من بني الحَسْحَاسِ قَفَرٌ تُعَفِّيهَا الرِّوَامِسُ والسَّمَاءُ^(٧)

(١) ابن عَنَدَةَ الملقب بالفحل، ذكره ابن سَلَامٍ ١٣٩/١ في الطبقة الرابعة من طبقات فحول الجاهلية.

(٢) ديوانه ص ٣٤، قوله: مُعَمَّرٌ، قال في اللسان (غمر): صبي مُعَمَّرٌ: لم يجرب الأمور والمُعَمَّرُ من الرجال إذا استجعله الناس.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٠١.

(٤) إعراب القرآن ١/١٩٤.

(٥) في (م): أو كمثل صيب.

(٦) كذا نسبه الجوهري في الصحاح (سما)، وتعقبه ابن منظور في اللسان، ونسبه لرؤية وروايته:

تَلُفُّهُ الأرواحُ والسُّمَيُّ في دَفْنٍ أرطاةٍ لها حَزَنِي

(٧) ديوانه ص ٧. والروامس: الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار. الصحاح (رسم).

وقال آخر^(١) :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا
وُسُمِّي الطِّينُ وَالْكَلَأُ أَيْضاً سَمَاءً، يقال: مازِلْنَا نَطَأُ السَّمَاءَ حَتَّى أَتَيْنَاكُمْ.
يريدون: الكَلَأُ والطِّين.

ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء، لعلوه، قال:

وَأَحْمَرَ كَالذَّبَّاحِ أَمَّا سَمَاؤُهُ فَرِيًّا وَأَمَّا أَرْضُهُ فَمُحُولُ^(٢)
وَالسَّمَاءُ: مَاعِلًا، وَالْأَرْضُ: مَا سَفَلَ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ^(٣).

قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ابتداءً وخبرٌ ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ معطوفٌ عليه. وقال:
«ظُلُمَاتٌ» بالجمع إشارة إلى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ الدَّجَنِ، وَهُوَ الْغَيْمُ، وَمِنْ حَيْثُ
تَتْرَاكِبُ^(٤)، وَتَتَزَايِدُ جُمِعَتْ^(٥). وَقَدْ مَضَى مَا فِيهِ مِنَ اللُّغَاتِ^(٦)، فَلَا مَعْنَى لِلْإِعَادَةِ،
وَكَذَا كُلُّ مَا تَقَدَّمَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

واختلف العلماء في الرَّعْدِ، ففي الترمذي: عن ابن عباس قال: سَأَلَتِ الْيَهُودُ
النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِيَدِهِ^(٧) مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ، يَسُوقُ
بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ». فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «رَجْرُهُ
بِالسَّحَابِ إِذَا رَجَرَهُ حَتَّى يَتَهَيَّأَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ^(٨)». قَالُوا: صَدَقْتَ. الْحَدِيثُ بَطُولُهُ^(٩).

(١) هو معاوية بن مالك، والبيت في الصحاح واللسان (سما)، وخزانة الأدب ١٥٦/٤.

(٢) هو في أدب الكاتب ص ١١٨، والصحاح (سما)، وجمهرة الأمثال ٢١٤/١، ونسبه ابن منظور في
«اللسان» لطفي الغنوي.

(٣) ص ٣٠٧.

(٤) في (د) تتراكم.

(٥) المحرر الوجيز ١/١٠١.

(٦) ص ٣٢٣.

(٧) في (م): معه.

(٨) في (د) و(م): أمره الله.

(٩) سنن الترمذي (٣١١٧)، وفي إسناده بُكَيْرُ بْنُ شَهَابٍ الْكُوفِيُّ، وَهُوَ مَقْبُولٌ (كما قال الحافظ في
التقريب) يعني حيث يُتَابَعُ، وَقَدْ تَفَرَّدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِذِكْرِ الرَّعْدِ بِأَنَّهُ مَلَكٌ، وَكَأَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ أَخْبَارِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ.

وعلى هذا التفسير أكثر العلماء. فالرعدُ: اسمُ الصوتِ المسموعِ، وقاله عليُّ رضي الله عنه^(١)، وهو المعلومُ في لغة العرب، وقد قال لبيدٌ في جاهليته:
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْفَارِسِ يَوْمَ الْكُرَيْهَةِ النَّجْدِ^(٢)
وروي عن ابن عباس أنه قال: الرعدُ ريحٌ تختنقُ بين السحابِ، فتصوتُ ذلك الصوتَ^(٣).

واختلفوا في البرق، فروي عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم: البرقُ مخرأقٌ حديدٌ بيد المَلَكِ يسوقُ به السحابَ^(٤).

قلت: وهو الظاهرُ من حديثِ الترمذي.

وعن ابن عباس أيضاً: هو سوطٌ من نُورٍ بيد الملك يزجرُ به السحابَ^(٥). وعنه أيضاً: البرقُ ملكٌ يترأى^(٦).

وقالت الفلاسفة: الرعدُ: صوتُ اصطكاكِ أجرامِ السَّحابِ، والبرقُ: ما يتقدحُ من اصطكاكِها، وهذا مردودٌ لا يصحُّ به نقلٌ^(٧)، والله أعلم.

ويقال: أصلُ الرَّعْدِ من الحركة. ومنه الرَّعْدِيدُ للجبان. وارتعدَ: اضطربَ، ومنه الحديث: «فجيء بهما ترعدُ قرأئُهما». الحديث. أخرجه أبو داود^(٨).

والبرقُ: أصله من البريق والضوء، ومنه البراقُ: دابةٌ ركبها رسولُ الله ﷺ ليلة

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/١٠٢.

(٢) ديوانه ص ١٥٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/٣٦١.

(٤) أخرج خبر علي وابن عباس رضي الله عنهم الطبري في تفسيره ١/٣٦٣.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/٣٦٢-٣٦٣، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/١٠٢، وعندهما: يُزجي، بدل: يزجر.

(٦) المحرر الوجيز ١/١٠٢.

(٧) وكذلك ما ذكره المصنّف من آثار عن الرعد والبرق (وأوردها أكثر المفسرين) لم تصح، وإن الرعد والبرق من آيات الله التي تدبّ الشارع إلى النظر فيها، وقد ثبت علمياً أن الرعد هو الصوت الناتج عن تفريغ الشحنات الكهربائية المختلفة التي يحملها السحاب لدى تصادمها، وأن البرق هو الضوء الناتج عن هذا التفريغ.

(٨) برقم (٥٧٥) من حديث يزيد بن الأسود رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (١٧٤٧٥).

أُسْرِيَ بِهِ، وَرَكَّبَهَا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَبْلَهُ.

وَرَعَدَتِ السَّمَاءُ مِنَ الرَّعْدِ، وَبَرَقَتْ مِنَ الْبَرْقِ. وَرَعَدَتِ الْمَرْأَةُ وَبَرَقَتْ: تَحَسَّنَتْ وَتَزَيَّنَتْ. وَرَعَدَ الرَّجُلُ وَبَرَقَ: تَهَدَّدَ وَأَوْعَدَ. قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ^(١) :

يَا جَلَّ مَا بَعُدَتْ عَلَيْكَ بِلَادُنَا وَطِلَابُنَا فَاِبْرُقْ بِأَرْضِكَ وَارْعُدِ^(٢)
وَأَرْعَدِ الْقَوْمَ وَأَبْرُقُوا: أَصَابَهُمْ رَعْدٌ وَبَرَقَ. وَحَكَى أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَبُو عَمْرٍو: أَرَعَدَتِ
السَّمَاءُ وَأَبْرَقَتْ، وَأَرْعَدَ الرَّجُلُ وَأَبْرَقَ: إِذَا تَهَدَّدَ وَأَوْعَدَ، وَأَنْكَرَهُ الْأَصْمَعِيُّ. وَاحْتِجَّ
عَلَيْهِ بِقَوْلِ الْكُمَيْتِ^(٣) :

أَبْرُقْ وَأَرْعُدْ يَا بَرِّزِي ————— لِمَا عَمِدْتُ لِي بِضَائِرِ
فَقَالَ: لَيْسَ الْكُمَيْتُ بِحُجَّةٍ^(٤).

فَائِدَةٌ: رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ^(٥) قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي سَفَرَةٍ بَيْنَ الْمَدِينَةِ
وَالشَّامِ، وَمَعَنَا كَعْبُ الْأَحْبَارِ، قَالَ: فَأَصَابَتْنَا رِيحٌ، وَأَصَابَنَا رَعْدٌ وَمَطَرٌ شَدِيدٌ وَبَرْدٌ،
وَفَرِقَ النَّاسُ. قَالَ: فَقَالَ لِي كَعْبٌ: إِنَّهُ مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الرَّعْدَ: سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ
الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، عُوفِيَ مِمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ السَّحَابِ وَالْبَرْدِ
وَالصَّوَاعِقِ. قَالَ: فَقُلْتُهَا أَنَا وَكَعْبٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا وَاجْتَمَعَ النَّاسُ قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ، كَأَنَا كُنَّا فِي غَيْرِ مَا كَانَ فِيهِ النَّاسُ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَ
كَعْبٍ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَفَلَا قُلْتُمْ لَنَا فَنَقُولَ كَمَا قُلْتُمْ؟ فِي رِوَايَةٍ: فَإِذَا بَرَدَةٌ قَدْ
أَصَابَتْ أَنْفَ عُمَرَ، فَأَثَرَتْ بِهِ^(٦). وَتَأْتِي هَذِهِ الرِّوَايَةُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ^(٧) إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

(١) عمرو بن أحمر بن العرم، أبو الخطاب، الباهلي، أدرك الجاهلية والإسلام، الإصابة ٢٧٥/٧.

(٢) البيت في إصلاح المنطق ص ٢١٦، وأدب الكاتب ص ٣٧٤، وشرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري ص ٥٢٣، والشرط الثاني عندهم: فابرق بأرضك ما بدا لك وارعد.

قوله: ياجل، يعني ما أجل، قاله في اللسان (جلل).

(٣) ابن زيد، الأسدي، الكوفي، توفي سنة (٢١٦هـ). السير ٣٨٨/٥، والبيت في ديوانه ١/١٩٠.

(٤) الصحاح (رعد) و(برق).

(٥) في (د): روي عن ابن عباس.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٨٨).

(٧) عند تفسير الآية (١٣) منها.

ذكر الروايَيْن أبو بكر أحمد بنُ عليّ بن ثابت الخطيب في «روايات»^(١) الصحابة عن التابعين»^(٢) رحمة الله عليهم أجمعين.

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تُهلِكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْوَعًا فِيْٓ أَذَانِهِمْ﴾ جعلهم أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام، وذلك عندهم كفر والكفر موت.

وفي واحد الأصابع خمس لغات: إصْبَع: بكسر الهمزة وفتح الباء، وأصْبَعَ: بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعاً، وضَمُّهما جميعاً، وبكسرهما جميعاً، وهي مؤنثة^(٤). وكذلك الأذن، وتُخَفَّف وتُثَقِّل وتُصَغَّر، فيقال: أذِنَتْ. ولو سَمَّيتُ بها رجلاً ثم صَغَّرْتَهُ قلت: أذِن، فلم تَوْنَتْ؛ لزوال التانيث عنه بالنقل إلى المذكر. فأما قولهم: «أذِنَتْ» في الاسم العلم، فإنما سُمِّيَ به مصغراً، والجمع آذان. وتقول: أذِنْتُهُ: إذا ضربت أذنه. ورجل أذُن: إذا كان يسمع مقال^(٥) كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع. وأذاني: عظيم الأذنين. ونعجة أذناء، وكَبَشُ أذن. وأذنت النعل وغيرها تأذينا: إذا جعلت لها أذناً. وأذنت الصبي: عَرَكْتُ أذنه^(٦).

قوله تعالى: ﴿مِنْ الصَّوَاعِقِ﴾ أي: من أجل الصَّوَاعِق. والصَّوَاعِق: جمع صاعقة. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا اشتدَّ غضبُ الرعد - الذي هو المَلَك - طار النار من فيه، وهي الصَّوَاعِق. وكذا قال الخليل؛ قال: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه.

(١) في (د): رواية.

(٢) ذكره الذهبي في السير ٢٩٢/١٨، وسماء: رواية الصحابة عن تابعي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥٧٦٣)، والترمذي (٣٤٥٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٨). قال

الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٤.

(٥) في (م): كلام.

(٦) الصحاح (أذن).

وقال أبو زيد: الصَّاعِقَةُ: نارٌ تسقطُ من السَّمَاءِ في رعدٍ شديد. وحكى الخليل عن قوم: السَّاعِقَةُ، بالسين. وقال أبو بكر النقاش: يُقال: صاعِقَةٌ، وصَعِقَةٌ، وصاعِقَةٌ، بمعنى واحد. وقرأ الحسن: من الصَّوَاقِعِ، بتقديم القاف^(١). ومنه قول أبي النّجم:

يَخْكُونُ بِالْمَصْفُورَةِ الْقَوَاطِعِ تَشَقُّقَ الْبَرْقِ عَنِ الصَّوَاقِعِ^(٢)

قال النّحاس^(٣): وهي لغة تميم وبعض بني ربيعة.

ويقال: صَعَقْتُهُمُ السَّمَاءَ: إِذَا أَلْقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّاعِقَةَ. والصَّاعِقَةُ أَيْضاً: صَبِيحَةُ الْعَذَابِ، قال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]. ويقال: صَعِقَ الرَّجُلُ صَعِقَةً وَتَضَعَاقَا، أي: غُشِيَ عَلَيْهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَرَّ مَوْسَى صَوْعًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فَأَصْعَقَهُ غِيْرَهُ. قال ابنُ مُقْبِل:

تَرَى النُّعْرَاتِ الزُّرْقَ تَحْتَ لَبَانِهِ أَحَادَ وَمَشْنَى أَضْعَقَتْهَا صَوَاهِلُهُ^(٤)

وقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أي: مات^(٥).

وشبه الله تعالى في هذه الآية أحوالَ المنافقين بما في الصَّيِّبِ من الظُّلُمَاتِ والرَّعْدِ والبرقِ والصواعق. فالظُّلُمَاتُ مَثَلٌ لما يعتقدونه من الكُفْرِ، والرَّعْدُ والبرقُ مَثَلٌ لما يُخَوِّفون به.

وقيل: مَثَلٌ الله تعالى القرآنَ بالصَّيِّبِ لما فيه من الإشكال عليهم، والعَمَى هو

(١) المحرر الوجيز ١٠٢/١ بتقديم وتأخير، وأثر ابن عباس ومجاهد وغيرهما أخرجه الطبري ١/٣٥٧-٣٦٠، وقول الخليل هو في العين ١/١٢٩، وقول أبي زيد في الصحاح (صعق)، وقراءة الحسن ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٣، والنحاس في إعراب القرآن ١/١٩٤.

(٢) الزاهر ٢/٣١٩، واللسان (صقع)، وأبو النجم: هو الفضل بن قدامة الجعفي، من الفحول وأحد رجّاز الإسلام المتقدمين من الطبقة الأولى، وعاصر هشام بن عبد الملك. الخزانة ١/١٠٣.

(٣) إعراب القرآن ١/١٩٤.

(٤) ديوانه ص ٢٥٢، وفيه: الخضر، بدل: الزُّرْقَ، وفراوى، بدل: أحاد. قوله: النُّعْرَاتِ: جمع النُّعْرَةِ؛ قال في الصحاح (نعر): هو ذباب ضخم أزرق العين أخضر، وله إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وذكر البيت. واللَّبَانُ: الموضع الذي يُشَدُّ في صدر الدابة، وصواهل: جمع صاهلة، مصدر على فاعلة، كالصهيل. معجم متن اللغة (صهل).

(٥) الصحاح (صعق).

الظُّلُمَاتُ، وما فيه من الوعيد والزَّجَرِ هو الرعدُ، وما فيه من النُّور والحُجَجِ الباهرة التي تكادُ أحياناً أن تبهرهم هو البرقُ. والصَّوَاعِقُ مَثَلٌ لما في القرآن من الدُّعاء إلى القتال في العاجل، والوعيد في الآجل.

وقيل: الصَّوَاعِقُ تكاليفُ الشَّرْع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما^(١).

قوله: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ حَذَرَ وَحَذَارَ بمعنى؛ وُقِرَ بهما^(٢). قال سيبويه^(٣): هو منصوب؛ لأنَّه موقوعٌ له، أي مفعولٌ من أجله، وحقيقته أنَّه مصدر؛ وأنشد سيبويه: وأغفر عوزاء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللثيم تكرماً^(٤) وقال الفراء^(٥): هو منصوبٌ على التَّمييز.

والموتُ: ضدُّ الحياة. وقد مات يموت، ويماتُ أيضاً، قال الراجز:

بُنَيْتِي^(٦) سَيِّدَةُ الْبَنَاتِ عَيْشِي وَلَا يُؤْمَنُ أَنْ تَمَاتِي^(٧)
فهو ميتٌ وميت، وقومٌ مَوْتَى وأموات، وميتون وميتون. والموات، بالضم: الموت. والموات؛ بالفتح: ما لا رُوح فيه. والموات أيضاً: الأرضُ التي لا مالك لها من الآدميين، ولا ينتفع بها أحد. والموتان؛ بالتحريك: خلافُ الحيوان، يقال: اشترِ الموتان، ولا تشترِ الحيوان، أي: اشترِ الأرضين والدُّور، ولا تشترِ الرِّقِيقَ والدُّوَابَّ. والموتان؛ بالضم: مَوْتُ يقعُ في الماشية، يقال: وَقَعَ في المال موتان. وأماته الله ومَوَّته، شُدِّدَ للمبالغة. وقال:

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٢، والنكت والعيون ١/٨٢.

(٢) قرأ الجمهور: حَذَرَ - بكسر الحاء - الضحاك بن مزاحم، فيما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/١٠٢، وابن أبي ليلى كما في تفسير الزمخشري ١/٢١٨، واللؤلؤي عن أبيه كما في القراءات الشاذة ص ٣.

(٣) الكتاب ١/٣٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/١٩٤ - ١٩٥.

(٤) البيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص ٨١، وفيه: وأصفح، بدل: وأعرض.

(٥) معاني القرآن ١/١٧.

(٦) في (د): بني.

(٧) الرجز دون نسبة في جمهرة اللغة ٣/٤٨٥ برواية:

بُنَيْي يا سَيِّدَةَ الْبَنَاتِ عَيْشِي وَلَا يَوْمِي بَأَنْ تَمَاتِي

وفي صحاح الجوهري واللسان (موت).

فَعُرُوهُ مَاتَ مَوْتاً مُسْتَرْحِياً فَهَا أَنَا إِذَا أَمَوْتُ كُلَّ يَوْمٍ^(١)
وأَمَاتِ النَّاقَةُ: إِذَا مَاتَ وَلَدُهَا، فَهِيَ مُمِيتَةٌ وَمُمِيتَةٌ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَكَذَلِكَ
الْمَرْأَةُ، وَجَمَعُهَا مَمَاوِيتَ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: أَمَاتَ فُلَانٌ: إِذَا مَاتَ لَهُ ابْنٌ أَوْ بَنُونَ.
وَالْمَتَمَاوِيتُ مِنْ صِفَةِ النَّاسِكِ الْمُرَائِي. وَمَوْتُ مَائِتٌ، كَقَوْلِكَ: لَيْلٌ لَا ئِلَّ، يُؤْخَذُ مِنْ
لَفْظِهِ مَا يُؤَكِّدُ بِهِ. وَالْمُسْتَمِيتُ لِلْأَمْرِ: الْمُسْتَرْسِلُ لَهُ، قَالَ زُرَّابَةُ:

وَزَبَدُ الْبَحْرِ لَهُ كَتِيتٌ وَاللَّيْلُ فَوْقَ الْمَاءِ مُسْتَمِيتٌ^(٢)
الْكَتِيتُ: صَوْتُ الْبَكْرِ، وَهُوَ فَوْقَ الْكَشِيشِ. يُقَالُ: كَتَّ الْبَعِيرُ يَكْتُ، بِالْكَسْرِ: إِذَا
صَاحَ صِيَاحاً لَبِئْياً. وَكَتَّ الرَّجُلُ مِنَ الْغَضَبِ، وَكَتَّتِ الْقِدْرُ: غَلَّتْ، وَكَذَلِكَ الْجِرَّةُ
جَدِيدَةٌ^(٣) إِذَا صُبَّ فِيهَا الْمَاءُ، وَمِثْلُهُ زَبَدُ الْبَحْرِ، وَيُقَالُ: أَتَانَا بِجَيْشٍ مَا يُكْتُ، أَيِ:
مَا يُحْصَى عَدْدُهُ. وَالكِتْكَةُ فِي الضَّحْكِ: دُونَ الْقَهْقَهَةِ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ^(٤): وَالْمُسْتَمِيتُ
أَيْضاً: الْمُسْتَقْتَلُ الَّذِي لَا يُبَالِي فِي الْحَرْبِ مِنَ الْمَوْتِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَرَى الْقَوْمَ
مُسْتَمِيتِينَ»^(٥)، وَهُمْ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ عَلَى الْمَوْتِ.

وَالْمُؤْتَةُ؛ بِالضَّمِّ: جَنْسٌ مِنَ الْجُنُونِ وَالصَّرَعِ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ، فَإِذَا أَفَاقَ عَادَ إِلَيْهِ
كَمَا لِعَقْلِهِ، كَالنَّائِمِ وَالسَّكَرَانِ.

وَمُؤْتَةٌ^(٦) بِضَمِّ الْمِيمِ وَهَمْزِ الْوَائِ: اسْمُ أَرْضٍ قُتِلَ بِهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ^(٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ، أَيِ: لَا يُفَوِّتُونَهُ. يُقَالُ: أَحَاطَ

(١) البيت في صحاح الجوهري، ولسان العرب (موت).

(٢) الصحاح ولسان العرب (موت).

(٣) في الصحاح (كت) (والكلام منه): الجديد، وفي اللسان: الحديد (بالحاء). وانظر جمهرة اللغة ٤٢/١.

(٤) من قوله: الكتيت صوت... إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٥) من كلام عتبة بن ربيعة ينهى المشركين عن القتال يوم بدر، أخرجه أحمد (٩٤٨) ضمن قصة غزوة بدر من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) موضع في الأردن جنوب شرق البحر الميت، وقعت فيه المعركة المشهورة في السنة الثامنة للهجرة.

(٧) الصحاح (موت).

السُّلْطَانُ بفلانٍ: إذا أَخَذَهُ أَخْذاً حَاصِراً من كلِّ جهة^(١). قال الشاعر^(٢):

أَحْظَنَّا بِهِمْ حَتَّى إِذَا مَا تَيَقَّنُوا بما قد رَأَوْا مَالُوا جميعاً إلى السَّلَمِ
ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ [الكهف: ٤٢].

وأصله مُحِيطٌ، نُقِلَتْ حركَةُ الياء إلى الحاء، فسكنت، فالله سبحانه مُحِيطٌ بجميع مخلوقاته^(٣)، أي: هي في قبضته وتحت قهره، كما قال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقيل: مُحِيطٌ بالكافرين، أي: عالم بهم. دليله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقيل: مُهْلِكُهُمْ وجامعُهُمْ. دليله قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: إِلَّا أَنْ تَهْلِكُوا جميعاً. وخصَّ الكافرين بالذكر لتقدُّم ذكرهم في الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يُقَارِبُ، يقال: كاد يفعل كذا: إذا قارب ولم يفعل. ويجوزُ في غير القرآن: يكاد أن يفعل، كما قال رؤبة:
قد كاد من طول البلى أن يَمْصَحَا^(٤)

مشتقٌّ من المَصْح، وهو الدَّرْسُ. والأجودُ أن تكون بغير «أن»، لأنها لمُقَارِبَةٌ الحال، و«أن» تُصَرِّفُ الكلامَ إلى الاستقبال، وهذا^(٥) مُتَنَافٍ. قال الله عز وجل:

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في (م): المخلوقات.

(٤) هو في الكتاب ٣/١٦٠، والمقتضب ٣/٧٥، والكمال ص ٢٥٣، والجمل للزجاجي ص ٢٠٢،

وضرائر الشعر لابن عصفور ص ٦١، وما يجوز للشاعر في الضرورة للقرآن القيرواني (٩٧). وينظر

خزانة الأدب ٩/٣٤٧.

(٥) في (ز) و (ظ): وهو.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]. ومن كلام العرب: كَادَ النَّعَامُ يَطِيرُ^(١)، وكاد العروسُ يكونُ أميراً^(٢)، لَقُرْبِهِمَا من تلك الحال. وكاد فعلٌ متصرفٌ على فَعَلْ يَفْعَلْ. وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل، قال: وما كِذْتُ آيَباً^(٣). ويجري مجرى «كاد»: كَرَبَ، وَجَعَلَ، وَقَارَبَ، وَطَفِقَ، في كون خبرها بغير «أن». قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]؛ لأنها كلُّها بمعنى الحال والمقاربة، والحال لا يكونُ معها «أن»، فاعلم.

قوله تعالى: ﴿يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخَطَفُ: الأخْذُ بسرعة، ومنه سُمِّيَ الطيرُ خُطَافاً لسُرْعَتِهِ. فَمَنْ جعلَ القرآنَ مثلاً للتَّخْوِيفِ فالمعنى: أَنَّ خَوْفَهُم مما ينزلُ بهم يكادُ يُذْهِبُ أَبْصَارَهُمْ. ومن جعله مثلاً للبيان الذي في القرآن فالمعنى: أَنَّهُم جاءهم من البيان ما بهرهم.

وَيَخْطِفُ وَيَخْطِفُ لُغَتَانِ، قُرِئَ بهما. وقد خَطَفَهُ بالكسر يَخْطِفُهُ خَطْفاً، وهي اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأَخْفَشُ^(٤): خَطَفَ يَخْطِفُ. الجوهري: وهي قليلة رديئة لا تكاد تُعرَف. وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾^(٥).

وقال النحاس^(٦): في «يَخْطِفُ» سبعة أوجه: القراءة الفصيحة: يَخْطِفُ. وقرأ

(١) يضرب لقرب الشيء مما يتوقع منه، لظهور بعض أماراته. مجمع الأمثال ١٦٢/٢، والمقتضب ٧٤/٣، والكمال ص ٢٥٣.

(٢) المقتضب، والكمال، وفي مجمع الأمثال ١٥٨/٢: كاد العروس يكون ملكاً، العرب تقول للرجل عروس وللمرأة أيضاً، ويراد ههنا الرجل، أي: كاد يكون ملكاً لعزته في نفسه وأهله.

(٣) قطعة من بيت لتأبط شراً، وتامه:

فأُبْتُ إلى قَهْمٍ وما كِذْتُ آيَباً وكم مثلها فارقتها وهي تَضْفِرُ

وهو في ديوانه ص ٩١، والخصائص ٣٩١/١، وشرح المبرزوقي على حماسة أبي تمام ٨٣/١، وخزانة الأدب ٣٧٤/٨.

(٤) معاني القرآن ٢٠٩/١.

(٥) كذا نسبها إلى يونس: الجوهري في صحاحه (خطف)، وأما الأخفش فقد نسب في معاني القرآن ٢٠٩/١ - ٢١٠ إلى يونس: يَخْطِفُ، بكسر الخاء لاجتماع الساكنين، وانظر القراءات الشاذة ص ٣، والمحتسب ٦٢/١.

(٦) إعراب القرآن ١٩٥/١ - ١٩٦.

عليّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب: يَخْطَفُ بكسر الطاء^(١)، قال سعيد الأخفش^(٢): هي لغة. وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِيُّ^(٣) وأبو رجاء العطاردي^(٤): بفتح الياء وكسر الخاء والطاء^(٥). وُروى عن الحسن أيضاً أنّه قرأ بفتح الخاء^(٦). قال الفراء^(٧): وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء. قال الكسائي والأخفش والفراء^(٨): يجوز: يَخْطَفُ، بكسر الياء والحاء والطاء. فهذه ستّة أوجه^(٩) موافقة للخط^(١٠).

والسابعة حكاهما عبد الوارث^(١١) قال: رأيتُ في مصحف أبيّ بن كعب: يَخْطَفُ^(١٢)، وزعم سيبويه والكسائي أنّ مَنْ قرأ: يَخْطَفُ، بكسر الخاء والطاء، فالأصلُ عنده يَخْطَفُ، ثمّ أدغم التّاء في الطاء؛ فالتقى ساكنان، فكُسِرت الخاء لالتقاء الساكنين. قال سيبويه: ومَنْ فتح الخاء ألقى حركة التّاء عليها. وقال الكسائي: ومَنْ كسر الياء فلأنّ الألف في اختطف مكسورة. فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام؛ فلا يُعرَف ولا يجوز، لأنّه جمع بين ساكنين. قاله النّحاس^(١٣) وغيره.

- (١) وكذا نسبها إليهما ابن عطية في المحرر الوجيز ١/١٠٣، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/٦٢، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٣، والزمخشري ١/٢١٩ إلى الحسن ومجاهد.
- (٢) معاني القرآن ١/٢٠٩، وحكاه عنه النحاس في إعراب القرآن ١/١٩٥.
- (٣) ابن المعجاج، أبو المجشّر البصري، قرأ القرآن على نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن البصري وغيرهم، توفي سنة (١٢٨هـ). معرفة القراء الكبار ١/٢١٠.
- (٤) عمران بن ملحان التميمي البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد الفتح، ولم ير النبي ﷺ، توفي سنة (١٠٥هـ). السير ٤/٢٥٣.
- (٥) يعني مع تشديد الطاء، كما في المحرر الوجيز ١/١٠٣.
- (٦) الكشف ١/٢١٩، والمحرر الوجيز ١/١٠٣.
- (٧) معاني القرآن ١/١٨، وقد نقله المصنف عنه بواسطة النحاس، كما ذكر.
- (٨) معاني القرآن للفراء ١/١٨، ومعاني القرآن للأخفش ١/٢١٠.
- (٩) وهي أوجه شاذة، انظر القراءات الشاذة ص ٣، والمحتسب ١/٥٩.
- (١٠) في إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٥ - ١٩٦: موافقة للسواد.
- (١١) ابن سعيد، أبو عبيدة العنبري مولاهم، البصري، المقرئ، توفي سنة (١٨٠هـ). السير ٨/٣٠٠.
- (١٢) المحرر الوجيز ١/١٠٣، والكشاف ١/٢١٩.
- (١٣) إعراب القرآن ١/١٩٦.

قلتُ: وقد روي^(١) عن الحسن أيضاً وأبي رجاء: «يَخْطِفُ». قال ابن مجاهد: وأظنه غلطاً، واستدل على ذلك بأنَّ ﴿خَلَفَ لَلْفُطْفَةِ﴾ [الصفات: ١٠] لم يقرأه أحدٌ بالفتح^(٢).

﴿أَبْصَرَهُمْ﴾ جمع بَصَرَ، وهي حاسة الرؤية. والمعنى: تكاد حُجُجُ القرآن وبراهينه الساطعة تَبْهَرُهُمْ^(٣). ومن جعل البرق مثلاً للتخويف؛ فالمعنى: أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهِبُ أبصارهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَآءَ فِيهِ﴾ «كَلَّمَآ» منصوبٌ لأنَّه ظرف. وإذا كانت^(٤) «كَلَّمَآ» بمعنى «إذا» فهي موصولة^(٥)، والعامل فيه: «مَشَآءَ» وهو جوابه، ولا يعملُ فيه «أضاء» لأنَّه في صلة «ما». والمفعول في قول المبرد محذوف، التقدير عنده: كَلَّمَآ أضاء لهم البرق الطريق. وقيل: يجوز أن يكون فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى، كَسَكْتَ وأَسَكْتَ، فيكون أضاء وضاء سواء، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول. قال الفراء^(٦): يُقال: ضاءً وأضاءً، وقد تقدَّم^(٧).

والمعنى: أنَّهم كلما سمعوا القرآن وظَهَرَتْ لهم الحُجُجُ، أُنِسُوا، وَمَشَآءَ معه، فإذا نزل من القرآن ما يَغْمُونَ فيه، وَيَضِلُّون به، أو يُكَلِّفُونه، قاموا، أي: ثبتوا على نفاقهم، عن ابن عباس^(٨).

وقيل: المعنى: كلما صَلَّحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النعم^(٩) قالوا: دين محمد دينٌ مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة، وأصابتهم شدة

(١) في (م): وروي.

(٢) المحتسب ٦٢/١، وقال ابن عطية ١٠٣/١: ونسب المهدوي هذه القراءة - يَخْطِفُ - إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم.

(٣) المحرر الوجيز ١٠٤/١.

(٤) في (م): كان.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٩٦/١.

(٦) معاني القرآن ١٨/١.

(٧) ص ٣٢٢.

(٨) المحرر الوجيز ١٠٤/١.

(٩) في (م): وتوالت النعم.

سَخَطُوا، وَثَبَّتُوا فِي نِفَاقِهِمْ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَقَتَادَةَ^(١). قَالَ النُّحَاسُ: وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١].

وَقَالَ عُلَمَاءُ الصُّوفِيَّةِ^(٢): هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ لَمْ تَصِحَّ لَهُ أَحْوَالُ الْإِرَادَةِ بَدْءًا، فَارْتَقَى مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ بِالْدَّعَاوَى إِلَى أَحْوَالِ الْأَكَابِرِ، كَأَنْ تُضَيَّ عَلَيْهِ أَحْوَالُ الْإِرَادَةِ لَوْ صَحَّحَهَا بُمْلَازِمَةِ آدَابِهَا، فَلَمَّا مَرَّجَهَا بِالْدَّعَاوَى، أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُ تِلْكَ الْأَنْوَارَ، وَبَقِيَ فِي ظُلُمَاتٍ دَعَاوِيَةٍ، لَا يُبْصِرُ طَرِيقَ الْخُرُوجِ مِنْهَا.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمَرَادَ الْيَهُودَ؛ لَمَّا نُصِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِبَذَرٍ، طَمِعُوا وَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ النَّبِيُّ الَّذِي بَشَّرْنَا بِهِ مُوسَى لَا تُرَدُّ لَهُ رَايَةٌ، فَلَمَّا نَكَبَ بِأُخْدِ ارْتَدُّوا وَشَكُّوا. وَهَذَا ضَعِيفٌ. وَالْآيَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ^(٣) أَصْحَبُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْمَعْنَى يَتَنَاوَلُ الْجَمِيعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ «لَوْ» حَرْفُ تَمَنٍّ، وَفِيهِ مَعْنَى الْجَزَاءِ، وَجَوَابُهُ اللَّامُ. وَالْمَعْنَى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَطْلَعَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ عِزُّ الْإِسْلَامِ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَيْهِمْ وَقَتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بَيْنِهِمْ. وَخَصَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لِتَقْدُّمِ ذِكْرِهِمَا فِي الْآيَةِ أَوَّلًا، أَوْ لِأَنَّهُمَا أَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ. وَقُرِئَ: بِأَسْمَاعِهِمْ، عَلَى الْجَمْعِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا^(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عَمُومٌ، وَمَعْنَاهُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ: فِيمَا يَجُوزُ وَصْفُهُ تَعَالَى بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ^(٥). وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى تَسْمِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَدِيرِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ قَادِرٌ مُقْتَدِرٌ.

وَالْقَدِيرُ أُبْلَغُ فِي الْوَصْفِ مِنَ الْقَادِرِ. قَالَ الزَّجَّاجِيُّ^(٦). وَقَالَ الْهَرَوِيُّ: وَالْقَدِيرُ

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٤، وأخرجه الطبري ١/٣٦٨ و٣٧١.

(٢) ينحوه في لطائف الإشارات ١/٣٦٨ و٣٧١.

(٣) في (م): وهذا.

(٤) ص ٢٩٠، وتقدم تخريج القراءة ثم.

(٥) المحرر الوجيز ١/١٠٤.

(٦) اشتقاق أسماء الله ص ٤٨.

والقادرُ بمعنَى واحد. يقال: قَدَرْتُ على الشيء أَقْدِرُ قَدْرًا وَقَدْرًا وَمَقْدِرَةً وَمَقْدَرَةً وَقَدْرَانًا، أَي: قُدْرَةً.

والاقتدارُ على الشيء: القُدْرَةُ عليه، فالله جلَّ وعَزَّ قَادِرٌ مَقْتَدِرٌ قَدِيرٌ على كلِّ ممكن يقبلُ الوجودَ والعَدَمَ. فيجبُ على كلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تعالى قَادِرٌ، له قدرةٌ بها فَعَلَ وَيَفْعَلُ ما يَشَاءُ وَفَقَّ^(١) عِلْمُهُ واختيارُهُ. ويجبُ عليه أيضاً أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ للعبد قُدْرَةً يكتسبُ بها ما أَقْدَرَهُ الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غيرُ مُسْتَبِدٍّ بقدرته. وإنَّما خَصَّ هنا تعالى صِفَتَهُ - التي هي القدرة - بالذكرِ دونَ غيرها لأنه تقدَّم ذِكْرُ فِعْلٍ مُضْمَنُهُ^(٢) الوعيدُ والإخافةُ، فكان ذِكْرُ القُدْرَةِ مناسباً لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آيةً على عدد الكوفيتين: أربعُ آياتٍ في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقِيَّتُها في المنافقين. وقد تقدَّمت الروايةُ فيها عن ابن جُرَيْجٍ، وقاله مجاهد أيضاً^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ قال علقمة ومجاهد: كلُّ آيةٍ أَوَّلُهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فإنَّما نزلت بمكة، وكلُّ آيةٍ أَوَّلُهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإنَّما نزلت بالمدينة^(٤).

قلت: وهذا يرُدُّه^(٥) أنَّ هذه السُورة والنِّساء مَدِينَتَانِ، وفيهما: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وأما قولُهما في: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فصحيح.

وقال عُروَةُ بنُ الزُّبَيْرِ: ما كان من حَدِّ أو فريضةٍ، فإنَّه نزل بالمدينة، وما كان مِنْ

(١) في (م): على وفق.

(٢) في (د): تضمن.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ص ٢٩٣.

(٤) أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢ قول علقمة، وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز ١٠٥/١ قول مجاهد.

(٥) في (د) و(ز): يرد على من يقول.

ذَكَرَ الْأَمِّ وَالْعَذَابِ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِمَكَّةَ^(١). وهذا واضح.

و«يا» في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ حرفُ نداء. «أيُّ» منادى مفردٌ مبنيٌّ على الضَّمِّ؛ لأنَّه مُنَادَى فِي اللَّفْظِ، وَ«ها» لِلتَّنْبِيهِ. «النَّاسُ» مَرْفُوعٌ صِفَةً لـ «أَيُّ» عِنْدَ جَمَاعَةِ النُّحَوِيِّينَ، مَا عَدَا الْمَازِنِيَّ، فَإِنَّهُ أَجَازَ النَّصْبَ قِيَاساً عَلَى جَوَازِهِ فِي: يَا هَذَا الرَّجُلَ^(٢).

وقيل: ضُمَّتْ «أَيُّ» كَمَا ضُمَّ الْمَقْصُودُ الْمَفْرُودُ، وَجَاؤُوا بِ«ها» عِوَضاً عَنْ يَاءٍ أُخْرَى، وَإِنَّمَا لَمْ يَأْتُوا بِيَاءٍ؛ لِثَلَاثِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْكَلَامِ، فَجَاؤُوا بِ«ها» حَتَّى يَبْقَى الْكَلَامُ مُتَّصِلاً. قَالَ سَيِّبِيهِ: كَأَنَّكَ كَرَّرْتَ «يَا» مَرَّتَيْنِ، وَصَارَ الْأِسْمُ بَيْنَهُمَا، كَمَا قَالُوا: هَا هُوَ ذَا^(٣).

وقيل: لَمَّا تَعَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْجَمْعُ بَيْنَ حَرْفِي تَعْرِيفٍ أَتَوْا فِي الصُّورَةِ بِمِنَادَى مُجَرَّدٍ عَنْ حَرْفِ تَعْرِيفٍ، وَأَجْرَوْا عَلَيْهِ الْمَعْرِفَ بِاللَّامِ الْمَقْصُودَ بِالنَّدَاءِ، وَالتَّزَمُّوا رَفْعَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالنَّدَاءِ، فَجَعَلُوا إِعْرَابَهُ بِالْحَرَكَةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَحِقُّهَا لَوْ بَاشَرَهَا النَّدَاءُ، تَنْبِيهاً عَلَى أَنَّهُ الْمِنَادَى، فَاعْلَمْهُ.

وَاخْتَلَفَ مَنْ الْمَرَادُ بِالنَّاسِ هُنَا عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْكَفَّارُ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوهُ، يُدْلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾.

الثَّانِي: أَنَّهُ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ، فَيَكُونُ خُطَابُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاسْتِدَامَةِ الْعِبَادَةِ، وَلِلْكَافِرِينَ بِابْتِدَائِهَا. وَهَذَا حَسَنٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعْبُدُوا﴾ أَمْرٌ بِالْعِبَادَةِ لَهُ، وَالْعِبَادَةُ هُنَا عِبَارَةٌ عَنْ تَوْحِيدِهِ وَالتَّزَامِ شَرَائِعِ دِينِهِ.

وَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ. يَقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدَةٌ: إِذَا كَانَتْ مَوْطُوءَةً بِالْأَقْدَامِ.

قَالَ طَرَفَةُ:

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو عِيْدٍ فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ ص ٢٢٢، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٥٢٢/١٠، وَفِيهِ: حَجَّ، بَدَل: حَدَّ.

(٢) مُشْكَلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٨٢/١.

(٣) الْكِتَابُ ١٩٧/٢، وَفِيهِ: وَصَارَ الْأِسْمُ بَيْنَهُمَا، كَمَا صَارَ «هُوَ» بَيْنَ «ها» وَ«ذَا» إِذَا قُلْتَ: هَا هُوَ ذَا.

وَزَيْفَاءً وَظِيْفَاءً فَوْقَ مَوْرٍ مُّعَبِّدٍ^(١)

والعبادة: الطاعة، والتعبُّد: التَّنُسُّكُ، وعَبَّدْتُ فلاناً: اتَّخَذْتُهُ عَبْدًا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خَصَّ تعالى خَلْقَهُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ صِفَاتِهِ، إِذْ كَانَتْ الْعَرَبُ مُقِرَّةً أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا، فَذَكَرَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، وَتَقْرِيباً لَهُمْ. وَقِيلَ: لِيُذَكِّرْهُمْ بِذَلِكَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ.

وفي أصل الخلق وجهان:

أحدهما: التَّقْدِيرُ، يُقَالُ: خَلَقْتُ الْأَدِيمَ لِلِسَّقَاءِ: إِذَا قَدَّرْتَهُ قَبْلَ الْقَطْعِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي^(٢)
وقال الْحَجَّاجُ: مَا خَلَقْتُ إِلَّا فَرِيْتُ، وَلَا وَعَدْتُ إِلَّا وَفَيْتُ^(٣).

الثاني: الْإِنْشَاءُ وَالِاخْتِرَاعُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَخْلُوقَاتِ إِفْكَاءٍ﴾

[العنكبوت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيقال: إِذَا ثَبَتَ عَنْدهُمْ خَلْقُهُمْ، ثَبَتَ عَنْدهُمْ خَلْقُ غَيْرِهِمْ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ إِنَّمَا يَجْرِي الْكَلَامُ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي الْعِظَةِ، فَذَكَرَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي أَمَاتَ مِنْ قَبْلِهِمْ^(٤)، وَهُوَ خَلَقَهُمْ، يُمِيتُهُمْ، وَلِيَفَكِّرُوا فِيمَنْ مَضَى قَبْلَهُمْ كَيْفَ كَانُوا، وَعَلَى أَيِّ الْأُمُورِ مَضَوْا مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ أَهْلِكَ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ يُتَبَلَّوْنَ كَمَا ابْتَلَوْا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لَعَلَّ» مُتَّصِلَةٌ بِ«اعْبُدُوا» لَا بِ«خَلَقَكُمْ»، لِأَنَّ مَنْ ذَرَاهُ اللَّهُ لَجْهَتُمْ لَمْ يَخْلُقْهُ لِيَتَّقِيَ.

(١) عجز بيت من معلقته، وصدْرُهُ: ثُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتَبَعَتْ.

وهو في ديوانه ص ٢٢. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق. اللسان (وظف). والمور: الطريق. اللسان (مور).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ١١٩، والصحاح: (خلق). وتَفْرِي، أي: تقطع. يعني: إنك إذا قدرت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تعجز عنه.

(٣) الصحاح: (خلق).

(٤) في (ز) و(ظ): قبلكم.

وهذا وما كان مثله ممّا^(١) وَرَدَ في كلام الله تعالى من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فيه ثلاث تأويلات^(٢):

الأول: أَنَّ «لعلّ» على بابها من التَّرجِي والتَّوَقُّع، والتَّرجِي والتَّوَقُّعُ إِنَّمَا هُوَ فِي حَيْزِ الْبَشَرِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: افْعَلُوا ذَلِكَ عَلَى الرَّجَاءِ مِنْكُمْ وَالظَّمْعُ أَنْ تَعْقِلُوا، وَأَنْ تَذَكَّرُوا، وَأَنْ تَتَّقُوا. هذا قولُ سيبويه ورؤساءِ اللُّسان. قال سيبويه^(٣) في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١١﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]. اذهبا إلى طَمَعِكُما ورجائِكُما أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى. واختار هذا القول أبو المَعَالِي.

الثاني: أَنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلَتْ «لعلّ» مَجْرَدَةً مِنَ الشَّكِّ بِمَعْنَى لَامٍ «كَي». فالمعنى: لَتَعْقِلُوا، وَلَتَذَكَّرُوا، وَلَتَتَّقُوا، وعلى ذلك يدلُّ قول الشاعر:

وَقَلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكُفُّ وَوُثِّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ
فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عَهْدُكُمْ كَلَمْعِ سَرَابٍ فِي الْمَلَا مُتَأَلِّقٍ^(٤)
المعنى: كُفُّوا الْحُرُوبَ لَنَكُفُّ، وَلَوْ كَانَتْ «لعلّ» هُنَا شَكًّا لَمْ يُوَثِّقُوا لَهُمْ كُلَّ مَوْثِقٍ. وهذا القول عن قُطْرُبٍ وَالطَّبْرِيِّ^(٥).

الثالث: أَنْ تَكُونَ «لعلّ» بِمَعْنَى التَّعَرُّضِ لِلشَّيْءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: افْعَلُوا ذَلِكَ مَتَعَرِّضِينَ لِأَنْ تَعْقِلُوا، أَوْ لِأَنْ تَذَكَّرُوا، أَوْ لِأَنْ تَتَّقُوا.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لَعَلَّكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا بِقَبُولِ مَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ وِقَايَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّارِ. وهذا من قول العرب: اتَّقَاهُ بِحَقِّهِ: إِذَا

(١) في (م): فيما.

(٢) أمالي ابن الشجري ٧٦/١ - ٧٧.

(٣) الكتاب ٣٣١/١. وقد نقله القرطبي بواسطة ابن الشجري في أماليه ٧٦/١.

(٤) البيتان في تفسير الطبري ٣٨٧/١، وأمالي ابن الشجري ٧٧/١ (والكلام له)، والحماسة البصرية ٢٥/١ - ٢٦ غير منسوين.

(٥) تفسير الطبري ٣٨٧/١.

استقبله به ، فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ، ومنه قول علي رضي الله عنه : كنا إذا احمر البأس اتقينا بالنبى ﷺ^(١) . أي : جعلناه وقاية لنا من العدو . وقال عنترة^(٢) :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَذْمَى نَحْرُهُ حَتَّى اتَّقَنْتَنِ الخَيْلُ بَابَنِي حِذِيمٍ^(٣)
 قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٤)
 قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ ﴾ معناه هنا : صير ؛ لِتَعَدِّيهِ إِلَى مَفْعُولِينَ .

ويأتي بمعنى خَلَقَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ﴾ [المائدة : ١٠٣] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] .

ويأتي بمعنى : سَمَّى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَمَّ ﴾^(٥) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ^(٦) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا^(٧) [الزخرف : ١ - ٣] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف : ١٥] ، ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ ﴾ [الزخرف : ١٩] أي : سَمَوْهُمْ .

ويأتي بمعنى : أَخَذَ ، كما قال الشاعر :

وَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي تَطِيبُ لَضْغَمَةٍ لَضْغَمِيهَا مَا يَفْرُغُ الْعَظْمَ نَابُهَا^(٨)
 وقد تأتي زائدة ، كما قال الآخر :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤٧) ، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٥) .

(٢) ابن عمرو بن شداد العبسي ، الشاعر الفارس المشهور ، شهد حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان . الشعر والشعراء ٢٥٠ / ١ .

(٣) البيت من معلقته ، وهو في أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشتمري ١٢٣ / ٢ ، وانظر المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي ص ١٣٤ . ابنا حذيم : قيل : هما هرم وحصين ابنا ضمضم المري ، كان عنترة قد قتل أباهما ضمضاً ، فكانا يتوعدانه .

(٤) البيت لمُغَلَّس بن لُقَيْط الأسدي . قوله : ضغمة ، أي : عضة ، أراد بها الشدة ، وقوله : لضغميها ، أي : لضغميها إياها ، والبيت من شواهد سيبويه ٣٦٥ / ٢ ، وهو في معجم الشعراء ص ٣٠٨ .

وقد جَعَلْتُ أَرَى الْإِنْسِينَ أَرْبَعَةً^(١) وَالوَاحِدَ^(٢) اِثْنَيْنِ لَمَّا هَدَّنِي الْكِبَرُ^(٣)
وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: إنها زائدة.

وَجَعَلَ واجْتَعَلَ بمعنى واحد. قال الشاعر:

نَاطَ أَمْرَ الضُّعَافِ واجْتَعَلَ اللَّيْلَ لَمَّ كَحَبْلِ الْعَادِيَةِ الْمَمْدُودِ^(٤)

﴿فَرَشًا﴾ أي: وطأ يفترشونها ويستقرون عليها، وما ليس بفراش، كالجبال والأوعار والبحار^(٥)، فهي من مصالح ما يُفْتَرَشُ منها؛ لأنَّ الجبال كالأوتاد، كما قال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٦-٧]. والبحار تُرْكَبُ إلى سائر منافعها^(٥)، كما قال: ﴿وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

الثانية: قال أصحابُ الشافعي: لو حلفَ رجلٌ ألاَّ يبيتَ على فراشٍ، أو لا يَسْتَسْرِجَ بِسِرَاجٍ، فباتَ على الأرض، وجلسَ في الشمس، لم يحنث، لأنَّ اللفظَ لا يرجعُ إليهما عُرْفًا.

وأما المالكية؛ فَبَنَوْهُ على أصلهم في الإيمان أنَّها محمولةٌ على النية، أو السَّبَبِ، أو البِساطِ^(٦) الذي جَرَتْ عليه اليمينُ، فإنَّ عُدَمَ ذلك، فالعُرْفُ^(٧).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ السماءُ للأرض كالسقف للبيت، ولهذا قال - وقوله الحق - ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وكلُّ ما علا فأظْلَمَ قيل

(١) في النسخ الخطية: والأربع، والمثبت من (م) والمصادر الآتية.

(٢) نسبة القاضي في أماليه ١٦٣/٢ لعبد من عبيد بجيلة، ونسبه المرزباني كما في الخزانة ٣٥٨/٩ لعمر بن أحمَر الباهلي، وهو عندهما برواية:

فقد جعلت أرى الشخصين أربعةً والواحدَ اثنين مما بورك البصرُ

(٣) البيت لأبي زيد حرملة بن المنذر الطائي. وهو من قصيدة طويلة يرثي بها اللجلاج ابنَ أخته، وهو في ديوانه ص ٦٠٤ (شعراء إسلاميون)، وجمهرة أشعار العرب ٧٤٢/٢، والاختيارين ص ٥٣٤. قوله: ناط، أي: حمل وكفى، والعادة: البئر القديمة، أي: يسير الليل كله لا يتنهي.

(٤) في (ظ): والنجاد.

(٥) المحرر الوجيز ١٠٥/١.

(٦) المقصود بالبساط هنا: السبب المثير لليمين لتعرف منه، قال ابن شاس في عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة ٥٢٥/١: وذلك أن القاصد إلى اليمين لا بد أن تكون له نية، وإنما يذكرها في بعض الأوقات، وينساها في بعضها، فيكون المحركُ على اليمين - وهو البساط - دليلاً عليها، لكن قد يظهر مقتضى المحرك ظهوراً لا إشكال فيه، وقد يخفى في بعض الحالات، وقد يكون ظهوره وخفاؤه بالإضافة.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١٣/١.

له : سماء، وقد تقدّم القول فيه^(١).

والوقف على ﴿بَنَاءٌ﴾ أحسنُ منه على ﴿تَنْفُونَ﴾، لأنَّ قوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ نعتٌ للرَّبِّ^(٢).

ويقال : بَنَى فلانُ بيتاً، وبَنَى على أهله - بناءً فيهما - أي : زَفَّها، والعامَّةُ تقول : بَنَى بأهله، وهو خطأ^(٣)، وكان الأصلُ فيه أنَّ الداخلَ بأهله كان يضربُ عليها قُبَّةً ليلةَ دخوله بها، فقليل لكلِّ داخلٍ بأهله : بانٍ.

وبَنَى قُصوراً^(٤) : شُدَّ للكثرة، وابْتَنَى داراً وبَنَى بمعنى، ومنه بُنيان الحائط، وأصله : وَضَعَ لَبِنَةً على أُخرى حتى تَثَبَّتْ.

وأصل «الماء» : مَوَّه، قُلِبَت الواو ألفاً لتحركها وتحرك ما قبلها، فقلت : ماء، فالتقى حرفان خفيّان، فأبدلت من الهاء همزة، لأنها أجلدُ، وهي بالألف أشبهُ، فقلت : ماء، الألف الأولى عينُ الفعل، وبعدها الهمزة التي هي بدلٌ من الهاء، وبعده الهمزة ألفٌ بدلٌ من التَّوِين. قال أبو الحسن^(٥) : لا يجوز أن يُكْتَبَ إلَّا بِالْفَيْنِ عند البصريين، وإن شئتَ بثلاثٍ، فإذا جمعوا أو صغروا ردُّوا إلى الأصل، فقالوا : مُوَيَّةُ وأَمْوَاءٌ ومِيَاءٌ، مثلُ جِمالٍ وأَجْمالٍ^(٦).

الرابعة : قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهُمُ الثَّمَرَاتِ دَرَجَاتٍ لَّكُمُ﴾ الثَّمَرَاتُ : جمعُ ثمرة، ويقال : ثَمَرٌ، مثلُ شَجَرٍ، ويقال : ثُمُرٌ، مثلُ خُشْبٍ، ويقال : ثُمُرٌ، مثلُ بُذْنٍ. وثمار

(١) ص ٣٢٦.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٥٠٢/١.

(٣) كذا نقل المصنف عن الجوهري في الصحاح (بنى). وقد تعقبه غير واحد كما ذكر الزبيدي في تاج العروس، قال ابن الأثير في النهاية : قد جاء في غير موضع من الحديث وغير الحديث، وعاد الجوهري فاستعمله في كتابه وذكر الزبيدي أنه قد ورد «بنى بأهله» في شعر جرّان العوذ، قال :
بنيتُ بها قبل المِحاقِ لبليلةً فكان محاقاً كلُّه ذلك الشهرُ

(٤) في (م) : «مقصوراً».

(٥) لعله علي بن سليمان الأخفش الصغير.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١٩٩/١.

مثل إكمام، جمع ثَمَرٌ^(١)، وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الأنعام» إن شاء الله^(٢). وثمارُ السَّيَاط: عَقْدُ أطرافها.

والمعنى في الآية: أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات، وأنواعاً من الثبات.

﴿رِزْقًا﴾: طعاماً لكم، وَعَلَفًا لدوابكم، وقد بيّن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبِّتُ اللَّيْلَ صَبًّا ۝٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٦ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا ۝٧ وَعَبْنَا وَفَعْنَا ۝٨ وَزَيَّنَّوْنَا وَقَلَّا ۝٩ وَحَدَّيْنَا غَلًّا ۝١٠ وَلَنُكَلِّمَهُنَّ وَآبَاءَ ۝١١ مَتَّعًا لَّكُمُ وَلَئِنَّمِ لَكُمُ الْرِّزْقُ مُسْتَوْفَى، والحمد لله^(٣).

فإن قيل: كيف أطلق اسم الرِّزْق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك؟

قيل له: لأنها مُعَدَّة لأن تملك، ويصح بها الانتفاع، فهي رزق^(٤).

الخامسة: قلت: ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق، ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى: «والله لأن يأخذ أحدكم حَبْلَهُ، فيَحْتَطِبَ على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، أعطاه أو منعه». أخرجه مسلم^(٥). ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها، فمن أحوَج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زُخرف الدنيا، فقد أخذ بطرف من جعل الله ندًا^(٦).

وقال علماء الصوفية: أعلم الله عز وجل في هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وطاءً، والسماء غطاءً، والماء طيباً، والكلاً طعاماً، ولا تعبُد أحداً في

(١) المصدر السابق.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٣) ص ٢٧٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/١٠٦.

(٥) صحيح مسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة، ولفظه: «لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدق به، ويستغني من الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك...». وكذلك أخرجه البخاري (١٤٧٠) بنحو ما ذكره المصنف. وهو في المسند (٧٣١٧).

(٦) المحرر الوجيز ١/١٠٦.

الدنيا من الخلق بسبب الدنيا ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أتاح^(١) لك ما لا بدَّ لك منه ، من غير مِنَّةٍ فيه لأحدٍ عليك .

وقال نَوْف الْبِكَالِيُّ^(٢) : رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ خَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى النُّجُومِ ، فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، أَرَأَيْدُ أَنْتَ أَمِ رَامِقٌ؟ قُلْتُ : بَلِ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالرَّاعِبِينَ فِي الْآخِرَةِ ، أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطًا ، وَتُرَابَهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طِيبًا^(٣) ، وَالْقُرْآنَ وَالِدَعَاءَ دِثَارًا وَشِعَارًا ، فَرَفَضُوا^(٤) الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَام . وَذَكَرَ بَاقِيَ الْخَبَرِ^(٥) ، وَسَيَأْتِي تَمَامُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [الآية : ١٨٦] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

السادسة : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ نَهْيٌ .

﴿لِلَّهِ أُنِدَادُ﴾ أَي : أَكْفَاءٌ وَأَمْثَالٌ وَنُظَرَاءُ ، وَاحِدُهَا نِدٌّ ، وَكَذَلِكَ قَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمِيعِ : «نِدَاءً»^(٦) . قَالَ الشَّاعِرُ :

نَحْمَدُ اللَّهَ وَلَا نِدُّ لَهُ عِنْدَهُ الْخَيْرُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ^(٧)
وَقَالَ حَسَّانُ :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ^(٨)
وَيَقَالُ : نِدٌّ وَنِدِيدٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ . قَالَ لَبِيدُ :

(١) فِي النِّسْخِ : أَبَاحَ ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (م) ، وَالْكَلَامُ بِنَحْوِهِ فِي لَطَائِفِ الْإِشَارَاتِ ٦٨/١ .

(٢) ابْنُ فَضَالَةَ الْحَمِيرِي ، وَهُوَ ابْنُ امْرَأَةٍ كَعَبِ الْأَحْبَارِ ، قَالَ ابْنُ حَبَانَ فِي الثَّقَاتِ : كَانَ رَاوِيَةً لِلْأَخْبَارِ ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَوْسَطِ فِي فَصْلِ مَنْ مَاتَ بَيْنَ التَّسْعِينَ وَالْمِئَةِ . تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ ٢٤٩/٤ .

(٣) فِي (ظ) : وَمَاءُهَا طِيبًا وَكَلَاهَا طَعَامًا .

(٤) فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَ(د) وَهَامِشُ (ظ) وَ(ز) : فَرَضُوا .

(٥) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ ٧٩/١ وَ ٥٣/٦ .

(٦) ذَكَرَهَا الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ١١٢/٢ .

(٧) قَاتِلُهُ لَبِيدُ بْنُ رِبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ ، وَالْبَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ص ١٧٤ ، وَرَوَاتُهُ فِيهِ :

أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدُّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَ

(٨) هُوَ فِي دِيْوَانِهِ ص ٩ ، وَفِيهِ : بِكَفٍّ ، بَدَلُ : بِنَدٍّ .

وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ قَالَهَا حَسَّانُ فِي فَتْحِ مَكَّةَ يَهْجُو بِهَا أَبَا سَفْيَانَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ ، وَكَانَ قَدْ هَجَا النَّبِيَّ ﷺ .

لكيلا يكون السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتِي وأجعل أقواماً عُموماً عَمَائِمًا^(١)
وقال أبو عُبَيْدَةَ^(٢): ﴿أَنْدَادًا﴾: أضداداً.

النحاس^(٣): ﴿أَنْدَادًا﴾ مفعول أول، و﴿لِلَّهِ﴾ في موضع الثاني.

الجوهري^(٤): والنَّدُّ - بفتح النون - التَّلُّ المرتفع في السماء، والنَّدُّ: من الطَّيْبِ، ليس بعربي، ونَدَّ البعيرُ يَنْدُ نَدًّا ونَدَادًا ونُدُودًا: نَفَرَ وَذَهَبَ على وجهه، ومنه قرأ بعضهم: «يَوْمَ التَّنَادِ»^(٥). ونَدَّدَ به، أي: شَهَرَهُ وَسَمَّعَ به.

السابعة: قوله تعالى^(٦): ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ابتداءً وخبرٌ، والجملة في موضع الحال، والخطابُ للكفار^(٧) والمنافقين. عن ابن عباس^(٨).

فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخُثْمِ والطَّنْبِ والصَّمَمِ والعمى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يريدُ العلمَ الخاصَّ في أنَّ^(٩) الله تعالى خَلَقَ الخلقَ، وأنزل الماءَ، وأنبت الرِّزْقَ^(١٠)، فيعلمون أنَّه المُنْعِمُ عليهم دون الأنداد.

(١) ديوانه ص ٢٨٦، وفيه: لكيما. والسَّنْدَرِيُّ شاعر كان مع علقمة بن عُلاثة، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل، فدعي لبيد إلى مهاجته، فأبى. العمام: الجماعات المتفرقون. والمعنى: وأجعل أقواماً مجتمعين فِرَقًا. اللسان: (عمم).

(٢) مجاز القرآن ٣٤/١.

(٣) إعراب القرآن ١٩٩/١.

(٤) الصحاح (ندد).

(٥) بالتشديد، وهي من سورة المؤمن، الآية ٣٢، ونسبت هذه القراءة لابن عباس والضحاك وأبي صالح والكلبي، وهي قراءة شاذة. القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٢، والمحتسب ٢/٢٤٣.

(٦) في النسخ: قوله تعالى وهي السابعة، والمثبت من (م).

(٧) في (م): للكافرين.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٩٣/١.

(٩) في (م): بأن

(١٠) المحرر الوجيز ١٠٦/١.

الثاني : أن يكون المعنى : وأنتم تعلمون وُحْدَانِيَّتَهُ بالقُوَّة والإمكان لو تَدَبَّرْتُمْ ونَظَرْتُمْ، والله أعلم.

وفي هذا دليلٌ على الأمر باستعمال حُجَج العقول، وإبطالِ التقليد.

وقال ابنُ قُورَك : يَحْتَمِلُ أن تتناول الآيةُ المؤمنين، فالمعنى : لا تَرْتَدُّوا أيُّها المؤمنون وتَجْعَلُوا لله أنداداً بعد عِلْمِكُمْ - الذي هو نفْيُ الجهل - بأنَّ الله واحدٌ^(١).

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي : في شك . ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني القرآن، والمرادُ : المشركون الذين تُحَدُّوا، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا القرآنَ قالوا : ما يُشَبِّهُ هذا كلامَ الله، وإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، فنزلت الآيةُ.

ووجهُ اتِّصالها بما قبلها أَنَّهُ سبحانه لَمَّا ذَكَرَ في الآية الأولى الدلالةَ على وُحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، ذَكَرَ بعدها الدلالةَ على بُيُوتَةِ نَبِيِّهِ، وَأَنَّ ما جاء به ليس مُفْتَرًى مِنْ عِنْدِهِ.

قوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ، والعبدُ مأخوذٌ من التعبد، وهو التذللُ، فَسَمِّيَ المملوكُ - من جنس ما يَفْعَلُهُ - عبداً، لتذللِهِ لمولاه^(٢). قال طَرَفَةُ :

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ لِإِفْرَادِ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ^(٣)
أي : المُذَلَّل.

قال بعضهم : لَمَّا كَانَتِ الْعِبَادَةُ أَشْرَفَ الْخِصَالِ، وَالتَّسْمِيَّ بِهَا أَشْرَفَ الْخُطَطِ، سَمِيَ نَبِيُّهُ عَبْدًا، وَأَنشَدُوا :

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءِ يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبْدُهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي^(٤)

(١) نفس المصدر.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٨٤/١.

(٣) البيت من معلقته، وهو في ديوانه ص ٣١.

(٤) البيتان في نفع الطيب ٦٦٥/٢ من غير نسبة لقائله، وجاء فيه الشطر الأول من البيت الأول : يا عمرو =

﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ﴾ الفاء جواب الشرط، إئتوا مقصوراً لأنه من باب المجيء؛ قاله ابن كيسان^(١).

وهو أمرٌ معناه التعجيز؛ لأنه تعالى عَلَّمَ عَجَزَهُمْ عنه. والسورة: واحدة السور، وقد تقدّم الكلام فيها وفي إعجاز القرآن^(٢)، فلا معنى للإعادة.

و«من» في قوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ زائدة، كما قال: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]. والضميرُ في «مثله» عائِدٌ على القرآن عند الجمهور من العلماء، كقتادة ومجاهد^(٣) وغيرهما.

وقيل: يعودُ على التّوراة والإنجيل، فالمعنى: فَأَتُوا بِسُورَةٍ من كتابٍ مثله، فإنّها تُصدّق ما فيه.

وقيل: يعود على النبي ﷺ، المعنى: من بَشَرٍ أُمِّيٍّ مثله، لا يَكُتُبُ ولا يقرأ^(٤). ف: «مِنْ» على هذين التأويلين للتّبعض.

والوقفُ على «مثله» ليس بتامّاً؛ لأنَّ «وَادْعُوا» نَسَقٌ عليه^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ معناه أعوانكم ونُصَرَاءَكُمْ. القراء^(٦): ألّهتكم.

وقال ابن كيسان: فإن قيل: كيف ذَكَرَ الشُّهداءَ ها هنا، وإنّما يكون الشُّهداء لِيَشْهَدُوا أَمْرًا، أَوْ لِيُخْبِرُوا بِأَمْرِ شَهِدُوهُ، وإنّما قيلَ لهم: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾؟

فالجوابُ: أنّ المعنى: استعينوا بمن وجدْتُموه من علمائكم، وأخضروهم لِيُشَاهِدُوا ما تَأْتُونَ به، فيكون الرّدُّ على الجميع أو كَدَّ في الحُجَّةِ عليهم.

قلتُ: هذا هو معنى قولٍ مجاهد؛ قال مجاهد: معنى ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ أي:

= نَادِ عَبْدَ زَهْرَاءَ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٩.

(٢) ص ١٠٦ و ١١٢ - ١٢٢.

(٣) أخرجه الطبري ١/٣٩٦-٣٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ١/١٠٦ - ١٠٧.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/٥٠٣.

(٦) معاني القرآن ١/١٩.

ادْعُوا نَاسًا يَشْهَدُونَ لَكُمْ^(١)، أي: يشهدون لكم أنكم عَارَضْتُمُوهُ. النَّحَّاسُ^(٢): ﴿شَهِدَاءُكُمْ﴾ نصب بالفعل، جَمْعُ شَهِيدٍ، يقال: شاهدٌ وشَهِيدٌ، مثل قادرٌ وقديرٌ.
قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من غيره، و«دون» نقيضُ «فوق»، وهو تقصيرٌ عن الغاية، ويكون ظرفاً. والدُّون: الحَقِيرُ الخَسِيسُ.
قال:

إذا ما عَلَا المرءُ رَامَ العلاءَ وَيَقْنَعُ بالدُّونِ مَنْ كَانَ دُونًا^(٣)
ولا يُشْتَقُّ منه فعلٌ، وبعضهم يقول منه: دانَ يَدُونُ دُونًا، ويقال: هذا دُونُ ذاك، أي: أقرب منه، ويقال في الإغراء بالشيء: دُونَكِهِ. قالت تَمِيمٌ للحجاج: أَقْبِرْنَا صَالِحًا - وكان قد صَلَّاهُ - فقال: دُونَكُمْوهُ^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تَقْدِرُونَ على المعارضة، لقولهم في آية أخرى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وَالصُّدُقُ: خِلَافُ الكَذِبِ، وقد صَدَقَ في الحديث، وَالصُّدُقُ: الصُّلْبُ من الرِّمَاحِ، ويقال: صَدَقُوهم القتال، والصُّدِيقُ: الملازمُ للصُّدُقِ، ويقال: رجلٌ صِدْقٍ، كما يقال: نِعَمَ الرجل، والصَّدَاقَةُ مشتَقَّةٌ من الصُّدُقِ في التُّضَحِّ والوُدِّ^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني فيما مضى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: تُطِيقُوا ذلك فيما يأتي.

(١) أخرجه الطبري ٣٩٩/١.

(٢) إعراب القرآن ١٩٩/١.

(٣) هو في الصحاح واللسان (دون) من غير نسبة.

(٤) الصحاح (دون) وأورد هذا الخبر أيضاً ابن السكيت في إصلاح المنطق ٢٦٢/١، وابن الأنبري في النهاية، وابن منظور في اللسان (قبر) نقلاً عن أبي عبيدة. ومعنى قولهم: أقبرنا صالحاً، أي: أمكننا من دفنه في القبر. وصالح: هو ابن عبد الرحمن، وينظر ما سيرد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا لَهُمْ فَاقِبَرُهُ﴾ [عبس: ٢١].

(٥) مجمل اللغة لابن فارس (صدق).

والوقوفُ على هذا على: ﴿صَدِّقِينَ﴾ تامٌّ، وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية: وادْعُوا شهداءكم من دون الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، ولَنْ تَفْعَلُوا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ. فعلى هذا التفسير لا يَتِمُّ الوقفُ على ﴿صَدِّقِينَ﴾^(١).

فإن قيل: كيف دَخَلَتْ «إِنْ» على «لَمْ» ولا يَدْخُلُ عاملٌ على عامل؟
فالجوابُ أنَّ «إِنْ» ها هنا غيرُ عاملةٍ في اللفظ، فدَخَلَتْ على «لَمْ» كما تَدْخُلُ على الماضي؛ لأنها لا تَعْمَلُ في «لَمْ» كما لا تَعْمَلُ في الماضي؛ فمعنى «إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا»: إِنْ تَرَكْتُمْ الْفِعْلَ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ نصب بـ «لَنْ» ومن العرب مَنْ يجزُمُ بها. ذكره أبو عبيدة^(٣)، ومنه بيتُ النابغة:

فَلَنْ أَعْرَضُ أَبَيْتَ اللَّغْنِ بِالصَّفَدِ^(٤)

وفي حديث ابنِ عمر حين ذُهِبَ به إلى النَّارِ في منامه: فقل لي: لَنْ تُرْعَ^(٥). هذا على تلك اللغة.

وفي قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إثارةٌ لَهُمِهِمْ، وتحريكٌ لِنَفْسِهِمْ؛ ليكونَ عَجْزُهُمْ بعد ذلك أَبَدَعْ، وهذا من العيوب التي أَخْبَرَ بها القرآنُ قبلَ وَقُوعِهَا^(٥).

وقال ابنُ كَيْسَانَ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^(٦) توقيفاَ لَهُمْ على أَنَّهُ الْحَقُّ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٥٠٣/١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٠/١.

(٣) هذا عجز بيت من معلقته، وصدده: هذا الثناء فإن تسمع به حسناً. «لَنْ أَعْرَضُ» رواية ابن عطية ١٠٧/١، ورواية الديوان ص ٣٧: فلم أَعْرَضُ، ورواية النحاس في شرح القصائد ٧٦٥/٢: فما عرضت. قوله: الصفد: العطاء، قال الأصمعي: ولا يكون الصفد ابتداءً، إنما هو بمنزلة المكافأة. وسيورد المصنف البيت عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الحجر، وروايته: فلم.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في المصنف (١٦٤٥)، وأخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٨) بلفظ: لَمْ تَرْعَ، وعند البخاري كذلك (٧٠٣٠) بلفظ: لَمْ تَرَاعَ. قال الحافظ في الفتح ٧/٣: وقع في رواية القابسي: لَنْ تَرْعَ، بحذف الألف. قال ابن التين: وهي لغة قليلة. أي: الجزم بلن... وينظر تمة كلامه.

(٥) المحرر الوجيز ١٠٧/١.

(٦) في النسخ: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا: والمثبت من (م).

صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترى، وأنه سحر، وأنه شجر، وأنه أساطير الأولين، وهم يدعون العلم، ولا يأتون بسورة من مثله.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جواب ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: فاتقوا النار بتصديق النبي ﷺ وطاعة الله تعالى. وقد تقدّم معنى التقوى^(١)، فلا معنى لإعادتها. ويقال: إن لغة تميم وأسد: «فتقوا النار»، وحكى سيبويه^(٢): «تَقَى يَتَقَى، مثل: قَضَى يَقْضِي. «النار» مفعولة.

«التي» من نعتها^(٣)، وفيها ثلاث لغات: «التي» و«اللَّت» بكسر التاء، و«اللَّت» بإسكانها، وهي اسم مُبْهَم للمؤنث، وهي معرفة، ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتذكير، ولا تتم إلا بصلة. وفي تشنيها ثلاث لغات أيضاً: «اللَّتان» و«اللَّتتا» بحذف النون، و«اللَّتَان» بتشديد النون. وفي جمعها خمس لغات: «اللَّاتي»، وهي لغة القرآن، و«اللَّات» بكسر التاء بلا ياء، و«اللَّواتي»، و«اللَّوات» بلا ياء. وأنشد أبو عبيدة^(٤):

من اللَّواتي والسي واللَّاتي زَعَمْن أن قَدْ كَبِرَتْ لِدَاتِي^(٥)
و«اللَّوا» بإسقاط التاء. هذا ما حكاه الجوهري^(٦) وزاد ابن الشجري^(٧): «اللَّاتي» بالهمز وإثبات الياء، و«اللَّاء» بكسر الهمزة وحذف الياء، و«اللَّا» بحذف الهمزة، فإن جمعتَ الجمعَ قلتَ في «اللَّاتي»: «اللَّواتي»، وفي «اللَّاء»: «اللَّواتي». قال الجوهري: وتصغير «التي» «اللَّتِيَّا» بالفتح والتشديد. قال الراجز^(٨):

(١) ص ٢٤٨.

(٢) الكتاب ٤/ ١١٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٠ - ٢٠١.

(٤) في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

(٥) البيت في مجاز القرآن ١/ ١١٩، الشعر والشعراء ١/ ٨٨، وأماله ابن الشجري ١/ ٣٤ من غير نسبة.

(٦) الصحاح: (لتي).

(٧) في أماليه ٣/ ٦٠.

(٨) هو العجاج، والشرط الأول من شواهد سيبويه ٢/ ٣٤٧ و٣/ ٤٨٨، والبيت في المقتضب ٢/ ٢٨٩، وأماله ابن الشجري ١/ ٣٤.

بعد اللَّتْيَا وَاللَّتْيَا والتي إِذَا عَلَّثَهَا أَنْفُسٌ تَرَدَّتْ
وبعضُ الشعراء أدخَلَ على «التي» حرفَ النَّداء، وحروفُ النَّداء لا تدخلُ على ما
فيه الألفُ واللامُ إلَّا في قولنا: يا الله، وحده، فكأنَّه شَبَّهها به من حيثُ كانت الألفُ
واللامُ غيرَ مفارقتين لها، وقال:

مِنْ أَجْلِكَ يَا الَّتِي تَيَّمَّتْ قَلْبِي وَأَنْتِ بِخَيْلَةٍ بِالْوُدِّ عَنِّي^(١)
ويقال: وَقَعَ فلان في اللَّتْيَا والتي، وهما اسمان من أسماء الدَّاهية.
و«الْوُفُودُ» بالفتح: الحَطَب، وبالضم: التَّوَقُّد.

و«الناس» عمومٌ، ومعناه الخصوصُ فيمن سَبَق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها،
أَجَارَنَا الله منها.

و«الحجارة»: هي حجارة الكِبْرِيتِ الأسود؛ عن ابن مسعود والفرَّاء^(٢). وَخُصِّتْ
بذلك لأنها تزيدُ على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتِّقاد، نَشْنُ
الرائحة، كثرة الدُّخَان، شِدَّة الالتصاق بالأبدان، قوَّة حَرِّها إذا حَمِيَتْ^(٣).

وليس في قوله تعالى: ﴿وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ دليلٌ على أن ليس فيها غيرُ
الناس والحجارة، بدليل ما ذَكَرَه في غير موضعٍ من كَوْنِ الجنِّ والشیاطين فيها.

وقيل: المرادُ بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبُ جهنَّمَ، وعليه فتكون الحجارة والناسُ
وَفُوداً للنار، وذَكَرَ ذلك تعظيماً للنار أنها تُحْرِقُ الحجارة مع إحراقها للناس.

وعلى التأويل الأول يكونون معذبين بالنار والحجارة.

(١) في الصحاح: بالوصل عني، والبيت من شواهد سيبويه ١٩٧/٢، وهو في المقتضب ٢٤١/٤،
واللامات للزجاجي ص ٣٤، والإنصاف ٣٣٦/١ - والرواية فيه: فَدَيْتُكَ يا التي - وشرح المفصل
٨/٢، ولم ينسبه لقائله.

(٢) معاني القرآن ٢٠/١، وقول ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٤٠/١، والطبري ٤٠٣/١ و٤٠٤،
والحاكم ٢٦١/٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٣) المحرر الوجيز ١٠٧/١.

وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ مُؤذٍ في النار»^(١). وفي تأويله وجهان:

أحدهما: أن كلَّ مَنْ آذى النَّاسَ في الدنيا عَذَّبَهُ اللهُ في الآخرة بالنار.

الثاني: أن كلَّ ما يُؤذي النَّاسَ في الدنيا من السَّباع والهُوَامِّ وغيرها في النار مُعَذَّبٌ لعقوبة أهل النار.

وذَهَبَ بعضُ أهلِ التَّأويلِ أنَّ^(٢) هذه النَّارَ المخصوصةَ بالحجارة هي نارُ الكافرين خاصَّةً. والله أعلم.

روى مسلم^(٣) عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إنَّ أبا طالبٍ كان يَحُوطُكَ وينصُرُكَ، فهل نَفَعَهُ ذلك؟ قال: «نعم، وَجَدْتُهُ في عَمَرَاتٍ من النار، فأخرجته إلى ضَحَضاح». في رواية: «ولولا أنا لكان في الدَّرَكِ الأسفلِ من النار».

«وَقُودُهَا» مبتدأ، «النَّاسُ» خَبَرُهُ، «والحجارةُ» عطفت عليهم، وقرأ الحَسَنُ ومجاهدٌ وطلحة بن مُصَرِّف: «وَقُودُهَا» بضم الواو^(٤)، وقرأ عبيد بن عُمير: «وَقِيدُهَا النَّاسُ»^(٥).

قال الكِسائي والأخفش^(٦): «الْوَقُودُ بفتح الواو: الحَطَبُ»، وبالضم: الفعل.

يقال: وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ وَقُوداً، بالضم، ووقَّداً، وقَدَّةً، [ووقَّداً]، ووقَّداً، أي: تَوَقَّدَت، وأوقدتها أنا، واستوقدتها أيضاً، والانتقاد^(٧) مثل التَّوقُّد، والموضع مَوْقِد،

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٧٤٩/٢، والخطيب في تاريخ بغداد ٢٩٩/١١ من حديث علي رضي الله عنه، وفيه عثمان بن الخطاب الأشج المعروف بأبي الدنيا، وهو ضعيف.

(٢) في (م): إلى أن.

(٣) رقم (٢٠٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٦٨)، والبخاري (٣٨٨٣).

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤، والمحتسب لابن جني ٦٣/١.

(٥) في (د): وقرأ أبو عبيد بن عمير، ولم تقف على من ذكر هذه القراءة. وأوردها أبو حيان في البحر ١٠٧/١.

(٦) معاني القرآن ٢١٢/١، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢٠٢/١.

(٧) في النسخ: والإيقاد، والمثبت من (م).

مثلُ مَجْلِسٍ، والنَّارُ مُوقَدَةٌ. والْوَقْدَةُ: شِدَّةُ الْحَرِّ، وهي عشرةُ أيامٍ، أو نصفُ شهرٍ^(١). قال النحاس^(٢): يجب على هذا ألا يُقرأ إلَّا: «وَقُودَهَا» [بفتح الواو] لأنَّ المعنى: حَطْبُهَا، إلَّا أنَّ الْأَخْفَشَ قال: وَحَكِيَّ أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ يَجْعَلُ الْوُقُودَ وَالْوُقُودَ بِمَعْنَى الْحَطَبِ وَالْمَصْدَرِ.

قال النحاس: وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْأَوَّلَ أَكْثَرُ. قال: كما أَنَّ الْوَضُوءَ الْمَاءُ، وَالْوَضُوءَ الْمَصْدَرُ.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ظاهره أَنَّ غَيْرَ الْكَافِرِينَ لَا يَدْخُلُهَا، وليس كذلك؛ بدليل ما ذَكَرَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْوَعِيدِ لِلْمُذْنِبِينَ، وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة على ما يَأْتِي^(٣).

وفيه دليلٌ على ما يَقُولُهُ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةٌ مَخْلُوقَةٌ، خِلَافًا لِلْمَبْتَدَعَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ حَتَّى الْآنَ، وهو الْقَوْلُ الَّذِي سَقَطَ فِيهِ الْقَاضِي مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ الْبَلُّوطِيُّ الْأَنْدَلِسِيُّ^(٤).

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود^(٥) قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَذَرُونَ مَا هَذَا؟» قُلْنَا^(٦): اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا».

وروى البخاريُّ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «اِخْتَجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ،

(١) الصحاح (وقد)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن ٢٠١/١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

(٤) المحرر الوجيز ١٠٨/١، ومنذر بن سعيد البلوطي: فقيهٌ محققٌ، وخطيبٌ مفوّهٌ، قاضي الجماعة بقرطبة، وهو من موضع قريب منها، يقال له فحص البلوط، توفي سنة (٢٥٥هـ)، السير ١٧٣/١٦.

وقال أبو حيان في البحر المحيط ١٠٨/١: وكان قاضي القضاة بالأندلس، وكان معتزلياً في أكثر الأصول، ظاهرياً في الفروع... وسرى إليه ذلك القول من كثير من المعتزلة.

(٥) رقم (٢٨٤٤)، وهو من حديث أبي هريرة لا من حديث ابن مسعود كما قال المصنف.

(٦) في (م): قال قلنا.

فقالت هذه: يدخُلني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلني الضُّعفاء والمساكين، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مِنْ أَشَاءَ، وقال لهذه: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مِنْ أَشَاءَ، ولكلِّ واحدةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. وأخرجه مسلم بمعناه^(١).

يقال: احتجَّت بمعنى تحتجُّ؛ للحديث المتقدم حديث ابن مسعود^(٢)، ولأنَّ النبي ﷺ قد أَرِيَهُمَا فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ^(٣)، ورأهما أيضاً في إسرائه^(٤)، ودخَلَ الجنة^(٥)، فلا معنى لما خالف ذلك. وبالله التوفيق.

و﴿أَعِدَّتْ﴾ يجوز أن يكون حالاً للنَّار على معنى مُعَدَّة، وأُضْمِرَتْ معه «قد»، كما قال: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، فمعناه: قد حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ، فمع^(٦) «حَصِرَتْ» «قد» مضمرَّة، لأنَّ الماضي لا يكون حالاً إلَّا مع «قد»، فعلى هذا لا يتمُّ الوقف على «الحجارة».

ويجوز أن يكون كلاماً منقطعاً عما قبله، كما قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال السُّجِسْتَانِي: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ من صِلَةٍ «التي»، كما قال في آل عمران: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [الآية: ١٣١]. ابن الأنباري^(٧): وهذا غلط، لأنَّ التي في سورة البقرة قد وُصِلَتْ بقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ فلا يجوز أن تُوصَلَ بصلَةٍ ثانية، وفي آل عمران ليس لها صِلَةٌ غير «أَعِدَّتْ».

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦) (٣٤)، غير أن لفظه لمسلم، وهو عند البخاري بمعناه خلافاً لما ذكره المصنف.

(٢) سلف أنه من حديث أبي هريرة.

(٣) سلف ص ٢٨٠.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٨٥)، والترمذي (٣١٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) في النسخ: فمعناه حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ، ومع حَصِرَتْ قد...، والمثبت من (م).

(٧) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥٠٤ - ٥٠٥، والكلام الذي قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين، ذكر جزاء المؤمنين أيضاً.

والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشارة - وهي ظاهر الجلد - لتغييرها بأول خبر يرد عليك، ثم الغالب أن يستعمل في السرور مقيداً بالخبر المُبَشِّر به، وغير مقيّد أيضاً، ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيداً منصوفاً على الشر المُبَشِّر به، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) [آل عمران: ٢١] ويقال: بَشَّرْتُهُ وَبَشَّرْتُهُ - مخفَّف ومشدّد^(٢) - بشارَة، بكسر الباء، فأبشَرَ واستبشَرَ، وبَشِرَ يَبْشِرُ: إذا فَرِحَ، ووجهُ بشير إذا كان حسناً بين البشارة، بفتح الباء، والبُشْرَى: ما يُعطاه المُبَشِّر، وتبأشِيرُ الشيء: أوَّلُه.

الثانية: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: مَنْ بَشَّرَنِي مِنْ عِبِيدِي بكذا فهو حُرٌّ، فَبَشَّرَهُ واحدٌ من عبيده فأكثر، فإنَّ أوَّلهم يكون حراً دون الثاني.

واختلفوا إذا قال: مَنْ أَخْبَرَنِي مِنْ عِبِيدِي بكذا فهو حُرٌّ، فهل يكون^(٣) الثاني مثل الأول؟ فقال أصحابُ الشافعي: نعم، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم مُخْبِرٌ، وقال علماؤنا: لا، لأنَّ المكلف إنَّما قصَّد خبراً يكون بشارَة، وذلك يختصُّ بالأوّل، وهذا معلومٌ عرفاً، فوجبَ صَرْفُ القول^(٤) إليه^(٥)، وفرَّقَ محمد بنُ الحسن بين قوله: أخبرني، أو حَدَّثَنِي، فقال: إذا قال الرجل: أيُّ غلامٍ لي أَخْبَرَنِي بكذا، أو أعلَمَنِي بكذا وكذا، فهو حُرٌّ - ولا نيةَ له - فأخبره غلامٌ له بذلك، بكتابٍ أو كلامٍ أو رسول، فإنَّ الغلامَ

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٨.

(٢) في (د): مخففاً ومشدداً.

(٣) لفظ: يكون، ليس في النسخ.

(٤) في النسخ: الأول.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/١٥.

يَعْتِقُ؛ لَأَنَّ هَذَا خَيْرٌ، وَإِنْ أَخْبَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ غَلَامٌ لَهُ، عَتَقَ، لَأَنَّهُ قَالَ: أَيُّ غَلَامٍ أَخْبَرَنِي فَهُوَ خَيْرٌ، وَلَوْ أَخْبَرُوهُ كُلُّهُمْ عَتَقُوا؛ وَإِنْ كَانَ عَنِّي - حِينَ حَلَفَ - بِالْخَبَرِ كَلَامٌ مُشَافَهَةٌ، لَمْ يَعْتِقْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُخْبِرَهُ بِكَلَامٍ مُشَافَهَةٍ بِذَلِكَ الْخَبَرِ، قَالَ: وَإِذَا قَالَ: أَيُّ غَلَامٍ لِي حَدَّثَنِي، فَهَذَا عَلَى الْمُشَافَهَةِ، لَا يَعْتِقُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْإِيمَانَ بِمَجَرَّدِهِ يَقْتَضِي الطَّاعَاتِ؛ لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مَا أَعَادَهَا^(٢)، فَالْجَنَّةُ تُنَالُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقِيلَ: الْجَنَّةُ تُنَالُ بِالْإِيمَانِ، وَالذَّرَجَاتُ تُسْتَحَقُّ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَنْ هُمْ﴾ «أَنَّ» فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِ «بَشَرٌ»، وَالْمَعْنَى: وَبَشَرُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّ لَهُمْ، أَوْ: لَأَنَّ لَهُمْ، فَلَمَّا سَقَطَ الْخَافِضُ عَمِلَ الْفَعْلُ، وَقَالَ الْكَسَائِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ: «أَنَّ» فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ بِإِضْمَارِ الْبَاءِ.

﴿جَنَّاتٍ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ اسْمُ «أَنَّ»، وَ«أَنَّ» وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي.

وَالْجَنَّاتُ: الْبَسَاتِينُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ جَنَّاتٍ، لِأَنَّهَا تُجَنُّ مَنْ فِيهَا، أَي: تَسْتُرُهَا، وَمِنْهُ: الْمَجَنُّ وَالْجَنِينُ وَالْجَنِّ^(٣) وَالْجَنَّةُ.

﴿يَجْرِي﴾ فِي مَوْضِعِ النَّعْبِ لـ «جَنَّاتٍ»، وَهُوَ مَرْفُوعٌ، لَأَنَّهُ فِعْلٌ مُسْتَقْبَلٌ، فَحُذِفَ الضَّمَّةُ مِنَ الْبَاءِ لِثِقَلِهَا مَعَهَا^(٤).

﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أَي: مِنْ تَحْتَ أَشْجَارِهَا، وَلَمْ يَجْرَ لَهَا ذِكْرٌ، لِأَنَّ الْجَنَّاتِ دَالَّةٌ عَلَيْهَا. ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أَي: مَاءُ الْأَنْهَارِ، فَتُسَبَّبَ الْجَرِيُّ إِلَى الْأَنْهَارِ تَوَسُّعًا، وَإِنَّمَا يَجْرِي الْمَاءُ وَحْدَهُ، فَحُذِفَ اخْتِصَارًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَكَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أَي: أَهْلَهَا.

(١) المحدث الفاضل ص ٥١٩، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٤٣٧.

(٢) المحرر الوجيز ١/١٠٨.

(٣) لفظ: والجن، ليس في (م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠١.

وقال الشاعر :

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُتَيْبُ الْمَجْلِسُ^(١)
أراد: أهل المجلس، فحذف.

والتَّهَرُّ: مأخوذٌ من: أَنْهَرْتُ، أي: وَسَّعْتُ، ومنه قولُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا^(٢)
أي: وَسَّعْتُهَا، يَصِفُ طَعْنَةً، ومنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُّوهُ»^(٣). يعني^(٤): مَا وَسَّعَ الذَّبِيحَ حَتَّى جَرَى^(٥) الدَّمُ كَالنَّهْرِ^(٦).

وجمع التَّهَرُّ: نَهْرٌ وَأَنْهَارٌ، وَنَهْرٌ نَهْرٌ: كَثِيرُ الْمَاءِ، قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ:

أَقَامَتْ بِهِ فَايْتَنَتْ خَيْمَةً عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتٍ نَهْرٌ^(٧)
وَرَوِيَّ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ لَيْسَتْ فِي أَخَادِيدٍ، إِنَّمَا تَجْرِي عَلَى سَطْحِ الْجَنَّةِ مَنْضِبَةً
بِالْقُدْرَةِ حَيْثُ شَاءَ أَهْلُهَا^(٨).

وَالْوَقْفُ عَلَى «الْأَنْهَارِ» حَسَنٌ وَلَيْسَ بِتَامٍ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ مِنْ وَصْفِ الْجَنَّاتِ^(٩).

(١) قاتله مهلهل بن ربيعة، والبيت في الحماسة ٩٢٨/٢ (بشرح المزمزقي)، والمحذر الوجيز ١٠٨/١. ومعنى

الشرط الثاني: إن أهل المجلس تنازعوا الكلام بعلك، حتى صار بعضهم يسب بعضاً، ولا شيء يردعهم.

(٢) البيت في ديوانه ص ٤٦، والحماسة ١٨٤/١ (بشرح المزمزقي) ورواية الديوان: يرى قائماً من خلفها ما وراءها. ورواية الحماسة: يرى قائماً من دونها.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٨٠٦)، والبخاري (٢٤٨٨)، ومسلم (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

(٤) في (م): معناه.

(٥) في (م): يجري.

(٦) المحذر الوجيز ١٠٨/١.

(٧) البيت في ديوان الهذليين ص ١٤٦، وروايته: وفرات النهر. قوله: القصب، يعني مجاري الماء من العيون. الصحاح (قصب).

(٨) المحذر الوجيز ١٠٨/١. وأخرج ابن جرير ٤٠٦/١ من طريق أبي عبيدة، عن مسروق، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما نزع ثمرة عادت مكانها أخرى، وماؤها يجري في غير أخدود. وانظر صفة الجنة لأبي نعيم ١٦٧/٢ - ١٦٩.

(٩) إيضاح الوقف والابتداء ٥٠٦/١.

﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وقد تقدّم القول في الرزق^(١).

ومعنى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: يعني: في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أنهم قالوا: هذا الذي وعدنا به في الدنيا. والثاني: هذا الذي رزقنا في الدنيا، لأنّ لونها يُشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك.

وقيل: «مِنْ قَبْلُ» يعني في الجنة، لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار في أوّل النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها في آخر النهار، قالوا: هذا الذي رزقنا من قَبْلُ، يعني: أطلعنا في أوّل النهار؛ لأنّ لونه يُشبه ذلك، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول^(٢).

﴿وَأَتُوا﴾ فَعِلُوا، من: أتيت، وقراءة^(٣) الجماعة بضمّ الهمزة والتاء، وقرأ هارون الأعور: «وَأَتُوا» بفتح الهمزة والتاء^(٤)، فالضمير في القراءة الأولى لأهل الجنة، وفي الثانية للخدام.

﴿بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ حالّ من الضمير في «به»، أي: يُشبهه بعضه بعضاً في المنظر^(٥)، ويختلف في الطعم. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. وقال عكرمة: يُشبه ثمر الدنيا، ويُباینه في جُلّ^(٦) الصفات. ابن عباس: هذا على وجه التعجب، وليس في الدنيا شيء ممّا في الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حُسن الثمرة وعِظَم خلقها. وقال قتادة: خياراً لا رذل فيه، كقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه، لأنّ فيها خياراً غير خيار^(٧).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ ابتداءً وخبر. وأزواج: جمع زَوْج، والمرأة: زَوْج الرجل،

(١) ص ٢٧٣.

(٢) تفسير الطبري ١/٤٠٨-٤٠٩، والمحرر الوجيز ١/١٠٩.

(٣) في (م): وقرأه.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٣، والمحرر الوجيز ١/١٠٩.

(٥) في النسخ: النظر، والمثبت من (م).

(٦) في (د) يشبه ثمار الدنيا في كل الصفات.

(٧) المحرر الوجيز ١/١٠٩، وتخريج هذه الآثار عند الطبري ١/٤١٦-٤١٣.

والرجل زَوْج المرأة. قال الأصمعي: ولا تكادُ العربُ تقول: زوجة، وحكى الفراء^(١) أنه يقال: زوجة، وأنشد الفرزدق:

وإنَّ الذي يسعى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كساعٍ إلى أسدٍ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا^(٢)
وقال عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: والله إنِّي لأَعْلَمُ
أنَّها زوجتُه في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله ابتلاكُم. ذكره البخاري^(٣)، واختاره الكسائي.
﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج، ومُطَهَّرَةٌ في اللغة أجمعٌ من طاهرة وأبلغ، ومعنى
هذه: الطهارة من الحيض والبُصاق وسائل أقدار الأدميَّات^(٤).

ذكر عبد الرزاق^(٥) قال: أخبرني الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:
«مُطَهَّرَةٌ» قال: لا يَيْلُنْ، ولا يَتَغَوَّظُنْ، ولا يَلِدُنْ، ولا يَحِضُنْ، ولا يُمْنِنُ، ولا
يَبْزُقُنْ^(٦). وقد أتينا على هذا كله في وَصْفِ أهل الجنة وَصِفَةِ الجنة ونعيمها من كتاب
«التذكرة»^(٧)، والحمد لله.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «هم» مبتدأ. «خالدون» خبره، والظرف مُلغَى، ويجوز في
غير القرآن نصبُ خالدٍ على الحال^(٨).

والخلود: البقاء، ومنه جَنَّةُ الخُلْد، وقد تُستعملُ مجازاً فيما يطول، ومنه قولهم
في الدعاء: خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ، أي: طَوَّلَهُ. قال زهير:

أَلَا لَا أَرَى عَلَى الْحَوَادِثِ بَاقِيَاً وَلَا خَالِدَاً إِلَّا الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا^(٩)

(١) في المذكر والمؤنث ص ٢٦.

(٢) البيت في ديوانه ٦٠٥/٢، وفي الأضداد لابن الأنباري ص ٣٧٤، والصحاح: (بول)، والمحرم
الوجيز ١٠٩/١. ورواية ابن الأنباري: وإن الذي يمشي يحرش زوجتي كماشي... وقوله: يستبيلها،
أي: يأخذ بولها في يده.

(٣) رقم (٣٧٧٢).

(٤) المحرم الوجيز ١٠٩/١.

(٥) في تفسيره ٤١/١.

(٦) في (د): ينزفن، وفي (م): يصقن، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو موافق لتفسير عبد الرزاق.

(٧) ص ٤٣٨ وما بعدها.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٢/١.

(٩) ديوانه ص ٢٨٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: لَمَّا ضَرَبَ اللهُ سَبْحَانَهُ هَذِينَ الْمَثَلَيْنِ لِلْمُنَافِقِينَ، يعني: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]، قالوا: الله أَجْلٌ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَضْرِبَ الْأَمْثَالَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(١)

وفي رواية عطاء عن ابن عباس، قال: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ آلِهَةَ الْمُشْرِكِينَ، فقال: ﴿وَإِنْ يَسْتَلْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وذكر كَيْدَ الْآلِهَةِ، فَجَعَلَهُ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، قالوا: أَرَأَيْتَ حَيْثُ ذَكَرَ اللهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ، أَيُّ شَيْءٍ يَصْنَعُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ الْآيَةَ.

وقال الحسن وقتادة: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ، وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمَثَلَ، ضَحِكَتِ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا يُشَبِّهُ هَذَا كَلَامَ اللهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ الْآيَةَ^(٢).

و﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله: يَسْتَحْيِي، عَيْنُهُ وَلَا مُمَّهُ حَرْفَا عِلَّةٍ، أُعِلَّتِ اللَّامُ مِنْهُ بِأَنْ اسْتَقْبَلَتْ الضَّمَّةُ عَلَى الْيَاءِ فَسَكَنْتَ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ عَلَى هَذَا: مُسْتَحْيٍ، وَالْجَمْعُ: مُسْتَحْيُونَ وَمُسْتَحْيِينَ. وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ: «يَسْتَحْيِي» بِكسر الحاء وَيَاءٍ وَاحِدَةٍ سَاكِنَةٍ^(٣)، وَرَوَى عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ، وَهِيَ لُغَةٌ تَمِيمٍ، وَبَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، نُقِلَتْ فِيهَا حَرَكَةُ الْيَاءِ الْأُولَى إِلَى الْحَاءِ، فَسَكَنْتَ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الضَّمَّةُ عَلَى الثَّانِيَةِ فَسَكَنْتَ، فَحُذِفَتْ إِحْدَاهُمَا لِلِالْتِقَاءِ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ مُسْتَحٍ، وَالْجَمْعُ: مُسْتَحُونَ وَمُسْتَحِينَ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ^(٤).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٢٣/١.

(٢) الأخبار الثلاثة في أسباب النزول للواحدي عند هذه الآية. وأخرج قول قتادة أيضاً الطبري في تفسيره ٤٢٤/١.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٤) صحاح الجوهري (حيا)، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١١٠/١.

واختلف المتأولون في معنى «يستحيي» في هذه الآية، فقليل: لا يخشى، ورجَّحه الطبري^(١)، وفي التنزيل: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، بمعنى تستحي. وقال غيره: لا يترك، وقيل: لا يمتنع.

وأصل الاستحياء: الانقباض عن الشيء، والامتناع منه، خوفاً من مواجهة القبيح، وهذا محالٌ على الله تعالى.

وفي «صحيح» مسلم^(٢): عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم^(٣) إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق. المعنى: لا يأمر بالحياء فيه، ولا يمتنع من ذكره.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ «يضرب» معناه: يُبين، و«أن» مع الفعل في موضع نصبٍ بتقدير حذف «من». «مثلاً» منصوبٌ بـ: «يضرب». «بعوضة»: في نصبها أربعة أوجه:

الأول: تكون «ما» زائدة، و«بعوضة» بدلاً من «مثلاً».

الثاني: تكون «ما» نكرةً في موضع نصبٍ على البديل من قوله: «مثلاً»، و«بعوضة» نعتٌ لـ «ما»، فوصفت «ما» بالجنس المنكر لإبهامها، لأنها بمعنى قليل. قاله الفراء والزجاج وثلعب^(٤).

الثالث: نُصِبت على تقدير إسقاط الجار، المعنى: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة، فحذفت «بين» وأُعربت «بعوضة» بإعرابها. والفاء بمعنى «إلى»، أي: إلى ما

(١) تفسير الطبري ٤٢٧/١. وليس فيما قاله الطبري ما يدل على أنه رجح هذا المعنى، ويظهر أن القرطبي قد تابع ابن عطية في هذا.

(٢) رقم (٣١٣)، وأخرجه البخاري (٣٣٢٨).

(٣) الغميصاء بنت ملحان الأنصارية الخزرجية، أم أنس بن مالك، مات زوجها مالك بن النضر مشركاً، ثم تزوجها أبو طلحة، وشهدت حيناً واحداً، وماتت في خلافة عثمان. السير ٣٠٤/٢.

(٤) حكاه عنهم المهدوي، فيما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١١١/١. وينظر معاني القرآن للفراء ٢١/١، ومعاني القرآن للزجاج ١٠٤/١.

فوقها. وهذا قول الكسائي والقرّاء^(١) أيضاً، وأنشد أبو العباس^(٢):

يا أحسنَ الناسِ ما قرّناً إلى قَدَمٍ ولا جبالَ مُحبٍّ واصلٍ تَصِلُ
أراد: ما بين قرْن، فلماً أسقط «بين» نصب.

الرابع: أن يكون «يضرب» بمعنى يجعل، فتكون «بعوضة» المفعول الثاني.

وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤبة بن العجاج: «بعوضة» بالرفع^(٣)، وهي لغة تميم.

قال أبو الفتح^(٤): ووجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة «الذي»، و«بعوضة» رفع على إضمار المبتدأ، التقدير: لا يستحي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلاً، فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ. ومثله قراءة بعضهم: «تماماً على الذي أحسن»^(٥) أي: على الذي هو أحسن.

وحكى سيبويه^(٦): ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، أي: هو قائل.

قال النحاس^(٧): والحذف في «ما» أقبح منه في «الذي»، لأن «الذي» إنما له وجه واحد، والاسم معه أطول.

ويقال: إن معنى ضربت له مثلاً: مثّلت له مثلاً، وهذه الأبنية على ضرب واحد، وعلى مثال واحد، ونوع واحد، والضرب: النوع.

(١) معاني القرآن ٢٢/١، وقد نقل المصنف الأوجه الثلاثة عن النحاس في إعراب القرآن ٢٠٣/١.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: وأنكر أبو العباس هذا الوجه (يعني نصب بعوضة على تقدير إسقاط الجار).

والبيت في الأضداد ص ٢٥١، وإيضاح الوقف والابتداء ٣٥٤/١، وفيه: وأنشد القرّاء. ونقله أبو حيان في البحر ١٢٢/١ عن القرّاء، عن أعرابي من بني سليم.

(٣) ذكرها ابن عطية ١١١/١، واقتصر ابن خالويه ص ٤، وابن جني ٦٤/١ على نسبتها لرؤية.

(٤) المحتسب ٦٤/١.

(٥) يعني بالضم، وهي قراءة ابن يعمر فيما ذكر ابن جني في المحتسب ٢٣٤/١. وقراءة العشرة: «تماماً على ألّوى أحسن» [الأنعام: ١٥٤] بالفتح، وانظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤١.

(٦) الكتاب ١٠٨/٢، وقد حكاه عن الخليل.

(٧) إعراب القرآن ٢٠٣/١ و٢٠٤.

والبُعُوضَةُ: فَعُولَةٌ، من: بَعَضَ: إذا قَطَعَ اللحمَ، يقال: بَضَعَ وَبَعَضَ، بمعنى، وقد بَعَضْتُهُ تبعيضاً، أي: جَزَّأْتُهُ فَبَعَضَ، والبُعُوضُ: البَقُّ، الواحدة بعوضةٌ، سُمِّيَتْ بذلك لِصَغَرِهَا. قاله الجوهري وغيره^(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قد تقدَّم أنَّ الفاء بمعنى «إلى»، وَمَنْ جَعَلَ «ما» الأولى صلةً زائدةً فـ «ما» الثانية عطفٌ على «بعوضة»، ومن جعلها اسماً، فـ «ما» الثانية^(٢) عطفٌ عليها، وقال الكسائي وأبو عبيدة^(٣) وغيرهما: معنى «فما فوقها» - والله أعلم -: ما دونها، أي: إنها فوقها في الصَّغر، قال الكسائي: وهذا كقولك في الكلام: أترأه قصيراً؟ فيقول القائل: أو فوق ذلك، أي: هو أقصرُ ممَّا ترى، وقال قتادة وابن جريج^(٤): المعنى: في الكِبَرِ.

والضمير في «أنَّه» عائِدٌ على المَثَل، أي: إن المثل حقٌّ. والحقُّ خلافُ الباطل، والحقُّ: واحدُ الحقوق، والحقَّة - بفتح الحاء - أخصُّ منه، يقال: هذه حقَّتِي، أي: حَقِّي^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لغةُ بني تميم وبني عامرٍ في «أَمَّا»: أيَّما، يُبَدِّلُونَ من إحدى الميمين ياءً كراهيةً للتضعيف، وعلى هذا يُنَشَّدُ بيتُ عمر بن أبي ربيعة:

رَأَتْ رَجُلًا أَيَّمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضَعِي وَأَيَّمَا بِالْعَشِيِّ فَيُخْصِرُ^(٦)

(١) الصحاح: (بعض)، وانظر المحرر الوجيز ١/١١١.

(٢) من قوله: عطف على بعوضة، سقط من (د) و(م)، وينظر المحرر الوجيز ١/١١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٥.

(٤) ذكره ابن عطية ١/١١١، وأخرج الطبري ١/٤٢٦ من طريق معمر، عن قتادة، قال: البعوضة أضعف ما خلق الله. وعزا نحوه لابن جريج.

(٥) الصحاح: (حقق).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠٤، والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٦٤، وروايته فيه: «أما» بدل: «أيما» في الموضعين. قال البغدادى في خزانة الأدب ١١/٣٦٧: أورده أبو العباس المبرد في الكامل في ثلاثة مواضع، فرواه في أول الثلث الثالث بالإبدال في الأول فقط [١١٥٣/٣] ووقع في مطبوعه «أما» في الموضعين [ورواه في الثلث الأول [١/٣٨٤] على الأصل في الموضعين بلا إبدال، ورواه في أوائله [١/٩٨] بالإبدال في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوكَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: اختلف التَّحْوِثُونَ في «ماذا»، فقليل: هي بمنزلة اسمٍ واحد بمعنى: أيُّ شيءٍ أَرَادَ الله؟ فيكون في موضع نصبٍ بـ «أَرَادَ».

قال ابن كَيْسَانَ: وهو الجَيْد. وقيل: «ما» اسمٌ تامٌّ في موضع رفعٍ بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبرُ الابتداء، ويكون التقدير: ما الذي أَرَادَهُ اللهُ بهذا مثلاً. ومعنى كلامهم هذا الإنكارُ بلفظ الاستفهام. و«مثلاً» منصوبٌ على القطع، التقدير: أَرَادَ مثلاً. قاله ثعلب، وقال ابنُ كَيْسَانَ: هو منصوبٌ على التمييز الذي وَقَعَ موقعَ الحال^(١).

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ قيل: هو من قول^(٢) الكافرين، أي: ما مرادُ الله بهذا المَثَل الذي يُفَرِّقُ به الناسَ إلى ضلالةٍ وإلى هُدى؟ وقيل: بل هو خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ، وهو أشبهٌ؛ لأنَّهم يُقِرُّون بالهُدى أَنَّهُ من عنده، فالمعنى: قل: يُضِلُّ اللهُ به كثيراً، ويهدي به كثيراً، أي: يوفق ويخذل، وعليه فيكون فيه ردٌّ على مَنْ تقدَّم ذكْرُهُم من المعتزلة وغيرهم^(٣) في قولهم: إِنَّ الله لا يخلُقُ الضَّلَال ولا الهدى؛ قالوا: ومعنى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾: التسميةُ هنا، أي: يُسَمِّيهِ ضالًّا^(٤)، كما يقال: فَسَفْتُ فلاناً، يعني: سَمَّيْتُهُ فاسقاً، لأنَّ الله تعالى لا يُضِلُّ أحداً. هذا طريقُهُم في الإضلال، وهو خلافُ أقاويل المفسرين، وهو غيرُ محتملٍ في اللغة؛ لأنَّه يقال: ضلَّه إذا سمَّاه ضالًّا، ولا يقال: أضلَّه إذا سمَّاه ضالًّا، ولكنَّ معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق^(٥): أَنَّهُ يَخْذُلُ به كثيراً من الناس مجازاةً لكفرهم.

= وقال أيضاً في شرحه للبيت: ومعارضة الشمس: ارتفاعها حتى تصير في حيال الرأس، قال صاحب الصحاح: وَضَحِيحٌ بالكسر ضَحَى: عرقت اهـ. وقوله: فيخسر (كما في المعجم الوسيط) أي: يؤلمه البرد في أطرافه.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٤/١.

(٢) في (د): كلام.

(٣) ص ٢٨٥.

(٤) في (ز) و(ط): التسمية أي: سمَّيْتُهُ ضالًّا.

(٥) قوله: من الحق، ليس في «ظ»، ولا في تفسير أبي الليث والكلام منه ١٠٥/١.

ولا خلاف أن قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أنه من قول الله تعالى.
و«الفاستقين» نصب بوقوع الفعل عليهم، والتقدير: وما يضلُّ به أحداً إلا
الفاستقين الذين سبق في علمه أنه لا يهديهم.

ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء؛ لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام^(١).
وقال نؤف البكالي: قال عزير فيما يناجي ربه عز وجل: إلهي، تخلق خلقاً،
فتضل من تشاء وتهدي من تشاء. قال: فليل: يا عزير، أغرض عن هذا، لتعرض عن
هذا أو لأمحوئك^(٢) من النبوة، إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون^(٣).

والضلال أصله: الهلاك، يقال منه: ضلَّ الماء في اللبن: إذا استهلك، ومنه
قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] وقد تقدّم في الفاتحة^(٤).

والفسق أصله في كلام العرب: الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة: إذا
خرجت عن قشرها، والفأرة من جحرها.

والقويسقة: الفأرة، وفي الحديث: «خمس فوايق يقتلن في الحبل والحرم:
الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا». روته عائشة عن النبي
ﷺ، أخرجه مسلم. وفي رواية: «العقرب» مكان «الحية»^(٥). فأطلق ﷺ عليها اسم
الفسق لأذيتها، على ما يأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى^(٦).

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠٥.

(٢) في (د): أعرض عن هذا وإلا محوئك.

(٣) هذا الخبر من الإسرائيليات. وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٣٤٣)، وأبو نعيم في
الحلية ٥٠/٦. ونوف البكالي - راوي الخبر - هو ابن امرأة كعب الأحبار، ولم يذكره أحد بجرح ولا
تعديل، وذكره ابن حبان في «الثقات» ٤٨٣/٥ وقال: يروي القصص، وقال الحافظ ابن حجر في
التقريب: مستور.

(٤) ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٥) صحيح مسلم (١١٩٨) (٦٧)، وأخرجه البخاري أيضاً (٣٣١٤). ورواية: «العقرب» عند مسلم
(١١٩٨) (٦٨)، وعند البخاري كذلك (١٨٢٩).

(٦) ص ٤٧٣ - ٤٧٤، وكذلك عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ﴾ [المائدة: ٩٥].

وَفَسَقَ الرَّجُلُ يَفْسُقُ - وَيَفْسُقُ أَيْضاً عَنِ الْإِخْفَاشِ - فَسَقًا وَفُسُوقًا، أَي: فَجَرَ. فَأَمَّا قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] فمعناه: خرج. وزعم ابن الأعرابي أنه لم يُسَمَّ قَطُّ في كلام الجاهلية ولا في شعرهم: فاسق. قال: وهذا عجب، وهو كلام عربي. حكاه عنه ابن فارس والجوهري^(١).

قلت: قد ذكر أبو بكر بن الأنباري في كتاب «الزاهر» له لَمَّا تَكَلَّمَ على معنى الفسق قول الشاعر^(٢):

يهوين^(٣) في نَجْدٍ وَعَوْرًا غَائِرًا فَوَاسِقًا عَنْ قَضِيهِمْ^(٤) جَوَائِرًا
والفَسِيقُ: الدائمُ الفِسْقِ، ويقال في النداء: يَا فُسْقُ، وَيَا خُبْتُ، يريد: يَا أَيُّهَا الفاسقُ، وَيَا أَيُّهَا الخبيثُ.

والفسقُ في عُرْفِ الاستعمال الشرعي: الخروجُ من طاعة الله عزَّ وجلَّ، فقد يَقَعُ على مَنْ خَرَجَ بِكُفْرٍ، وعلى مَنْ خَرَجَ بعصيان^(٥).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ «الذين» في موضع نصبٍ على النعت للفاستين، وإن شئت جعلته في موضع رفعٍ على أنه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: هم الذين. وقد تقدّم^(٦).

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَنْقُضُونَ﴾ النِّقْضُ: إفسادُ ما أبرمته من بناءٍ أو حبلٍ أو عهد.

(١) مجمل اللغة ٣/ ٧٢٠، والصحاح: (فسق).

(٢) الزاهر ١/ ١٢٠. ونسب البيت المذكور إلى رؤية، ونسبه سيويه في الكتاب ١/ ٩٤ إلى العجاج.

(٣) في (د) و(ز) و(ط): تهوين، وفي (م): يلهن، والمثبت من الزاهر.

(٤) في (م): قصدها، وفي الزاهر: قصده.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١١٢.

(٦) ص ٢٥١.

والتُّقَاضَةُ: ما نُقِضَ من حَبْلِ الشَّعْرِ، والمُنَاقِضَةُ في القول: أن يتكلم بما يناقض^(١) معناه. والنَّقِیْضَةُ في الشَّعْر: ما يُنْقَضُ به، والنَّقْضُ: المنقوض^(٢).

واختلف الناسُ في تعيين هذا العهد:

ف قيل: هو الذي أخذَه الله على بني آدمَ حين استخرجَهم من ظهره.

وقيل: هو وصيةُ الله تعالى إلى خلقه، وأمرُه إِيَّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إِيَّاهم عَمَّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنةِ رُسُلِهِ، ونَقْضُهم ذلك: تركُ العملِ به.

وقيل: بل نَضُبُ الأدلةِ على وحدانيَّتِهِ بالسماءات والأرض وسائر الصَّنعة هو بمنزلة العهد، ونَقْضُهم: تركُ النظرِ في ذلك.

وقيل: هو ما عَهِدَهُ إلى مَنْ أُوتِيَ الكتابُ أَنْ يُبَيِّنُوا نبوَّةَ محمد ﷺ ولا يكتُموا أمره، فالآيةُ على هذا في أهل الكتاب^(٣).

قال أبو إسحاق الرِّجَاج^(٤): عَهْدُهُ جَلَّ وَعَزَّ: ما أَخَذَهُ على النَّبِيِّينَ ومن اتَّبَعَهُمْ أَلَّا يَكْفُرُوا بالنبي ﷺ، ودليلُ ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهدي.

قلت^(٦): وظاهر ما قبل وما بعد يدلُّ على أَنَّها في الكفار. فهذه خمسة أقوال، والقول الثاني يجمعها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق: العهدُ المؤكَّد باليمين، وفُعال، من الوثَاقَةِ والمعاهدة^(٧): وهي الشَّدَّةُ في العَقْدِ والرِّبْطِ ونحوه، والجمعُ: المواثيق،

(١) في (م): أن تتكلم بما تناقض.

(٢) الصحاح: (نقض).

(٣) المحرر الوجيز ١/١١٣، والنكت والعيون ١/٨٩.

(٤) معاني القرآن ١/١٠٥.

(٥) في معاني القرآن: بأمر النبي.

(٦) في (ز): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٧) في (ظ): «المعاقدة».

على الأصل - لأنَّ أصلَ ميثاق: ميثاق، صارت الواو ياءً لانكسار ما قبلها - والميثاقُ والميثاقُ أيضاً. وأنشد ابنُ الأعرابي:

جَمَى لَا يُحِلُّ الذَّهْرَ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَهْدَ الْمِيثَاقِ^(١)
والموثق: الميثاق، والمُوثقة: المعاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِثْقَهُ الَّذِي
وَأَتَّفَقْتُمْ بِهِ﴾^(٢) [المائدة: ٧].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القَطْعُ معروفٌ، والمصدر - في الرَّجْمِ - القطيعة، يقال: قطعَ رَجْمَهُ قطيعةً، فهو رجل قُطِعَ وقُطِعَ، مثال هُمَزَةٍ. وقطعتُ الحَبْلَ قَطْعاً، وقطعتُ النهرَ قُطُوعاً، وقَطَعَتِ الطيرُ قُطُوعاً وقُطَاعاً وقِطَاعاً: إذا خرجت من بلدٍ إلى بلد، وأصابَ الناسَ قُطْعَةً: إذا قَلَّتْ مياهُهم، ورجل به قُطْعٌ، أي: انبهار^(٣).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ «ما» في موضع نصبٍ بـ «يقطعون». و«أَنْ» إن شئتَ كانت بدلاً من «ما»، وإن شئتَ من الهاء في «به»، وهو أحسنُ، ويجوز أن يكون: لئلاَّ يُوصَلَ، أي: كراهةً أن يُوصَلَ.
واختُلف: ما الشيء الذي أَمَرَ بوصيله؟.

ف قيل: صِلَةُ الأرحام.

وقيل: أَمَرَ أَنْ يُوصَلَ القولُ بالعمل، فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا.

وقيل: أَمَرَ أَنْ يُوصَلَ التَّصْدِيقُ بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم.

وقيل: الإشارةُ إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه، وحفظ

(١) البيت في اللسان: (وثق)، وقد نسب لعياض بن درة الطائي، وكذا جاء منسوباً له في بعض نسخ الصحاح (وثق)، كما ذكر في حواشيه، وهو في إصلاح المنطق ص ١٥٥، وتهذيب اللغة ٩/٢٦٦، والخصائص ٣/١٥٧ من غير نسبة. وفيها: عقد الميثاق.

(٢) الصحاح: (وثق).

(٣) الانبهار، من البُهر: وهو تتابع النفس. الصحاح: (بهر)، إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠٥، والصحاح: (قطع).

حدوده^(١) فهي عامّة في كلّ ما أمر الله تعالى به أن يُوصل. هذا قول الجمهور، والرّجْم جزءٌ من هذا^(٢).

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يعبدون غير الله تعالى، ويَجُورون في الأفعال، إذ هي بِحَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ، وهذا غايَةُ الفساد.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، و«هم» زائدة، ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ «الخاسرون» خبره، والثاني وخبره خبر الأول، كما تقدّم^(٣).

والخاسر: الذي نَقَصَ نفسه حَطًّا من الفلاح والفوز، والخُسران: النقصان، كان في ميزان أو غيره. قال جرير:

إِنَّ سَلِيطاً فِي الْخَسَارِ إِنَّهُ أَوْلَادُ قَوْمٍ خُلِقُوا أَقْنَةً^(٤)
يعني بالخسار: ما ينقص من حظوظهم وشرفهم.

قال الجوهري^(٥): وَخَسَرْتُ الشَّيْءَ - بالفتح - وأخسرته: نَقَضْتُهُ، وَالْخَسَارُ وَالْخَسَارَةُ وَالْخَيْسَرُ: الضَّلَالُ وَالْهَلَاكُ. فقليل للهلك: خاسر؛ لأنّه خَسِرَ نفسه وأهله يوم القيامة، ومُنِعَ منزله من الجنة.

السابعة: في هذه الآية دليلٌ على أنّ الوفاء بالعهد والتزامه، وكلّ عهدٍ جائزٍ الرّمه المرء نفسه، فلا يحلُّ له نقضه، سواءً أكان بين^(٦) مسلم أم غيره، لذمّ الله تعالى مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ. وقد قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقال^(٧) لنبية عليه السلام: ﴿وَلِإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذَرُوا إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فنهاه عن العذر، وذلك لا يكون إلّا بنقض العهد، على ما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

(١) في (د): عهوده.

(٢) المحرر الوجيز ١/١١٣.

(٣) ص ٢٧٧.

(٤) ديوانه ١/١٠٧١. وأقنة، جمع قرّ، وهو (كما في مختار الصحاح) العبد إذا ملك هو وأبواه.

(٥) الصحاح: (خسر).

(٦) في (د) و(ظ): من.

(٧) في (م): وقد قال.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

«كيف» سؤال عن الحال، وهي اسم في موضع نصب بـ «تكفرون»، وهي مبنية على الفتح، وكان سبيلها أن تكون ساكنة، لأنَّ فيها معنى الاستفهام الذي معناه التعجب، فأشبهت الحروف، واختير لها الفتح لخِفَّتِه^(١)، أي: هؤلاء ممَّنْ يجبُ أن يُتَعَجَّبَ منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله؟

فالجواب: ما سبق من أنهم لما لم يُيْتُوا أمرَ محمد ﷺ ولم يُصدِّقوه فيما جاء به، فقد أشركوا؛ لأنَّهم لم يُقَرُّوا بأنَّ القرآن من عند الله، ومن زعم أنَّ القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله، وصارَ ناقضاً للعهد.

وقيل: «كيف» لفظه لفظ الاستفهام، وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ، أي: كيف تكفرون بالله ونعمه عليكم^(٢) وقدرته هذه؟!

قال الواسطي^(٣): وبخَّهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأنَّ المَوَاتَ والجماد لا يُنازَعُ صانعه في شيء، وإنَّما المنازعة من الهياكل الروحانية.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ هذه الواو واو الحال، و«قد» مضمرة. قال الزجاج^(٤): التقدير: وقد كنتم، ثم حُذِفَتْ قد. وقال الفراء^(٥): «أمواتاً» خبر «كنتم».

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٦/١.

(٢) في (م): «كيف تكفرون نعمه عليكم»، وفي (د): «كيف تكفرون ونعمة الله عليكم». والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١١٣/١.

(٣) أبو بكر محمد بن موسى، المعروف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنييد وأبي الحسين النوري، وكان عالماً بالأصول والفروع. توفي بمرور سنة ٣٢٠ هـ. طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٢، وحلية الأولياء ٣٤٩/١٠، والوافي بالوفيات ٨٥/٥.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١٠٧/١، ولفظه في إعراب القرآن للنحاس ٢٠٦/١.

(٥) لم نجد هذا القول في معاني القرآن للفراء، وهو تنمة الكلام السابق في إعراب القرآن للنحاس.

﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هذا وقفُ التمام، كذا قال أبو حاتم^(١). ثم قال: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

واختلف أهل التأويل في ترتيب هاتين المؤتتين والحياتين، وكم من مؤتة وحياة للإنسان؟

فقال ابن عباس وابن مسعود: أي: كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخلَقُوا، فأحياكم - أي: خلقكم - ثم يُمِيتُكم عند انقضاء آجالكم، ثم يُحْيِيكم يوم القيامة^(٢). قال ابن عطية^(٣): وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه، لإقرارهم بهما، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها، قَوِيَ عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جَحْدُهم له دَعْوَى لا حُجَّةَ عليها.

قال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا. وقيل: لم يعتد بها كما لم يعتد بموت^(٤) مَنْ أَمَاتَهُ في الدنيا ثم أحياه في الدنيا.

وقيل: كنتم أمواتاً في ظهر آدم، ثم أخرجكم مِنْ ظَهْرِهِ كالذَّرِّ، ثم يُمِيتُكم موت الدنيا، ثم يبعثُكم.

وقيل: كنتم أمواتاً - أي: نُظْفًا - في أصلاب الرجال وأرحام النساء، ثم نقلكم من الأرحام، فأحياكم، ثم يُمِيتُكم بعد هذه الحياة، ثم يُحْيِيكم في القبر للمسألة، ثم

(١) هو السجستاني، والذي نقله عنه أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٥١٠/١: أن الوقف التام على قوله: «فأحياكم» لأنهم إنما ويخوا بما يعرفونه ويقرون به، وذلك أنهم كانوا يقرون بأنهم كانوا أمواتاً إذ كانوا نُظْفًا في أصلاب آبائهم ثم أحيوا من النطف ولم يكونوا يعترفون بالحياة بعد الموت، فقال الله موبخاً لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: ويحكم كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم ابتداء فقال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد تعقبه الأنباري بقوله: وهذا الذي قال تنقضه الآية عليه؛ لأنه زعم أن الله لا يوبخهم إلا على ما يعترفون به، وقد قال: «كيف تكفرون» فوبخهم بالكفر ولم يكونوا يعترفون بأنهم كفار.

(٢) أخرج قوليهما الطبري في تفسيره ٤٤٣/١.

(٣) المحرر الوجيز ١١٤/١.

(٤) في (ظ): بموتة.

يُمَيِّتُكُمْ فِي الْقَبْرِ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ حَيَاةَ النَّشْرِ إِلَى الْحَشْرِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا مَوْتُ. قُلْتُ: فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتاتٍ، وثلاثُ إحياءات. وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم، غيرُ كونهم نُظْفَأَ في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء، فعلى هذا تجيء أربعُ موتاتٍ وأربعُ إحياءات.

وقد قيل: إِنَّ الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء^(١)، ثم أماتهم، فيكون على هذا خمسُ موتاتٍ، وخمسُ إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أُمَّة محمد ﷺ إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلُها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فأماتهم الله إماتةً، حتى إذا كانوا فُحْمًا أذِنَ فِي الشِّفَاعَةِ، فجيءَ بهم ضَبَائِرُ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ^(٢) فِي حَمِيلِ السَّيْلِ». فقال رجلٌ من القوم: كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ يَرْغَى بِالْبَادِيَةِ^(٣). أخرجَه مسلم^(٤).

قُلْتُ: فقوله: «فأماتهم الله» حقيقة في الموت، لأنه أَكَّده بالمصدر، وذلك تكريماً لهم.

وقيل: يجوز أن يكون «أماتهم»^(٥) عبارة عن تغيبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة، والأول أصحُّ، وقد أجمع النُّحويون على أَنَّك إذا أَكَّدْتَ الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً، وإنَّما هو على الحقيقة، ومثله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

(١) في (ز) و(ظ): كالهباء.

(٢) في (ز): يكون، وليس في (د) و(ظ).

(٣) في (ز) و(ظ): في البادية.

(٤) رقم (١٨٥): (٣٠٦). وفيه: قد كان بالبادية. وهو في المسند (١١٠٧٧). وقوله: ضبائر، أي: جماعات في تفرقة، والحبّة، بكسر الحاء، بزر البقول والعشب تنبت في البراري وجوانب السيول، وحَمِيل السَّيْلِ: هو ما جاء به السَّيْل من طين أو غُثاء، ومعناه: محمول السَّيْلِ، والمراد التشبيه في سرعة الإنبات وحسنه وطراوته. شرح صحيح مسلم للنووي ٢٣/٣ و ٢٨.

(٥) في (ظ) إمامتهم.

وقيل : المعنى : وكنتُم أمواتاً بالْخُمُول ، فأحياكم بأنْ ذُكرْتُم وشُرفْتُم بهذا الذين والنبي الذي جاءكم ، ثم يُميتُكم ، فيموتُ ذُكْرُكم ، ثم يُحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ أي : إلى عذابه مرجعُكم ، لكفركم ، وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة^(١) ، كما قال تعالى : ﴿كَأَ بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأعادتهم كابتدائهم ، فهو رجوعٌ .

و«تَرْجَعُونَ» قراءة الجماعة . ويحيى بنُ يَغمَر وابنُ أبي إسحاق ومجاهد وابنُ مُحَيِّصٍ وسلام ويعقوب^(٢) يفتحون حرفَ المضارعة ، ويكسرون الجيمَ حيثُ وقعتُ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه عشرُ مسائل :

الأولى : ﴿خَلَقَ﴾ معناه : اخترعَ ، وأوجدَ بعد العَدَم ، وقد يقال في الإنسان : خَلَقَ ، عند إنشائه شيئاً ، ومنه قول الشاعر :

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُولُ لُفَجِئَلْتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ^(٤)
وقد تقدّم هذا المعنى^(٥) .

وقال ابنُ كَيْسَانَ : «خَلَقَ لَكُمْ» أي : من أجلكم ، وقيل : المعنى : إنَّ جميعَ ما في الأرض مُنْعَمٌ به عليكم ، فهو لكم ، وقيل : إنَّه دليلٌ على التوحيد والاعتبار .

(١) في (د) و(ظ) : المسألة .

(٢) في (د) و(ظ) و(م) : سلام بن يعقوب وهو خطأ ، والمثبت من (ز) . يعقوب - وهو ابنُ إسحاق الحضرمي - من العشرة . وينظر النشر ٢٠٨/٢ .

(٣) المحرر الوجيز ١١٤/١ .

(٤) نسبه الباقلائي في إعجاز القرآن ص ١٥٤ لبشار ، ونُسب في معجم الشعراء ص ٤٩٢ ليحيى بن مروان بن أبي حفصة . ونُسب في معجم الأدباء ١٨٦/١٩ ، ووفيات الأعيان ٢٩٠/٥ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٤٨٣/٣ لأبي الحسن منصور بن إسماعيل التميمي الفقيه ، وهو في الكامل للمبرد ٨٨٢/٢ ، والمحرر الوجيز ١١٤/١ من غير نسبة . ورواية الكامل ومعجم الشعراء : من كان يكذب ما يريد .

(٥) ص ٣٤١ .

قلتُ: وهذا هو الصَّحيح على ما نُبيِّنه، ويجوزُ أن يكون عنى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء.

الثانية: استدَلَّ من قال: إِنَّ أَصْلَ الأشياء التي يُنتَفَع بها الإباحة بهذه الآية، وما كان مثلها، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الآية [الجاثية: ١٣]، حتى يقوم الدليل على الحَظَر، وعَضَد هذا بأن قال^(١): إِنَّ المَاكِيلَ الشَّهِيَّةَ خُلِقَتْ مع إمكان أَلَّا تُخْلَقَ، فلم تُخْلَق عبثاً، فلا بدُّ لها من منفعة، وتلك المنفعة لا يصحُّ رجوعُها إلى الله تعالى، لاستغنائه بذاته، فهي راجعة إلينا، ومنفعتنا إمَّا في نَيْل لَّدَتِهَا^(٢)، أو في اجتنابها لِنُخْتَبَر بذلك، أو في اعتبارنا بها، ولا يحصلُ شيءٌ من تلك الأمور إِلَّا بذوقها، فلزِمَ أن تكون مباحةً.

وهذا فاسدٌ، لأنَّا لا نُسَلِّمُ لُزُومَ الْعَبَثِ مِنْ خَلْقِهَا إِلَّا لمنفعة، بل خلقها كذلك، لأنَّه لا يجبُ عليه أصلُ المنفعة، بل هو الموجِبُ، ولا نُسَلِّمُ حَصَرَ المنفعة فيما ذكره، ولا حصولَ بعض تلك المنافع إِلَّا بالذَّوق، بل قد يُسْتَدَلُّ على الطَّعُومِ بأمورٍ أُخَر، كما هو معروف عند الطبائعيين.

ثم هو معارَضٌ بما يُخاف أن يكون سموماً مُهْلِكَةً، ومعارَضُونَ بشبهات أصحابِ الحَظَر.

وتوقَّفت آخرون وقالوا: ما من فعلٍ لا نُدْرِكُ^(٣) منه حُسناً ولا قُبْحاً إِلَّا ويمكن أن يكون حَسَناً في نفسه، ولا مُعَيَّن قبل ورود الشرع، فتعيَّن الوقفُ إلى ورود الشرع. وهذه الأقاويلُ الثلاثة للمعتزلة.

وقد أطلق الشيخُ أبو الحَسَنِ وأصحابه وأكثرُ المالكية والصَّيرفيُّ^(٤) في هذه

(١) في (م): وعضدوا هذا بأن قالوا.

(٢) في (د) و(ظ): لَدَتِهَا.

(٣) في النسخ: يدرك.

(٤) أبو بكر محمد بن عبد الله، الشافعي، البغدادي، اشتهر بالحلق في النظر وفي القياس وعلم الأصول، وهو أحد أصحاب الوجوه في المذهب، قال القفال: إن أبا بكر الصيرفي كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي. من تصانيفه: شرح الرسالة وكتاب في الشروط. توفي سنة ٣٣٠هـ. الوافي بالوفيات ٣/٣٤٦، وطبقات الشافعية الكبرى ١٨٦/٣.

المسألة القول بالوقف، ومعناه عندهم أن لا حكمَ فيها في تلك الحال، وأنَّ للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأنَّ العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره^(١)، وإنما حَظَّه تَعَرَّفَ الأمور على ما هي عليه. قال ابنُ عطية^(٢): وحكى ابنُ فُورك عن ابن الصائغ أنَّه قال: لم يَخْلُ العقلُ قُطْ من السمع، ولا نازلةً إلَّا وفيها سَمْع، أو لها تعلقُ به، أو لها حالٌ تُستصحب. قال: فينبغي أن يُعتمد على هذا، ويغني عن النَّظر في حظِّه وإباحةٍ ووقفٍ.

الثالثة: الصَّحيحُ في معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾: الاعتبارُ، يدلُّ عليه ما قبله وما بعده من نصبِ العبر: الإحياء والإماتة والخَلْق، والاستواء إلى السماء وتسويتها، أي: الذي قَدَّر على إحيائكم وخَلَقَكم وخلقِ السموات والأرض لا تَبْعُدُ منه القدرةُ على الإعادة.

فإن قيل: إنَّ معنى «لكم»: الانتفاع، أي: لتنتفعوا بجميع ذلك. قلنا: المراد بالانتفاع الاعتبارُ لما ذكرنا.

فإن قيل: وأيُّ اعتبارٍ في العقارب والحَيَّات؟ قلنا: قد يتذكَّر الإنسانُ ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدَّ الله للكفار في النار من العقوبات، فيكون سبباً للإيمان وتركِ المعاصي، وذلك أعظمُ الاعتبار.

قال ابنُ العربي^(٣): وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظراً ولا إباحتاً ولا وقفاً، وإنَّما جاء ذِكْرُ هذه الآية في مَعْرِضِ الدلالةِ والتنبيهِ لِيُسْتَدَلَّ بها على وحدانيَّته.

وقال أرباب المعاني في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾: لتَنَقَّوْا به على طاعته^(٤)، لا لتصرفوه في وجوه معصيته.

(١) في (د): بغيره.

(٢) المحرر الوجيز ١/١١٥.

(٣) أحكام القرآن ١/١٤.

(٤) في (د): لتبقوا على طاعته، وفي (ز): ليتقوا به.

وقال أبو عثمان: وَهَبَ لَكَ الْكُلَّ وَسَخَّرَهُ لَكَ لِتَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى سَعَةِ جُودِهِ^(١)، وَتَسْكُنَ إِلَى مَا ضَمِنَ لَكَ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ فِي الْمَعَادِ، وَلَا تَسْتَكْثِرَ كَثِيرَ بَرِّهِ عَلَى قَلِيلِ عَمَلِكَ، فَقَدْ ابْتَدَأَكَ بِعَظِيمِ النِّعَمِ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

الرابعة: روى زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فسأله أَنْ يُعْطِيَهُ، فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي شيء، ولكن ائْتِ عَليَّ، فإذا جاء شيءٌ قَضَيْنَا». فقال له عمر: هذا أُعْطِيتَ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ، فَمَا كَلَّفَكَ اللَّهُ مَا لَا تَقْدِرُ، فَكِرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلَ عَمْرٍ، فقال رجل من الأنصار: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفَقَ وَلَا تَخَفُ^(٢) مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالاً، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ لِقَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِذَلِكَ أُمِرْتُ»^(٣).

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فخوف الإقلال من سوء الظنِّ بالله، لأنَّ الله تعالى خَلَقَ الْأَرْضَ بِمَا فِيهَا لَوْلَا آدَمُ، وَقَالَ فِي تَنْزِيلِهِ: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. فهذه الأشياء كُلُّهَا مَسْخُورَةٌ لِلْآدَمِيِّ قَطْعاً لِعُذْرِهِ وَحُجَّةً عَلَيْهِ، لِيَكُونَ لَهُ عَبْدًا كَمَا خَلَقَهُ عَبْدًا، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ حَسَنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ لَمْ يَخَفِ الْإِقْلَالَ، لِأَنَّهُ يُخْلِِفُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿إِنِّي رَبِّي غَيِّثُ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

(١) في النسخ: وجوده.

(٢) في (م): ولا تخش.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٤٨)، والبزار في مسنده (٢٧٣)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٥٣، والضياء المقدسي في المختارة (٨٨).

وقوله: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، روي من قوله ﷺ لبلال في سياق آخر أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٢٠) و(١٠٣٠٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/١٤٩، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٩) من حديث ابن مسعود، وأخرجه أبو يعلى (٦٠٤٠)، والطبراني (١٠٢٤) و(١٠٢٥) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البزار في مسنده (١٣٦٦) من حديث بلال، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٦٦) من حديث عائشة، وقال المناوي في «فيض القدير» ٣/٦١: أطلق الحافظ العراقي أن الحديث ضعيف من جميع طرقه، لكن قال تلميذه الحافظ ابن حجر في «زوائد البزار»: إسناد حديثه حسن.

وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي، يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ، يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى، سَخَاءً لَا يَغِيضُهَا شَيْءٌ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يُضْبِحُ العبادُ فيه إِلَّا وَمَلَكانِ يَنْزِلَانِ، فيقول أحدهما: اللَّهُمَّ أَغِطْ مُتَفَقِّحًا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللَّهُمَّ أَغِطْ مُنْهِكًا تَلَفًا»^(٢). وكذا في المساء عند الغروب يناديان أيضاً. وهذا كله صحيح رواه الأئمة، والحمد لله.

فمن استنار صدره، وعَلِمَ غِنَى رَبِّهِ وَكَرَمَهُ، أَنْفَقَ وَلَمْ يَخَفِ الإِقْلَالَ، وكذلك من مَاتَتْ شَهَوَاتُهُ عَنِ الدُّنْيَا، واجْتَزَأَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْقَوَاتِ الْمُقِيمِ لِمَهْجَتِهِ، وانْقَطَعَتْ مَشِيتُهُ لِنَفْسِهِ، فِهَذَا يُعْطَى مِنْ يُسْرِهِ وَعُسْرِهِ، وَلَا يَخَافُ إِقْلَالَ، وَإِنَّمَا يَخَافُ الإِقْلَالَ مَنْ لَهُ مَشِيتَةٌ فِي الْأَشْيَاءِ، فَإِذَا أُعْطِيَ الْيَوْمَ وَلَهُ غَدًا مَشِيتَةٌ فِي شَيْءٍ خَافَ إِلَّا يُصِيبَ غَدًا، فيضيق عليه الأمر في نفقة^(٣) اليوم لمخافة إقلاله.

روى مسلم^(٤) عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «انْفَجِي - أَوْ انْضَجِي أَوْ أَنْفَقِي - وَلَا تُخْصِي، فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُوعِي، فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ».

وروى النسائي^(٥) عن عائشة قالت: دخل عليَّ سائلٌ مرَّةً وعندي رسولُ الله ﷺ، فأمرْتُ له بشيء، ثم دعوتُ به، فنظرتُ إليه، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما تريدانِ أَلَّا يَدْخُلَ بَيْتُكَ شَيْءٌ وَلَا يَخْرُجَ إِلَّا بِعِلْمِكَ؟» قلتُ: نعم. قال: «مهلاً يا عائشة، لَا تُخْصِي، فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾ «ثم» لترتيب الإخبار، لا لترتيب الأمر في نفسه. والاستواء في اللغة: الارتفاع والعلوُّ على الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْأَفْئَالِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال: ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]،

(١) قوله: «سبقت رحمتي غضبي» أخرجه أحمد (٧٢٩٩)، والبخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) (١٥)، وقوله: «يا ابن آدم، أنفق...» أخرجه أحمد (٧٢٩٨) والبخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) (٣٦) من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأورده بتمامه الحكيم الترمذي في نواهد الأصول ص ١٥١.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في النسخ: نفقته.

(٤) صحيح مسلم (١٠٢٩)، وأخرجه كذلك البخاري (٢٥٩١)، وهو في المسند (٢٦٩٢٢).

(٥) المجتبى ٧٣/٥، وهو بنحوه في المسند (٢٤٤١٨).

وقال الشاعر:

فأوردتْهم ماءً بَفَيْفَاءٍ قَفْرَةٍ وقد حَلَقَ النُّجْمُ اليماني فاستَوَى^(١)
أي: ارتفعَ وعلا. واستوتِ الشمسُ على رأسي، واستوتِ الطيرُ على قِمَّةِ
رأسي، بمعنى علا.

وهذه الآية من المُشكلات، والناسُ فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه:

قال بعضهم: نقرؤها^(٢) ونؤمن بها ولا نُفسِّرُها، وذهبَ إليه كثيرٌ من الأئمة، وهذا
كما روي عن مالك رحمه الله أنَّ رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قال مالك: الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ
به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وأراك رجلَ سوءٍ! أخرجوه^(٣).

وقال بعضهم: نقرؤها ونُفسِّرُها على ما يَحْتَمِلُهُ ظاهرُ اللغة. وهذا قولُ المُشبهة.

وقال بعضهم: نقرؤها ونتأولُّها، ونُجِلُّ حَمَلَهَا على ظاهرها^(٤).

وقال الفراء^(٥) في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ قال:
الاستواءُ في كلام العرب على وجهين: أحدهما: أن يستوي الرجلُ وينتهي شبابه
وقوَّته، أو يستوي عن^(٦) اعوجاج. فهذان وجهان. ووجهٌ ثالثٌ: أن تقول: كان مقبلاً
على [فلانٍ، ثم استوى عليّ] يُشَايِمُنِي وإلَيَّ، سواء، على معنى أقبلَ إليَّ وعليّ، فهذا
معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ والله أعلم. قال: وقد قال ابن عباس: ثم
استوى إلى السماء: صعد^(٧). وهذا كقولك: كان قاعداً فاستوى قائماً، وكان قائماً

(١) تهذيب اللغة ٤/٢٦٥، واللسان، وتاج العروس (صبح)، وفيها: وصَبَّحهم، بدل: فأوردتهم.

(٢) في (د): نقرأ بها، وفي (ز): يقرؤها.

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٦) و(٨٦٧)، وأخرجه اللالكائي (٦٦٣) من قول أم سلمة رضي الله عنها.

وقد فسّر السلف رضي الله عنهم لفظ الاستواء الوارد في النصوص بأربعة معانٍ: هي: العلو، والارتفاع، والصعود، والاستقرار. توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ٢/ ٤٤٠-٤٤١.

(٤) تفسير أبي الليث ١٠٦/١-١٠٧.

(٥) معاني القرآن ٢٥/١، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في النسخ: من، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في معاني القرآن.

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٧٢). وفيه: صعد أمره إلى السماء.

فاستوى قاعداً، وكلُّ ذلك في كلام العرب جائزٌ.

قال البيهقي أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين^(١): قوله: «استوى» بمعنى أقبل صحيحٌ، لأنَّ الإقبالَ هو القصدُ إلى خلق السماء، والقصدُ هو الإرادة، وذلك جائزٌ في صفات الله تعالى، ولفظة «ثم» تتعلَّقُ بالخلق لا بالإرادة، وأمَّا ما حكى^(٢) عن ابن عباس؛ فإنَّما أخذه عن تفسير الكلبي، والكلبي ضعيفٌ.

وقال سفيان بن عُيينة وابنُ كيسان في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾: قَصَدَ إليها، أي: بخلقه واختراعه. فهذا قول.

وقيل: علا دون تكييفٍ ولا تحديد، واختاره الطبري^(٣).

ويذكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال: استوى بمعنى أنه ارتفع^(٤). قال البيهقي^(٥): ومراده من ذلك - والله أعلم - ارتفاعُ أمره، وهو بخارُ الماء الذي وَقَعَ منه خَلْقُ السماء. وقيل: إنَّ المستوي الدخان. قال ابن عطية^(٦): وهذا يأباه وصف^(٧) الكلام. وقيل: المعنى استولى، كما قال الشاعر^(٨):

قد اسْتَوَى بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ
قال ابن عطية: وهذا إنَّما يجيء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

قلت: قد تقدَّم في قول القراء: عليّ وإليّ بمعنى، وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في سورة «الأعراف»^(٩) إن شاء الله تعالى.

(١) في الأسماء والصفات ٣١٠/٢.

(٢) يعني القراء، والكلام للبيهقي في الأسماء والصفات.

(٣) تفسيره ٤٥٧/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠٥/١ - ١٠٦.

(٥) الأسماء والصفات ٣١١/٢.

(٦) المحرر الوجيز ١١٥/١.

(٧) في المحرر الوجيز: رصف، وهو الأشبه.

(٨) هو الأخطل كما في المحرر الوجيز ١١٥/١، وتاج العروس: (سوى)، والبيت من غير نسبة في

الصحاح: (سوى)، والأسماء والصفات ٣٠٩/٢، والبحر المحيط ١٣٤/١.

(٩) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية: ٥٤.

والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والثقل^(١).

السادسة: يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خَلَقَ الأرضَ قبل السماء، وكذلك في «حم السجدة»^(٢). وقال في النزاعات: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^(٣)، فوصفَ خلقها، ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٤). فكانَ السماءَ على هذا خُلِقَتْ قبل الأرض، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وهذا قولُ قتادة: إِنَّ السماءَ خُلِقَتْ أولاً. حكاه عنه الطبري^(٥). وقال مجاهد وغيره من المفسرين: إِنَّه تعالى أَيْبَسَ الماءَ الذي كان عرشه عليه، فجعله أرضاً، وثارَ منه دخانٌ، فارتفعَ، فجعله سماءً، فصارَ خَلْقُ الأرضِ قبلَ خَلْقِ السماءِ، ثم قصَدَ أمره إلى السماءِ، فسَوَّاهُنَّ سبعَ سمواتٍ، ثم دحا الأرضَ بعد ذلك، وكانت إذ خَلَقَهَا غيرَ مَذْحُوءَةٍ^(٦).

قلتُ: وقولُ قتادة يُخَرِّجُ على وجهٍ صحيحٍ إن شاء الله تعالى: وهو أَنَّ الله تعالى خَلَقَ أولاً دخانَ السماءِ، ثم خَلَقَ الأرضَ، ثم استوى إلى السماءِ وهي دخانٌ فسَوَّاهَا، ثم دحا الأرضَ بعد ذلك.

وممَّا يدلُّ على أَنَّ الدخانَ خُلِقَ أولاً قبل الأرضِ ما رواه السُّدِّيُّ، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس. وعن مُرَّةَ الهَمْدَانِي، عن ابن مسعود. وعن ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: إِنَّ الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يَخْلُقْ شيئاً قبل الماء، فلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الخلقَ أخرج من الماء دخاناً، فارتفعَ فوق الماء، فسما عليه، فسَمَّاهُ سماءً، ثم أَيْبَسَ الماءَ، فجعله أرضاً واحدةً، ثم فَتَّقَهَا، فجعلها سبعَ أرضين في يومين، في الأحد والاثنين، فجعل الأرضَ على حُوتٍ - والحوتُ هو الثَّوْنُ الذي ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن بقوله:

(١) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٢) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ الآيات [٩-١١].

(٣) في تفسيره ٩/ ١٤٥.

(٤) أخرج ابن جرير ١/ ٤٦٣ عن مجاهد في تفسير هذه الآية قوله: خلق الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض نار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهم فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض.

﴿تَ وَالْقَلْبَرِ﴾ [القلم: ١] - والحوث في الماء، و[الماء]^(١) على صفة^(٢)، والصفاء على ظهر ملك، والمَلَك على الصخرة، والصخرة في الريح - وهي الصخرة التي ذكر لقمان - ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوث، فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسي^(٣) عليها الجبال، فقرت، فالجبال تُفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَبْتَغِ بِكُمُ﴾ [النحل: ١٥]، وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين: في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَنَى فِيهَا أَقْوَاتًا﴾ يقول: أقواتها لأهلها^(٤) ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْإِنْسَانِ﴾ يقول: من سأل فهكذا الأمر ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها، فجعلها سبع سموات في يومين: في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جُمع فيه خَلَقَ السماوات والأرض ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ٩-١٢] قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً تحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب، استوى على العرش. قال: فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويقول: ﴿كَانَّا رَقًا فَفَنَقَّاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام^(٥)، على ما يأتي بيانه في هذه

(١) ما بين حاصرتين من تفسير الطبري ٤٦٢/١.

(٢) الصفا: صخرة ملساء. الصحاح: (صفا).

(٣) في (م) والنسخ الخطية: «فأرسل»، والمثبت من تفسير الطبري.

(٤) قوله: يقول أقواتها لأهلها، ليس في (م).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٦٢-٤٦٣، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٧). وقد غمز الطبري في هذا الإسناد ٣٧٥/١ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِي ظِلْمَاتٍ وَرَعْدٍ وَبَرْقٍ...﴾، فقال: ولست أعلمه صحيحاً، إذ كنت بإسناده مرتاباً.

وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. وانظر تعليق الشيخ أحمد شاهر رحمه الله في تفسير الطبري ١٥٦/١ - ١٦٠.

السورة إن شاء الله تعالى^(١).

وروى وكيع، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق الله عز وجل من شيء القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، قال: فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة. قال: ثم خلق النون، فدحا الأرض عليها، فارتفع بخار الماء، ففتق منه السماوات، واضطرب النون، فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال تفخر على الأرض إلى يوم القيامة^(٢). ففي هذه الرواية خلق الأرض قبل ارتفاع بخار الماء الذي هو الدخان، خلافاً للرواية الأولى، والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى، لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] والله أعلم بما فعل، فقد اختلفت فيه الأقاويل، وليس للاجتهاد فيه مدخل.

وذكر أبو نعيم^(٣) عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها، فألقى في قلبه، فقال: هل تدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر الدواب والناس والجبال؟ لو نفستهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع. قال: فهم لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابةً، فدخلت في منخره، فعج إلى الله منها، فخرجت. قال كعب: والذي نفسي بيده، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه، إن هم بشيء من ذلك عادت حيث كانت^(٤).

السابعة: أصل خلق الأشياء كلها من الماء، لما رواه ابن ماجه في «سننه»، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من الماء». فقلت: أخبرني بشيء^(٥) إذا عملت به دخلت الجنة. قال: «أطعم الطعَام، وأقش السَّلام، وصلي الأرحام، وقم الليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام»^(٦).

(١) ص ٤١٧ - ٤١٩.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٣٣ و ٥٠ - ٥١، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٤).

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٦.

(٤) خير إسرائيلي لا أساس له، وكان من الأولى بالمصنف أن ينزه كتابه عن مثل هذا.

(٥) في (م): عن شيء.

(٦) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وهو في المسند (٧٩٣٢)، ولم نقف عليه في سنن ابن ماجه من حديث =

قال أبو حاتم^(١): قولُ أبي هريرة: أنبئني عن كلِّ شيء، أراد به^(٢): عن كلِّ شيء خلق من الماء، والدليل على صحَّة هذا جوابُ المصطفى ﷺ إياه حيث قال: «كلُّ شيء خلق من الماء». [فهذا جوابٌ خرج على سؤال بعينه، لا أنَّ كلَّ شيء خلق من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً.

وروى سعيد بن جبَّير عن ابن عباس أنَّه كان يُحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أوَّل شيء خلقه الله القلم، وأمره، فكتبَ كلَّ شيء يكون»^(٣). ويروى ذلك أيضاً عن عبادة بن الصَّامت مرفوعاً^(٤).

قال البيهقي^(٥): وإنَّما أراد - والله أعلم -: أوَّل شيء خلقه بعد خلقِ الماء والريح والعرشِ القلم، وذلك بيِّنٌ في حديثِ عمران بن حصَّين: «ثم خلقَ السماوات والأرض»^(٦).

وذكر عبد الرزاق^(٧)، عن^(٨) عمر بن حبيب المكي، عن حميد بن قيس الأعرج، عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله: ممَّ خُلِقَ الخلق؟ قال: من الماء والنُّور والظُّلْمة، والريح والتراب. قال الرجل: فممَّ خُلِقَ

= أبي هريرة، وقد أخرج المرفوع منه برقم (٣٢٥١) من حديث عبد الله بن سلام، بلفظ: «يا أيها الناس، أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، وادخلوا الجنة بسلام».

(١) هو ابنُ حبان، وقد قاله بإثر حديثه المذكور، وما بين حاصرتين من صحيحه.

(٢) في (د) مراده.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤٦/٢٣، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٣).

(٤) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، والترمذي (٢١٥٥)، و(٣٣١٩)، وهو في المسند (٢٢٧٠٥). قال الترمذي في الموضع الأول: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقال في الموضع الثاني: هذا حديث حسن غريب.

(٥) الأسماء والصفات ٢/٢٣٨.

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٨) ضمن حديث طويل، وفيه: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتبَ في الذكر كل شيء».

(٧) في تفسيره ٢/٢١٣، وأخرجه أيضاً الحاكم ٤٥٢/٢، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٢٩).

(٨) في (د) و(م): «بن»، وهو خطأ.

هؤلاء؟ قال: لا أدري. قال: ثم أتى الرجلُ عبدَ الله بنَ الزُّبير، فسأله، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو. قال: فأتى الرجلُ عبدَ الله بنَ عباس، فسأله، فقال: ممَّ خُلِقَ الخلقُ؟ قال: من الماء والنُّور والظُّلْمَة والريح والتراب. قال الرجل: فممَّ خُلِقَ هؤلاء؟ فتلا عبد الله بنُ عباس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: ١٣]. فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجلٌ من أهل بيت النبي ﷺ.

قال البيهقي^(١): أراد أن مصدرَ الجميع منه، أي: مِنْ خَلْقِهِ وإبداعه واختراعه، خَلَقَ الماءَ أولاً، أو الماءَ وما شاء مِنْ خَلْقِهِ، لا عن أصلٍ، ولا على مثالٍ سَبَقَ، ثم جعله أصلاً لِمَا خَلَقَ بعد، فهو المبدعُ، وهو الباري، لا إله غيره، ولا خالقٌ سواه، سبحانه جلَّ وعزَّ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ ذكر تعالى أن السماوات سبعٌ، ولم يأتِ للأرض في التنزيل عددٌ صريحٌ لا يحتملُ التأويلَ إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقد اختلف فيه: فقيل: «ومن الأرضِ مِثْلَهُنَّ» أي: في العدد؛ لأنَّ الكيفية والصفةُ مختلفةٌ بالمشاهدة والأخبار، فتعيَّن العدد. وقيل: «ومن الأرضِ مِثْلَهُنَّ» أي: في غِلْظِهِنَّ وما بينهما. وقيل: هي سبعٌ، إلا أنَّه لم يفتقِ بعضها من بعض. قاله الداودي. والصَّحيحُ الأولُ، وأنها سبعٌ، كالسماوات سبعٌ.

روى مسلم^(٢)، عن سعيد بن زيد^(٣) قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ». وعن عائشة رضي الله عنها مثله، إلا أنَّ فيه: «من» بدل «إلى»^(٤). ومن حديث أبي هريرة: «لا يأخذُ أحدٌ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بغيرِ حقِّه إلا طَوَّقَهُ اللهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ [يوم القيامة]»^(٥).

(١) الأسماء والصفات ٢/٢٦٦.

(٢) رقم (١٦١٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٣١٩٨).

(٣) القرشي العدوي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، مات سنة (٥١هـ). السير ١/١٢٤.

(٤) صحيح مسلم (١٦١٢)، وأخرجه أيضاً البخاري (٢٤٥٣).

(٥) صحيح مسلم (١٦١١) وما بين حاصرتين منه.

وروى النسائي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب، علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به. قال: يا موسى، قل: لا إله إلا الله. قال موسى: يا رب، كلُّ عبادك يقول هذا. قال: قل: لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا أنت، إنّما أريدُ شيئاً تخصّني به. قال: يا موسى، لو أنّ السماوات السبعَ وعامرهنَّ غيري والأرضين السبعَ في كفّ، ولا إله إلا الله في كفّ، مالتَ بهنَّ لا إله إلا الله»^(١).

وروى الترمذي، عن أبي هريرة قال: بينما نبيُّ الله ﷺ جالسٌ وأصحابه، إذ أتى عليهم سحابٌ، فقال نبيُّ الله ﷺ: «هل تَدْرُونَ ما هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا العنان، هذه رَوَايا الأرض، يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه». قال: «هل تَدْرُونَ ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّها الرّقيع، سقَفٌ محفوظٌ، وموجٌ مكفوفٌ». ثم قال: «هل تَدْرُونَ ما^(٢) بينكم وبينها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها [مسيرة] خمسِ مئة عام». ثم قال: «هل تَدْرُونَ ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «[فإن فوق ذلك] سماءين، بُعدُ ما بينهما [مسيرة] خمسِ مئة سنة». ثم قال كذلك حتى عدَّ سبعَ سماوات، ما بين كلّ سماءين ما بين السماء والأرض. ثم قال: «هل تَدْرُونَ ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّ فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء بُعدُ ما بين السماءين». ثم قال: «هل تَدْرُونَ ما الذي تحتكم؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّها الأرض». ثم قال: «هل تَدْرُونَ ما تحت ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إن تحتها أرضاً أخرى^(٣)، بينهما مسيرة خمسِ مئة سنة». حتى عدَّ سبعَ أرضين، بين كلّ أرضين مسيرة خمسِ مئة سنة. ثم قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو أنّكم دَلَيْتُمْ [رجلاً] بحبلٍ إلى

(١) السنن الكبرى (١٠٦٠٢) و(١٠٩١٣)، وهو من رواية أبي السّمح درّاج بن سمعان عن أبي الهيثم سليمان بن عمرو العتّوّاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ودَرّاج ضَعَفه أحمد والنسائي وأبو حاتم الرازي والدارقطني - وقال في موضع: متروك - وَفَضَّلَ الرازي، وثقه يحيى بن معين. وقال أبو داود: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد. اهـ. وهذه منها.

(٢) في (م): كم.

(٣) في (م): فإن تحتها الأرض الأخرى.

الأرض السفلى لهبط على الله». ثم قرأ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. قال أبو عيسى: قراءة رسول الله ﷺ الآية تدل على أنه أراد: لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه. [علم الله وقدرته وسلطانه] في كل مكان، وهو على عرشه كما وصف نفسه في كتابه. قال: هذا حديث غريب، والحسن لم يسمع من أبي هريرة^(١).

والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية.

وقد روى أبو الضحى - واسمه مسلم - عن ابن عباس أنه قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قال: سبع أرضين، في كل أرض نبي كنبئكم، وأدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي^(٢): إسناده هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمرة، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا^(٣)، والله أعلم.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ ابتداءً وخبر. «ما» في موضع نصب. ﴿جَمِيعًا﴾ عند سيويه نصب على الحال^(٤).

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾ أهل نجد يميلون ليدلوا على أنه من ذوات الياء، وأهل الحجاز يفخمون.

﴿سَبْعَ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون، أي: فسوى سبع سموات، ويجوز أن يكون مفعولاً على تقدير: فسوى منهن^(٥) سبع سموات، كما قال الله جل وعز: ﴿وَأَخَارَ مُؤْمِنٍ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. قاله النحاس^(٦). وقال الأخفش: انتصب على الحال.

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٨)، وقد أشار الترمذي إلى علة الحديث، وهو في المسند (٨٨٢٨). قال ابن

الجوزي في العلل المتناهية ٢٨/١: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٢) في الأسماء والصفات، بعد إخراجه تفسير ابن عباس المذكور (٨٣١) (٨٣٢).

(٣) في (د) و(ظ) و(م): «دليلاً».

(٤) الكتاب ٣٧٦/١.

(٥) في (د) و(م): «يسوي بينهم».

(٦) إعراب القرآن ٢٠٦/١.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ابتداءً وخبرٌ. والأصل في «هو» تحريك الهاء، والإسكان استحفاف.

والسمااء تكون واحدة مؤنثة، مثل عَنان، وتذكيرها شاذٌ، وتكون جمعاً لِسَمَاوَةٍ في قول الأخفش، وسمااء في قول الرَّجَّاج^(١)، وجمعُ الجمعِ سماوات وسمااء^(٢)، فجاء «سَوَاهَنٌ» إمَّا على أن السمااء جمعٌ، وإما على أنها مفرد اسمُ جنس، ومعنى «سَوَاهَنٌ»: سَوَى سَطَوَحَهُنَّ بالإملاص^(٣)، وقيل: جعلهنَّ سواءً^(٤).

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بما خلقَ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ، فوجب أن يكون عالماً بكلِّ شيءٍ، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، فهو العالمُ والعليمُ بجميع المعلومات بعلمٍ قديمٍ أزليٍّ واحدٍ قائمٍ بذاته.

ووافقنا المعتزلة على العالِمِيَّة دون العِلْمِيَّة. وقالت الجَهْمِيَّة: عالمٌ بعلمٍ قائم لا في محلٍّ! تعالى الله عن قول أهل الزَّيغ والضَّلالات، والرَّدُّ على هؤلاء في كتب الدِّيانات.

وقد وصَفَ نفسه سبحانه بالعلم، ، فقال: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُكُهُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْدَهُمْ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية.

وسندلُّ على ثبوتِ علمه وسائر صفاته في هذه السورة عند قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [الآية: ١٨٥] إن شاء الله تعالى.

وقرأ الكسائي وقالون^(٥) عن نافع بإسكان الهاء من: «هو» و«هي» إذا كان قبلها فاءً، أو واوٌ، أو لامٌ، أو ثَمَّ، وكذلك فعل أبو عمرو إلَّا مع ثَمَّ^(٦).

(١) معاني القرآن ١/١٠٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٨.

(٣) في (د) و(ز): بالامتلاص.

(٤) المحرر الوجيز ١/١١٥.

(٥) عيسى بن مينا، أبو محمد، مولى بني زريق، مقرئ المدينة، لقَّبه نافع بقالون لجودة قراءته، مات سنة

(٢٢٠هـ). السير ١٠/٣٢٦.

(٦) التيسير ص ٧٢، وقوله: «ثَمَّ» يعني في آية «القصص» ٦١: ﴿ثَمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وزاد أبو عون^(١)، عن الحُلواني^(٢)، عن قالون إسكان الهاء من ﴿أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾
[البقرة: ٢٨٢]، والباقون بالتحريك^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ «إِذَا» و «إِذَا» حرفا توقيف؛ ف «إِذَا» للماضي، و «إِذَا» للمستقبل، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى. وقال المبرّد: إذا جاء «إِذَا» مع مستقبل كان معناه ماضياً، نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. معناه: إذ مكروا، وإذ قلت، وإذا جاء «إِذَا» مع الماضي كان معناه مستقبلاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّاغُتُ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ [عبس: ٣٣]، و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١]، أي: يجيء. وقال مغمّر بن المثنى أبو عبيدة^(٤): «إِذَا» زائدة، والتقدير: وقال ربك. واستشهد بقول الأسود بن يعفر^(٥):

فَإِذْ ذَلِكَ لَا مَهَاةَ لِذِكْرِهِ وَالذَّهْرُ يُعْقِبُ صَالِحاً بِفَسَادِ^(٦)

(١) محمد بن عمرو بن عون السلمي الواسطي، المقرئ، المحدث، قيل: مات قبل سنة (٢٧٠هـ). طبقات القراء ٢/٢٢١.

(٢) هو أحمد بن يزيد، أبو الحسن، مات سنة (٢٥٠هـ). طبقات القراء ١/١٤٩.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ١/٢٣٤، وما ذكره المصنف عن قالون هو من طريق النشر ٢/٢٠٩.

(٤) مجاز القرآن ١/٣٦ - ٣٧.

(٥) هو أبو الجراح، شاعر جاهلي، مقدم فصيح فحل، ليس بمكثر، كان ينادم النعمان بن المنذر، وكان ممن يهجو قومه، والبيت من قصيدة له مشهورة هي من مختار شعر العرب وروائعه. طبقات فحول الشعراء ١/١٤٧، وخزانة الأدب ١/٤٠٥.

(٦) المفضليات ص ٢٢٠، وتفسير الطبري ١/٤٦٦، وروايته: فإذا، بدل: فإذا. وذكر الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري ١/٤٣٩ أن أبا عبيدة أخطأ فيه، وأن الشاهد في زيادة «إِذَا» =

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس وجميع المفسرين. قال النحاس: وهذا خطأ؛ لأن «إذ» اسم، وهي ظرف زمان، ليس ممّا تَزَادُ^(١)، وقال الزجاج: هذا اجترام من أبي عبيدة، ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ النَّاسَ وَغَيْرَهُمْ، فالتقدير: وابتدأ خَلَقَكُمْ إذ قال^(٢). فكان هذا من المحذوف الذي دلَّ عليه الكلام، كما قال^(٣):

فإنَّ المَنيَّةَ مَنْ يَخْشَها فسوف تُصادِفُه أينما يريدُ: أينما ذهب.

ويحتمل أن تكون متعلّقة بفعل مقدّر تقديره: واذكر إذ قال. وقيل: هو مردود إلى قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. فالمعنى: الذي خلقكم إذ قال ربُّك للملائكة.

وقول الله تعالى وخطابُه للملائكة مُتَقَرَّرٌ قديمٌ في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم، وهكذا^(٤) البابُ كُلُّهُ في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته. وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو الذي ارتضاه أبو المعالي^(٥)، وقد أتينا عليه في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى وصفاتِ الله العُلَى»^(٦).

والربُّ: المالكُ والسَيِّدُ والمُصْلِحُ والجابِرُ، وقد تقدّم بيانه^(٧).

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الملائكة: واحداً مَلَكٌ. قال ابن كيسان

= لا في زيادة «إذ». اهـ قوله: لامهاه لذكره، يعني لا طعم ولا فضل. قاله أبو عبيدة.

(١) إعراب القرآن ٢٠٧/١. وسقط من مطبوعه كلام أبي عبيدة!

(٢) معاني القرآن ١٠٨/١. وفيه: إقدام، بدل: اجترام.

(٣) هو الثَّوْرُ بن تَوَلَّب، والبيت في ديوانه ص ٣٧٨ (شعراء إسلاميون)، وتفسير الطبري ٤٦٨/١،

وتفسير الماوردي ٩٣/١، وخزانة الأدب ١٠١/١١.

(٤) في (د): وكذا، وفي (ظ): وهذا.

(٥) وقال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ٥٦/١: المأثور عن أئمة الحديث والسنة أنه تعالى لم

يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم

يكن الصوتُ المعين قديماً.

(٦) لم نقف عليه في المطبوع من الأسنى.

(٧) ص ٢١١.

وغيره: وزن مَلَك: فَعَلَ، من المُلْك^(١).

وقال أبو عُبَيْدة: هو مَفْعَل من لَأَك: إذا أَرْسَلَ، والألُوكة والمَأَلْكة والمَأَلْكة: الرسالة. قال لَبِيد^(٢):

وغلّام أَرْسَلْتُهُ أُمُّهُ بألوك فبذلنا ما سَأَن
وقال آخر:

أَبْلَغَ النُّعْمَانِ عَنِّي مَأَلْكَأ إِنَّهُ^(٣) قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتَظَارِي^(٤)
ويقال: أَلِكْنِي، أي: أَرْسَلْنِي، فأصله على هذا: مَأَلْكَ، الهمزة فاء الفعل؛
لكنَّهُم^(٥) قلبوها إلى عينه، فقالوا: مَلَأْكَ، ثم سَهَّلُوهُ فقالوا: مَلَك.

وقيل: أصله: مَلَأْكَ، من مَلَك يَمْلِك، نحو شَمَأَل، من شَمَل، فالهمزة زائدة.
عن ابن كيسان أيضاً، وقد تأتي في الشعر على الأصل، قال الشاعر:

فَلَسْتُ لِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَأْكَ تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(٦)
وقال النَّضْرُ بْنُ شَمِيلٍ: لا اشتقاقَ لِلْمَلَكِ عند العرب. والهاء في الملائكة تأكيدٌ
لتأنيث الجمع، ومثله: الصَّلَادِمَةُ، والصَّلَادِم: الخيلُ الشَّدَاد، واحِذْهَا صِلْدِم. وقيل:
هي للمبالغة، كعلامة ونسابة.

وقال أَرْبَابُ الْمَعَانِي: خَاطَبَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ لا لِلْمَشُورَةِ، ولكن لاستخراج ما

(١) في المحرر الوجيز ١١٦/١. هو من: مَلَك يملك.

(٢) ديوانه ص ١٧٨.

(٣) في (م): إِنِّي.

(٤) البيت لعدي بن زيد وهو في الشعر والشعراء ٢٢٩/١، وتفسير الطبري ٤٧٤/١، ومعاني القرآن للزجاج ١١٢/١، والأغاني ١١٤/٢، وخزانة الأدب ٥١٣/٨. وعند الطبري: مَلَأْكَأ، وقال: وقد ينشد: مَأَلْكَأ.

(٥) في (م): فَإِنَّهُمْ.

(٦) نسب هذا البيت في المفضليات ص ٣٩٤، وتحصيل عين الذهب ص ٥٩٠ لعقمة بن عبدة، وهو في زيادات ديوانه ص ١١٨. ونسب في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٣/١، والصحاح: (ملك) لجاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك. وهو في كتاب سيبويه ٣٨٠/٤، والمنصف ١٠٢/٢، وأمالى ابن الشجري ٢٠٣/٢، ومعاني القرآن للزجاج ١١٢/١، وتفسير الطبري ٣٥٠/١، والمحرر الوجيز ١١٦/١ غير منسوب.

فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس، ثم رُدَّهم إلى قيمتهم، فقال عز وجل: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعلٌ» هنا بمعنى خالق. ذكره الطبري^(١) عن أبي رَوْق، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول واحد، وقد تقدم^(٢).

و«الأرض» قيل: إنها مكة. روى ابن سابط^(٣) عن النبي ﷺ قال: «دُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ». ولذلك سُمِّيَتْ أُمَّ الْقُرَى، قال: وقبرُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشُعَيْبٍ بين زمزم والركن والمقام^(٤).

و«خليفة» يكون بمعنى فاعل، أي: يَخْلُفُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْأَرْضِ، أَوْ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَا رُوي. ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أي: يُخْلَفُ^(٥)، كما يقال: ذبيحةٌ، بمعنى مفعولة^(٦). والخَلَفَ، بالتحريك: من الصالحين، وتسكينها: من الطالحين، هذا هو المعروف. وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في الأعراف إن شاء الله^(٧).

و«خليفة» بالفاء قراءةُ الجماعة، إلَّا ما رُوي عن زيد بن عليٍّ، فإنه قرأ: «خليفة» بالقاف^(٨).

والمعني بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل: آدم

(١) تفسير الطبري ٤٧٥/١، وانظر المحرر الوجيز ١١٦/١.

(٢) ص ٣٤٣.

(٣) عبد الرحمن بن سابط، ويقال: ابن عبد الله بن سابط، القرشي المكي الجمحي، كان كثير الحديث، مات سنة (١١٨هـ). تهذيب الكمال ١٢٣/١٧.

(٤) أخرجه الطبري ٤٧٦/١. وقال ابن كثير ٢١٥/١ بعد أن أورد الحديث من رواية ابن أبي حاتم: وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مدرج: وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. اهـ.

(٥) في (ز) و(ظ) و(م): مخلف، والمثبت من (د).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٧/١.

(٧) في تفسير الآية (١٦٩).

(٨) المحرر الوجيز ١١٧/١. ولم نقف على من ذكر هذه القراءة الشاذة غيره.

عليه السلام^(١)، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره، لأنه أول رسول إلى الأرض، كما في حديث أبي ذر؛ قال: قلت: يا رسول الله، أنبيأ كان مرسلاً؟ قال: «نعم». الحديث^(٢). ويقال: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا، كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وأنزل عليه^(٣) تحريم الميتة والدّم ولحم الخنزير، وعاش تسع مئة وثلاثين سنة. هكذا ذكر أهل التوراة، ورؤي عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم.

الرابعة: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة، إلا ما روي عن الأصم^(٤) حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين، بل يسوغ ذلك، وإن الأمة متى أقاموا حجّهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفنيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولّى ذلك!

ودليلنا قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، أي: يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآي.

(١) قال ابن كثير في تفسيره: وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاها الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم غنياً. اهـ وقول ابن مسعود وابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٧٩-٤٨٠، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١٧.

(٢) أخرجه الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٢١٥٥٢)، وأخرجه مطولاً ابن حبان (٣٦١).

(٣) في (م): عليهم.

(٤) هو عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر، شيخ المعتزلة، صاحب مقالات في الأصول، وله تفسير عجيب، وكتاب خلق القرآن، وافتراق الأمة، والرد على الملحدة وغيرها، مات سنة (٢٠١هـ). السير ٩/ ٤٠٢، ولسان الميزان ٣/ ٤٢٧.

وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين، حتى قالت الأنصار: منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فدفعهم أبو بكر وعمرُ والمهاجرون عن ذلك، وقالوا لهم: إنّ العرب لا تدينُ إلّا لهذا الحيّ من قريش، وروّوا لهم الخبر في ذلك^(١)، فرجعوا وأطاعوا لقريش، فلو كان فرضُ الإمامة غير واجبٍ لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها، ولقال قائل: إنّها ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم^(٢)، فما لتنازعهم^(٣) وجهٌ ولا فائدة في أمرٍ ليس بواجب، ثم إنّ الصديق رضي الله عنه لمّا حضرته الوفاة عهدَ إلى عمر في الإمامة^(٤)، ولم يقل له أحدٌ: هذا أمرٌ غير واجب علينا ولا عليك، فدلّ على وجوبها، وأنها ركنٌ من أركان الدين الذي به قوام المسلمين، والحمد لله ربّ العالمين.

وقالت الرافضة: يجبُ نصبُه عقلاً، وإنّ السمع إنّما وردَ على جهة التأكيد لقضية العقل، فأما معرفة الإمام فإنّ ذلك مُدرَكٌ من جهة السمع دون العقل. وهذا فاسدٌ؛ لأنّ العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يقبّح ولا يحسن، وإذا كان كذلك ثبت أنّها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل، وهذا واضح.

فإن قيل وهي

الخامسة: إذا سلم أنّ طريقَ وجوب الإمامة السمع، فخبّرنا هل يجبُ من جهة السمع بالنصّ على الإمام من جهة الرسول ﷺ، أم من جهة اختيار أهل الحلّ والعقد له، أم بكمال خصال الأئمة فيه، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كافٍ فيه؟.

فالجواب أن يقال: اختلف الناس في هذا الباب: فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن

(١) حديث السقيفة أخرجه أحمد (٣٩١) والبخاري (٦٨٣٠) من حديث عمر، وأخرجه الإمام أحمد (١٨) مختصراً من حديث أبي بكر، وفيه: «قريش ولاة الأمر، فبِرّ الناس تبعٌ لبيّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم». وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) ولفظه: «الناس تبعٌ لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم». وانظر ص ٢٧٠ من هذا الجزء، وتفسير الآية (٤٠) من سورة التوبة.

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى القراء ص ١٩.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): لتنازعكم، والمثبت من (د).

(٤) أخرجه هناد في الزهد (٤٩٦).

الطريق الذي يُعرف به الإمام هو النص من الرسول ﷺ، ولا مَدْخَل للاختيار فيه، وعندنا: التَّنَظُّرُ طريقٌ إلى معرفة الإمام، وإجماعُ أهل الاجتهاد طريقٌ أيضاً إليه، وهؤلاء الذين قالوا: لا طريقَ إليه إلا النص، بَنَوْه على أصلهم أنَّ القياسَ والرأيَ والاجتهادَ باطلٌ لا يُعرَف به شيءٌ أصلاً، وأبطلوا القياسَ أصلاً وفرعاً.

ثم اختلفوا على ثلاثِ فرقٍ:

فرقة تدَّعي النصَّ على أبي بكر، وفرقة تدَّعي النصَّ على العباس، وفرقة تدَّعي النصَّ على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

والدليل على فَقْد النص وعدمه على إمام بعينه هو أَنَّهُ ﷺ لو فرضَ على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوزُ العُدُولُ عنه إلى غيره، لَعَلِمَ ذلك، لاستحالة تكليفِ الأُمَّة بأسْرِها طاعةَ الله في غير معيّن، ولا سبيلَ لهم إلى العلم بذلك التكليف، وإذا وَجَبَ العلمُ به لم يَحُلْ ذلك العلمُ من أن يكون طريقُهُ أدلّةُ العقول أو الخبر، وليس في العقل ما يدلُّ على ثبوت الإمامة لشخص معيّن، وكذلك ليس في الخبر ما يُوجِبُ العلمَ بثبوت إمام معيّن، لأنَّ ذلك الخبر إمّا أن يكون تواتراً أو جَبَّ العلمُ ضرورةً أو استدلالاً، أو يكون من أخبارِ الآحاد، ولا يجوزُ أن يكون طريقُهُ التواترُ الموجِبُ للعلم ضرورةً أو دلالةً، إذ لو كان كذلك لكان كلُّ مُكَلَّفٍ يجدُ من نفسه العلمَ بوجوب الطاعة لذلك المعيّن، وأنَّ ذلك مِنْ دِينِ الله عليه، كما أنَّ كلَّ مُكَلَّفٍ عَلِمَ أنَّ مِنْ دِينِ الله الواجبُ عليه خمسَ صلواتٍ، وصومَ رمضان، وحجَّ البيت، ونحوها، ولا أحدٌ يعلمُ ذلك من نفسه ضرورةً، فبَطَلَت هذه الدَّعوى، ويَظَلُّ أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد؛ لاستحالة وقوع العلم به.

وأيضاً؛ فَإِنَّه لو وَجَبَ المصيرُ إلى نقل النصِّ على الإمام بأيِّ وجوه كان، وَجَبَ إثباتُ إمامة أبي بكر والعباس، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهما قوماً ينقلون النصَّ صريحاً في إمامته، وإذا بَطَلَ إثباتُ الثلاثة بالنصِّ في وقت واحد؛ على ما يأتي بيانه؛ كذلك الواحد، إذ ليس أحدُ الفِرَقِ أولى بالنصِّ من الآخر، وإذا بَطَلَ ثبوتُ النصِّ لعدم الطريق الموصِلِ إليه، ثَبَتَ الاختيارُ والاجتهادُ.

فإنَّ تَعَسَّفَ مُتَعَسَّفٌ وادَّعى التواترَ والعلمَ الضروريَّ بالنصِّ فينبغي أن يُقَابَلُوا على القَوْرِ بِنَقِيضِ دَعْوَاهُمْ في النصِّ على أبي بكر، وبأخبارٍ في ذلك كثيرة تقومُ أيضاً في

جملتها مقام النص. ثم لا شك في تصميم من عدا الإمامية على نفي النص، وهم الخلق الكثير والجسم الغفير، والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحط عن معشار أعداد مخالفين الإمامية، ولو جاز رد الضروري في ذلك، لجاز أن يُنكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرهما^(١).

السادسة: في رد الأحاديث التي احتج بها الإمامية في النص على علي رضي الله عنه، وأن الأمة كفرت بهذا النص وارتدت، وخالفت أمر الرسول عناداً:

منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»^(٢). قالوا: والمولى في اللغة بمعنى أولى، فلمَّا قال: «فعلي مولا» بقاء التعقيب، عُلِمَ أنَّ المراد بقوله: «مولى» أنه أحق وأولى، فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة، وأنه مفترض الطاعة!

وقوله عليه الصلاة والسلام لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»^(٣). قالوا: ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركاً له في النبوة، ولم يكن ذلك لعلي، وكان أخاً له، ولم يكن ذلك لعلي، وكان خليفة، فعُلِمَ أنَّ المراد به الخلافة! إلى غير ذلك مما احتجوا به، على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى^(٤).

والجواب عن الحديث الأول: أنه ليس بمتواتر، وقد اختلف في صحته^(٥)، وقد

(١) الإرشاد للجويني ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) أخرجه بتمامه أحمد في مسنده (٩٥٠) من حديث علي، ويرقم (١٨٤٧٩) من حديث البراء بن عازب، ويرقم (١٩٣٠٢) من حديث علي وزيد بن أرقم، وأخرج شطره الأول أحمد كذلك (٢٣١٠٧) من حديث خمسة أو ستة من أصحاب النبي ﷺ، ويرقم (٢٣٥٦٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري، وأورد السيوطي شطره الأول في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة ص ١٣١، ونقل ابن كثير في البداية والنهاية ١٨٨/٥ عن الذهبي قوله: صدر الحديث متواتر، أتقن أن رسول الله ﷺ قاله، وأما: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فزيادة قوية الإسناد.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص. وأورده السيوطي في الأزهار المتناثرة (١٠١).

(٤) في تفسير الآية (١٤٢) من سورة الأعراف.

(٥) ينظر منهاج السنة لابن تيمية ٣١٩/٧ وما بعدها.

طَعَنَ فِيهِ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ وَأَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ^(١)، وَاسْتَدَلَّ عَلَى بَطْلَانِهِ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مُزِينَةٌ وَجُهَيْنَةٌ وَغِفَارٌ وَأَسْلَمٌ مَوَالِيٌّ دُونَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ مَوْلَى دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(٢). قَالُوا: فَلَوْ كَانَ قَدْ قَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلَيْي مَوْلَاهُ» لَكَانَ أَحَدُ الْخَبَرَيْنِ كَذِبًا.

جواب ثان: وهو أَنَّ الْخَبَرَ؛ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا؛ رَوَاهُ ثِقَةٌ عَنْ ثِقَةٍ، فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى إِمَامَتِهِ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى فَضِيلَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْلَى بِمَعْنَى الْوَلِيِّ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْخَبَرِ: مَنْ كُنْتُ وَلِيِّهِ فَعَلَيْي وَلِيُّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [التَّحْرِيم: ٤]، أَي: وَلِيِّهِ، فَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْخَبَرِ أَنَّ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ ظَاهَرَ عَلِيٍّ كِبَاطِنُهُ، وَذَلِكَ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ لِعَلِيٍّ.

جواب ثالث: وهو أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ وَرَدَّ عَلَى سَبَبٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أَسَامَةَ وَعَلِيًّا اخْتَصَمَا، فَقَالَ عَلِيٌّ لِأَسَامَةَ: أَنْتَ مَوْلَايَ، فَقَالَ: لَسْتُ مَوْلَاكَ، بَلْ أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْي مَوْلَاهُ»^(٣).

جواب رابع: وهو أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي قِصَّةِ الْإِفْكَ فِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَ أَهْلُ النِّفَاقِ مَجَالًا، فَطَعَنُوا عَلَيْهِ وَأَظْهَرُوا الْبِرَاءَةَ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْمَقَالَ رَدًّا لِقَوْلِهِمْ، وَتَكْذِيبًا لَهُمْ فِيمَا أَقْدَمُوا^(٤) عَلَيْهِ مِنَ الْبِرَاءَةِ مِنْهُ وَالطَّعْنِ فِيهِ^(٥)، وَلِهَذَا مَا رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَا كُنَّا نَعْرِفُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بِبَغْضِهِمْ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦).

(١) ينظر الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ١٠٧/١.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٢)، ومسلم (٢٥٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سلف تخريج الحديث، ولم نقف على هذه القصة.

(٤) في (م): قدموا.

(٥) قصة الإفك أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولم نقف على من ذكر أن النبي ﷺ قال هذا الحديث ردًا على أهل النفاق في تلك الحادثة.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٠٨٦) من حديث جابر بن عبد الله، وأخرجه الترمذي (٣٧١٧) من طريق أبي هارون عمارة بن جُوَيْنِ الْعَبْدِيِّ، عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث =

وأما الحديث الثاني، فلا خلاف أنَّ النبي ﷺ لم يُرِدْ بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أنَّ هارون مات قبل موسى عليهما السلام - على ما يأتي من بيان وفاتيهما في سورة المائدة^(١) - وما كان خليفة بعده، وإنَّما كان خليفة^(٢) يوشع بن نون، فلو أراد بقوله: «أنت مَنِّي بمنزلة هارون من موسى» الخلافة، لقال: أنت مَنِّي بمنزلة يوشع من موسى، فلمَّا لم يقل هذا، دلَّ على أنَّه لم يُرِدْ هذا، وإنَّما أراد: إنِّي استخلفتك على أهلي في حياتي وغيوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لمَّا خرج إلى مناجاة ربِّه. وقد قيل: إنَّ هذا الحديث خرج على سبب^(٣)، وهو أنَّ النبي ﷺ لمَّا خرَّجَ إلى غَزْوَةِ تَبُوكَ، استخلفَ عليًّا عليه السلام في المدينة على أهله وقومه، فأرجَفَ^(٤) أهلُ النفاق، وقالوا: إنَّما خَلَفَهُ بُغْضًا وَقَلَى لَهُ، فخرج عليٌّ، فلحقَ بالنبي ﷺ، وقال له: إنَّ المنافقين قالوا كذا وكذا، فقال: «كذبوا، بل خَلَفْتُكَ كما خَلَفَ موسى هارونَ». وقال: «أما تُرَضِّى أن تكون مَنِّي بمنزلة هارونَ من موسى؟»^(٥).

وإذا ثَبَتَ أنَّه أراد الاستخلافَ على زعمهم، فقد شارك عليًّا في هذه الفضيلة غيره؛ لأنَّ النبي ﷺ استخلفَ^(٦) في كلِّ غَزَاةٍ غزاها رجلاً من أصحابه، منهم: ابنُ أمِّ مكتوم^(٧)، ومحمد بنُ مسلمة^(٨)، وغيرُهما من أصحابه، على أنَّ مدارَ هذا الخبرِ

= غريب، إنما نعرفه من حديث أبي هارون، وقد تكلم شعبة في أبي هارون، وقال فيه الحافظ في التقریب: متروك، ومنهم من كذبه.

(١) في الآية (٢٦).

(٢) في (م): الخليفة.

(٣) الإرشاد للجويني ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٤) في (م): أرجف به.

(٥) أخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (٨٠٨٢) من حديث سعد بن أبي وقاص، وابن سعد ٢٤/٣ من حديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم. وانظر ما سلف ص ٣٩٨، تعليق رقم (٣).

(٦) في (د): خلف.

(٧) أخرجه أحمد (١٢٣٤٤)، وأبو داود (٢٩٣١)، وابن حبان (٢١٣٤) من حديث أنس بن مالك.

(٨) ذكر ابن سعد ١٦٥/٢ أنَّ النبي ﷺ استخلف محمد بن مسلمة على المدينة حين خرج إلى تبوك، ثم قال: وهو أثبت عندنا ممن قال: استخلف غيره. وقيل: إنه استخلفه في غزوة قرقرة الكُدُر، فيما ذكر =

على سعد بن أبي وقاص، وهو خبرٌ واحد^(١). ورُوي في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه. ورُوي أنَّ النبي ﷺ لما أنفذ معاذَ بنَ جبلٍ إلى اليمن قيل له: ألا تُنفذُ أبا بكر وعمر؟ فقال: «إنَّهما لا غنى بي عنهما، إنَّ منزلتهما مني بمنزلة السَّمع والبصر من الرأس»^(٢). وقال: «هما وزيريَّ في أهل الأرض»^(٣). ورُوي عنه عليه السلام أنَّه قال: «أبو بكرٍ وعمرُ بمنزلة هارون من موسى»^(٤). وهذا الخبرُ ورد ابتداءً، وخبرٌ عليٌّ وردَّ على سببٍ، فوجب أن يكون أبو بكرٍ أولى منه بالإمامة، والله أعلم.

السابعة: واختُلِفَ فيما يكون به الإمامُ إماماً، وذلك ثلاث طرق: أحدها: النصُّ، وقد تقدَّم الخلافُ فيه، وقال به أيضاً الحنابلةُ، وجماعةٌ من أصحاب الحديث، والحسنُ البصريُّ، وبكرُ ابنُ أخيتِ عبد الواحد^(٥) وأصحابه، وطائفةٌ من

= ابن عبد البر في الاستيعاب ٤٥/١٠، وابن الأثير في أسد الغابة ١١٢/٥. ومحمد بن مسلمة هو أبو عبد الله الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا وغيرها، وكان ممن اجتنب الفتنة فلم يحضر الجمل ولا صفين، مات سنة (٤٣هـ). السير ٣٦٩/٢.

(١) سلف في تخريج الحديث ص ٣٩٨ أن السيوطي عده من الأحاديث المتواترة.
(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٤٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو. ولفظه: «إنَّ منزلتهما من الدين بمنزلة السَّمع والبصر من الجسد»، وفي إسناده بقية بن الوليد، مدلس، وقد نعنن، وفيه أيضاً من لم نعرفه. وأخرجه بنحوه كذلك أبو نعيم في الحلية ٧٣/٤ من حديث ابن عباس، وفيه الوليد بن الفضل العنزي، قال ابن حبان: يروي موضوعات، لا يجوز الاحتجاج به بحال. وأخرجه بنحوه كذلك الطبراني في الأوسط (٤٩٩٦)، وابن عدي ٧٨٦/٢ من حديث ابن عمر، وفيه حمزة بن أبي حمزة النصيبي: كان يضع الحديث.
وأخرجه بنحوه كذلك الحاكم ٧٤/٣ من حديث حذيفة بن اليمان، وفيه حفص بن عمر العدني، قال الذهبي: هو واه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف. قال الترمذي: هذا حسن غريب.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل ١٧٣٠/٥، والخطيب في تاريخ بغداد ٣٨٤/١١ - ٣٨٥ من حديث ابن عباس. وهو حديث منكر فيما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٣٩٠.

(٥) هو البصري الزاهد، قال الحافظ في لسان الميزان ٦٠/٢: ذكره ابن حزم في الملل والنحل في جملة الخوارج، وعبد الواحد: هو ابن زيد البصري الزاهد شيخ الصوفية. لسان الميزان ٨١/٤.

الخوارج. وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بِالْإِشَارَةِ^(١)، وَأَبُو بَكْرٍ عَلَى عَمْرٍ^(٢).
فَإِذَا نَصَّ الْمُسْتَخْلَفُ عَلَى وَاحِدٍ مَعَيَّنٍ كَمَا فَعَلَ الصَّدِيقُ، أَوْ عَلَى جَمَاعَةٍ كَمَا فَعَلَ
عَمْرٌ^(٣) - وَهُوَ الطَّرِيقُ الثَّانِي - وَيَكُونُ التَّخْيِيرُ إِلَيْهِمْ فِي تَعْيِينِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَ
الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الطَّرِيقُ الثَّالِثُ: إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَمَاعَةَ فِي مَصْرِ مِنْ أُمُصَارِ
الْمُسْلِمِينَ إِذَا مَاتَ إِمَامُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِمَامٌ، وَلَا اسْتَخْلَفَ، فَأَقَامَ أَهْلُ ذَلِكَ الْمَضَرِ
الَّذِي هُوَ حَضَرَةُ الْإِمَامِ وَمَوْضِعُهُ إِمَاماً لَأَنْفُسِهِمْ اجْتَمَعُوا^(٤) عَلَيْهِ وَرَضُوهُ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ
خَلَفَهُمْ وَأَمَامَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْآفَاقِ يَلْزُمُهُمُ الدُّخُولُ فِي طَاعَةِ ذَلِكَ الْإِمَامِ، إِذَا لَمْ
يَكُنِ الْإِمَامُ مُغْلَباً بِالْفُسْقِ وَالْفَسَادِ، لِأَنَّهَا دَعْوَةٌ مُحِيطَةٌ بِهِمْ، تَجِبُ إِجَابَتُهَا، وَلَا يَسَعُ
أَحَدًا التَّخَلُّفُ عَنْهَا، لَمَّا فِي إِقَامَةِ إِمَامَيْنِ مِنْ اخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ وَفَسَادِ ذَاتِ الْبَيِّنِ، قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَلِزُومُ
الْجَمَاعَةِ، وَمَنَاصِحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطَةٌ»^(٥).

الثَّامِنَةُ: فَإِنْ عَقَّدَهَا وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، فَذَلِكَ ثَابِتٌ، وَيَلْزُمُ الْغَيْرَ فَعَلُهُ،
خِلَافاً لِبَعْضِ النَّاسِ حَيْثُ قَالَ: لَا تَتَعَقَّدُ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَدَلِيلُنَا
أَنَّ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَقَّدَ الْبَيْعَةَ لِأَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ يُتَكَبَّرْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ^(٦)،
وَلَأَنَّهُ عَقَّدَ، فَوَجَبَ أَلَّا يَفْتَقِرَ إِلَى عَدَدٍ يَعْقِدُونَهُ، كَسَائِرِ الْعُقُودِ. قَالَ الْإِمَامُ

(١) مِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٢١٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٧) - وَالْفَرْقُ لَهُ - مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ لِي
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ: «ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكَ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَاباً؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مَتَمُّنٌ،
وَيَقُولُ قَاتِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٣٢٤٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٦٦٢)، وَابْنُ مَاجَةَ (٩٧) مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ بِنِ
الْيَمَانِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٌ». قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٢) سَلَفُ تَخْرِيجِهِ ص ٣٩٦.

(٣) سِيرِدُ تَخْرِيجِهِ ص ٤٠٣.

(٤) فِي (ز) وَ(ظ): أَجْمَعُوا.

(٥) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦٧٣٨)، وَابْنُ مَاجَةَ (٣٠٥٦) مِنْ حَدِيثِ جَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ كَذَلِكَ
(٢١٥٩٠) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ. وَيَنْظُرُ التَّمْهِيدُ ٢١/٢٧٦ - ٢٧٨.

(٦) سَلَفُ حَدِيثِ السَّقِيقَةِ ص ٣٩٦.

أبو المعالي^(١): من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمته، ولا يجوز خلعها من غير حدث وتغير أمر، قال: وهذا مُجمَع عليه.

التاسعة: فإن تَغَلَّبَ مَنْ له أهلية الإمامة، وأخذها بالقهر والغلبة، فقد قيل: إنَّ ذلك يكون طريقاً رابعاً، وقد سئل سهل بن عبد الله التستري^(٢): ما يجب علينا لمن غَلَبَ على بلادنا وهو إمام؟ قال: تُجيبه، وتؤدِّي إليه ما يُطالبك^(٣) من حقِّه، ولا تُنكرُ فعَّاله، ولا تُفرِّ^(٤) منه، وإذا ائتمنك على سرٍّ من أمر الدين لم تُفشيهِ. وقال ابن خُوَيزَمَنداد^(٥): ولو وثب على الأمر مَنْ يصلحُ له من غير مشورة ولا اختيار، وبايع له الناس، تَمَّتْ له البيعة، والله أعلم.

العاشرة: واختلف في الشهادة على عقد الإمامة، فقال بعض أصحابنا: إنَّه لا يفتقرُ إلى الشهود؛ لأنَّ الشهادة لا تثبُّ إلا بسمع قاطع، وليس هاهنا سمع قاطع يدلُّ على إثبات الشهادة. ومنهم من قال: يفتقرُ إلى شهود، فمن قال بهذا احتجَّ بأن قال: لو لم تعقد فيه الشهادة أدَّى إلى أن يدَّعي كلُّ مدَّعٍ أنَّه عُقد له سرّاً، ويؤدِّي إلى الهرج والفتنة، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة، ويكفي فيها شاهدان، خلافاً للجبائي^(٦) حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقبة ومعقود له؛ لأنَّ عمر حيث جعلها سُورى في ستة دَلَّ على ذلك^(٧). ودليلنا أنَّه لا خلاف بيننا وبينه أنَّ شهادة الاثنين معتبرة، وما زاد مختلف فيه، ولم يدلَّ عليه الدليل، فيجب ألا يُعتبر.

(١) في الإرشاد ص ٣٥٨.

(٢) أبو محمد الزاهد، صاحب ذا النون المصري، مات سنة (٢٨٣هـ). السير ١٣/ ٣٣٠.

(٣) في (ظ): يطالبك به.

(٤) في (ظ): تفر.

(٥) في (د): خواز منداد، وفي (ز): خواز منداذ، وفي (ظ): خواز بنداد، والمثبت من (م). وانظر ص ١٨٠.

(٦) المعروف بهذه النسبة: محمد بن عبد الوهاب البصري، أبو علي، شيخ المعتزلة، له كتاب الأصول، وكتاب الاجتهاد، وكتاب الأسماء والصفات وغيرها، مات سنة (٣٠٣هـ). السير ١٤/ ١٨٣. وابنه عبد السلام، أبو هاشم المعتزلي، له كتاب الجامع الكبير، وكتاب العَرَض، وغيرهما، مات سنة (٣٢١هـ). السير ١٥/ ٦٣.

(٧) أخرج البخاري (١٣٩٢) من طريق عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر رضي الله عنه قال: إني لا أعلم أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فمن استخلفوا بعدني فهو الخليفة، فاسمعوا وأطيعوا، فسمى عثمانَ وعليًّا وطلحةَ والزبيرَ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.

الحادية عشرة: في شرائط الإمام^(١)، وهي أحد عشر:

الأول: أن يكون من صميم قريش؛ لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»^(٢). وقد اختلف في هذا.

الثاني: أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين، مجتهداً لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث؛ وهذا متفق عليه.

الثالث: أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب، وتدبير الجيوش، وسد الثغور، وحماية البيضة، وردع الأمة، والانتقام من الظالم، والأخذ للمظلوم.

الرابع: أن يكون ممن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود، ولا فرغ من ضرب الرقاب، ولا قطع الأبخار.

والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضي الله عنهم، لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بد من أن يكون ذلك كله مجتمعاً فيه، ولأنه هو الذي يولي القضاة والحكام، وله أن يباشر الفضل والحكم، ويتفحص أمور خلفائه وقضاة، ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالماً بذلك كله قيمياً به^(٣).

الخامس: أن يكون حراً، ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه، وهو السادس.

السابع: أن يكون ذكراً، سليم الأعضاء، وهو الثامن.

وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً، وإن اختلفوا في جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه.

التاسع والعاشر: أن يكون بالغاً عاقلاً، ولا خلاف في ذلك.

الحادي عشر: أن يكون عدلاً؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تُعقد الإمامة لفاسق.

(١) ينظر الإرشاد للجويني ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٠٧)، والنسائي في الكبرى (٥٩٠٩) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه الطيالسي (٩٦٨)، وأحمد (١٩٧٧٧) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٣) في (م) زيادة: والله أعلم.

ويجب أن يكون من أفضلهم في العلم، لقوله عليه السلام: «أثمتكم شفاعوكم، فانظروا بمن تستشفعون»^(١). وفي التنزيل في وصف طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي أَعْلَاهُ وَالْجِسْمَ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فبدأ بالعلم، ثم ذكر ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء. وقوله: «اصطفاه» معناه: اختاره، وهذا يدل على شرط النسب.

وليس من شرطه أن يكون معصوماً من الزلل والخطأ، ولا عالماً بالغيب، ولا أفرس الأمة، ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قريش، فإن الإجماع قد انعقد على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، وليسوا من بني هاشم.

الثانية عشرة: يجوز نصب المفضل مع وجود الفاضل^(٢) خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة، وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو، وحماية البيضة، وسد الخلل، واستخراج الحقوق، وإقامة الحدود، وجباية^(٣) الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها، فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها يُنصب الإمام، كان ذلك عُذراً ظاهراً في العدول عن الفاضل إلى المفضل، ويدل على ذلك أيضاً علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة فيهم فاضل ومفضل، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدى المصلحة إلى ذلك، واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليه^(٤)، والله أعلم.

الثالثة عشرة: الإمام إذا نصب، ثم فسق بعد انبرام العقد:

فقال الجمهور: إنه تنسخ إمامته، ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم، لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يُقام لإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وحفظ أموال الأيتام

(١) لم تقف عليه بهذا اللفظ، وذكره ابن قدامة في المغني ٣/٤٠٩. وأخرج الدارقطني في السنن ٢/٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/٩٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «اجعلوا أئمتكم خياركم، فإنهم وقدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل». قال البيهقي: إسناد هذا الحديث ضعيف. وسيورده المصنف عند قوله تعالى: ﴿وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] المسألة الرابعة والعشرون.

(٢) في (ز) و(ظ): الأفضل.

(٣) في (د): وحيازة.

(٤) في (م): عليهم.

والمجانين والنظر في أمورهم، إلى غير ذلك ممّا تقدّم ذكره، وما فيه من الفسق يُفْعِدهُ عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها^(١)، فلو جَوَّزنا أن يكون فاسقاً، أدّى إلى إبطال ما أُقيِمَ لأجله، ألا ترى في الابتداء أنّما لم يَجْزُ أن يُعَقَّدَ للفاسق لأجل أنّه يؤدي إلى إبطال ما أُقيِمَ له؟ وكذلك هذا مثله.

وقال آخرون: لا يَنخَلُجُ إلّا بالكفر، أو بترك إقامة الصلاة، أو التّرك إلى دعائها، أو شيء من الشريعة، لقوله عليه السلام في حديث عبادة: وألّا تُنازع الأمر أهله. [قال]: «إلّا أن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً، عندكم من الله فيه برهان»^(٢).

وفي حديث عوف بن مالك^(٣): «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»^(٤) الحديث^(٥). أخرجهما مسلم. وعن أمّ سلمة، عن النبي ﷺ قال: «إنّه يُسْتَعْمَلُ»^(٦) عليكم أمراء، فتَعْرِفُونَ وتُنْكَرُونَ، فمن كَرِهَ فقد بَرِئ، ومن أنكَرَ فقد سَلِمَ، ولكن من رَضِيَ وتابَعَ»^(٧). قالوا: يا رسول الله، ألا تُقَاتِلُهُمْ؟ قال: «لا، ما صَلَّوْا». أي: من كَرِهَ بقلبه وأنكر بقلبه. أخرجه أيضاً مسلم^(٨).

الرابعة عشرة: ويجبُ عليه أن يخلَعَ نفسه إذا وجدَ في نفسه نقصاً يؤثر في الإمامة، فأمّا إذا لم يجد نقصاً؛ فهل له أن يَعزِلَ نفسه ويعقِدَ لغيره؟ اختلفَ الناسُ فيه: فمنهم من قال: ليس له أن يَفْعَلَ ذلك، وإن فعلَ لم تَنخَلِجْ إمامته. ومنهم من قال: له أن يفعل ذلك.

والدليلُ على أنّ الإمامَ إذا عَزَلَ نفسه انعزل: قولُ أبي بكر الصّدِّيق رضي الله عنه: أَقِيلُونِي، أَقِيلُونِي. وقولُ الصحابة: لا نُقِيلُكَ ولا نَسْتَقِيلُكَ، قدّمك رسولُ الله ﷺ

(١) في النسخ: والنهوض فيها، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمامة (٣/١٤٧٠) وما بين حاصرتين منه.

(٣) هو أبو عبد الرحمن، الأشجعي الغطفاني، شهد فتح مكة وغزوة مؤتة، مات سنة (٧٣هـ). السير ٢/٤٨٧.

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٥)، وهو في المسند (٢٣٩٨١).

(٥) في (ز): والحديثين.

(٦) في (د): سيستعمل.

(٧) في (ظ): وبإيع.

(٨) رقم (١٨٥٤) (٦٣)، وهو في المسند (٢٦٥٢٨).

لِدِينِنَا ، فَمَنْ ذَا يُؤْخِرُكَ؟ رَضِيكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا فَلَا^(١) نَرْضَاكَ؟!^(٢) فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه، ولقالت له: ليس لك أن تقول هذا، وليس لك أن تفعله، فلما أقرته الصحابة على ذلك، عُلِمَ أَنَّ للإمام أن يفعل ذلك، ولأنَّ الإمامَ ناظرٌ للغير^(٣)، فيجب أن يكونَ حكمه حكمَ الحاكم والوكيل إذا عزَلَ نفسه، فإنَّ الإمامَ هو وكيلُ الأمة ونائبُ عنها، ولَمَّا اتَّفَقَ على أَنَّ الوكيلَ والحاكمَ وجميعَ مَنْ نَابَ عن غيره في شيءٍ له أن يَغرِزَ نفسه، كذلك الإمامُ يجبُ أن يكونَ مثله. والله أعلم.

الخامسة عشرة: إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحل والعقد - أو بواحدٍ على ما تقدّم - وجبَ على الناس كافةً مبايعته على السمع والطاعة، وإقامة كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ، ومن تَأَبَّى عن البيعة لعُذْرٍ عُذِرَ، ومن تَأَبَّى لغيرِ عُذْرٍ جُبرَ وقُهرَ، لثَلَا تفرق كلمة المسلمين.

وإذا بُويعَ لخليفَتين، فالخليفة الأول، وقُتِلَ الآخرُ، واختلفَ في قتله: هل هو محسوسٌ، أو معنًى؛ فيكونَ عزله قتله وموته؟ والأوَّلُ أظهرُ. قال رسول الله ﷺ: «إذا بُويعَ لخليفَتين فاقتُلوا الآخرَ منهما». رواه أبو سعيد الخُدريُّ، أخرجه مسلم^(٤).

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: «وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا، فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ، فَلْيُطْعَمْ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخِرُ يَنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ». رواه مسلم^(٥) أيضاً، ومن حديث عَرْفَجَةَ^(٦): «فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَاتِنًا مَنْ^(٧)

(١) في (د) و(ظ): أفلا.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٣) مختصراً، وفيه تليد بن سليمان: رماه ابن معين بالكذب، وأورد الحافظ هذا الحديث في تلخيص الحبير ٤/٤٥، وعزاه لأبي خير الطالقاني في السنة، ثم قال: وهو منكر متناً، ضعيف منقطع سنداً.

(٣) في (م): للغير.

(٤) رقم (١٨٥٣).

(٥) رقم (١٨٤٤)، وهو في المسند (٦٥٠١).

(٦) ابن شُرَيْح، ويقال غير ذلك، الأشجعي، له صحبة، روى له مسلم وأبو داود والنسائي حديثاً واحداً، وهو هذا الحديث. تهذيب الكمال ١٩/٥٥٥، والإصابة ٦/٤١١.

(٧) في (ظ): ما.

كان»^(١). وهذا أدل دليل على منع إقامة إمامين، ولأن ذلك يؤدي إلى النفاق والمخالفة والشقاق، وحدوث الفتن، وزوال النعم، لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت، كالأندلس وخراسان جاز ذلك^(٢)، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

السادسة عشرة: لو خرج خارجي على إمام معروف العدالة، وجب على الناس جهاده، فإن كان الإمام فاسقاً والخارجي مظهر للعدل، لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نضرة الخارجيّ حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح، حتى إذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر.

السابعة عشرة: فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد، فلا يجوز إجماعاً لما ذكرنا.

قال الإمام أبو المعالي^(٣): ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين في طرفي العالم، ثم قالوا: لو اتفق عقد الإمامة لشخصين، نزل ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر. قال: والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد متضايق الخطط والمخالف غير جائز، وقد حصل الإجماع عليه، فأما إذا بعد المدى، وتخلل بين الإمامين شسوع النوى، فلاحتمال في ذلك مجال، وهو خارج عن القواطع.

وكان الأستاذ أبو إسحاق^(٤) يجوز ذلك في إقليمين متباعدين غاية التباعد، لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم، وذهبت الكرامية إلى جواز نصب إمامين من غير تفصيل، ويلزمهم إجازة ذلك في بلد واحد، وصاروا إلى أن علياً ومعاوية كانا إمامين.

(١) صحيح مسلم (١٨٥٢)، وهو في المسند (١٨٢٩٥).

(٢) في (د): فإن ذلك جائز.

(٣) الإرشاد ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٤) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، الأصولي، المتكلم، الفقيه، الشافعي، أحد المجتهدين في عصره، وعنه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور. من تصانيفه: «جامع الخلي في أصول الدين والرد على الملحدين» و«تعلية في أصول الفقه». توفي سنة ٤١٨ هـ. طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٦/٤، والسير ٣٥٣/١٧.

قالوا: وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه، ولأنه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد، ولم يؤد ذلك إلى إبطال النبوة، كانت الإمامة أولى، ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة، والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه، لقوله: «فاقتلوا الآخر منهما»^(١). ولأن الأمة عليه، وأما معاوية فلم يدع الإمامة لنفسه، وإنما^(٢) ادعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة، ومما يدل على هذا إجماع الأمة في عصرهما على أن الإمام أحدهما^(٣)، ولا قال أحدهما: إني إمام، ومخالف إمام. فإن قالوا: العقل لا يحيل ذلك، وليس في السمع ما يمنع منه، قلنا: أقوى السمع الإجماع، وقد وجد على المنع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت، ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله: ﴿لَا يَسْقُوتُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا: ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟

ف قيل: المعنى أنهم لما سمعوا لفظ «خليفة» فهموا أن في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عثموا الحكم على الجميع بالمعصية، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد، فقال تطيباً لقلوبهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾، وحق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه.

وقيل: إن الملائكة قد رأث وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان^(٤) فيها الجن قبل خلق آدم، فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس في جن من الملائكة، فقتلهم وأحقهم^(٥) بالبحار ورؤوس الجبال^(٦)، فمن حينئذ دخلته العزة، فجاء قولهم: ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا﴾ على جهة الاستفهام

(١) سلف تخريجه ص ٤٠٧.

(٢) في (ظ): بل.

(٣) في (د): أحد هؤلاء.

(٤) في (ز): كانت.

(٥) في (د): وألحقهم.

(٦) لم يثبت في ذلك خبر مرفوع، إنما أخرجه الحاكم ٢٦١/٢ نحوه عن ابن عباس قوله.

الْمَخْضُ: هل هذا الخليفةُ على طريقة من تقدّم من الجنّ أم لا؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلبٌ.

وقال ابن زيد^(١) وغيره: إنّ الله تعالى أعلمهم أنّ الخليفةَ سيكون من ذُرِّيَّتِهِ قومٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ، فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجّب من استخلاف الله من يعصيه، أو مِنْ عِصْيَانِ اللَّهِ مَنْ يَسْتَخْلِفُهُ فِي أَرْضِهِ وَيُنْعَمُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وإمّا على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين^(٢) جميعاً: الاستخلاف والعصيان^(٣).

وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنّه إذا جعلَ في الأرض خليفاً^(٤) أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: أهو الذي أعلمهم أم غيره؟

وهذا قول حسن، رواه عبد الرزاق^(٥) قال: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قال: كان الله أعلمهم أنّه إذا كان في الأرض خلقٌ أفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وفي الكلام حذفٌ على مذهبه، والمعنى: إنّني جاعلٌ في الأرض خليفةً يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا: أتجعلُ فيها الذي أعلمتناه أم غيره؟ والقول الأول أيضاً حسنٌ جداً، لأنّ فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ، وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما بين القولين حسنٌ، فتأمّله.

وقد قيل: إنّ سؤاله تعالى للملائكة بقوله: «كيف تركتُم عبادي؟» - على ما ثبت

(١) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر رضي الله عنه، كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، وهو أخو أسامة وعبد الله، وفيهم لين، توفي سنة (١٨٢هـ). السير ٣٤٩/٨.

(٢) في (ظ): للمفصلين.

(٣) المحرر الوجيز ١/١١٧. وقوله: إمّا على طريق التعجب... إلخ، ليس من كلام ابن زيد، بل من كلام ابن عطية.

(٤) في (د): خلفاء، وفي (ز): خليفة.

(٥) تفسير عبد الرزاق ١/٤٢.

في صحيح مسلم^(١) وغيره - إنما هو على جهة^(٢) التوبيخ لمن قال: «أَتَجْعَلُ فِيهَا»، وإظهاراً لما سَبَقَ في معلومه إذ قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَنْ يُفْسِدْ فِيهَا﴾ «مَنْ» في موضع نَصْب على المفعول بـ «تجعل»، والمفعول الثاني يقوم مقامه «فيها».

«يُفسد» على اللفظ، ويجوزُ في غير القرآن: يفسدون، على المعنى. وفي التنزيل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْجِلُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]. على اللفظ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] على المعنى.

﴿وَيَسْفِكُ﴾ عطف عليه، ويجوزُ فيه الوجهان. وروى أسيد عن الأعرج^(٣) أنه قرأ: «وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ» بالنصب^(٤)، يجعلُهُ جوابَ الاستفهام بالواو^(٥)، كما قال^(٦):

ألم أَكُ جَارِكُمْ ويكونُ^(٧) بيني وبينَكُم المودَّةُ والإخاءُ^(٨)
والسَّفْكُ: الصَّبُّ، سَفَكْتُ الدَّمَ أَسْفَكُهُ سَفْكَاً: صَبَّيْتُهُ، وكذلك الدمعُ، حكاه ابنُ فارس والجوهري^(٩). والسَّفَاكُ: السَّفَاخُ، وهو القادرُ على الكلام. قال المهدوي: ولا يستعمل السفكُ إلا في الدم، وقد يستعملُ في نثر الكلام، يقال: سفكَ الكلامَ: إذا نثره.

وواحدُ الدماءِ دَمٌ، محذوفُ اللام، قيل^(١٠): أصلُهُ دَمَيٌّ، وقيل: دَمَيٌّ، ولا يكون

(١) رقم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٥)، وهو في المسند (٧٤٩١).

(٢) في (د): سبيل.

(٣) أسيد هو ابن يزيد المدني، والأعرج هو عبد الرحمن بن هرمز، الحافظ المقرئ، مات مرابطاً بالاسكندرية سنة (١١٧هـ). التاريخ الكبير ١٥/٢، والجرح والتعديل ٣١٦/٢، والسير ٦٩/٥.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٧/١.

(٦) في (د) و(ظ): كما قال الشاعر.

(٧) في (ز) و(م): وتكون، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٨) البيت للحطيفة، وهو في ديوانه ص ٩٨، وروايته فيه: ألم أَكُ مسلماً فيكونُ بيني. وهو من شواهد سيويه ٤٣/٣.

(٩) مجمل اللغة ٤٦٣/٢، والصحاح: (سفك).

(١٠) في (م): وقيل.

اسم على حرفين إلا وقد حُذِفَ منه، والمحذوف منه ياء، وقد نُطِقَ به على الأصل^(١)، قال الشاعر:

فلو أتا على حجرٍ ذُبَحنا جَرى الدَّميان بالخبرِ اليقين^(٢)
قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نُنَزِّهُكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بصفاتك، والتسبيح في كلامهم: التنزيه من السوء على وجه التعظيم، ومنه قولُ أغشى بني ثعلبة^(٣):
أُفْـسُولٌ لِّمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سَبْحَانِ مِنْ عِلْقَمَةِ الْفَاخِرِ
أي: براءة من علقمة.

وروى طلحة بن عبيد الله^(٤) قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: «هو تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كلِّ سوء»^(٥). وهو مشتقٌّ من السَّبَّح، وهو الجريُّ والذهاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، فالمسبح جارٍ في تنزيه^(٦) الله تعالى وتبرئته من السوء.

وقد تقدَّم الكلامُ في «نحن»^(٧)، ولا يجوز إدغامُ النون في النون لثلاً يلتقي ساكنان^(٨).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٧/١، وقال الجوهري في الصحاح (دما): أصله: دَمَوُ، بالتحريك، وإنما قالوا: دَمِي يَدْمِي، لحال الكسرة التي قبل الياء، كما قالوا: رَضِي يَرْضَى.

(٢) نسب البيت في أمالي الرُّجَّاجي ص ٢٠، وخزانة الأدب ٣٥١/٣ (طبعة بولاق) لعلي بن بدَّال، ونسبه في الحماسة البصرية ٤٠/١ للمثقب العبدى، ونسب لغيرهما كذلك فيما ذكر البغدادي في الخزانة ٣٥٣/٣، غير أنه رجح نسبته لعلي بن بدَّال، وهو في اللسان: (دمي) غير منسوب.

(٣) هو الأعشى الكبير، والبيت في ديوانه ص ١٩٣.

(٤) أبو محمد القرشي، التميمي، المكي، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قُتل يوم الجمل. السير ٢٣/١.

(٥) أخرجه الشاشي في مسنده (١٠)، والحاكم ٥٠٢/١ من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: بل لم يصح؛ فإن طلحة منكر الحديث، قاله البخاري... إلخ.

(٦) في (د): تسبيح.

(٧) ص ٣٠٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٨/١. لكن إدغام النونين في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ هو من الإدغام الكبير لأبي عمرو من السبعة في رواية السوسي، فهو يدغم النون في مثلها ولا ينظر إلى ما قبلها. التذكرة ١١١/١ لابن غلبون.

مسألة : واختلف أهل التأويل في تسبيح الملائكة، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسبيحهم صلاتهم^(١)، ومنه قول الله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات : ١٤٣] أي : من المصلين^(٢). وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر. قاله المفضل ، واستشهد بقول جرير :

قَبَّحَ إِلَهُ وَجْوهَ تَغْلِبَ كُلَّمَا سَبَّحَ الْحَجِيحُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا^(٣)
وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله ، على عُرْفِهِ في اللغة^(٤). وهو الصحيح ، لما رواه^(٥) أبو ذرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ : أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ : «مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ [أو لعباده] : سبحان الله وبحمده». أخرجه مسلم^(٦). وعن عبد الرحمن بن قُرْظٍ^(٧) ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ سَمِعَ تَسْبِيحاً فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَا : «سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى». ذكره البيهقي^(٨).

قوله تعالى : ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي : وبحمدك ، نَخْلِطُ التَّسْبِيحَ بِالْحَمْدِ ، وَنَصِلُهُ بِهِ. والحمدُ : الثناء ، وقد تقدم^(٩). ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» اعتراضاً بين الكلامين ، كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس ، ثم اعترضوا على جهة التسليم ، أي : وأنت^(١٠) المحمودُ في الهداية إلى ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي : نُعَظِّمُكَ وَنُجَدِّدُكَ ، وَنُظَهِّرُ ذِكْرَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ مِمَّا نَسَبَكَ إِلَيْهِ الْمَلْحَدُونَ. قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما^(١١). وقال الضحّاك

(١) أخرجهما الطبري ٥٠٤/١.

(٢) في (م) : أي المصلين.

(٣) ديوانه ٥٢/١. وفيه : شيخ الحجيج. وفسره ابن حبيب شارحه بقوله : الشيخ : رفع الأيدي بالدعاء.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٥٠٥/١.

(٥) في (ظ) : روى.

(٦) رقم (٢٧٣١) وما بين حاصرتين منه. وهو في المسند (٢١٥٢٩).

(٧) الثُمالي ، الحمصي ، كان من أهل الصُّفَّة ، سكن الشام. الإصابة ٦/٣١٧.

(٨) لم نجده عند البيهقي ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٤) ، وأبو نعيم في الحلية ٧/٢ - ٨.

(٩) ص ٢٠٥.

(١٠) في (ز) : أي ونحمدك وأنت ، وفي (ظ) : أي نحمدك وأنت.

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره ٥٠٦/١.

وغيره: المعنى نُظْهِرْ أَنْفُسَنَا لِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ^(١). وقال قومٌ منهم قتادة: «نَقْدُسُ لَكَ» معناه: نصلي. والتقديسُ: الصلاة^(٢). قال ابن عطية^(٣): وهذا ضعيف.

قلت: بل معناه صحيحٌ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». روته عائشة، أخرجه مسلم^(٤). وبناء «قُدُس»^(٥) كيفما تصرَّفَ فَإِنَّ معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، أي: الْمُطَهَّرَةَ. وقال: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٤٣] يعني^(٦) الطاهر، ومثله: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]. وبيتُ الْمُقَدَّسِ سُمِّيَ به لَأَنَّهُ الْمَكَانُ الَّذِي يُتَقَدَّسُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، أي: يُنَظَّهَرُ، ومنه قيل لِلسَّطَلِ: قُدُسٌ، لَأَنَّهُ يُتَوَضَّأُ فِيهِ وَيُنَظَّهَرُ؛ ومنه القادوس^(٧). وفي الحديث: «لَا قُدُسَتْ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لضعيفها مِنْ قَوِيَّهَا». يريد: لَا ظَهَرَها الله. أخرجه ابنُ ماجه في «سُنَنِهِ»^(٨) فالقُدُسُ: الطُّهْرُ من غير خلاف، وقال الشاعر:

فأَذْرَكْنَاهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقَ الْوِلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ^(٩)
أي: المطَّهَّرِ^(١٠).

(١) أخرجه الطبري ٥٠٦/١.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٤٢/١، والطبري ٥٠٥/١.

(٣) المحرر الوجيز ١١٨/١.

(٤) رقم (٤٨٧)، وهو في المسند (٢٤٠٦٣).

(٥) في (د) و(ظ) قدوس.

(٦) في (د) و(ظ): أي.

(٧) هو إناء من خَرَفَ أصغر من الجرّة، يُخرج به الماء من السواقي، والجمع قواديس. تاج العروس (قدس).

(٨) رقم (٤٠١٠) من حديث جابر بن عبد الله، ولفظه: «كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟». وأخرجه كذلك (٢٤٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقّه غير متعتم».

(٩) قائله امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ١٠٤. والنسا: عرق يخرج من الورك، فيستبطن الفخذين، ثم يمر بالعرقوب، حتى يبلغ الحافر. وشبرق: خرق ومزق، والمقدس: الراهب الذي يأتي بيت المقدس، وكان إذا نزل من صومعته يجتمع الصبيان إليه، فيخرقون ثيابه ويمزقونها تمسحاً به وتبركاً، والشاعر يصف ثوراً لاحقته الكلاب، فأدركته وفعلت به ما فعلت. ينظر شرح الديوان، والصحاح: (نسا).

(١٠) النكت والعيون ٩٧/١.

فالصلاة طُهْرَةٌ للعبد من الذنوب، والمُصَلِّي يدخلها على أكمل الأحوال لكونها^(١) أفضل الأعمال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «أعلم» فيه تأويلان: قيل: إنه فعل مستقبل. وقيل: إنه اسمٌ بمعنى فاعل، كما يقال: الله أكبر، بمعنى كبير، وكما قال:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ على أَيْنَا تَعْدُو المنيَّةُ أَوَّلُ^(٢)
فعلى أنه فعل، تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ: «أعلم»، ويجوز إدغام الميم في الميم. وإن جعلته اسماً بمعنى عالم، تكون «ما» في موضع خفضٍ بالإضافة^(٣). قال ابن عطية^(٤): ولا يصحُّ فيه الصرفُ بإجماع^(٥) من النُّحاة، وإنما الخلافُ في «أفعل» إذا سُمِّيَ به وكان نكرةً، فسيبويه^(٦) والخليلُ لا يَصْرِفَانِهِ، والأخفشُ يَصْرِفُهُ. قال المَهْدَوِيُّ: يجوز أن يُقَدَّرَ^(٧) التنوينُ في «أعلم» إذا قَدَّرْتَهُ بمعنى عالم، وتنصبَ «ما» به، فيكون مثلُ: حَوَاجُ بَيْتِ الله. قال الجوهرِيُّ^(٨): ونسوةٌ حَوَاجُ بَيْتِ الله، بالإضافة: إذا كُنَّ قد حَجَّجْنَ، وإن لم يكنَّ حَجَّجْنَ، قلتُ: حَوَاجُ بَيْتِ الله، فتنصبُ البيتَ، لأنَّكَ تريدُ التنوينَ في «حَوَاجُ»، [إلا أنه لا ينصرف].

قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ اختلف علماء التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: فقال ابنُ عَبَّاسٍ: كان إبليسُ - لعنه الله - قد أُعْجِبَ، ودَخَلَهُ الكِبَرُ لَمَّا جَعَلَهُ خَازِنَ السَّمَاءِ وشرِّفَهُ، فاعتقد أنَّ ذلكَ لِمَزِيَّةٍ له، فاستخفَّ^(٩) الكفرَ والمعصيةَ في جانب آدم عليه السلام. وقالت الملائكة: ﴿وَمَنْ شِئِخٌ بِحَمْدِكَ وَنُقْدُسٌ لَكَ﴾ وهي

(١) في (ظ): لأنها.

(٢) قائله معن بن أوس، والبيت في ديوان الحماسة ٣/١١٢٦، وإعراب القرآن للنحاس ١/٢٠٨، وأما ابن الشجري ٧٤/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/١١٩.

(٥) في (د): بالإجماع.

(٦) الكتاب ٣/١٩٣.

(٧) في (م): تقدر.

(٨) الصحاح: (حجج) وما بين حاصرتين منه.

(٩) في المحرر الوجيز ١/١١٩ (والكلام منه): فاستحقب.

لا تعلمُ أن في نفس إبليسَ خلافَ ذلك، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقال قتادة: لما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وقد علم الله أن فيمن يُستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة، قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

قلتُ: ويحتملُ أن يكون المعنى إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تعلمون، ممّا كان، وممّا يكون، وممّا هو كائن، فهو عامٌ.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣١﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ عَلَّمَ: معناه عَرَّفَ، وتعليمه هنا إلهامٌ عِلْمِيٌّ ضروريٌّ. ويحتملُ أن يكون بواسطة ملك^(٣)، وهو جبريل عليه السلام، على ما يأتي.

وقرئ: «وَعَلَّمَ» غيرُ مسمّى الفاعل^(٤). والأوّل أظهر، على ما يأتي.

قال علماء الصوفية: عَلَّمَهَا^(٥) بتعليم الحقِّ إِيَّاه، وحَفِظَهَا بحفظه عليه، ونَسِيَ ما عَهِدَ إليه، لِأَنَّهُ^(٦) وَكَلَّهُ فيه إلى نفسه فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَى وَلَمْ يَحْذَرْ لَمَّا عَزَمْنَا﴾ [طه: ١١٥]. وقال ابنُ عطاء: لو لم يُكشف لآدمِ تلك الأسماء، لكان أعجزَ من الملائكة في الإخبار عنها. وهذا واضحٌ.

وآدمُ عليه السّلام يُكْنَى أبا البشر، وقيل: أبا محمد؛ كُنِّي بمحمد خاتم الأنبياء^(٧)

(١) أخرجه الطبري بنحوه في تفسيره ٤٨٦/١-٤٨٧، وذكر ص ٣٧٥ أنه مراتب بإسناده.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٩١/١، والكلام في المحرر الوجيز ١١٩/١.

(٣) المحرر الوجيز ١١٩/١.

(٤) هي قراءة الحسن كما في المحتسب ٦٤/١، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٥) في (د): علمه.

(٦) في (م): لأن.

(٧) في (ظ): النبيين.

صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلِيُّ^(١). وقيل: كُنِيَته في الجنة أبو محمَّد، وفي الأرض أبو البشر.

وأصله بهمزتين، لأنَّه أفعل، إلَّا أنَّهم لَيَّنُوا الثانية، فإذا احتجَّت إلى تحريكها جعلتها واوًا فقلت: أوادِم في الجمع؛ لأنَّه ليس لها أصلٌ في الياء معروف، فجعلت الغالب عليها الواو. عن الأخفش^(٢).

واختلِف في اشتقاقه، ف قيل: هو مُشْتَقٌّ من أَدَمَ الأرض وأديمها، وهو وَجْهها، فسُمِّيَ بما خُلِقَ منه، قاله ابنُ عباس^(٣). وقيل: إنه مُشْتَقٌّ من الأُدْمَة وهي السُّمْرَة. واختلفوا في الأُدْمَة، فزعم الضَّحَّاك أنَّها السُّمْرَة، وزعم النَّضر أنَّها البياض، وأنَّ آدم عليه السلام كان أبيضَ، مأخوذٌ من قولهم: ناقةٌ أَدْمَاءُ: إذا كانت بِيضاء. وعلى هذا الاشتقاق جَمَعُه أَدَمٌ وأوادم؛ كحُمُرٍ وأحامر، ولا يَنْصَرِفُ بوجه. وعلى أنَّه مُشْتَقٌّ من الأُدْمَة جَمَعُه آدمون، ويلزم قائلو هذه المقالة صَرْفُه.

قلت: الصَّحِيحُ أنَّه مُشْتَقٌّ من أديم الأرض. قال سعيدُ بن جُبَيْر: إنَّما سُمِّيَ آدمٌ لأنَّه خُلِقَ من أديم الأرض، وإنَّما سُمِّيَ إنساناً لأنَّه نَسِي، ذكره ابنُ سعد في الطبقات^(٤).

وروى السُّدِّيُّ، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابنِ عبَّاس. وعن مُرَّة الهَمْدَانِيَّ عن ابن مسعود^(٥) في قصَّة خلق آدم عليه السَّلام قال: فبعث الله جبريل عليه السَّلام إلى الأرض لِيَأْتِيَه بطينٍ منها، فقالت الأرضُ: أعوذُ بالله منك أن تنقص^(٦) منِّي أو تَشِينَنِي؛ فرجع ولم يأخذ، وقال: ربِّ^(٧)، إنَّها عاذت بك فأعذتُها. فبعث

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ، أبو القاسم وأبو زيد الخثعمي الأندلسي المالقي، صاحب الروض الأنف في شرح السيرة، توفي سنة (٥٨١هـ). الوافي بالوفيات ١٨/١٧٠. وكلامه المذكور أعلاه في التعريف والإعلام ص ١٩.

(٢) نقله عنه الجوهري في الصحاح (أدم).

(٣) أخرج نحوه الطبري ٥١١/١، وابن سعد في الطبقات ١/٢٦٢٥.

(٤) الطبقات الكبرى ٢٦/١، وابن سعد هو محمد بن سعد بن منيع، أبو عبد الله البغدادي، الهاشمي مولا هم، كاتب الواقدي مات سنة (٢٣٠هـ). السير ١٠/٦٦٤.

(٥) غمز الطبري في تفسيره بهذين الإسنادين، ينظر تفسيره ١/٣٧٥.

(٦) في (د): تقبض.

(٧) في (م): يا رب.

ميكائيل، فعادَتْ منه فأعادَها، فرجع، فقال كما قال جبريل. فبعثَ مَلَكَ الموت، فعادَتْ منه، فقال: وأنا أعودُ بالله أن أرجِعَ ولم أنفِذْ أمره. فأخذَ من وَجِهِ الأرض وخَلَطَ، ولم يأخذَ من مكانٍ واحد، وأخذَ من تُرْبَةِ حَمْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ، فلذلك خرجَ بنو آدمَ مختَلِفِينَ - ولذلك سُمِّيَ آدمَ، لأنه أخذَ من أديمِ الأرض - فصعدَ به، فقال الله تعالى له: أَمَا رَجِمْتَ الأرضَ حينَ تَضَرَّعْتَ إليكَ؟ فقال: رأيتُ أَمْرَكَ أَوْجَبَ من قولها. فقال: أنتَ تَصْلُحُ لِقَبْضِ أرواحِ وَلَدِهِ. فبَلَّ التُّرَابَ حَتَّى عَادَ^(١) طِيناً لَازِباً - اللَّازِبُ: هو الذي يلتصقُ ببعضه ببعض - ثم تركَ حَتَّى أَنتَنَ، فذلك حيثُ يقول: ﴿مَنْ حَمَلِ مَسْنُونٌ﴾ [الحجر: ٣٣]. قال: مُنْتِن. ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢]، فخلقه الله بيده لكيلاً^(٢) يتكبرُ إبليسُ عنه. يقول: أنتَ كَبَرُ عَمَّا خَلَقْتُ بيدي ولم أتكبرُ أنا عنه؟ فخلقه بشراً، فكان جسداً من طينٍ أربعينَ سَنَةً من مقدارِ يومِ الجُمعة، فمرَّت به الملائكةُ، ففزعوا منه لَمَّا رَأَوْهُ، وكان أشدُّهم منه فزعاً إبليسُ، فكان يمرُّ به فيضربه، فيصلُوتُ الجسدُ كما يَصُوتُ الفَخَّارُ تكونُ له صَلَصلةٌ، فذلك حينَ يقول: ﴿مِن صَلَصلةٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقول: لَأَمْرٍ مَا خُلِقْتُ! ودخلَ من فيه^(٣) وخرجَ من دُبُرِهِ، فقال إبليسُ للملائكة: لا ترهبُوا من هذا فَإِنَّهُ أَجَوَفٌ، ولئن سُلِّطْتُ عليه لَأَهْلِكَنَّهُ. ويُقال: إِنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ عَلَيْهِ مع الملائكة يقول: أَرَأَيْتُمْ هَذَا الَّذِي لَمْ تَرَوْا مِنَ الْخَلْقِ يُشَبِّهُهُ إِنَّ فَضْلَ عَلَيْكُمْ وَأَمْرُكُمْ بطاعته ما أنتم فاعلون؟ قالوا: نُطِيعُ أَمْرَ رَبِّنَا، فَأَسَرَّ إبليسُ فِي نَفْسِهِ لئن فَضَّلَ عَلَيَّ فلا أَطِيعُهُ، ولئن فَضَّلْتُ عَلَيْهِ لَأَهْلِكَنَّهُ، فلما بَلَغَ الْحَيْنَ الذي أريدُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ الرُّوحَ، قَالَ للملائكة: إِذَا نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَاسْجُدُوا لَهُ^(٤). فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، فدخلَ الرُّوحُ فِي رَأْسِهِ عَطَسَ، فقالت له الملائكة: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، فقال: الحمدُ لله، فقال الله له: رَجِمَكَ رَبُّكَ، فلما دخلَ

(١) في (ظ): صار.

(٢) في (د): لثلا، وفي (ظ): كيلا.

(٣) في (د): من فيه.

(٤) في (ظ): فقَعُوا له ساجدين.

الرُّوحُ فِي عَيْنَيْهِ نَظَرَ إِلَى ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي جَوْفِهِ اشْتَهَى الطَّعَامَ، فَوَثَبَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الرُّوحَ رَجُلَيْهِ عَجَلَانٍ إِلَى ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَذَلِكَ حِينَ^(١) يَقُولُ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠ - ٣١]. وذكر القصة^(٢).

وروى الترمذي^(٣) عن أبي موسى الأشعري قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ^(٤) مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ صحيح.

أديم: جمعُ آدم؛ قال الشاعر:

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَتَّى فِي الشَّيَمِ وَكُلُّهُمْ يَجْمَعُهُمْ وَجْهُ الْأَدَمِ^(٥)
ف«آدم» مشتقٌ من الأديم والأدم، لا من الأذمة؛ والله أعلم.
ويحتملُ أن يكونَ منهما جميعاً. وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في خَلْقِ آدَمَ في «الأنعام»^(٦) وغيرها إن شاء الله تعالى.

و«آدم» لا يَنْصَرِفُ. قال أبو جعفر النحاس^(٧): «آدم» لا ينصرفُ في المعرفة بإجماع النحويين، لأنَّه على أَفْعَل، وهو معرفة، ولا يَمْتَنِعُ شيءٌ من الصَّرْفِ عند

(١) في (ظ): أن تبلغ الروح... حيث يقول.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٨٨-٤٨٦/١ أطول منه، وفي تاريخه ٩٠/١، وأورد ابن كثير القصة عند تفسيره هذه الآية وقال: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم.

(٣) في سننه (٢٩٥٥)، وهو في مسند أحمد (١٩٥٨٢).

(٤) في (د) و(ظ): جاء.

(٥) الرجز في جمهرة أمثال العرب للعسكري ٣٠٣/٢، ولسان العرب (آدم)، وروايته: يجمعهم بيت الأدم.

(٦) عند تفسير قوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ لَيْنٍ﴾ الآية ٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٨/١ - ٢٠٩، وفيه قول الزجاج المذكور.

البصريين إلا لعلتين. فإن نكّرته ولم يكن نعتاً، لم يصرفه الخليل وسيبويه، وصرفه الأخفش سعيد؛ لأنه إنما منعه من الصرف^(١)؛ لأنه كان نعتاً وهو على وزن الفعل، فإذا لم يكن نعتاً صرفه. قال أبو إسحاق الزجاج: القول قول سيبويه، ولا يفرق بين النعت وغيره؛ لأنه هو ذاك بعينه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا﴾: الأسماء هنا بمعنى العبارات، فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمّى، كقولك: زيدٌ قائم، والاسدُ شجاعٌ. وقد يرادُ به التسميةُ ذاتها، كقولك: اسدٌ ثلاثة أحرف، ففي الأوّل يُقال: الاسم هو المسمّى، بمعنى يرادُ به المسمّى، وفي الثاني لا يرادُ به المسمّى.

وقد يجري اسمٌ في اللغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثرُ من استعمالها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا﴾ على أشهر التأويلات، ومنه قول النبي ﷺ: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً»^(٢).

ويجري مجرى الذات، يُقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنى، وعلى هذا حمَلَ أكثرُ أهلِ العلم قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ ﴿بِزَكَاتِكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْهُنَّ﴾ [يوسف: ٤٠].

الثالثة: واختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علّمها لآدم عليه السلام، فقال ابنُ عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابنُ جُبَيْر: علّمه أسماء جميع الأشياء كلّها جليلها وخفِيرها^(٣). روى^(٤) عاصمُ بنُ كُلَيْب، عن سَعْدِ مولى الحسن بن عليّ قال: كنتُ جالساً عند ابنِ عَبَّاسٍ، فذكروا اسمَ الآنية واسمَ السُّوط، قال ابنُ عباس: «وعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا».

قلت: وقد رويَ هذا المعنى مرفوعاً على ما يأتي، وهو الذي يقتضيه لفظُ «كُلُّهَا» إذ هو اسمٌ موضوعٌ للإحاطة والعموم. وفي البخاريّ من حديث أنس، عن النبي ﷺ

(١) قوله: لأنه إنما منعه من الصرف، ليس في (م).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) تفسير الطبري ٥١٤/١.

(٤) في (م): وروى.

قال: «ويجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبو الناس، خلَقَكَ الله بيده، وأسجدَ لك ملائكته، وعَلَّمَكَ أسماء كل شيء»^(١) الحديث. قال ابن خُوَيزَمَنَدَاد^(٢): في هذه الآية دليل على أَنَّ اللُّغة مأخوذة توقيفاً، وأن الله تعالى علَّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلاً. وكذلك قال ابن عباس: علَّمه أسماء كل شيء حتى الجَفَنَةُ والمِخْلَب. وروى شيبان، عن قتادة قال: علَّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يُعلِّم الملائكة، وسَمَّى كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه^(٣). قال النَّحَّاس: وهذا أَحْسَنُ ما رُوِيَ في هذا. والمعنى: علَّمه أسماء الأجناس وعَرَّفَهُ منافِعَهَا، هذا كذا، وهو يصلح لكذا.

وقال الطبري: علَّمه أسماء الملائكة وذُرِّيَّتِهِ، واختار هذا ورَجَّحه بقوله: ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. وقال ابنُ زيد: علَّمه أسماء ذُرِّيَّتِهِ كلَّهم.

الربيع بن خُثَيْم^(٤): أسماء الملائكة خاصَّة^(٥).

القُتَيْبِيُّ: أسماء ما خلق في الأرض^(٦). وقيل: أسماء الأجناس والأنواع.

قلت: القولُ الأوَّلُ أصحُّ، لما ذكرناه آنفاً، ولَمَّا نَبَّيْتهُ إن شاء الله تعالى.

الرابعة: واختلف المتأوِّلون أيضاً: هل عَرَضَ على الملائكة أشخاص الأسماء^(٧) أو الأسماء دون الأشخاص، فقال ابنُ مسعود وغيره: عرض الأشخاص^(٨) لقوله تعالى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ وتقولُ

(١) صحيح البخاري (٧٤١)، وصحيح مسلم (١٩٣)، وهو في المسند (١٢١٥٣).

(٢) في (د) و(ظ): ابن خواز منداد، وفي (ز): أبو خواز منداد، والمثبت من (م)، وانظر ص ١٨٠.

(٣) تفسير الطبري ٥١٧/١، وتاريخه ٩٨/١.

(٤) أبو يزيد الثوري، الكوفي، أدرك زمان النبي ﷺ، وكان أروع أصحاب ابن مسعود، مات قبل سنة (٢٥٨هـ). السير ٢٥٨/٤.

(٥) تفسير الطبري ٥١٧/١، واختيار الطبري وترجيحه في ٥١٨/١، وتاريخه ٩٩/١.

(٦) غريب القرآن ص ٥٦، والقُتَيْبِيُّ هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب صاحب التصانيف، كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس، صنف غريب القرآن والحديث وأدب الكاتب والشعر والشعراء وغيرها، توفي سنة (٢٧٦هـ). السير ٢٩٦/١٣.

(٧) في (م): أسماء الأشخاص.

(٨) المحرر الوجيز ١١٩/١.

العربُ: عَرَضْتُ الشيءَ فَأَعْرَضُ، أي: أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيءَ للبيع^(١). وفي الحديث: «إنه عَرَضَهُمْ أمثالَ الذَّرِّ»^(٢).

وقال ابنُ عباس وغيره: عرضَ الأسماء^(٣). وفي حرفِ ابنِ مسعود: «عَرَضَهُنَّ» فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأنَّ الهاء والنون أخصَّ بالمؤنث. وفي حرف أبيّ «عَرَضَهَا»^(٤). مجاهد: أصحاب الأسماء^(٥). فَمَنْ قال في الأسماء: إنها المسمَّيات^(٦)، فاستقامَ على قراءة أبيّ: «عَرَضَهَا». ويقول^(٧) في قراءة مَنْ قرأ: «عَرَضَهُمْ»: إنَّ لفظَ الأسماء يدلُّ على أشخاص، فلذلك سَأَغ أن يقول^(٨) للأسماء: «عَرَضَهُمْ». وقال في «هؤلاء»: المرادُ بالإشارة إلى أشخاص الأسماء، لكنَّ وإن كانت غائبة؛ فقد حَضَرَ ما هو منها بسبب، وذلك أسماؤها.

قال ابنُ عطية^(٩): والذي يظهر أنَّ الله تعالى علَّم آدمَ الأسماء وعَرَضَ عليه مع ذلك الأجناسَ أشخاصاً^(١٠) ثم عرضَ تلكَ على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها^(١١) التي قد تعلَّمها، ثم إنَّ آدمَ قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وقال الماوردي^(١٢): فكان^(١٣) الأصحُّ توجُّهَ العَرَضِ إلى المُسمَّين. ثم في زمن عَرَضِهِم

(١) الصحاح (عرض).

(٢) سيذكره المصنف عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَيْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

(٣) تفسير الطبري ٥٢٠/١، والمحمر الوجيز ١٢٠/١.

(٤) ذكر القراءتين ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ٤، والماوردي في النكت والعيون ٩٩/١، وابن عطية في المحمر الوجيز ١٢٠/١.

(٥) تفسير الطبري ٥٢١/١.

(٦) في (ز) و(ظ) و(م): التسميات، وهو خطأ، والمثبت من (د).

(٧) في (م): وتقول.

(٨) في (م): يقال.

(٩) المحمر الوجيز ١٢١/١.

(١٠) اضطربت العبارة في (د) و(ظ) و(م)، فقد وقع فيها: وعرضهن عليه مع ذلك الأجناس بأشخاصها، إلا أن في (ظ): أشخاصاً، بدل: بأشخاصها، وفي (م): تلك، بدل: ذلك. والمثبت من (ز) وهو المناسب لما في المحمر الوجيز، فاللفظ فيه: وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصاً.

(١١) في (د): مسمياتها.

(١٢) في النكت والعيون ٩٩/١-١٠٠.

(١٣) في (م): وكان.

قولان: أحدهما: أنه عَرَضَهُم بعد أن خَلَقَهُم. الثاني: أنه صَوَّرَهُم لقلوبِ الملائكة، ثُمَّ عَرَضَهُم.

الخامسة: واختُلِفَ في أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ باللسان العربي^(١)، فروي عن كعب الأحبار أن أوَّل مَنْ وَضَعَ الكتابَ العربيَّ والسُّريانيَّ والكتبَ كُلَّهَا وتكَلَّمَ باللسنة كُلَّهَا آدم عليه السلام. وقاله غيرُ كعب الأحبار.

فإن قيل: قد رُوِيَ عن كعب الأحبار من وجهٍ حَسَنٍ قال: أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ بالعربيَّة جبريلُ عليه السلام، وهو الذي ألقاها على لسانِ نوح عليه السلام، وألقاها نوحٌ على لسانِ ابنه سام، رواه ثور بن يزيد^(٢)، عن خالد بن معدان، عن كعب. وروِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «أوَّل مَنْ فَتَقَ لسانَهُ بالعربيَّة المِمينَةُ إسماعيلُ وهو ابنُ عشرِ سنين»^(٣). وقد رُوِيَ أيضاً: أن أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ بالعربية يَغْرُبُ بنُ قحطان، وقد رُوِيَ غير ذلك.

قلنا: الصَّحِيحُ أن أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ باللُّغَاتِ كُلَّهَا من البشر آدم عليه السلام، والقرآنُ يشهد له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، واللُّغَاتُ كُلُّهَا أسماء، فهي داخلةٌ تحته، وبهذا جاءت السُّنَّة، قال ﷺ: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا حَتَّى الْقُضْعَةُ وَالْقُضْيَعَةُ»^(٤) وما ذكروه يَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ به: أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ بالعربيَّة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السلام. وكذلك إن صحَّ ما سواه؛ فإنه يكونُ محمولاً على أن المذكورَ أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ من قبيلته بالعربيَّة بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريلُ أوَّل مَنْ تَكَلَّمَ بها من الملائكة، وألقاها على لسانِ نوح بعد أن عَلَّمَهَا الله آدم أو جبريل، على ما تقدَّم، والله أعلم.

(١) القصد والأمر لابن عبد البر ص ٢٦١٩.

(٢) في (م): ورواه ثور بن زيد.

(٣) أخرج الحاكم في المستدرک ٢/ ٥٥٢-٥٥٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من نطق بالعربية ووضع الكتاب على لفظه ومنطقه... إسماعيل بن إبراهيم، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» من حديث علي رضي الله عنه ونسبه للشيرازي في «الألقاب» وفيه: وهو ابن أربع عشرة سنة.

(٤) أخرجه الطبري ١/ ٥١٥ و٥١٦ موقوفاً على ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾: لفظ مبني على الكسر، ولغة تميم وبعض قيس وأسد فيه القصر^(١)، قال الأعشى^(٢):

هَؤُلَا ثَم هَؤُلَا كَلَّا أَعْطِيَتْ نِعَالًا مَخْذُوءَةً بِمِثَالِ
وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ، فيحذف الألف والهمزة^(٣).

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط، والجواب محذوف تقديره:
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنَّ بَنِي آدَمَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَأَنْبِئُونِي، قاله المبرد^(٤).

ومعنى «صادقين» عالمين، ولذلك لم يسع للملائكة^(٥) الاجتهاد، وقالوا:
«سُبْحَانَكَ». حكاه النقاش قال: ولو لم يشترط عليهم الصدق^(٦) في الإنباء لجاز لهم
الاجتهاد كما جاز للذي أماته الله مئة عام حين قال له: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]
فلم يشترط عليه الإصابة، فقال، ولم يُصِبْ، ولم يُعْتَفَ^(٧)، وهذا بين لا خفاء
فيه^(٨). وحكى الطبري وأبو عبيد: أَنَّ بَعْضَ الْمَفْسِّرِينَ قَالَ: معنى^(٩) «إِنْ كُنْتُمْ» إِذْ
كُنْتُمْ، وقالوا: هذا خطأ^(١٠). و«أَنْبِئُونِي» معناه أخبروني. والنَّبَأُ: الخبر، ومنه النبيءُ
بالهمز^(١١)، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(١٢).

السابعة: قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يُطاق؛

(١) المحرر الوجيز ١/١٢١.

(٢) ديوانه ص ٦١ من قصيدة يمدح فيها الأسود بن المنذر اللخمي.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/٢١٠، يعني حذف ألف «ها»، وقلب همزة «أولاء» واوًا، كما في خزانة
الأدب ٥/٤٣٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/٢١٠، والمحرر الوجيز ١/١٢١.

(٥) في (د) و(ز): لم يسع الملائكة.

(٦) في (ز) و(ظ) و(م): إلا الصدق، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

(٧) في (ز) و(ظ): فلم.

(٨) المحرر الوجيز ١/١٢١.

(٩) في (م): إن معنى.

(١٠) تفسير الطبري ١/٥٢٦، وإعراب القرآن للنحاس ١/٢١٠، والمحرر الوجيز ١/١٢١.

(١١) المحرر الوجيز ١/١٢٠.

(١٢) في تفسير قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَالِيَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِمَا كَانُوا يَقُولُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

لأنَّه عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وقال المحققون من أهل التَّأْوِيل : ليسَ هذا على جهةِ التَّكْلِيفِ، وإنَّما هو على جهةِ التَّقْرِيرِ والتَّوْقِيفِ^(١). وسيأتي القولُ في تَكْلِيفِ ما لا يُطَاقُ: هل وَقَعَ التَّكْلِيفُ به أم لا، في آخر السُّورَةِ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن أن يعلمَ الغيبَ أحدٌ سواك. وهذا جوابُهم عن قوله: «أَنْبِئُونِي»، فأجابوا أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا أَعْلَمَهُمْ بِهِ، ولم يتعاطَوْا ما لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ كما يفعلُه الْجُهَّالُ مَنًّا. و«ما» في «مَا عَلَّمْتَنَا» بمعنى «الذي»، أي: إِلَّا الَّذِي عَلَّمْتَنَا، ويجوزُ أن تكونَ مَصْدَرِيَّةً بمعنى: إِلَّا تَعْلِيمَكَ إِنِّي أَنَا.

الثانية: الواجبُ على مَنْ سُئِلَ عن علمٍ أن يقولَ إن لم يعلم: الله أعلم، ولا أَدْرِي، اقتداءً بالملائكةِ والأنبياءِ والفضلاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لكن قد أَخْبَرَ الصَّادِقُ أَنَّ بَمَوْتِ الْعُلَمَاءِ يُقْبَضُ الْعِلْمُ، فَيَقْبُضُ نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ، فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ^(٢).

وأما ما وردَ من الأخبارِ عن النَّبِيِّ ﷺ وأَصْحَابِهِ والتَّابِعِينَ بعدهم في معنى الآية؛ فَزَوَى الْبُسْتِي^(٣) في الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ لَهُ عن ابْنِ عُمرَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْبَقَاعِ شَرٌّ؟ قال: «لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ جَبْرِيلَ»، فَسَأَلَ جَبْرِيلَ، فَقَالَ: «لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ مِيكَائِيلَ»، فَجَاءَ فَقَالَ: «خَيْرُ الْبَقَاعِ الْمَسَاجِدُ، وَشَرُّهَا الْأَسْوَاقُ».

وقال الصَّدِيقُ لِلْجَدَّةِ: ارجعي حَتَّى أَسْأَلَ النَّاسَ^(٤). وكان عليٌّ يقول: وابْرَدَهَا على الكبدِ! ثلاثَ مرَّاتٍ. قالوا: وما ذلك يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قال: أَنْ يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَمَّا لَا يَعْلَمُ، فَيَقُولُ: اللهُ أَعْلَمُ.

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٢) أخرجه أحمد (٦٥١١)، والبخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): النسائي، وهو خطأ، والحديث في صحيح ابن حبان (١٥٩٩)، ولم يرد في الكتب الستة.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٩٨٠)، وأبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في الكبرى (٦٣٠٥)، وابن ماجه (٢٧٢٤) من حديث قبيصة بن ذؤيب.

وسأل ابن عمر رجلٌ عن مسألة، فقال: لا عِلْمَ لي بها، فلَمَّا أدبر الرجلُ قال ابنُ عمر: نَعَمْ ما قال ابنُ عمر، سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ، فقال: لا عِلْمَ لي به. ذكره الدَّارِمِيُّ في مسنده^(١).

وفي صحيح مُسلم^(٢) عن أبي عَقِيلٍ يَحْيَى بنِ المتوَكِّل صاحبِ بُهَيَّة قال: كنتُ جالساً عندَ القاسمِ بنِ عُبيدِ اللهِ وَيَحْيَى بنِ سعيد^(٣)، فقال يَحْيَى للقاسم: يا أبا محمَّد، إِنَّهُ قَبِيحٌ عَلَى مِثْلِكَ عَظِيمٌ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ هَذَا الدِّينِ، فَلَا يُوجَدُ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ وَلَا فَرْجٌ، أَوْ عِلْمٌ وَلَا مَخْرَجٌ؟ فقال له القاسم: وَعَمَّ ذاك؟ قال: لَأَنَّكَ ابْنُ إِمَامَيْنِ هُدَى: ابْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ. قال: يَقُولُ له القاسم: أَقْبَحُ مِنْ ذاكَ عِنْدَ مَنْ عَقَلَ عَنْ اللهِ أَنْ أَقُولَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَوْ أَخَذَ عَنْ غَيْرِ ثِقَةٍ. فسَكَتَ فما أَجابه.

وقال مالكُ بنُ أنسٍ: سمعتُ ابنَ هُرْمُزٍ^(٤) يقول: يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُورَثَ جُلَسَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَا أَدْرِي، حَتَّى يَكُونَ أَصْلًا فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَمَّا لَا يَدْرِي قال: لَا أَدْرِي^(٥).

وذكر الهَيْثَمُ بنُ جَمِيلٍ^(٦) قال: شَهِدْتُ مالِكَ بنَ أنسٍ سُئِلَ عَنْ ثَمَانٍ^(٧) وَأَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً، فَقَالَ فِي اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ مِنْهَا: لَا أَدْرِي^(٨).

(١) الأثران عن علي وابن عمر في مسند الدارمي (١٨٤) و(١٨٥)، وأخرجهما الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ١٧١/٢ و١٧٢ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص ٣٠٨.

(٢) في مقدمته ص ١٧.

(٣) يحيى بن المتوكل: هو العمري المدني، الحذاء الضرير، مات ببغداد سنة (١٦٧هـ)، روى له مسلم في مقدمة كتابه وأبو داود. والقاسم بن عبيد الله: هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي، أبو محمد المدني، روى له البخاري في الأدب، ومسلم والنسائي، مات في حدود الثلاثين ومئة. ويحيى بن سعيد: هو الأنصاري، أبو سعيد المدني، قاضي المدينة، كان ثقة كثير الحديث، مات سنة (١٤٣هـ) وقيل غير ذلك. تهذيب الكمال ٣٩٩/٢٣ و٣١٠/٣٤٦، ٥١١.

(٤) في (د): أبا هريرة، وهو خطأ، وابن هرمز هو عبد الله بن يزيد الأصم، أبو بكر، فقيه المدينة، كان عابداً زاهداً، مات سنة (١٤٨هـ). السير ٣٧٩/٦.

(٥) الفقيه والمتفقه ١٧٣/٢، والتمهيد لابن عبد البر ٧٣/١.

(٦) أبو سهل الأنطاكي، البغدادي، الحافظ، مات سنة (٢١٣هـ). السير ٣٩٦/١٠.

(٧) في النسخ: ثمانية، والمثبت من (م).

(٨) التمهيد ٧٣/١.

قلتُ: ومثله كثيرٌ عن الصَّحابة والتَّابعين وفقهاء المسلمين، وإنَّما يَحْمِلُ على تركِ ذلك الرِّياسةُ، وعدمُ الإنصافِ في العلم. قال ابنُ عبد البرِّ: من بركةِ العلمِ وأدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصِفْ لم يَفْهَمْ ولم يَتَفَهَّم. روى يونسُ بنُ عبدِ الأعلى قال: سمعتُ ابنَ وهبٍ يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقول: ما في زماننا شيءٌ أَقلُّ من الإنصافِ^(١).

قلتُ: هذا في زمنِ مالِك، فكيف في زماننا اليوم الذي عمَّ فيه^(٢) الفسادُ، وكثُر فيه الطَّغَامُ^(٣)، وطُلِبَ فيه العلمُ للرِّياسة لا للدِّراية، بل للظُّهور في الدُّنيا، وغلبَت الأقران بالبرِّاء والجِدال الذي يُقَسِّي القلبَ ويورِث الضُّغن، وذلك مما يَحْمِلُ على عدمِ التَّقوى، وتركِ الخوفِ من الله تعالى؟! أينَ هذا مما رُوِيَ عن عمرَ رضي الله عنه وقد قال: لا تَزِيدُوا في مُهورِ النِّساءِ على أربعين أُوقيةً ولو كانت بنتُ ذي العَصَةِ^(٤) - يعني يزيدَ بنَ الحُصَيْن الحارثي^(٥) - فَمَنْ زادَ أَلْقِيْتُ زيادته في بيت المال؛ فقامت امرأةٌ من صَوْبِ^(٦) النِّساءِ طويلةٌ فيها فَطَسٌ، فقالت: ما ذلك لك. قال: ولم؟ قالت: لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَتَيْتُهُمْ إِحْدَثُهُمْ فَنَظَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠]. فقال عُمَرُ: امرأةٌ أَصَابَتْ ورجُلٌ أخطأ^(٧).

وروى وَكيع، عن أبي مَعْشَر، عن مُحَمَّد بنِ كعبِ القُرَظِيِّ قال: سألَ رجلٌ عليًّا رضي الله عنه عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجلُ: ليس كذلك يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ولكن كذا وكذا، فقال عليٌّ: أَصَبْتَ وأخطأتُ، وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ^(٨).

(١) جامع بيان العلم ص ١٧٤ و ١٧٥.

(٢) في (م): فينا.

(٣) هم أوغاد الناس، كما في الصحاح (طغم).

(٤) في النسخ: ذي العصبه.

(٥) كذا وقع الاسم عند القرطبي هنا، وعند ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُهُمْ إِحْدَثُهُمْ فَنَظَارًا﴾، وسماه ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن الأثير في أسد الغابة، والحافظ ابن حجر في الإصابة: الحصين بن يزيد، قال الحافظ: ذو العَصَةِ: بفتح المعجمة وتشديد المهملة... لُقِبَ بذلك لأنه كان في حلقه شبه الحوصلة، ويقال: إنه رأس بني الحارث بن كعب مئة سنة. اهـ.

(٦) في جامع بيان العلم ص ١٧٥: صفت.

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في السنن (٥٩٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ١٧٤ - ١٧٥،

والبيهقي في السنن الكبرى ٢٣٣/٧.

(٨) جامع بيان العلم ص ١٧٥.

وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ^(١) قال: لَمَّا رَحَلْتُ إِلَى الْمَشْرِقِ نَزَلْتُ الْقَيْرَوَانَ، فَأَخَذْتُ عَلَى بَكْرِ بْنِ حَمَّادٍ^(٢) حَدِيثَ مُسَدَّدٍ^(٣)، ثُمَّ رَحَلْتُ إِلَى بَغْدَادٍ وَلَقِيتُ النَّاسَ، فَلَمَّا انصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مُسَدَّدٍ، فقرأتُ عليه فيه يوماً حديثَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ مُضَرٍ مِنْ مُجْتَابِي النَّمَارِ، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ مُجْتَابِي الثُّمَارِ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ مُجْتَابِي الثُّمَارِ، هَكَذَا قَرَأْتُهُ عَلَى كُلِّ مَنْ قَرَأْتُهُ عَلَيْهِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعِرَاقِ، فَقَالَ لِي: بِدْخُولِكَ الْعِرَاقَ تُعَارِضُنَا وَتَفْخَرُ عَلَيْنَا! أَوْ نَحْوَ هَذَا. ثُمَّ قَالَ لِي: قُمْ بِنَا إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ - لَشَيْخٍ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ - فَإِنَّ لَهُ بِمِثْلِ هَذَا عِلْماً، فَقُمْنَا إِلَيْهِ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ مُجْتَابِي النَّمَارِ - كَمَا قُلْتُ، وَهُمْ قَوْمٌ كَانُوا يَلْبَسُونَ الثِّيَابَ مَشَقَّةً، جَيُوبُهُمْ أَمَامَهُمْ. وَالنَّمَارُ: جَمْعُ نَمْرَةٍ - فَقَالَ بَكْرُ بْنُ حَمَّادٍ - وَأَخَذَ بِأَنْفِهِ - رَغِمَ أَنْفِي لِلْحَقِّ، رَغِمَ أَنْفِي لِلْحَقِّ. وَانصرفتُ^(٤).

وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك^(٥) فأحسن:

إِذَا مَا تَحَدَّثْتُ فِي مَجْلِسٍ تَنَاهَى حَدِيثِي إِلَى مَا عَلِمْتُ
وَلَمْ أَغْدُ عِلْمِي إِلَى غَيْرِهِ وَكَانَ إِذَا مَا تَنَاهَى سَكَّتْ
الثالثة^(٦): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ سُبْحَانَ: مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ عِنْدَ الْخَلِيلِ
وَسِيَوِيهِ، يُؤدِّي عَنْ مَعْنَى: نُسَبِّحُكَ تَسْبِيحاً. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ نِدَاءٌ
مُضَافٌ^(٧).

(١) الحافظ، محدث الأندلس، القرطبي، مولى بني أمية، صنف كتاب برّ الوالدين، والمنتقى في الآثار، مات سنة (٣٤٠هـ). السير ١٥/٤٧٢.

(٢) هو أبو عبد الرحمن، الفقيه، الإمام، الثقة، مات بالقاهرة سنة (٢٩٥هـ). شجرة النور الزكية ص ٧٢.

(٣) هو ابن مُسَرِّهْدِ بْنِ مُسَرِّبَلٍ، أبو الحسن، الأسدي، البصري، الحافظ، روى له الجماعة سوى مسلم وابن ماجه، مات سنة (٢٢٨هـ). السير ١٠/٥٩١.

(٤) الحديث أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧)، والقصة بتمامها أخرجها ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ١٧٨.

(٥) أبو خالد، الأموي، القرشي، الخليفة، مات سنة (١٢٦هـ). السير ٥/٣٧٤، والبيتان المذكوران له في جامع بيان العلم ص ١٧٦.

(٦) في (م) الثانية، وهو خطأ.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/٢١٠، والمححر الوجيز ١/٢٢٦.

و﴿الْعَلِيمُ﴾ فَعِيلٌ لِلْمَبَالِغَةِ وَالتَّكْثِيرِ فِي الْمَعْلُومَاتِ فِي حَقِّ^(١) اللَّهِ تَعَالَى.

و﴿الْحَكِيمُ﴾ مَعْنَاهُ الْحَاكِمُ، وَبَيْنَهُمَا مَزِيدٌ^(٢) الْمَبَالِغَةُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْمُحْكِمُ، وَيَجِيءُ الْحَكِيمُ عَلَى هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ^(٣)، صُرِفَ عَنْ مُفْعِلٍ إِلَى فَعِيلٍ، كَمَا صُرِفَ عَنْ مُسْمِعٍ إِلَى سَمِيعٍ، وَمُؤَلِّمٍ إِلَى أَلِيمٍ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ^(٤).

وَقَالَ قَوْمٌ: الْحَكِيمُ: الْمَانِعُ مِنَ الْفَسَادِ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ حَكَمَةُ اللَّجَامِ، لِأَنَّهَا تَمْنَعُ الْفَرَسَ مِنَ الْجَرِيِّ وَالذَّهَابِ فِي غَيْرِ قَضْدٍ^(٥). قَالَ جَرِيرٌ^(٦):

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكَمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا
أَيُّ: امْنَعُوهُمْ مِنَ الْفَسَادِ. وَقَالَ زُهَيْرٌ^(٧):

الْقَائِدُ الْخَيْلَ مَنْكُوبًا دَوَابِرُهَا قَدْ أَحْكَمَتْ حَكَمَاتِ الْقِدِّ وَالْأَبْقَا
الْقِدِّ: الْجِلْدُ. وَالْأَبْقَى: الْقَنْبُ^(٨). وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَحْكَمَ الْيَتِيمَ عَنْ كَذَا وَكَذَا، يَرِيدُونَ: امْنَعَهُ^(٩).

وَالسُّورَةُ الْمُحْكَمَةُ: الْمَمْنُوعَةُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَكُلِّ التَّبْدِيلِ، وَأَنْ يُلْحَقَ بِهَا مَا يَخْرُجُ عَنْهَا، وَيُزَادَ عَلَيْهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا.

وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهَا تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الْجَهْلِ، وَيُقَالُ: أَحْكَمَ الشَّيْءَ: إِذَا أَتَقَنَّهُ وَمَنَعَهُ مِنَ الْخُرُوجِ عَمَّا يَرِيدُ. فَهُوَ مُحْكِمٌ وَحَكِيمٌ عَلَى التَّكْثِيرِ^(١٠).

(١) فِي (د) وَ(م): خَلَقَ، وَهُوَ خَطَأً.

(٢) فِي (د) وَ(م): مَزِيدٌ.

(٣) الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ ١/ ١٢٢.

(٤) الزَّاهِرُ ١/ ٨٠.

(٥) الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ ١/ ١٢٢، وَالصَّحَاحُ (حَكَمَ).

(٦) دِيَوَانُهُ ص ٤٤٦.

(٧) دِيَوَانُهُ (بِشْرَحِ ثَعْلَبٍ) ص ٤٩.

(٨) فِي النِّسْخِ: الْقَنْبُ، وَهُوَ خَطَأً، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م)، وَالْقَنْبُ: ضَرْبٌ مِنَ الْكُتَّانِ. اللَّسَانُ.

(٩) فِي (م): مَنَعَهُ.

(١٠) تَهْذِيبُ اللَّفْظِ لِلْأَزْهَرِيِّ ٤/ ١١٠، وَالصَّحَاحُ، وَاللَّسَانُ (حَكَمَ).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ هُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ هُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَنبِئْتُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعْلِمَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ بعد أن عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، تَنْبِيْهاً عَلَى فَضْلِهِ وَعُلُوِّ شَأْنِهِ، فَكَانَ أَفْضَلَ مِنْهُمْ بِأَن قَدَّمَ عَلَيْهِمْ، وَأَسْجَدَهُمْ لَهُ، وَجَعَلَهُمْ تِلَامِذَتَهُ، وَأَمَرَهُمْ بِأَن يَتَعَلَّمُوا مِنْهُ، فَحَصَلَتْ لَهُ رَتَبَةُ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ بِأَن جَعَلَهُ مَسْجُوداً^(١) لَهُ، مَخْتَصِصاً بِالْعِلْمِ.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِّطَالِبِ الْعِلْمِ»^(٢) أَي: تَخَضُّعُ وَتَتَوَاضَعُ، وَإِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ عِيَالِ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلَزَمَهَا ذَلِكَ فِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَأَدَّبَتْ بِذَلِكَ الْأَدَبِ، فَكُلَّمَا ظَهَرَ لَهَا عِلْمٌ فِي بَشَرٍ خَضَعَتْ لَهُ، وَتَوَاضَعَتْ وَتَذَلَّلَتْ، إِعْظَاماً لِلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ، وَرِضَى مِنْهُمْ بِالطَّلَبِ لَهُ وَالشُّغْلِ بِهِ. هَذَا فِي الطُّلَّابِ مِنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْأَحْبَارِ فِيهِمْ وَالرِّبَّانِيِّينَ مِنْهُمْ؟! جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ وَفِيهِمْ، إِنَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ.

الثالثة: اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذَا^(٣) الْبَابِ: أَيُّمَا أَفْضَلُ: الْمَلَائِكَةُ، أَوْ بَنُو آدَمَ،

عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنَ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَوْلِيَاءُ مِنَ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْأَعْلَى أَفْضَلُ.

اِحْتِجَّ مَنْ فَضَّلَ الْمَلَائِكَةَ بِأَنَّهُمْ ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣١﴾ لَا يَسْجُدُونَ لِلْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء]. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. وقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

(١) في (د): حصل سجوداً، وفي (ز): حصل مسجوداً، وفي (ظ): جعل مسجوداً، والمثبت من (م).

(٢) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) في (د): في هذا.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وفي البخاري^(١): «يقول الله عز وجل: مَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذِكْرُهُ فِي مَلَأَ خَيْرٍ مِنْهُمْ». وهذا نص.

واحتج^(٢) مَنْ فَضَّلَ بَنِي آدَمَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]. بِالْهَمْز، مِنْ: بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ، ويقول^(٣) عليه السلام: «وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنحتَهَا رِضاً لطالِبِ العلم» الحديث، أخرجه أبو داود^(٤). وبما جاء في أحاديثٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَاتِ الملائكةَ^(٥)، وَلَا يُبَاهِي إِلَّا بِالْأَفْضَلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال بعضُ العلماء: وَلَا طَرِيقَ إِلَى الْقَطْعِ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا الْقَطْعِ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ خَيْرٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ طَرِيقَ ذَلِكَ خَبَرُ اللَّهِ تَعَالَى وَخَبَرُ رَسُولِهِ، أَوْ^(٦) إجماعُ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ هَا هُنَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، خِلَافاً لِلْقَدَرِيَّةِ وَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ^(٧) رَحِمَهُ اللَّهُ، حَيْثُ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ. قَالَ: وَأَمَّا مَنْ قَالَ مِنْ أَصْحَابِنَا وَالشَّيْعَةِ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: الْمَسْجُودُ لَهُ لَا يَكُونُ أَفْضَلَ مِنَ السَّاجِدِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْكَعْبَةَ مَسْجُودٌ لَهَا^(٨)، وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْخَلْقُ يَسْجُدُونَ نَحْوَهَا، ثُمَّ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ خَيْرٌ مِنَ الْكَعْبَةِ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ السُّجُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ السُّجُودَ عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَكَوْنُ

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم أيضاً (٢٦٧٥): (٢). وهو في المسند (٧٤٢٢).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م). احتج، دون واو، والمثبت من (د).

(٣) في (م): وقوله.

(٤) في سننه (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٥) من ذلك ما أخرجه أحمد (٨٠٤٧)، وابن خزيمة (٢٨٣٩)، وابن حبان (٣٨٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (د) و(ظ): وإجماع.

(٧) هو الباقلاني. انظر تفسير الرازي ٢/٢١٥.

(٨) ليس السجود للكعبة، بل السجود لله عز وجل، وقد أمرنا بالتوجه لها، فالسجود عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، وهو ما سيذكره المصنف.

السُّجُودِ إِلَىٰ جِهَةٍ لَا يُدَلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْجِهَةَ خَيْرٌ مِنَ السَّاجِدِ الْعَابِدِ، وهذا واضحٌ. وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في الآية بعد هذا^(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دليلٌ على أن أحداً لا يعلمُ من الغيب إلا ما أعلمه الله، كالأنبياء، أو مَنْ أعلمه^(٢) الله تعالى، فالمنجمون والكهَّان وغيرهم كذَّبةٌ. وسيأتي بيانُ هذا في الأنعام إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَقَاتِلِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الآية: ٥٩].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ حكاه مكيٌّ والماوردي^(٣). وقال الزُّهراويُّ: ما أبدوه هو يبدارهم^(٤) بالسُّجود لآدم. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ وسعيدُ بنُ جبير^(٥): المراد ما كتمه إبليسُ في نفسه من الكبرِ والمعصية.

قال ابنُ عطية^(٦): وجاء «تكتُمون» للجماعة؛ والكاتِمُ واحدٌ في هذا القول على تجوُّزِ العرب واتِّساعِها، كما يُقال لقومٍ قد جَنَى سَفِيَةً منهم: أنتم فعلتم كذا. أي: منكم فاعِلُهُ، وهذا مَعَ قَصْدِ تعنيفٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ الْفُجَرَاءِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. وإنما ناداه منهم عَيْنُهُ، وقيل: الأقرعُ. وقالت طائفةٌ: الإبداءُ والمكثومُ ذلك على معنى العُصوم في معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع.

وقال مهديُّ بنُ ميمون^(٧): كَتَأَ عِنْدَ الْحَسَنِ، فسأله الحسنُ بنُ دينار^(٨): ما الذي

(١) ص ٤٣٥.

(٢) تكرر قوله: من أعلمه، في (م).

(٣) النكت والعيون ١/١٠١.

(٤) في (ز) و(ظ): بداؤهم.

(٥) أخرج هذه الآثار الطبري في تفسيره ١/٥٣١-٥٣٢.

(٦) المحرر الوجيز ١/١٢٣.

(٧) أبو يحيى، الكردي، الأزدي، أحد الأثبات المعمرين، مات سنة (١٧٢هـ). السير ٨/١٠.

(٨) أبو سعيد البصري، التميمي، مولى بني سليط، قال النسائي: متروك، وقال أبو خيثمة: كذاب. تهذيب التهذيب ١/٣٩٣.

كتمتِ الملائكة؟ قال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ رَأَتْ الْمَلَائِكَةُ خَلْقًا عَجَبًا، وكأنَّهم دخلهم من ذلك شيءٌ، قال: ثُمَّ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَسْرَوْا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، [فَقَالُوا: وَ] مَا يُهْمُّكُمْ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ؟! إِنَّ اللَّهَ لَمْ ^(١) يَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ^(٢).

و«ما» في قوله: «ما تُبدون» يجوزُ أن ينتصب بـ «أعلم» على أنه فعلٌ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى عالمٍ، وتنصبُ به «ما» فيكونُ مثل: حَوَاجُّ بَيْتِ اللَّهِ، وقد تقدَّم ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر. وأما قولُ أبي عُبيدة: إِنَّ «إِذْ» زائدةٌ، فليس بجائزٍ، لأن «إِذْ» ظرفٌ، وقد تقدَّم ^(٤).

وقال: «قلنا» ولم يقل: قلتُ، لأن الجبارَ العظيمَ يُخبرُ عن نفسه بفعل الجماعة تفخيماً وإشادةً بذكره.

والملائكة جمع مَلَكٍ، وقد تقدَّم ^(٥). وتقدَّم القولُ أيضاً في آدم واشتقاقه ^(٦)، فلا معنى لإعادته.

وروي عن أبي جعفر بن القَعْقَاعِ ^(٧) أنه ضَمَّ تاء التانيث من «الملائكة» إتباعاً

(١) في سنن سعيد بن منصور: «لا»، وفي تفسير الطبري: «لن».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (التفسير) (١٨٥)، والطبري في تفسيره ٤٩٩/١. وما بين حاصرتين منهما. وقد صرح مهدي بن ميمون في هذا الإسناد بأنه سمع جواب الحسن البصري حين سألته الحسن بن دينار، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على الطبري: وقد نبهتُ على هذا خشية أن يظن أنه من رواية مهدي عن الحسن بن دينار، والحسن بن دينار كذاب لا يوثق به.

(٣) ص ٤١٥.

(٤) ص ٣٩١.

(٥) ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٦) ص ٤١٧.

(٧) هو يزيد بن القَعْقَاعِ المدني، أحد الأئمة العشرة في القراءات، مات سنة (١٢٧هـ). السير ٢٨٧/٥.

لضمة^(١) الجيم في «اسجدوا»^(٢). ونظيره: «الحمد لله».

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا﴾ السجودُ معناه في كلام العرب التذللُ والخضوع، قال الشاعر:

يَجْمَعُ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ^(٣)
الْأَكْمُ: الجبال الصغار، جعلها سُجْدًا للحوافر، لقهر الحوافر إياها، وأنها لا تمنع عليها. وَعَيْنٌ ساجدةٌ، أي: فاترةٌ عن النظر.

وغايته وضعُ الوجه بالأرض. قال ابن فارس^(٤): سَجَدَ: إِذَا تَطَامَنَ، وَكُلُّ مَا سَجَدَ فَقَدْ ذَلَّ، وَالْإِسْجَادُ: إِدَامَةُ النَّظَرِ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو: وَأَسْجَدَ: إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ، قَالَ:

فُضُولَ أَرْمَتَهَا أَسْجَدَتْ سَجُودَ النَّصَارَى لِأَرْبَابِهَا^(٥)
قال أبو عبيد^(٦): وَأَنْشَدَنِي أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدَ:

(١) في (م): لضم.

(٢) هي من القراءات العشر، وقد ضعف هذه القراءة الزجاج في معاني القرآن ١/١١١-١١٢، والنحاس في إعراب القرآن ١/٢١٢، وابن جني في المحتسب ١/٧١، والزمخشري في الكشاف ١/٢٧٣، وذكرها ابن عطية ١/١٢٤، ونقل عن أبي علي قوله: وهذا خطأ. وقد رد أبو حيان في البحر المحيط ١/١٥٢، وابن الجزري في النشر ٢/٢١٠-٢١١ قول من ضعفها، وذكر أنها لغة أزد شنوءة. وسلف الكلام على قراءة «الحمد لله» و«الحمد لله» ص ٢١٠-٢١١.

(٣) قائله زيد الخيل، والبيت في ديوانه ص ٦٦، والكامل ٢/٧٣٥، وتفسير الطبري ١/٧١٥، باختلاف في الرواية، وهو في الصحاح: (سجد) بمثل رواية المصنف. والبُلُقُ: جمع أبلق وبلقاء، والبَلَقُ: سواد وبياض، وارتفاع التحجيل إلى الفخذين. اللسان (بلق). والحجرات: مفردة حَجْرَة، وَحَجْرَة القوم: ناحية دارهم. الصحاح: (حجر).

(٤) مجمل اللغة: (سجد).

(٥) البيت لحميد بن ثور، يصف نساء، وقبله:

فَلَمَّا لَوَيْنَ عَلَى مَغْصَمٍ وَكَفَّ خَضِيبٍ وَإِسْوَارِهَا

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أزمة أجمالهن على معاصمهن أسجدت الجمال لهن، وطأطأت رؤوسها ليركبنها. والبيت في ديوانه ص ٩٦، وإصلاح المنطق ص ٢٧٥، والمجمل، والصحاح (سجد). ووقع في (م): «لأحبارها»، وهي رواية الديوان، ونقل ابن منظور في اللسان (سجد) عن ابن بري أنها الصواب في رواية البيت.

(٦) في (ز) و(م): أبو عبيدة (وذكر محقق المجمل أنه في الغريب المصنف لأبي عبيد).

فَقُلْنَ^(١) لَهُ أَسْجِدْ لِلَّيْلِ فَأَسْجِدَا^(٢)

يعني البعير إذا طأطأ رأسه.

وَدَرَاهِمُ الْإِسْجَادِ: دَرَاهِمُ كَانَتْ عَلَيْهَا صُورُ كَانُوا يَسْجُدُونَ لَهَا، قَالَ:

وَأَقَى بِهَا لِدَرَاهِمِ^(٣) الْإِسْجَادِ^(٤)

الثالثة: اسْتَدَلَّ مَنْ فَضَّلَ آدَمَ وَبَنِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^(٥) قَالُوا^(٥): وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُمْ.

وَالْجَوَابُ أَنَّ مَعْنَى ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: اسْجُدُوا لِي مُسْتَقْبِلِينَ وَجْهَ آدَمَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِرَّ الصَّلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧٨]، أَي: عِنْدَ دُلُوكِ^(٦) الشَّمْسِ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، أَي: فَقَعُوا لِي عِنْدَ إِتِمَامِ خَلْقِهِ وَمُوَاجَهَتِكُمْ إِيَّاهُ سَاجِدِينَ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَسْجُودَ لَهُ لَا يَكُونُ أَفْضَلَ مِنَ السَّاجِدِ، بِدَلِيلِ الْقِبْلَةِ^(٧).

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ مِنْهُمْ، فَمَا الْحِكْمَةُ فِي الْأَمْرِ بِالسَّجُودِ لَهُ؟

قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمَّا اسْتَغْثَمُوا بِتَسْبِيحِهِمْ^(٨) وَتَقْدِيسِهِمْ، أَمَرَهُمْ بِالسَّجُودِ لغيره، لِئَرِيَهُمْ اسْتِغْنَاءَهُ عَنْهُمْ وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَيَّرُوا آدَمَ وَاسْتَضَعَّرُوهُ، وَلَمْ يَعْرِفُوا خِصَائِصَ الصَّنْعِ بِهِ، فَأَمَرُوا بِالسَّجُودِ لَهُ تَكْرِيمًا.

(١) فِي (م): «وَقُلْنَ».

(٢) هُوَ فِي الْمَجْمَلِ وَالصَّحَاحِ: (سَجَدَ).

(٣) فِي النُّسخِ: وَأَوْقَى، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (م)، وَهُوَ الْمَوَافِقُ لِمَصَادِرِ الْبَيْتِ، وَفِي (م): كَدَرَاهِمِ.

(٤) عَجَزَ بَيْتُ الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفَرَ، وَصَدْرُهُ:

مِنْ خَمْرِ ذِي نَطْفٍ أَعْرَنَ مُنْطَلِقِ

وَالْبَيْتُ فِي الْمَفْضَلِيَّاتِ ص ٢١٨، وَهُوَ فِي الْمَجْمَلِ وَالصَّحَاحِ: (سَجَدَ) مِنْ غَيْرِ نِسْبَةٍ.

(٥) فِي (د): قَالَ.

(٦) فِي (ظ): طُلُوعَ.

(٧) ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٨) فِي (ز) وَ(ظ): تَسْبِيحِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِالسُّجُودِ لَهُ مَعَاقِبَةً لَهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وَكَانَ عَلِيمَ مِنْهُمْ أَنَّهُ إِنْ خَاطَبَهُمْ أَنَّهُمْ قَائِلُونَ هَذَا، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرٌ مِمَّنْ طِينٌ﴾ [ص: ٧١]. وَجَاعِلُهُ خَلِيفَةً، فَإِذَا نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. وَالْمَعْنَى: لِيَكُونَ ذَلِكَ عَقُوبَةً لَكُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى مَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي الْآنَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى فَضْلِ الْبَشَرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِحَيَاةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ: ﴿لَعَنَّاكَ إِتْمَمَ لِي سَكْرَتِهِمْ يَقْمَهُونَ﴾^(١) [الحجر: ٧٢]. وَأَمَّنَهُ مِنَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

قِيلَ لَهُ: إِنَّمَا لَمْ يُقَسِّمَ بِحَيَاةِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا لَمْ يُقَسِّمَ بِحَيَاةِ نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ، فَلَمْ يَقُلْ: لَعَمْرِي، وَأَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَدُلَّ^(٢) عَلَى أَنَّهُمَا أَرْفَعُ قَدْرًا مِنَ الْعَرْشِ وَالْجَنَانِ السَّعْبِ، وَأَقْسَمَ بِالثِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فَلَيْسَ فِيهِ إِذَا دَلَالَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الرَّابِعَةُ: وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي كَيْفِيَةِ سَجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَجُودَ عِبَادَةٍ.

فَقَالَ الْجُمْهُورُ: كَانَ هَذَا أَمْرًا^(٣) لِلْمَلَائِكَةِ بِوَضْعِ الْجَبَاهِ عَلَى الْأَرْضِ لِآدَمَ، كَالسُّجُودِ الْمُعْتَادِ فِي الصَّلَاةِ، لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ مِنَ السُّجُودِ فِي الْعُرْفِ وَالشَّرْعِ؛ وَعَلَى هَذَا قِيلَ: كَانَ ذَلِكَ السُّجُودُ تَكْرِيمًا لِآدَمَ وَإِظْهَارًا لِفَضْلِهِ، وَطَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ آدَمُ كَالْقِبْلَةِ لَنَا، وَمَعْنَى «لِآدَمَ»: إِلَى آدَمَ، كَمَا يَقَالُ صَلَّيْ لِلْقِبْلَةِ، أَيِ: إِلَى الْقِبْلَةِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: لَمْ يَكُنْ هَذَا السُّجُودُ الْمُعْتَادَ الْيَوْمَ، الَّذِي هُوَ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ مُبَقًى عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ، فَهُوَ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْإِنْقِيَادِ، أَيِ: اخْضَعُوا

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ١٤/ ٩١-٩٢، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ اسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى فَضْلِ الْبَشَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) فِي (د): يَدُلُّ.

(٣) فِي (د): الْأَمْرُ، وَفِي (ظ): أَمْرٌ.

لآدم، وأقروا له بالفضل، ﴿فَسَجِدُوا﴾ أي: امثلوا ما أمروا به.

واختلف^(١) أيضاً: هل كان ذلك السجود خاصاً بآدم عليه السلام، فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى: أم كان جائزاً بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فكان آخر ما أُبيح من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحاً إلى عصر رسول الله ﷺ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل: نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد، فقال لهم: «لا ينبغي أن يسجد^(٢) لأحد إلا لله رب العالمين»^(٣).

روى ابن ماجه في «سننه»، والبُستِيُّ في «صحيحه» عن أبي واقد^(٤)، قال: لما قَدِمَ معاذُ بنُ جبلٍ من الشام سجدَ لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا؟» فقال: يا رسول الله، قدمتُ الشامَ، فرأيتُهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردتُ أن أفعلَ ذلك بك، قال: «فلا تفعل»^(٥)؛ فإني لو أمرتُ شيئاً أن يسجدَ شيءٌ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها، [والذي نفسي بيده] لا تؤدي المرأةُ حقَّ ربِّها حتى تؤدي حقَّ زوجها، حتى لو سألتها نفسها وهي على قَتَبٍ لم تمنعه. لفظ البُستِيِّ. ومعنى القَتَبُ أنَّ العربَ يعزُّون عندهم وجودَ كرسِيٍّ للولادة، فيحملون نساءهم على القَتَبِ عند الولادة^(٦)، وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر، وأمرَ بالمصافحة^(٧).

(١) في النسخ: والخامسة: واختلف، والمثبت (م) وهو الموافق لقول المصنف فيه عشر مسائل.

(٢) في (د): لا ينبغي السجود، وفي (ظ): أن تسجد.

(٣) أخرج نحوه الإمام أحمد في المسند (٢٤٤٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وابن حبان (٤١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحارث بن عوف المدني، شهد بدرًا والفتح، وقيل: أسلم يوم الفتح، توفي سنة (٦٨هـ). السير ٥٧٤/٢. والحديث في سنن ابن ماجه (١٨٥٣)، وصحيح ابن حبان (٤١٧١)، وما بين حاصرتين منه، وهو من حديث ابن أبي أوفى، لا من حديث أبي واقد.

(٥) في (ظ): فقال: لا تفعل.

(٦) غريب الحديث لأبي عبيد ٣٣٠/٤. والقَتَب: رَحْلٌ صغير على قدر السَّنام. الصحاح (قَتَب).

(٧) لم نقف عليها.

قلتُ: وهذا السجود المنهِي عنه قد اتخذَهُ جُهَّالُ المتصوِّفةِ عادةً في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فترى^(١) الواحدَ منهم إذا أخذَ الحالَ بزعمه، يسجدُ للأقدام لجهله، سواءً كان للقبلة أم^(٢) غيرها جهالةً منه^(٣)، ضلَّ سَعْيُهُم وخابَ عملُهُم.

الخامسة^(٤): قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتَّصل، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن المُسيَّب وقتادة، وغيرهم^(٥)، وهو اختيارُ الشيخ أبي الحسن، ورَجَّحَ الطبري^(٦)، وهو ظاهرُ الآية.

قال ابن عباس: وكان اسمُه عزازيل^(٧)، وكان من أشرف الملائكة، وكان من أولي^(٨) الأجنحة الأربعة، ثم أَبْلَسَ بعدُ^(٩).

روى سَمَّاكُ بْنُ حَرْبٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان إبليسُ من الملائكة، فلَمَّا عصَى الله غضبَ عليه، فلَعَنَهُ، فصار شيطاناً^(١٠).

وحكى الماورديُّ عن قتادة: أنه كان من أفضل صِنْفٍ من الملائكة يقال لهم: الجِنَّةُ^(١١).

(١) في (م): فيرى.

(٢) في (د) و(ظ): أو، وفي (ز): وغيرها، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و(ظ): منهم.

(٤) في النسخ: السادسة، والمثبت من (م) وهو الموافق لقول المؤلف: فيه عشر مسائل.

(٥) أخرج هذه الآثار - عدا قول ابن جريج - الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٥-٥٣٩، وذكرها الماوردي في النكت والعيون ١/ ١٠٢.

(٦) في تفسيره ١/ ٥٤٢.

(٧) في (ظ): عزازيل.

(٨) لفظ: أولي، ليس في (م).

(٩) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ٣٣٦، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٢٢، وأبلس من رحمة الله؛ أي: يش.

(١٠) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٤٩).

(١١) لم نجد قول قتادة هذا في تفسير الماوردي، وقد حكى ١/ ١٠٣ عن ابن عباس أنهم حي من الملائكة يسمون جنًّا كانوا من أشد الملائكة اجتهاداً.

وقال سعيد بن جبير: إن الجنَّ سبَّط من الملائكة خلُقوا من نارٍ، وإبليسُ منهم، وخلق سائر^(١) الملائكة من نور.

وقال ابنُ زيد والحسنُ وقتادةُ أيضاً: إبليسُ أبو الجنِّ، كما أنَّ آدمَ أبو البشر، ولم يكن ملكاً^(٢)، وروى نحوه عن ابن عباس، وقال: اسمه الحارث^(٣).

وقال شهر بن حوشب^(٤) وبعضُ الأصوليين: كان من الجنِّ الذين كانوا في الأرض، وقاتلتهم الملائكة، فسبَّوه صغيراً، وتعبَّد مع الملائكة، وخُوطبَ، وحكاه الطبريُّ عن ابن مسعود^(٥). والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] في أحد القولين، وقال الشاعر:

ليس عليك عطشٌ ولا جوعٌ إلا الرُّقادَ والرُّقادُ ممنوعٌ^(٦)
واحتجَّ بعضُ أصحابِ هذا القولِ بأنَّ الله جلَّ وعزَّ وصفَ الملائكة، فقال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، والجنُّ غيرُ الملائكة.

أجاب أهلُ المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليسُ من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلاً منه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وليس في خلقه من نارٍ ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة.

وقول من قال: إنه كان من جنِّ الأرض فسبَّي، فقد روي في مقابلته أنَّ إبليسَ هو الذي قاتَلَ الجنَّ في الأرض مع جُنْدٍ من الملائكة^(٧)، حكاه المهدويُّ وغيره.

(١) في (د) و(ز): معاصر، وفي (ظ): آدم ومعاصر، والمثبت من (م)، ولم نقف على تخريجه.

(٢) قول ابن زيد والحسن أخرجهما الطبري في تفسيره ٥٣٩/١-٥٤٠، وقول قتادة لم نقف عليه.

(٣) سيذكره المصنف قريباً مطولاً.

(٤) أبو سعيد الأشعري، الشامي، مولى أسماء بنت يزيد الأنصارية، من كبار علماء التابعين، توفي سنة (١١٢هـ). السير ٣٧٢/٤.

(٥) في تفسيره ٥٤٠-٥٤١، وفيه: عن سعد بن مسعود، وكذلك نقله عنه ابن كثير ٢٣١/١، وتابع المصنف ابن عطية ١٢٤/١ في قوله: عن ابن مسعود.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) أخرجه الطبري ٤٨٢-٤٨٤ عن ابن عباس، وانظر ما سلف ص ٤٠٩.

وحكى الثعلبي عن ابن عباس: أن إبليس كان من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنُّ، خُلِقُوا من نار السَّمُوم، وَخُلِقَتِ الملائكةُ من نور، وكان اسمُه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خُزَّان الجنة، وكان رئيسَ ملائكة السماء الدنيا، وكان له سلطانُها وسلطانُ الأرض، وكان من أشدَّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وكان يَسُوسُ ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمةً، فذلك الذي دعاه إلى الكفر، فعصى، فمسَّخَه شيطاناً رجيماً^(١).

فإذا كانت خطيئة الرجل في كِبَرٍ فلا تَرْجُهُ، وإن كانت خطيئته في معصية فارْجُهُ، وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصيةً، وخطيئة إبليس كِبَرًا.

والملائكةُ قد تَسْمَى جِنًّا؛ لاستتارها، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال الشاعر^(٢) في ذِكر سليمان عليه السلام:

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةً قِياماً لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلَا أَجْرِ
وَأَيْضاً لَمَّا كَانَ مِنْ خُزَّانِ الْجَنَّةِ نُسِبَ إِلَيْهَا، فاشتقَّ اسمُه من اسمها، والله أعلم.

وإبليسُ وزنه لإفعل، مشتقٌّ من الإبلّاس: وهو اليأسُ من رحمة الله تعالى، ولم^(٣) ينصرف؛ لأنه معرفةٌ، ولا نظيرَ له في الأسماء، فشُبّه بالأعجمية^(٤). قاله أبو عبيدة^(٥) وغيره، وقيل: هو أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فلم ينصرفِ لِلْعُجْمَةِ والتعريف، قاله الزَّجَّاج^(٦) وغيره.

السادسة^(٧): قوله تعالى: ﴿أَبْنِ﴾ معناه امتنع من فعل ما أمَرَ به، ومنه الحديثُ

(١) أخرجه مقطعا الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٥-٥٣٧، وأبو الشيخ في العظمة (١١٣٦) و(١١٤٨)، ولم يثبت في ذلك نصّ صحيح.

(٢) هو أعشى بني قيس، والبيت في الأضداد لابن الأنباري ص ٣٣٥، وتفسير الطبري ١/ ٥٣٩، والنكت والعيون ١/ ١٠٣، والمحزر الوجيز ١/ ١٢٥.

(٣) في (ظ): ولا.

(٤) في (د) و(ظ): بالعجمية.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٨، وانظر تفسير الطبري ١/ ٥٤٤.

(٦) معاني القرآن ١/ ١١٤.

(٧) في النسخ: السابعة، والمثبت من (م).

الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة [فَسَجَدَ] اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله - وفي رواية: يا ويلتا^(١) - أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمر بالسجود فأبيت، فلي النار». خرجه مسلم^(٢). يقال: أبى يأبى إباء، وهو حرف نادر جاء على فَعَلَ يَفْعَل، ليس فيه حرف من حروف الحلق، وقد قيل: إن الألف مضارعة لحروف الحلق. قال الزجاج. سمعتُ إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول: القول عندي أن الألف مضارعة لحروف الحلق. قال النحاس^(٣): ولا أعلم أن أبا إسحاق^(٤) روى عن إسماعيل نحواً غير هذا الحرف.

السابعة^(٥): قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾ الاستكبار: الاستعظام، فكانه كبر السجود في حقه، واستعظمه في حق آدم، فكان تركه^(٦) السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته، وعن هذا الكبر عبر عليه السلام بقوله: «لا يدخل الجنة من [كان] في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». في رواية: فقال رجل: إن الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبر بطرُ الحقِّ وعَمُطُ الناسِ». أخرجه مسلم^(٧). ومعنى بَطَرُ الحقِّ: تسفيهه وإبطاله، وعَمُطُ الناسِ: الاحتقار لهم والازدراء^(٨) بهم. ويُروى: «وغمص» بالصاد المهملة، والمعنى واحد، يقال: غَمَصَ يَغْمِصُه غَمَصاً واغتمصه، أي: استصغره، ولم يره شيئاً، وَغَمَصَ فلانُ النعمة: إذا لم يشكرها، وَغَمَضْتُ عليه قولاً قاله، أي: عبثته عليه^(٩).

(١) في (ظ): يا ويلتي، وفي (م): يا وليي.

(٢) برقم (٨١)، وما بين حاصرتين منه، وهو في المسند (٩٧١٣).

(٣) إعراب القرآن ١/٢١٣.

(٤) يعني الزجاج.

(٥) في النسخ: الثامنة، والمثبت من (م).

(٦) في (م): ترك، وفي (د): تركه للسجود.

(٧) برقم (٩١) و(١٤٧) من حديث ابن مسعود، وما بين حاصرتين منه، وفيه: «مثقال ذرة»، وهو في المسند (٤٣١٠).

(٨) في (ز) و(ظ): والإزراء.

(٩) الصحاح (غمص).

وقد صرّح اللّعين بهذا المعنى فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿لَمْ أَكُنْ لِسَجْدٍ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فَكَفَّرَهُ اللهُ بِذَلِكَ.
فكُلُّ مَنْ سَفَّهَ شَيْئًا مِنْ أَوْامِرِ اللهِ تَعَالَى، أَوْ أَمْرِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، كَانَ حُكْمُهُ حُكْمَهُ، وَهَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ.

وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر [والشع]، حَسَدُ إبليسُ آدمَ [وتكبر]، وشَحَّ آدمُ في أكله من شجرة^(١) [قد نُهي عن قُربها]^(٢).

وقال قتادة: حَسَدُ إبليسُ آدمَ، على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناري وهذا طيني، وكان بدءُ الذنوب الكبر، ثم الحرصُ حتى^(٣) أَكَلَ آدمُ من الشجرة، ثم الحسدُ إذ حَسَدَ ابنُ آدمَ أخاه^(٤).

الثامنة^(٥): قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل: «كان» هنا بمعنى «صار»، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُتَعَرِّفِينَ﴾ [هود: ٤٣]. وقال الشاعر:
بِتَيْهَاءَ قَفْرِ وَالْمَطِيَّيْ كَأَنَّهَا قَطَا الْحَزْنَ قَدْ كَانَتْ فِرَاحًا بُيُوضُهَا^(٦)
أي: صارت.

(١) في (م): الشجرة.

(٢) المحرر الوجيز ١/١٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ): حين.

(٤) أخرجه مختصراً الطبري في تفسيره ١٤/٦٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/١٢٣.

(٥) في النسخ: التاسعة، والمثبت من (م).

(٦) البيت لابن أحمر، وهو في الحيوان للجاحظ ٥/٥٧٥، واللسان: (عرض) و(كون)، والخزانة ٩/٢٠١، وقبله:

ألا ليت شعري هل أبیتنَّ ليلة صحيح السرى والعيسُ تجري عروضها
والتيهَاءُ: الأرض التي لا يهتدي فيها، اللسان: (تبه)، والحزن: ما غلظ من الأرض، اللسان: (حزن)، وأضاف القطا إليه؛ لأنه يكون قليل الماء، فيكون قطا أكثر عطشاً، فإذا أراد الماء كان سريع الطيران، وقد شبه الشاعر المطيَّ بالقطا التي فارقت فراخها لتحمل إليها الماء فتسقيها، فهو أسرع لطيرانها. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية ٢٦ من سورة المائدة.

وقال ابن قُورَك: «كان» هنا بمعنى «صار» خطأً تردُّه^(١) الأصول، وقال جمهور المتأولين: المعنى: أي كان في علم الله تعالى أنه سيكفر، لأنَّ الكافر حقيقةً والمؤمن حقيقةً هو الذي قد علم الله منه الموافاة^(٢).

قلت: وهذا صحيح، لقوله ﷺ في «صحيح» البخاري: «وإنما الأعمال بالخواتيم»^(٣).

وقيل: إن إبليسَ عبدَ الله تعالى ثمانين ألف سنة، وأُعطيَ الرياسةَ والخِزَانَةَ في الجنة على الاستدراج، كما أُعطيَ المنافقون شهادةً أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم، وكما أُعطيَ بلعَامُ الاسمِ الأعظمَ على طرف لسانه، فكان في رياسته، والكِبَرُ في نفسه متمكَّن.

قال ابن عباس: كان يرى لنفسه أن له فضيلةً على الملائكة بما عنده، فلذلك قال: أنا خيرٌ منه، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، أي: استكبرت ولا كِبَرُ لك، ولم أتكبر أنا حين خلقتُه بيديَّ والكِبَرُ لي! فلذلك قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وكان أصلُ خلقتَه من نار العِزَّة، ولذلك حَلَفَ بالعِزَّة، فقال: ﴿فِعِزَّتِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. فالعِزَّةُ أورثته الكِبَرُ حتى رأى الفضلَ له على آدم عليه السلام^(٤).

وعن أبي صالح قال: خُلقت الملائكةُ من نُور العِزَّة، وخلق إبليسُ من نار العِزَّة^(٥).

التاسعة^(٦): قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: مَنْ أَظْهَرَ اللهُ تعالى على يديه مَمَّن ليس بنبيٍّ كراماتٍ وخَوَارِقَ للعادات، فليس ذلك دالًّا على ولايته، خلافاً لبعض

(١) في النسخ: يردُّه، والمثبت من (م).

(٢) المحرر الوجيز ١/١٢٦.

(٣) سلف ص ٢٩٦.

(٤) انظر ما سلف ص ٤٤٠.

(٥) لم نقف عليه من قول أبي صالح، وأخرجه إسحاق في مسنده (٧٨٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة

(٩١٩) من طريق أبي صالح، عن عكرمة.

(٦) في النسخ: العاشرة، والمثبت من (م).

الصُّوفِيَّة والرافضة؛ حيث قالوا: إِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَلِيُّ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُن وَلِيًّا مَا أَظْهَرَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مَا أَظْهَرَ.

ودليلنا أَنَّ الْعِلْمَ بَأَنَّ الْوَاحِدَ مَنَّا وَلِيُّ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا، وَإِذَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا لَمْ يُمَكِّنَّا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ الْوَلِيَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَنْ عِلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُوَافِيهِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَلَمَّا اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّنَا لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْطَعَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ يُوَافِي بِالْإِيمَانِ، وَلَا الرَّجُلُ نَفْسُهُ يَقْطَعُ عَلَى أَنَّهُ يُوَافِي^(١) بِالْإِيمَانِ، عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ يَدُلُّ عَلَى وَلَايَتِهِ لِلَّهِ. قالوا: وَلَا نَمْنَعُ^(٢) أَنْ يُظْلِعَ اللَّهُ بَعْضَ أَوْلِيَائِهِ عَلَى حُسْنِ عَاقِبَتِهِ وَخَاتِمَةِ عَمَلِهِ وَغَيْرِهِ مَعَهُ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَذَهَبَ الطَّبْرِيُّ^(٣) إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِقِصَّةِ إِبْلِيسَ تَقْرِيعَ أَشْبَاهِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهُمْ الْيَهُودُ الَّذِينَ^(٤) كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ عِلْمِهِمْ بِنُبُوَّتِهِ، وَمَعَ قَدَمِ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَسْلَافِهِمْ.

الْعَاشِرَةُ^(٥): وَاخْتَلَفَ هَلْ كَانَ قَبْلَ إِبْلِيسَ كَافِرٌ أَوْ لَا؟ فَقِيلَ: لَا، وَإِنَّ إِبْلِيسَ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ، وَقِيلَ: كَانَ قَبْلَهُ قَوْمٌ كَفَرُوا، وَهُمْ الْجِنُّ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَرْضِ. وَاخْتَلَفَ أَيْضًا هَلْ كَفَرَ إِبْلِيسُ جَهْلًا أَوْ عِنَادًا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِاللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ كُفْرِهِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ كَفَرَ جَهْلًا، قَالَ: إِنَّهُ سَلِبَ الْعِلْمَ عِنْدَ كُفْرِهِ، وَمَنْ قَالَ: كَفَرَ عِنَادًا، قَالَ: كَفَرَ وَمَعَهُ عِلْمُهُ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٦): وَالْكَفَرُ [عِنَادًا] مَعَ بَقَاءِ الْعِلْمِ مُسْتَبْعَدٌ، إِلَّا أَنَّهُ عِنْدِي جَائِزٌ لَا يَسْتَحِيلُ مَعَ خَذَلِ اللَّهِ لِمَنْ يَشَاءُ.

(١) فِي النسخ: لَا يُوَافِي، فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م).

(٢) فِي (د): يَمْتَنِعُ، وَفِي (ظ): يَمْنَعُ.

(٣) فِي تَفْسِيرِهِ ٥٤٥/١.

(٤) فِي (م): الَّذِي.

(٥) فِي النسخ: الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م)، وَهُوَ الْمَوْافِقُ لِمَا قَالَ قَبْلَ: فِيهِ عَشْرُ مَسَائِلَ.

(٦) الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ ١٢٦/١، وَمَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

فيه ثلاث^(١) عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ﴾: لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره^(٢) وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم: اسْكُنْ^(٣)، أي: لازم الإقامة، واتَّخِذْهَا مَسْكَنًا، وهو محلُّ السكون، وَسَكَنَ إِلَيْهِ يَسْكُنُ سُكُونًا، وَالسَّكَنُ: النار، قال الشاعر:

قَدْ قُومَتْ بِسَكْنٍ وَأَدَهَانَ^(٤)

وَالسَّكَنُ: كلُّ ما سُكِنَ إليه.

وَالسَّكْنُ معروفٌ، سُمِّيَ به؛ لأنه يُسْكُنُ حركةً المذبوح.

ومنه الْمُسْكِينُ، لِقَلَّةِ تَصَرُّفِهِ وحركته.

وَسُكَّانُ السفينة عربيٌّ؛ لأنه يُسَكَّنُهَا عن الاضطراب^(٥).

الثانية: في قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾ تنبيهٌ على الخروج، لأن السُّكْنَى لا تكونُ مِلْكًا، ولهذا قال بعضُ العارفين: السُّكْنَى تكونُ إلى مدَّةٍ ثم تنقطعُ، فدخلُهما في الجنة كان دخولَ سُّكْنَى لا دخولَ إقامة^(٦).

قلت: وإذا كان هذا، فيكونُ فيه دلالةٌ على ما يقوله الجمهور من العلماء: إنَّ من أسكن رجلاً مسكنًا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأنَّ له أن يُخْرِجَه منه إذا انقضت مدَّةُ الإسكان.

(١) في (د) و(ز): اثنتا، وفي (ظ): اثنتي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لعدد المسائل الآتية.

(٢) في (د): بكفره.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٢٦.

(٤) مقاييس اللغة ٣/٨٨، ومجمل اللغة ٢/٤٦٨. وفي إصلاح المنطق ص ٦٥، وتهذيب اللغة ١٠/٦٥،

واللسان (سكن) برواية: أقامها، بدل: قد قومت. والشاعر يصف قناة تُقْفَى بالنار والدهن.

(٥) مجمل اللغة (سكن)، وسُكَّانُ السفينة يعني ذَيْلُهَا الذي تَسْكُنُ به، وتُمنَعُ به من الحركة والاضطراب.

تاج العروس (سكن).

(٦) في النسخ: ثواب، والمثبت من (م). وسيذكر المصنف أحكام السُّكْنَى والعمرى والرُّقْبَى، وكلام

الفقهاء في ذلك؛ قال أبو حيان في البحر ١/١٥٦: ليس في الآية ما يدلُّ على شيءٍ مما ذكر.

وكان الشعبيُّ يقول: إذا قال الرجلُ: داري لك سُكْنَى حتى تموتَ، فهي له حياته وموته، وإذا قال: داري هذه اسْكُنْها حتى تموتَ، فإنَّها ترجعُ إلى صاحبها إذا مات^(١).

وَنَحْوُ من السُّكْنَى العُمَرَى، إلا أنَّ الخلافَ في العُمَرَى أقوى منه في السُّكْنَى. وسيأتي الكلامُ في العُمَرَى في «هود» إن شاء الله تعالى^(٢).

قال الحرَّبيُّ^(٣): سمعتُ ابنَ الأعرابيِّ يقول: لم يختلف العربُ في أن هذه الأشياءُ على ملكِ أربابها، ومنافعُها لمن جُعِلت له: العُمَرَى، والرُّقْبَى، والإفْقَارُ، والإخْبَالُ، والمِنْحَةُ، والعَرِيَّةُ، والسُّكْنَى، والإطراق.

وهذا حجةٌ مالِكٍ وأصحابه في أنه لا يُمْلِكُ شيءٌ من العطايا إلا المنافعُ دون الرُّقَاب، وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيْط^(٤).

والعُمَرَى: هي^(٥) إسكانُك الرجلَ في دارٍ لك مدَّةَ عَمْرٍك أو عُمْرِه، ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتَّ قبلي رجعتُ إليَّ، وإن مُتُّ قبلك فهي لك، وهي من المراقبة، والمراقبة: أن يَرْقُبَ كلُّ واحدٍ منهما موتَ صاحبه، ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها: فأجازها أبو يوسف والشافعيُّ، وكأنها وَصِيَّةٌ عندهم، ومنعها مالِكٌ والكوفيون، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يقصدُ إلى عَوْضٍ لا يدري هل يحصلُ له، ويتمنَّى كلُّ واحدٍ منهما موتَ صاحبه.

وفي الباب حديثان أيضاً بالإجازة والمنع ذكرهما ابنُ ماجه في «سُننه»:

الأوَّل: رواه جابر بنُ عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «العُمَرَى جائزة لمن

(١) التمهيد ١١٩/٧، والاستذكار ٣٢٣/٢٢.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [الآية: ٦١].

(٣) إبراهيم بن إسحاق، أبو إسحاق البغدادي، صنف غريب الحديث وغيره، مات سنة (٢٨٥هـ). السير ٣٧١/١٣.

(٤) المفهم ٥٩٢ - ٥٩٣، ويزيد بن قُسيْط: هو أبو عبد الله الليثي، المدني، الأعرج، الفقيه، مات سنة (١٢٢هـ). السير ٢٦٦/٥.

(٥) في (ظ) و(م): هو.

أُغْمِرَهَا، وَالرُّقْبَى جَائِزَةٌ لِمَنْ أُرْقِبَهَا»^(١) ففي هذا الحديث التسوية بين العُمَرَى والرُّقْبَى في الحكم.

الثاني: رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا رُقْبَى، فَمَنْ أُرْقِبَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ حَيَاتُهُ وَمَمَاتُهُ»^(٢). قال: والرُّقْبَى أَنْ يَقُولَ هُوَ لِلْآخِر: مِثْنِي وَمِنْكَ مَوْتًا^(٣).

فَقَوْلُهُ: «لَا رُقْبَى» نَهْيٌ^(٤) يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ، وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ أُرْقِبَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ» يَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ، وَأَخْرَجَهُمَا أَيْضًا النَّسَائِيُّ^(٥)، وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعُمَرَى وَالرُّقْبَى سَوَاءٌ^(٦).

وقال ابن المنذر: ثَبِتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْعُمَرَى جَائِزَةٌ لِمَنْ أُغْمِرَهَا، وَالرُّقْبَى جَائِزَةٌ لِمَنْ أُرْقِبَهَا». فَقَدْ صَحَّحَ الْحَدِيثَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَهُوَ حُجَّةٌ لِمَنْ قَالَ بِأَنَّ الْعُمَرَى وَالرُّقْبَى سَوَاءٌ، وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ^(٨)، وَبِهِ قَالَ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ، وَأَنَّهَا لَا تَرْجَعُ إِلَى الْأَوَّلِ أَبَدًا، وَبِهِ قَالَ إِسْحَاقُ. وَقَالَ طَاوُسٌ: مَنْ أُرْقِبَ شَيْئًا فَهُوَ سَبِيلٌ^(٩) الْمِيرَاثِ^(١٠).

وَالْإِفْقَارُ: مَا خُذَ مِنْ فَقَارِ الظَّهْرِ، أَفْقَرْتُكَ نَاقَتِي: أَعَرْتُكَ فَقَارَهَا لِتَرْكِبَهَا، وَأَفْقَرَكُ الصَّيْدُ: إِذَا أَمَكَّنَكَ مِنْ فَقَارِهِ حَتَّى تَرْمِيَهُ، وَمِثْلُهُ الْإِخْبَالُ، يُقَالُ: أَخْبَلْتُ فَلَانًا: إِذَا أَعَرْتَهُ نَاقَةً يَرْكَبَهَا، أَوْ فَرَسًا يَغْزُو عَلَيْهِ^(١١)، قَالَ زَهِيرٌ:

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٨٣).

(٢) في (ظ): وموته.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٣٨٢)، والمجتبى ٢٧٣/٦، والسنن الكبرى (٦٥٢٨).

(٤) في (ظ): نهي.

(٥) في (م): من.

(٦) في المجتبى ٢٧٣/٦ و٢٧٤، والكبرى (٦٥٢٨) و(٦٥٣٥).

(٧) المجتبى ٢٧٠/٦، والكبرى (٦٥٠٦).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤٤/٧.

(٩) في (ظ): سبيل إلى.

(١٠) أخرجه النسائي في المجتبى ٢٧٠/٦، وفي الكبرى (٦٥٠٩) إلا أنه من طريق طاووس عن النبي ﷺ،

مرسلًا، وفيه: «بسبيل».

(١١) في (د): عليها.

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا الْمَالَ يُخْبِلُوا وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَسِيرُوا يُغْلُوا^(١)
وَالْمِنْحَةُ: الْعَطِيَّةُ، وَالْمِنْحَةُ: مِْنَحَةُ اللَّبَنِ، وَالْمِنْحَةُ: الناقَةُ أو الشاةُ يُعْطِيهَا
الرَّجُلُ آخَرَ يَحْتَلِبُهَا، ثم يرُدُّها، قال رسول الله ﷺ: «الْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالْمِنْحَةُ
مَرْدُودَةٌ، وَالذَّيْنُ مَقْضِيٌّ، وَالزَّرْعِيمُ غَارِمٌ». رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذي والدارقطني
وغيرهما^(٢)، وهو صحيح.

والإطراق: إعارَةُ الفحل، استطرقَ فلانٌ فلاناً فَحَلَّهُ: إذا طَلَبَهُ لِيَضْرِبَ فِي إِبْلِهِ،
فَأَطْرَقَهُ إِيَّاهُ، ويقال: أَطْرَقَنِي فَحَلَّكَ، أي: أَعْرَضَنِي فَحَلَّكَ لِيَضْرِبَ فِي إِبْلِي، وَطَرَقَ
الْفَحْلُ الناقَةَ يَطْرُقُ طُرُوقاً، أي قَعَا عَلَيْهَا، وَطُرُوقَةُ الْفَحْلِ: أَنثَاهُ، يقال: ناقَةُ طُرُوقَةٍ
الْفَحْلُ لَتِي بَلَّغَتْ أَنْ يَضْرِبَهَا الْفَحْلُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أَنْتَ» تأكيدٌ لِلْمَضْمَرِ الَّذِي فِي الْفِعْلِ،
ومثله ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولا يجوز: اسْكُنْ وَزَوْجُكَ، ولا: اذْهَبْ
وَرَبُّكَ، إلا في ضرورة الشعر، كما قال:

قُلْتُ إِذْ أَقْبَلْتُ وَزُهْرٌ تَهَادَى كِنِيعَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفُنَ رَمَلاً^(٣)
فـ «زُهْرٌ» معطوف على المضمر في «أَقْبَلْتُ» ولم يؤكِّد ذلك المضمر، ويجوز في
غير القرآن على بُعْدٍ: قم وزيدٌ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ لغة القرآن «زَوْجٌ» بغير هاء، وقد تقدَّم القولُ
فيه^(٤). وقد جاء في «صحيح» مسلم^(٥) «زوجة»: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ،
قال: حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مَعَ إِحْدَى

(١) ديوانه ص ١١٢ (بشرح ثعلب)، وص ٤٢ (بشرح الأعلام الشنمري)، ومعنى قوله: وإن يسروا يغلوا:

أنهم إذا قاموا بالميسر يأخذون سمان الجزر، فيقامرون عليها لا ينحرون إلا غالية. قاله الأعلام.

(٢) سنن الترمذي (٢١٢٠)، وسنن الدارقطني ٣/ ٤٠ - ٤١، وهو في المسند (٢٢٢٩٤).

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ملحق ديوانه ص ٤٩٨، وهو من شواهد سيبويه ٣٧٩/٢. قال
الأعلام الشنمري في شرحه: والزهر: جمع زهراء: وهي البيضاء المشرقة، وتهادى: تمشي المشي
الرويد الساكن، والنعاج: بقر الوحش، والملا: الفلاة الواسعة، وتعسفن: سرن بغير هداية، وإذا
مشت في الرمل كان أسكن لمشيها، لصعوبة ذلك.

(٤) ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(٥) رقم (٢١٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٤٠٤٢).

نساءه، فمرَّ به رجل، فدعاه فجاء، فقال: «يا فلان، هذه زوجتي فلانة» فقال: يا رسول الله، مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ به فلم أكن أَظُنُّ بك! فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم».

وزوجُ آدم عليه السلام هي حواءُ عليها السلام، وهو أولُ مَنْ سَمَّاهَا بذلك حين خُلِقَتْ من ضِلَعِهِ من غير أن يُحَسَّ آدم عليه السلام بذلك^(١)، ولو أَلِمَ بذلك لم يَغْطِفَ رجلٌ على امرأته، فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأة، قيل: وما اسمُها؟ قال: حواء، قيل: ولمَ سُمِّيت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أُخِذَتْ، قيل: ولمَ سُمِّيت حواء؟ قال: لأنها خُلِقَتْ من حيٍّ. رُوِيَ أن الملائكةَ سأَلَتْه عن ذلك لتجربَ علمه، وأنهم قالوا له: أتحبُّها يا آدم؟ قال: نعم. قالوا لحواء: أتحبِّينَه يا حواء؟ قالت: لا. وفي قلبها أضعافُ ما في قلبه من حبه. قالوا: فلو صدقتِ امرأةٌ في حبِّها لزوجها لصدقتِ حواء.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أَسْكَنَ آدمُ الجنةَ مشى فيها مستوحشاً، فلمَّا نام خُلِقَتْ حواءُ من ضِلَعِهِ الْقُصْبِيِّ^(٢) مِنْ شَقِّهِ الْأَيْسَرِ، لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا وَيَأْنَسَ بِهَا، فلما انتبه رآها، فقال: من أنتِ؟! قالت: امرأةٌ خُلِقْتُ من ضِلَعِكَ لَتَسْكُنَ إِلَيَّ^(٣)، وهو معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال العلماء: ولهذا كانت المرأة عَوْجَاءً، لأنها خُلِقَتْ من أعوج، وهو الضِّلَع.

(١) ليس في الآثار الصحيحة ما يشير إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم، ومن ذهب إلى ذلك جعل «من» في قوله تعالى: ﴿وَتَخَلَّ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١) تبعية. والأشبه أن تكون لبيان الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (الروم: ٢١). وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن المرأة خلقت من ضلع» إنما هو على جهة التمثيل كما جاء ذلك صريحاً في رواية الشيخين: «المرأة كالضلع».

(٢) في (ز): القصير، وفي (ظ) و(م): القصري، والمثبت من (د)، وهو الموافق لمصادر تخريجه.

(٣) أخرجهما باختصار الطبري في تفسيره ٥٤٨/١، وفي تاريخه ١٠٣/١ من طريقين: عن ابن عباس وابن مسعود، وفي إسنادهما ضعف. وانظر المحرر الوجيز ١٢٦/١، وعرائس المجالس ص ٣٠.

وفي «صحيح» مسلم^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ - فِي رَوَايَةٍ: «وَلَنْ أَعُوجَ شَيْءٌ»^(٢) فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ» - لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ [بِهَا] وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرْتُهَا طَلَّقْتُهَا». وقال الشاعر^(٣):

هِيَ الضِّلْعُ الْعَوْجَاءُ لَسْتُ تُقِيمُهَا أَلَا إِنَّ تَقْوِيمَ الضِّلْعِ انْكِسَارُهَا
أَتَجْمَعُ ضَعْفًا وَاقْتِدَارًا عَلَى الْفَتَى أَلَيْسَ عَجِيبًا ضَعْفُهَا وَاقْتِدَارُهَا
ومن هذا الباب استدللَّ العلماء على ميراث الخُنْثَى المُشْكِلِ إذا تساوت فيه علاماتُ النساء والرجال من اللِّحْيَةِ والثَّدْيِ والمَبَالِ بنقص الأعضاء، فَإِنْ نَقَصَتْ أَضْلَاعُهُ عَنْ أَضْلَاعِ الْمَرْأَةِ أُعْطِيَ نَصِيبَ رَجُلٍ - رُويَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه^(٤) - لَخَلَقَ حَوَاءً مِنْ أَحَدِ أَضْلَاعِهِ، وَسَيَأْتِي فِي الْمَوَارِيثِ بَيَانُ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٥).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿الْجَنَّةُ﴾ الجَنَّةُ: البُستان، وقد تقدَّم القولُ فيها^(٦).

ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخلد، وإنما كان في جنة بَارِضٍ عَدَنَ، واستدلُّوا على بَذْعَتِهِمْ بِأَنَّهَا لو كانت جنة الخلد، لما وصلَ إليه إبليسُ، فإن الله يقول: ﴿لَا لَقَوْا فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقَوْا وَلَا كَذَابًا﴾ [النبا: ٣٥]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقَوْا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ [١٥] إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكَنَا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، وأنه لا يُخْرِجُ مِنْهَا أَهْلَهَا لقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٩]. وأيضاً؛ فَإِنَّ جَنَّةَ الْخُلْدِ هي دَارُ الْقُدُسِ، قُدِّسَتْ عَنِ الْخَطَايَا وَالْمَعَاصِي تَطْهِيراً لَهَا، وَقَدْ لَغَا فِيهَا إبليسُ وَكَذَّبَ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا آدَمُ وَحَوَاءُ بِمَعْصِيتهما.

(١) برقم (١٤٦٨) (٥٩) و(٦٠) وما بين حاصرتين منه، وهو أيضاً في صحيح البخاري (٣٣٣١).

(٢) في (د): ما.

(٣) هو حاجب بن دينار، والبيت الأول في اللسان: (ضلع)، ووقع فيه حاجب بن ذبيان. وانظر حاشية البيان والتبيين ١٨٣/٢.

(٤) لم نقف على من أخرجه، وقد ذكر ابن قدامة في المغني ١١٠/٩ أن هذا القول مروي عن علي والحسن رضي الله عنهما.

(٥) في تفسير الآية (١١) من سورة النساء.

(٦) ص ٣٥٩.

قالوا: وكيف يجوزُ على آدمَ مع مكانه من الله وكمالِ عقله أن يطلبَ شجرةَ الخُلدِ - وهو في دار الخُلدِ - والمُلْكُ الذي لا يَبْلَى؟

فالجوابُ: أنَّ الله تعالى عَرَّفَ الجنةَ بالآلف واللام، ومن قال: أسألُ الله الجنةَ، لم يُفهم منه في تعارفِ الخلقِ إلا طلبُ جنةِ الخُلدِ، ولا يستحيلُ في العقل دخولُ إبليسَ الجنةَ لتغريب^(١) آدمَ، وقد لَقِيَ موسى آدمَ عليهما السلام، فقال له موسى: أنتَ أَشَقِيَّتْ ذُرِّيَّتَكَ، وأُخْرِجْتَهُم من الجنة^(٢)، فأدخلَ الآلف واللامَ ليدلَّ على أنها جنةُ الخُلدِ المعروفةُ، فلم يُنكِرْ ذلكَ آدمُ، ولو كانتَ غيرها لَرَدَّ على موسى، فلمَّا سَكَتَ آدمُ على ما قَرَّرَه موسى صَحَّ أنَّ الدارَ التي أُخْرِجَهُم الله عزَّ وجلَّ منها بخلاف الدارِ التي أُخْرِجُوا إليها.

وأما ما احتجُّوا به من الآي؛ فذلك إنما جعله الله فيها بعدَ دخولِ أهلها فيها يومَ القيامة، ولا يمتنعُ أن تكون دارُ خُلد^(٣) لمن أَرَادَ الله تَخْلِيدَه فيها، وقد يخرجُ منها مَنْ قُضِيَ عليه بالفناء. وقد أجمعَ أهلُ التأويلِ على أن الملائكةَ يدخلون الجنةَ على أهلِ الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحُها بيدَ إبليسَ، ثم انتزَعَتْ منه بعد المعصية، وقد دخلها النبي ﷺ ليلةَ الإسراء، ثم خرجَ منها، وأخبرَ بما فيها^(٤)، وأنها هي جنةُ الخُلدِ حقًّا.

وأما قولهم: إن الجنةَ دارُ القُدُس، وقد طَهَّرَها الله تعالى من الخطايا، فجهلُ منهم، وذلك أن الله تعالى أمرَ بني إسرائيلَ أن يدخلوا الأرضَ المقدَّسةَ، وهي الشام، وأجمعَ أهلُ الشرائعِ على أنَّ الله تعالى قَدَّسَهَا، وقد شُوهِدَ فيها المعاصي والكفرُ والكذبُ، ولم يكن تقديسُها مما يمنعُ فيها المعاصي، وكذلك^(٥) دارُ القُدُس.

قال أبو الحسن بنُ بَطَّال: وقد حكى بعضُ المشايخ أن أهلَ السُّنة مُجمعون على أنَّ جنةَ الخُلدِ هي التي أُهْبِطَ منها آدمُ عليه السلام، فلا معنى لقولِ مَنْ خالفهم.

(١) في (د): لتعزير، وفي (ز) و(ظ): لتعزير، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (م): الخلد.

(٤) سلف ص ٣٥٧.

(٥) في (د): فلذلك سَمِيَتْ، وفي (ز) و(ظ): فكذلك، والمثبت من (م).

وقولهم: كيف يجوزُ على آدم في كمال عقله أن يطلبَ شجرةَ الخُلد وهو في دار الخُلد؟ فيُعكس عليهم، ويقال: كيف يجوزُ على آدم وهو في كمال عقله أن يطلبَ شجرةَ الخُلد في دار الفناء؟! هذا ما لا يجوزُ^(١) على مَنْ له أدنى مُسكوةٍ من عقل، فكيف بآدم الذي هو أرجحُ الخلقِ عقلاً! على ما قال أبو أمامة، على ما يأتي^(٢).

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قراءةُ الجمهور: «رَعْدًا» بفتح الغين، وقرأ النَّخَعِيُّ وابنُ وثَّابٍ بسكونها^(٣)، والرَّعْدُ: العيشُ الدَّارُ الهَنِيءُ الذي لا غَنَاءَ فيه. قال:

بينما المرءُ تراه ناعماً يَأْمَنُ الأحداثَ في عيشٍ رَعْدٍ^(٤)
ويقال: رَعْدٌ عيشُهم ورَعْدٌ^(٥) - بضم الغين وكسرها - وأرْعَدَ القومُ: أخْصَبُوا وصارُوا في رَعْدٍ من العيش، وهو منصوبٌ على الصفة لمصدر محذوف^(٦).

وَحَيْثُ وَحَيْثُ وَحَيْثُ، وَحَوْثٌ وَحَوْثٌ وَحَوْثٌ^(٧) وَحَاثٌ، كُلُّهَا لُغَاتٌ، ذكرها النَّحَّاسُ وغيره^(٨).

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تقرباها بأكل؛ لأن الإباحة فيه وقعت. قال ابن العربي: سمعتُ الشَّاشِيَّ^(٩) في مجلس النَّظَرِ^(١٠) يقول: إذا قيل:

(١) في (د): هذا مما لا يجوز، وفي (ظ): وهذا وهذا لا يجوز.

(٢) ص ٤٥٧.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٢٧. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٣ للنخعي.

(٤) البيت لامرئ القيس، كما في تفسير الطبري ١/٥٥٠، والمحرر الوجيز ١/١٢٧. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٥) في (ظ): رَعْدٌ عيشهم يَرَعْدُ ورَعْدٌ.

(٦) أو أن يكون مصدراً في موضع الحال، كما حكاه النحاس في إعراب القرآن ١/٢١٣ عن ابن كيسان، وسيذكره المصنف ص ٤٦١.

(٧) اللفظة الثالثة: وَحَوْثٌ، من (د) و(ز)، وهو موافق لما في كتب اللغة.

(٨) إعراب القرآن ١/٢١٣، وأمالى ابن السجري ٢/٥٩٩. وانظر الصحاح: (حوث)، والدر المصون ١/٢٨٢.

(٩) هو محمد بن أحمد بن الحسين، أبو بكر التركي، شيخ الشافعية، له حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء. كان يسمى الجنيذ لورعه. مات سنة (٥٠٧هـ). السير ١٩/٣٩٣.

(١٠) كذا في النسخ الخطية، ونقله عنه أبو حيان في «البحر» ١/١٥٨ وقال: في مجلس النظر بن شميل، ثم =

لا تقَرَب - بفتح الراء - كان معناه: لا تَلْبَسْ بالفعل، وإذا كان بضم الراء، فإنَّ معناه: لا تَدْنُ منه.

وفي «الصحيح»: قَرَبَ الشيءُ - بالضم - يَقْرُبُ قُرْبًا، أي: دَنَا، وَقَرَّبْتُهُ - بالكسر - أَقْرَبُهُ قُرْبَانًا، أي: دَنَوْتُ منه، وَقَرَّبْتُ أَقْرَبُ قِرَابَةً - مثل: كَتَبْتُ أَكْتُبُ كِتَابَةً - إذا سِرَتْ إلى الماء وبينك وبينه ليلةٌ، والاسم: القَرَب، قال الأصمعيُّ: قلتُ لأعرابيٍّ: ما القَرَب؟ فقال: سَيْرُ الليلِ لِرُزْد الغد.

وقال ابن عطية^(١): قال بعضُ الحُذَّاق: إنَّ الله تعالى لما أَرَادَ النهيَ عن أكل الشجرة، نهى عنه بلفظٍ يقتضي الأكلَ وما يدعو إليه^(٢)، وهو القُرْب. قال ابن عطية: وهذا مثالٌ بَيِّنٌ في سَدِّ الذرائع.

وقال بعض أرباب المعاني: قوله: «ولا تَقْرَبَا» إشعارٌ بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة، وأنَّ سُكْنَاهُ فيها لا يدوم، لأنَّ المُخْلَدَ لا يُحْظَرُ عليه شيءٌ، ولا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَى، والدليلُ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فدلَّ على خروجه منها.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾ الاسمُ المبهَمُ يُنَعَتُ بما فيه الألف واللام لا غير، كقولك: مررتُ بهذا الرجل، وبهذه المرأة، وهذه الشجرة.

وقرأ ابن مُحَيِّصٍ: «هذي الشجرة» بالياء، وهو الأصل، لأنَّ الهاء في هذه بدلٌ من ياء، ولذلك انكسر ما قبلها، وليس في الكلام هاءٌ تأنيثٌ قبلها كسرةٌ سواها، وذلك لأنَّ أصلها الياء^(٣).

= تعقبه بقوله: وفي هذه الحكاية عن ابن العربي من التخليط ما يُتَعَجَّب من حاكبيها...، وبين النظر والشاشي من السنين مثنون! إلا إن كان ثَمَّ مكان معروف بمجلس النظر بن شميل، فيمكن. اهـ. وستكرر عبارة مجلس النظر في ٣/ ٧٤، ٤٨٦ ولعل المراد به مجلس المناظرة، كما هو وارد في كتب الأصوليين. ينظر المثور في القواعد للزركشي ٣/ ٢١٧، وأصول البردوي ٣/ ٢٦٩.

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧.

(٢) في (م): وما يدعو إليه العرب، ولفظة «العرب» مقحمة.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ونسب هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ لابن كثير في بعض رواياته.

وَالشَّجَرَةَ وَالشَّجَرَةَ وَالشَّيْرة: ثلاث لغات، وقُرئ: «الشَّجَرَة» بكسر الشين^(١).

وَالشَّجَرَة وَالشَّجَرَة^(٢): ما كان على ساقٍ من نبات الأرض، وأَرْضٌ شَجيرة وشَجراء، أي: كثيرة الأشجار، ووَادٍ شَجير، ولا يقال: وَادٍ أشجر. وواحد الشَّجَرَاء شَجَرَة، ولم يأت من الجمع على هذا المثل إلا أحرف يسيرة: شَجَرَة وشَجَرَاء، وَقَصَبَة وَقَضْبَاء، وَطَرْفَة وَطَرْفَاء، وَحَلْفَة وَحَلْفَاء^(٣)، وكان الأصمعي يقول في واحد الحَلْفَاء: حَلْفَة - بكسر اللام - مخالفة لأخواتها. وقال سيويه: الشَّجَرَاء واحدٌ وَجَمْع، وكذلك الْقَضْبَاء وَالطَّرْفَاء وَالْحَلْفَاء. وَالْمَشَجَرَة^(٤): موضع الأشجار، وأَرْضٌ مَشَجَرَة، وهذه الأرض أشجر من هذه، أي: أكثرُ شَجَرًا، قاله الجوهري^(٥).

التاسعة: واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نُهيَ عنها، فأكل منها، فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبيرة^(٦): هي الكَرْم، ولذلك حُرِّمَت علينا الخمر. وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وقتادة: هي السَّنْبَلَة، والْحَبَّةُ منها كَكَلَى البقر، أَخْلَى من العسل، وَالْبَيْن من الزُّنْد، قاله وهب بن مُنَبِّه. وَلَمَّا تاب الله على آدم جعلها غذاءً لبنيه. وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: هي شجرة التَّيْن^(٧)، وكذا روى سعيد^(٨) عن قتادة. ولذلك تُعَبَّر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها. ذكره السَّهْلِي^(٩).

(١) المحرر الوجيز ١/١٢٧، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ لأبي السَّمَال، وابن جني في المحتسب ١/٧٤ لهارون الأعور عن بعض العرب.

(٢) في (ظ): وَالشَّجَر وَالشَّجَر، وفي (د): وَالشَّجَر وَالشَّجَرَة.

(٣) في (د) و(ز): وحلقة وحلقاء، وفي (ظ): وخلفة وخلفاء، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ: والمشجر، والمثبت من (م) والصحاح.

(٥) الصحاح (شجر).

(٦) ابن أبي وهب، المخزومي، أمه أم هانئ بنت أبي طالب، وهو من رجال التهذيب.

(٧) أخرج الأخبار السالفة الطبري في تفسيره ١/٥٥١-٥٥٦.

(٨) في (د): شعبة، وأخرج الطبري ١/٥٥٢ من طريق سعيد، عن قتادة قال: هي السنبلة.

(٩) التعريف والإعلام ص ٢٠.

قال ابن عطية^(١): وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة، فخالف هو إليها، وعصى في الأكل منها. وقال القشيري أبو نصر: وكان الإمام والدي رحمه الله يقول: يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحنة^(٢).

العاشرة: واختلفوا كيف أكلَ منها مع الوعيد المقترون بالقرب، وهو قوله: ﴿فَكُنَّا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾، فقال قوم: أكلا من غير التي أُشيرَ إليها، فلم يتأوَّلا النهي واقعا على جميع جنسها، كأن إبليس غرَّه [بالأخذ] بالظاهر. قال ابن العربي^(٣): وهي أول معصية عصى الله بها على هذا القول.

قال: وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز، فأكل من جنسه، حنث، وتحقيق المذهب فيه أن أكثر العلماء قالوا: لا حنث فيه، وقال مالك وأصحابه: إن اقتضى بساط اليمين^(٤) تعيين المشار إليه، لم يحنث بأكل جنسه، وإن اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حمله عليه، وحنث بأكل غيره، وعليه حملت قصة آدم عليه السلام، فإنه نهى عن شجرة عُيِّنَتْ له وأريدَ به^(٥) جنسها، فحمل القول على اللفظ دون المعنى.

وقد اختلف علماؤنا في قرع من هذا: وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة، فأكل خبزاً منها، على قولين: قال في «الكتاب»^(٦): يحنث، لأنها هكذا تؤكل، وقال ابن المَوَاز^(٧): لا شيء عليه، لأنه لم يأكل حنطة، إنما^(٨) أكل خبزاً، فرأى الاسم

(١) المحرر الوجيز ١/١٢٨.

(٢) لطائف الإشارات ١/٨٠.

(٣) أحكام القرآن ١/١٨ و١٩، والكلام السابق وما بين حاصرتين منه.

(٤) هو لسبب المثير لليمين لتعرف منه، وسلف ذكره ص ٣٤٤.

(٥) في (ظ) و(م): بها.

(٦) المدونة الكبرى ٢/١٢٧، ونقله المصنف بواسطة ابن العربي.

(٧) محمد بن إبراهيم بن زياد، أبو عبد الله، الإسكندراني، المالكي، فقيه الديار المصرية، صاحب

التصانيف، توفي سنة (٢٦٩هـ). السير ٦/١٣.

(٨) في (م) وأحكام القرآن: وإنما.

والصفة. ولو قال في يمينه: لا آكلُ من هذه الحنطة، لَحَنَيْتَ بِأَكْلِ الخبز المعمولِ منها، وفيما اشْتَرِيْ بِمَنْهَا من طعام، وفيما أَنْبَتِ خلافاً.

وقال آخرون: تَأَوَّلَا النَّهْيَ عَلَى النَّدْبِ. قال ابن العربي: وهذا وإن كانت^(١) مسألة^(٢) من أصول الفقه، فقد سقط ذلك ها هنا، لقوله: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فقرَنَ النَّهْيَ بالوعيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

وقال ابن المُسَيَّب: إنما أكلَ آدَمُ بعد أن سَقَتَهُ حَوَاءُ الخمر، فَسَكِرَ، وكان في غير عقله. وكذلك قال يزيدُ بن قُسيط^(٣)، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل. قال ابن العربي^(٤): وهذا فاسدٌ نقلاً وعقلاً، أما التَّغْلُ فلم يَصِحَّ بحالٍ، وقد وَصَفَ الله عَزَّ وَجَلَّ خمرَ الجنة، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]. وأما العقلُ فلأنَّ الأنبياءَ بعد النبوة معصومون عما يؤدي إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم.

قلت: قد استنبط بعض العلماء نبوةَ آدَمَ عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فأمره الله تعالى أن يُنبئَ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلَّ وعزَّ.

وقيل: أكلها ناسياً، ومن الممكن أنهما نَسِيَا الوعيد.

قلت: وهو الصحيح؛ لإخبار الله تعالى في كتابه^(٥) بذلك حتماً وجزماً، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]. لكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقُّظ - لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم - ما لا يلزم غيرهم، كان تشاغله^(٦) عن تذكُّرِ النهي تضييعاً صارَ به عاصياً، أي: مخالفاً.

(١) في (م): كان.

(٢) في أحكام القرآن ١٩/١: وأما حمل النهي على التنزيه فهي وإن كانت مسألة...

(٣) قول ابن المسيب أخرجه الطبري في تفسيره ٥٦٦/١ من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط، عنه، أنه سمعه يحلف بالله ما يستني: ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل.

وقول يزيد لم نقف على من ذكره منسوباً له. وانظر المحرر الوجيز ١٢٩/١.

(٤) أحكام القرآن ١٩/١.

(٥) في (ظ): الكتاب.

(٦) في (د) و(ظ): تشاغلهم.

قال أبو أمامة: لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وُضعت في كِفَّة ميزان، وُوضع حِلْم آدم في كِفَّة أخرى، لَرَجَحَهُم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُمْ عَزْمًا﴾^(١).

قلت: قول أبي أمامة هذا عموم في جميع بني آدم، وقد يَحْتَمِلُ أن يُخَصَّ من ذلك نبينا محمد ﷺ؛ فإنه كان أوفر الناس حِلْمًا وعقلًا، وقد يَحْتَمِلُ أن يكون المعنى: لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء. والله أعلم.

قلت: والقول الأول^(٢) أيضاً حَسَن، فَظَنَّا أنَّ المراد العَيْنُ، وكان المراد الجنس، كقول النبي ﷺ حين أخذ ذهباً وحريراً، فقال: «هذان حرامانِ على ذكور أمتي»^(٣).

وقال في خبر آخر: «هذان مُهلكانِ أمتي»^(٤). وإنما أراد^(٥) الجنس لا العين.

الحادية عشرة: يقال: إن أول مَنْ أكل من الشجرة حواءً بإغواء إبليس إياها، على ما يأتي بيانه^(٦)، وإن أولَ كلامه كان معها؛ لأنها وسواسُ المَحَدَّة، وهي أولُ فتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال: ما مُنِعْتُمَا هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علمَ منهما أنهما كانا يُجَبَّان الخُلْد، فأتاها من حيث أحبَّ - حُبُّك الشيء - يُعْمِي وَيُصِمُّ^(٧) - فلما قالت حواء لآدم أنكز عليها، وذكر العهد، فالحَّ على حواء، وألحَّت حواء على آدم، إلى أن قالت: أنا أكلُ قبلك، حتى إن أصابني شيء سَلِمْتُ أنت، فأكلت فلم يضرَّها، فأثت آدم، فقالت: كُلْ، فلاني قد أَكَلْتُ فلم يضرَّني، فأكل، فَبَدَثَ لهما سَوَاتُهُما، وحصلًا في حكم الذنب، لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٥.

(٢) يعني ما سلف في أول المسألة ص ٤٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٠)، والنسائي ٨/ ١٦٠ - ١٦١ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) في (د): المراد.

(٦) في الآية التالية.

(٧) هو من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه. المسند (٢١٦٩٤)، والقصة في تفسير الطبري ١/ ٥٦٦٥٦١،

وتاريخه ١/ ١٠٧ - ١٠٨، والمحرم الوجيز ١/ ١٢٨.

هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴿ فجمعهما في النَّهْيِ ، فلذلك لم تنزل بهما ^(١) العقوبة حتى وُجِدَ المنهي عنه منهما جميعاً ، وَخَفِيَتْ على آدَمَ هذه المسألة .

ولهذا قال بعض العلماء : إِنْ مَنْ قَالَ لزوجتيه أو أُمَّتَيْهِ : إِنْ دَخَلْتُمَا الدَّارَ ، فَأَنْتُمَا طَالِقَتَانِ أو حُرَّتَانِ : إِنْ الطَّلَاقَ والعَتَقَ لا يقعُ بدخول إحداهما .

وقد اختلفَ علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال : قال ابن القاسم : لا تطلقان ولا تَعْتِقَانِ إلا باجتماعهما في الدخول ، حملاً على هذا الأصل ، وأخذاً بمقتضى مُطْلَقِ اللفظ . وقاله سُخْنُونُ .

وقال ابن القاسم مرةً أخرى : تطلقان جميعاً وتَعْتِقَانِ جميعاً بوجود الدخول من إحداهما ؛ لأنَّ بعضَ الجِنْتِ جِنْتُ ، كما لو حلفَ ألا يأكلَ هذين الرغيفين ، فإنه يَحْنُتُ بأكل أحدهما ، بل بأكل لُقْمَةٍ منهما .

وقال أشهب : تَعْتِقُ وتَطْلُقُ التي دخلت وحدها ، لأن دخول كلِّ واحدةٍ منهما شرطٌ في طلاقها أو عتقها . قال ابن العربي ^(٢) : وهذا بعيدٌ ، لأن بعضَ الشرط لا يكون شرطاً إجماعاً .

قلت : الصحيحُ الأوَّلُ ، وإنَّ النَّهْيَ إذا كان معلّقاً على فعلين لا تتحقّق المخالفةُ إلا بهما ، لأنك إذا قلت : لا تدخلوا الدارَ ، فدخل أحدُهما ، ما وُجِدَت المخالفةُ منهما ، لأن قولَ الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ نَهْيٌ لهما ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ جوابُهُ ، فلا يكونا من الظالمين ^(٣) حتى يفعلا ، فلما أَكَلْتُ لم يُصِبْها شيءٌ ؛ لأنَّ المنهيَّ عنه ما وُجِدَ كاملاً ، وَخَفِيَ هذا المعنى على آدَمَ ، فطمعَ ونسيَ هذا الحكمَ ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَى ﴾ [طه : ١١٥] ، وقيل : نسي قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه : ١١٧] . والله أعلم .

الثانية عشرة : واختلف العلماء في هذا الباب : هل وقع من الأنبياء - صلوات الله

(١) في (ز) و(م) : بها ، والمثبت من (د) و(ظ) ، وهو الموافق لأحكام القرآن ١٧/١ .

(٢) أحكام القرآن ١٧/١ .

(٣) في (د) و(ز) : فلا يكونا ظالمين .

عليهم أجمعين - صغائرُ من الذنوب يُؤاخذون بها، ويُعَاتَبُونَ^(١) عليها، أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شَيْنٌ ونقصٌ، إجماعاً عند القاضي أبي بكر. وعند الأستاذ أبي إسحاق^(٢) أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم:

فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصغائر منهم، خلافاً للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك، واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل، وثبت من تنصّلهم^(٣) من ذلك في الحديث، وهذا ظاهرٌ لا خفاء فيه.

وقال جمهورٌ من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جَوَزْنَا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة، أو الحظر أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتنال أمرٍ لعلَّه معصيةٌ، لاسيما على مَنْ يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين.

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول: الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونَسَبَهَا إليهم، وعَاتَبَهُمْ عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصّلوا منها، وأشفقوا منها، وتابوا، وكل ذلك وَرَدَ في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قيل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يُزِيرُ بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور^(٤)، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنة، وفي حقهم سيئات [بالنسبة]

(١) في (ز) و(ظ): ويعاقبون.

(٢) في النسخ: الأستاذ أبي بكر، وهو خطأ، ينظر الشفاء للقاضي عياض ١٤٤/٢.

(٣) في (د) و(ز): تفضلهم، وفي (ظ) تفضيلهم. والمثبت من (م).

(٤) في (ظ): النذير.

إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق.

ولقد أحسن الجُنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين^(١)، فهم - صلوات الله وسلامه عليهم - وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يُخلل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكاهم، واختارهم، واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الظلم: أصله وضع الشيء في غير موضعه، والأرض المظلومة: التي لم تُحفر قط، ثم حُفرت. قال النابغة:

وقفتُ فيها أصيلاً لأسائلها عيّت جواباً وما بالربع من أحدٍ
إلا الأواريّ لآيماً أبينها والنّؤي كالحوض بالمظلومة الجلد^(٢)
ويُسمّى ذلك التراب: الظّليم. قال الشاعر:

فأصبح في غبراء بعد إشاحه على العيش مردود عليها ظليّمها^(٣)
وإذا نجر البعير من غير داء به فقد ظلم، ومنه:

ظلامون للجُرر^(٤)

ويقال: سقانا ظليمة طيبة: إذا سقاها اللبن قبل إدراكه، وقد ظلم وطمه^(٥): إذا سقى منه قبل أن يروى ويُخرج زُبده، واللبن مظلوم وظليم. قال:

(١) ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٥/٢ أنه من كلام أبي سعيد الخزاز.

(٢) ديوانه ص ٣٠. وأصيلاً: تصغير أضلان جمع أصيل، والأواري: جمع آري، وهو محبس الدابة. واللاي: الشدة والإبطاء. والنؤي: حفيرة حول الخباء لئلا يدخله ماء المطر. والجلد: الأرض الصلبة. الصحاح (أرا) (أصل) (جلد) (تأى).

(٣) البيت في رثاء رجل، وهو في الصحاح (ظلم) من غير نسبة. قال في اللسان (ظلم): يعني حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها.

(٤) هذا جزء من بيت لابن مقبل، والبيت بتمامه:

عاد الأذلة في دار وكان بها هزّت الشقايق ظلامون للجُرر
وهو في ديوانه ص ٨١، والصحاح (ظلم).

(٥) الوطب: سقاء اللبن خاصة، ويعمل من جلد الجذع فما فوقه. الصحاح (وطب).

وقائلة ظلمتُ لكم سِقائي وهل يخفى على العَكِدِ^(١) الظَلِيمُ^(٢) ورجلٌ ظَلِيمٌ : شديدُ الظلم^(٣).

والظلم : الشُّرك ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣].

قوله تعالى : ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾ حُذفت النون من «كَلَّا» لأنه أمر ، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذٌّ. قال سيبويه^(٤) : من العرب من يقول : أُوْكُل ؛ فَيُتِمُّ.

يقال منه : أَكَلْتُ الطَّعَامَ أَكْلًا وَمَأْكَلًا. والأَكْلَةُ ، بالفتح : المرَّةُ الواحدةُ حتى تشبَع ، والأَكْلَةُ ، بالضم : اللَّقْمَةُ ، تقول : أَكَلْتُ أَكْلَةً واحدةً [أي : لُقْمَةً] ، وهي القُرْصَةُ أيضاً. وهذا الشيء أَكْلَةٌ لك ، أي : طُعْمَةٌ لك ، والأَكْلُ أيضاً : ما أكل ، ويقال : فلانٌ ذو أَكْلٍ : إذا كان ذا حِطٍّ من الدنيا ورزقي واسع^(٥).

﴿رَعْدًا﴾ نعتٌ لمصدر محذوف ، أي : أَكْلًا رَعْدًا. قال ابن كَيْسان : ويجوزُ أن يكون مصدراً في موضع الحال ، وقال مجاهد : «رَعْدًا» أي : لا حسابَ عليهم^(٦). والرَّعْدُ في اللغة : الكثيرُ الذي لا يُعْنِيكَ ، ويقال : أرْعَدَ القومُ ، إذا وقعوا في خِصْب وسَعَةٍ. وقد تقدَّم هذا المعنى^(٧).

﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضَّم ، لأنها خالفت أخواتها الظروفَ في أنها لا تُضَافُ ، فأشبهت «قَبْلُ» و«بَعْدُ» إذا أُفْرِدتا ، فَضُمَّتْ^(٨). قال الكسائي : لغةٌ قَيْسٍ وِكِنانة الضَّمُّ ، ولغةٌ تميمٍ الفَتْحُ. قال الكسائي : وبنو أسَدٍ يخفضونها في موضع الخفض ، وينصبونها

(١) في النسخ : العكر (براء) والمثبت من المصدر. والعَكِد : السمين. معجم متن اللغة (عكد).

(٢) البيت في تهذيب اللغة ٣٨٣/١٤ ، ومقاييس اللغة ٤٦٩/٣ ، ومجمل اللغة ٦٠٢/١ ، والصاح ، واللسان (ظلم).

(٣) الصراح : (ظلم).

(٤) الكتاب ٢١٩/٤.

(٥) الصراح (أكل) ، وما بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٥٥٠/١.

(٧) في المسألة السادسة ص ٤٥٢.

(٨) في (ظ) : بضم.

في موضع النصب، قال الله تعالى: ﴿سَتَجِدُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وتُضْمُ وتُفْتَحُ^(١).

﴿وَلَا تَقْرَأْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من «هذه» بدل من ياء الأصل، لأن الأصل: هذي^(٢). قال النحاس^(٣): ولا أعلم في العربية هاء تأنيث مكسوراً ما قبلها إلا هاء «هذه». ومن العرب من يقول: هاتا هند، ومنهم من يقول: هاتي هند.

وحكى سيويه^(٤): هِذْهُ هند، بإسكان الهاء.

وحكى الكسائي عن العرب: «ولا تَقْرَأْ هَٰذِي الشَّجَرَةَ».

وعن شبل بن عباد^(٥) قال: كان ابن كثير وابن مُحَيِّصٍ لا يُشَبِّهُنِ الهاء في «هذه» في جميع القرآن^(٦).

وقراءة الجماعة: «رَعْدًا» بفتح الغين، ورؤي عن ابن وثاب والنخعي أنهما سَكَّنَا الغين^(٧). وحكى سلمة عن الفراء قال: يقال: هذه فعلت، وهذي فعلت، بإثبات ياء بعد الذال، وهِذْ فعلت، بكسر الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء، وهاتا فعلت. قال هشام^(٨): ويقال: تافعلت. وأنشد:

خَلِيلِي لَوْلَا سَاكِنُ الدَّارِ لَمْ أَقِمِ بَيْتَ الدَّارِ إِلَّا عَابَرَ ابْنَ سَبِيلٍ^(٩)
قال ابن الأنباري: و«تا» بإسقاط «ها» بمنزلة «ذي» بإسقاط «ها» من «هذي» وبمنزلة «ذه» بإسقاط «ها» من «هذه». وقد قال الفراء: مَنْ قال: هِذْ قامَتْ، لا يُسْقِطُ «ها»، لأنَّ الاسم لا يكون على ذالٍ واحدة.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢١٣/١.

(٢) وسلف الكلام فيها ص ٤٥٣ - ٤٥٤ في المسألة الثامنة.

(٣) إعراب القرآن ٢١٤/١.

(٤) الكتاب ١٨٢/٤.

(٥) المكي صاحب عبد الله بن كثير المقرئ، مات سنة (١٤٨هـ)، تهذيب الكمال ٣٥٦/١٢.

(٦) قراءة ابن محيصة سلفت ص ٤٥٣ - ٤٥٤، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ أن في بعض روايات ابن كثير: هذي، بالياء.

(٧) المحرر الوجيز ١٢٧/١ وسلفت هذه القراءة ص ٤٥٢.

(٨) ابن معاوية النحوي، سلفت ترجمته ص ٣٠٨.

(٩) البيت من غير نسبة في الزاهر ٢٧٥/١، والمذكر والمؤنث ٢٢٨/١ لابن الأنباري.

﴿فَكُونَا﴾ عطفٌ على «تقربا»، فلذلك حُذفت النون، وزعم الجرمي أن الفاء هي الناصبة، وكلاهما جائز.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: قرأ الجماعة: «فَأَزَلَّهُمَا» بغير ألف، من الزَّلَّة، وهي الخطيئة، أي: استزلَّهما، وأوقعَهما فيه، وقرأ حمزة: «فأزالهما» بألف^(١)، من التَّنحية، أي: نَحَّاهما، يقال: أزلَّته فزال. قال ابن كيسان: فأزالهما، من الزوال، أي: صَرَفَهما عَمَّا كَانَا عَلَيْهِ من الطاعة إلى المعصية.

قلت: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى. يقال منه: أزلَّته فزَلَّ، ودلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَتَرَكْنَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]. والوسوسة إنما هي إدخالهما في الزَّلَلِ بالمعصية، وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله في الزَّلَلِ، فيكون ذلك سبباً إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه.

وقد قيل: إن معنى «أزالهما» مِن: زَلَّ عن المكان: إذا تَنَحَّى، فيكون في المعنى كقراءة حمزة، من الزوال. قال امرؤ القيس:

يُزِلُّ الغَلامَ الخِيفَ عن صَهَوَاتِهِ وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ العَنيفِ المُثَقِّلِ^(٢)
وقال أيضاً:

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عن حال مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمُتَنَزِّلِ^(٣)

(١) السبعة لابن مجاهد ص ١٥٣. والتيسير للداني ص ٧٣.

(٢) ديوانه ص ٢٠، والبيت من معلقته، ورواية الديوان: يُطِيرُ الغَلامَ، وبمثل رواية المصنف رواه ابن الأنباري في شرح القصائد ص ٨٧.

(٣) ديوانه ص ٢٠، والبيت من معلقته كذلك. قال الأعلام الشنمري ١/ ٣٧ كُمَيْت: أحمر اللون، وقيل: أملس المتن سَهْلُهُ، والحال: موضع اللَّبْد من ظهره، والصفواء: الصخرة الملساء، والمتنزل: الموضع المنحدر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جُعِلَ «أزال» من: زال عن المكان، فقوله: «فَأَخْرَجَهُمَا» تأكيد وبيان للزوال، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكانٍ كانا فيه إلى مكانٍ آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان^(١) إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لأنهما خُلِقَا منها، وليكون آدم خليفة في الأرض.

ولم يقصد إبليس - لعنه الله - إخراجَه منها، وإنما قصد إسقاطَه من مرتبته، وإبعاده كما أبعد هو، فلم يبلغ مقصده، ولا أدرك مُرادَه، بل ازداد سُخْنَةً عَيْنٍ^(٢)، وَغَيِظَ نَفْسٍ، وَخَيْبَةَ ظَنٍّ. قال الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفة والجار ﷺ. ونُسب ذلك إلى إبليس، لأنه كان بسببه وإغوائه.

ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّي إغواء آدم، واختلف في الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة^(٣)، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَ النَّصِيعِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، والمقاسمة ظاهرُها المشافهة. وقال بعضهم - وذكره عبد الرزاق^(٤) عن وهب بن مُتَبَّه -: دخل الجنة في فم الحية، وهي ذات أربع كالبُخْتِيَّة^(٥)، من أحسن دابة خلقها الله تعالى، بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان، فلم يُدْخِلْهُ إلا الحية، فلما دخلت^(٦) به الجنة خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها؛ فجاء بها إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حواء، فأكلتها، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كُلْ؛ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُ، فلم يضرني^(٧)، فأكل منها، فبدت لهما سواتهما،

(١) في (ظ): فإنما جاز.

(٢) سُخْنَةُ الْعَيْنِ ضِدُّ قُرَّتِهَا.

(٣) أخرجه الطبري ٥٦٣/١.

(٤) في تفسيره ٢٢٦/٢، والخبر من الإسرائيليات.

(٥) في (د): كالنجية.

(٦) في (ظ): فلما أدخلته.

(٧) في (د): تضرني.

وحصلا في حكم الذنب، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربُّه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا يا رب، قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيي^(١) منك يا رب، قال: اهبط إلى الأرض التي خلقت منها. ولُعنَت الحَيَّةُ، ورُدَّت قوائِمُها في جوفها، وجُعِلَت العداوةُ بينها وبين بني آدم، ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتي بيانه. وقيل لحواء: كما أذميت الشجرة فكَذلك يصيبُك الدَّمُ كلَّ شهرٍ، وتحملين وتضعين كُرْهاً تُشْرِفين به على الموت مراراً^(٢)! زاد الطبري^(٣) والنقاش: وتكوني سَفِيهَةً وقد كنتِ حَلِيمَةً.

وقالت طائفة: إنَّ إبليسَ لم يدخل الجنةَ إلى آدم بعد ما أخرج منها، وإنَّما أغوى بشيطانه وسلطانه ووساوسه^(٤) التي أعطاه الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجْرَى الدَّم»^(٥). والله أعلم.

وسأتي في الأعراف^(٦) أنه لَمَّا أَكَلَ بَقِيَّ عُزْيَانًا، وطلبَ ما يَسْتَرُّ به، فتباعدت عنه الأشجارُ وبَكَتْهُ بالمعصية، فرحمته شجرة^(٧) التين، فأخذَ من ورقه^(٨) فاستتر به، فبُلِيَ بالعُرْيِ دُونَ الشجر^(٩)! والله أعلم.

وقيل: إنَّ الحكمةَ في إخراج آدم من الجنةِ عِمارةُ الدنيا^(١٠).

(١) في (م) أستحي (بياء واحدة) وكلاهما صحيح.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٥٦١-٥٦٢، والخبر من الإسرائيليات الثالفة. قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله في الإسرائيليات في كتب التفسير ص ١٨٠: وسوسة إبليس لآدم لا تتوقف على دخوله في بطن الحية، إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا، ولم تكن لها قوائم كالبعثي، ولا شيء من هذا.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٦٥-٥٦٦، ولكن هذه الزيادة في حديث ابن زيد، وليست في حديث ابن وهب، وينظر المحرر الوجيز ١/ ١٢٨.

(٤) في (د) و(ظ): ووساوسه.

(٥) سلف تخريجه ص ٤٤٩.

(٦) عند تفسير الآية (٢٢).

(٧) في (ز): فرحمه شجر.

(٨) في (ظ): ورقها.

(٩) الخبر من الإسرائيليات، ولا يلتفت إليه.

(١٠) في (د) و(ظ): الأرض.

الثالثة: يُذكر أَنَّ الحيةَ كانت خادِمَ آدَمَ عليه السلام في الجنة، فخانتَه بِأَن مَكَّنَتْ عدُوَّ الله من نفسها، وأظهرتِ العداوةَ له هناك، فلمَّا أَهْبَطُوا تَأَكَّدَتِ العداوةُ، وجُعِلَ رزقُها الترابُ، وقيل لها: أَنْتِ عدُوُّ بني آدَمَ، وهم أعداؤُك، وحيثُ لَقَيْكَ منهم أحدٌ شَدَخَ رَأْسَكَ^(١).

روى ابنُ عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ يقتلُهُنَّ الْمُحْرِمُ»^(٢) فذكر الحيةَ فيهن^(٣).

وروي أَنَّ إبليسَ قال لها: أدخِليني الجنةَ وَأَنْتِ في ذِمَّتِي. فكان ابنُ عباس يقول: أَخْفَرُوا ذِمَّةَ إبليس^(٤).

ورَوَتْ ساكنةُ بنتُ الجَعْدِ، عن سَرَى^(٥) بنتِ نَبْهَانَ العَنَوِيَّةِ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ؛ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، وَأَسْوَدَهَا وَأَبْيَضَهَا، فَإِنَّ مَنْ قَتَلَهَا كَانَتْ لَهُ فِدَاءٌ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَتَلَتْهُ كَانَ شَهِيداً»^(٦).

قال علماؤنا: وإنَّما كانت له فداءٌ من النار لمشاركتها إبليسَ وإعانتَه على ضررِ آدَمَ وولده، فلذلك كان مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ كَافِراً^(٧). وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَداً». أخرجه مسلم^(٨) وغيره.

(١) الخير من الإسرائيليات، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥٠.

(٢) في (د) و(ظ): خمس يقتلن في الحرم.

(٣) ذكره بهذا اللفظ الحكيم الترمذي في نوادره ص ٥٠، وأخرجه أحمد (٤٥٤٣)، والبخاري (١٨٢٨)، ومسلم (١١٩٩)، بنحوه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٥٦٧٨)، ومسلم (١١٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ذكره الحكيم الترمذي ص ٥٠، وأخرجه الطبري في التفسير ١/ ٥٦٦-٥٦٧، وفي إسناده ضعف.

(٥) في (م): سراء، قال الحافظ ابن حجر في التقریب: بفتح أولها وتشديد الراء، مع المد، وقيل القصر، صحابة لها حديث.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤ / (٧٧٩)، (وتحرف فيه ساكنة إلى شاكية) وفيه أحمد بن الحارث الفسائي، قال أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢ / ٤٧: متروك الحديث.

(٧) إشارة إلى حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «من قتل حية فكأنما قتل رجلاً مشركاً قد حلَّ دمه» روي مرفوعاً وموقوفاً، ووقفه أصح كما في المسند (٣٧٤٦).

(٨) برقم (١٨٩١): (١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٩١٦٣).

الرابعة: روى ابنُ جريج، عن عمرو بن دينار، عن أبي عبيدة، عن^(١) عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ بمنى، فمرت حية، فقال رسول الله ﷺ: «اقتلوها». فسبقتنا إلى جحر، فدخلته، فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا بسعةً وناير، فأضرموها عليه ناراً»^(٢).

قال علماؤنا: وهذا الحديث يخص نهيه عليه السلام عن المثلة^(٣)، وعن أن يُعذب أحدٌ بعذاب الله تعالى، قالوا: فلم يُبق لهذا العدو حُرمةً حيث فاتّه، حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدير.

فإن قيل: قد روي عن إبراهيم النخعي أنه كره أن تُحرق^(٤) العقرب بالنار، وقال: هو مُثلة^(٥). قيل له: يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبي ﷺ، وعمل على الأثر الذي جاء أن: «لا تُعذبوا بعذاب الله»^(٦)، فكان على هذا سبيل العمل عنده.

فإن قيل: فقد روى مسلم^(٧) عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في غار وقد أنزلت عليه: ﴿وَأَلْرَسُولُ عَزَّ وَجَلَّ﴾، فنحن نأخذها من فيه رطبة، إذ خرجت علينا حية، فقال: «اقتلوها»، فابتدرناها لنقتلها، فسبقتنا، فقال رسول الله ﷺ: «وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها». فلم يُضرم ناراً، ولا احتال في قتلها؟

قيل له: يحتمل أن يكون لم يجد ناراً فتركها، أو لم يكن الجحر بهيئة يُتفَع بالنار هناك مع ضرر الدخان، وعدم وصوله إلى الحيوان. والله أعلم.

وقوله: «وقاها الله شرّكم» أي: قتلكم إيّاها، «كما وقاكم شرّها» أي: لَسَعَهَا.

(١) في النسخ: بن، وهو خطأ، فالحديث من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، كما في مصادر الحديث.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٤٩)، والنسائي في المجتبى ٢٠٩/٥، وينظر نوادر الأصول ص ٥٠.

(٣) ينظر في مسند أحمد حديث ابن عمر (٤٦٢٢)، وحديث المغيرة بن شعبة (١٨١٥٢).

(٤) في (د) و(ظ): يحرق.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٤١٦).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس.

(٧) في صحيحه (٢٢٣٤)، وأخرجه البخاري كذلك (١٨٣٠)، وهو في المسند (٤٠٦٣).

الخامسة: الأمرُ بقتل الحَيَّات من باب الإرشاد إلى دَفْعِ المَضَرَّةِ المَخُوفَةِ من الحَيَّات، فما كان منها متَحَقِّقُ الضَّرَرِ، وَجَبَتْ المِبادَرَةُ إلى قتلِهِ، لقوله: «اقتلوا الحَيَّات، واقتلوا ذا الطُّفَيْتَيْنِ والأَبْتَرِ، فَإِنَّهُمَا يَخْطِفَانِ البَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ الحَبْلَ»^(١). فخصَّهما بالذكر مع أنَّهما دخلا في العموم، ونَبَّهَ على [أَن] ذلك بسببِ عِظَمِ ضررهما. وما لم يتَحَقَّقْ ضررُهُ؛ فما كان منها في غير البيوت قُتِلَ أيضاً، لظاهر الأمر العام، ولأنَّ نَوْعَ الحيات غالبُه الضَّرَرُ، فيُستَصَحَبُ ذلك فيه، ولأنه كُلُّهُ مُرَوِّعٌ بصورته، وبما في النفوس من الثَّغرةِ عنه، ولذلك قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَحِبُّ الشَّجَاعَةَ ولو على قتل حَيَّة»^(٢). فَشَجَّعَ على قتلها. وقال فيما خرَّجَه أبو داود^(٣) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: «اقتلوا الحَيَّاتِ [كلَّهنَّ]، فمن خاف ثأرهِنَّ فليس مِنِّي». والله أعلم^(٥).

السادسة: ما كان من الحَيَّات في البيوت؛ فلا يُقْتَلُ حتى يُؤَذَّنَ ثلاثةَ أيامٍ، لقوله عليه السلام: «إِنَّ بالمدينةِ جَنًّا قد أسلموا، فإذا رَأَيْتُمْ منهم شيئاً؛ فَادْنُوهُ ثلاثةَ أيامٍ»^(٦). وقد حملَ بعضُ العلماءِ هذا الحديثَ على المدينةِ وحدَّها لإسلام الجنِّ بها؛ قالوا: ولا نعلمُ هل أسلم من جنٍّ غيرِ المدينةِ أحدٌ أم^(٧) لا. قاله ابنُ نافع. وقال مالك: يُنْهَى^(٨)

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣) (١٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وذو الطفيتين: ضرب من الحيات في ظهره خطان أبيضان، وعنهما عبر بالطفيتين، وأصل الطفية: خوص المُقْل، فشبه الخط الذي على ظهر هذه الحية به. المفهم ٥٣٢/٥ - ٥٣٣.

(٢) في (د) و(ظ): عظيم.

(٣) أخرجه مطولاً ابن عدي في الكامل ١٥٠٢/٤، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٧٧/٢ نقلاً عن ابن عدي، ثم قال: لا يصح، عبد الله بن محمد يروي الموضوعات عن الأثبات. وذكر الفتني في تذكرة الموضوعات ص ٦٤ أن الصغاني حكم عليه بالوضع.

(٤) في سننه (٥٢٤٩)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) هذه الفقرة والتي تليها نقلهما المؤلف من شيخه أبي العباس القرطبي من المفهم ٥٣٠/٥ - ٥٣١. وما بين حاصرتين منه.

(٦) سيرد تخريجه في الصفحة ٤٧٠.

(٧) في (م): أو.

(٨) في (م): نهى.

عن قتل جَنَّان^(١) البيوت في جميع البلاد. وهو الصحيح؛ لأنَّ الله عز وجل قال: ﴿وَإِذَا صَرَفْتُمُوهَا فَتَرَأُوهَا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية. وفي «صحيح» مسلم^(٢) عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، وقرأت^(٣) عليهم القرآن»، وفيه: وسألوه الزاد، وكانوا من جن الجزيرة. الحديث. وسيأتي بكماله في سورة الجن إن شاء الله تعالى.

وإذا ثبت هذا؛ فلا يُقتل شيءٌ منها حتى يُحرَّجَ عليه ويُندَر، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

السابعة: روى الأئمة عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة، أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته، قال: فوجدته يصلي، فجلستُ أنتظر^(٤) حتى يقضي صلاته، فسمعتُ تحريكاً في عراجين ناحية البيت، فالتفتُ، فإذا حيَّةٌ، فوثبتُ لأقتلها، فأشار إليَّ أن اجلس، فجلستُ، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلتُ: نعم. فقال: كان فيه فتى منّا حديث عهدٍ بعُرس. قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً، فقال [له] رسول الله ﷺ: «خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قَرْيَظَةً». فأخذ الرجلُ سلاحه ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرُمح^(٥) ليطعنَها به، وأصابته غيرةٌ، فقالت له: اكفُفْ عليك رمحك، وادخل البيتَ حتى تنظرَ ما الذي أخرجني. فدخل، فإذا بحيَّةٍ عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح، فانتظَمَها به، ثم خرج، فركَزه^(٦) في الدار، فاضطربت عليه، فما يُدْرَى^(٧) أيُّهما كان أسرع موتاً، الحيَّةُ أم الفتى! قال: فجننا إلى

(١) في (د) و(ز): حيات، وفي (ظ): الحيات، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المفهم ٥٣١/٥ والجَنَّان بتشديد النون، جمع الجان، حية بيضاء صغيرة دقيقة. المفهم ٥٣٤/٥.

(٢) (٤٥٠): (١٥٠).

(٣) في (م): فقرأت.

(٤) في (م): أنتظره.

(٥) في (م): بالرمح.

(٦) في (ظ): فأركَزه.

(٧) في (د) و(ظ): ندري.

رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادعُ الله يُحييه [لنا]، فقال: «استغفروا لأخيكُم». ثم قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنَّاً قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئاً، فَأَذْنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَأَ لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»^(١).

وفي طريق أخرى: فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْهَا؛ فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثاً، فَإِنْ ذَهَبَ؛ وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ». وقال لهم: «اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ»^(٢).

قال علماؤنا رحمة الله عليهم^(٣): لا يُفْهَمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ هَذَا الْجَانَّ الَّذِي قَتَلَهُ الْفَتَى^(٤) كَانَ مُسْلِمًا، وَأَنَّ الْجِنَّ قَتَلَتْهُ بِهِ قِصَاصًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ سُلِّمَ أَنَّ الْقِصَاصَ مَشْرُوعٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْجِنَّ، لَكَانَ^(٥) إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْعَمْدِ الْمُحَضَّرِ، وَهَذَا الْفَتَى لَمْ يَقْصِدْ وَلَمْ يَتَعَمَّدْ قَتْلَ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَصَدَ إِلَى قَتْلِ مَا سُوِّغَ قَتْلُهُ نَوْعُهُ شَرْعًا، فَهَذَا قَتْلُ خَطَا، وَلَا قِصَاصَ فِيهِ، فَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: إِنَّ كِفَارَ الْجِنَّ - أَوْ فَسَقَتِهِمْ - قَتْلُوا الْفَتَى بِصَاحِبِهِمْ عَدُوًّا^(٦) وَانْتِقَامًا.

وقد قتلَ سعدَ بنَ عُبَادَةَ رضي الله عنه؛ وذلك أَنَّهُ وُجِدَ مَيِّتًا فِي مَغْتَسِلِهِ وَقَدْ اخْضَرَّ جَسَدُهُ، وَلَمْ يَشْعُرُوا بِمَوْتِهِ حَتَّى سَمِعُوا قَائِلًا يَقُولُ وَلَا يَرُونَ^(٧) أَحَدًا:

قَدْ^(٨) قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ رَجِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ
وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْهِ مَنْ فَلَمْ نُخْطِ فَوَادَهُ^(٩)

وإنما قال النبي ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنَّاً قَدْ أَسْلَمُوا» لِيُبَيِّنَ طَرِيقًا يَحْصُلُ بِهِ التَّحَرُّزُ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦): (١٣٩)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) هو عند مسلم أيضاً (٢٢٣٦): (١٤٠).

(٣) قاله أبو العباس القرطبي، في المفهم ٥/٥٣٨.

(٤) في (م): قتله هذا الفتى.

(٥) في النسخ والمفهم: لكن، والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): عدواناً.

(٧) في (د): ولم يرو.

(٨) في (ظ): نحن.

(٩) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/٣٩٠-٣٩١، والاستيعاب (بهاشم الإصابة) ٤/١٥٩.

من قتل المسلم منهم، ويتسلط به على قتل الكافر منهم.

رُوي من وجوه أن عائشة زوج النبي ﷺ قتلَت جَانًا^(١)، فأريَتْ في المنام أن قاتلاً يقول لها: لقد قتلْت مسلماً، فقالت: لو كان مسلماً لم يدخُلْ على أزواج النبي ﷺ. قال: ما دخلَ عليك إلا وعليك ثيابك. فأصبحت فأمرت باثني عشر ألف درهم؛ فجعلت في سبيل الله. وفي رواية: ما دخلَ عليك إلا وأنت مستترَةٌ. فتصدقت^(٢) وأعتقت رقاباً^(٣).

وقال الربيع بن بدر^(٤): الجانُ من الحيَّات التي نهى رسول الله ﷺ عن قتلها هي التي تمشي ولا تلتوي. وعن علقمة نحوه^(٥).

الثامنة: في صفة الإنذار؛ قال مالك: أحبُّ إليَّ أن يُنذَرُوا ثلاثة أيام. وقال^(٦) عيسى بن دينار: وإن ظهرَ في اليوم مراراً، ولا يُقتَصَر على إنذاره ثلاثَ مرارٍ في يوم واحد حتى يكونَ في ثلاثة أيام.

وقيل: يكفي ثلاثَ مرارٍ، لقوله عليه السلام: «فَلْيُؤْذَنُ ثَلَاثًا»، وقوله: «حَرِّجُوا عليه ثلاثاً»، ولأنَّ ثلاثاً للعدد المؤنث، فظهرَ أن المراد ثلاثَ مرَّات.

وقولُ مالكٍ أولى؛ لقوله عليه السلام: «ثلاثة أيام». وهو نصٌّ صحيحٌ مقيدٌ لتلك المُطلقات، ويحمل «ثلاثاً» على إرادة ليالي الأيام الثلاث، فغلبَ الليلة على عادة العرب في باب التاريخ، فإنها تُغلبُ فيها التانيث.

قال مالك: ويكفي في الإنذار أن يقول: أخرجُ عليك بالله واليوم الآخر ألا تَبْدُوا لنا، ولا تُؤْذِنَا^(٧).

(١) في (ز): جناناً، وفي (ظ): جنأ.

(٢) في النسخ: فصدقت، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧٧/١١، والحاثر في مسنده (٤١٩) (زوائد)، وأبو نعيم في الحلية ٤٩/٢، وابن عبد البر في التمهيد ١١٨/١١.

(٤) لعله ابن عمرو، أبو العلاء البصري، الملقب غليلة، مات سنة (١٧٨هـ)، من رجال التهذيب، ضعيف.

(٥) ذكر القولين الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥١.

(٦) في (ز) و(م): وقاله، والمثبت من (د) و(ظ) والمفهم.

(٧) المفهم ٥٣٨/٥.

وذكر ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه ذَكَرَ عنده حياتُ البيوت، فقال: إذا رأيتم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا: أنشدكم بالعهد الذي أخذَ عليكم نوحٌ عليه السلام، وأنشدكم بالعهد الذي أخذَ عليكم سليمانُ عليه السلام، فإذا رأيتم منهم شيئاً بعدُ، فاقتُلوه^(١).

قلتُ: وهذا يدلُّ بظاهره أنه يكفي في الإذن مرَّةً واحدةً، والحديثُ يرُدُّه. والله أعلم. وقد حكى ابنُ حبيب عن النبي ﷺ أنه يقول: «أنشدكنَّ بالعهد الذي أخذَ عليكم سليمانُ عليه السلام ألا تؤذِيننا، وألا تَظْهَرْنَ علينا»^(٢).

التاسعة: روى جُبَيْرُ بنُ^(٣) نَفيِر، عن أبي ثعلبة الخُشَنِي - واسمه جُرْثُوم - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الجنُّ على ثلاثة أثلاث: فثلثٌ لهم أجنحةٌ يطيرُونَ في الهواء، وثلثٌ حياتٌ وکلابٌ، وثلثٌ يَحْلُونَ^(٤) وَيَظْعَنُونَ»^(٥).

وروى أبو الدرداء - واسمه عُوَيْمِر - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خُلِقَ الجنُّ ثلاثةَ أثلاث: فثلثٌ كلابٌ وحياتٌ وخشاشُ الأرض، وثلثٌ رِيحٌ هَفَافَةٌ، وثلثٌ كَبَنِي آدَمَ، لهم الثوابُ وعليهم العقابُ، وَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَ ثلاثةَ أثلاثٍ: فثلثٌ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، وأعينٌ لا يُنْصِرُونَ بها، وأذانٌ لا يسمعونَ بها، إنَّهم إلا كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً، وثلثٌ أجسادُهم كأجسادِ بني آدَمَ، وقلوبُهم قلوبٌ^(٦) الشياطين، وثلثٌ في ظلِّ الله يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه»^(٧).

العاشرة: ما كان من الحيوان أصله الإذابة، فإنه يُقتلُ ابتداءً؛ لأجل إذايته من غير

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) المقهم ٥٣٨/٥ - ٥٣٩.

(٣) في (م): عن، وهو خطأ.

(٤) في (د): يرتحلون.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/٢٦٥، والاستذكار ٢٧/٢٦٠ - ٢٦١، وقال عقبه: وهذا إسناد

جيد، رواه أئمة ثقات.

(٦) في (ز) و(ظ): كقلوب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/٢٦٦ - ٢٦٧، وذكر ابن عبد البر أن حديث أبي ثعلبة (السالف

قبله) خير منه إسناداً.

خِلاف، كالحَيَّة، والعقرب، والفأر^(١)، والوَزَغ، وشَبَّهه. وقد قال رسول الله ﷺ: «خمسٌ فواسقٌ يقتلن في الحِلِّ والحَرَمِ»^(٢). وذكر الحديث.

فالحَيَّةُ أبدتْ جوهرَها الخبيثَ حيث خانت آدمَ بأن أدخلت إبليسَ^(٣) الجنةَ بين فكيها، ولو كانت تُبرِزه ما تركها^(٤) رضوانٌ تدخلُ به، وقال لها إبليسُ: أنتِ في ذِمَّتِي^(٥)، فأمر رسول الله ﷺ بقتلها، وقال: «اقتُلوها ولو كنتم في الصلاة»^(٦) يعني: الحيةَ والعقربَ.

والوَزَغَةُ نفخت على نارِ إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدوابِّ فُلِعَتْ، وهذا من نوع ما يُروى^(٧) في الحية^(٨). وروى عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ كَافِرًا»^(٩). وفي «صحيح» مسلم^(١٠)، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ، كُتِبَتْ لَهُ مِثَّةٌ حَسَنَةٌ، وَفِي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ، وَفِي الثَّالِثَةِ دُونَ ذَلِكَ» وفي روايةٍ أنه قال: «فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ سَبْعِينَ»^(١١) حَسَنَةً.

والفأرةُ أبدتْ جوهرَها بأن عمَدَت إلى حبالِ سفينة نوح عليه السلام، فقطعتها^(١٢). وروى عبد الرحمن بنُ أبي نُعْمٍ^(١٣)، عن أبي سعيد الخُدْري أن رسول الله ﷺ قال:

(١) في (ظ): والفأرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨) (٦٧) من حديث عائشة.

(٣) في (د): دخلت إبليس.

(٤) في النسخ: تركه، والمثبت من (م).

(٥) تفسير الطبري ٥٦٦/١، والخبر من الإسرائيليات، ولا يلتفت إليه.

(٦) أخرجه الحاكم ٢٧٠/٤، والبيهقي ٢٧٢/٧ من حديث ابن عباس.

(٧) في (د) و(ز): روي.

(٨) أخرج البخاري (٣٣٥٩)، ومسلم (٢٢٣٧) من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الأوزاغ. وقال: «كَانَ يَنْفَخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

(٩) سلف ص ٤٦٦ بلفظ: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً، وَأَنْ وَقَفَهُ أَصَح.

(١٠) (٢٢٤٠): (١٤٧).

(١١) في (م): «سبعون».

(١٢) تاريخ الطبري ١٨١/١، ونوادير الأصول ص ١٣١، والخبر من الإسرائيليات.

(١٣) في النسخ: نعيم، وهو خطأ.

«يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ الْحَيَّةَ، وَالْعَقْرَبَ، وَالْحِدَاةَ وَالسَّبْعَ الْعَادِيَّ، وَالْكَلْبَ الْعَقُورَ، وَالْفُؤَيْسِقَةَ». واستيقظ رسول الله ﷺ وقد أَخَذَتْ فِتِيلَةً لِتَحْرِقَ الْبَيْتَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِهَا^(١).

والغراب أبدى جَوْهَرَهُ حَيْثُ بَعَثَهُ نَبِيُّ اللَّهِ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَرْضِ، فَتَرَكَ أَمْرَهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى جِيفَةٍ^(٢).

هذا كُلُّهُ فِي مَعْنَى الْحَيَّةِ، فَلِذَلِكَ ذَكَرْنَاهُ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا الْبَابِ مَزِيدُ بَيَانٍ فِي التَّعْلِيلِ فِي الْمَائِدَةِ وَغَيْرِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سَبْعُ^(٤) مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا﴾ حُذِفَتِ الْأَلْفُ مِنْ «أَهْبَطُوا» فِي اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهَا أَلْفٌ وَصَلْ، وَحُذِفَتِ الْأَلْفُ مِنْ «قُلْنَا» فِي اللَّفْظِ لِسُكُونِهَا وَسُكُونِ الْهَاءِ بَعْدَهَا. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ مَصْفًى^(٥) عَنْ أَبِي حَيَوَةَ ضَمَّ الْبَاءَ فِي «أَهْبَطُوا»^(٦)، وَهِيَ لُغَةٌ يُقَوِّيْهَا^(٧) أَنَّهُ غَيْرُ مُتَعَدٍّ، وَالْأَكْثَرُ فِي غَيْرِ الْمُتَعَدِّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى يَفْعُلْ.

وَالْخَطَابُ لِآدَمَ وَحَوَاءَ وَالْحَيَّةِ وَالشَّيْطَانِ فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٨)، وَقَالَ الْحَسَنُ: آدَمُ وَحَوَاءُ وَالْوَسْوَسةُ^(٩)، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ أَيْضاً: بَنُو آدَمَ وَبَنُو إِبْلِيسَ^(١٠).

(١) أخرجه أحمد (١١٧٥٥)، وأبو داود (١٨٤٨)، والترمذي (٨٣٨)، وابن ماجه (٣٠٨٩)، وفي الباب عن ابن عمر أخرجه أحمد (٤٤٦١)، والبخاري (١٨٢٧)، ومسلم (١١٩٩)، وعن جابر أخرجه البخاري (٣٣١٦)، وعن عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٤٠٥٢)، والبخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٨١، ونوادر الأصول ص ١٣٢، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) في تفسير الآية (٩٥) من سورة المائدة.

(٤) في (ظ): تسع.

(٥) أبو عبد الله القرشي، الحافظ، عالم أهل حمص، العبد الصالح، مات سنة (٢٤٦هـ). السير ٩٤/ ١٢.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٩. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦ لقوله تعالى: ﴿أَهْبَطُوا بِبَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وليس لهذه الآية (٦١)، وزاد نسبتها للحسن.

(٧) في (د): يقرأ بها.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٣، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٢٩ عن السدي.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ١٢٩.

(١٠) قول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٣، وقول الحسن ذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ١٠٨.

والهبوط: النزول من فوق إلى أسفل، فأهبط آدمَ بَسْرَنَدِيْبَ في الهند بجبل يقال له: «نُوذ»^(١)، ومعه ريحُ الجنة، فعَلِقَ بشجرها وأوديتها، فامتلاً ما هنالك طيباً، فمن ثَمَّ يُؤْتَى بالطَّيْب من ريح آدمَ عليه السلام. وكان السحابُ يمسحُ رأسَه فأصلع، فأورث ولده الصَّلَعُ^(٢)!

وفي البخاري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدمَ وطولُه ستون ذراعاً» الحديث. وأخرجه مسلم وسيأتي^(٣). وأهبطت حواء بجُدَّة، وإبليس بالأُبْلَة، والحيَّة بَيْنَسَان، وقيل: بِسَجِسْتَان، وسجستان أكثرُ بلاد الله حيا، ولولا العِرْبُدُ الذي يأكلها ويُفني كثيراً منها، لأُخْلِيت سجستانُ من أجل الحيات. ذكره أبو الحسن المسعودي^(٤).

الثانية: قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ «بعضكم» مبتدأ، «عدو» خبره، والجملة في موضع نصبٍ على الحال، والتقدير: وهذه حالكم. وحُذفت الواو من: وبعضكم؛ لأنَّ في الكلام عائداً، كما يقال: رأيتك السماء تمطر عليك.

والعدو: خلاف الصديق، وهو من: «عدا»: إذا ظَلَم، وذنب عدوان: يَغْدُو على الناس، والعدوان: الظلم الصُّراح. وقيل: هو مأخوذٌ من المجاوزة؛ من قولك: لا يَغْدُوك هذا الأمر؛ أي: لا يتجاوزك، وعداء: إذا جاوزه، فسُمِّيَ عدواً لمجاوزة الحدِّ في مكروه صاحبه؛ ومنه العَدُوُّ بِالْقَدَمِ لمجاوزة المَشْيِ^(٥)، والمعنيان متقاربان، فإنَّ من ظَلَم فقد تجاوز^(٦).

(١) في النسخ الخطية: بود، وفي (م): بوذ. وهي بفتح النون وسكون الواو وبالذال المعجمة. كما قيدها ياقوت في معجم البلدان ٣١٠/٥.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٥/١ مطولاً. وفي إسناده الكلبي، وهو متهم بالكذب.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٦)، وصحيح مسلم (٢٨٤١). وهو في مستند أحمد (٨١٧١)، وسيرد في تفسير الآية (٨٦) من سورة النساء، والآية (٧) من سورة الفجر.

(٤) مروج الذهب ٦٠/١. والعِرْبُدُ: نوع من الحيات. الحيوان للجاحظ ٢١/٦، ٣٣، ٤٧٣. وأبو الحسن المسعودي: هو علي بن الحسين، البغدادي، كان معتزلياً، توفي سنة (٣٤٥هـ). السير ٥٦٩/١٥.

(٥) في (م) و(د) و(ز): «الشيء»، والمثبت من (ظ).

(٦) مجمل اللغة: (عدا).

قلت: وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ على الإنسان نفسه، وفيه بُعد، وإن كان صحيحاً معنًى، يدلُّ عليه قوله عليه السلام: «إنَّ العبدَ إذا أَصْبَحَ تقول جوارحه للسانه: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنك إن^(١) استقممت استقمنا، وإن اغوججت اغوججنا»^(٢).

فإن قيل: كيف قال: «عدو»، ولم يقل: أعداء؟ ففيه جوابان:

أحدهما: أن «بَعْضاً» و«كُلّاً» يُخْبَرُ عَنْهُمَا بِالوَاحِدِ عَلَى اللَّفْظِ وَعَلَى الْمَعْنَى، وذلك في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] على اللفظ، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَى ذَخِيرٍ﴾ [النمل: ٨٧] على المعنى.

والجواب الآخر: أن عدواً يُفْرَدُ فِي مَوْضِعِ الْجَمْعِ، قال الله عز وجل: ﴿مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] بمعنى أعداء، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال ابن فارس^(٣): العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يُجْمَعُ.

الثالثة: لم يكن إخراجُ الله تعالى آدمَ من الجنة وإهباطه منها عقوبةً له؛ لأنه أهبّطه بعد أن تابَ عليه وقَبِلَ توبته، وإنما أهبّطه إما تأديباً، وإما تغليظاً للمِحنة، والصحيحُ في إهباطه وسُكْناءه في الأرض ما قد ظهرَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْأَزَلِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ نَشْرُ نَسْلِهِ فِيهَا لِيُكَلِّفَهُمْ وَيَمْتَحِنَهُمْ، وَيُرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابُهُمْ وَعِقَابُهُمُ الْآخِرِيُّ، إِذِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ لَيْسَتَا^(٤) بدارِ تَكْلِيفٍ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْأَكْلَةُ سَبَبَ إِهْبَاطِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَقَدْ قَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وَهَذِهِ مَنَقِبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفَضِيلَةٌ كَرِيمَةٌ شَرِيفَةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا مَعَ أَنَّهُ خُلِقَ مِنَ الْأَرْضِ^(٥). وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّمَا أِهْبَطَهُ بَعْدَ أَنْ تَابَ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ ثَانِيَةً: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ وسياأتي.

(١) في (م): إذا.

(٢) أخرجه أحمد (١١٩٠٨)، والترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) مجمل اللغة: (عدو).

(٤) في النسخ: ليست، والمثبت من (م).

(٥) ص ٤١٧.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْقَرٌ﴾ ابتداءً وخبر، أي: موضع استقرار. قاله أبو العالية وابنُ زيد. وقال السُّدِّي: «مُسْقَرٌ» يعني القبور^(١).

قلت: وقولُ الله تعالى: ﴿جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا﴾ [المؤمن: ٦٤] يحتملُ المعنيين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعَ﴾ المتاع: ما يُسْتَمْتَع به من أكلٍ ولُبْسٍ، وحياة وحديث، وأنس، وغير ذلك، ومنه سُمِّيَت مُتعة النكاح، لأنها يُتَمَتَّع^(٢) بها. وأنشد سليمان بنُ عبد الملك^(٣) حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقفرةٍ متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقٍ^(٤)
السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ اختلف المتأولون في الحين على أقوال: فقالت فرقةٌ: إلى الموت. وهذا قولٌ من يقول: المستقرُّ هو المقام في الدنيا. وقيل: إلى قيام الساعة. وهذا قولٌ من يقول: المستقرُّ هو القبر^(٥). وقال الربيع: «إلى حين»: إلى أجل^(٦).

والحين: الوقت البعيد، فحينئذ: تبعيدٌ من قولك: الآن. قال خويلد^(٧):

كأبي الرِّمَادِ عَظِيمُ الْقَدْرِ جَفَنَتْهُ حِينَ الشَّتَاءِ كَحَوْضِ الْمُنْهَلِ اللَّقِيفِ^(٨)

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره ٥٧٥/١.

(٢) في (د): تمتع، وفي (ز): تنتفع، وفي (ظ): تنتفع، والمثبت من (م).

(٣) ابن مروان بن الحكم، أبو أيوب، الخليفة الأموي، بُويِع بعد أخيه الوليد سنة (٩٦هـ)، كان ديناً فصيحاً عادلاً، واستخلف بعده عمر بن عبد العزيز، مات سنة (٩٩هـ). السير ١١١/٥.

(٤) البيان والتبيين ٥٩/٤، والكامل للمبرد ١٤١٨/٣. وفي البيان والتبيين: «وقوف» بدل: «وقفت»، وفيهما: «مقيم» بدل: «غريب».

(٥) في (م): القبور.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٥٧٨/١.

(٧) هو خويلد بن مرة، أبو خراش الهذلي.

(٨) البيت في الصحاح (لقف) و(حين)، وفي ديوان الهذليين ١٥٦/٢، والاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤، والرواية فيهما: «عند الشتاء».

لَقِفَ الحَوْضُ لَقْفًا، أي: تهوّر من أسفله واتّسع، يقال: فلان كابي الرّماد، أي: عظيم الرماد ينهال^(١).

وربّما أدخلوا عليه التاء. قال أبو وجزة:

العاطفون تحين ما من عاطف والمُطعمون زمان أين المُطعم^(٢)
والحين أيضاً: المدة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الدهر: ١]. والحين: الساعة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ [الزمر: ٥٨]. قال ابن عرفة^(٣): الحين: القطعة من الدهر، كالساعة فما فوقها. وقوله: ﴿فَذَرْنَاهُ فِي غَرَابَةٍ حَقٍّ حِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي: حتى تفتنى آجالهم. وقوله تعالى: ﴿تَوَقَّ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. أي: كل سنة، وقيل: بل كل ستة أشهر، وقيل: بل غُدوة وعشيّا.

قال الأزهري^(٤): الحين: اسم كالوقت، يصلح لجميع الأزمان كلها، طالت أو^(٥) قصّرت. والمعنى أنه يُتَمَعُّ بها كل^(٦) وقت، ولا ينقطع نفعها البتّة. قال: والحين يوم القيامة.

والحين: الغُدوة والعشيّة، قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. ويقال: عاملته مُحَايِنَةً، من الحين. وأحيئت بالمكان: إذا

(١) قوله: يقال: فلان كابي الرماد... من (ز)، وهو في الصحاح (كبي). وقوله: المُنْهَل، يعني الذي قد أنهل إبله، أي سقاها أول سقية. قاله ابن دريد.

(٢) البيت في الصحاح: (حين)، والإنصاف ١/١٠٨، والشرط الأول منه في مجالس ثعلب ١/٣٧٤. وهو من قصيدة مدح بها أبو وجزة السعدي آل الزبير بن العوام، لكنه مركب من مصراعي بيتين. الخزائن ٤/١٧٥ - ١٧٩. وأبو وجزة: هو يزيد بن عبيد، السعدي، المدني، الشاعر، ثقة، مات سنة (١٣٠هـ). تقريب التهذيب.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان، أبو عبد الله، الحافظ النحوي، الأخباري، المشهور بنفطويه، توفي سنة (٣٢٣هـ). السير ١٥/٧٥.

(٤) تهذيب اللغة ٥/٢٥٥. والأزهري إنما ينقل عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/١٦١، وتفسير الحين بيوم القيامة نقله الأزهري عن الليث.

(٥) في (د) و(ظ): أم.

(٦) في (م): في كل.

أَقَمْتَ بِهِ حِينًا. وَحَانَ حِينٌ كَذَا، أَي: قُرْب. قَالَتْ بُثَيْنَةُ^(١):

وَلِنْ سُلُوبِي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةً مِنْ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلَا حَانَ حِينُهَا
السَّابِغَةُ: لَمَّا اخْتَلَفَ أَهْلُ اللِّسَانِ فِي الْحِينِ اخْتَلَفَ فِيهِ أَيْضًا عُلَمَاؤُنَا وَغَيْرُهُمْ:
فَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْحِينُ حِينَانِ: حِينٌ لَا يُوقَفُ عَلَى حَدِّهِ، وَالْحِينُ الَّذِي ذَكَرَهُ^(٢) اللَّهُ جَلَّ
ثَنَاؤُهُ: ﴿تَوَقَّ أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٣): الْحِينُ الْمَجْهُولُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ، وَالْحِينُ الْمَعْلُومُ هُوَ الَّذِي
تَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَحْكَامُ، وَيَرْتَبِطُ بِهِ التَّكْلِيفُ، وَأَكْثَرُ الْمَعْلُومِ سِتَّةٌ، وَمَالِكٌ يَرَى فِي الْأَحْكَامِ
وَالْإِيمَانِ أَعَمَّ الْأَسْمَاءِ وَالْأَزْمَنَةِ، وَالشَّافِعِيُّ يَرَى الْأَقْلَّ، وَأَبُو حَنِيفَةَ تَوَسَّطَ، فَقَالَ:
سِتَّةَ أَشْهُرٍ. وَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ؛ لِأَنَّ الْمُقَدَّرَاتِ عِنْدَهُ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا^(٤)، وَلَيْسَ فِيهِ نَصٌّ عَنْ
صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ^(٥)، وَإِنَّمَا الْمَعْوَلُ عَلَى الْمَعْنَى بَعْدَ مَعْرِفَةِ مَقْتَضَى اللَّفْظِ لُغَةً، فَمَنْ نَذَرَ
أَنْ يُصَلِّيَ حِينًا، فَيُحْمَلُ عَلَى رَكْعَةٍ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ؛ لِأَنَّهُ أَقْلُ النَّافِلَةِ، قِيَاسًا عَلَى رَكْعَةِ
الْوُتْرِ، وَقَالَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ: أَقْلُ النَّافِلَةِ رَكْعَتَانِ، فَيَتَقَدَّرُ الزَّمَانُ بِتَقْدِيرِ^(٦) الْفَعْلِ.

وَذَكَرَ ابْنُ خُوَزَيْمَنَدَادٍ فِي «أَحْكَامِهِ»: أَنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَ فَلَانًا حِينًا، أَوْ لَا
يَفْعَلُ كَذَا حِينًا، أَنَّ الْحِينَ سِتَّةٌ. قَالَ: وَاتَّفَقُوا فِي الْأَحْكَامِ أَنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَفْعَلَ كَذَا
حِينًا، أَوْ لَا يُكَلِّمَ فَلَانًا حِينًا، أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى سِتَّةٍ لَمْ تَدْخُلْ فِي يَمِينِهِ.

قُلْتُ: هَذَا الْإِتْفَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْمَذْهَبِ. قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ حَلَفَ أَلَّا
يَفْعَلَ شَيْئًا إِلَى حِينٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ ذَهْرٍ، فَذَلِكَ كُلُّهُ سِتَّةٌ. وَقَالَ عَنْهُ ابْنُ وَهْبٍ: إِنَّهُ شَكَّ
فِي الدَّهْرِ أَنْ يَكُونَ سِتَّةً. وَحَكَى ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ يَعْقُوبَ وَابْنِ الْحَسَنِ^(٧): أَنَّ الدَّهْرَ

(١) هِيَ بَثِينَةُ بِنْتُ حَبِيبِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، صَاحِبَةُ جَمِيلٍ، وَقَصَّتْهُمَا مَعْرُوفَةُ، الْأَغَانِي ٩٢/٨. وَابْنُ بَيْتٍ قَالَتْ تَرَنِّي
جَمِيلًا، وَهُوَ فِي الْأَضْدَادِ ص ٢٤٤، وَالصَّحَاحُ: (حِينٌ)، وَالْأَغَانِي ١٥٤/٨.

(٢) فِي (د) وَ(م): ذَكَرَ.

(٣) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ ١١٠٨/٣.

(٤) فِي (ظ): فِيهِ قِيَاسًا.

(٥) فِي (د): الشَّرْعُ.

(٦) فِي (م): بِقَدَرِ.

(٧) يَعْنِي أَبَا يُوسُفَ وَمُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ صَاحِبِي أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

سته أشهر^(١). وعن ابن عباس وأصحاب الرأي وعكرمة وسعيد بن جبير وعامر الشَّعْبِيّ وَعَبِيدَةُ في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّىٰ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أنه ستة أشهر^(٢). وقال الأوزاعي وأبو عبيد: الحينُ ستة أشهر. وليس عند الشافعي في الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية، قد يكون الحينُ عنده مدة الدنيا. وقال: لا نُحْنِثُهُ أَبَدًا، والْوَرَعُ أن يقضيه قبل انقضاء يوم. وقال أبو ثور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جثُّ من حين، ولعلَّه لم يجئ من نصف يوم^(٣).

قال الكيَّا الطبريُّ الشافعي^(٤): وبالجمله، الحينُ له مصارف، ولم ير الشافعي تعيينَ محمَلٍ من هذه المحامل، لأنه مجمل^(٥) لم يوضع في اللغة لمعنى معين.

وقال بعضُ العلماء^(٦): في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حِينٌ﴾ فائدةٌ بِشَارَةٍ لآدَمَ عليه السلام^(٧)، ليعلم أنه غيرُ باقي فيها، ومنتقلٌ إلى الجنة التي وعِدَ بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالةٌ على المعاد فحسب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ تَلَقَّى؛ قيل: معناه: فَهِمَ وَفَطِنَ. وقيل: قَبِلَ وَأَخَذَ، وكان عليه السلام يتلقى الوحي، أي: يستقبله ويأخذه ويتلقَّفه^(٨). تقول: خرجنا نتلقى الحجيج، أي: نستقبلهم.

(١) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٢٦٣/٣.

(٢) تفسير الطبري ٦٤٨٦٤٦/١٣، والمحلّى ٥٨/٨. وعبيدة: هو ابن عمرو السلماني.

(٣) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٢٦٣/٣، والمحلّى ٥٩٥٨/٨، والمغني لابن قدامة ٥٧٢/١٣.

(٤) علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الهراسي، شيخ الشافعية، مدرس النظامية إلى أن مات سنة (٥٠٤هـ). السير ٣٥٠/١٩. وكلامه في أحكام القرآن ٢٣٨/٢.

(٥) في (د): محل، وفي (ز) و(ظ): محمل.

(٦) المحرر الوجيز ١٣٠/١.

(٧) في (د) و(م): إلى آدم، ولفظه «بشارة» ليست في (ز).

(٨) في (د) و(ظ): ويتلقفه.

وقيل : معنى تَلَقَّى : تَلَقَّنَ. وهذا في المعنى صحيحٌ، ولكن لا يجوز أن يكون التَلَقَّى مِنَ التَلَقَّنِ في الأصل؛ لأنَّ أحدَ الحرفين إنما يُقلبُ ياءً إذا تجانسا، مثل : تَطَنَّى مِنْ تَطَنَّنَ، وتَقَصَّى مِنْ تَقَصَّنَ، ومثله : تَسَرَّيْتُ مِنْ : تَسَرَّرْتُ، وأَمَلَيْتُ مِنْ : أَمَلَلْتُ، وشِبْهُ ذلك، ولهذا لا يقال : تَقَبَّيْتُ مِنْ تَقَبَّلَ، ولا تَلَقَّيْتُ مِنْ تَلَقَّنَ، فاعلم.

وَحَكَى مَكِّيُّ أَنَّهُ أَلْهِمَهَا فَاثْنَعَ بِهَا^(١). وقال الحسن : قبولُها : تعلُّمُها لها، وعملُها بها.

الثانية : واختلفَ أهلُ التأويلِ في الكلمات : فقال ابنُ عباسٍ والحسنُ وسعيد بنُ جبَّير والضَّحَّاك ومجاهد : هي قوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣]^(٢).

وعن مجاهد أيضاً : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبِّي، ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(٣).

وقالت طائفةٌ : رأى مكتوباً على ساقِ العرش : محمد رسول الله، فتشَفَّعَ بذلك^(٤)، فهي الكلمات. وقالت طائفةٌ : المرادُ بالكلمات : البكاءُ والحياءُ والدعاء. وقيل : الندمُ والاستغفار والحزن.

قال ابن عطية^(٥) : وهذا يقتضي أنَّ آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود. وسُئِلَ بعضُ السلف عما ينبغي أن يقولَه المذنب، فقال : يقول ما قاله أبواه : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية. وقال موسى : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص : ١٦]. وقال يونس : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧].

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣٠.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الثعلبي وابن المنذر فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٩، وقول سعيد بن جبَّير أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٣٦، وقول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٨٤-٥٨٦، وابن أبي حاتم ١/ ١٣٦، وقول الضحَّاك أخرجه عبد بن حميد فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٨٥، وابن أبي حاتم ١/ ١٣٧.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٦١٥ من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، وصححه، وتعبَّه الذهبي بقوله : بل موضوع.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

وعن ابن عباس وَوَهَبَ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّ الْكَلِمَاتِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاعْفُ رِغْلِي ، إِنَّكَ ^(١) خَيْرُ الْغَافِرِينَ ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَتُبَّ عَلَيَّ ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(٢) .

وقال محمد بنُ كعب ^(٣) : هِي قَوْلُهُ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَتُبَّ عَلَيَّ ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ ^(٤) الرَّاحِمِينَ ^(٥) .

وقيل : الْكَلِمَاتُ : قَوْلُهُ حِينَ عَطَسَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

وَالْكَلِمَاتُ : جَمْعُ كَلِمَةٍ ، وَالْكَلِمَةُ تَقَعُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ^(٦) .

الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أَي : قَبْلَ تَوْبَتِهِ ، أَوْ : وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ عَاشُورَاءَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ ، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَتَابَ الْعَبْدُ : رَجَعَ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ، وَعَبْدٌ تَوَّابٌ : كَثِيرٌ ^(٧) الرُّجُوعِ إِلَى الطَّاعَةِ ، وَأَصْلُ التَّوْبَةِ : الرُّجُوعُ ، يُقَالُ : تَابَ وَتَابَ ، وَأَبَّ وَأَنَابَ : رَجَعَ .

الرَّابِعَةُ : إِنْ قِيلَ : لِمَ قَالَ : « عَلَيْهِ » ، وَلَمْ يَقُلْ : عَلَيْهِمَا ، وَحَوَاءَ مُشَارَكَةٍ لَهُ فِي الذَّنْبِ بِإِجْمَاعٍ ، وَقَدْ قَالَ : ﴿ وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ وَ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [الْأَعْرَافُ : ٢٣] ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خُوطِبَ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ بِقَوْلِهِ : « اسْكُنْ خَصَّهُ »

(١) فِي (ظ) : يَا خَيْرَ .

(٢) قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرَ بَنَحْوِهِ فِيمَا ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْتُورِ ٦٠ / ١ .

(٣) أَبُو حَمْزَةَ ، وَقِيلَ : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْظِيُّ ، كَانَ كَثِيرَ الْحَدِيثِ ، عَالِمًا بِالْقُرْآنِ ، مَاتَ سَنَةَ (١٠٨ هـ) ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ . السَّيَرُ ٦٦ / ٥ .

(٤) فِي (د) وَ(م) : إِنَّكَ أَرْحَمُ .

(٥) ذَكَرَهُ مُخْتَصَرُ الْبَغْوِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ ٦٥ / ١ .

(٦) ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٧) فِي (ظ) : كَثِيرَ التَّوْبَةِ كَثِيرَ الرُّجُوعِ .

بالذكر في التلقي، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً؛ فلأن المرأة حُرمة ومستورة، فأراد الله السَّتر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١) [طه: ١٢٢]، وأيضاً لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تُذكر^(٢)، كما لم يُذكر فتى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَزَّ أَقْلَ لَكَ﴾ [الكهف: ٧٥].

وقيل: إنه دلَّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها^(٣)، إذ أمرهما سواء. قاله الحسن.

وقيل: إنه مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] أي: التجارة؛ لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها، ولم يقل: إليهما، والمعنى متقارب. وقال الشاعر:

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَالِدِي بَرِيئاً وَمِنْ فَوْقِ الطَّوِيِّ رَمَانِي^(٤)
وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٤]، فحذف إيجازاً واختصاراً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُّ الرَّحِيمُ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التَّوَّابُّ، وتكرَّر في القرآن معرِّفاً ومنكِّراً، واسماً وفِعْلاً، وقد يُطلق على العبد أيضاً تَوَّابٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَّهِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الربِّ سبحانه بأنه تَوَّابٌ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يجوزُ في حقِّ الربِّ سبحانه وتعالى، فيُدعى به، كما في الكتاب والسُّنة، ولا يُتَأَوَّل.

وقال آخرون: هو وصفٌ حقيقيٌّ لله سبحانه وتعالى، وتوبَةُ الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة.

(١) المحرر الوجيز ١/١٣١.

(٢) الكشف للزمخشري ١/٢٧٤.

(٣) في (د) و(ظ): عليهما.

(٤) البيت لعمر بن أحمد الباهلي، وهو من شواهد سيبويه ١/٧٥، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٩٣٦/٢، والرواية فيها: ومن أجل الطوي، وذكره ابن منظور في اللسان (جول) وفيه: ومن جُولِ الطَّوِيِّ. والجُول - بالضم - جدار البئر. وانظر شرح شواهد الكتاب للشتمري ص ٩٨. قوله: الطوي: هي البئر المطوية بالحجارة.

وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله^(١) توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: قبلتُ توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة.

السادسة: لا يجوز أن يُقال في حق الله تعالى: تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه، أو نبئيه عليه السلام، أو جماعة المسلمين، وإن كان في اللغة محتملاً جائزاً. هذا هو الصحيح في هذا الباب، على ما بيناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]. وإنما قيل لله عز وجل: تَوَّابٌ، لمبالغة الفعل، وكثرة قبوله توبة عباده، لكثرة من يتوب إليه.

السابعة: إعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال، خلافاً للمعتزلة ومن قال بقولهم، وكذلك^(٢) ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه، ولا أن يعفو عنه.

قال علماؤنا: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله جلَّ وعزَّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الخبر أو الراهب، فيعطيه شيئاً، ويحط عنه ذنوبه، افتراء على الله، قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين.

الثامنة: قرأ ابن كثير: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، والباقون برفع «آدم» ونصب «كلمات»^(٣)، والقراءتان ترجعان^(٤) إلى معنى، لأنَّ آدم إذا تلقى الكلمات، فقد تلقَّته.

(١) في (د): قبول.

(٢) في (ظ): وكذا.

(٣) السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ١٥٣، والحجة في القراءات للفارسي ٢٣/٢ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز): ترجع، وفي (ظ): يرجع، والمثبت من (م).

وقيل : لَمَّا كانت الكلماتُ هي المُنْقِذَةُ لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها ، كانت الكلماتُ فاعلةً ، وكأنَّ الأصلَ على هذه القراءة : «فَتَلَقَّتْ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ» ، لكن لَمَّا بَعُدَ ما بين المؤنث وفعله ، حَسُنَ حذفُ علامة التانيث ، وهذا أصلٌ يجري في كلِّ القرآن والكلام ؛ إذا جاء فعلُ المؤنث بغير علامة ، ومنه قولهم : حضر القاضي اليوم امرأةٌ. وقيل : إِنَّ الكلماتَ لَمَّا لم يكن تانيثه^(١) حقيقياً ، حُمِلَ على معنى الكلام ، فذُكِرَ.

وقرأ الأعمش : «آدَمُ مِنْ رَبِّهِ» مدغمًا^(٢).

وقرأ أبو نؤفل بنُ أبي عَقْرَب : «أَنَّهُ» بفتح الهمزة^(٣) ، على معنى : لَأَنَّهُ ، وكسر الباقون على الاستئناف.

وأدغم الهاءُ في الهاءِ أبو عمرو وعيسى وطلحة ؛ فيما حكى أبو حاتم عنهم^(٤).
وقيل : لا يجوز ؛ لأنَّ بينهما واواً في اللفظ ، لا في الخط. قال النحاس^(٥) : أجاز سيويه^(٦) أن تُحذَفَ هذه الواو ، وأنشد :

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرٌ^(٧)
فعلى هذا يجوزُ الإدغامُ.

(١) في (د) : لما لم تكن تانيثاً ، وفي (ظ) : تانيثه قوياً حقيقياً.

(٢) وهو مذهب أبي عمرو بن العلاء من السبعة في رواية السوسي. التذكرة لابن غلبون ١/ ١٢٣ ، والنشر لابن الجزري ١/ ٢٨٢ و ٢/ ٢١١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٣١. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ إلى العباس بن الفضل.

(٤) نقله عنه أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٥.

(٥) إعراب القرآن ١/ ٢١٥ ، وهي رواية السوسي.

(٦) الكتاب ١/ ٢٩-٣٠.

(٧) البيت للشَّمَاخ بن ضرار الدُّبَيَّاني ، وهو في ديوانه ص ١٥٥ ، والرواية فيه : له زجلٌ تقولُ أصوْتُ حَادٍ. وحيثُ فلا شاهد فيه.

والزَّجَلُ : صَوْتُ فيه حنينٌ وترنمٌ ، والوسيقة : أنثى الحمار ؛ يصف حمار وحش هائجاً ، فيقول : إذا طلب أنثاه صَوْتُ بها ، فكان صوته لما فيه من الحنين وحسن التطريب صَوْتُ حَادٍ يَبْلُ يَتَغَنَّى فَيَطْرِبُهَا ، أو صَوْتُ مَزمار. شرح الشواهد للشتمري ص ٦٤.

و«هو» رفعً بالابتداء، «التَّوَابُ» خبره، والجملة خبر «إِنَّ»، ويجوز أن يكون «هو» تأكيداً للهاء، ويجوز أن تكون فاصلةً، على ما تقدّم^(١).

وقال سعيد بن جبير: لما أهيّط آدم إلى الأرض لم يكن فيها شيء غير النَّسْرِ في البرِّ، والحوثِ في البحر، فكان النَّسْرُ يأوي إلى الحوث، فيبيتُ عنده، فلمَّا رأى النَّسْرُ آدم قال: يا حوث، لقد أهيّط اليوم إلى الأرض شيء يمشي على رجله، ويبطش بيديه! فقال الحوث: لئن كنت صادقاً، مالي منه في البحر منجى، ولا لك في البرِّ منه مخلص^(٢)!

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾: كرّر الأمر على جهة التخليط وتأكيده، كما تقول لرجل: قُمْ قُمْ، وقيل: كرّر الأمر لما علّق بكل أمرٍ منهما حكماً غير حكم الآخر، فعلّق بالأوّل العداوة، وبالثاني إتيان الهدى.

وقيل: الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض^(٣). وعلى هذا يكون فيه دليل على أنّ الجنة في السماء السابعة، كما دلّ عليه حديث الإسراء^(٤)، على ما يأتي.

﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال.

(١) ص ٣١٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٧٨/٤. والخبر - على أنه مقطوع - من رواية محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، عن يعقوب بن عبد الله القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة القمي، عن سعيد بن جبير. وجعفر هذا ليس بالقوي في سعيد بن جبير. تهذيب التهذيب.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٣١.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) (٢٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وهو في المسند (١٧٨٣٣)، وسيورده المصنف من حديث أنس في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.

وأخرج أبو نعيم في الحلية ١٠٣/٧ عن عبد الله بن مسعود قال: الجنة في السماء السابعة العليا، ثم قرأ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَفِي عَلَيْتٍ﴾.

وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: لَمَّا هَبَطَ^(١) آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ إِبْلِيسُ لِلسَّبَاعِ: إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكُمْ فَأَهْلِكُوهُ. فَاجْتَمَعُوا وَوَلَّوْا أَمْرَهُمْ إِلَى الْكَلْبِ، وَقَالُوا: أَنْتَ أَشْجَعُنَا، وَجَعَلُوهُ رَئِيسًا؛ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَحَيَّرَ فِي ذَلِكَ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لَهُ: امْسُخْ يَدَكَ عَلَى رَأْسِ الْكَلْبِ، ففعل، فَلَمَّا رَأَتْ السَّبَاعُ أَنَّ الْكَلْبَ أَلْفَ آدَمَ تَفَرَّقُوا، وَاسْتَأْمَنَهُ الْكَلْبُ فَأَمِنَهُ آدَمُ، فَبَقِيَ مَعَهُ وَمَعَ أَوْلَادِهِ^(٢).

وقال الترمذيُّ الحَكِيمُ نَحْوَ هَذَا^(٣)، وَأَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ جَاءَ إِبْلِيسُ إِلَى السَّبَاعِ، فَأَشْلَاهُمْ عَلَى آدَمَ^(٤) لِيُؤْذِيَهُ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ عَلَيْهِ الْكَلْبُ، فَأُمِيتَ فُؤَادُهُ، فَرُويَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَوَضَعَهَا، فَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَأَلْفَهُ، فَصَارَ مَمَّنْ يَحْرُسُهُ وَيَحْرُسُ وَلَدَهُ وَيَأْلُقُهُمْ، وَبِمَوْتِ فُؤَادِهِ يَفْزَعُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، فَلَوْ رُمِيَ بِمَدْرٍ^(٥) لَوَلَّى^(٦) هَارِبًا، ثُمَّ يَعُودُ أَلْفًا لَهُمْ، ففیه شعبةٌ من إِبْلِيسَ، وَفِيهِ شعبةٌ من مَسْحَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ بِشعبةِ إِبْلِيسَ يَنْبُحُ وَيَهْرُ وَيَعْدُو عَلَى الْآدَمِيِّ، وَبِمَسْحَةِ آدَمَ مَاتَ فُؤَادُهُ، حَتَّى ذَلَّ وَانْقَادَ وَأَلْفَ بِهِ وَبَوْلَدِهِ يَحْرُسُهُمْ، وَلَهْتُهُ عَلَى كُلِّ أَحْوَالِهِ مِنْ مَوْتِ فُؤَادِهِ، وَلِذَلِكَ شَبَّهَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعُلَمَاءُ السَّوَاءَ بِالْكَلبِ - عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي الْأَعْرَافِ^(٧) - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْعَصَا الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ آيَةً لِمُوسَى^(٨)، فَكَانَ يَطْرُدُ بِهَا السَّبَاعَ عَنْ نَفْسِهِ.

(١) فِي (د) وَ(ظ): أَهْبَطَ.

(٢) ذَكَرَ نَحْوَ هَذَا الْخَبَرِ سَبِطُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي مِرَاةِ الزَّمَانِ ٢٠٥/١، وَهُوَ وَالْخَبَرُ الَّذِي بَعْدَهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ التَّالِفَةِ.

(٣) لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ فِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ.

(٤) قَوْلُهُ: أَشْلَاهُمْ عَلَى آدَمَ، أَيُّ: أَغْرَاهُمْ بِهِ. قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: أَجَازَ الْكِسَائِيُّ: أَشْلَيْتُ الْكَلْبَ عَلَى الصَّيْدِ بِمَعْنَى أَغْرَيْتُهُ. اللَّسَانُ: (شَلَا).

(٥) الْمَدْرُ: الطِّينُ اللَّزِجُ الْمَتَمَاسِكُ، الْقِطْعَةُ مِنْهُ: مَدْرَةٌ. الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ.

(٦) فِي (م): وَلَّى.

(٧) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (١٧٦) مِنْهَا.

(٨) لَيْسَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ صَحِيحٌ.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا تُقْرَبُوا السُّفَهَاءَ﴾ اختلف في معنى قوله: «هُدَى»: فقيل: كتاب الله. قاله السُّدِّيُّ^(١). وقيل: التوفيق للهداية. وقالت فرقة: الهدى: الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر، كما جاء في حديث أبي ذر، وخرجه الآجُرِّيُّ^(٢). وفي قوله: «مِنِّي» إشارة إلى أن أفعال العباد خُلِقَ لله تعالى، خلافاً للقدرة وغيرهم، كما تقدّم.

وقرأ الجَحْدَرِيُّ: «هُدَيَّ»^(٣)، وهي^(٤) لغة هُذَيْل، يقولون: هُدَيَّ وَعَصَيَّ وَمَخَيَّ^(٥). وأنشد النحويون لأبي ذؤيب يرثي بنيه:

سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمْ فَتُخَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضَرَعٌ^(٦)
قال النحاس^(٧): وعلة هذه اللغة عند الخليل وسيبويه^(٨) أن سبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها، فلما لم يجز أن تتحرك الألف، أبدلت ياء وأدغمت.

و«ما» في قوله: «إِنَّمَا» زائدة على «إِنْ» التي للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله: «فَمَنْ تَبَعَ»، و«مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، و«تَبَعَ» في موضع جزم بالشرط، «فَلَا خَوْفٌ» جوابه. قال سيبويه: الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول. وقال الكسائي: «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» جواب الشرطين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الخوف: هو الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل. وخاؤفني فلان فحَفَّتْه، أي: كنت أشدَّ خوفاً منه. والتخوف:

(١) زاد المسير ٧١/١.

(٢) لم نقف عليه عنده، ولعل المصنف يريد الحديث السالف ص ٣٩٥.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٥ لابن أبي إسحاق. وأوردها ابن جني في المحتسب ٧٦/١، وزاد نسبتها لأبي الطفيل، وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر الثقفي.

(٤) في (د): على، وفي (م): وهو.

(٥) يعني في: هُدَيَّ وَعَصَيَّ وَمَخَيَّ.

(٦) البيت في المفضليات ص ٤٢١، وديوان الهذليين ص ٢، والمحتسب لابن جني ٧٦/١، وأمالى ابن

الشجري ٤٢٩/١، وشرح المفصل ٣٣/٣.

(٧) إعراب القرآن ٢١٦/١.

(٨) الكتاب ٤١٤/٣.

التنقُّص، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]. وقرأ الزُّهريُّ والحسن وعيسى بنُ عمر^(١) وابنُ أبي إسحاق ويعقوب: «فلا خوف» بفتح الفاء على التبرئة^(٢)، والاختيارُ عند النحويين الرفعُ والتنوينُ على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفة، لا يكون فيه إلا الرفع، لأنَّ «لا» لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأوَّل الرفعَ أيضاً ليكونَ الكلامُ من وجهٍ واحد. ويجوزُ أن تكون «لا» في قولك: فلا خوف، بمعنى «ليس».

والْحُزْنَ وَالْحَزْنَ: ضدُّ السُّرور، ولا يكونُ إلا على ماضٍ، وحَزَنَ الرجلُ - بالكسر - فهو حَزِينٌ وحَزِينٌ، وأحزَنَه غيره وحَزَنَه أيضاً، مثل: أسلَكه وسلَكه، ومحزونٌ بُني عليه. قال اليزيديُّ^(٣): حَزَنَه لغةٌ قريش، وأحزَنَه لغةٌ تميم، وقد قُرئَ بهما. واحْتَزَنَ وتحَزَّنَ بمعنى^(٤).

والمعنى في الآية: فلا خَوْفٌ عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. وقيل: ليس فيه دليلٌ على نفي أهوالِ يومِ القيامة وخوفها على^(٥) المطيعين؛ لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائدِ القيامة، إلا أنه يُحَقِّقُه عن^(٦) المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أشركوا، لقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

(١) أبو عمر الثقفى، البصري، إمام النحو، كان صديقاً لأبي عمرو بن العلاء، وأخذ القراءة عرضاً عن عبد الله بن أبي إسحاق وابن كثير المكي. السير ٧/ ٢٠٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢١٦/١، والمحور الوجيز ١٣٢/١. و«لا» التبرئة، يعني النافية للجنس. وقراءة يعقوب من العشرة. النشر ٢١١/٢.

(٣) في (ظ): الترمذي، وهو خطأ.

(٤) الصحاح (حزن).

(٥) في (ظ): عن.

(٦) في (د) و(ظ): على.

الصُّحْبَة: الاقتِرَانُ بالشَّيْءِ فِي حَالَةٍ مَا، فِي زَمَانٍ مَا، إِنْ كَانَتِ الْمَلَاذِمَةُ وَالْخُلُطَةُ؛ فَهِيَ كَمَالُ الصُّحْبَةِ، وَهَكَذَا هِيَ صَحْبَةُ أَهْلِ النَّارِ لَهَا^(١). وَبِهَذَا الْقَوْلِ يَنْفَكُ الْخِلَافُ فِي تَسْمِيَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ إِذْ مَرَاتِبُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ، عَلَى مَا نُبَيِّنُهُ فِي «بِرَاءة» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢)، وَبَاقِي الْفَافِ الْآيَةِ تَقَدَّمَ مَعْنَاهَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

تَمَّ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ وَيَلِيهِ
الْجُزْءُ الثَّانِي، وَأَوَّلُهُ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي
فَارْهَبُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

(١) المحرر الوجيز ١/١٣٢.

(٢) في تفسير الآية (٤٠) منها.

فهرس الجزء الأول

- ١ مقدمة الناشر
- ٥ تقديم الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
- ٩ مقدمة التحقيق
- ٥ ترجمة المصنف
- ٩ باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارته ومستمعه والعامل به
- ١٨ باب كيفية التلاوة لكتاب الله وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك
- ٣٢ باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره
- ٣٧ باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه
- ٤١ باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معرباً
- ٤٦ باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله
- ٤٧ باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو، وفيمن عاداه
- ٤٨ باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة
- ٥٦ باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين ...
- ٦٤ باب تبين الكتاب بالسنة وما جاء في ذلك
- باب كيفية التعلّم والفقه بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه
- ٦٨ سهّل على من تقدم العمل به دون حفظه
- باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا
- ٧١ ما تيسر منه
- فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام رضي الله عنهما في أن القرآن أنزل على سبعة
- ٨٠ أحرف
- باب ذكر جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ
- ٨٣ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم
- ٩٠ فصل في القراءة والتلاوة
- ٩٢ فصل في طعن الرافضة في القرآن
- باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتشييره وعدد حروفه
- ٩٦ وأجزائه وكلماته وآياته
- ١٠١ فصل في شكل المصحف ونقطه
- ١٠٢ فصل في وضع الأعشار
- ١٠٤ فصل في عدد حروفه وأحزابه
- ١٠٥ فصل في عدد آي القرآن في المدني الأول
- ١٠٦ باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف
- ١١٠ باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا؟

- باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها ١١٢
- فصل في المعجزات ١١٥
- باب التنبيه على أحاديث وُضعت في فضل سور القرآن وغيرها ١٢٢
- باب ما جاء من الحجّة في الردّ على من طعن في القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان ١٢٦
- باب القول في الاستعاذة ١٣٥
- باب القول في البسملة وفيه ثمان وعشرون مسألة ١٤٢
- تفسير سورة الفاتحة، وفيها أربعة أبواب:
- الباب الأول: في فضلها وأسمائها ١٦٦
- الباب الثاني: في نزول الفاتحة وأحكامها ١٧٦
- الباب الثالث: في التأمين بعد قراءة الفاتحة ١٩٥
- الباب الرابع: فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ٢٠٢
- تفسير سورة البقرة
- الكلام في نزولها وفضلها وما جاء فيها ٢٣٤
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلشَّاقِينَ﴾ [١-٢] ٢٣٧
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٣] ٢٥١
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [٤] ٢٧٥
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥] ٢٧٧
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٦] ٢٨٠
- قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ...﴾ [٧] ٢٨٤
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٨] ٢٩٣
- قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَشْئُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩] ٢٩٧
- قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾ [١٠] ٢٩٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [١١] ٣٠٤
- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [١٢] ٣٠٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ...﴾ [١٣] ٣١٠
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَعَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ [١٤] ٣١٢
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١٥] ٣١٤
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ...﴾ [١٦] ٣١٨
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا...﴾ [١٧] ٣٢٠
- قوله تعالى: ﴿صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَمَهٌ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [١٨] ٣٢٣
- قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَرَقٌّ...﴾ [١٩] ٣٢٥
- قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ...﴾ [٢٠] ٣٣٤
- قوله تعالى: ﴿يَتْلَاهَا النَّاسُ عَنِذُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢١] ٣٣٩

- قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾ [٢٢] ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿وَرَبَّ نَارًا عَلَىٰ عَذِيبٍ قَاتِلًا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ...﴾ [٢٣] ٣٤٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ...﴾ [٢٤] ٣٥١
- قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ [٢٥] ٣٥٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً...﴾ [٢٦] ٣٦٣
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾ [٢٧] ٣٦٩
- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَنَافِتًا فَالْحِجَابُ...﴾ [٢٨] ٣٧٣
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ...﴾ [٢٩] .. ٣٧٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [٣٠] ٣٩١
- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...﴾ [٣١] ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا...﴾ [٣٢] ٤٢٥
- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكادُمُ الْيَهُودُ بِأَسْمَائِهِمْ...﴾ [٣٣] ٤٣٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى...﴾ [٣٤] ٤٣٣
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَكادُمُ الشَّيْطَانُ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ...﴾ [٣٥] ٤٤٥
- قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ...﴾ [٣٦] ٤٦٣
- قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...﴾ [٣٧] ٤٨٠
- قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا...﴾ [٣٨] ٤٨٦
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٣٩] ٤٨٩
- الفهرس ٤٩١